الفرج بعد الشدة

للقاضي أبي علي المحسن بن أبي القاسم التنوخي

(٣٢٧ - ٣٨٤)



الأصل مأخوذ عن نسخة خطية محفوظة
بدار الكتب المصرية



الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى
١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م
الطبعة الثانية
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

ترجمة المؤلف

قال ابن خلكان : هو أبو على المحسن بن أبى القاسم على بن محمد بن أبى الفهم داود بن إبراهيم التنوخى . ولد ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالبصرة . وسمع بها من أبى العباس الأشرم ، وأبى بكر الصولى ، والحسين بن محمود بن عثمان . ونزل ببغداد وأقام بها وحدث إلى حين وفاته .

وكان : سماعه صحيحا وأول سماعه الحديث فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، وكان من العلماء الحفاظ ، والشعراء المجيدين وفيه يقول أبو عبدالله ابن الحجاج الشاعر :

إذا ذكر القضاة وهم شيوخ تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرض لم اصفعه إلا بحضرة سيدى القاضى التنوخى

وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه .

له مؤلفات منها : كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب نشوان المحاضرة ، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد . وتولى القضاء من قبل أبى السائب عتبة بن عبيد الله فى بابل والقصر وما والاهما فى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، ثم ولاه الإمام المطيع لله القضاء بعسكر مكرم وايذج ورامهرمز وتقلد بعد ذلك أعمالا كثيرة فى أماكن مختلفة ومن شعره قوله :

قل للمليحة فى الخمار المذهب أفسدت نسك أخى التقى المترهب
نور الخمار ونور خدك تحته عجبا لوجهك كيف لم يتلهب
وجمعت بين المذهبين فلم يكن للحسن عن مذهبهما من مذهب
فإذا أتت عين لتسرق نظرة قال الشعاع لها اذهبى لاتذهبى

وكتب رحمه الله تعالى إلى بعض الرؤساء فى شهر رمضان :

نلت فى ذا الصيام ما ترتجيه ‏ ‏ وكفاك الإله ماتتقيه
أنت فى الناس مثل شهرك فى الأشهر ‏ ‏ بل مثل ليلة القدر فيه

ومن شعره فى بعض المشايخ وقد خرج ليستق ، وكان فى السماء سحاب فلما دعا أصحت السماء فقال أبو على

خرجنا لنستسق بيمن دعائه ‏ ‏ وقد كان هدب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشفت السما ‏ ‏ فما تم إلا والغمام قد انقضا

وكانت وفاته رحمه تعالى ببغداد ليلة الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وماتوفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب

الحمد لله الذى جعل بعد الشدة فرجا ، ومن الضيق سعة ومخرجاً ، ولم يخل محنة من منحة ، ولا نقمة من نعمة ، ولا نكبة ورزية ، من موهبة وعطية ، وصلى الله على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

﴿ أما بعد ﴾ : فانى لما رأيت أبناء الدنيا متقلبين فيها بين خير وشر ، ونفع وضر ، ولم يكن لهم فى أيام الرخاء ، أنفع من الشكر والثناء ، ولا فى أيام البلاء ، أنجع من الصبر والدعاء ، لأن من جعل الله عمره أطول من محنته ، فانه سيكشفها عنه بطوله ورأفته ، فيصير ماهو فيه من الأذى ، كما قال بعض من مضى ، ويروى للأغلب العجلى أوغيره :

الغمرات ثم ينجلينا ثمت يذهبن فلا يجينا

وطوبى لمن وفق فى الحالين ، للقيام بالواجبين . وجدت من أقوى ما يفزع اليه ، من أناخ الدهر بمكروهه عليه ، قراءة الأخبار التى تنبىء عن تفضل الله عز وجل على من حصل قبله فى محصله ، ونزل به مثل بلائه ومعضله ، بما أتاحه الله تعالى له من صنيع أسهل به الارزاق ، ومعونة حل بها الخناق ، ولفظ غريب نجاه ، وفرج عجيب أنقذه وتلافاه ، وإن خفيت من ذلك الأسباب ، ولم يبلغ ماحدث منه الفكر والحساب ، فان فى معرفة الممتحن بذلك تشحيذ بصيرته للصبر ، وتقوية عزيمته على التسليم لله مالك كل أمر ، وتصويب رأيه فى الاخلاص ، والتفويض إلى من بيده ملك النواصى ، وكثيراً إذا علم الله تعالى من وليه وعبده ، انقطاع آماله إلا من

عنده ، لم يكله إلى سعيه وجهده ، ولم يرض له باحتماله وطوقه ، ولم يخله من عنايته ورفقه ، وأنا بمشيئة الله تعالى جامع فى هذا الكتاب ، أحياناً من هذا الجنس والباب ، أرجو به انشراح صدور ذوى الألباب ، عند ما يدهمهم من شدة ومصاب ، إذ كنت قد قاسيت من ذلك فى محن دفعت اليها ما يحنو بى على الممتحنين ، ويحدو بى على بذل الجهد فى تفريج غموم المكروبين ، وكنت قد وقفت فى بعض محنى على خمس أوست أوراق جمعها أبو الحسن على بن محمد المدايني ، وسماها : « كتاب الفرج بعد الشدة والضيق » ، وذكر فيها أخباراً تدخل جميعها فى هذا المعنى فوجدتها حسنة ولكنها لقلتها نموذج صغير ، ولم يأت بها مؤتلفة ، ولا سلك بها سبيل الكتب المصنفة ، ولا الابواب الواسعة المؤلفة ، مع اقتداره على ذلك ، ولا أعلم غرضه فى التقصير ، ولعله أراد أن ينهج طريق هذا الفن من الأخبار ، ويسبق إلى فتح الباب فيه بذلك المقدار ، وينقل جميع ما عنده فيه من الآثار .

ووقع إلى كتاب لأبى بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا قد سماه : « كتاب الفرج بعد الشدة » ، فى نحو عشرين ورقة والغالب فيه أحاديث عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وأخبار عن الصحابة والتابعين رحمهم الله تعالى يدخل بعضها فى معنى طلبته ، ولا يخرج عن قصده وبغيته وباقيها أحاديث وأخبار فى الدعاء والصبر ، والارزاق ، والتوكل ، والتعرض ، للشدائد بذكر الموت ، وما يجرى مجرى التعازى ويتسلى به عن طوارق الهموم ، ونوازل الاحداث والغموم ، ويستحق عليها من الثواب فى الاخرى ، مع التمسك بالحزم فى الأولى . وهو عندى خال من ذكر فرج بعد شدة ، غير مستحق أن يدخل فى كتاب مقصور على هذا الفن ، وضمن الكتاب نبذاً قليلة من الشعر ، وروى فيه شيئاً يسيراً جداً مما ذكره المدايني ، إلا أنه جاء به بلا اسناد له الا عن المدايني .

وقرأت أيضاً كتاباً للقاضى أبى الحسين عمر بن القاضى أبى عمر محمد بن يوسف القاضى رحمهم الله فى مقدار خمسين ورقة قد سماه : « كتاب الفرج بعد الشدة » . أودعه أكثر مارواه المدايني وجمعه وأضاف اليه أخباراً أخر

أكثرها حسنة وفيهاماهوغير مماثل عندى لمامعناه ، ولامشاكل للمانحاه ، وأتى فىأثنائها بأبيات شعريسيرة ، منمعادن لامثالهاجمة كثيرة ، ولميلم بما أورده ابنأبى الدنيا ، ولاأعلم تعمد ذلك أم لميقف علىالكتاب؟! ووجدت أبابكر ابن أبى الدنيا والقاضى أبا الحسين لميذكرا للمداينىكتاباً فى هذا المعنى ، فان لم يكونا عرفا هذا فهو طريف ، وان كانا تعمدا ترك ذكره تثقيفاً لكتابيهما وتغطية علىكتابالرجل فهوأطرف ، ووجدتهما قد استحسنا استعارة لقب كتاب المداينى على اختلافهما فى الاستعارة ، وحيدهما عن أن يأتيا بجميع العبارة ، فتوهمت أن كلواحد منهما لمازاد على قدرماأخرجه المداينىاعتقد أنه أولى منه بلقب كتابه ، فان كان هذا الحكم ماضياً ، والصواب به قاضياً ، فيجبأن يكون منزاد عليهما أيضا فيما جمعاه أولى منهما بما تعبا فى تصنيفه ووضعاه ، فكان هذا من أسباب نشاطى لتأليف كتاب يحتوى من هـذا الفن على أكثر مماجمعه القوم ، وأبينللمعنى ، واكشف وأوضح وان خالف مذهبهم فى التصنيف ، وعدل عن طريقهم فى الجمع والتأليف ، فانهم نسقوا ما أودعوه كتبهم جملة واحدة ، وربما صادفت مللا منسامعها ، أو وافقت سآمة من الناظرين فيها ، فرأيت أن أنوع الأخبار واجعلهـا أبوباً ، ليزداد من يقف على الكتب الأربعة بكتابى من بينها اعجاباً ، وأنأضع مافى الكتب الثلاثة فى مواضعه من أبواب هذا الكتاب ، إلا ما اعتقدأنه يجب انلايدخلفيه ، وأن تركه وتعديه أصوب وأولى . والتشاغل بذكر غيره مما هوأدخل فى هذا المعنى ولميذكره القومأليق وأحرى ، وأن أعزو ماأخرجه مما فىالكتب الثلاثة إلىمؤلفيها تأدية للأمانة ، واستيثاقاً فى الرواية ، وتبييناً لما آتى به من الزيادة ، وتنبيها على موضع الإفادة ، فاستخرت الله عز وجل ذكره ، وبدأت بذلك فىهذا الكتاب ولقبته بكتاب : « الفرج بعدالشدة » . تيمنا لقارئه بهذا المقال ، وليستسعد فى ابتدائه بهذا الفال ، ولم أستبشع إعادةهذا اللقب ، ولماحتشم تكريره علىظهور الكتب ، لأنه قد صار جارياً مجرى تسمية رجل ابنه محمداً أومحموداً ، أوسعداً ، أومسعوداً ، وليسلقائل مع التداول لهذين الاسمين أن يقول لمن سمى بهما الآن : انك انتحلت هذا

الاسم أو سرقته . ووجـدتنى متى أعطيت كتابى هذا حقه من الاستقصاء ، وبلغت به حده فى الاستيفاء ، جاء فى ألوف أرواق لطول مامضى من الزمان وان الله سبحانه وتعالى بحكمته أجرى فيه أمور عباده منذ خلقهم ، وإلى أن يقبضهم على التقلب بين شدة ورخاء ، ورغدو بلاء ، وأخذ وعطاء ، ومنع وصنع وضيق ورحب ، وفرج وكرب ، علماً منه تعالى بعواقب الأمور ، ومصلحة الكافة والجمهور ، فأخبار ذلك كثيرة المقدار ، عظيمة الترداد والتكرار ، وليست كلهــا بمستحسنة ولا مستفادة ، ولا مستطابة الذكر والإعادة ، فاقتصرت على أحسن ما رويته من هذه الأخبار ، وأصح مابلغنى فى معانيها من الآثار ، واملح ماوجدت فى فنونها من الاشعار ، وجعلت قصدى إلى الايجاز والاختصار ، واسقاط الحشو وترك الاكثار وان كان المجتمع من ذلك جملة يستطيلها الملول ، ولا يتفرغ لقراءتها المشغول ، وأنا راغب إلى من يصل كتابى هذا اليه ، وينشط للوقوف عليه ، أن يصفح عما يعثر به من زلل ، ويصلح ما يجد فيه من خطأ أو خلل ، والله اسأل السـلامة من المعاب ، والتوفيق لبلوغ المحاب والارشاد إلى الصواب ، ويفعل الله ذلك بكرمه انه جواد وهاب .

* * *

الباب الأول

فيما أنبأ الله تعالى به فى القرآن من ذكر الفرج بعد البؤس والامتحان

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وقوله الحق اليقين بسم الله الرحمن الرحيم : (ألم نشرح لك صدرك ۝ ووضعنا عنك وزرك ۝ الذى انقض ظهرك ۝ ورفعنا لك ذكرك ۝ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب ۝ وإلى ربك فارغب(١)) فهذه السورة كلها مفصحة باذكار الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم منته عليه فى شرح صدره بعد الغم والضيق ووضع وزره عنه ، وهو الاثم بعد انقاض الظهر ، وهو الثقل الذى أثقله لنقض العظام كما ينتقض البيت إذا صوت للوقوع . ورفع جل جلاله ذكره بعد ان لم يكن بحيث جعله مذكوراً معه ، والبشارة له فى نفسه عليه الصلاة والسلام وفى أمته بأن مع اليسر الواحد يسرين إذا رغبوا إلى الله تعالى ربهم وأخلصوا له طاعاتهم ونياتهم وقال الله تعالى : (سيجعل الله بعد عسر يسراً(٢)) (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ۝ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٣)) وقال جل ثناؤه : (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه ـ إلى قوله ـ اعلم أن الله على كل شىء قدير(٤)) فأخبر الله تعالى ان الذى مر على القرية استبعد أن يكشف الله عنها وعن أهلها البلاء بقوله : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه) إلى آخر القصة فلا شدة أشد من الموت والخراب ، ولا فرج أفرج من الحياة أو العمارة . فأعلمه الله تعالى بما فعله به أنه لا يجب أن يستبعد فرجاً من الله وصنعاً كما عمل به ، وانه قادر على أن يحيى القرية وأهلها كما أحياه الله تعالى فأراه بذلك آياته ومواضع صنعه وقال جل ثناؤه : (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه(٥))

(١) الشرح ١ - ٨ . (٢) و (٣) الطلاق ٧ و ٢ - ٣ (٤) البقرة ٢٥٩
(٥) الزمر ٣٦

وقال سبحانه : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١)) وقال جل من قائل : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين(٢)) وقال جل من قائل (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون(٣)) وقال جل ثناؤه : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد(٤)) وقال جل ذكره : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون(٥)) وقال جل من قائل : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءاله مع الله قليلا ما تذكرون(٦)) وقال تعالى : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين(٧)) وقال تعالى : (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب(٨)) وقال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون(٩)) وقال تعالى : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من

---

(١) و (٢) يونس ١٢ و ٢٢ (٣) الانعام ٦٣ و ٦٤ (٤) إبراهيم ١٣ و ١٤
(٥) القصص ٥ و ٦ (٦) النحل ٦٢ (٧) المؤمن ٦٠ (٨) المؤمن ٤٤ و ٤٥
(٩) البقرة ١٨٦

ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١)) وقال عز من قائل: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم (٢))

وروى عن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس وقد عرف ماجعل لمن قالهن. قوله: (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع إلى ـ قوله ـ هم المهتدون(٣)) وقوله تعالى: (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات مامكروا(٤)) وقوله تعالى: (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين(٥)) وقوله: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ـ إلى قوله ـ والله ذو فضل عظيم(٦)) وقوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ـ إلى قوله ـ وذكرى للعابدين (٧))

وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه أيضاً أنه قال: من لزم قراءة هذه الآيات فى الشدائد كشفها الله تعالى عنه، لأنه قد وعد وحكم فيهن بما جعله لمن قالهن وحكمه تعالى لا يبطل، ووعده لا يخلف. وقد ذكر تعالى فيما قصه من أخبار الأنبياء شدائد ومحناً استمرت على جماعة منهم وضروباً جرت عليهم من البلاء فأعقبها بفرج وتخفيف، وتداركهم منها بصنع جليل لطيف.

* * *

فأول ممتحن منهم آدم عليه السلام أبو البشر فان الله جل جلاله خلقه فى الجنة وعلمه الأسماء كلها وأسجد الملائكة له، ونهاه عن أكل الشجرة. فوسوس له الشيطان، فكان منه ماقاله الرحمن فى محكم القرآن: (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى(٨)) هذا بعد أن أهبطه من الجنة إلى الأرض

(١) البقرة ١٥٥ ـ ١٥٧ (٢) آل عمران ١٧٣ و ١٧٤ (٣) البقرة ١٥٥
(٤) المؤمن ٤٤ و٤٥ (٥) الأنبياء ٨٧ (٦) آل عمران ١٧٣
(٧) الأنبياء ٨٣ (٨) طه ١١٨

وأفقده لذيذ ذلك الخفض ، فانتقضت عادته ، وعلظت محنته ، وقتل أحد ابنيه الآخر، وكانا أول أولاده . فلما طال حزنه وبكاؤه ، واتصل استغفاره ودعاؤه ، رحم الله تذلله وخشوعه، واستكانته ودموعه ، فتاب عليه وهداه وكشف مابه ونجاه فكان آدم صلى الله عليه وسلم أول من دعا فأجيب ، وامتحن فأثيب ، وخرج من ضيق وكرب ، إلى سعة ورحب ، وسكن همومه ، ونسى غمومه ، وأيقن بتجديد الله تعالى له النعم ، وإزالته عنه النقم ، وانه تعالى إذا استرحم رحم ، فأبدله الله تعالى هذا بتلك الشدائد ، وعوضه بدل الابن المفقود والابن العاق الموجود نبى الله شيثاً عليه السلام وهو أول أولاده البررة بالوالدين ، ووالد النبيين والصالحين ، وأبو الملوك الجبارين وجعل ذريته هم الباقين وخصهم من النعم بما لايحيط به وصف الواصفين وقد جاء فى القرآن من الشرح لهذه الجملة والبيان ، مالا يحتمل ذكره هذا المكان ، وقد روى فيه من الأخبار ، مالا وجه للإطالة به والاكثار .

* * *

ثم نوح عليه السلام فانه امتحن بخلاف قومه عليه ، وعصيان ابنه له ، والطوفان العام ، وركوب السفينة وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، واعتصام ابنه بالجبل وتأخره عن الركوب معه . فقاسى نوح بذلك الشدائد ، فأعقبه الله تعالى الخلاص من تلك الاهوال بالتمكين له فى الأرض ، وبغيض الطوفان وجعله شبه آدم عليه الصلاة والسلام ، لأنه أنشأ منه ثانياً جميع البشر كما أنشأهم أولا من آدم فلا ولد لآدم إلا من نوح عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين(١)) . (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم(٢))

* * *

ثم ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وما وقع له من كسر الأصنام ، وما لحقه من قومه من محاولة احراقه ، فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً .

(١) الصافات ٧٥ - ٧٨ (٢) الأنبياء ٧٦

وقال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين (١)) ثم اقتص قصته فى قوله تعالى : (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ۝ قلنا : يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم ۝ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ۝ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ۝ - إلى قوله تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا (٢)) وما كلفه الله تعالى إياه من مفارقة وطنه بالشام لما غارت عليه سارة من أم ولده هاجر ، فهاجر بها وبابنه منها اسماعيل الذبيح عليه السلام فأسكنهما بواد غير ذى زرع ، نازحين بعيدين منه ، حتى أنبع الله عز وجل لهما الماء ، وتابع عليهما النعماء ، وأحسن لإبراهيم فيهما الصنع . والفائدة النفع . وجعل لإسماعيل النسل والنبوة والعدد والملك هذا بعد أن كان أمر سبحانه وتعالى ابراهيم عليه السلام أن يجعل ابنه اسماعيل لسبيل الذبح . قال الله تعالى فيما اقتصه من ذكره فى سورة الصافات : (فبشرناه بغلام حليم ۝ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ۝ فلما أسلما وتله للجبين ۝ وناديناه أن ياإبراهيم ۝ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ۝ إن هذا لهو البلاء المبين ۝ وفديناه بذبح عظيم ۝ وتركنا عليه فى الآخرين (٣)) فلا بلاء أعظم من بلاء شهد الله جل ثناؤه أنه بلاء مبين ، وهو تكليف إنسان أن يجعل سبيل الذبح ابنه وتكليفه هو والمذبوح أن يؤمنا ويصبرا ويسلما ويحتسبا . فلما أديا ما كلفا من ذلك وعلم الله جل جلاله منهما صدق الإيمان ، والصبر ، والتسليم ، والاذعان ، فدى الابن بذبح عظيم ، وخلصهما من تلك الشدائد الهائلة

° ° °

ومن هذا الباب قصة لوط عليه السلام لما نهى قومه عن الفاحشة فعصوه وكذبوه ، وتضيفه الملائكة عليهم السلام فطالبوه بما طالبوه

---

(١) الأنبياء ٥١ (٢) الأنبياء ٦٨ - ٧٢ (٣) الصافات ١٠١ - ١٠٨

فخسف الله تعالى بهم أجمعين ، ونجى لوطا وأثابه ثواب الشاكرين ، وقد نطق بهذا كلام الله العظيم فى مواضع من الذكر الحكيم

* * *

ويعقوب ويوسف عليهما السلام ، فقد أفرد الله تعالى بذكر شأنهما وعظم بلواهما وامتحانهما سورة محكمة بين فيها حسد إخوة يوسف له على المنام الذى بشره الله فيه بغاية الإكرام ، حتى طرحوه فى الجب فخلصه الله تعالى منه بمن أدلى الدلو ثم استعبد ، فألقى الله عز وجل فى قلب من صار اليه إكرامه واتخاذه ولداً ، ثم مراودة امرأة العزيز إياه عن نفسه ، وعصمة الله له منها وكيف جعل عاقبته بعد الحبس إلى ملك مصر ، وما لحق يعقوب من العمى لفرط البكاء وما لحق إخوة يوسف من التثريب وحبس أحدهم نفسه حتى يأذن له أبوه ، أو يحكم الله له ، وكيف أنفذ يوسف عليه السلام إلى أبيه عليه السلام قميصه حتى رده الله عز وجل به بصيراً ، وجمع بينهم وجعل كل واحد منهم بالنعمة مسروراً .

* * *

وأيوب عليه السلام وما امتحن به من الأسقام وعظم اللأواء ، والدود ، والادواء ، وقد جاء القرآن الكريم بذكره ، ونطقت الأخبار بشرح أمره قال الله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ٭ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (١))

* * *

ويونس عليه السلام وما اقتص الله عز وجل من قصته فى موغير موضع من كتابه العزيز ذكر فيها التقام الحوت له وتسبيحه فى بطنه وكيف نجاه الله تعالى وأعقبه بالرسالة والصنع قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين ٭ إذ ابق إلى الفلك المشحون ٭ فساهم فكان من المدحضين — إلى

(١) الأنبياء ٨٣

قوله ـ فمتعناهم إلى حين(١)) ومنها قوله (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ۞ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين(٢))

قال بعض المفسرين معنى : أن لن نقدر عليه أى نضيق عليه وهذا مثل قوله تعالى : (ومن قدر عليه رزقه(٣)) أى من ضيق عليه رزقه ومثل قوله تعالى : ((قل) إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين(٤)) وقد جاء قدر فى القرآن بمعنى ضيق فى مواضع كثيرة . ومن هذا قيل للفرس الضيق الخطو فرس أقدر . لأنه لا يجوز أن يهرب من الله تعالى نبى من أنبيائه ، ومن ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه أى لا يدركه ، وأنه يعجز الله هرباً فقد كفر . والأنبياء عليهم السلام أعلم بالله سبحانه من أن يظنوا فيه هذا الظن الذى هو كفر . وقد روى أنه من أدام قراءة (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ـ إلى قوله ـ ننجى المؤمنين(٥)) فى الصلاة وغيرها فى أوقات شدائده عجل الله له الفرج ، وأنا أحد من واظبتها فى نكبة عظيمة لحقتنى يطول ذكرها عن هذا الموضع وقد كنت حبست وهددت بالقتل ، ففرج الله سبحانه وتعالى عنى وأطلقت فى اليوم التاسع من حين قبضت .

* * *

وموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام فقد نطق القرآن بقصصه فى غير موضع منها قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ۞ ـ إلى قوله ـ ولكن أكثرهم لا يعلمون (٦)) فلا شدة أعظم من أن يبتلى الناس بملك يذبح أبناءهم ، حتى ألقت أم موسى ابنها فى البحر ،

(١) الصافات ١٣٩ - ١٤٨ (٢) الأنبياء ٨٧ (٣) الطلاق ٧
(٤) سبأ ٣٩ (٥) الأنبياء ٨٨ (٦) القصص ٧ - ١٣

ولا شدة أعظم من حصول طفل فى بحر فكشف الله سبحانه ذلك عنه بالتقاط آل فرعون له ، وما ألقاه فى قلوبهم من الرأفة عليه حتى استحبوه، وحرم عليه المراضع حتى رده إلى أمه وكشف عنها الشدة فى فراقه وعنه الشدة فى حصوله فى البحر . ومعنى قوله تعالى : (ليكون لهم عدوا وحزناً(١)) أى يصير عاقبة أمره معهم إلى عداوته لهم وهذه لا العاقبة كما قال الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب وكلكم يصـــير إلى ذهاب

وقد علم أن الولادة لا يقصد بها الموت ، والبناء لا يقصد به الخراب وإنما عاقبة الأمر فيهما أن يصيرا إلى ذلك . وعلى الوجه الأول قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس(٢)) أى عاقبة أمرهم وفعلهم واختيارهم لأنفسهم يصيرهم إلى جهنم فيصيرون لها ، لا أن الله جل ثناؤه خلقهم لقصد تعذيبهم بالنار فى جهنم عز الله تعالى عن الظلم . وقال عز وجل فى تمام هذه القصة : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ٭ فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين(٣)) فهذه شدة أخرى كشفها الله تعالى عنه وقال سبحانه وتعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ـ إلى قوله ـ من خير فقير(٤)) فهذه شدة أخرى لحقته بالاغتراب والحاجة إلى الاضطرار فى المعيشة والاكتساب فوفق الله له شعيباً عليه السلام وزوجه ابنته قال الله تعالى فى تمام القصة : (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف . نجوت من القوم الظالمين (٥))

ثم أخبر الله تعالى فى هذه القصة كيف زوجه شعيب ابنته بعـــد أن استأجره ثمانى حجج ، وانه خرج بأهله من عند شعيب فرأى النار فمضى ليقتبس منها فكلمه الله تعالى وجعله نبياً وأرسله إلى فرعون ، فسأله أن

---

(١) القصص ٨ (٢) الاعراف ٢٣ (٣) القصص ٢٠ و ٢١
(٤) القصص ٢٣ و ٢٤ (٥) القصص ٢٥

يرسل معه أخاه هارون فشد الله عضده به وجعله نبياً معه ، فأى فرج أحسن من فرج من أتى خائفاً هارباً فقيراً قد آجر نفسه ثمانى حجج فجوزى بالنبوة والملك قال الله تعالى : (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون (١)) فهذه شـــدة أخرى لحقت بنى اسرائيل فكشفها الله تعالى عنهم . قال الله تعالى : (وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح(٢)) . (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ه قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون(٣)) وقال تعالى: (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (٤)) . فأخبر تعالى عن صنعه لهم وفلقه البحر لبنى إسرائيل حتى عبروه يبساً ، واغراقه فرعون لما تبعهم فكل ذلك أخبار عن محن عظيمة انجلت بمنح جليلة لا يؤدى شكر الله عليها ويجب على العاقل تأملها ليعرف كنه تفضل الله بكشف الشدائد وإغاثته بإصلاح كل فاسد لمن تمسك بطاعته ، واخلص فى خشيته . واصلح من نيته ، ليسلك من هـذه السبيل ، فانها إلى النجاة من المكاره أوضح طريق وأهدى دليل . وذكر سبحانه وتعالى فى (والسماء ذات البروج(٥)) أصحاب الاخدود ، وروى قوم من أهل الملل المخالفة للإسلام عن كتبهم أشياء فى ذلك فذكرت اليهود : ان أصحاب الاخدود كانوا دعاة إلى الله تعالى وإن ملك بلدهم أضرم لهم ناراً وطرحهم فيها ، فاطلع الله على صبرهم ، وخلوص نياتهم فى دينهم وطاعتهم له فأمر النار أن لا تحرقهم فشوهدوا فيها قعوداً وهى تضرم عليهم ولا تحرقهم ونجوا منها ، وجعل الله دائرة السوء على الملك فأهلكه .

(١) الاعراف ١٢٧ (٢) الاعراف ١٤٢ (٣) الاعراف ١٢٨ و ١٢٩
(٤) الاعراف ١٣٧ (٥) البروج ١

وذكر هؤلاء القوم أن نبياً كان فى بنى اسرائيل بعد موسى عليه الصلاة والسلام بزمان طويل يقال له دانيال ، وان قومه كذبوه فأخذه ملكهم بختنصر فقدمه إلى أسدين كان يجوعهما فى جب فلما علم الله تعالى حسن اتكاله عليه ، وصبره طلباً لما لديه . أمسك عنه أفواه الأسدين حتى قام على رؤسهما برجليه وهى مذللة له غير ضارة فبعث الله تعالى أرميا من الشام حتى خلص دنيال من هذه الشدة وأهلك من أراد هلاك دانيال .

وعضدت روايتهم أشياء رواها أصحاب الحديث منها : ماحدثونى عن عبدالله بن أبى الهذيل قال : إن بختنصر جوع أسدين وأطلقهما فى جب وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه فمكث ماشاء الله ، ثم اشتهى مايشتهى الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرميا وهو بالشام أن اعدد طعاماً وشراباً لدانيال . فقال يارب : أنا بالأرض المقدسة ، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله اليه أن اعدد ما أمرتك به فسأرسل إليك من يحملك ويحمل ماأعددت ففعل ، فأرسل الله اليه من حمله وحمل ما أعد حتى وقف على رأس الجب . فقال دنيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . قال ماجاء بك ؟ قال : أرسلنى اليك ربك . قال : وقد ذكرنى ؟ قال نعم . قال دنيال :

« الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ، والحمد لله الذى لايخيب من دعاه ، والحمد لله الذى من توكل عليه كفاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا وكربتنا ، والحمد الله الذى هو يقيننا ورجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا ، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا »

* * *

وقد ذكر الله تعالى فى محكم التنزيل الشدة التى جرت على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأخيار فيما اقتصه من قصة الغار فقال سبحانه وتعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى

اثنين إذ هما فى الغار — إلى قوله — والله عزيز حكيم (١)) وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خاف أن تلحقه المشركون حين سار عن مكة دخل الغار هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه فاستخفيا فيه فأرسل الله تعالى عنكبوتاً فنسج فى الحال على باب الغار ، وحمامة عششت وباضت وأفرخت للوقت ، فلما انتهى المشركون إلى الغار ورأوا ذلك لم يشكوا أنه غار لم يدخله أحد منذ حين ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر رضى الله عنه ليران أقدامهم ويسمعان كلامهم ، فلما انصرفوا وبعدوا وجاء الليل خرجا فصارا نحو المدينة فورداها سالمين .

وروى أصحاب الحديث أيضاً فى شرح حال النبى صلى الله عليه وسلم فى المحن التى لحقته من المشركين من شق الفرث عليه ، ومحاولة أبى جهل ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ، وعقبة ابن أبى معيط وغيرهم لعنهم الله تعالى قتله وما كانوا يكاشفونه به من السب ، والتكذيب ، والاستهزاء ، والتأنيب ورميهم له صلى الله عليه وسلم بالجنون ، وقصدهم إياه غير دفعة بأنواع الأذى ، والفضيحة والافتراء ، وحصرهم إياه صلى الله عليه وسلم وجمعهم بنى هاشم فى الشعب وتخويفهم إياه ، وتدبيرهم أن يقتلوه حتى بعد ، وبيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى مكانه وعلى فراشه ما يطول ذكره واقتصاصه ، ويكثر شرحه ، ثم أعقبه الله عز وجل من ذلك بالنصر والتمكين ، وإعزاز الدين وإظهاره على كل دين ، وقمع الجاحدين والمشركين ، وقتل أولئك الكفرة المعادين والمعاندين ، وغيرهم من المكذبين الكاذبين الذين كانوا عن الحق ناكثين ، وبالدين مستهزئين ، وللمؤمنين ناصبين متوعدين ، وللنبى صلى الله عليه وسلم مكاشفين محاربين ، وأذل من بقى منهم بعز الإسلام ، بعد أن عاد بإظهاره ، وأضمر الكفر فى إسراره ، فصار من المنافقين الملعونين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) التوبة ٤٠

فهذه أخبار جاءت فى آيات من القرآن . . نفع الله بها وينفع بها غير إنسان . وهى تجرى فى هذا الباب وتنضاف اليه ، وروى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ۝ ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً(١)) ثم يقول : يا أبا ذر : « لو أن الناس كلهم أخذوا بذلك لكفاهم » .

حدثنا على بن أبى طالب باسناده قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن بنى فلان أغاروا على فذهبوا يا بنى وإبلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن آل محمد لكذا وكذا مافى بيتهم مد من طعام فاسأل الله تعالى . فرجع إلى امرأته فقالت له : ماقال لك ؟ فأخبرها . فقالت : نعم ماردك اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمالبث أن رد الله عليه إبله أوفر ما كانت وابنه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فصعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمر الناس مسألة الله عز وجل والرجوع اليه والرغبة وقراءة (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ۝ ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً(١)) .

وسئل أبو الدرداء عن هذه الآية (كل يوم هو فى شأن (٢)) فقال : سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من شأنه يغفر ذنباً ، ويكشف كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وأخبرنى محمد بن الحسن بإسناد طويل قال ، سمعت سعيد بن عنبسة يقول : بينما رجل جالس وهو يعبث بالحصا ويحذف به إذ رجعت حصاة منها عليه فصارت فى أذنه فجهدوا بكل حيلة فلم يقدروا على إخراجها فبقيت الحصاة فى أذنه مدة وهى تؤلمه فبينما هو ذات يوم جالس إذ سمع قارئاً يقرأ

(١) الطلاق ٢ و ٣

(٢) الرحمن ٢٩

(أمن يجيب المضطر إذا دعاه (١)) الآية . فقال الرجل يارب أنت المجيب وأنا المضطر ، فاكشف عنى ضر ما أنا فيه . فنزلت الحصاة من أذنه فى الحال .

وروى أن أبا عبيدة حصر فكتب اليه عمر رضى الله عنه : مهما نزل بامرئ من شدة يجعل الله له بعدها فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وانه يقول عز وجل : (اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢)) .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه وهو فى بطن الحوت فقال : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة : يارب هذا صوت ضعيف مكروب من بلاد غريبة . قال أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : لا يارب . قال : ذلك عبدى يونس ، قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل نرفع له عملا صالحاً متقبلا ودعوة مستجابة ؟ قال : نعم . قالوا يارب : أفلا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء ، وقال أبو صخر : فأخبرنى أبو سقيط وأبوه حدثه بهذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء فأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا : وما اليقطينة ؟ قال شجرة الدبا . قال أبو هريرة : وهيأ الله له أرنبة وحشية تأكل من حشائش الأرض وتجىء فتفشح عليه وترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت جلده ، وقال أمية بن أبى الصلت قبل الإسلام فى ذلك شعراً :

فأنبت يقطينا عليه برحمة … من الله لولا الله الفى ضاحياً

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار البحر فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصا وهو فى ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من

---

(١) النمل ٦٢ (٢) آل عمران ٢٠٠

الظالمين (١)) قال الله عز وجل : (فنبذناه بالعراء وهو سقيم (٢)) قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس له ريش .

حدثنى فتى من الكتاب البغداديين يعرف بأبى الحسن بن أبى الليث وكان أبوه من كتاب الجند يتصرف مع اشكرون بن سهلان الديلمى أحد الأمراء فى عسكر معز الدولة بن أحمد بن بويه قال : قرأت فى بعض الكتب إذا دهمك أمر تخافه فبت وأنت طاهر ، على فراش طاهر ، وثيابك كلها طاهرة ، واقرأ : (والشمس وضحاها (٣)) إلى آخر السورة . سبعاً (والليل إذا يغشى (٤)) إلى آخر السورة سبعاً ثم قل : « اللهم اجعل لى فرجا ومخرجا من أمرى » فانه يأتيك فى الليلة الأولى ، أو الثانية إلى السابعة آت فى منامك فيقول لك : المخرج منه كذا وكذا . قال فحبست بعد ذلك بسنين حبسة طالت حتى أيست من الفرج ـ وكنت قد أنسيت هذا الخبر فذكرته يوما وأنا فى الحبس ففعلت ذلك . فلم أر فى أول ليلة ، ولا فى الثانية ، ولا فى الثالثة شيئاً . فلما كان فى الليلة الرابعة فعلت ذلك على الرسم فرأيت فى منامى كأن قائلا يقول لى خلاصك على يدى على بن إبراهيم . فأصبحت من غد متعجباً ولم أكن أعرف رجلا يقال له على بن ابراهيم ، فلما كان بعد يومين دخل على شاب لا أعرفه فقال : قد كملت ماعليك فقم ، وإذا معه رسول إلى السجان بتسليمى اليه ، فقمت معه فحملنى إلى منزلى وسلمنى فيه وانصرف . فقلت لهم : من هذا ؟ قالوا رجل من أهل الاهواز يقال له على بن ابراهيم يكون فى الكرخ . قيل لنا انه صديق للذى حبسك فطرحنا أنفسنا عليه فتوسط فى أمرك وضمن ماعليك وأخرجك .

قال مؤلف هذا الكتاب : فلما كان بعد يسير جاءنى على بن ابراهيم هذا وهو معاملى فى سنين كثيرة فذاكرته بالحديث فقال : نعم كان هذا عبدوس الذى حبسه هو ابن أخت أبى على النصرانى خازن معز الدولة ، فلما طالبه بالمبلغ الذى كان عليه من الضمان الذى ضمنه منه وكان عبدوس صديقى فجاءنى من سألنى خطابه فى أمره فجرى الأمر على ماعرفت .

---

(١) الأنبياء ٨٨ (٢) الصافات ١٤٥ (٣) الشمس ١ (٤) الليل ١

قال مؤلف الكتاب وجدت فى كتاب محمد بن جرير الطبرى الذى سماه بكتاب « الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة » حدثنى محمد بن عمارة الأسدى ، عن روح بن الحارث بن حبيش الصنعانى . عن أبيه ، عن جده أنه قال لبنيه : إذا دهمكم أمر فلا يبيتن أحدكم إلا وهو طاهر ، على فراش طاهر ، ولا يبيتن معه امرأة وليقرأ (والشمس وضحاها(١)) إلى آخر السورة سبعاً (والليل إذا يغشى (٢)) إلى آخر السورة سبعاً ثم يقل : « اللهم اجعل لى من أمرى فرجاً ومخرجاً » ، فانه يأتيه آت فى أول ليلة ، أو فى الثالثة ، أو فى الخامسة وأظنه قال : أو فى السابعة يقول لك : مخرج ما أنت فيه كذا قال أنيس : وأصابنى وجع شديد فلم أدر ما علاجه فبت على هذه الحالة فأتانى فى أول ليلة اثنان جلس أحدهما على رأسى وجلس الآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه : جسه . فلمس جسدى كله فلما بلغ موضعاً من رأسى قال : احجم هذا ولا تحلقه ولكن اغسله بخطمية ، ثم التفت إلى أحدهما أو كلاهما وقال لى : فكيف لو ضممت اليهما (والتين والزيتون (٣)) فلما أصبحت سألت لم أمرت بالخطمية فقيل لتمسك المحجمة فبرأت وأنا إلى اليوم لا أحدث بهذا الحديث أحداً فيعالج به من تلك العلة إلا وجد الشفاء بإذن الله تعالى وأضم اليهما قراءة (والتين والزيتون (٣)) .

وحدثت عن أحمد بن أبى داود قال : حدثنى الواثق قال : حدثنى المعتصم ان قوماً ركبوا البحر فسمعوا هاتفاً يهتف بهم من يعطينى عشرة آلاف دينار حتى أعلمه كلمات إذا أصابه غم أو أشرف على هلكة فقالها انكشفت عنه ؟ . فقام رجل من أهل المركب معه عشرة آلاف دينار فصاح أيها الهاتف : أنا أعطيك حتى تعلمنى . فقيل له ارم بالمال فى البحر فرمى بالمال . فسمع الهاتف يقول : إذا أصابك غم أو أشرفت على هلكة فاقرأ : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً(٤)) فقال جميع من فى المركب للرجل

---

(١) الشمس ١ (٢) الليل ١ (٣) التين ١ (٤) الطلاق ٢ و ٣

لقد ضيعت مالك . فقال : كلا إن هذه لفظة ما أشك فى نفعها . قال : فلما كان بعد أيام كسر بهم المركب فلم ينج منهم أحد غير ذلك الرجل على لوح فحدث بعد ذلك قال : طرحنى البحر على جزيرة فصعـــدت أمشى فيها فإذا بقصر منيف فدخلته فإذا فيه من كل ما يكون من الجواهر التى فى البحر وغيرها وإذا بامرأة لم أر قط أحسن منها فقلت لها : من أنت ، وأى شىء تعملين هاهنا ؟ قالت أنا ابنة فلان بن فلان التاجر بالبصرة ، وكان أبى عظيم التجارة ، وكان لا يصبر عنى ، فسافر بى فى البحر معه فانكسر مركبنا فاختطفت حتى حصلت فى هذه الجزيرة ، وإنه يخرج إلى شيطان من البحر فيتلاعب بى سبعة أيام من غير أن يطأنى إلا أنه يلامسنى ويؤذينى ويتلاعب بى وينظر إلى ثم ينزل إلى البحر سبعة أيام وهذا يوم موافاته فاتق الله فى نفسك واخرج قبل موافاته وإلا أتى عليك . فما انقضى كلامها حتى رأيت ظلمة هائلة عظيمة قد أقبلت . فقالت : قد جاء والله وسيهلكك ، فلما قرب منى وكاد يغشانى قرأت الآية فإذا هو قد خر كقطعة جبل إلا أنه رماد محترق . فقالت المرأة هلك والله وكفيت أمره من أنت يا هذا الفتى الذى من الله على بك ؟ فقمت أنا وهى وانتخبنـا ذلك الجوهر حتى حملنا كل ما فيـه من نفيس وفاخر ولزمنـا ساحل البحر نهارنا أجمع ، فلما كان الليل رجعنا إلى القصر . قال : وكان فيه ما يؤكل فقلت لها من أين لك هذا ؟ قالت وجدته ها هنـا . فلما كان بعد أيام رأينا مركباً يبين عن بعـد ، فلوحنا اليهم فدخلوا فحملونا وسلمنا الله عز وجل إلى البصرة . فوصفت لى منزل أهلها فأتيتهم فقالوا : من أنت ؟ قلت رسول فلانة بنت فلان ، فارتفعت الواعية . وقالوا ياهذا : لقد جددت علينا مصيبتنا . فقلت اخرجوا ثم أخذتهم ورجعت حتى جئت بهم إلى ابنتهم فكادوا يموتون فرحاً وسألوها عن خبرها فقصته عليهم وسألتهم ان يزوجونى بها ففعلوا وجعلنا هذا الجوهر رأس مال بينى وبينها وأنا اليوم أيسر من بالبصرة وهؤلاء أولادى منها .

وذكر أبو عبد الله محمد بن عبدوس فى كتاب الوزراء : ان عبـد الله

ابن المعلى بن أيوب حدثه عن أبيه قال : قال المعلى بن أيوب : أعتنى الفضل ابن مروان ونحن فى بعض الأسفار فطالبنى بعمل بعيد يعمل فى مدة بعيدة واقتضانيه فى كل يوم مراراً إلى أن أمرنى عن المعتصم أن لا أبرح إلا بعد الفراغ منه . فقعدت فى ثيابى وجاء الليل فجعلت بين يدى نفاطة وطرح غلمانى أنفسهم حولى وورد على أمر عظيم لأنى قلت ماتجاسر على أن يوكل بى إلا وقف على سوء رأى فى من المعتصم . قال : فانى لجالس وذقنى على يدى وقد مضى من الليل بعضه وأنا متفكر فحملتنى عينى فنمت فرأيت كأن شخصاً قد مثل بين يدى وهو يقول : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ۝ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (١)) ثم انتبهت فقرأتها فاذا أنا بمشعل قد أقبل من بعيد ، فلما قرب منى رأيت وراءه حمادا ونفس صاحب الحرس وقد أنكر نفاطتى فجاء ليعرف سببها فأخبرته خبرى فمضى إلى المعتصم فأخبره فاذا الرسل يطلبوننى فدخلت إليه وهو قاعد ولم يبق من الشمع إلا أسفله . فقال لى : ماخبرك فشرحته له . فقال لى : ويلى على النبطى يمتهنك ، وأى يد له عليك ، وأنت كاتبى كما هو كاتبى انصرف . قال : فانصرفت وبكرت إلى الفضل على عادتى لم أنكر شيئا .

حدثنى أبو الفضل محمد بن عبد الله فى المذاكرة فى خبر طويل لست أقوم عليه ان رجلا كانت بينه وبين رجل يتمكن من أذاه عداوة نخافه خوفاً شديدا ، وأهمه أمره ولم يدر مايصنع فرأى فى منامه كأن قائلا يقول له : اقرأ فى كل يوم فى إحدى ركعتى الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (٢)) إلى آخر السورة . قال فقرأتها فامضت إلا شهور حتى كفيت أمر ذلك الرجل وأهلكه الله عز وجل وأنا أقرؤها إلى الآن .

قال مؤلف هـذا الكتاب : فوقعت أنا بعد ذلك فى شدة لحقتنى من عدو خفته فاستترت منه فجعلت دأبى قراءة هـذه السورة فى

---

(١) الانعام ٦٣ و ٦٤ (٢) الفيل ١

الركعة الثانية من صلاة الفجر كل يوم وأقرأ فى الأولى منها : (ألم نشرح لك صدرك(١)) إلى آخر السورة لخبر كان بلغنى فيها ، فلما كان بعد شهور كفانى الله أمر ذلك العدو ، وأهلكه من غير سعى لى فى ذلك ولا حول ولا قوة .

وأما الخبر فى (ألم نشرح (١)) فان أبابكر بن شجاع المقرى البغدادى الذى كان يخلفنى على العيار فى دار الضرب بسوق الأهواز فى سنة ست وأربعين وثلاثمائة . وكان : شيخا ثقة نبيلا وهو من أمناء القاضى الأحنف محمد بن أبى الشوارب حدثنا بأسناد ذكره أن بعض الصالحين ألح عليه الغم وضيق الصدر وتعذر الأمر حتى كاد يقنط فكان يمشى يوما وهو يقول :

أرى الموت لمن أمسى على الذلة له أصلح

فهتف به هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه ـ أو قال ـ رأى فى النوم كأن قائلا يقول :

ألا أيها المرء الذى الهم به برح
إذا ضاق بك الصد ر ففكر فى ألم نشرح

قال فقرأتها فى صلاتى فشرح الله صدرى ، وأزال كربى وسهل أمرى أو كما قال . وحدثنى غيره هذا الخبر من قريب بهذا الحديث وزاد فى الشعر حيث قال :

فإن العسر مقرو ن بيسرين فلا تبرح

وقد ذكر القاضى أبو الحسين فى كتاب الفرج بعد الشدة البيتين فقط وقال فى الأخير منهما

إذا أعضلك الأمر بدل إذا ضاق بك الصدر

* * *

(١) الشرح ١

الباب الثانى

ما جاء فى الآثار من ذكر الفرج بعد اللأواء ، وما يتوصل به إلى كشف الشدة والبلاء

أخبرنى القاضى أبو القاسم على بن محمد بن أبى الفهم التنوخى بالإسناد الصحيح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله من فضله فان الله تبارك وتعالى يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » . وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انتظار الفرج من الله عز وجل عبادة » . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل أعمال أمتى انتظارها فرج الله » وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه فى حديث ذكره : « واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » . وعن عمر بن مرة قال : سمعت أبا وائل يحدث عن كردوس بن عمرو وكان ممن قرأ الكتب أنه قال : إن الله عز وجل يبتلى العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه .

حدثنا ابن أبى الدنيا يرفعه ، عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « ألا أعلمك كلمات تنتفع بهن ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما كان وما هو كائن ، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لما قدروا ، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، واعلم ان النصر مع الصبر ، وان الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً » . وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المعونة من الله عز وجل تأتى العبد على قدر المؤونة ، وإن الصبر يأتى على قدر شدة البلاء ، ـ وربما قال ـ : إن الفرج يأتى من الله على قدر شدة البلاء » . وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ستر أخاه المسلم ستره الله يوم القيامة ، ومن نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله عز وجل فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » . وروى ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك .

وروى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، عن أبيه ، عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أجرى الله على يده فرجاً لمسلم فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة » . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » . وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاحول ولاقوة إلا بالله دواء من كل داء أيسرها الهم » .

وعن نصر بن زياد قال كنت عند جعفر بن محمد رضى الله عنه فأتاه سفيان بن سعيد الثورى قال يا ابن رسول الله : حدثنى فقال : ياسفيان إذا استبطأت الرزق فأكثر من الإستغفار ، وإذا ورد عليك أمر تكرهه فأكثر : من لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وإذا أنعم الله عليك بنعمة فأكثر من : الحمد لله :

حدثنى محمد بن جعفر بن صالح الصالحى بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينما ثلاثة نفر من بنى إسرائيل يسيرون إذ أخذهم المطر فأوو إلى غار فى جبل فانطبقت عليهم صخرة فسدت الغار فقالوا تعالوا فليسأل الله عز وجل كل رجل منا بأفضل عمله فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم انه كانت لى ابنة عم جميلة وكنت أهواها فدفعت اليها مائة

دينار فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة قالت : اتق الله يا ابن العم ولا تفض الخاتم إلا بحق فقمت عنها وتركت لها المائة دينار . اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك خشية منك وابتغاء لما عندك فافرج عنا . فانفرج عنهم ثلث الصخرة . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت أغدو عليهما بصبوحهما ، وأروح عليهما بغبوقهما فغدوت عليهما يوماً فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أنصرف عنهما فيفقدان غداءهما فوقفت حتى استيقظا فدفعت اليهما غداءهما . اللهم إن كنت تعلم أنى انما فعلت ذلك ابتغاء ماعندك ، وخشية منك فافرج عنا ، فانفرج عنهم الثلث الثانى ، وقال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً فلما دفعت اليه أجرته قال عملى أوفى من هذا وترك لى أجرته وقال بينى وبينك يوم يؤخذ للمظلوم فيه من الظالم ومضى ، فابتعت له بأجرته غنما فلم أزل أرعاها ونمت حتى تزايدت وكثرت . فلما كان بعد مدة من الدهر أتانى فقال : يا هذا إن لى عندك أجرة عملت لك كذا وكذا فى وقت كذا وكذا . فقلت له : خذ الغنم فهى لك . فقال تمنعنى أجرتى وتهزأ بى ؟ فقلت : خذها فانها لك . فأخذها ودعا لى . اللهم إن كنت تعلم أنى إنما فعلت هذا خشية منك وابتغاء لما عندك فافرج عنا فانفرج عنهم باقى الصخرة وخرجوا يمشون » . وذكر الحديث .

قال مؤلف هذا الكتاب هذا حديث مشهور رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبدالله بن أبى أوفى ، والنعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنهم . وعن كل واحد منهم عدة طرق . وقد اختلف فى ألفاظه والمعنى واحد . وليس غرضى هنا جمع طرقه وألفاظه فاستقصى ذلك هنا .

وروى ابراهيم بن سعد ، عن أبيه ، عن جده قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من الدنيا دعا به ففرج عنه ؟ فقيل له بلى . فقال دعاء ذى النون لا إله

إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » حدثنا ابن بشار قال : حدثنا ابن عدى بالإسناد عن حميد بن عبدالرحمن الحميرى قال : كان بأبى الحصاة ، وكان يلقى من شدة مابه من البلاء ألماً عظيما . فانطلقت إلى بيت المقدس فلقيت أبا العوام ، فشكوت له الذى بأبى وأخبرته خبره فقال : مره فليدع بهذه الدعوات وهى : ربنا الذى فى السماء تقدس اسمه . أمرك ماض فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء فاجعلها فى الأرض ، اغفر لنا حوبتنا وخطايانا إنك رب الطيبين . أنزل رحمة من عندك وشفاء من شفائك على ما بفلان ابن فلان من وجع » . قال فدعا به فأذهبه الله عز وجل .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلمات الفرج لا إله إلا الله الحكيم الكريم ، لا إله إلا الله العلى العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع والأرضين السبع ورب العرش العظيم » . حدثنا عن عبد الرحمن بن أبى بكر ، عن أبيه رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت » .

وروى عبدالله بن جعفر قال : علمتنى أمى أسماء بنت عميس شيئاً أمرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقوله عند الكرب : « الله ربى لا أشرك به شيئاً » . وروى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بى كرب أو شدة أن أقول : « لا إله إلا الله الحكيم الكريم ، عز الله وتبارك رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بى كرب أن أقول : « لا إله إلا الله العلى الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » . قالت أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصابه هم ، أو غم ، أو سقم ، أوشدة . أو ذل ، أو لأوأ فقال :

الله ربى لاشريك له كشف ذلك عنـــه » . وعن أبى سلمة الجهمى ، عن أبى القاسم ، عن عبدالرحمن ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماأصاب مسلماً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرجاً ، قالوا يارسول الله : أفلا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أصابه غم أو كرب يقول : « حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوقين ، حسبى الرازق من المرزوقين ، حسبى الله هو حسبى ، حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . وروى اسماعيل ابن فديك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكربنى أمر إلا تمثل لى جبريل وقال يامحمد : قل توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً » ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا نزل به هم أو غم قال : « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك .

وفى الأخبار أن موسى عليه السلام كان دعاؤه حين يتوجه إلى فرعون وهو دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، ودعاء كل مكروب : « كنت وتكون ، وأنت حى لا تموت أبداً ، تنام العيون ، تنكدر النجوم وأنت حى قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ياحى ياقيوم » .

* * *

دعاء للفرج أعطانيه أبو عبد الحميد داود بن الناصر المعروف : بطباطبا ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وقال لى : إن أهله يتوارثونه على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو : « يامن يحل عقد المكاره ، ويفك حلق الشدائد ، ويامن يلتمس به المخرج إلى محل الفرج ، ذلت لقدرتك الصعاب ، وتشبثت بلطفك الأسباب ، وجرى بطاعتك القضاء ، ومضت على ذكرك الأشياء فهى بمشيئتك دون قولك مؤتمرة ، وبإرادتك دون وحيك منزجرة ، أنت المدعو للمهات ، وأنت المفزع فى الملمات ، لا يندفع منها إلا ما دفعت ، ولا ينكشف منها إلا ما كشفت ، قد نزل بى ما يكيدنى ثقله ، وألم بى ما يهيضنى حمله ، وبقدرتك أوردته على ، وبسلطانك وجهته إلى ، لامصدر لما أوردت ، ولا كاشف لما وجهت ، ولا فاتح لما أغلقت ، ولا مغلق لما فتحت ، ولا ميسر لما عسرت ، ولا معسر لما يسرت ، صل على محمد وعلى آل محمد ، وافتح لى يا رب أبواب الفرج بطولك ، واحبس عنى سلطان الهم بحولك ، وأنلنى حسن النظر فيما شكوت ، وأذقنى حلاوة الصنع فيما سألت ، وهب لى من لدنك فرجاً قريباً هنيئاً ، وصلاحاً فى جميع أمرى ، واجعل لى من عندك مخرجا رحيباً ، ولا تشغلنى بالاهتمام عن تعهد فروضك ، واستعمال سنتك فقد ضقت ذرعاً بما قد عرانى ، وتحيرت فى أمرى وفيما نزل بى ودهانى ، وضعفت عن حمل ما قد أثقلنى هما ، وتبدلت فيما أنا فيه قلقا وغما ، وأنت القادر على كشف ما وقعت فيه ، ودفع ما ثقلت به ، فافعل بى ذلك يا سيدى والهى وإن لم أستحقه ، وأجبنى اليه وإن لم أستوجبه ، ياذا العرش العظيم ، ثلاث مرات » .

وأعطانى دعاء آخر وقال لى إن أهله يتوارثونه عن أهل البيت عليهم السلام وهو : « لا إله إلا الله حقاً حقاً ، لا اله الا الله تعبداً وصدقاً ، لا اله الا الله ايماناً وصدقاً » يامنزل الرحمة من أماكنها ، ومنشىء البركة من ادنها أسألك أن تصلى على محمد عبدك ونبيك وخيرتك من خلقك

وصفيك ، وعلى آله مصابيح الدجا ، وأئمة الهدى ، وأن تفرج عنى فرجاً عاجلا ، وتلبسنى فى أمورى صلاحاً شاملا . وتفعل بى فى دينى ودنياى ماأنت أهله ، وتنيلنى صلاحا لجميع أمرى شاملا ، يا كاشف كل كرب ، وياغافر كل ذنب » .

حدثنى أيوب بن العباس بن الحسن بإسناد كثير : أن أعرابياً شكا إلى أمير المؤمنين على رضى الله عنه شكوى لحقته ، وضيقاً فى الحال ، وكثرة من العيال ، فقال له : عليك بالاستغفار فان الله عز وجل يقول : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (١)) الآيات . فمضى الرجل وعاد اليه فقال يا أمير المؤمنين : إنى قد استغفرت الله كثيراً ولم أر فرجاً مما أنا فيه ؟ فقال له : لعلك لاتحسن الاستغفار ؟ قال : علمنى فقال : أخلص نيتك ، وأطع ربك وقل : « اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، أونالته قدرتى بفضل نعمتك ، أو بسطت اليه يدى بسابغ رزقك ، واتكلت فيه عند خوفى منه على أمانك ، ووثقت فيه بحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك . اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب خنت فيه أمانتى ، أو بخست فيه نفسى ، أو قدمت فيه لذتى ، أوآثرت فيه شهوتى ، أو سعيت فيه لغيرى ، أواستغويت اليه من تبعنى ، أو غلبت فيه بفضل حيلتى ، أو أحلت فيه على مولاى فلم يعاجلنى على فعلى ، إذ كنت سبحانك كارهاً لمعصيتى غيرمريدها منى ، لكن سبق علمك فىّ باختيارى واستعمال مرادى وإيثارى فحلمت عنى ولم تدخلنى فيه جبراً ، ولم تحملنى عليه قهراً ، ولم تظلمنى عليه شيئاً ياأرحم الراحمين ، يا صاحبى فى شدتى ، يامؤنسى فى وحدتى ، ياحافظى فى غربتى ، ياوليى فى نعمتى يا كاشف كربتى ، يامستمع دعوتى ، ياراحم عبرتى ، يامقيل عثرتى ، ياإلهى بالتحقيق ، ياركنى الوثيق ، يارجاى للضيق ، يامولاى الشفيق ، يارب البيت العتيق ، أخرجنى من حلق المضيق إلى سعة الطريق ، بفرج من عندك قريب

(١) نوح ١٠ - ١٢

وثيق ، واكشف عنى كل شدة وضيق ، واكفنى ماأطيق ومالاأطيق ، اللهم فرج عنى كل هم وغم ، وأخرجنى من كل حزن وكرب يافارج الهم ، ويا كاشف الغم ، ويامنزل القطر ، ويامجيب دعوة المضطر ، يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما صل على محمد خير تك من خلقك وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وفرج عنى ماضاق به صدرى ، وعيل معه صبرى ، وقلت فيه حيلتى ، وضعفت له قوتى ، يا كاشف كل ضر وبلية ، ياعالم كل سر وخفية يا أرحم الراحمين : (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد (١)) . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . قال الاعرابى : فاستغفرت بذلك مراراً فكشف الله عنى الغم والضيق ووسع على فى الرزق وأزال المحنة .

وعن أبى مخلد أنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أبالى على أى حالة أصبحت على ما أحب ، أوعلى ما أكره . وذلك لأنى لاأدرى الخير فيما أحب أوفيما أكره . روى عن الأعمش عن إبراهيم قال : إن لم يكن لنا خير فيما نكره لم يكن لنا خير فيما نحب . وروى عن سفيان بن عيينة قال : قال محمد بن على رضى الله عنه لمحمد بن المنكدر : مالى أراك مغموما ؟ فقال أبوحازم : لدين فدحه . قال محمد بن على : أفتح له فى الدعاء . قال : نعم . قال بورك لك فى حاجة أكثرت فيها دعاء ربك كانت لك ما كانت .

دعاء لداود عليه السلام : « سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء ، سبحان مستخرج الشكر بالرخاء . وروى عن طاوس قال : إنى لفى الحجر ذات ليلة إذ دخل على بن الحسين عليه السلام فقلت : رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمن إلى دعائه الليلة . فصلى . ثم سجد فأصغيت بسمعى اليه فسمعته يقول : عبيدك بفنائك يرجو ثوابك ، ويخشى عقابك . قال طاوس : فما دعوت بها فى كرب إلا فرج الله عنى . وروى فى الأخبار : أن صديقاً ذبح عجلا بين يدى أمه فخبل عقله ، فبينما هو كذلك ذات يوم تحت شجرة فيها وكر طائر إذ وقع فرخ ذلك الطائر فى الأرض فغبر فى التراب فأتاه الطائر فجعل يطير فوق رأسه ،

(١) المؤمن ٤٤

فأخذ الصديق الفرخ فمسحه من التراب وأعاده فى وكره فرد الله عليه عقله وقال ابن عيينة : ما يكرهه العبد خير له مما يحب ، لأن مايكرهه يهيجه على الدعاء وما يحبه يلهيه . وروى عن عبد الصمد العمى قال : سمعت مالك بن دينار يقول فى مرضه وهو آخر كلام سمعته منه : ما أقرب النعم من البؤس يعقبان ويوشكان زوالا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لجلسائه يوما وفيهم عمرو بن العاص : ما أحسن شىء يناله المرء ؟ فأتى كل رجل برأيه وعمرو ساكت . فقال له عمر : ماتقول ياعمرو ؟ قال الغمرات ثم ينجلين . كتب سعيد بن حميد إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كتاباً من الانبار قال فيه : وأرجو أن يكشف الله بالأمير هـذه النغمة الطويل مداها ، البعيد منتهاها ، فإن طولها قدأطمع فى انقضائها ، وتراخى أيامها قد سهل طريق الأمل لفنائها .

قال مؤلف هـذا الكتاب : لحقتنى محنة عظيمة من السلطان فكتب إلى أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى رقعـة يتوجع إلى فيها نسختها : بسم الله الرحمن الرحيم : « مدد النعم أطال الله بقاء القاضى بغفلات المسار وان طالت أحلام ، وساعات المحن وإن قصرت بسوابغ الهم أعوام ، وأحظانا بالمواهب من ارتبطها بالشكر ، وأنهضنا باعباء المصائب من قاومها بعدد الصبر ، إذ كان أولها بالعظة مذكراً ، وآخرها بمضمون الفرج مبشراً ، وإنما يتعسف ظلم الفتنة ، ويتمسك بتفريط العزم ضال الحكمة ، ومن كان بسنة الغفلة مغموراً ، وبضعف المنية والرأى مقهوراً ، وفى انتهاز فرص الحزم مفرطا ، ولمرضى مااختاره الله تعالى متسخطا والقاضى أنور بصيرة ، وأطهر سريرة ، وأكمل حزماً ، وأنفذ مضاء وعزماً من أن يتسلط الشك على يقينه ، أو يقدح اعتراض الشبه فى مروءته ودينه ، فيلقى ما اعتمده الله من طارق القضاء المحتوم بغير واجبه من فرط الرضا والتسليم ، ومع ذلك فانما تعظم المحنة إذا تجاوزت ، وضعف التنبيه من الله جل ذكره إلى واجب العقوبة ، ويصير تجنى السلطان بها وجوب الحجة فشغلت الألسن عن محمود الثناء منها

بمذموم اللائمة ، فإذاخلت من هذه الصفات اللئيمة ، والشوائب المذمومة كانت وإنزاع ظاهرها بصفات النعم أولى ، وبأسباب المنح أحق وأحرى ، وهى أعمال ذى الفهم الثاقب ، والفكر الصائب مثله أيده الله تعالى بكامل عقله ، وزائد فضله فيما يسامح به الدنيا من مرتجع هباتها ، وتبدله من خدع لذاتها من علم أن أسعد أهلها منها ببلوغ الآمال أقربهم فيما خوله من التغيير والانتقال ، وصفاءها مشوب بالكدر ، وأمنها مروع بالحذر ، لأن انتهاء الشيء إلى حده ناقل له عما كان عليه إلى ضده ، فتكاد المحنة بهذه القاعدة لاقترابها فى الفرج بفسح الرجاء ، وانتهاء الشدة فيها إلى مستجد الرخاء أن تكون أحق بأسماء النعم ، وأدخل فى باب المواهب والقسم ، وبالحقيقة فكل وارد من الله عز وجل على العبد وإن جهل مواقع الحكمة منه ، وساءه استتار عواقب الخيرة بمفارقة مانقل عنه غير خال من مصلحة بتقديم عاجل ، وادخار آجل ، وهــذا الوصف ماذكر الله به القاضى إذ كان للمثوبة مفيداً ، وللفرج ضامناً ، وبالحظ مبشراً ، وإلى المسرة مؤدياً ، وبأفضل ماعوده الله عائداً ، وهو ينجز ذلك بمستحكم الثقة ووجاهة الدعاء والرغبة ، ووسائط الصبر والمعونة . ولعله يكون اليه أقرب من ورود رقعتى اليه بقدرة تعالى ومشيئته ، ولولا الخوف من الاطالة ، والتعرض للاضجار والملالة ، باخراج هـذه الرقعة عن مذاهب الكتابة ، وادخالها ذكر مانطق به نص الكتاب من ضمان اليسر بعد العسر ، وما وردت به فى هـذا المعنى الأمثال السائرة ، والأشعار المتناقلة فى جملة الرسائل وخير المصنفات لأودعتها نبذاً من ذلك ، لكننى آثرت أن لاأعدل بها عما افتتحتها به واستخدمتها له ، مقتصرا على استغناء القاضى عن ذلك بمراشد حفظه ، ووقور فضله ، ومأثور نباهته ونبله ، والله يبلغنا ويبلغه مافيه نهاية الآمال ، ولا يخليه فى طول البقاء من موارد السعادة والإقبال إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : أفضل مايعمله الممتحن انتظار الفرج ، والصبر على قدر البلاء ، والصبر كفيل بالنجاح ، والمتوكل لايخيب ظنه . وقال بعض الصالحين استعمل فى كل بلية

تطرقك حسن الظن بالله تعالى فى كشفها فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج ، ويقال العاقل لايذل لأول نكبة ، ولايفرح بأول نعمة فربما أقلع المحبوب عما يضر ، وأجلى المكروه عما يسر . شكا عبد الله بن طاهر إلى سليمان بن يحيى ابن معاذ كاتبه بلاء خافه وتوقعه فقال له أيها الأمير : لايغلبن على قلبك إذا اغتممت ماتكره دون ما تحب ، فلعل العاقبة تكون ماتحب ، وتوقى ما تكره فتكون كمن يتسلف الغم والخوف . قال : أما إنك فقد فرجت عنى ماأنا فيه . بلغنى أن الناس قحطوا بالمـــدينة فى أيام عمر رضى الله عنه فخرج بهم مستسقياً فكان أكثر قوله الاستغفار . فقيل له ياأمير المؤمنين : لو دعوت الله تعالى ؟ فقال أما سمعتم قوله تعالى : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ۝ يرسل السماء عليكم مدراراً (١)) الآيات فصار الاستكثار منه فى خطب الاستسقاء سنة إلى اليوم .

حكى عن أنو شروان أنه قال : جميع مكاره الدنيا ينقسم على ضربين . فضرب فيه حيلة فالاضطراب دواؤه ، وضرب لاحيلة فيه فالاصطبار شفاؤه . وكان بعض الحكماء يقول : الحيلة فيما لاحيلة فيه الصبر ، وكان يقال : من اتبع الصبر أتبعه النصر ، ومن الأمثال السائرة الصبر مفتاح الفرج ، من صبر قدر ثمرة الصبر الظفر ، وعند اشتداد البلاء يأتى الرخاء ، وكان يقال : تضايقى تنفرجى ، إذا اشتد الخناق انقطع الوثاق . والعرب تقول : إن فى الشر خياراً . قال الأصمعى : معناها إن بعض الشر أهون من بعض . وقال أبو عبيدة : معناها إذا أصابتك مصيبة فاعلم أنه قد يكون أجل منها فلتهن عليك مصيبتك . وقال بعض الحكماء : عواقب الأمور تتشابه فى الغيوب ، فرب محبوب فى مكروه ومكروه فى محبوب وكم مغبوط بنعمة هى داؤه ، ومرحوم من داء فيه شفاؤه ، ورب خير من شر ، ونفع من ضر . وروى أن على بن أبى طالب سلام الله عليه قال : يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى قد أتى فانه ان يكن من عمرك يأتك الله فيه بمحنتك . واعلم أنك

---

(١) نوح ١٠ و ١١

لن تكسب شيئاً سوى قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك بعد موتك . وقال وداعة السهمي في كلام له : اصبر على الشر إن فدحك فربما أجلى عما يفرحك وتحت الرغوة اللبن الصريح . وقال شريح : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات . أحمده إن لم تكن أعظم مما هي ، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه من الثواب ، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني . ويشبه هذا ما يروى عن بزرجمهر لما حبسه أنوشروان عند غضبه عليه في بيت كالقبر ظلمة وضيقاً ، وصفده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف ، وأمر أن لا يزاد على قرصين في كل يوم من شعير ، وكف ملح جريشاً ودورق ماء ، وأن تحصى ألفاظه فتنقل اليه . فأقام بزرجمهر أياما لا يتكلم فقال أنوشروان : أدخلوا اليه أصحابه وأمروهم أن يسألوه ويفاتحوه في الكلام واسمعوا ما يجرى بينهم وعرفونيه . فدخل اليه جماعة من المختصين به وقالوا أيها الحكيم : نراك في هذا الضيق والحديد ، والصوف والشدة التي وقعت فيها ، ومع هذا فان سحنة وجهك ، وصحة جسمك على حالهما لم يتغيرا فما السبب في ذلك ؟ فقال : إني عملت جوارشا من ستة أخلاط آخذ منه في كل يوم شيئاً فهو الذي أبقاني على ماترون . قالوا : فصفه لنا فعسى أن يبتلى بمثل بلواك من إخواننا أحد فيستعمله أو نصفه له . قال : الخلط الأول : الثقة بالله عز وجل ، والخلط الثاني : علمي أن كل مقدر كائن ، والخلط الثالث : أن الصبر خير ما استعمله الممتحن ، والخلط الرابع : ان لم أصبر فأي شيء أعمل ، والخلط الخامس : قد يمكن أن أكون في أشر مما أنا فيه ، والخلط السادس : من ساعة إلى ساعة فرج . قال فبلغ كسرى كلامه فعفا عنه .

* * *

فصــــل لبعض الـكتـاب : وهو على بن نصر بن على بن بشر النصرانى . وكان الله عز وجل يأتى بالمحبوب من الوجه الذى قد ورد المكروه منه يأتى بالفرج عند انقطاع الأمل واستبهام وجوه الحيل ، ليحض سائر خليقته بما يريهم من تمام قدرته على صرف الرجاء اليه ، وإخلاص التوكل عليه ، وأن لا يزووا وجوههم فى وقت من الأوقات على من تتوقع الروح منه ، ولا يعدلوا بآمالهم على حال من الحالات عن انتظار فرج يصدر عنه ، فكذلك أيضاً سرهم فيما ساءهم بأن كفاهم بمحنة يسيرة أعظم منها ، وأفداهم بملمة سهلة بما هو أنكى فيهم لو لحقهم .

قال اسحاق العابد : ربمـا امتحن الله العبـد بمحنة عظيمة يخلصه بها من الهلكة فتكون تلك المحنة أجل نعمة . وقال سمعان : من احتمل المحنة ورضى بتدبير الله عز وجل فى النكبة ، وصـبر على الشدة كشف الله له عن منفعتها حتى يقف على المستور عنه فى مصلحتها . وقال عبد الله بن المعتز : ما أوطأ راحلة الواثق بالله تعالى ، وآنس مثوى المطيع لله .

حكى بعض النصارى أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال : المحن تأديب من الله عز وجل ، والأدب لا يدوم ، وطوبى لمن يصبر على التأديب ، ويثبت عند المحنة فيجب له لبس إكايل الغلبة ، وتاج الفلاح الذى وعـد الله عز وجل محبية وطائعيـة .

وقال بزرجمهر : انتظار الفرج بالصبر يعقب الاغتباط .

* * *

فصـــل لبعض الكتـاب : وهو على بن نصر بن بشر . وكما أن الرجاء مادة الصبر والمعين عليه ، فكذلك علة الرجاء ومادته حسن الظن بالله عزوجل الذى لايجوز أن يخيب ، فانا قد نستقرى الكرماء فنجدهم يرفعون من أحسن ظنه بهم ، ويخيبون من يخيب أمله فيهم ، ويتحرجون من اخفاق رجاء من قصدهم . فكيف بأكرم الأكرمين الذى لايعوذه أن يمنح مؤمليه مايزيد على آمالهم فيه ، وأعدل الشواهد بمحبة الله جل جلاله أن يمسك عبده برجائه ، وانتظاره الروح من ظله وفنائه . إن الإنسان لايأتيه الفرج ، ولا تدركه النجاة إلا بعد إخفاق أمله فى كل ما كان يتوجه نحوه بأمله ورغبته ، وعند انغلاق مطالبه وعجز حيله وحيلته ، وتناهى ضره ومحنته ، ليكون ذلك باعثاً له على صرف رجائه أبداً إلى الله تعالى ، وزاجراً له عن تجاوز حسن الظن بالله تعالى . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الفرج والروح فى اليقين ، والرضا والهم والحزن فى الشك والغضب .

قال أبان بن ثعلب سمعت أعرابياً يقول : من أفضل آداب الرجال أنه إذا نزلت بأحدهم جائحة استعمل الصبر عليها ، وألهم نفسه الرجاء لزوالها حتى كأنه بصبره يعاين الخلاص والغناء توكلا على الله وحسن ظن به ، فمتى لزم هذه الصفة لم يلبث أن يقضى الله حاجته ، ويزيل كربته ، وينجح طلبته ، ومعه دينه وعرضه ومروءته . وكان يقال : الصبور يدرك أحمد الأمور . حكى الأصمعى عن أعرابى قال : خف الشر من موضع الخير ، وارج الخير من موضع الشر ، فرب حياة سببها طلب الموت ، وموت سببه طلب الحياة . وأكثر مايأتى الا من ناحية الخوف .

قال مؤلف هذا الكتاب : ما أقرب هذا الكلام من قول قطرى بن الفجاءة الخارجى(١) ذكره أبو تمام الطائى فى كتابه المعروف بالحماسة :

لا يركبن أحد إلى الاحجام ... يوم الوغى متخوفا لحمام
فلقد أرانى للرماح دريئة ... من عن يمينى مرة وأمامى

(١) من رؤساء الخوارج .

حتى خضبت بما تحدر من دمى أكناف سرجى أو عنان لجام
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جزع البصير قارح الأقدام

هذا لمن أحب الموت طلباً لحياة الذكر ، وقد أفصح بهذا الحصين بن الحمام المرى حيث يقول :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وهذا كثير متسع ليس هو مما نحن فيه بسبيل فنستوعبه ونستوفيه ، ولكن الحديث ذو شجون ، والشىء يذكر بالشىء . ونعود إلى ما كنا فيه قال بعض عقلاء التجار : ما أصغر المصيبة إذا عادت بسلامة الأرواح ، وكأنه من قول بعض العرب : إن تسلم الحلة فالسخل هدر . ومن كلامهم لا تيبس أرض من عمران وإن جفاها الزمان . والعامة تقول نهر جرى فيه الماء لابد أن يعود اليه . وقال بيسمطيوس : لم تتفاضل أهل العقول والدين إلا باستعمال الفضل فى حال القدرة والنعمة ، وابتذال الصبر فى حال الشدة والمحنة .

وقال بعض الحكماء : العاقل يتعزى فيما نزل به من المكروه بأمرين أحدهما : السرور بما بقى له . والآخر : رجاء الفرج مما نزل به . والجاهل يجزع فى محنته بأمرين أحدهما : استكثار ما أتى اليه . والآخر : تخوفه مما هو أشد منه . وكان يقال المحن آداب الله تعالى لخلقه ، وتأديب الله يفتح القلوب والأسماع والأبصار .

ووصف الحسن بن سهل المحن فقال : معها تمحيص من الذنوب ، وتنبيه من الغفلة ، وتعرض للثواب بالصبر ، وتذكير بالنعمة ، واستدعاء للتوبة ، وفى نظر الله عز وجل وقضائه الخيار ، وبلغنى هذا الخبر على وجه آخر . وقرىء على أبى بكر الصولى وأنا أسمع فى كتابه « كتاب الوزراء » حدثكم أبو ذكوان القاسم بن اسماعيل . قال : سمعت ابراهيم بن العباس بن محمد يصف الفضل بن سهل ويذكر تقدمه وعلمه وكرمه ، وكان مما حدثنى به أنه برأ من علة كان فيها فجلس للناس فهنوه بالعافية . فلما فرغ الناس من كلامهم قال الفضل : إن فى العلل لنعما لا ينبغى للعقلاء أن يجهلوها ، تمحيص للذنوب ،

وتعرض لثواب الصبر ، وإيقاظ من الغفلة ، وإذكار بالنعمة فى حال الصحة ، واستدعاء للمثوبة ، وحض على الصدقة ، وفى قضاء الله تعالى وقدره بعد الخيار . كتب محمد بن الحنفية إلى عبدالله بن عباس رضى الله عنهما حين سيره ابن الزبير عن مكة إلى الطائف : « أما بعد فقد بلغنى أن ابن الزبير سيرك إلى الطائف ، فأحدث الله لك بذلك ذخراً ، وحط عنك به وزراً ، يا ابن عم : إنما يبتلى الصالحون ، وتعد الكرامة للأخيار ، ولو لم تؤجر إلا فيما تحب لقل الأجر ، وقد قال الله تبارك وتعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم (١)) عزم الله لنا ولك بالصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، ولا أشمت بنا عدوا ، والسلام .

كتب بعض الكتاب إلى صديق له فى محنة لحقته : إن الله تبارك وتعالى ليمتحن العبد ليكثر التواضع له ، والاستغاثة به ، ويجدد الشكر على مايوليه من كفايته ، ويأخذ بيده فى شدته ، لأن دوام النعم والعافية تبطر الإنسان حتى يعجب بنفسه ، ويعدل عن ذكر ربه ، وقد قال الشاعر :

لا يترك الله عبداً لايذكره ... بمن يؤدبه ومن يؤنبه
فى نعمة تقتضى شكراً يدوم له ... أو نقمة حين ينسى الشكر ينكبه

* * *

وقال الحسن البصرى رحمه الله : الخير الذى لاشر فيه الشكر مع العافية ، والصبر عند المحنة ، فكم من منعم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى بمحنة وهو صابر ، والجزع لاينفع مالم تنصرم أيام المحنة .

وكان ابن شبرمة إذا نزلت به شدة قال : سحابة ثم تنقشع ، وقال بعض الحكماء : آخر الهم أول الفرج ، وكان جعفر بن سليمان يقول : جربناه فوجدناه كذلك ، وذكر القاضى أبو الخير فى كتابه قال : حدثنا الحسن بن مكرم يرفعه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) البقرة ٢١٦

« إنى لأن أكون فى شدة أتوقع بعدها رخاء أحب إلى من أن أكون فى رخاء أتوقع بعده شدة » . وذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم بغير إسناد أنه قال : « لو كان العسر فى كوة لجاء يسران فأخرجاه » .

قال مؤلف هذا الكتاب : كان لى فى هذا الحديث خبر طريف وذلك أنى كنت قد لجأت إلى البطيحة هارباً من نكبة لحقتنى ، فاعتصمت بأميرها معين الدولة أبى الحسن بن عمران بن شاهين السلمى ، فألقيت هناك جماعة من معارفى بالبصرة ، وواسط خائفين على أنفسهم قد هربوا من ابن تعية الذى كان فى الوقت وزيراً ولجؤا إلى البطيحة . فكنا نجتمع فى الجامع فنتشاكى أحوالنا ونتمنى الفرج مما نحن فيه من الخوف والشدة والشقاء ، فحدث أبو الحسن بن جيشان التاجر الصالحى قال : حدثنى أبو محمد الحسن بن عثمان بن قنيف بالإسناد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دخل العسر كوة لجاء يسران فأخرجاه » . فلما سمعت ذلك فكرت ساعة ثم عملت بيتين من الشعر :

إنا روينا عن النبى رسول اللـــه فيما أفيد من أدبه

لو دخل العسر كوة لأتى يســـران فاستخرجاه من ثقبه

فما مضى على هذا المجلس إلا أربعة أشهر حتى فرج الله عنى وعن كثير ممن حضر ذلك المجلس وردنا الله تعالى إلى عوائده الجميلة عندنا ، فالحمد والشكر لله رب العالمين .

ووجدت هذا الخبر على غير هذا فقد حدثت عن ابن مسعود أنه قال : «لو أن العسر دخل فى حجر لجاء اليسر حتى يدخل معه» . قال الله تبارك وتعالى : (فإن مع العسر يسراً ٭ إن مع العسر يسراً (١)) ، وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : عند تناهى الشدة تكون الفرجة ، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء ، ومع العسر يكون يسر . وروى عنه كرم الله وجهه

---

(١) الانشراح ٥و٦

أنه قال : ماأبالى باليسر رميت أو بالعسر ، لأن حق الله عز وجل فى العسر الرضا والصبر ، وفى اليسر البر والشكر .

قال مؤلف هذا الكتاب حدثنى بعض الشيعة بغير إسناد قال : قصد أعرابى أمير المؤمنين عليا عليه السلام فقال : إنى لذو محن فعلمنى شيئا أنتفع به ؟ فقال يا اعرابى : إن للمحن أوقاتاً ولها غايات فاجتهاد العبد فى محنته قبل إزالة الله تعالى إياها يكون زيادة فيها لقوله تعالى : (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (١)) لكن استعن بالله واصبر ، وأكثر من الاستغفار ، فان الله عزوجل وعد الصابرين خيراً كثيراً وقال : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً (٢)) . فانصرف الرجل فقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

حدثنا أبو محمد الحسين بن محمد المهلبى فى وزارته قال : كنت فى وقت من الأوقات قد وقعت لى شدة شديدة وخوف عظيم لا حيلة لى فيه ، فأقمت ليلتى قلقاً ولم أعرف الغمض ، فلجأت إلى الصلاة والدعاء ، وأقبلت على البكاء فى سجودى والتضرع ومسئلة الله تعالى فرج عنى ما كنت فيـــه على أفضل ماأردت فقلت شعراً :

بعثت إلى رب العطاء رسالة   تؤمل لى فيها دعاء منـــاصح
فجاء جوابى بالإجابة فانجلت   بها كرب ضاقت بهن جوانحى

وعن على كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشتدى أزمة تنفرجى » .

قيل أراد جعفر بن محمد بن على الحج فمنعه المنصور فقال : « الحمد لله الكافى ، سبحان الله الأعلى ، حسبي الله وكفى ، ليس من الله منجى ،

(١) الزمر ٣٨ (٢) نوح ١٠ و ١١

ما شاء الله قضى ، ليس وراء الله منتهى ، توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، اللهم إن هـذا عبد من عبيدك خلقته كما خلقتنى ، ليس له على فضل إلا ما فضلته به على فاكفنى شره ، وارزقنى خيره ، واقدح لى المحبة فى قلبه ، واصرف عنى أذاه ، لاإله إلا أنت سبحان الله رب العرش العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله كثيراً » . قال : فأذن له المنصور فى الحج .

* * *

الباب الثالث

من بشر بالفرج فنجا من محنه بقول أو دعاء أو ابتهال

أخبرني الصولي قال : حدثنا البر القاضي قال : رأيت امرأة بالبادية وقد جاء البرد فذهب بزرع لها فجاء الناس يعزونها ، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : « اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف ، وبيدك العوض عما تلف ، فافعل ما أنت أهله ، فان أرزاقنا عليك ، وآمالنا منصرفة اليك » قال : فلم أبرح حتى مر رجل من الأجلاء فحدث بما كان لها فوهب لها خمسمائة دينار .

حدثني أبي في المذاكرة من لفظه وحفظه ولم أكتبه عنه في الحال وعلق بحفظي والمعنى واحد ولعل اللفظ يزيد أو ينقص ، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن حمدون نديم المعتضد بالله قال : حدثني أبي عن المعتضد أنه قال : لما سعى إسماعيل بن بلبل بيني وبين أبي الموفق فأوحشه مني حتى حبسني الحبسة المشهورة ، وكنت أتخوف القتل صباحاً ومساء ولا آمن أن يرفع عني إسماعيل مايزيد في غيظ الموفق علي فيأمر بقتلي ، فكنت كذلك حتى خرج الموفق إلى الجند فازداد خوفي ، وأشفقت أن يكاتبه إسماعيل عني بكذب يجعل غيبته طريقاً اليه ويأمر بقتلي ، فأقبلت على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والابتهال في تخليصي ، وكان إسماعيل يجيئني في كل يوم مراعياً خبري ويوريني أن ذلك خدمة لي ، فدخل إلي يوماً وبيدي المصحف وأنا أقرأ فتركته وأخذت أحادثه . فقال أيها الأمير : اعطني المصحف لآخذ فألك منه ، فلم أجبه بشيء . فأخذ المصحف ففتحه وكان في أول سطر منه : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (١)) فاسود وجهه واربد ، ثم خلط الورق ففتح المصحف ثانية فخرج : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٢)) فازداد وهلاً

---

(١) الأعراف ١٢٩ (٢) القصص ٥

واضطراباً ، وفتح المصحف ثالثة فخرج : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (١)) فوضع المصحف وقال : أنت الخليفة والله بلا شك ، فما حق بشارتى عليك ؟ فقلت : الله الله فى دمى ، وأسأل الله أن يبقى أمير المؤمنين الأمير الناصر الموفق ومالنا وهذا ومثلك فى عقلك لا يطلق مثل هذا القول بمثل هذا الاتفاق قال : فأمسك وما زال يحادثنى ويخرجنى من حديث ويدخلنى فى حديث إلى أن جرى حديث ما بينى وبين أبى فأقبل يحلف بالأيمان الغليظة أنه لم يكن له فى أمرى صنع ولا سعاية على بمكروه ، فصدقته ولم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه خوفا من أن يزيد وحشة فيسرع إلى التدبير فى تلفى إلى أن انصرف ، ثم صار أى وقت جاءنى أخذ معى فى الاعتذار والتنصل ، وأنا أظهر التصديق له والتقبل حتى سكن ، ولم يشك انى معتقد لبراءة ساحته فما كان بأسرع من أن جاء الموفق وقد اشتدت عليه ومات ، فأخرجنى الغلمان من الحبس فصيرونى مكانه وفرج الله عنى وفاجأنى بالخلافة ومكننى من عدو الله وعدوى اسماعيل فأنفذت الحكم فيه .

حكى عن عبد الله بن سليمان بن وهب ، عن أبيه أنه قال : أصبحت يوماً وأنا فى حبس محمد بن عبد الملك الزيات فى خلافة الواثق آيس ما كنت من الفرج ، وأشد محنة وغماً حتى وردت على رقعة أخى الحسن ابن وهب ونسختها .

محن أبا أيوب أنت محلها ... فإذا جزعت من الخطوب فمن لها
إن الذى عقد الذى انعقدت به ... عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الله يعقب فرجة ... ولربما أن تنجلى ولعلها
وعسى تكون قريبة من حيث لا ... ترجو وتمحو عن جديدك ذلها

قال فتفاءلت بذلك وقويت نفسى فكتبت له :

صبرتنى ووعظتنى فأنا لها ... وستنجلى بل لا أقول لعلها

(١) النور ٥٥

ويحلها من كان صاحب عقدها   ثقة به إذا كان يحسن حلها

قال : فلم أصل العتمة ذلك اليوم حتى أطلقت فصليتها فى دارى . ووجدت فى هذا الخبر ان هذه الرقعة وقعت فى يد الواثق من الابتداء والجواب ، فأمر باطلاق سليمان وقال : والله لاتركت الفرج يموت فى حبسى لاسيما من خدمنى ، فأطلقه وابن الزيات كاره لذلك .

وروى أن الحسن البصرى دخل على الحجاج واسط فرأى بناءه فقال : « الحمد لله ان هؤلاء الملوك ليرون فى أنفسهم عبراً ، وانا لنرى فيهم عبراً ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده ، وفرس فيتخذه وقد حف به ذباب طمع وفراش نار ، ثم يقول ألا فانظروا ماصنعت فقد رأينا ياعدو الله ماصنعت فماذا يا أفسق الفاسقين ، أما أهل السماء فمقتوك ، وأما أهل الأرض فلعنوك ، ثم خرج وهو يقول : إنما أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فتغيظ الحجاج عليه غيظا شديداً وقال يا أهل الشام : هذا عبيد أهل البصرة يدخل على فيشتمنى فى وجهى فلا يكون له مغير ولا نكير والله لأقتلنه ، فمضى أهل الشام إلى الحسن فحملوه إلى الحجاج وعرف الحسن ماقاله ، فكان طول طريقه يحرك شفتيه . فلما دخل وجد السيف والنطع بين يدى الحجاج وهو متغيظ ، فلما رآه الحجاج كلمه بكلام غليظ فرفق به الحسن ووعظه ، فأمر الحجاج بالسيف والنطع فرفعا ولم يزل الحسن يمر فى كلامه حتى دعا الحجاج بالطعام فأكلا ، وبالوضوء فتوضأ ، وبالغالية فغلفه بيده وصرفه مكرماً . قال صالح بن مسمار : فقيل للحسن بم كنت تحرك شفتيك ؟ قال قلت : ياغياثى عند دعوتى ، وياعدتى فى ملمتى ، ويارى عند كربتى ، وياصاحبى فى شدتى ، وياولبى فى نعمتى ، ويا إلهى وإله إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وموسى ، وعيسى ، ويارب النبيين كلهم أجمعين ، ويارب كهيعص ، وطه ، وطس ، ويس ، ويارب القرآن الكريم ، صل على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وارزقنى مودة عبدك الحجاج وخيره ومعروفه ، واصرف عنى أذاه وشره ومكروهه ومعرته ، قال صالح : فما دعونا بها فى شدة إلافرج عنا .

حدثنا على بن أبى الطيب قال . حدثنا بن الجراح قال : حدثنـــا ابن أبى الدنيا قال : حدثنا الفضل بن يعقوب قال : لما أخذ أبو جعفر المنصور اسماعيل بن أمية أمر به إلى السجن فمر على حائط مكتوب عليه : « ياولى فى نعمتى ، وصاحبى فى وحدتى ، وعدتى فى كربتى » فلم يزل يدعوبها حتى خلى سبيله . فمر على ذلك المكان فلم ير شيئاً مكتوباً . حدثنى أبو القاسم محمد بن أحمد الأثرم المقرئ بإسناده : ان عبدالملك بن مروان كتب إلى عامله بالمدينة هشام بن اسماعيل : أن الحسن بن الحسن قد كاتب أهل العراق ، فاذا جاءك كتابى فابعث اليه الشرط فليأتوا به . قال : فأتوا به فشغله عنه شيء فقام اليه على بن الحسين وقال له ياابن العم : قل كلمات الفرج يفرج الله عنك وهى : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلى العظيم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين . » قال وانصرف على بن الحسين وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ هشام من قراءة الكتاب ونزل قال : أرى وجهاً قد قذف بكذبة خلوا سبيله ، وأنا أراجع أمير المؤمنين فيه فأخروه ، وكتب إلى عبد الملك فكتب اليه فأطلقه بعد أيام .

وروى فى الأخبار أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فى صحراء قريبة من جبل يعبد الله عزوجل فيها إذ مثلت له حية وقالت : قد ألجأنى من يريد قتلى فاجرنى أجارك الله واخبأنى قال : فرفع ذيله وقال ادخلى فتطوقت على بطنه وجاء رجل بسيف وقال يارجل : حية هربت منى الساعة أردت قتلها فهل رأيتها ؟ فقال : ماأرى شيئاً . فانصرف الرجل . فقال العابد لها : أخرجى فقد أمنت . قالت بل أقتلك وأخرج . فقال لها الرجل : ليس هذا جزائى منك . قالت: لابد . قال: فامهلينى حتى آتى سفح هذا الجبل فأصلى ركعتين وأدعو الله وأحفر لنفسى قبراً فاذا نزلته فشأنك وماتريدين . قالت : افعل . وبقيت معلقة بجسمه فصلى بسفح الجبل ، ودعا الله فأوحى الله اليه إنى قد رحمت ثقتك بى ، ودعاءك إياى فاقبض على الحية فانها تموت فى يدك ولا تضرك

ففعل ذلك فنجا ، وعاد إلى موضعه وتشاغل بعبادته :

ووقعت لى هذه الحكاية على سياقة أخرى وذلك : أن الرجل خبأ الحية فى جوفه فقالت له الحية : اخترمنى إحدى خصلتين أن أنكثك نكثة فأقتلك ، أو اكرث كبدك فتلقيها من أسفل قطعاً ؟ قال : والله ما كافأتينى . قالت : فلم تضع المعروف عند من لا يعرفه ؟ وقد عرفت عداوة ما بينى وبين أبيك قديماً ، وليس معى مال فأعطيك ولا دابة فأحملك ؟ فبهذا أكافئك . قال : فامهلينى حتى آتى سفح الجبل ، وامهد لنفسى قبراً . فبينما هو يمشى إذا فتى حسن الوجه ، طيب الرائحـــة ، حسن الثياب فقال له ياشيخ : مالى أراك مستسلماً للموت ، آيسآمن الحياة ؟ قال من عدو فى جوفى يريد هلاكى فاستخرج شيئاً من كمه فدفعـه اليه وقال : كله ، فلما أكله وجد مغصـاً شديداً ثم ناوله أخرى فأكلها فرمى بالحية من أسفله قطعاً . فقال له من أنت ؟ يرحمك الله فما أحد أعظم منة على منك . قال : أنا المعروف الذى صنعت لأن أهل السماء لما رأوا غدر الحية بك اضربوا كل يسأل ربه أن يغيثك . قال الله عز وجل يامعروف : أدرك عبدى فاياى أراد بما صنع ٭ بلغنى أن رجلا جنى على عهد عبد الملك بن مروان جناية فأهدر دمه ، وأمر بطلبه وأهدر دم من يأويه ، فتحاماه الناس فكان يأوى الجبال والمفاوز مستخفياً لا يذكر اسمه ويضاف اليوم واليومين فاذا عرف طرد . فقال الرجل : كنت يوما أسيح فى بطن واد فاذا بشيخ أبيض عليه ثياب بيض قائم يصلى فقمت فصليت إلى جانبه فلمـا سلم قال لى : من أنت ؟ فقلت رجل أخافنى السلطان وقد تحامنى الناس ولم يجرنى أحـد فأنا أسيح فى هـذه البرية خائفاً على نفسى . قال : فأين أنت من السبع ؟ قلت وأى سبع . قال : « تقول سبحان الله الواحد الذى ليس غيره ، سبحان الدائم الذى لا يعادله شىء ، سبحان القائم القـديم الذى لا بدء له ، سبحان الذى يحيى ويميت ، سبحان الذى كل يوم هو فى شأن الذى خلق ما يرى وما لا يرى ، سبحان الذى علم كل شىء بغير تعليم . اللهم إنى أسألك بحق هذه الكلمات وحرمتهن أن تفعل بى كذا وكذا فأعادهن على حتى حفظتهن . قال الرجل : وفقدت صاحبي فألقى الله عز وجل الأمن فى قلبي فخرجت من وقتى

متوجهاً إلى عبد الملك بن مروان حتى وقفت ببابه واستأذنت فأذن لى فلما دخلت قال : أوقد تعلمت السحر ؟ قلت : لا ياأمير المؤمنين ولكنه كان من شأنى كذا وكذا وقصصت الخبر فأمننى وأحسن إلى * أخبرنى بعض أصحابنا أن صديقاً له من الكتاب دفع إلى محنة صعبة فكان من دعائه : « يا كاشف الضر بك استغاث من اضطر » قال : ورأيته نقشه على فص خاتمه ، وكان يردد الدعاء به فكشف الله عز وجل محنته عن قرب * حدثنى على بن هاشم ، قال : حدثنى أحمد بن محمد . قال مؤلف هذا الكتاب : قال لى أبو القاسم عيسى بن على فى كلام جرى بيننا غير هذا طويل : كان أحمد بن محمد أشار على المقتدر وقد استشاره فيمن يقلده الوزارة قال : فأسميت له نفراً وقال سمعت عبيدالله بن سليمان بن وهب يقول : كان المتوكل من أغلظ الناس على ايتاخ ، فذكر فيه حديثاً طويلا وصف فيه كيف قبض المتوكل على ايتاخ وابنه ببغداد لما رجعا من الحج بيد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب قال سليمان ابن وهب : وساعة قبض على ايتاخ ببغداد قبض علىّ بسر من رأى وسلمت إلى عبيدالله بن يحيى وكتب المتوكل إلى اسحاق بن ابراهيم بدخوله بسر من رأى ليتقوى به على الأتراك لأنه كان معه بضعة عشر الفاً لكثرة الظاهرية بخراسان وشدة شوكتهم ، فلما دخل اسحاق أمر المتوكل بتسليمى اليه وقال : هذا عدوى ففصل عظامه . هذا كان يلقانى فى أيام المعتصم فلا يبدأنى بالسلام وأبدأه لحاجتى فيرد على كما يرد المولى على عبده وكل مادبره ايتاخ فعن رأيه . فأخذنى اسحاق وقيدنى بقيد ثقيل وألبسنى جبة صوف وحبسنى فى كنيف وأغلق على خمسة أبواب فكنت لا أعرف الليل من النهار ، فأقمت كذلك نحو عشرين يوماً لا يفتح على الباب إلا حملة واحدة فى كل يوم وليلة ، ويدفع إلى فيهما خبز شعير وملح وماء حار ، فكنت آنس بالخنافس وبنات وردان وأتمنى الموت لشدة ما أنا فيه فعرض لى ليلة من الليالى أن أطلت الصلاة وسجدت ودعوت الله عز وجل بالفرج وقلت فى دعائى : « اللهم ان كنت تعلم أنه كان لى فى دم نجاح بن مسلمة صنع فلا تخلصنى مما أنا فيه ، وإن كنت تعلم أنه لا صنع لى فيه ولا فى غيره من الدماء التى سفكت ففرج عنى . فما استممت الدعاء حتى سمعت

صوت الأقفال تفتح فلم أشك فى أنه القتل ، ففتحت الأبواب وجىء بالشمع وحملنى الفراشون لثقل حديدى . فقلت لحاجبه سألتك بالله أصدقنى عن أمرى فقال : ما أكل الأمير اليوم شيئاً لأن أمرك غليظ . وذلك أن أمير المؤمنين وبخه بسببك . وقال سلمت اليك سليمان بن وهب لتسمنه أو تستخرج ماله ؟ فقال الأمير أنا صاحب شرطة وسيف ولا أعرف وجوه المناظرة على الأموال وان تقرروا أمره على شىء طالبته به ، فأمر الكتاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك والزامك مايؤخذ به خطك وتطالب به ، وقد اجتمعوا واستدعيت لذلك . قال : فحملت إلى مجلس اسحاق فاذافية موسى ابن عبد الملك صاحب ديوان الخراج . والحسن بن محمد صاحب ديوان الضياع ، وأحمد بن اسرائيل الكاتب ، وأبو نوح ، وعيسى بن ابراهيم كاتب الفتح بن خاقان ، وداود بن الجراح صاحب الزمام فطرحت فى آخر المجلس ، فشتمنى إسحاق بن ابراهيم أقبح شتم وقال : يافاعل ياصانع تعرضنى لاستبطاء أمير المؤمنين والله لأفرق بين لحمك وعظمك . ولأجعلن بطن الأرض أحب اليك من ظهرها ، أين الأموال التى جمعتها من غير وجهها ؟ فاحتججت بنكبة ابن الزيات فبدأنى الحسن بن محمد فقال : أخذت من الناس أضعاف ما أديت ، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ فأخذت ضياع السلطان واقتطعتها لنفسك وحزتها سرقة اليك وأنت تستغلها الفى ألف درهم وتتزيا بزى الوزراء ، وقد بقيت عليك جملة من تلك المصادرة لم تؤدها وأخذت الجماعة تواجهنى بكل قبيح . إلا موسى بن عبد الملك فانه ساكت لصداقة كانت بينى وبينه فأقبل من بينهم على اسحاق فقال ياسيدى : تأذن لى فى الخلوة لأفصل الأمر فقال له اسحاق افعل . فاستدنانى فحملت اليه فسار إلى وقال عزيز على يا أخى حالك ، وبالله لو كان خلاصك بنصف ما أملكه لافتديتك به ، ولكن صورتك قبيحة وإن خالفتنى فأنت والله هالك . فقلت : لا أخالفك .. فقال : الرأى أن تكتب خطك بالتزام عشرة آلاف ألف درهم تؤديها فى فى عشرة أشهر كل شهر ألف ألف درهم وترفه عاجلا مما أنت فيه

فسكت سكوت مبهوت . فقال لى مالك ؟ فقلت : والله ما أرجع إلى ربعها إلا بعد بيع عقارى ومن يشترى منى وأنا منكوب ، وكيف يتوفر الثمن . فقال : أنا أعلم أنك صادق ولكن احرس نفسك عاجلا بعظم ما تبذله ويطمع فيه من جهتك ، وأنا وراء الحيلة لك فى شىء أميل به رأى الخليفة إلى صلاحك والله المعين ، ومن ساعة إلى ساعة فرج ، والا تتعجل الموت ، ولا تستفيد الراحة مما أنت فيه يوما . فقلت لست أتهم ودك ولا رأيك وأنا أكتب . فأقبل على الجماعة وقال يا سادتى : إنى قد أشرت عليه أن يكتب بشىء لا طاقة له بأكثر منه ، ورجوت أن تعاونه بأموالنا وجاهنا ليمشى أمره ، وقد أوقفته ليكتب بكذا وكذا فقالوا الصواب أن تفعل هذا . فدعا له بدواة وقرطاس وأخذ خطه بالمال . فلما أخذ قام موسى بن عبد الملك وقال لإسحاق يا سيدى : هذا رجل قد صار للسلطان عليه مال ، وسبيله أن يرفه ويحرس نفسه ، وينقل عن هذه الحال ويغير زيه ، ويرد جاهه بانزاله فى دار كبيرة واخدامه بفرش وآلة حسنة ويمكن من يؤثر لقاءه من أهله وولده وحاشيته ومعامليه ليجد فى تمحل الأموال وتبعة الناس ويبيع أملاكه ، ويرتجع ودائعه ممن هى عنده . فقال اسحاق : أفعل ذلك الساعة ، وغدا أخرجه إلى دار كبيرة كما وصفت ، وأمكنه من جميع ما التمست له ونهضت الجماعة . فأمر اسحاق بأخذى فى الحال وإدخالى الحمام وجاؤنى بخلعة نظيفة فلبستها ، وبخور طيب فتبخرت واستدعانى اسحاق فلما دخلت اليه نهض إلى ولم يكن فى مجلسه أحد واعتذر إلى مما خاطبنى به وقال : أنا صاحب سيف ومأمور ، ولقد لحقنى اليوم من أجلك سماع كل مكروه حتى امتنعت والله عن الطعام بأن ابتلى بقتلك أو يعتب الخليفة على من أجلك ، وإنما خاطبتك بذلك إقامة عذر عند هؤلاء الأشراف ليبلغوا الخليفة ذلك وجعلته وقاية من الضرب والعذاب . فشكرته وقلت ما حضرنى من الكلام . ولما كان من غد حولنى إلى دار

كبيرة حسنة مفروشة ووكل على فيها باحسان وإجلال ، واستدعيت كل من أردت وتسامع الناس بأمرى وجاؤنى ففرج عنى ومضت سبعة وعشرون يوماً وقد أعددت ألف ألف درهم وأنا أتوقع أن يرد المحل فأطلب فأؤدى المال ، وإذا أنا بموسى بن عبد الملك قد دخل إلى فقمت اليه فقال : أبشر . فقلت ما الخبر ؟ فقال ورد كتاب صاحب مصر بمبلغ مالها لهذه السنة مجملا ، ومبلغ الجمل فى النفقات يبلغ ذلك حساباً مفصلا فقرأ عبيدالله ذلك على أمير المؤمنين فوقع إلى باخراج مال مصر ليعرف آثار العامل ، فأخرجتها من ديوان الخراج والضياع لأن ضياع مصر تجرى فى ديوان الضياع وتجرى فى ديوان الخراج وينفذ حسابها إلى الدواوين كما علمت ، فجعلت سنتك التى توليت فيها عمالة مصر مصدرة ، وأفردت بعدها السنين الناقصة عن سنتك توصلا فى خلاصك وجعلت أقول النقصان فى سنة كذا وكذا من التى صدرتها كذا وكذا . فلما قرأ عبيد الله المفصل على المتوكل قال : فهذه السنة الوافرة من كان يتولاها ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : سليمان بن وهب . فقال المتوكل لم لا يرد اليها ؟ فقلت يا أمير المؤمنين وأين سليمان بن وهب ذاك مقتول بالمطالبة ، قد استصفى وافتقر . فقال تزال عنه المطالبة ، ويعاون بمائة الف درهم ، ويعجل إخراجه . فقلت يا أمير المؤمنين : وترد ضياعه ليرتفع جاهه . قال : ونفعل ذلك . وقد تقدم إلى عبيد الله بذلك واستأذنته فى أن أجيئك وأخرجك فأذن لى فقم بنا إلى الوزير . قال وقد كان أرسل إلى اسحاق برسالة الخليفة يأذن له فى إطلاقى فخرجت من وقتى ولم أؤد من المال حبة واحدة ورددته إلى موضعه وجئت إلى عبيدالله فوقع لى بمائة ألف معونة على سفرى ودفع إلى عهد مصر فخرجت إليها مسروراً .

حدثنى عبيدالله الاسناتى قال : أحزننى أمر ضقت به ذرعاً فأتيت يحيى ابن خالد الأزرق وكان مستجاب الدعوة فرآنى مكروباً قلقاً فقال : ما شأنك ؟ قلت : دفعت إلى كيت وكيت . فقال استعن بالله واصبر فإن الله جل جلاله وعد الصابرين أجراً . فقلت : ادع الله فحرك شفتيه بشىء لا أعلم ما هو فانصرفت

على جملة قلق فبت بليلة عظيمة فلما أصبحت أتانى الله بالفرج . حدثنى أحمد ابن عبد الله بن داسه قال : اعتللت علة عظيمة يئست فيها من نفسى فعادنى بعض أصحاب سهل بن عبد الله التسترى فقال : كان سهل يدعو فى علله بدعاء ما دعا به أحد إلا عوفى . فقلت : ما هو ؟ فقال : « اللهم اشفنى بشفائك ، وداونى بدوائك ، وعافنى من بلائك» . فواصلت الدعاء فعوفيت * حدثنى أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق قال : حدثنى أبو الحسين البواب المقرئ قال : كان يصحبنا على القرآن رجل مستور صالح يكنى أبا أحمد وكان يكتب كتب العطف للمستورين من الناس فحدثنى قال : بقيت يوما بلا شىء وأنا جالس فى دكانى ، فدعوت الله عز وجل ليسهل لى سببا فما استتممت الدعاء حتى فتح باب دكانى غلام أمرد حسن الوجه جداً فسلم بأدب حسن وجلس . فقلت : ماحاجتك ؟ فقال : أنا عبد مملوك وقد طردنى مولاى وغضب على وقال : انصرف عنى إلى حيث شئت ، وما أعددت لنفسى من أن أطرحها عليه فى مثل هذا الوقت ، ولا أعرف من أقصده وقد بقيت متحيراً فى أمرى وقد قيل لى إنك تكتب كتاب العطف فاكتب فكتبت الكتاب الذى كنت أكتبه وهو : بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله رب العالمين (١)) - إلى آخر - السورة ، و (المعوذتين (٢)) (وآية الكرسى (٣)) (ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله (٤) إلى آخر السورة ، وكتبت آيات العطف (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٥)) (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٦)) (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا — إلى قوله — لعلكم تهتدون (٧))

---

(١) الفاتحة ١ (٢) الفلق والناس . (٣) البقرة ٢٥٥
(٤) الحشر ٢١ (٥) الأنفال ٦٣ (٦) الروم ٢١
(٧) آل عمران ١٠٣

وقلت له : خذ هذه الرقعة ، فشدها على عضدك الأيمن ولا تعلقها عليك إلا إذا كنت طاهراً . قال : فأخذها وقام ووضع بين يدى ديناراً عينا فتداخلنى رحمة له فصليت ركعتين ودعوت الله عز وجل أن ينفعه بالكتاب ، ويرضى عليه قلب مولاه وجلست . فما مضت إلا ساعتان فاذا بأبى الجود خليفة عجيف غلام ناذوك وكان على الشرطة قد جاءنى فقال : أجب الأمير ناذوك . قال : فخفت . فقال : لا ترع وأركبنى بغلا وجاء بى الى دار ناذوك فتركنى فى الدهليز ودخل فلما كان بعد ساعة أدخلت إلى ناذوك فاذا هو جالس فى دست عظيم وبين يديه الغلمان قياماً نحو ثلاث مائة غلام وأكثر ، وكاتبه أبو القاسم جالس بين يديه ورجل لا أعرفه ، فارتعت وأهويت لأقبل الأرض . فقال : مه عافاك الله لا تفعل هـذه من سنن الجبارين ، ما نريد نحن هـذا اجلس ياشيخ لا تخف . قال : فجلست فقال جاءك اليوم غلام أمرد فكتبت له كتاباً للعطف ؟ فقلت : نعم . قال فاصدقنى عما جرى بينكما حرفاً حرفاً ، قال فأعدته عليـه حتى لم أخرم منه حرفا . وتلوت عليه الآيات . قال فلما قلت له : إن الغلام قال أنا عبد مملوك وما أعددت لنفسى من أقصده لهذا الحال ولا أعرف جهة ألجأ اليها وقد طردنى مولاى بكيت أنا لما تداخلنى من رحمتى للفتى ومحبتى للدينار الذى أعطانيه . قال : فدمعت عين ناذوك ثم تجلد واستوفى الحديث وقال قم ياشيخ بارك الله فيك وعليك ، ومهما عرضت لك حاجة أو لجارك أو لصديقك فاسألنى إياها فانى أقضيها إن شاء الله تعالى ، وأكثر الحضور عندنا ، وانبسط فى هذه الدار فانك غير محجوب عنها ، فدعوت له وخرجت فلما صرت فى الدهليز إذا بالفتى فعـدل بى الى موضع وأجلسنى فقلت : ما خبرك ؟ قال أنا غلام الأمير وكان قد غضب على وطردنى فجئتك فلما جلست عندك طلبنى فرجعت فاذا برسل قد انبثوا فى طلبى ، فلما حضرت قال أين كنت فحدثته ، فلم يصدقنى وطلبك فلما حدثته بمثل ما حدثته أنا حرفاً بحرف وخرجت الساعة أحضرنى وقال يابنى إنك الساعة من أجل غلمانى عندى ، وأمكنهم من قلبى ، وأخصهم بى إذ كنت لما عاملتك بهـذا ما عيرك ذلك

عن محبتى والرغبة فى خدمتى ، وطلب الحيل فى الرجوع إلى ، وانكشف لى أنك ما أعددت لنفسك بعدالله عز وجل سواى ، ولا عرفت وجهاً تلجأ إليه فى الدنيا غيرى ، فما ترى بعد هذا إلا كل ماتحبه وسأعلى منزلتك ، وأبلغ بك مراتب نظرائك ، ولعل الله عزوجل استجاب فيك دعاء هذا الشيخ ونفعك بالآيات من القرآن العظيم ، فبأى شىء كافأت الرجل ؟ فقلت : ماأعطيته غير ذلك الدينار . فقال سبحان الله : قم إلى الخزانة وخذ ماتريد واعطه فأخذت هـذا من الخزانة وجئتك به . وأعطانى خمسمائة درهم . وقال : الزمنى فانى أحسن اليك إن شاء الله تعالى فجئته بعد مدة فإذا هو قائد جليل ، وصار لى عدة على الزمان .

قال وحدثنا أبو الحسن محمد بن محمد المعروف بابن المهتدين ، قال : حدثنى أبو مروان الحامدى ، قال : لما ظلم الناس بواسط أحمد بن سعيد الكوفى وهو إذذاك يتقلدها لناصر الدولة وقد تقلد ناصر الدولة امرة الأمراء ببغداد كنت أحد من ظُلم ظلمنى وأخذ من ضيعى بالحامدية نيفا وأربعين كرا ارزا بالنصف من حق الدهقنة بغير تأويل سوى ما أخذه من حق بيت المال وظلم فيه ، فتظلمت اليه وكلمته فلم ينصفنى وكان الكر الارز بالنصف إذ ذاك يساوى ثلاثين ديناراً فقلت له : قد أخذ سيدنا أيده الله منى ما أخذ ووالله ماعندى أنا وعيالى شىء سواه ، ومالى ما أقوتهم به باقى سنتى ، ولا ما أعمر به ضيعتى وقد طابت نفسى أن يطلق لى من جملته عشرة اكرار وأجعل الباقى له حلالا . فقال : لا أفعل . وبكيت بين يديه وقبلت يده ورققته وقلت : فهب لى ثلاثة اكرار وتصدق بها على وأنت من جميعه فى حل ، فقال : والله ولا رزة واحدة . قال فتحيرت وقلت له فإنى أتظلم إلى الله عز وجل منك . فقال كن على ظلامتك يكررها دفعات ويكسر الميم بلسان أهـل الكوفة ، فانصرفت محترق القلب منقطع الرجاء ، فجمعت عيالى ومازلت أدعو الله عليه ليالى كثيرة ، فهرب من واسط فى الليلة الحادية عشرة من أخذ الارز فجئت إلى البيدر وأرزى مطروح فيه ، وأخذته وحملته إلى منزلى ، وما عاد

الكوفى إلى واسط ولاأفلح . حدثنى غير واحد من الكتاب عمن سمع أبا على بن مقلة لما عاد من فارس وزيراً يتحدث قال : من طريف ما اتفق فى نكبتى هذه التى أدتنى إلى الوزارة أنى أصبحت وأنا محبوس مقيد فى حجرة من دار ياقوت أمير فارس ، وقد لحقنى من الاياس من الفرج وضيق الصدر بها ما أقنطنى وكاد يغلب على عقلى ، وكنت أنا وفلان محبوسين مقيدين فى بيت واحد من الحجرة إلا أنا على سبيل ترفيه واكرام . فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيراً ما يجيئنا برسالته . فقال الأمير يقرأ عليكما السلام ويعرف أخباركما ، ويعرض عليكما قضاء أى حاجة كانت لكما . فقلت له : تقرأ على الأمير السلام وتقول له : قد ضاق والله صدرى ، واشتهيت أن أشرب على غناء طيب ، فان جاز أن يسامحنا بذلك سراً فيتخذ به عندنا منة وبرا تفضل بذلك . قال : والمحبوس معى يخاصمنى ويقول يا هذا : والله ما فى قلوبنا فضل لهذا . فقلت للكاتب أعدعنى ما قلت لك . قال: السمع والطاعة ومضى ثم جاء وقال : الأمير يقول لك حباً وكرامة لك وعزازة أى وقت شئت فقلت الساعة ، فلم يمض إلا ساعة حتى جاؤا بالطعام فأكلنا والمشام والفاكهة والنبيذ وصفف المجلس فجلست والمحبوس معى مقيداً ، وقلت له تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغنى به لنا فى هذه الساعة فى سرعة الفرج مما نحن فيه فلعله يصح الفأل . فقال : أما أنا فلا أشرب فلم أزل أرفق به حتى شرب وجاءت المغنية فكان أول صوت غنته شعر :

قواعد للبين الخليط لينبوا وقالوا لراعى الذود موعدك السبت
ولكنهم بانوا ولم أدر بغتة وأفظع شىء حين يفجؤك البغت

فقال لى: ماهذا ما يتفاءل به ، وأى معنى فيه يدل على فرجنا؟ فقلت : ماهو إلا فأل مبارك ، ولعل الله أن يفرق بيننا وبين هذه الحال التى نحن فيها بالفرج والصلاح يوم السبت . قال وشربنا يومنا وسكرنا وانصرفت المغنية ومضت بقية أيام ذلك الأسبوع . فلما كان يوم السبت لم يمض من النهار إلا دون ساعتين فاذا بياقوت قد دخل علينا فجأة فارتعنا وقمت اليه فقال أيها الوزير : الله الله فى واقبل

مسرعاً إلى وعانقني وأجلسني وأخذ يهنيني بالوزارة فتهنيت ولم يكن عندي علم من شيء من الأمر ، ولا مقدمة له فأخرج كتاباً قد ورد عليه من القاهر بالله يعلمه فيه تقليده إياي الوزارة ، ويأمره فيه بطاعتي وسلم إلى كتاباً من القاهر بمثل ذلك يأمرني فيه بالنظر في أمر فارس والأولياء بها واستصحاب ما يمكنني من المال وتدبير أمر البلدة بما أراه والبدار إلى حضرته فانه قد استخلف لي إلى وقت حضوري الكلوباذي . فحمدت الله تعالى وشكرته وإذا الحداد واقف فتقدمت اليه يفك قيودي وقيود الرجل ففكت ودخلت الحمام وأصلحت من أمري وأمر الرجل وخرجت فجلست ونظرت في الأعمال والأموال وجمعت مالا جليلا في مدة يسيرة وقررت أمور البلدة واستصحبت الرجل إلى الحضرة حتى جلست هذا المجلس وفرج الله عني وعنه في يوم السبت *

وقال ابراهيم بن العباس : كنت أكتب لأحمد بن أبي خالد فدخلت عليه يوما فرأيته مطرقا مفكراً مغموما ، فسألته عن خبره فأخرج لي رقعة فاذا فيها : ان حظية من أعز جواريه يخالف اليها وتوطيء فراشه غيره ، ويستشهد في الرقعة خادمين على ذلك كانا ثقتين عنده . قال ، فدعوت الخادمين وسألتهما عن ذلك فانكراه فتهددتهما بالقتل فأقاما على الانكار فضربتهما فاعترفا بذلك على الجارية بكل ما في الرقعة ، وإني لم أذق أمس واليوم ذواقا وقد هممت بقتل الجارية . قال : فوجدت بين يديه مصحفاً ففتحه فكان أول ما خرج فيه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (١)) الآية قال : فتشككت أنا في صحة الحديث ورأيته ما خرج في الفأل وقلت دعني أتلطف في كشف هذا . فخلوت بأحد الخادمين وناجيته عن الأمر فقال النار ولا العار ، وذكر أن امرأة أحمد بن أبي خالد وجهت اليه بكيس فيه ألف دينار وسألته الشهادة على الجارية وأمرته أن لا يذكر شيئاً إلا بعد أن يقع به مكروه ليكون أثبت للخبر ، وأحضر الكيس مختوما بختم المرأة ، ودعوت بالآخر فخلوت به فاعترف بمثل هذا فبادرت إلى أحمد بالبشارة فما

(١) الحجرات ٦

وصلت اليه حتى وردت رقعة الحرة تعلمه أن الرقعة الأولى كانت من فعلها غيرة عليه من الجارية ، وأن جميع ما فيها باطل ، وأنها هى التى حملت الخادمين على ذلك وأنها تائبة إلى الله عز وجل من هــذا الفعل وأمثاله . فجاءته براءة الجارية من كل جهة فسر بذلك وزال ماكان فيـه وأحسن لى الجائزة .

وقال الحسن بن الحسن : إن عبد الله بن جعفر زوج ابنته فلما أراد أن يهديها إلى زوجها خلا بها فقال : إذا نزل بك الموت أو أمر من أمر الدنيا فظيع فاستقبليه بأن تقولى : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . قال الحسن بن الحسن فبعث إلى الحجاج فقلتهن فلما مثلت بين يديه قال : لقد بعثت اليك وأنا أريد أن أضرب عنقك . ودخلت إلى وما من أهل بيت على أكرم منك سل حاجتك .

عن الشعبى قال : كنت جالساً عند زياد فجاء رجل اليه يحمل ولم نشك فى قتله فحرك الرجل شفتيه بشىء لا ندرى ماهو فخلى سبيله . فقلت للرجل : ماقلت ؟ قال قلت : « اللهم رب ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والاسباط ، ورب جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومنزل التوراة ، والإنجيــل ، والقرآن العظيم ، ادرأ عنى شر زياد » فدرأ عنى شره » حدثنى أبو عبـد الله الحزنبل قال : أمر الرشيد خادمه قال : إذا كان الليـلة فصر إلى الحجرة الفلانية فافتحها فخذ من رأيت فائت به موضع كذا وكذا من الصحراء فانك تجد قليباً محفوراً فارم به فيه وطمه بالتراب وليكن معك فلان الحاجب . (قال) : فجاء إلى باب الحجرة ففتحها فاذا فيها غلام كأنه الشمس الطالعة قال فجذبه اليه جذباً عنيفاً . فقال له : اتق الله فى فإنى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله الله أن تلقى جدى بدمى . قال فلم يلتفت اليه وأخرجه إلى الموضع (قال) : فلما أشرف الفتى على التلف قال ياهذا : إنك على فعل مالم تفعل أقدر منك على رد ما فعلت . فدعنى أصلى ركعتين وأمض ما أمرت به . فقال له شأنك وما تريد فافعل . فقام الفتى فصلى ركعتين ثم سمعناه يقول : « ياخفى اللطف أغثنى فى وقتى هذا ، والطف بى بلطفك الخفى » . فلا والله ما استتم دعاءه

حتى هبت ريح باردة ، وغبرة فلم ير بعضنا بعضاً ، ووقعنا لوجوهنا، واشتغلنا بأنفسنا عن الفتى ، ثم سكنت الريح والغبرة فرأينا الكواكب وطلبنا الفتى فلم نجده . ورأينا قيوده مرمية بحضرتنا . قال فقال الحاجب للخادم هلكنا سيقع لأمير المؤمنين انا أطلقناه فماذا نقول لئن نحن كذبناه لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى ، ولئن صدقناه ليعجلن المكروه علينا ؟ فقال أحدهما للآخر لئن كان الكذب ينجى فالصدق أنجى . فلما دخلوا عليه قال لهم ما فعلتما ؟ فقال الحاجب ياأمير المؤمنين الصدق أولى ما اتبع ومثلى لا يجترىء أن يكذب على أمير المؤمنين ، وانه كان من الخبر كذا وكذا فقصه عليه . فقال الرشيد : والله لقد تداركه اللطف الخفى ، والله لأجعلنها من مقدمات دعائى امض لشأنك واكتم ماجرى .

وعن أبى سلمة عبيد الله بن منصور قال : جرت على رجل شدة هاضته فلح فى الدعاء ذات ليلة فهتف به هاتف يا هذا : « قل يا سامع كل صوت ، ويا بارئ النفوس بعد الموت ، ويا من لا تغشاه الظلمات ، ويا من لا يشغله شىء عن شىء » . قال فدعا بها ففرج الله عنه ولم يسأل ربه حاجة تلك الليلة إلا أعطاه ٭ وعن إسحاق العروانى قال : زحف الينا ابن ادمهومرد عند مدينة الكرج فى ثمانين فيلا فكادت تنقض الصفوف والخيول فكرب لذلك محمد ابن القاسم ، فنادى عمران بن النعمان أمير أهل حمص وأمر الأجناد فنهضوا فما استطاعوا فلما أعيته الأمور نادى مراراً : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فكف الله الفيلة بذلك وسلط عليها الحر فأنضجها فنزعت إلى الماء فما استطاع سواقها ولا أصحابها حبسها وحملت الخيل عند ذلك فكان الفتح ٭ قال كان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقى العدو أو ناهض حصناً قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . وانه ناهض يوماً حصناً فانهزم الروم فقالها المسلمون فانصدع الحصن .

حدثنى الحسين بن عبد الرحمن : أن بعض الوزراء نفاه الملك لموجدة وجدها عليه فاغتم لذلك غماً شديداً فبينا هو ذات ليلة فى مستتر له إذ أنشد رجل معه بيتين من شعر وهما :

أحسن الظن برب عودك حسناً أمس وسوى أودك
إن رباً كان يكفيك الذى كان بالأمس سيكفيك غدك

قال : فسرى عنه ما كان فيه وأمر له الملك بعشرة آلاف درهم .

وعن محمد بن رجاء قال : أصابنى غم شديد لأمر كنت فيه فرفعت مقعداً لى كنت جالساً عليه فاذا رقعة فنظرت فيها فإذا مكتوب بيت شعر .

ياصاحب الهم إن الهم منقطع لا تيأسن كان قد فرج الله

قال : فذهب عنى ما كنت أجده من الغم ، ولم ألبث أن فرج الله عنى ☆

حدثنى أبو بكر الثقفى قال : قال رجل أصابنى غم ضقت به ذرعاً فنمت فرأيت فى المنام كان قائلا يقول هذه الأبيات :

كن للمكارم بالغرام مقطعاً فلعل يوماً أن ترى ما تكره
ولربما ابتسم الوقور من الأذى وضميره من حره يتأوه

☆ ☆ ☆

قال مؤلف هذا الكتاب : حدثنى على بن الحسن الشاهد من حفظه قال حدثنى أبو الحسن بن أبى الطاهر محمد بن الحسن الكاتب صاحب الجيش قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فى وزارته للقاهر بالله على أبى ، وعلى معاً فحبسنا فى حجرة من دار ضيقة وأجلسنا على التراب ، وشدد علينا ، وكان يخرجنا كل يوم فيطالب أبى بمال المصادرة ، واضرب أنا بحضرته ولا يضرب هو ، فلاقينا من ذلك شدة صعبة . فلما كان بعد أيام قال لى أبى إن هؤلاء الموكلين بنا قد صارت لنا بهم حرمة ، فتوصل إلى مكاتبة أبى بكر الصيرفى وكان صديقه حتى ينفذ الينا ثلاثة آلاف درهم نفرقها عليهم . ففعلت ذلك فأنفذ الدراهم من يومه فقلت للموكلين فى عشية ذلك اليوم : قد وجبت لكم علينا حقوق فخذوا الدراهم فانتفعوا بها . فامتنعوا من ذلك فقلت : ماسبب امتناعكم ؟ فوروا عنى . فقلت أما قبلتم وأما عرفتمونى السبب ؟ فقالوا نشفق عليك من ذكره ، ونستحى . فقلت لأبى : قل لهم اذكروه على كل حال . فقالوا : قد عزم الوزير على قتلكما الليلة

ولانستحسن أخذ شيء منكما مع هذا الحال . فقمت وتغير حالى فقال أبى اردد الدراهم على أبى بكر فدفعتها إلى من جاء بها فردها عليه ، وكان أبى يصوم تلك الأيام كلها فلما غابت الشمس ذلك اليوم وتطهر لم يفطر وصلى المغرب وصليت معه ثم أقبل على الصلاة والدعاء إلى أن صلى العشا الآخرة . ثم دعانى فقال : اجلس يابنى جاثياً على ركبتيك ففعلت ، وجلس هو كذلك ثم رفع رأسه إلى السماء فقال يارب : « محمد بن القاسم قد ظلمنى ، وحبسنى على ماترى ، وأنا بين يديك ، قد استغثت اليك ، وأنت أحكم الحاكمين ، فاحكم بيننا » . لا يزيد عليها ، ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته ولم يزل يكررها بصياح وبكاء ، واستغاثة إلى أن ظننت أنه قد مضى ربع الليل . فوالله ماقطعها حتى سمعت الباب يدق فذهب عنى أمرى ، ولم أشك أنه القتل وفتحت الأبواب فدخل قوم بشموع ، فتأملت فاذا فيهم سابور خادم القاهر . فقال : أين أبو طاهر ؟ فقام أبى فقال : ها أنا ذاك . فقال أين ولدك ؟ فقال : هو ذا . فقال انصرفا إلى منزلكما . فإذا هو قد قبض على محمد بن القاسم وأخذه إلى دار القاهر فانصرفنا وعاش محمد فى الاعتقال ثلاثة أيام ومات .

لما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة على بن عيسى بن ماهان جعل ذات يوم فى كمه دراهم يفرقها على الفقراء ، ثم أسبل كمه ناسياً فانتقضت الدراهم فتطير من ذلك واغتم فانتصب له شاعر فقال :

هـذا تفرق جمعهم لاغيره وذهابه منـه ذهاب الهم

شيء يكون الهم نصف حروفه لاخير فى إمساكه فى الكم

فسلى همه ومابه وأمر له بثلاثين ألف درهم .

انصرف يحيى بن خالد البرمكى من عند الهادى وقد ناظره فى تسهيل خلع العهد عن هارون الرشيد ويحيى يحلف أنه قد فعل ذلك وجهد به فامتنع هارون . فقال له الهادى : كذبت هـذا من فعلك ، والله لأفعلن بك ولأصنعن ، وتوعده بكل عظيمة وصرفه ، فجاء إلى داره فكلم غلامه فى شيء فأجابه بما أغاظه ، فلطمه يحيى فانقطعت حلقة خاتمه وضاع الفص .

فاشتد ذلك عليه وغمه فدخل عليه الشيارى الشاعر عقيب ذلك فأخبره بالقصة فقال فى الحال :

أخلاك من كل الهموم سقوطه ... وأتاك بالفرج انفراج الخاتم

قد كان ضاق فقلت حلقة ضيق ... فاصبر فاريب الزمان بدائم

فما أمسى حتى ارتفعت الناعية على موسى وصار الأمر إلى هارون ، وأعطى يحيى الشيارى مائة ألف درهم .

قال أبو على العتابى : حدثنى جدى ، قال : بكرت يوما إلى موسى بن عبد الملك ، وحضر داود بن الحاج فوقف إلى جانبى فقال : كان بى أمس خبر طريف انصرفت من عند موسى بن عبد الملك فوجدت فى منزلى امرأة شريفة من شرائف النساء فشكته إلى وقالت : قد حاول أن يأخذ ضيعتى الفلانية وأنت تعلم أنها عمدتى فى معيشتى ، وان فى عنقى صبية أيتاماً فأى شىء تدبر فى أمرى وتشير على ؟ فقلت لها : من معك وراء الستر ؟ قالت : مامعى أحد فقلت لها أما التدبير فى أمرك فمالى فيه حيلة ، وأما المشورة فقد قال النبطى : لاتبع أرضك من اقدام الرجل الردىء ، فإن الردىء يموت ، والأرض تبقى . فدعت لى وانصرفت فنحن كذلك إذ خرج موسى فقال لداود بن الحاج ، يا أبا سليمان : لاتبع أرضك من اقدام الشرير فانه يموت والأرض تبقى . فقال لى داود : سمعت هذا والله هو الموت ، أين أهرب أين أمضى ، ما آمنه والله على نفسى ، ولا نعمتى فأشر على ما اصنع قبل نماد طريقنا إلى الديوان ؟ فقلت ما ادرى فرفع طرفه إلى السماء وقال : « اللهم اكفنى شره وضره وامره . فإنك عالم بقصتى وما أردت بما قلت إلا الخير » . واشتد قلقه وكثر بكاؤه وقربنا من الديوان . فقال موسى وهو على حالته : متى حدث هـــذا الجبل الأسود فى طريقنا ومال على سرجه حتى سقط واستكت اسنانه وحمل إلى منزله وكان آخر العهد به .

ذكر المدايني فى كتابه قال: قال ابو سعيد ـ واظا احسبه الأصمعى : نزلت يوما بحى من كليب مجدبين ، وقد توالت عليهم سنون موتت الماشية ، ومنعت

الأرض خروج نباتها وأمسكت السماء قطرها ، فجعلت أنظر إلى السحابة ترتفع من ناحية القبلة سوداء متقاربة حتى تطبق السماء ويشرف لها الحى ويرفعون أصواتهم بالتكبير ثم يعدلها الله عنهم مراراً . فلما كثر ذلك خرجت عجوز فعلت شرفا ثم نادت بأعلى صوتها : « ياذا العرش اصنع كيفما شئت فإن أرزاقنا عليك » فما نزلت من موضعها حتى تغمت السماء فمطرت مطراً كاد أن يغرقهم وأنا حاضر .

حدثنا على بن أبى الطيب بالاسناد عن وضاح بن خيثمة قال : أمرنى عمر ابن عبد العزيز بإخراج من فى السجن فأخرجتهم إلا يزيد بن أبى مسلم فهدر دمى . فقال : والله إنى لبإفريقية إذ قيل قدم يزيد بن أبى مسلم فهربت منه ، فأرسل فى طلبى فأخذت فأتى بى . فقال وضاح : فقلت : نعم . فقال أما والله لطالما سألت الله تعالى أن يمكننى منك . فقلت : وأنا والله لطالما استعذت الله من شرك . فقال : والله ما أعاذك الله ، ووالله لأقتلنك ، والله لو سابقنى ملك الموت على قبض روحك لسبقته . على بالسيف والنطع . قال فجىء بهما واقعدت فيه وكتفت وقام قائم على رأسى بالسيف مشهوراً ، وأقيمت الصلاة فخرج اليها فلما خر ساجداً أخذته السيوف من أهل الهند فقتل ، فجاءنى رجل وقطع كتافى بسيفه وقال انطلق . حدثنى أبو الطيب عبد العزيز حماد باسناد كثير ، عن القاضى التنوخى الانبارى قال : حدثنى أبو عبدالله بن أبى عوف البزورى ، قال : دخلت على أبى العباس بن ثوابة وكان محبوساً فقال لى احفظ عنى فقلت نعم فقال شعراً :

عواقب مكروه الأمور خيار وأيام شر لا تدوم قصار
وليس بباق بؤسها ونعيمها إذا كر ليل ثم كر نهار

فلم يمض أيام يسيرة حتى أطلق من محبسه ٭ حدثنى أحمد بن عبد الله الوراق ، عن أبى بكر المعروف بالمستعينى بإسناد عن بعض تجار المدينة قال : كنت أختلف إلى جعفر بن محمد وكنت له خليطاً وكان يعرفنى

بحسن حال فتغيرت حالتى فرق لى فأتيته فجعلت أشكو اليه سوء حالتى فقال شعراً :

فلا تجزع وإن أعسرت يوما فقد أيسرت فى الدهر الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

قال فخرجت من عنده وأنا أغنى الناس . وفى رواية أخرى زيادة وهى :

فان العسر يتبعه يسار وقيل الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقاً لكان المال عند ذوى العقول

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه بالاسناد عن محمد بن موسى بن الفرات قال: كنت أتولى ماء سيدان ، وكان صاحب البريد بها على بن زيد ، وكان قديماً يكتب للعباس بن المأمون فحدثنى : أن العباس غضب عليه وأخذ كل ما كان يملك حتى بقى بسر من رأى لا يملك شيئاً إلا برذونه بسرجه ولجامه ومنطقته وطيلسانا وقميصاً وشاشية ، وانه كان يركب فى أول النهار فليقى من يحتاج إلى لقائه ، ثم ينصرف فيبعث برذونه إلى الكراء فيكسب عليه مايعلفه وما ينفق هو وغلامه عليه . فاتفق فى بعض الأيام أن الدابة لم يكسب عليها شيئاً فبات هو وغلامه طاويين . قال : ونالنا من الغد مثل ذلك . فقال لى الغلام : نحن نصبر ولكن الشأن فى الدابة إنا نخاف أن تعطب . فقلت يابنى فنعمل ماذا : ؟ ليس إلا السرج واللجام والمنطقة والطيلسان والقلنسوة ومتى بعنا منها شيئا بطلت الحركة وبطل التصرف . قال : فانظر فى أمرك . قال فنظرت فاذا فراشى حصير خلق ، ومخدتى لبنة أغشيها بخرقة وما أتمسح فيه للصلاة مطهرة خزف فلم أجد شيئاً غير منديل دبيقى خلق قد بقى منه الاسم فقلت للغلام بع هذا المنديل واشترى لنا لحما بدرهم واشوه فقد قرمت اليه . فمضى الغلام وأخذ المنديل وبقيت فى الدار وحدى وفيها شاهمرج قد جاع ، فلم أشعر إلا بعصفور قد سقط فى المطهرة التى فيها الماء لطهرى عطشا فشرب ونهض اليه الشاهمرج فناهضه فلضعفه قصر عنه ، وطار العصفور فوقف الشاهمرج

فأخذه بحمية فابتلعه . فلما صار فى حوصلته دخل المطهرة فتغسل و نشر جناحيه وصاح و نشط فبكيت ورفعت رأسى إلى السماء . فقلت : « اللهم كما فرجت عن هذا الشاهمرج ففرج عنى وارزقنى » . فما رددت طرفى حتى دق الباب داق فقلت : من ؟ فقال : إبراهيم بن نوح ، وكان للعباس وكيل هذا اسمه . فقلت ادخل ، فنظر إلى صورتى فقال : مالى أراك على هذه الحالة . فكتمته خبرى . فقال : الأمير يقرأ عليك السلام وقد أصبح فى هذا اليوم وهو يذكرك وأمر لك بخمسمائة دينار وأخرج الكيس ووضعه بين يدى . فحمدت الله تعالى ودعوت للعباس ثم أريته قصتى وأطلعته دارى وبيوتى وعرفته خبر الدابة والمنديل والشاهمرج والدعوة فتوجع لى وانصرف . فلم يلبث أن عاد وقال : قد صرت إلى الأمير وحدثته حديثك كله فتوجع وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى ثانية لتلك وانفق هذه إلى أن يصنع الله عز وجل . وعاد غلامى وقد باع المنديل ببضع عشرة درهماً فاشترى ما أمرته فأريته الدنانير وحدثته الحديث وما زال صنع الله يتعاهدنى * قال المداينى فى كتابه وحدث القاضى أبو الحسن فى كتابه عن المداينى بغير إسناد واللفظان متقاربان : ان اعرابية كانت تخدم نساء النبى صلى الله عليه وسلم وكانت كثيراً تتمثل بهذا البيت :

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا   إلا أنه من ظلمة الكفر أنجانى

فقيل لها : إنك لتكثرين التمثل بهذا البيت وإنا لظنه لأمر فما هو ؟ فقالت أجل كنت عسيفة على قوم من البادية — والعسيف الأجير — فجاءت جارية منهن فاختطف وشاحها عقاب ونحن لا ندرى . فقلن إن الوشاح أنت صاحبته ، فحلفت واعتذرت فابين قبول قولى واستدعين الرجال فجاؤا وفتشونى فلم يجدوا شيئا . فقال بعضهم احتملته فى فرجها ، فأرادوا أن يفتشوا فرجى فما ظنكم بامرأة تخاف ذلك . فلما خفت الشر رفعت رأسى إلى السماء وقلت : «يارباه أغثنى» . فمرت العقاب فطرحته بيننا فندموا وقالوا ظلمنا المسكينة وجعلوا يعتذرون إلى فما وقعت فى كربة إلا ذكرت ذلك وهو يوم الوشاح ورجوت الفرج * حكى القاضى أبو الحسين فى كتابه قال : حدثنى

أبو الحسين بن نمير الخزاعى ، قال : سار الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى البرمكى فى حاجة له فلم يرفع له رأساً ، ولا قضى له حاجة له فقام مغضباً ، فلم يدع به ولا اكترث بغضبه ، وفى المجلس يحيى بن خالد فقال لبعض خاصته ، اتبعه فانظر ماذا يقول ؟ فان الرجل ينبىء عما فى نفسه من ثلاثة أماكن : إذا اضجع على فراشه ، وإذا خلا بفرسه ، وإذا استوى على سرجه . قال الرجل : فاتبعته فلما استوى على سرجه عض على شفتيه وقال شعراً :

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه ... بعثرة دهر والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب ... ويحدث عن بعد الأمور أمور

قال : فلم يكن بين ذلك وبين سخط الرشيد على البرامكة إلا أيام يسيرة .
وفى رواية أخرى : أن يحيى بن خالد رده وقضى حوائجه . أخبرنى على بن عبد الله الوراق المعروف بابن لؤلؤ بالاسناد عن عبد الله بن جعفر : أنه أصابه مرض فمنعه من الطعام والنوم . فبينما هو ذات ليلة ساهر إذ سمع وجبة فى حجرته فإذا هو يسمع كلاماً فوعاه فبرىء مكانه . والكلام : « اللهم أنا عبدك ولك أملى ، فاجعل الشفاء فى جسدى ، واليقين فى قلبى ، والنور فى بصرى ، وذكرك فى الليل والنهار مابقيت فى لسانى ، وارزقنى منك رزقاً غير ممنوع ولا محظور » .

* * *

الباب الرابع

من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ ، واستوقف مكروهاً بموقظ بيان أو وعظ

قرىء على أبى بكر الصولى بالبصرة وأنا أسمع فى كتابه : « كتاب الوزراء » . وجدت بخط ابراهيم بن جاهين ، حدثنى على بن محمد النوفلى : أن المأمون ذكر عمرو بن مسعدة واستبطأه فى أشياء ، وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبى خالد فأخبر به عمروا أحمد ، فدخل عمرو إلى المأمون فرمى بنفسه وقال : أنا عائذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد ، ويسر على ضغنا يظهر منه لمكانة ما ظهر . فقال له المأمون وما ذاك ؟ فأخبره بما بلغه . فقال لم يكن كذلك ، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ماذكرت فقدمته قبل أن أخبرك به وكان ذلك عزمى ، وما لك عندى إلا ما تحب فليفرج روعك ، وليحسن ظنك وسكن ما به حتى شكره وجعل ماء الحياة يدور فى وجهه . فلما دخل أحمد بن أبى خالد قال له : اشكو إليك من بحضرتى من أهلى وخدمى فما للمجلس حرمة حتى تؤدى ما يجرى فيه إلى عمرو بن مسعدة فقد أبلغ لى شيئاً قلته فيه فاتهمت به بعض بنى هاشم من كان حاضراً ، وذلك أن عمراً دخل علىّ فأعاد ما كان واعتذر ، فجعلت أعتذر اليه بعذر لم يبن الحق نسجه ، ولم يتسق القول فيه ، وان لسان الباطل ينبىء عن الظاهر بالباطن . فقال له أحمد : لا يتهم أمير المؤمنين أحداً أنا أخبرت عمراً . قال : مادعاك إلى ذلك ؟ قال الشكر لله والله لاصطناعك . والنصح بك والمحبة لإتمام نعمتك على أوليائك وخدمك ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب إصلاح الأعداء والبعداء ، فكيف بالأولياء والقرباء ، لاسيما مثل عمرو فى موضعه من الدولة ، وموقعه من الخدمة ، ومكانه من أمير المؤمنين فأخبرته بما أنكره عليه ليقوم أود يقينه ، ويتلافى مافرط منه . وإنما العيب لو أزعت سراً فيـــه قدح على السلطان أو نقض تدبير له . فقال له

المأمون : أحسنت والله يا أحمد إذ أخبرتنى بخاصة الظن ، وصدقتنى عن نفسك * أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى ، عن الحسين بن على السلومى ، عن أحمد بن سعيد بالإسناد : أنه لما قتل ابراهيم بن عبد الله بباخمرى حشرنا من المدينة فلم يترك فيها محتلم حتى قدمنا الكوفة فمكثنا فيها شهراً نتوقع القتل ، ثم خرج الينا الربيع الحاجب فقال يا هذه الأمة العلوية : أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوى الحجى . قال : فدخلت أنا والحسين بن زيد فلماصرت بين يديه قال لى : أنت الذى تعلم الغيب ؟ قلت لا يعلم الغيب إلا الله جل ثناؤه . قال : أنت الذى يجبى اليك هذا الخراج ؟ قلت : اليك يجبى يا أمير المؤمنين الخراج . قال : أتدرون لم دعوتكم ؟ قلت : لا ، قال : أردت أن أهدم رباعكم ، وأغور قليبكم ، وأعقر نخلكم ، وانزلكم بالسراة لا يجيئكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق ، فانهم لكم مفسدة . قلت يا أمير المؤمنين : ان سليمان أعطى فشكر ، وأن أيوب ابتلى فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك القبيل . قال فتبسم وقال : أعد فأعدت . قال : مثلك فليكن زعيم القوم قد عفوت عنكم ، ووهبت لكم خراج أهل البصرة . قلت حدثنى أبى ، عن آبائه ، عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « الأرحام معلقة بالعرش تقول : صل من وصلنى ، واقطع من قطعنى » . قال : زد من هذا . قلت : حدثنى أبى ، عن على رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقول : أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت له إسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » * حدثنا على بن الحسن بالإسناد قال : حج أبو جعفر المنصور فى سنة سبع وأربعين ومائة فقدم المدينة فقال : ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينى به تعباً قتلنى الله إن لم أقتله ، فأمسكت عنه رجاء أن ينساه ، فأغلظ فى الثانية فقلت : جعفر بن محمد بالباب . فقال : ائذن له فدخل . فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال لا سلم الله عليك يا عدو الله تلحد فى سلطانى . وتبغى الغوائل فى ملكى . قتلنى الله إن لم أقتلك . قال جعفر يا أمير المؤمنين : ان سليمان أعطى فشكر ، وان أيوب ابتلى فصبر ، وان

يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك السنخ . فسكت طويلا ثم رفع رأسه وقال: أنت عندى يا أبا عبد الله البرى الساحة ، السليم الناحية ، القليل الغائلة ، جزاك الله من ذى رحم أفضل ما يجزى به ذوو الأرحام عن أرحامهم ، ثم تناول يده فأجلسه على مفرشه ثم قال : يا غلام على بالمنفخ . والمنفخ مدهن كبير فيه غالية فأتى به فغلغه بيده حتى خلت لحيته قاطرة ثم قال : فى حفظ الله وكلاءته . يا ربيع : الحق أعط أبا عبد الله جائزته وكسوته وانصرف . فلحقته فقلت : إنى قد رأيت مالم ير ، ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت ، وقد رأيتك تحرك شفتيك فما الذى قلت ؟ فقال : نعم . إنك رجل منا أهل البيت ، ولك محبة وود ، قلت : « اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بكنفك الذى لا يرام ، وارحمنى بقدرتك على ، لا أهلك وأنت رجائى يارب ، كم من نعمة أنعمت بها على ، قل لك عندها شكرى فلم تحرمنى ، فيامن قل عند بليته صبرى فلم يخذلنى ، ويامن رآنى على المعاصى فلم يفضحنى ، ياذا المعروف الذى لاينقضى أبداً ، وياذا النعم التى لا تحصى عدداً ، أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، بك ادرأ فى نحره ، وأعوذ بك من شره ، اللهم أعنى على دينى بدنياى ، وعلى آخرتى بالتقوى ، واحفظنى فيما غبت عنه ، ولا تكلنى إلى نفسى فيما حضرته ، يا من لاتضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة اغفر لى ما لايضرك ، وأعطنى مالا ينفعك ، إنك أنت الوهاب ، أسألك فرجاً قريباً ، وصبراً جميلا ، ورزقاً واسعاً ، والعافية من جميع البلايا وشكر العافية » .

وذكر محمد بن عبدوس فى : « كتاب الوزراء » أن موسى الهادى سخط على بعض كتابه ولم يسمه فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده ويتوعده فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : ان اعتذارى فيما تقرعنى به رد عليك ، وإقرارى بما بلغك يوجب ذنباً على لم أجنه لكننى أقول شعراً :

إذا كنت ترجو فى العقاب تشفياً فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

فصفح عنه وأمر بترك التعرض له وأحسن اليه « حدثنى على بن هشام ابن عبيد الله الكاتب ، عن أبى عبد الله بن يحيى الكاتب قال : لما نكب

أبو الحسن ابن الفرات أبا على بن مقلة فى وزارته الثالثة لم أدخل اليه فى حبسه ، ولا كاتبته متوجعاً له ، ولا راسلته خوفا من أن يلتى ذلك إلى ابن الفرات . وكانت بينى وبين ابن مقلة مودة لطيفة فلما طالت نكبته كتب إلى رقعة طويلة فيها :

ترى حرمت كتب الاخلاء بينهم   أبن لى أم القرطاس أصبح غالياً
فما كان لو ساءلتنا كيف حالنا   وقد دهمتنا نكبة هى ماهياً
صديقك من راعاك عند شديدة   وكلٌ تراه فى الرخاء مراعياً
فهبك عدوى لا صديقى فربما   تكاد الأعادى يرحمون الأعاديا

ثم اتبع ذلك بكلام يعاتبنى فيه ويقول : إنه قد أنفذ إلى فى طى رقعته رقعة إلى الوزير يسألنى إعراضها عليه وقت خلوة لايكون فيها ابنه أبو أحمد المحسن ففتحت رقعته الى الوزير فاذا هى « بسم الله الرحمن الرحيم : أقصرت أطال الله بقاء الوزير فعلى وصنعى على الاستعطاف والشكوى ، حتى تناهت بى المحنة والبلوى ، فى النفس والمال والجسم والحال الى مافيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم حتى أفضت الى الحيرة والتبلد ، وعيالى الى الهتكة والتلدد وما أقول ان حالا أتاها الوزير أيده الله فى امرى الا بحق واجب ، وظن صدق غير كاذب الا أن القدرة تذهب الحفيظة ، والاعـــتراف يزيل الاقتراف ، والمعروف يؤثره أهل الفضل والدين ، والإحسان الى المسىء من أفعال المتقين ، وعلى كل حال فلى ذمام وحرمة ، وتأميل وخدمة ، فان كانت الإساءة تضيعها فرعاية الوزير أيده الله تحفظها ، فان رأى الوزير أطال الله بقاءه أن يلحظ عبده بعين رأفته ، وينعم عليه بإحياء مهجته ، ويخلصها من العذاب الشديد ، والجهد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيباً ، ومن البلوى فرجا قريباً ، فعل ان شاء الله » . قال ابن يحيى : فأقامت الرقعة فى كمى أياماً لا أتمكن من عرضها الى أن رسم الوزير بن الفرات بكتابة نسخة الى جعفر ابن أبى القاسم وهو عامله حينئذ فى فارس فى مهم ، وان احررها بين يديه . وأعرضها عليه وخلا بى لهذا السبب فعملت النسخة . وأوقفته عليها . فأمرنى بتحريرها فاغتنمت خلوته من كل أحد وقلت : قد عرف الوزير أيده الله

مابينى وبين ابن مقلة من الألفة والعشرة التى جمعتنا عليها خدمتك ، والله ما كاتبته ولا راسلته ولا قضيت لها حقاً بمعونة ولا غيرها مذ سخط الوزير عليه ، وهذه رقعته إلى تدل على ذلك ويسأل إعراض رقعة له على الوزير أيده الله وهى معى ، فان أذن عرضتها ؟ فقال : ادفع رقعته إلى . فقلت : اسأل الوزير أيده الله أن يكتم ذلك عن سيدى أبى أحمد يعنى المحسن ابنه فانى أخافه . قال : أفعل . ثم قرأ رقعة ابن مقلة فقال والله يا أبا عبد الله : لقد تناهى هذا الرجل فى السعاية على دمى ومالى وأهلى ، ولقد صح عندى أنه قال لما اسلم إلى حامد ، والله لو قد علمت أن ابن الفرات يبقى بعد صرفه يوما وحداً ماسعيت به ، ووالله لقد كنت أدعو فى حبسى بأن لا يمكننى الله عز وجل منه ولا من الباقطائى ، أما هو فلاحسانى العظيم عليه ، وأما الباقطائى فلقبح إساءته إلى . وإنه شيخ من شيوخ الكتاب وخفت العار بما كنت أعامله به لو حصل فى يدى فأجيبت دعوتى فى الباقطائى ، ولم تجب فيه ، والآن فوحق محمد وآله عليهم السلام لاجرى على ابن مقلة مكروه أبداً بعد هذا ، وأنا أتقدم بأخذه من يد المحسن فأنفذه مع سليمان ابن الحسن إلى فارس وأخبره فى الأمر بحراسة نفسه وباقى حاله ، وأزيدك يا أبا عبد الله ما أحسبك فهمته . قلت : فما هو ؟ فانى لم أزل أستفيد الفوائد أيدك الله تعلماً وانعاماً . قال : فقد بقيت له بقية وافرة من حاله ولولاها ماقال قولا شديداً ، ولا فرغ قلبه لنظم شعر ، ولا بلاغة فى سر فلما كان من الغد أنفذ من انتزعه من يد المحسن فأخرجه مع سليمان إلى فارس مسلماً .

أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى قال : أخبرنى حبيب بن نصر المهلبى بالإسناد : أن طريح بن اسماعيل الثقفى دخل على أبى جعفر ، فقال له لاحياك الله ولا بياك أما اتقيت الله عز وجل حيث تقول للوليد :

لو قلت للسيل دع طريقك وال ... موج عليه كالهضب يعتلج
لساح وارتد أو لكان له ... إلى طريق سواك منعرج

فقال له طريح : قد علم الله أنى قلت ذلك ويدى ممدودة اليه عز وجل

إياه عنيت تبارك وتعالى اسمه وثناؤه . فقال أبو جعفر يا ربيع : أما ترى هذا التخلص .

أخبرني أبو الفرج الأصفهاني عن محمد بن أبي الأزهر قال : كنت بين يدى المأمون واقفاً فادخل عليه ابن البواب الحاجب رقعة فيها أبيات شعر وقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى إنشادها . فظنها له فقال : هات فأنشده :

أجزنى فانى قد ظمأت إلى الوعد ... متى ينجز الوعد المؤكد بالعهد
أعيذك من خلف الملوك وقد ترى ... تقطع أنفاسى عليك من الوجد
رأى الله عبد الله خير عباده ... فملكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس بهجة ... مميزة بين الضلالة والرشد

فقال المأمون : أحسنت ياعبدالله . فقال ياأمير المؤمنين : بل أحسن قائلها . قال : ومن هو ؟ قال : عبدك الحسين بن الضحاك . فغضب ثم قال لاخير ولاحيا الله من ذكرت ولابياه ، ولاقربه ولاأنعم به عيناً . أليس هو القائل شعراً :

أعينى جودا وابكيا لى محمداً ... ولا تدخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمت الأشياء بعد محمد ... ولا زال شمل الملك فيه مبدداً
ولا فرح المأمون بالملك بعده ... ولا زال فى الدنيا طريداً مشرداً

هذا بذاك ولاشىء له عندنا . فقال له ابن البواب : فأين فضل أمير المؤمنين وسعة حلمه وعادته فى العفو . فأمر بإحضاره ، فلما حضر سلم عليه فرد عليه رداً خافتاً ، ثم أقبل عليه فقال أخبرنى : هل عرفت يوم قتل أخى محمد رحمه الله هاشمية قتلت أو هتكت ؟ قال : لا . قال : فما معنى قولك :

ومما شجى قلبى وكفكف عبرتى ... محارم من آل النبى استحلت
ومهتوكة بالجلد عنها سجوفها ... كعاب كقرن الشمس حين تبدت
إذا حفزتها روعة من منازع ... لها المرط عادت بالخضوع وذلت
وسرب ظباء من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حى وميت
أرد يدا منى إذا ما ذكرته ... على كبد حرا وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ... ولا بلغت آمالها ما تمنت

فقال يا أمير المؤمنين : لوعة غلبتنى وروعة فجأتنى ، ولعم وفدتها بعد أن أغرقتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، فدمعت عين المأمون وقال : قد عفوت عنك وأمرت بإرداد أرزاقك عليك واعطائك مافاتك منها ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى من استخدامك .

أخبرنى محمد بن يحيى الصولى عن عون بن محمد قال : حدثنى الحسين بن الضحاك قال غضب على المعتصم فى شىء جرى علىّ فقال : والله لأأدنيتــــه وحجبنى أياما فكتبت اليه :

غضب الإمام أشـــد من ادبه   وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصما بمعتصم   أثنى الآله عليه فى كتبه
لا والذى لم يبق لى سببــاً   أرجو النجاة به سوى سببه
مالى شفيع غير رحمته   ولكل من أشفى على عطبه

قال فلما قرئت عليه التفت إلى الواثق وقال : مثل هذا الكلام يستعطف الكرام . ما هو إلا أن سمعت أبيات حسين هـذه حتى أزالت ما بنفسى عليه . فقال له الواثق : هو حقيق بأن يوهب له ذنبه ويتجاوز عنه ، فرضي عنى وأمر بإحضارى ، وإنما كتب هذا الشعر إلى المعتصم لأنه بلغه أنه مدح العباس بن المأمون وتمنى له الخلافة فطلبه فاستتر فحيث ظهر هجى العباس بن المأمون فقال شعراً :

خل اللعين وما اكتسب   لا زال منقطع النسب
يا عرة الثقـلين لا   ديناً رعيت ولا حسب
حســد الإمام مكانه   جهـلا هـداك على العطب
وأبوك قدمـه لنـا   لمـا تخـير وانتخب
ما تستطيع سوى التنفـ   ـس والتجرع للكرب
لا زلت عنـد أبيـ   ـك منتقص المروءة والأدب

وجدت فى بعض الكتب عن يزدجرأنه قال : غضب كسرى ابرويز على بعض أصحابه من جرم عظيم فحبسه زماناً ثم ذكره فقال للسجان : هل يتعاهده أحد؟ فقال: لا إلا القلهبند المغنى فانه يوجه اليه فى كل يوم بسلة فيها طعام . فقال كسرى

للقلهند : غضب الملك على فلان وحبسه فقطعه الناس غيرك فإنك تعاهده بالبر فى كل يوم . فقال أيها الملك : إن البقية التى بقيت له عندك فبقت روحه فى بدنه أبقت له عندى بقدر ما أرسله اليه من الطعام . قال : أحسنت قد وهبت لك ذنبه . وأطلقه * وجدت فى بعض كتبى أن رجلين أتى بهم إلى إلى بعض الولاة وقد ثبت على أحدهما الزندقة وآخر شرب الخمر فسلم الوالى الرجلين إلى بعض أصحابه وقال : اضرب عنق هذا وأومأ إلى الزنديق . واجلد هذا الحد وأومأ إلى الشارب . وتسلمهما وذهب ليخرج فقال له الشارب أيها الأمير : سلمنى إلى غيره ليجلدنى فانى لا آمن أن يغلط فيضرب عنقى ويجلد صاحبى ، والغلط فى هذا لا يتلافى . فضحك الأمير وأمر بتخليته وضرب عنق الزنديق .

وجدت فى كتاب أبى الفرج المخزومى عن أبى محمد الحسن بن طالب كاتب عيسى بن فرحا نشاه قال : لما وليت ديار مصر لم تزل وجوهها يصفون لى محمد بن يزيد الأموى الحصينى بالفضل وينشدونى قصيدته التى أجاب بها عبد الله بن طاهر لما فخر بأبيه ، ويذكرون قصته معه لما دخل عبدالله الشام وأشرف الحصينى على الهلاك خوفاً منه ، وكيف كفى أمره بلا سبب فكنت أفتقد أمره فى ضيعته وأحسن اليه فى معاملتى وكانت كتبه ترد على بالشكر بأحسن عبارة إلى أن عملت على طوف كور عملى ، وتصفح أمر الرعية والعمال ، فخرجت لذلك حتى وردت الكورة التى حصن محمد بن يزيد فى ناحية منها ، فخرج مستقبلا لى وراغباً إلى فى النزول عليه ، فلما التقينا قال : لم أخف مع فضلك أن تتجاوزنى ، ولم آمن أن يعارضك ظن يصور لك أن عدولك عنى إبقاء على وإشفاقا من نسب السلطان لك يدعو إلى ايثار لذتك فى عدم لقائى فتطوينى ، فحملت نفسى على خلاف ما كنت أحب أن يشيع لك من ابتدائى بالقصد قبل غيبتى فيه اليك . فالحمد لله الذى جعل لك السبق إلى الكرم . ومررنا على حصنه فأقبل يقفنى على المواضع المذكورة فى الخبر والشعر ، إلى أن دخلنا حصنه فلم يأخذ أهبة النزول به أدبا ومروءة وسبق

بما حضر من القرى ، ولم يقص من يخدمنا عن إحضار ما أعد فى سفرتنا ووجدت خدمته كلها تدور على جارية سوداء نذرة خفيفة الحركة ، يدل على نشاطها اعتيادها على الطراق إلى أن رفع الطعام وحضر الشرب وحضرت السوداء فى غير الزى الأول فجلست تغنى ، فأنكرتها حتى سألته عنها فوصف لى قديم حرمتها وقال : هى كانت طلعتى حين قصدنى عبدالله بن طاهر فاستفتحنى مسألته عن الخبر فسألته . فقال : لما بلغنى خبر اجماع عبدالله على الخروج لطلب نصر بن شبث بنفسه أيقنت بالهلاك ، وخفت أن يقرب فتنالنى بادرته ، ولم أشك فى ذهاب النعمة إن سلمت النفس لما كان بلغه من إجابتى إياه عن قصيدته التى نخر بها وأنشدنيها :

مدمن الأغضاء موصول ومديم العتب مملول
وأخو الوجهين حيث رمى بهواه فهو مدخول
وقليل من يبرره فى يد التهذيب تحصيل
فاتئد تلق النجاح به فاعتساف الأمر تضليل
واعم عن عيب أخيك يدو م لك حبل فيه موصول
من يرد حوض الرداصردا لايسعه الرى تعليل
من بنات الروم لى سكن وجهه للشمس اكليل
عتبت والعتب من سكن فيه تكثير وتقليل
اقصرى عما لهجت به ففراغى عنك مشغول
أنا من قد تعرفى نسبه سلفى الغر البهاليل
مصعب جدى نقيب بنى هاشم والأمر مجهول
وحسين رأس دعوتهم ودعاء الحق مقبول
سل بهم تنبيك نجدتهم مشرفيات مصاقيل
كل غضب مسرف عللا وحرار الحر مغلول
وأبى من لا كفاء له من يساوى مجده قولوا
سل به والخيل ساهمة حوله جرداء نأبيل

وربات الخــدور وقد جعلت تبدوا الخلاخيل
من ثنى عمه الخيول باكنا فيها الخطية الشول
انظر لخلوع كلكاه وحواليه المقاويل
فثوى والتراب مضجعه غال عنه ملكه غول
قاد جيشاً نحو مائلة ضاق عنه العرض والطول
من خراسان مصمصهم كليوث ضمها عنيل
هبو الله أنفسهم لا معاذيل ولا ميل
ملك تجتاح سطوته ونداه الدهر مبذول
قطعت عنه تمائمه وهو مرهوب ومأمول

قال : وكنت لما بلغنى هذه القصيدة ، امتعضت للعرب وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم ، لأنه قتل ملكا من ملوكهم بسيف أخيه لا بسيفه ، فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع ، فرددت عليه قصيدته ولم أعلم أن الأيام تجمعنا ، ولا أن الزمان يضطرنى إلى الخوف منه فقلت شعراً :

لايرعك القال والقيل كلما بلغت تضليل
ما هوى لى حيث أعرفه بهوى غيرك موصول
أين لى عنك إلى بدل ابديل عنك مقبول
أووعدت العذل فيك إذا أنا فيك الدهر معذول
حمليني كل لائمة كلما حملت محمول
فاحكمي ماشئت واحتكمي فحرامى لك تحليل
والذى أرجو النجاة به ما لقلبى عنك تحويل
ما لدارى منك مقفرة وضميرى منك مأهول
أيخون العهد ذو ثقة لايخون العهد مسؤل
وأخو حبيبك فى تعب مطلق مرا ومغلول
ما فراغى عنك مشتغل بل فراغى بك مشغول

وبدت يوم الوداع لنا غادة بيضاء عطبول
حاسرا وذات منعة ذات تاج فيه إكليل
آى عطفيها به انصرفت ارج بالمسك معلول
تتعاطى شد معجزها ونطاق الخصر منحول
باكاليل لها قبل حبذا تلك الأكاليل
فبنفسى دبج مشطتها ومثانيها المراسيل
سبقت بالدمع مقلتها فلها بالدمع تفضيل
ورمت بالسحر من كثب فدفين الداء مقتول
لاحظت بالسحر عابثة فشجاع الصبر مغلول
شملنا اذ ذاك مجتمع وجناح البين مشكول
لايخاف الدهر طائره فاذاه عنه معقول
أيها البارى بنطقته لاغاليط وتحصيل
قد تأولنا على جهة ولتأويلك تأويل
قاتل المخلوع مقتول ودم القاتل مطلول
سارأ وحل فمتبع بالتى يكبو لها القيل
لا تنجيه مذاهبه نهر سيحون ولا النيل
ومدين القتل مرتهن بدماء القوم مقتول
بيد المخلوع طلت يدا لم يكن فى باعها طول
وبنعماه التى سلفت فعلت تلك الافاعيل
وبراع غيرى ذى شفق حالت الخيل الأنابيل
يا ابن بنت النار موقدها ما لحاديها سراويل
أى مجد لك تعرفه أو نسيب لك بهلول
من حسين وأبوك ومن مصعب غالتهم غول
وزريق إذ تخلفه نسب لعمرك مجهول
تلك دعوى لا تنافسها وأبواب مراذيل
أسرة غير مباركة غيرها الشم البهاليل

ما جرى فى عود سلافكم ماء مجد فهو مدخول
قدحت فيه أسافله فأعاليه مهازيل
إن خير القول أصدقه حين تصطك الأقاويل
كن على منهاج معرفة لا تغرنك الأباطيل
إن للاصعاد منحدراً فيه للهادى أهاويل
ولريب الدهر عن عرض بالردى علّ وتنهيل
يعسف الصعبة رائضها ولها بالعسف تذليل
ويخون الرمح عامله وسنان الرمح مصقول
وينال الوتر طالبه بعد ما يسلو المثاكيل
مضمراً حقداً ومنصلة معمد فى الجفن مسلول

قال : فلما قرب عبد الله بن طاهر استوحشت من المقام خوفا على نفسى ، ورأيت بعدى وتسليم حرمى عاراً باقياً ولم يكن لى إلى هربى بجرمى سبيل ، فأقمت على أتم خوف مستسلماً للاتفاق حتى إذا كان اليوم الذى قيل أنه ينزل بهذه النواحى أغلقت حصنى ، وأقمت هذه السوداء رئيبة لى على شرف الحصن وأقمتها وأمرتها أن تعرفنى الموضع الذى ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأنى ولبست ثياب الموت أكفاناً ، وتطيبت وتحنطت ، فلما رأت الجارية أن العسكر يقصد الحصن نزلت فعرفتنى فلم يرعنى إلا دق باب الحصن فخرجت فإذا عبد الله بن طاهر واقف وحده منفرداً عن أصحابه فسلمت عليه سلام خائف ، فرد على غير رد مستوحش وأومأت إلى تقبيل رجله فى الركاب ، فمنع الطف منع وأحسن رد ، وجلس على دكان على باب الحصن ، ثم قال : ليسكن روعك فقد أسأت الظن بنا . ولو علمنا أننا بزيارتنا لك نروعك ما قصدناك . ثم أطال الانتظار فى المسألة حتى رأى الثقة منى قد ظهرت ، فسألنى عن سبب مقامى فى البر وإيثارى إياه على الحاضرة ورفاهة العيش ، وعن حال ضيعتى ومعاملتى ، فأجبته بما حضرنى حتى لم يبق من التأنيس شيئاً أفضى الأمر إلى مسائلتى عن حديث نصر بن شبث وكيف الطريق ،

إلى الظفر به فأخبرته بما عندى فى ذلك . ثم أقبل على وقد انبسطت فى محادثته انبساطاً شديداً فقال أحب أن تنشدنى القصيدة التى فيها :

يا ابن بنت النار موقدها　　ما لحاديها سراويل

فقلت أصلح الله الأمير : قد أربت نعمتك على قدر همتى فلا تذكرها بما ينغصها . فقال : إنما أريد الزيادة فى طمأنينتك وتأنسك بأن لا ترانى متحفظاً بما خنت وعزم على إنشاد القصيدة عزم مجد ، فقلت يريد أن تطرأ على سمعه فيزيد ما فى نفسه فيوقع بى ولم أجد من إنشاده بداً فأنشدته القصيدة فلما فرغت منها عاتبنى عتاباً شديداً ، وكان منه أن قال : يا هذا ما حملك على تكلف إجابتى ؟ فقلت : الأمير أصلحه الله حملنى على ذلك فقال بماذا ؟ فقلت بقوله :

وابى من　لا كفاء له　　من يسامى مجده قولوا

فقلت كما تقول العرب وتفتخر السوقة على الملوك ، وكان لما بلغت إلى قولى :

يا ابن بنت النار موقدها　　ما لحاديها سراويل

قال لى والله يا ابن مسلمة : لقد أحصينا فى خزائن ذى اليمينين بعد موته ألفاً وثلثمائة من السراويل ما أصلح فى احداهن تكة سوى ما استعمل فى اللبس ، على أن الناس لا يفكرون فى إدخال السراويل فى كساهم ، فاعتذرت اليه بما حضرنى من القول فى هذا وجميع ما تضمنته القصيدة فقبل القول وبسط العذر وأظهر الصفح وقال : قد دللتنا على ما احتجنا اليه من أمر نصر ابن شبث فنستحسن القعود معنا فى حربه والا يكون لك فى الظفر به أثر يشاكل إرشادك لوجوه مطالبه فاعتذرت اليه بلزوم منزلى وضيعتى وعجزى عن السفر للقصور عن النفقة فقال : نكفيك ذلك وتقبله منا بإذنك ودعا بصاحب دوابه فأمر بإحضار خمس مراكب من الخيل الهماليج بلجمها وسروجها المحلاة ، وبثلاث دواب من دواب الشاكرية ، وبخمسة أبغل من بغال النقل ، واستقرأ ذلك وأمر صاحب كسوته بإحضار ثلاث تخوت من

أصناف الثياب الفاخرة ، وأمر خازنه بإحضار خمس بدر دراهم فأحضر الجميع فوضع على الدكان الذى كان جالساً عليه بباب الحصن ثم قال : كم مدة تأخرك عنا إلى أن تلحق بنا فنزلت فقام ليركب فبادرت إلى يده لأقبلها فمنعني وركب وسار وتبعه العسكر فما نزل منهم واحد ، وخرجت السوداء فنقلت تلك الثياب والبدر ، وأخذ الغلمان الكراع وما لقيت عبد الله بعدها . قال عيسى بن فرحا نشاه : أقمت عند محمد بن يزيد يومى وليلتى فأضافنى أحسن ضيافة وكانت مذاكرته لى بذلك أحب إلى من كل شيء فأسقطت عنه جميع خراجه فى تلك السنة وانصرفت .

حدثنى عبد الله بن أحمد بن داسة المصرى قال : سمعت أن بعض الجند اغتصب امرأة على نفسها من الطريق فعرض الجيران ليمنعوه فضربهم هو وغلمانه حتى تفرقوا وأدخل المرأة داره وقال : أغلقوا االباب . فأغلقوا الباب وراودها عن نفسها فأمتنعت فاكرهها ولحقها منه شدة حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة فقالت له ياهذا : اصبر حتى يغلق باب قد بقى عليك . قال أى باب ؟ قالت الباب الذى بينك وبين الله . فقام وقال : قد فرج الله عنك انصرفى لاأتعرض لك أبداً ، وجدت فى بعض الكتب أن الجاحظ أنفذ إلى أحمد بن أبى دؤاد بعد نكبة محمد بن عبد الملك الزيات مقيداً فى قميص رث فأوقف بين يديه ليأمر فيه بأمره فقال له ابن أبى دؤاد : والله ياعمرو ماعلمتك إلا سابا للنعمة ، جاحداً للصنيعة ، معدداً للمثالب ، مخفيا للمناقب وان الأيام لاتصلح مثلك . لفساد طويتك ، وسوء اختيارك . فقال الجاحظ : خفض عليك فوالله لأن تكون المنة لك على خير من أن تكون لى عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن فى الأحدوثة عنك ، ولأن تعفو فى حال قدرتك أجمل بك من أن تنتقم . فقال لى ابن أبى دؤاد ماعلمتك الا كثير رونق اللسان ، قد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق . اعزب قبحك الله . فانهض فى قيوده ثم قال ياغلام : الحقه وخذ قيوده وصر به إلى الحمام واحمل اليه خلعة يلبسها ، واحمله إلى منزل يأوى به بفرش وفراش وآلة وقماش ، ويزاح فيه علله وادفع اليه عشرة آلاف درهم لنفقته إلى ان يصح من علته .

ففعل ذلك فلما كان من الغد رؤى الجاحظ متصدراً فى مجلس ابن أبى دؤاد وعليه خلعة من ثيابه ، وطويلة من قلانسه وهو مقبل عليه بوجهه يقول هات يا أبا عثمان .

أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى بإسناده عن اسحاق الموصلى قال : لم أر قط مثل جعفر بن يحيى كانت له فتوة ، وظرف وأدب ، وحسن غناء ، وضرب بالطبل ، وكان يأخذ بأجزل حظ من كل فن فحضرت باب الرشيد يوماً فقيل لى : إنه نائم فانصرفت . فلقينى جعفر بن يحيى قال لى ما الخبر ؟ فقلت أمير المؤمنين نائم . فقال لى قف مكانك ومضى إلى دار أمير المؤمنين فاعلم أنه نائم . فرجع فقال سر بنا إلى المنزل حتى نخلو بقية يومنا وأغنيك ونأخذ فى شأننا من وقتنا هذا . فقلت نعم فصرنا إلى منزله فطرحنا ثيابنا . ودعا بالطعام فطعمنا ، وأمر بإخراج الجوارى وقال ابرزن فليس عندنا من نحتشمه . فلما وضع الشراب دعا بقميص حرير فلبسه ، ودعا بخلوق فتخلق ، ودعا لى بمثل ذلك وجعل يغنينى وأغنيه ، وكان قد تقدم الى الحاجب ان لا يأذن لأحد من الناس كلهم وان جاء رسول أمير المؤمنين اعلمه أنه مشغول واحتاط فى ذلك وتقدم الى جميع الحجاب والخدم ثم قال ان جاء عبد الملك فأذنوا له . يعنى رجلا كان يأنس به ويمازحه ويحضر خلواته ، ثم أخذنا فى شأننا فوالله انى لعلى حالة سارة اذ رفع الستر واذا عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وغلط الحاجب ولم يفرق بينه وبين الذى يأنس به جعفر وكان عبد الملك الهاشمى من جلالة القدر والتقشف والامتناع عن منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل ، وكان أمير المؤمنين قد اجتهد أن يشرب قدحاً فلم يفعل ترفعاً لنفسه ، فلما رأيناه مقبلا أقبل كل واحد منا ينظر الى صاحبه وكاد جعفر ينشق غيظاً وفهم الرجل حالنا ، وأقبل نحونا حتى اذا صار الى الرواق الذى نحن فيه نزع جبته فرمى بها مع طيلسانه جانباً ثم قال : اطعمونا شيئاً . فدعى له جعفر بالطعام وهو منتفخ غيظاً ثم دعا برطل فشربه ثم أقبل الى المجلس الذى نحن فيه ثم أخذ بعضادتى الباب وقال : اشركونا فيما أنتم فيه . فقال له جعفر ادخل فدخل بقميص حرير وخلوق فلبس وتخلق ثم دعا برطل ورطل حتى شرب عدة أقداح

ثم اندفع يغنينا فكان والله أحسن غناء . فلما طابت نفس جعفر بن يحيى وسرى عنه ما كان فيه التفت اليه وقال له : ارفع حوائجك ؟ فقال له : ليس هذا موضع حوائج . قال لتفعلن ، ولم يزل يلح عليه حتى قال أمير المؤمنين على واجد كما علمت فأحب أن يرضى عنى . قال أمير المؤمنين قد رضى عنك. فهات حوائجك : قال : هذه حاجتى ، قال ارفع حوائجك كما أقول لك ؟ قال : على دين فادح . قال كم مبلغه ؟ قال أربعة آلاف ألف درهم . قال هذه أربعة آلاف ألف درهم . فإن أحببت أن تقبضها منى فاقبضها فى منزلى الساعة فانه لم يمنعنى من إعطائك إياها إلا أن قدرك يجلك عندى من أن يصلك مثلى ولكنى ضامن لها حتى تحمل اليك من مال أمير المؤمنين غداً . فسل أيضاً : فقال ابنى تكلم أمير المؤمنين حتى ينوه باسمه . قال : قد ولاه أمير المؤمنين مصراً وزوجه الغالية ابنته ومهرها عنه الفى الف درهم من ماله . قال إسحاق : فقلت فى نفسى قد سكر الرجل اعنى جعفرا فلما أصبحت حضرت دار الرشيد فاذا جعفر بن يحيى البرمكى ووجدت فى دار الرشيد جلبة فإذا أبو يوسف القاضى رحمه الله تعالى ونظراؤه وقد دعى بهم ، ثم دعى بعبد الملك بن صالح وابنه فدخلا على الرشيد فقال الرشيد لعبد الملك : إن أمير المؤمنين قد كان واجداً عليك وقد رضى عنك ، وأمرلك بأربعة آلاف ألف درهم فاقبضها من جعفر بن يحيى الساعة ، ثم دعا بابنه فقال اشهدوا أنى قد زوجته الغالية بنت أمير المؤمنين ومهرتها عنه من مالى الفى درهم ووليته مصراً ، فلما خرج جعفر سألته عن الخبر فقال : بكرت إلى أمير المؤمنين فحكيت له جميع ما كنا فيه وما كان منا حرفاً بحرف ووصفت له دخول عبد الملك وما كان منه فعجب ثم سر به ثم قال لى وقد ضمنت له على أمير المؤمنين ضمانا فأوف بضمانك ، فأمر بإحضاره فكان ما رأيت .

أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى قال : جرى بين محمد الأمين وبين إبراهيم ابن المهدى كلام وهما على مسرة فنفر الأمين لذلك ووجد على إبراهيم وبانت لابراهيم الوحشة منه فانصرف إلى منزله فأمر بحجابه عنه ، وبلغ ذلك

إبراهيم فبعث إلى الأمين بالطاف ورقعة يسأل فيها صرف غضبه فرد الأمين الهدية ولم يجب على الرقعة . فوجه إبراهيم اليه وصيفة مليحة مغنية كان قد رباها وعلمها وبعث معها عوداً معمولا من العود الهندى ، مكللا بالجوهر وألبسها حلة منسوجة بالقصب وقال أبياتاً وغنى فيها والقاها عليها ، حتى أخذت الصوت ، وأحكمت الصنعة فيه فوقفت الجارية بين يدى أمير المؤمنين وقالت له : عمك يا أمير المؤمنين يقول لك واندفعت تغنى شعراً :

هتكت الضمير برد اللطف   وكشفت هجرك لى فانكشف
فان كنت تحقد شيئا جرى   فهب للعمومة ما قد سلف
وجد لى بصفحك عن زلتى   فبالفضل يأخذ أهل الشرف

فقال لها الأمين : أحسنت يا صبية فما اسمك ؟ قالت : هدية قال : أفأنت كاسمك أم أنت عارية ؟ قالت : أنا كاسمى وبه سمانى لما أهدانى إلى أمير المؤمنين ، فسر بها الأمين وبعث إلى إبراهيم بن المهدى فأحضره ورضى عنه وأمر له بخمسين الف دينار

وقف أحمد بن عروة بين يدى أمير المؤمنين المأمون لما عزله عن الاهواز فقال له : خربت البلاد ، وقتلت العباد ، والله لأفعلن بك ولأفعلن . فقال يا أمير المؤمنين ما تحب أن يفعل الله بك إذا وقفت بين يديه وقد قرعك بذنوبك . قال : العفو والصفح . قال : فافعل بعبدك ما تحب أن يفعل بك مولاك . قال قد فعلت ارجع إلى عملك ، فوال مستعطف خير من وال مستأنف ٭ وروى أنه جنى غلام للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين جناية توجب العقاب فأمر به أن يضرب فقال يامولاى (والكاظمين الغيظ) قال خلوا عنه . قال يامولاى : (والعافين عن الناس) قال : قد عفوت عنك . قال يامولاى (والله يحب المحسنين) قال أنت حر لوجه الله تعالى ذلك ضعف ما كنت أعطيك ٭ قال الأصمعى أتى عبد الملك بن مروان برجل قامت عليه البينة بسرقة فأمر بقطع يده فقال الرجل

يدى ياأمير المؤمنين أعيذها   بعفوك من عار علي يشينها

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها إذا شمال فارقتها يمينها

قال هذا حد من حدود الله تعالى ولا بد من إقامته عليك، فقامت أمه وكانت عجوزاً كبيرة السن فقالت يا أمير المؤمنين: كادى وكاسبى وابنى وواحدى فهبه لى. فقال لها بئس الكاد والابن والواحد هو لا بد من إقامة حد الله فقالت يا أمير المؤمنين: فاجعله بعض ذنوبك التى تستغفر الله تعالى منها. قال خلوه وأطلقه. أخبرنى الفضل بن الربيع قال: رأيت مروان بن أبى حفصة وقد دخل على المهدى بعد وفاة معن بن زائدة فى جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر وغيره فانشده مديحا فقال له: من أنت؟ فقال له: شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبى حفصة فقال له المهدى ألست القائل:

أقمنا بالمدينة بعد معن مقاما لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوال

قد ذهب النوال كما زعمت فلم جئت تطلب نوالنا؟! جروا برجله فجروا رجله حتى أخرج، فلما كان فى العام المقبل تلطف حتى أدخل مع الشعراء وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء فى كل عام مرة فمثل بين يديه وأنشده بعد رابع أو خامس شعرا:

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

نادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الضنا فأمالها

قال فأنصت له حتى بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تجحدون مقالة عن ربه جبريل بلغها النبى فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم أبطالها

قال: فرأيت المهدى قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ثم قال: كم هى؟ قال: مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس.

أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى عن الحسن بن على قال حدثنى محمد بن القاسم

ابن مهرويه ، عن عبد الله بن سعيد قال : غضب الرشيد على العباس وحجبه فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن فمثل بين يدى الرشيد فقال له ياأمير المؤمنين : قد أدبتنى الناس لك ولنفسى فيك وردنى ابتلاؤهم إلى شكرك وما مع ذكرك قناعة بأحد غيرك ، ولنعم الصائر لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر ولذلك أقول شعراً :

أخضنى المقام الغمر ان كان غرنى نسا حلب أو زلت القدمان
أتتركنى جدب المعيشة مقفرا وكفاك من ماء الندا يكفان
وتجعلنى سهم المطامع بعدما بللت يدى من ماء الندا ولسانى

قال فخرج وعليه الخلع وقد أمر له بجائزة فما رأيت العباس قط أنشط منه يومئذ . قال أبو الفرج فى البيتين الأولين غناء لمخارق ثانى ثقيل بالوسطى ه حدثنى عون بن محمد قال : حدثنا سعيد بن هريم قال : قال المأمون للفضل بن الربيع : يافضل ما كان من حقى عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبنى وتشتمنى وتحرض على دمى أتحب أفعل بك مع القدرة عليك ماأردته بى ؟ فقال الفضل : ياأمير المؤمنين إن عذرى لا يقوم عندك وإن كان واضحا جميلا فكيف إذا عفته العيوب وقبحته الذنوب فلا يضيق عنى من عفوك ما وسع غيرى منه فأنت والله كما قال الشاعر فيك :

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالى أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

قال الصولى : والشعر للحسن بن رجاء وقرئ على أبى بكر الصولى فى كتابه «كتاب الوزراء» بالاسناد عن الحسن بن عيسى الأنبارى الكاتب قال : أمر المأمون محمد بن بزوان والوزير أحمد بن أبى خالد أن يناظرا عمرو بن مسعدة فى مال الأهواز فناظراه فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم فأعلم محمد المأمون بذلك فقال له المأمون : أقبل كل حجة له وكل ادعاء وكل تعلق . قال قد فعلت . قال عد لذلك فعاد فتعلق عمرو بأشياء لا أصل لها فسقطت من المال عشرة آلاف ألف وبقى ستة آلاف ألف درهم لا حجة له فيها أخذ خطه بها

فأخذ المأمون الرقعة ثم أحضر عمرا بعد خروج محمد فقال : هذه رقعتك ؟ فقال نعم . فقال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم. قال: نخذ رقعتك فقد وهبناه لك قال إذا تفضلت به يا أمير المؤمنين فانه واجب لو أجزت به على أحمد بن عروة عامل الأهواز وهو مقر به ، وأشهدك أنى قد وهبته له . فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد فأخبره بالخبر وكان يخصه . فقال لا عليك فدخل إلى المأمون فلما رآه قال : ألا تعجب يا أحمد من عمرو وهبنا له ستة آلاف ألف درهم بعد أن تجافينا له عن أضعافها فوهبها بين يدى من أحمد بن عروة كأنه أراد أن يباريني ويصغر معروفى ؟ قال أو فعل هذا يا أمير المؤمنين ؟! قال نعم . قال لو لم يفعل هذا لوجب أن يسقط حاله . قال وكيف ؟ قال لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة وأخذ أحمد بالمال وأداه اليه كان قد أخرجه من معروفك صفراً ، ولما كانت نعمتك على عمرو نعمة على أحمد وهما خادمان ، وكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما فقصد عمرو ذلك فصار المال تفضلا منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة . ومع ذلك فأنت سيد عمرو ولا يعرف سيداً غيرك ، وعمرو سيد أحمد فاقتدى فى أمر أحمد بما فعلته فى أمره ، وأراد أيضاً أن يسير فى ملوك الأمم أن خادما من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل احسانك اليه فيزيد فى جلالة المملكة وجلالة قيمتها فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك . فسرى عن المأمون وزال ما بقلبه على عمرو * وغضب الرشيد على محمد بن الأشعث غضبا شديداً من كلام جرى بينهما فخاف جعفر أن يستفزه الغضب فقال يا أمير المؤمنين : انما تغضب لله فلا تغضب له بما لم يغضب به لنفسه ، فانعطف له الرشيد * أحضر هشام بن عبد الملك ابراهيم بن أبي عيلة الذى تقلد ديوان الحكم لمروان بن محمد فقال له : إنا قد عرفناك صغيراً وخبرناك كبيرا وأريد أن أخلطك بحاشيتى وقد وليتك الخراج بمصر فاخرج اليها ، فأبى ابراهيم وقال ليس الخراج من عملى ولا لى بصر به . فغضب هشام عليه غضباً شديداً حتى خاف ابراهيم بادرته فقال يا أمير المؤمنين : تأذن لى فى الكلام ؟ قال : قل ، قال : يقول الله عز وجل : (انا

عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال(١)) . الآية فوالله ما كرهها ولاسخط عليها ولقد ذم الإنسان لماقبلها . فقال هشام : أبيت الا رفقاً ، فأعفاه ورضى عنه » استسلف موسى بن عبد الملك من بيت المال الخاصة مالا الى أجل قريب ، وضمن للمتوكل رده لحل الأجل والمال متأخر فاغتاظ المتوكل من مدافعته به ، وقال لعبد الله بن يحيى بن خلعان : وقع اليه عنى برد المال اليوم وضيق عليه فى المطالبة ، وأنفذ التوقيع مع عتاب بن عباب ومره بأن يطالبه فان أخر المال فاضربه بالمقارع فى ديوان الخراج بحضرة الناس ولا ترفع المقارع عنه الا بحضور المال . فأدى بعض الخدم الى موسى بالخبر فجلس ينظر فى وجوه يرد منها المال ويجد وصار اليه عتاب بالتوقيع مختوما وكان ذلك اليوم شديد الحر وقد انتصف النهار وموسى فى خيش له فى حجرة من ديوانه يتناوب عليه فراشان يروحانه بها ، فدخل عتاب ، وفى يد موسى كتاب طويل يقرأه ، وقد أكب موسى عليه يتشاغل به عن خطاب عتاب ، وأصاب عتابا برد الخيش والمروحة فنام جالساً وقد ثقل ، وكان عتاب قد أخرج الكتاب الذى معه حين جلس فوضعه على دواة موسى فغمز موسى بعض غلمانه فأخذ الكتاب بعينه وما زال عتاب ينام وينتبه ، وموسى يعمل إلى أن انقضت الهاجرة وقد توجه بعض المال . وأنفذ بعض أصحابه لقبضه فقال له عتاب أنظر فيما جئنا به . قال أصلحك الله : فيم جئت به ؟ قال فيما تضمن الكتاب ، قال : أى كتاب ؟ قال الكتاب الذى أوصلته اليك من أمير المؤمنين . قال متى ؟ قال : الساعة وضعته على دواتك . قال أحسبك رأيت فى النوم شيئا . فطلب عتاب الكتاب فلم يجده فقال : سرق الكتاب والله يا أصحاب الأخبار اكتبوا . فقال موسى : يا أصحاب الأخبار اكتبوا كذب فيما ادعاه ما أوصل إلى كتاباً وأنتم حضور فهل رأيتموه أوصل إلى شيئاً ؟ لعلك يا أبا محمد ضيعت الكتاب فى طريقك فانصرف عتاب إلى عبد الله فأخبره فدخل عبد الله إلى المتوكل فحدثه فضحك وقال : احضروا موسى الساعة . فحضر . فقال له المتوكل : ياموسى سرقت الكتاب من عتاب ؟ قال

(١) الاحزاب ٧٢

أى والله يا سيدى خمنت أنه كتاب بمكروه ، ونام عتاب قبل أن يوصل الكتاب ، فأمرت من سرق منه الكتاب ، وقد أعددت نصف المال والساعة أحمله إلى بيت المال الخاصة ، وأحمل النصف الباقى بعد خمسة أيام وأقبل يتضرع فأنفذ المتوكل معه من يقبض المال وانصرف وقد رضى عنه . ذكر المدائنى فى كتابه قال أرسل زياد إلى رجل من بنى تميم من قعدة الخوارج فاستدعاه ، فجاءه خائفا فقال له زياد : مايمنعك من إتيانى ؟ قال قدمت علينا وقلت لا أعدكم خيراً ولا شراً إلا وفيت به وأنجزته وقلت من كف لسانه ويده لم أتعرض له فكففت لسانى ويدى ، وجلست فى بيتى فأمر له بصلة وخرج والناس لايشكون أنه قتيل فقالوا له : ماقال لك الأمير ؟ فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره بما كان عندنا ولكنى وصلت إلى رجل لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فرزق الله تعالى فيه خيراً . أخبرنى أبو الفرج الأصفهانى بإسناده أن المأمون أقام بعد قدومه إلى بغداد عشرين شهراً ، لم يسمع حرفاً من الأغانى ، ثم كان أول من تغنى بحضرته أخوه أبوعيسى بن الرشيد ، ثم واظبه على السماع مستتراً متشبهاً بالرشيد فى أول أمره فأقام المأمون كذلك أربع حجج ثم ظهر للندماء والمغنين وكان حين أحب السماع سأل عنى فجرحت بحضرته فقال الطاعن على مايقول أمير المؤمنين فى رجل يتيه على الخلفاء ما أبقى هذا من التيه شيئا إلا استعمله ، فأمسك عن ذكرى وجفانى من كان يصلنى ، لسوء رأيه الذى ظن فىّ ، فأضر ذلك بى حتى جاءنى علوية يوما فقال : أتأذن لى فى ذكرك فانا قد دعينا اليوم . فقلت : لا ولكن غنه بهذا الشعر فإنه سيبعثه على أن يسألك لمن هو ذا ؟ فاذا سألك لمن هو انفتح لك ماتريده فكان الجواب أسهل عليك من الابتداء قال : هات فألقيت عليه لحنى فى شعرى :

يا سرحة الماء قد سدت موارده　　أما إليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له　　مخلاءة عن طريق الماء مطرود

قال أبو الفرج : والغناء فيه لاسحق الموصلى رمل بالوسطى . رجع

الحديث . فغنى علوية لما استقر المجلس غناء بالشعر الذى أمره به فقال : ويلك يا علوية لمن هذا الشعر ؟ فقلت : سيدى لعبد من عبيدك جفوته وطردته من غير جرم فقال : إسحق المغنى قلت نعم . قال : يحضر الساعة فجاءنى رسوله فصرت إليه فلما دخلت عليه قال : ادن منى فدنوت اليه فرفع يديه فانكببت فاحتضننى بيديه وأظهر من برى وإكرامى مالو أظهره صديق لصديقه لسره .

الباب الخامس

من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال ، إلى سراح وسلامة وصلاح حال

حدثنا أبو العباس أحمد المعروف بالأشرم المقرىء الخياط البغدادى بالبصرة بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين أنه لما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركته هوازن بالجعرانة قد أسلموا ، فقالوا يارسول الله : إنا أهل عشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك ، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال يا رسول الله : إن ما فى الحظائر من النساء خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتى تكفلنك ولو إنا صابحنا ابن أبى شمر الغسانى أو النعمان بن المنذر » ثم أصابنا منهم الذى أصابنا منك ، رجونا عائدهما أو عطفهما ، وأنت خير المكفولين ثم أنشده شعراً :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قور ... مفرق شملها فى دارها غير
أبقت لنا الحرب أقواها على حذر ... على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركهم نعماء تبشرهم ... يا أرجح الناس حلما حين تختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملاه من محضها درر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فانا معشر زهر
إنا لنشكر للنعماء إذ كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
ياخير من مرحت كمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر
إنا نؤمل عفواً منك نلبسه ... هادى البرية إذ تعفو وتنتصر
عفواً عفا الله عما أنت واهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظهر

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال : « ما كان لى ولبنى

بد المطلب فهو لكم » . فقالت قريش : ما كان لنا فهو لله عز وجل ولرسوله سلى الله عليه وسلم فأطلقهم * أخبرنى أبو بكر الصولى قال . كان القاسم بن بد الله الوزير قد تقدم عند وفاة المعتضد بالله إلى صاحب الشرطة يونس لخازن أن يوجه إلى عبدالله ابن المعتز ، وقصى بن المؤيد ، وعبد العزيز بن لمعتمد فيحبسهم فى دار ففعل ذلك وكانوا فى الحبس خائفين إلى أن قدم لمكتفى بالله بغداد فعرف خبرهم وأمر بإطلاقهم ووصل كل واحد منهم بألف دينار * حدثنا عبدالله بن المعتز قال : سهرت ليلة قدم فى صبيحتها المكتفى الى بغداد فلم أنم خوفا على نفسى وقلقا بوروده ، فمرت بى فى السحر طير فصاحت تمنيت أن أكون مثلها لما يجرى على من النكبات ثم فكرت فى نعم الله عز وجل ومارخاه لى من الإسلام والقربة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أؤمله من البقاء الدائم فى الآخرة فقلت فى الحال :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك   حاشاك بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحرا طير فقلت لها   طوباك ياليتنى إياك طوباك
لكن هو الدهر فالقيه على حذر   فرب مثلك ينزو تحت اشراك

فلما أصبحت أفرج عنى ووصلنى بأشياء لم تكن فى حسابى * حدثنى على بن هشام الكاتب عن أبى القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد قال : لما بعد أبى الى مصر لازمت أبا عبادة البحترى وأبا معشر المنجم وكنت آنس بهما فى وحدتى وملازمتى البيت وكانا فى أكثر الأوقات عندى يحدثانى ويعاشرانى فحدثانى يوماً أنهما ضاقا إضاقة شديدة وكانا مصطحبين فعن لهما أن يلقيا المعتز بالله وهو محبوس فيتوددا اليـــه ويؤصلا عنده أصلا فتوصلا حتى لقياه فى حبسه . قال البحترى : فأنشدته أبياتى التى قلتها فى محمد بن يوسف الثغرى لما حبس وخاطبت بها المعتز كانى عملتها اليه فى الحال :

جعلت فداك الدهر ليس بمنفك   من الحادثات المشكو والنازل المشكى
وما هـــذه الأيام إلا منازل   فمن منزل رحب ومن منزل ضنك

وقد هذبتك الحادثات وإنما صفى الذهب الإبريز قبلك بالسبك
أما فى رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر فى الحبس برهة فنال به الصبر الجميل إلى الملك
على أنه قد ضيم فى حبسك العلى وأصبح عز الدين فى قبضة الشرك

فأخذ الرقعة التى فيها الأبيات فرفعها إلى خادم كان واقفاً على رأسه وقال احفظها وغيبها فان فرج الله عز وجل عنى فذكرنى بها لأقضى حق هذا الرجل الحر : وقال لى أبو معشر وقد كنت أنا أخذت مولده وقت عقد له العقد ووقت عقدت البيعة للمستعين بالخلافة فنظرت فى ذلك وصححت الحكم للمعتز بالخلافة بعد فتنة تجرى وحروب وحكمت على المستعين بالقتل فسلمت ذلك إلى المعتز وانصرفنا وضرب الدهر ضربه وصح الحكم بأمره قال لى أبو معشر : فدخلت أنا والبحترى إلى المعتز بالله وهو خليفة بعد المستعين وتغريقه فقال لى المعتز : لم أنسك وقد صح حكمك وقد أجريت لك فى كل شهر مائة دينار رزقا وثلاثين دينارا نزلا وجعلتك رئيس المنجمين فى دار الخلافة وأمرت لك عاجلا باطلاق ألف دينار صلة فقبضت ذلك كله من يومى وقال لى البحترى فتقدمت وأنشدت المعتز قصيدة مدحته بها وهنأته بالخلافة وهجوت فيها المستعين أولها :

يجانبنا فى الحب من لا نجانبه ويبعد عنا فى الهوى من نقاربه

حتى انتهيت إلى قولى :

وكيف رأيت الحق قر قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
ولم يكن المعتز بالله قد سرى ليعجز والمغتر بالله طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر وعرى من برد النبى مناكبه
وقد سرنى إن قيل وجه عاريا من الشرق تحدو سقبه وركائبه
إلى واسط حيث الدجاج ولم يكن لينشب إلا فى الدجاج مخالبه

قال فاستعاد منى هذه الأبيات مراراً فأعدتها ودعا بالخادم الذى كان معه فى الحبس وطلب الرقعة التى كنت أنشدته الشعر الذى فيها فى حبسه

فأحضره إياها بعينها فقال : قد أمرت لك بكل بيت منها بألف دينار ، وكانت ستة أبيات فأعطيت ستة آلاف دينار ، ثم قال لى : كأنى بك قد بادرت فاشتريت منها غلاماً وفرساً وجارية والتمت وقال : لا تفعل فإن لك فيما تستأنف معنا فى أيامنا ومع وزرائنا وأسبابنا إذا عرفوا موضعك عندنا غناء عن ذلك ، ولكن افعل بهذا المال كما فعل ابن قيس الرقيات بالمال الذى وصل اليه من عبد الله بن جعفر اشتر به ضيعة جليلة تنتفع بغلتها ويبقى عليك وعلى ولدك أصلها . فقلت : السمع والطاعة وخرجت فاشتريت بالمال ضيعة جليلة ٭

أخبرنى أبو بكر الصولى إجازة ونقلته من خطه قال : حدثنى ابراهيم القنوى ، قال : طولب أبو سعيد الثغرى بعد غزواته المشهورة وسلم إلى أبى الخير النصرانى الجهبذ ليستخرج المال منه فجعل يعذبه فشق ذلك على المسلمين وقالوا آخذه بثار النصرانية فقال البحترى :

أياضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الإسلام
طلبت دخول الشرك فى دار الهدى بين المداد وألسن الأقلام
هذا ابن يوسف فى يدى أعدائه يجـــزى عـلى الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو دعت بنيام

فقرئ هذا الشعر على المتوكل ، فأمر بإطلاق أبى سعيد وأمر بإحضار البحترى واتصل به وكان أول شعر أنشده :

٭ جعلت فداك الدهر ليس بمنفك ٭

وجدت فى كتاب صاحب أبى الفرج المخزومى الخطى ، عن أبى طالب الجعفرى ، أنه سمع رجلا يحدث ، عن محمد بن الفضل الجرجانى فى وزارته المعتصم قال : كنت أتولى ضياع عجيف بكسكر فرفع على أنى خنته وأخربت الضياع فانفذ إلى من يقيدنى فأدخلت عليه فى داره بسر من رأى على تلك الحالة ، فاذا هو يطوف على ضياع فيها ، فلما نظرنى شتمنى فقال : أخربت الضياع ونهبت الأموال ، والله لأقتلنك هاتوا السياط . فأحضرت وسحبت للضرب ، فلما رأيت ذلك ذهب على أمرى وبلت على ساقى ، ونظر كاتبه إلى فقـال

لعجيف أعز الله الأمير : أنت مشغول القلب بهذا البناء وضرب هذا وقتله في أيدينا ليس يفوت ، فمر بحبسه وانظر في أمره فان كانت الوقيعة صحيحة فليس يفوتك عقوبته ، وإن كانت باطلة لم تتعجل الاثم وتنقطع عما أنت بسببه من الهم . فأمر بي إلى الحبس فمكثت به أياماً وغزا أمير المؤمنين المعتصم فاتصل بكاتبه الخبر فأمر بإطلاقي وأطلقني ، وخرجت وما اهتدى إلى حبة فضة فما فوقها فقصدت صاحب الديوان بسر من رأى فتوجع من سوء حالي وعرض علي ماله فقلت بل تتفضل بتصريفي في شيء أستتر بجائزته ، فقلدني عملا بنواحي ديار ربيعة واقترضت من التجار لما سمعوا خبر ولايتي ما تجملت به إلى العمـــل ، وخرجت وكان من ضياع العمل ضيعة تعرف بكراثا فرأيتها في بعض طريقي ونزلت داراً منها ، فلما كان السحر وجدت المستحم ضيقاً غير نظيف . وخرجت من الدار فإذا بتل فجلست أبول عليه وخرج صاحب الدار فقال : أتدرى على أي شيء بلت ؟ قلت على تل تراب . فضحك وقال : هذا قبر رجل يعرف بعجيف من قواد السلطان ، كان سخط عليه وحمل مقيداً فلما صار إلى ههنا قتل وطرح في هذا المكان تحت حائط . فلـما انصرف العسكر طرحنا الحائط عليه لنواريه من الـكلاب . قال فتعجبت من بولي خوفاً منـه وبولي على قبره * وروى ابن دريد عن أبي حاتم ، عن أبي معمر عن رجل من أهل الكوفة قال : كنا مع مسلمة بن عبد الملك ببلاد الروم فسبا سبياً كثيراً وأقام ببعض المنازل فعرض السبي على السيف فقتل خلقاً حتى عرض عليه شيخ ضعيف فأمر بقتله . فقـال : ماحاجتك إلى قتل شيخ مثلي ؟ إن تركتني جئتك بأسيرين من المسلمين شابين . قال : ومن لي بذلك ؟ قال : إني إذا وعدت وفيت . قال : لست أثق اليك . قال : فدعني أطوف في عسكرك لعلي أعرف من يكفلني إلى أن امضي وأجيء بالأسيرين فوكل به من أمره بالطواف معه في عسكره والاحتفاظ به فمازال الشيخ يطوف ويتصفح الوجوه حتى مر بفتى من بني كلاب قائماً يحسن فرسه . فقال يافتى : اضمني من الأمير وقص عليه قصته . قال : أفعل . وجاء الفتى معه إلى مسلمة فضمنه فأطلقه مسلمة فلـما مضى . قال : أتعرفه ؟ قال : لا والله .

قال ولم ضمنته ؟ قال رأيته يتصفح الوجوه فاختارنى من بينهم وكرهت أن أخلفه ظنه . فلما كان من الغد عاد الشيخ ومعه أسيران من المسلمين شابان فدفعهما إلى مسلمة وقال : يأذن الأمير فى هذا الفتى أن يصير معى إلى حصنى لأكافئه على فعله معى ؟ . قال مسلمة للكلبى : إن شئت فامض معه . فلما مضى وصار معه إلى حصنه . قال له يافتى : تعلم والله أنك ابنى . قال : وكيف أكون ابنك وأنا رجل من العرب مسلم وأنت من الروم نصرانى ؟ قال أخبرنى عن أمك ماهى ؟ قال رومية . قال فانى أصفها لك فبالله إن صدقت الاصدقتنى . قال : افعل . فأقبل الرومى يصف أم الصبى ماخرج منها شيئا . فقال : هى كذلك . فكيف عرفت انى ابنها قال بالشبه ، وتعارف الأرواح ، وصدق الفراسة . ثم أخرج اليه امرأة فلما رآها الفتى لم يشك فى أنها أمه لشدة شبهها بها ، وخرجت معها عجوز كأنها هى فأقبلن يقبلن رأس الفتى . فقال له الشيخ : هذه جدتك وهذه خالتك . ثم طلع من حصنه فدعا بشباب فى الصحراء فاقبلوا فكلمهم بالرومية فجعلوا يقبلون رأس الفتى ويديه ورجليه ويترشفونه . فقال : هؤلاء أخوالك وبنو خالاتك وبنو عم والدتك ، ثم أخرج اليه حلياً كثيراً وثياباً فاخرة فقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سبيت فخذه معك فادفعه اليها فانها ستعرفه ، ثم أعطاه لنفسه مالا كثيراً وثياباً جليلة وحمله على عدة دواب وبغال وألحقه بعسكر مسلمة وانصرف . فأقبل الفتى قافلا حتى دخل منزله فأقبل يخرج الشىء بعد الشىء مما عرفه الشيخ أنه لأمه فتراه فتبكى . فيقول لها : قد وهبته لك فلما أكثر هذا عليها قالت يابنى : أسألك بالله من أى بلد صارت اليك هذه الثياب ، وهل قتلتم أهل هذا الحصن الذى كان هذا فيه ؟ فقال لها الفتى : صفة الحصن كذا وكذا ، وصفة البلد كذا وكذا . ورأيت فيه قوماً من حالهم كذا فوصف لها أمها وأختها وأولادهما وهى تبكى وتقلق . فقال لها : مايبكيك ؟ فقالت : الشيخ والله أبى ، والعجوز أمى وتلك أختى فقص عليها الخبر وأخرج بقية ما كان معه مما أنفذه أبوها اليها فدفعه لها .

وجدت فى كتاب أبى الفرج المخزومى الحنطى ، عن أبى أمية الهشامى بإسناده ، عن منارة صاحب الخلفاء قال : رفع إلى هرون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية عظيم الجاه ، واسع الدنيا كثير المال والأملاك ، مطاعاً فى البلد له جماعة وأولاد ومماليك وموال يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه فعظم ذلك على الرشيد . قال منارة : وكان وقوف الرشيد على هذه الحال وهو فى الكوفة فى بعض خرجاته إلى الحج فى سنة ست وثمانين ومائة وقد عاد من الموسم وبايع أمير المؤمنين الأمين والمأمون والمؤمن أولاده فدعانى وهو خال فقال : إنى دعوتك لأمر يهمنى وقد منعنى النوم فانظر كيف تعمل وتكون ، ثم قص علىّ خبر الأموى وقال : اخرج الساعة فقد أعددت لك الجهازات ، وأزحت عنك فى الزاد والنفقة والآلات ، فضم اليك مائة غلام واسلك البرية وهذا كتابى إلى أمير دمشق ليركب فى جيشه ، فاقبضوا عليه وجئنى به . وقد أجلتك لذهابك ستة ، ولعودك ستة ، ويوماً لقعودك وهذا محمل تجعله فى شقة إذا قيدته وتجلس أنت فى الشق الآخر ، ولا تكل حفظه إلى غيرك ، حتى تأتينى به اليوم الرابع عشر من خروجك ، فاذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها وولده وأهله وحاشيته وغلمانه وما يقولون ، وقدر النعمة والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً حرفاً من جميع ألفاظه منذ وقوع طرفك عليه إلى أن تأتينى به ، وإياك أن يشذ عليك شىء من أمره انطلق . قال منارة : فودعته وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوى المنازل وأسير الليل والنهار ، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس الناس قليلا إلى أن وصلت إلى دمشق فى أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة فكرهت طرقها ونمت بظاهرها إلى أن فتح بابها من غد فدخلت على هيئتى حتى أتيت باب الرجل وعليه طفف كثيرة وحاشية كثيرة فلم أستأذن ودخلت بغير إذن ، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معى عنى فقالوا : هذا منارة صاحب أمير المؤمنين أرسله أمير المؤمنين إلى صاحبكم

أمسكوا . فلما صرت فى صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا إلى ورحبوا بى وأكرمونى فقلت فيكم فلان؟ . قالوا : لا نحن أولاده وهو فى الحمام . قلت : فاستعجلوه فمضى بعضهم يستعجله وأنا أفتقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها قد ماجت أهلها موجاً شديداً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن أطال فاستربت واشتد قلقى وخوفى من أن يتوارى إلى أن رأيت شيخاً قد أقبل بزى الحمام يمشى فى الصحن ، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان هم أولاده ، وغلمان كثيرة فعلمت أنه الرجل فجاء وسلم على سلاما خفيفاً وسألنى عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته بما وجب ، وما قضى كلامه حتى جاءوه بأطباق الفاكهة فقال لى : تقدم يامنارة كل معنا . فقلت مابى إلى ذلك حاجة فلم يعاودنى فأقبل يأكل هو والحاضرون معه ثم غسل يده ، ودعا بالطعام فجاءوه بمائدة حسنة عظيمة لم أر مثلها إلا للخليفة . فقال لى : تقدم يامنارة فساعدنى على الأكل . لا يزيدنى على أن يدعونى باسمى كما يدعونى الخليفة . فامتنعت عليه فما عاودنى وأكل هو وأولاده وكانوا تسعة وجماعة كثيرة من أصحابه . وتأملت أكله فى نفسه فوجدته أكل الملوك ووجدت جأشه رابضاً وذلك الاضطراب الذى فى داره قد سكن ووجدته لا يرفع من بين يديه شىء قد جعل على المائدة إلا ويوهب ، وقد كان غلمانه لما نزلت الدار أخذوا جمالى وجميع غلمانى فعدلوا بهم إلى داره فما أطاقوا ممانعتهم ، وبقيت وحدى ليس بين يدى إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسى . فقلت فى نفسى : هذا جبار عنيد وإن امتنع على من الشخوص لم أطق أشخاصه بنفسى ولا بمن معى ولا حفظه إلى أن يلحقنى أمير البلد ، وجزعت جزعاً شديداً ورابنى منه استخفافه بى وتهاونه بأمرى ويدعونى باسمى ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ويسألنى عما جئت له ويأكل مطمئنا وأنا أفكر فى ذلك إذ فرغ من طعامه وغسل يده واستدعى بالبخور فتبخر وأقام الصلاة فصلى الظهر وأكثر من الدعاء والابتهال ورأيت صلاته حسنة فلما انفتل من صلاته أقبل على فقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فقلت أمر لك من

أميرا المؤمنين وأخرجت الكتاب ودفعته اليه فنضه وقرأه ، ولما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى فلما تكاملوا ابتدأ لحلف أيماناً غليظة فيها الطلاق ، والعتاق ، والحج ، والصدقة ، والوقف ، والحبس ، ان لا يجتمع منهم اثنان فى موضع ، وأن ينصرفوا ويدخلوا غلمانه وحاشيته منازلهم فلا يظهر منهم أحد إلى أن ينكشف له أمر يعمل عليه . وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بالمسير إلى بابه ، ولست أقيم بعد نظرى فيه لحظة واحدة فاستوصوا بمن ورائى من الحرم خيراً ، وما بى حاجة أن يصحبنى غلام . هات إقيادك يامنارة فدعوت بها وكانت فى سفط ، واحضر حداداً ومد ساقيه فقيدته وأمرت غلمانى بحمله حتى حصل فى المحمل ، وركبت الشق الآخر وسرت من وقتى ولم ألق أمير البلد ولا غيره وسرت بالرجل ليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة فقال لى : ترى هذا ؟ . قلت : نعم قال : إنه لى ولى فيه غرائب من الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى بستان آخر . فقال لى فيه مثل ذلك ، ثم انتهينا إلى مزارع حسان وقرى سرية فأقبل يقول هذا لى ويصف كل شيء فيه من ذلك فاشتد غيظى منه فقلت له : علمت أنى شديد التعجب منك ! قال : فلم ؟ قلت . ألست تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى انفذ اليك من انتزعك من بين أهلك وولدك ومالك وأخرجك من جميع حالك وحيداً فريداً مقيداً لا تدرى ماتصير اليه ، ولا كيف تكون وأنت فارغ القلب من هذا ، تصف بساتينك وضياعك هذه ، وأنت ساكن القلب قليل الفكر ؟ فقال لى مجيباً : إنا لله وإنا اليه راجعون أخطأت فراستى فيك قدرتك رجلا كامل العقل ، وإنك ماحللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك فاذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقولهم والله المستعان ، أما قولك فى أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتى هذه فإنى على ثقة بالله عز وجل الذى بيده ملكوت السموات والأرض شاهد كل نجوى ، وكاشف كل بلوى ، وحاضر كل سريرة . وبيده ناصية أمير المؤمنين ، وبين لا يملك معه لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله ومشيئته ، ولا ذنب

عند أمير المؤمنين أخافه . وبعد : فاذا عرف أمرى وعلم سلامتى وصلاح الى وإن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما لست فى طريقه ، وتقولوا على الأقاويل الكاذبة ، لم يستحل دمى ويخرج من ذمتى وإزعاجى وردى مكرما إقامتى ببابه معظماً ، وإن كان قد سبق فى علم الله تعال أنه يبدو منه إلى درة سوء وقد حضر أجلى ، وحان سفك دمى على يده فلو اجتهدت الملائكة الأنبياء وأهل السماء والأرض على صرف ذلك عنى مااستطاعوا ، فلم أتعجل نم وأتسلف الفكر فيما قد فرغ منه ، وأين حسن الظن بالله عز وجل الذى خلق ورزق ، وأحيا وأمات ، وفطر وجبل ، وأحسن وأجمل ، وأين الصبر الرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ، وقد كنت أحسب لك تعرف هذا ؟. فإذا قد عرفت مبلغ فهمك لا أكلمك أبداً بكلمة واحدة ، تى تعرف حضرة أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى . ثم أعرض عنى فما معت له لفظة بغير القرآن والتسبيح إلا بطلب ماء أو حاجة تجرى مجراه تى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر ، فاذا النجب قد استقبلتنى لى فراسخ من الكوفة يتجسسون خبرى فحين رأونى رجعوا متقدمين لى الخبر إلى أمير المؤمنين فانتهيت إلى الباب فى آخر النهار فحططت ، ودخلت لى الرشيد فقبلت الأرض بين يديه ووقفت فقال : هات ما عندك وإياك ن تغفل منه عن لفظة واحدة . فسقت الحديث إلى آخره حتى انتهيت إلى لفاكهة ، والطعام ، والغسل ، والبخور ، والصلاة . وماحدثت به نفسى من متناعه والغضب يظهر فى وجهه يتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة وإقباله إلى ومسألته عن سبب قدومى ودفعى الكتاب اليه ومبادرته لى إحضار ولده وأنسابه وأهله وأصحابه . وحلفه لهم أن لا يتبعه أحد منهم صرفه إياهم ومد رجله حتى قيدته فما زال وجه الرشيد يسفر فلما انتهيت إلى ما خاطبنى به عند توبيخى إياه لما ركب المحمل قال : صدق والله ، ماهذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ولعمرى قد أزعجناه وروعناه وأرعنا أهله فبـــادر بنزع قيوده عنه وائتنى به . فخرجت ونزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياة يجول فى وجهه

فدنا الأموى وسلم بالخلافة ووقف . فرد عليه الرشيد رداً جميلا وأمره بالجلوس فجلس فأقبل عليه الرشيد يسائله عن حاله ، ثم قال له : إنه بلغنا عنك فضل هيئة ، وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن اليك فاذكر حاجاتك . فأجاب الأموى جواباً جميلا وشكر ودعا وقال : أما حاجاتى فما لى إلا حاجة واحدة . قال : مقضية . فما هى ؟ قال يا أمير المؤمنين تردنى إلى بلدى وأهلى وولدى . قال نحن نفعل ذلك ، ولكن سل ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك ، فإن مثلك لا يخلوا أن يحتاج إلى شيء من هذا ؟. فقال : عمال أمير المؤمنين منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة وكذلك أمور أهل البلد بالعدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فقال الرشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك . واكتب لنا بأمر إن عرض لك . فودعه الأموى فلما ولى خارجا قال الرشيد يامنارة : احمله من وقتك وسر راجعاً كما سيرته حتى إذا أوصلته إلى المجلس الذى أخذته منه فدعه وانصرف ففعلت ذلك .

حدثنى على بن هشام قال : سمعت أبا الحسن على بن عيسى يتحدث قال : سمعت عبيدالله بن سليمان بن وهب يقول : حدثنى أبى قال : كنت أنا والعباس ابن الخصيب مع خلق من العمال والكتاب معتقلين فى يدى محمد بن عبدالملك فى آخر وزرائه للواثق نطـــالب ببقيا مصادرات ، ونحن فى إياس من الفرج إذ اشتدت علة الواثق وحجب ستة أيام عن الناس فدخل اليه أبو عبدالله أحمد بن أبى دؤاد القاضى فقال له الواثق يا أبا عبدالله : وكان يكنيه ذهبت منى الدنيا والآخرة . قال : كلا يا أمير المؤمنين . قال : بلى والله قد ذهبت منى الدنيا بما ترى من حضور الموت ، وذهبت الآخرة بما أسلفت من العمل القبيح فهل عندك شيء من دواء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قد عزل محمد بن عبد الملك كثيراً من الكتاب والعمال وملأ بهم الحبوس ولم يتحصل من جهتهم على شيء كثير وهم عدد كثـــير ووراءهم ألف يد ترفع إلى الله عز وجل بالدعاء عليك فتأمر بإطلاقهم لترتفع تلك الأيادى بالدعاء لك فلعل الله يهبك العافية ، وعلى كل حال أنت محتاج إلى أن تقل خصومك . فقال :

نعم ما أشرت به ، وقع اليه على باطلاقهم . فقلت ان رأى خطى عاند ولج ولكن يغتنم أمير المؤمنين الثواب ويتساند ويحمل على نفسه ويوقع بخطه فوقع الواثق بخط مضطرب إلى ابن الزيات بإطلاقهم وإطلاق كل من فى الحبس من غير استئمار ولا مراجعة وتقدم إلى إيناخ أن يمضى بالتوقيع ، ولا يدعه يعمل شيئاً أو يطلقهم وأن يحول بينه وبين الوصول اليه أو كتب رقعة أو اشتغال بشىء ألبتة إلا بعد إطلاقهم ، وأنه إن لقيه فى الطريق أن ينزله عن دابته ويجلسه فى الطريق حتى يفرغ من ذلك . فتوجه ايناخ فلقى ابن الزيات راكباً يريد الخليفة فقال له : تنزل عن دابتك وتجلس على غاشيتك فارتاع وظن الحال به قد وقعت فنزل وجلس على غاشيته فأوصل اليه التوقيع فامتنع وقال إذا أطلقت هؤلاء فمن أين أنفق الأموال وأقيم الأتراك ؟ فقال : لابد من ذلك ، فقال اركب واستأذنه . فقال لاسبيل إلى ذلك قال : فدعنى أكاتبه قال ولا هذا فما برح من موضعه حتى وقع بإطلاق الناس فصار ايناخ الينا ونحن فى الحبس إياس من الفرج وقد بلغنا التلف وبلغنا اشتداد علة الواثق وأرجف لابنه بالخلافة وكان صبياً فخفنا أن يتم ذلك فيجعل ابن الزيات الصبى شيخاً ، ويتولى التدبير فيتلفنا وقد امتنعنا لفرط الغم من الأكل . فلما دخل ايناخ الحبس لم نشك إنه قد حضر لبلية فأطلقنا وعرفنا الصورة فدعونا الله عزوجل لابن أبى دؤاد وللخليفة وانصرفنا إلى منازلنا لحظة ثم خرجنا فوقفنا لأبى عبد الله بن أبى دؤاد على الطريق ننتظر عوده من دار الخلافة الى داره فحين رأيناه ترجلنا له ودعونا له وشكرناه ، فأكبر ذلك عليه ومنعنا من الترجل فلم نمتنع فوقف حتى ركبنا وساير نا إلى منازلنا ، وأخذ يخبرنا بالخبر ونحن نشكره وهو يقتصر مافعل ويقول : هذا أول حقوقكم وكان الذى لقيه أنا ، وأحمد بن الخصيب وقال : ستعلمان ما أعمله مستأنفاً ورجع ابن أبى دؤاد إلى دار الخلافة عشياً فقال له الواثق قد تبركت برأيك ياأبا عبدالله ووجدت خفاً من العلة ونشطت للأكل فأكلت وزن خمسة دراهم من الخبز بصدر دجاج . فقال له أبو عبد الله ، يا أمير المؤمنين : تلك الأيدى التى كانت تدعو عليك غدوة صارت تدعو لك عشية ، ويدعو لك بسببهم

خلق كثير من رعيتك إلا أنهم قد صاروا إلى دور خراب وأحوال قبيحة بلا فرش ولا كسوة ولا دواب ولا ضياع موتى جوعاً وهزالا قال : فما ترى ؟ قال يا أمير المؤمنين : فى الخزائن والاصطبلات بقايا ما أخذ منهم فلو أمرت أن ينظر فى ذلك فبكل من وجد له شىء باق من هذا رد عليه وأطلقت عن ضياعهم لعاشوا وخف الاثم وتضاعف الدعاء وقويت العافية . قال : فوقع بذلك عنى . فوقع عنه ابن أبى داؤد فما شعرنا من الغد إلا وقد رجعت نعمنا علينا ومات الواثق بعد ثلاثة أيام وفرج الله عزوجل عنا بابن أبى دؤاد وبقيت له المكرمة العظيمة فى أعناقنا .

حدثنى أبو الحسن على بن هشام ، قال : سمعت أبا الحسن على بن عيسى وأبا الحسن الإيادى الكاتب يقولان : كان عبيدالله بن سليمان يقول كنت بحضرة أبى فى ديوان الخراج بسر من رأى وهو يتولاه إذ دخل عليه أحمد بن خالد الصرفينى الكاتب فقام اليه أبى قائماً من مجلسه وأقعده فى صدره وتشاغل به ولم ينظر فى عمل حتى نهض ثم قام معه وأمر غلمانه بالخروج بين يديه فاستعظمت أنا وكل من فى المجلس هـذا ، لأن رسم أصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لايقومون فى الديوان لأحد ممن خلق الله تعالى ممن يدخل اليهم فتبين أبى ذلك فى وجهى فقال لى يابنى : إذا خلونا فاسألنى عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل . قال : وكان أبى يأكل فى الديوان وينام فيه ويعمل عشياً فلما جلسنا نأكل لم أذكره إلى أن رأيت الطعام كاد ينقضى فقال لى هو : يابنى شغلك الطعام عما قلت لك أن تذكرنى به فقلت : لا ولكن أردت أن يكون ذلك على خلوة . فقال يابنى : هـذه خلوة ألست أنكرت أنت والحاضرون قيامى لأحمد بن خالد عند دخوله وخروجه وماعاملته به ؟ قلت : نعم . فقال : كان هـذا يتقلد مصر فصرف عنها ، وقد كانت مدته فيها طالت فوطئت آثار رجل لم أر أجمل آثارا منه ، ولا أعف عن أموال السلطان والرعية ولارأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له ، وكان الحسين المعروف بعرق الموت الخادم صاحب البريد بمصر أصدق الناس لنعم هـذا ، وهو من أبغض الناس إلىّ وأشدهم اضطراب أخلاق فلم أتعلق عليه بحجة

ووجدته قد أخر رفع الحساب لسنة متقدمة لسلته التى هو فيها ولم ينفذه إلى الديوان فسألته أن يحط من الدخل ويزيد فى النفقات والارزاق ويكثر من البقايا فى كل سنة مائة ألف دينار لآخذها لنفسى فامتنع من ذلك فأغلظت له وتوعدته ، ونزلت معه إلى مائة ألف واحدة فى السنتين وحلفت بإيمان مؤكدة أنى لا أقنع منه بأقل من هذا . فأقام على امتناعه وقال أنا لاأخون لنفسى فكيف أخون لغيرى ، وأزيل ما قام به جاهى من العنـاف فحبسته وقيدته فلم يجب ، وأقام مقيداً فى الحبس شهوراً وكتب عرق الموت يضرب على عند المتوكل ويحلف أن أموال مصر لاتفى بنفقتى ومؤنتى ، ويصف أحمد ابن خالد ويذكر ميل الرعية اليه وعفته فأنا ذات يوم على المائدة آكل إذ وردت إلى رقعة أحمد بن خالد يسألنى استدعاءه لمهم يلقيه إلى فلم أشك أنه قد ضاق بالحبس والقيد ، وقد عزم على الاستجابة لمرادى فلما غسلت يدى دعوته فاستخلانى فأخليته فقال : أما آن لك ياسيدى أن ترق لى مما أنا فيه من غير ذنب اليك ، ولا جرم ولا قديم دخل ، ولا عداوة ؟ فقلت : أنت اخترت لنفسك هذا ، وقد سمعت يمينى وليس منها مخرج . فاستجب لما أمرت به واخرج فأخذ يستعطفنى ويخدمنى ويخدعنى فقال لى يا سيدى : فليس الآن عندك غير هذا ؟ فقلت : لا . فقال إذا كان ليس غـير هذا فاقرأ يا سيدى وأخرج إلى كتاباً لطيفاً مختوماً فى ربع قرطاس ففضضته فإذا هو بخـط المتوكل الذى أعرفه وهو إلى يأمرنى فيـه بالانصراف وتسليم ما أتولاه إلى أحمـد بن خالد والخروج اليه بمـا يلزمنى ، ورفع الحساب فورد على أقبح مورد لقرب عهد الرجل بشتمى له وإساءتى اليه فأمسكت مبهوتاً . ولم ألبث أن دخل أمير البلد فى أصحابه وغلمانه فوكل بدارى وبجميـع ما أملكه وبأصحـابى وغلمانى وجهـابذى وكتابى وجعلت أزحف من صدر المحل حتى صرت بين يدى أحمد بن خالد ، ودعا أمير البلد بحداد لحل قيدة فوثب قائما وقال لى : يا أبا أيوب أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولامنزل لك فيه ولاصديق ومعك حرم وحاشية كثيرة وليست تسعك إلا هـذه الدار وكانت دار العمالة ، وأنا أجد عدة مواضع غيرها وليس لى

كثير حاشية ومن نكبة خرجت فأقم بمكانك وخرج وصرف المتوكل بالدار وأخذ كاتبي وأسبابي اليه فلما انصرف قلت لغلماني : هذا الذي نراه في النوم انظروا من وكل بنا ؟ فقالوا : ماوكل بنا أحد فعجبت من ذلك عجبا عظيما وما صليت العصر حتى عاد إلى من كان حمله معه من المتصرفين والكتاب والجهابذة مطلقين وقالو : أخذ خطوطنا برفع الحساب وأمرنا بالملازمة وأطلقنا . قال : فازداد عجبي فلما كان من غد باكرني مسلما ورحت اليه في عشية ذلك اليوم وأقمت ثلاثين يوما ان سبقني إلى المجيء والا رحت اليه وإن راح إلى والا باكرته ، وفي كل يوم تجيئني هداياه وألطافه من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى فلما كان بعد الثلاثين يوماً جاءني وقال : قد عشقت مصر يا أبا أيوب ، والله ماهي طيبة الهواء ، ولاعذبة الماء ، وإنما تطيب بالولاية والاكساب . ولو قد دخلت إلى سر من رأى لما أقمت بها إلا شهراً واحداً حتى تتقلد أحد الأعمال . فقلت : والله ماأنا إلا متوقع لأمرك في الخروج فقال : أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب واخرج في حفظ الله فأحضرت كاتبي وأخذت خطه كما أراد وسلمته اليه وقال لي أخرج أي يوم شئت فخرجت من غد فخرج هو وأمير البلد وقاضيه وأهله فشيعوني إلى ظاهر البلد وقالوا لي تقيم في أول منزل على خمسة فراسخ إلى أن أزيح علة قائد ويصحبك برجاله إلى الرملة فان الطريق فاسد ، فاستوحشت لذلك وقلت هذا إنما غرني حتى أخرج كل ما أملكه فيتمكن منه في ظاهر البلد فيغتصبه ثم يردني إلى الحبس والتوكيل والمطالبة ويحتج علي بكتاب ثان يذكر أنه ورد من المتوكل ، فخرجت فأقمت بالمرحلة التي أمر بها مستسلما متوقعاً للشر إلى أن رأيت أوائل عسكر مقبل من مصر فقلت لعله القائد الذي يريد أن يصحبني إياه أو لعله الذي يريد أن يقبض علي به فأمرت غلماني بمعرفة الخبر ؟ فقالوا : العامل أحمد بن خالد قد جاء فلم أشك في أنه قد ورد البلاء بوروده فخرجت من مضربي فلقيته وسلمت عليه ، فلما جلس وسلم قال أخلونا فلم أشك أنه للقبض علي وطار عقلي فقام من كان عندي فلما لم يبق أحد قال : أنا أعلم أن

أيامك لم تطل فى مصر ولاحظيت بكثير فائدة ، وذلك الباب الذى سألتنيه فى ولايتك فلم أجب اليه إنما أخرت الإذن لك فى الانصراف منذ أول الأمر إلى الآن لأنى تشاغلت بالفراغ لك منه ، وقد حططت من الارتفاع وزدت فى النفقات كل سنة خمسة عشر ألف دينار تكون فى السنتين ثلاثين ألف دينار وهو يقرب ولا يظهر ويكون أيسر مما أردته منى فى ذلك الوقت وقد تشاغلت به حتى جمعته لك ، وهذا المال على البغال فقدم إلى من يستلمه فتقدمت لقبضه وقبلت يده وقلت : قد والله ياسيدى فعلت مالم تفعل البرامكة فأنكر ذلك منى وتقبض منه وقبل يدى ورجلى وقال : هاهنا شىء آخر أريد أن تقبله منى فقلت : ماهو ؟ قال خمسة آلاف دينار قد استحققتها من رزقى فامتنعت وقلت فيما قد تفضلت به كفاية فحلف أنى أقبلها منه فقبلتها . فقال : وهذه الطاف من هدايا مصر أحببت أن أصحبك إياها فانك ستصير إلى كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة ويقولون لك وليت مصر فأين نصيبنا من هداياها ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم وقد جمعت لك منه مايشتمل عليه هذا الثبت واخرج درجا فيه ثبت جامع لكل شىء فى الدنيا حسن ظريف جليل القدر من ثياب ديبقى وقصب وخدم ، وبغال ودواب وحمير ، وفرش وطيب كثير وما يكون فيه الجميع مال كثير فأمرت بتسلمه وزدت فى شكره فقال لى ياسيدى أنا مغرى بحب الفرش وقد عملت لى بيت أرمنى بأرمينية وهو عشر مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها وهو مذهب بطرز مذهبة قد قام على بخمسة آلاف دينار على شدة احتياطى فان أهديته إلى الوزير عبدك ، وان أهديته الى الخليفة ملكته به ، وإن أبقيته لنفسك وتجملت به كان أحب إلى وحمله إلى فما رأيت مثله قط ولم تسمح نفسى باهدائه إلى أحد ولا استعماله فما ابتذلت منه شيئاً إلا يوم اعذارك . فهل تلومنى يابنى بعد ذلك على أن أقوم لهذا الرجل ؟ قال : فقلت : لا والله يا أبى ولا على ماهو أكثر من القيام لو كان مستطاعا . قال : فكان أبى بعد ذلك إذا صرف رجلا عامله بكل جميل يقدر عليه ويقول : علمنا أحمد أحمد بن خالد حسن التصرف .

حدثنا أبو على الحسين بن محمد بن موسى الأنبارى الكاتب الذى كان زوج ابن المهلبى بن محمد رحمهم الله بإسناده : أن القاسم بن عبدالله لما تفرد بالوزارة بعد موت أبيه كان يحب الشرب واللعب ويخاف أن يتصل بالمعتضد خبره فيستنقصه وينسبه إلى الصبوة والتهتك والتشاغل واللذات عن الأعمال ، وكان لا يشرب إلا فى حالين على إخفاء وأستر مايكون ، وأنه خلا يوما مع جوار مغنيات ولبس من ثيابهن المصبغات وأحضر فواكه كثيرة وشرب ولعب من نصف نهار يوم إلى نصف الليلة الأخرى ونام بقية الليلة وبكر إلى المعتضد للخدمة على رسمه فما أنكر شيئا ، وبكر فى اليوم الثانى فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : ياقاسم ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك وألبستنا معك من ثيابك المصبغات ؟ قال فقبل الأرض وروى عن الصدق وأظهر الشكر على هذا البسط وخرج وقد كاد يتلف غما لوقوف المعتضد على هذا القدر من أمره وكيف لا تخفى عليه مواقفه فجاء إلى داره كئيباً وكان له فى داره صاحب خبر يقال له خالد يرفع اليه أمورها فأحضره وعرفه بما جرى بينه وبين المعتضد وقال له : إن بحثت لى عمن أخرج هذا الخبر اليه زدت فى رزقك وأجزتك كذا ، وإن لم تعرفه نفيتك إلى عمان وحلف له على الأمرين فخرج صاحب خبره من حضرته متحيراً كئيباً لا يدرى مايعمل يومه ويفكر ويحتال ويجتهد فما وقع له راى يعمل عليه . قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرت إلى دار القاسم زيادة تبكير على ماجرى به رسمى لفرط سهرى وقلقى تلك الليلة ومحبتى للبحث فجئت ولم يفتح باب دار القاسم بعد فجلست فإذا برجل يزحف فى ثياب المكدين ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين فلما جاء إلى الباب جلس حتى فتح فسابقنى إلى الدخول فأولع به البوابون وقالوا أى شىء خبرك يافلان وصفعوه فمزحهم وطايبهم وشتمهم وشتموه وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم . قالوا : نعم الساعة يركب قال : وأى وقت نام البارحة ؟ قالوا وقت كذا وكذا . فلما رأيته يسأل عن هذا خمنت أنه صاحب خبر فأصغيت اليه ولم أرهم يحفلون بأمره وهو لم يدع بواباً ممن وصل إلى الوزير وممن لم يصل إلا سأله عنه وحدثه به . ويبدؤه

بأحاديث أخر على سبيل الفضول ، ثم زحف فدخل إلى جنب أصحاب أصحاب الستور فأخذ معهم فى مثل ذلك وأخذوا معه فى مثله ، ثم زحف فدخل إلى دار العامة فقلت لأصحاب : الستور من هذا ؟ فقالوا : رجل زمن فقير أبله طيب النفس يدخل الدار ويتطايب ويتصدق فيهب له الغلمان والمتصرفون فتبعته ، إلى أن دخل المطبخ فسأل عما أكل الوزير ومن كان معه على المائدة وفى أى شىء أفاضوا والطباخ وغلمانه وغلمان صاحب المائدة كل واحد يخبره بشىء ، ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب فلم يزل يبحث عن كل شىء ويحدث ، ثم خرج إلى خزانة الكسوة فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء إلى مجلس الكتاب فى الديوان فقصد وأقبل يسمع ما يجرى ويسأل الصبى بعد الصبى ، والحدث بعد الحدث عن الشىء بعد الشىء ، ويستخبر الخبر فى كل موضع من تلك المواضيع ويتتبعه ، ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه ، والأخبار تنجر اليه وتتساقط عليه ، والقطع تجيئه وهو يملأ تلك المخلات فلما فرغ من هذا أقبل راجعاً يريد الباب فلما بلغه قبضت عليه فأدخلته بيتاً وأغلقت عليه وجلست على بابه ، فلما خلا الوزير أعلمته . فقال : أحضر لى الرجل .

وفى رواية أخرى أنه لما بلغ الباب تبعته فرجع حتى جاء إلى موضع من الخلد فدخل اليه ووقفت انتظره فإذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حسان ماشياً بغير قلبة فتبعته حتى جاء إلى دار قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها . فسألت عنها فقالوا : هذه دار فلان الهاشمى رجل متجمل فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب فكلمه من خوخة له فصاح اليه ورمى اليه برقعة لطيفة فأخذها الخادم وانصرف . فجئت فطلبت من الوزير غلمانا فسلم إلى ماطلبت فبكرت من سحر الى الدار التى فى الخلد فاذا أنا بالرجل قد جاء بزيه الذى دخل به داره بقرب دار ابن طاهر فكبسته فى الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ولبس ثياب المكدين التى رأيتها عليه أولا فحملته وغطيت وجهه

وكتمت أمره حتى أدخلته دار القاسم ودخلت اليه وقصصت عليه الخبر .
قال : ففوض القاسم شغله وخلا واستدعاه . فقال : لتصدقني عن أمرك أولا ترى ضوء الدنيا ، ولا تخرج من هذه الحجرة والله أبدا . قال تؤمنني ؟ قال : أنت آمن . فنهض لاقلبة به فتحير القاسم وقال الرجل أنا أخبرك أما فلان بن فلان الهاشمي رجل متجمل ، وأنا أتخبر عليك للمعتضد منذ كذا وكذا فأنزل بدرب يعقوب بقرب دار ابن طاهر يجرى على المعتضد خمسين ديناراً فى الشهر ، وأخرج كل يوم بالزى الذى لاينكره جيرانى فأدخل داراً فى الخلد بيدى منها بيت بأجرة فيظن أهلها أنى منهم ولا ينكرونى للزى ، فأخرج من هناك بهذه الثياب وأتزامن من الموضع وألبس لحية فوق لحيتى مخالفة للونى حتى إن لقينى فى الطريق بالاتفاق بعض من يعرفنى أنكرنى ، وأمشى زحفاً من الخلد إلى دارك فأعمل جميع ماعرفت وأقتفى أخبارك من غلمانك وهم لايعرفون غرضى . ويخرجون الىّ بالاسترسال مالو بذل لهم فيه من الأموال لم يظهروه ، ثم أخرج فأجىء الى موضع من الخلد فأغير ثيابى وأعطى ذلك الذى قد اجتمع معى فى المخلات للمكدين وألبس ثيابى التى يعرفونى بها جيرانى وأعود الى منزلى وآكل وأشرب وألعب بقية يومى ، فاذا جاء المغرب جاءنى خادم من خدم دار ابن طاهر مندوب لهذا فأرمى اليه من روزنة لى برقعة فيها خبر ذلك اليوم ولا افتح له بابا ، فإذا كان بعد تسعة وعشرين يوما جاءنى الخادم فأنزل اليه فأعطيه رقعة ذلك اليوم ويعطينى جائزة ذلك الشهر ، ولولا أنى لم أر صاحب خبرك ولا فطنت له لما تم على هذا . ولو كنت لحظته لحظة واحدة لما خفى على أنه صاحب خبر ولكنت رجعت من الموضع الذى أراه فيه فلا يعرف خبرى وبعد ذلك فانما تم على هذا لأن أجلى قد حضر فالله الله فى دمى . قال فاصدقنى عما رفعته عنى إلى المعتضد ؟ قال فحدثه بأشياء رفعها منها خبر الثياب المصبغات . قال : فحبسه القاسم أياما وأخفى أمره وأنفذنى إلى منزله وقال راع أمرهم وانظر مايجرى فمضيت إلى داره التى وصفها بدرب يعقوب فجلست إلى المغرب فجاء الخادم فصاح به فقالت له الجارية مارجع اليوم ولم يكن له بهذا عادة قط ،

وقد قامت قيامتنا والله . فانصرف الخادم وانصرفت وعدت من غد وقت المغرب وجاء الخادم فقالت الجارية : ماجاء اليوم أبداً وقد والله اشتد همنا وأشفقنا أن يكون قد حدثت عليه حادثة لانعرفها . فانصرف الخادم وانصرفت وعدت من غد وعاد الغلام فقالوا له : ياهذا قد والله يئسنا منه ولاشك فى أنه هلك والمأتم قد أقيمت عليه فى منزل أمه وعمومته فانصرف الخادم وجئت إلى القاسم بالخبر . فلما كان من الغد ركب القاسم إلى المعتضد فحين رآه استدعاه وساره وقال : ابراهيم الهاشمى المتزامن بحياتى أطلقه وأحسن اليه وأنت مأمن بعدها من أن أنصب عليك صاحب خبر ، ووالله لئن أحدثت به حادثة لاعرفت فى دمه أحداً غيرك . فقبل الأرض وانصرف فعاد إلى داره وحمد الله تعالى إذ لم يعجل بقتله وأخبرنا الخبر وأحضر الهاشمى وخلع عليه ووصله بمال له قدر وصرفه وانقطعت أخباره عن المعتضد ¤ حدثنا أبو الحسن أحمد ابن يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن البهلول التنوخى بالإسناد عن أبى القاسم عبيد الله بن سليمان وهو وزير فى يوم من أيام جلوسه للمظالم إذ وقعت فى يده رقعة فقرأها وتوقف ساعة كالمفكر ثم قال : أين عمر بن محمد بن عبد الملك ؟ فأدخل عليه . فقال : أنت عمر ؟ قال : نعم أعز الله الوزير أنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات . قال فتوقف أيضا ساعة ثم قام إلى خلوة له ولم يطل وعاد إلى موضعه فوقع لعمر بن محمد بجائزة ولم يزل كالمفكر إلى أن تفرق الناس وخلا المجلس ممن يحتشم فقال لنا : وقفتم على خبر هذا الرجل ؟ قلنا قد وقفنا على ما كان من الوزير أعزه الله فى أمره ولم نقف على السبب . فقال : أحدثكم بحديثه فإنه طريف ، حدثنى أبى أبو أيوب رحمه الله تعالى قال : كنت فى يدى محمد ابن عبد الملك الزيات يطالبنى وأنا منكوب . وكان : يحضرنى كل يوم بغير سبب ولامطالبة وأنا فى قيودى وعلى جبة صوف ، وكان أخى الحسن يكتب بين يديه ولم يكن يتهيأ له فى أمرى شىء إلا أنه كان إذا رآنى استقبلنى ، فإذا رجعت إلى موضعى شيعنى إذ أقبل فى يوم خادم لمحمد ومعه ولد صغير فوثب كل من فى المجلس إلى الصبى يقبلونه ويدعون له سواى فكنت مشغولا

بنفسى فلم أتحرك فأخذه محمد وضمه اليه وقال ياسليمان : لم لاتفعل بهذا الصبى كما فعله أهل المجلس ؟ قلت : اشتغلنى عن ذلك ما أنا فيه . قال : لا ولكنك لم تطق ذلك عداوة لأبيه وله وكأنى بك وقد ذكرت عبيد الله فأملت فيه الآمال والله لا رأيت فيه شيئا تؤمله ، وأشرف بعد ذلك فى الاستماع فعلمت أنه قد بغى ووثقت من الله عز وجل بجميل عادته وأنه سيبلغنى ما آمله فيه عناداً لبغيه . قال : ولم يمض إلا مدة يسيرة حتى سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك وقلدنى مناظرته وإحصاء متاعه فوافيت داره فرأيت ذلك الخادم بعينه ومعه الصبى يبكى . فقلت ماخبر هذا الصبى ؟ فقال : قد منع من كل ماله وأدخل فى الإحصاء فقلت : لابأس عليه ، فدخلت فسلمت اليه كل ما كان له ثم قال لى : فينبغى يابنى إن تهيأت لك حال ورأيت الصبى وهو عمر بن محمد أن تحسن اليه وتقابل نعمة الله تعالى فيه بما يجب لها ، فلما رأيته فى هذا الوقت تذكرت ماقاله أبو أيوب رحمه الله تعالى فامتثلت فيه ما أشار به وأنا أتقدم بعد الذى فعلته به إلى أبى الحسين بتصريفه ، وكانت لعمر خرجة قويت بها حاله عند أبى الحسين إلى أن استخلفه فى دار أبى النجم مدبراً بين يديه ، وقد ذكر محمد بن عبدوس فى كتابه « كتاب الوزراء » أنه وجد بخط ميمون ابن هارون عن أبى محمد داود بن الجراح وقد وقع إلى من وجه آخر على خلاف ذلك بإسناده عن جماعة قالوا كلهم : حضرنا مجلس عبيد الله بن سليمان فى أول وزارته للمعتضد وقد حضر رجل رث الهيئة بثياب غلاظ فعرض عليه رقعة ، وكان جالسا للمظالم فقرأها قراءة متثاقل لها متنكر فتعجب ثم قال : نعم وكرامة ثلاث مرات أفعل ماقال أبى لاماقال أبوك ، وكرر هذا القول أيضا ثلاث مرات ثم قال له : عد الى وقت العصر لأنظر فى أمرك . ثم قال لنا : إذا خلوت فذكرونى بحديث هذا لأخبركم منه بعجب عجيب وعمل بقية المجلس ثم قام واستراح ودعا بالطعام فلما أكلنا أكثر الأكل قال لنا : ما أراكم ذكرتمونى بحديث صاحب الرقعة ؟ فقلنا أنسينا . فقال : حدثنى أبى قال : كنت فى زمن محمد بن عبد الملك فى أيام الواثق لما صادرنى عن كتابة ايتاخ

على أربعمائة ألف دينار ، وقد أديت منها مائتى ألف ونيفاً وأربعين ألف دينار فاستحضرنى يوما وطالبنى بالباقى وحدنى فيه وأرهبنى ولم يرض منى إلا إن أجبت أن أؤدى خمسين ألف دينار قاطعة للمصادرة على أن يطلق ضياعى . قال : ونحن فى ذلك ولم يأخذ خطى به بعد إذ خرج اليه خادم من دار حرمه برقعة فقرأها ونهض فكان بحضرته أخى أبو على الحسين بن وهب وهو غالب عليه إلا أنه يخافه أن يتكلم فى أمرى وهو يرى مايجرى ولا يقدر أن يكلمنى ولا يكلمه ، فلما قام الوزير رمى إلى أخى برقعة لطيفة فوقعت فى حجرى فاذا فيها : جاءنى الخبر الساعة من دارك ان قد رزقت ابناً خلقاً سوياً وهو جسم بغير اسم فما تحب أن يسمى ويكنى ؟ فقلت له : عبيد الله أبو القاسم . فكتب بذلك فى الحال إلى منزلى قال : وتداخلنى سرور بذلك وقوة نفس وحدثت نفسى بأنك تعيش وتبلغ وانتمع بك قال : وعاد محمد إلى مجلسه فأعاد خطابى فلم أستجب له وأخذت أدافع . فقال لى يا أبا أيوب : ما ورد عليك بعدى ، أرى عينيك ونفسك ووجهك بخلاف ما خلفتك منذ ساعة . فقلت ما ورد على شىء . فقال : والله لئن لم تصدقنى لأفعلن وأصنعن . فقلت ماعندى ماأصدق عنه . فأقبل على أخى فقال لتخبرنى بشأنه فخافه أخى فصدقه عن الصورة فسكن وقال له : أتعرف لأى شىء قمت أنا ؟ فقال : لا . قال كو تبت بأن ولداً ذكراً سوياً قد ولد لى فدخلت فرأيته وأسميته باسم أبى وكنيته بأبى مروان . قال سليمان : فقمت اليه وقبلت يديه ورجليه وهنأته وقلت : أيها الوزير هذا يوم مبارك وقد رزقت ابناً فارحمنى ، وارع سالف خدمتى لك ، واجعل ابنى موسوما بخدمة ابنك ، يسلم معه فى المكتب ، ويتعلمان وينشوان فى دولتك ، فيكون كاتباً له فحملته اللدادة والقسوة التى فيه إلى أن قال يا أبا أيوب :.أعلى تجوزنى وتستهزىء وتخاتل قد حدثتك نفسك بأن ابنك هذا يبلغ المبالغ ، وتؤمل له الوزارة ؟ ورجوت فى نوائب الزمان وقلت : أرجو أن يحتاج ابنه إلى ابنى حتى يطلب منه الإحسان والفضل . فإذا استحلفك بالله وأحرج عليك ان بلغ ابنك هذا المبلغ الا

وصيته أن جاءه ابني لشيء من هذا أن لايحسن اليه . قال فأعظمت الخطاب وتنصلت واعتذرت ووقع في قلبي في الحال أن هذا غاية البغي ، فان الله عز وجل سيخرج ابنه إلى ابني فيحقق فيهما ماقاله وظننته وما مضت إلا مدة مديدة حتى فرج الله عني ، ثم قال لي أبي يابني : بالله إن رفعك الله والزمان ووضع ابنه حتى يحتاج اليك الا أحسنت اليه قال : وضرب الدهر مضربه فما عرفت لأبي مروان خبراً حتى رأيته اليوم فكان ما شاهدتم ، ثم أمر بطلب أبي مروان فأحضر فوهب له مالا وخلع عليه وحمله ، وقلده ديوان البريد والخرائط ، قال أبو الحسين : فما زال يتقلده منذ ذلك الوقت إلى آخر وزارة ابن الفرات الثالثة فانه مات فيها وقد تقلده ثلاثين سنة أو أكثر . وكان : كتب إلى عبيد الله أول ما كاتبه بعد تقلده هذا الديوان : عبد الوزير وخادمه عبد الملك بن محمد ، فأراد عبيد الله أن يتكرم عليه . فقال له أنت على كل حال ابن وزير وما أحب أن تتعبد لي ، فاكتب اسمك فقط على الكتب فقال : لا تسمح نفسي بهذا ولكني أكتب عبد الملك بن محمد عبد الوزير وخادمه فقال : اكتب . فكتب بذلك فصارت عادة فكتب بها إلى جميع الوزراء إلى أن مات في وزارة ابن الفرات الثالثة فصار كالمترتب عليهم بما عامله من ذلك عبيد الله وغلب عليه أن عرف بأبي مروان الخرايطي ونسي نسبه إلى ابن الزيات إلا من كان يعرفه من الكتاب وغيرهم أخبرني بذلك جماعة من الشيوخ .

* * *

ووجدت في بعض الكتب بغير إسناد أن عبيد الله بن زياد لما بنى داره البيضاء بالبصرة بعد قتل الحسين رضي الله عنه صوّر في بابها رؤساً مقطعة ، وصور في دهليزها أسداً وكلباً وكبشاً ، وقال : أسد كالح ، وكبش ناطح ، وكلب نائم ، فمر بالباب أعرابي فقال : أما ان صاحبها لا يسكنها إلا ليلة لايتم . فرفع الخبر إلى ابن زياد فأمر بالأعرابي فضرب وحبس ، فما أمسى حتى قدم رسول ابن الزبير إلى قيس بن السكن ووجوه أهل البصرة في أخذ البيعة له ودعا الناس إلى طاعته فأجابوه وأرسل بعضهم بعضاً

بالوثوب عليه من ليلتهم ، وأنذره قوم منهم كانت له عندهم صنائع فهرب من داره فى ليلته تلك فأجاروه ووقعت الحروب المشهورة بينهم وبين تميم بسببه حتى أخرجوه فألحقوه بالشام وكسر الحبس فخرج الأعرابى ولم يعد ابن زياد إلى داره وقتل فى وقعة الجازر * حدثنى القاضى محمد بن عبدالواحد الهاشمى قال : سمعت ابن عمرو الغنوى يقول : لما أسرنى أبو سعيد الجنابى القرمطى وكسر العسكر الذى كان أنفذه معى المعتضد بالله لقتاله وحصلت فى يده أسيراً آيست من الحياة فأنا يوم على تلك الصورة إذ جاءنى رسوله فأخذ قيودى ، وغير ثيابى وأدخلنى اليه فسلمت وجلست فقال لى : أتدرى لم أستدعيك ؟ قلت : لا . قال : أنت رجل عربى ومن المحال أن أستودعك أمانة أن تحقرها ولا سيما منّ عليك بنفسك . فقلت : هو كذلك . قال : إنى فكرت فاذا لا طائل فى قتلك ، وإذا فى نفسى رسالة إلى المعتضد لا يجوز أن يؤديها غيرك فرأيت إطلاقك وتحميلك إياها فان حلفت لى أن تؤديها سيرتك اليه ؟ فحلفت فقال : تقول للمعتضد ياهذا : لم تخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع أعداءك فى نفسك وتتعبها فى طلبى وإنفاذ الجيش إلى وانا رجل مقيم فى فلاة لازرع عندى ولاضرع ، ولا غلة ولا بلد ، وإنما أنا قد رضيت لنفسى بخشونة العيش والأمن على المهجة والعز بأطراف هذه الرماح . وما اغتصبتك بلداً كان فى يدك ، ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل ومع هذا فوالله لو أنفذت إلىّ جيشاً من الجيوش مع الثلج والريح والندى فيجيئون من المسافة البعيدة والطريق الشاق وقد قتلهم السفر وقبل قتالنا فانما غرضهم أن يبدوا عذراً فى مواقفتنا ساعة ثم يهربون ، فان ثبتوا مع مالحقهم من وعثاء السفر ، وشدة الجهد التى هى أكثر أعوانى عليهم فما هو إلا أن أخمق عليهم حتى انهزموا وكثر ماتقدر عليه أن يجيئوا فيستريحوا ويقيموا ، ويكونوا عدة لا قبل لى بهم فيهزمونى إذا قاتلونى لا يقدر جيشك على أكثر من ذلك . فما هو إلا أن انهزم حتى قد بعدت عن هذا الموضع عشرين فرسخاً أو ثلاثين ، وحولت من الصحراء شهراً أو اثنين ثم أكبسهم على غرة فقتلت جميعهم ، ولو لم يستولى هذا وكانوا متحرزين

مـا يمـكنهم الطواف خلفى فى البرارى فلا ينبغى طلبى فى الصحـارى ، ثم لا يحملهم البلد فى المقام ولا الزاد إن كانوا كثيرين فان انصرف الجمهور وبقى الأقل فهم قتلى سيوفى أول يوم ينصرف الجيش ويبقى من يتخلف . هذا إن سلموا من وباء هذا البلد ورداءة مائه وهوائه للذين نشئوا فى ضده ، وربوا فى غيره ، ولا عادة لأجسامهم بالصبر عليه ، فمـكر فى هذا وانظر : هل يفى تعبك وتغريرك بجيشك وعسكرك ، وانفاقك الأموال وتجهيزك الرجال ، وتكلفك هذه الأخطار ، وتحملك هذه المشاق لطلبى ، وأنا مع ذلك خالى الدرع منها ، سليم النفس والأصحاب من جميعها ، وهيبتك تنقص فى الأطراف وعند ملوكها كلما جرى عليك شىء من هذا ، ثم لا تظفرون بلدى بطائل ، ولا تصل منه إلى مال أو حال ، فإن اخترت بعد هذا محاربتى فاستخر الله تعالى وانفذ من شئت ، وإن أمسكت فذاك اليك . قال : فأنفذنى ثم جهزنى وأنفذ معى عشرة من أصحابه إلى الكوفة فسرت منها إلى الحضرة ، فدخلت على المعتضـد فتعجب من سلامتى وسألنى عنهـا فقلت : سبب أذكره سراً لأمير المؤمنـين فتشوق اليه وخلا بى وسألنى فقصصت عليه القصة فرأيته يتمعط فى جلده غيظاً ، حتى ظننت أنه سيسير بنفسه اليه وخرجت من بين يديه فما رأيته بعد ذلك ذكره بحرف .

* * *

حدثنى أبو محمد يحيى بن محمد بن سليمان بن فهد الأزدى الموصلى رحمه الله تعالى قال : حدثنى جماعة من ثقاة أهل الموصل : ان فاطمة بنت أحمد بن على الكردى زوجة ناصر الدولة أم أبى تغلب اتهمت عاملا كان لها يقال له ابن أبى قبيصة من أهل الموصل بخيانة فى مالها ، فقبضت عليه وحبسته فى قلعتها ، ثم رأت أن تقتله فكتبت الى المتوكل بالقلعة بقتله ، فورد عليه الكتاب وكان لا يحسن أن يقرأ ولا يكتب وليس عنده من يقرأ ويكتب الا ابن أبى قبيصة فدفع الموكل بالقلعة الكتاب اليه وقال له : اقرأ فلما رأى فيه الأمر بقتله قرأ الكتاب بأسره إلا حـديث القتل ورد الكتاب عليـه وقال ابن

أبى قبيصة : ففكرت وقلت أنا مقتول ولا آمن أن يرد كتاب آخر فى هذا المعنى ويتفق حضور من يقرأه غيرى فينفذ الأمر فى سبيلى أن أحتال عليه بحيلة فإن تمت سلمت ، وان لم تتم فليس يلحقنى أكثر من القتل الذى أنا حاصل فيه ، فتأملت القلعة فإذا فيها موضع يمكن أن أطرح نفسى منه إلى أسفل إلا أن بينه وبين الأرض أكثر من ثلاثة آلاف ذراع ، وفيه صخر لا يجوز أن يسلم معه من يقع عليه قال : فلم أجسر ثم ولد لى الفكر أنى تأملت الثلج قد سقط عدة ليال قطعا فغطى تلك الصخور فصار فوقها أمر عظيم يجوز ان سقطت عليه وفى أجلى تأخير أن ينكسر بعض بدنى وأسلم قال : وكنت مقيداً فقمت لما نام الناس فطرحت نفسى من الموضع قائما على رجلى فحينما حصلت فى الهواء ندمت وأقبلت أستغفر الله ، وأتشهد وغمضت عينى حتى لا أرى كيف أموت وجمعت رجلى بعض الجمع ، لأنى كنت سمعت قديما أن من اتفق عليه أن يسقط قائما من مكان عال إذا جمع رجليه ، ثم أرسلها إذا بقى بينه وبين الأرض قدر ذراع أو أكثر قليلا أن يسلم وينكسر حد السقطة ويصير كأنه بمنزلة من سقط من ذراعين . قال : ففعلت ذلك فلما سقطت إلى الأرض ذهب عنى أمرى وزال عقلى ثم آب إلى فلم أجد ما كان ينبغى أن يلحقنى من ألم السقوط من ذلك الموضع فأقبلت أجس أعضائى شيئا فشيئا فأجدها سالمة وقمت وقعدت وحركت يدى ورجلى فوجدت ذلك كله سالما ، فحمدت الله تعالى على تلك الحال ، وأخذت صخرة وكان الحديد الذى قد صار فى رجلى كالزجاج لشدة البرد . قال : فضربته ضربا شديداً فانكسر فطن حتى ظننت أنه سيسمعه من فى القلعة لعظمه فينتبهون الىّ فسلم الله عز وجل من هذا أيضا ، وقطعت تكتى وشددت ببعضها القيد على ساقى وقمت أمشى فى الثلج فمشيت طويلا ثم خفت أن يروا آثارى من غد فى الثلج على المحجة فيتبعونى فلا أفوتهم فعدلت عن المحجة الى نهر يقال له الخابور ، فلما وصلت اليه وصرت على شاطئه نزلت فى الماء الى ركبتى وأقبلت أمشى كذلك فرسخا حتى انقطع أثرى ، ثم خرجت لما كادت أطرافى

تسقط من البرد فمضيت على شاطئه ثم عدلت أمشي فيه وربما حصلت في موضع لاأقدر على المشي فيه لأنه يكون جرفا فأسبح ، واستمريت على ذلك أربعة فراسخ حتى حصلت في خيم فيها أقوام فأنكروني وهموا بي فاذا هم أكراد . فقصصت عليهم قصتي واستجرت بهم فرحموني ، وأوقدوا بين يدي وأطعموني وستروني وانتهى الطلب من غد إليهم فما أعطوا خبري أحداً ، فلما انقطع الطلب سيروني حتى دخلت الموصل مستتراً ، وكان ناصر الدولة ببغداد إذ ذاك فانحدرت اليه وأخبرته بخبري كله فعصمني من زوجته وأحسن إلي وصرفني .

* * *

حدثني أبو علي بن عبيد الله الحسين بن عبد الله الجصاص الجوهري ، قال : سمعت أبي يحدث قال : لما نكبني المقتدر وأخذ مني تلك الأموال العظيمة أصبحت يوماً في الحبس آيساً من الفرج فجاءني خادم ، فقال : البشرى . فقلت : ما الخبر ؟ قال : قم قد أطلقت . فقمت معه فاجتاز بي في بعض طرق دور الخليفة يريد إخراجي إلى دار السيدة لتكون هي التي تطلقني لأنها هي التي شفعت في ، فوقعت عيني في اجتيازي على أعدال خيش لي أعرفها كان مبلغها مائة عدل . فقلت للخادم : أليس هذا من الخيش الذي حمل من داري ؟ فقال : بلى . فتأملته فاذا هو بشده وعلاماته وكانت هذه أعدالا قد حملت إلي من مصر كل عدل منها فيه ألف دينار من مال كان لي هناك كتبت بحمله فخافوا عليه من الطريق فجعلوه في أعدال الخيش لأنها مما لاتكاد أن ينهبه اللصوص وإن وقعوا به لا يفطنون لما فيه فوصلت سالمة ، ولاستغنائي عنها وعن المال لم أخرجه من الأعدال وتركته بحاله في بيت في داري وأقفلت عليه وتوخيت بذلك أيضاً ستر حديثه فتركته شهوراً على حاله لأنقله كما أريد في أي وقت أرى ، ولما حبست أخذ الخيش في جملة ما أخذ من داري ، ولخسته عندهم تهاونوا به ولم يعرف أحد مافيه فطرح في تلك الدار ، فلما رأيته عندهم بشده طمعت في خلاصه والحيلة في إرجاعه وسكت .

فلما كان بعد أيام من خروجى راسلت السيدة وشكوت حالى إليها وسألتها أن تدفع إلى ذلك الخيش لأنه لاقدر له عندهم وأنا أنتفع بثمنه . قال : فاستحمقتنى وقالت : وأى قدر لهذا الخيش ردوه عليه . فسلم إلى بأسره ففتحته وأخذت منه المسائة ألف دينار وماضاع منها دينار واحد ، وأخذت من الخيش مااحتجت اليه وبعت باقيه بجملة وافرة وقلت فى نفسى إنه قد بقيت لى بقية اقبال جيدة .

* * *

حدثنى على بن هشام ، قال : سمعت حامد بن العباس يقول : ربما انتفع الإنسان فى نكبته بالرجل الصغير أكثر من منفعته بالكبير ، فمن ذلك : ان إسماعيل بن بلبل لما حبسنى جعلنى فى يد بواب كان يخدمه قديماً (قال) : وكان رجلا حراً فأحسنت اليه وبررته فكنت أعتمد على عناية أبى العباس ابن الفرات وكان ذلك البواب لقدم خدمته لإسماعيل يدخل إلى مجالسه الخاصة ويقف بين يديه لاينكر ذلك عليه لسالف الصحبة ، فصار إلى فى بعض الليالى وقال : قد حرد الوزير على ابن الفرات بسببك وقال له : مايكسر المال على حامد غيرك ، ولابد من الجد فى مطالبته بباقى مصادرته ، وسيدعو بك الوزير فى غد إلى حضرته ويتهددك ، فشغل ذلك قلبى . فقلت له : فهل عندك من رأى ؟ فقال : تكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شحه وضيق نفسه فتلتمس منه لعيالك ألف درهم يقرضك إياها وتسأله أن يجيبك على رقعتك ، فان الشحة توجبه أن يردك بعذر وتحتفظ على الرقعة فاذا طالبك الوزير تخرجها على غير مواطأة وتقول : قد أفضت حالى إلى هذا فلعل ذلك ينفعك . ففعلت ماقال وجاءنى الجواب بالرد كما خمنا وشددت الرقعة معى فلما كان من الغد أخرجنى الوزير وطالبنى فأخرجت الرقعة إليه وأقرأته إياها ورققته وكلمته فلان واستحى ، وكان ذلك سبب خفة أمرى وزوال محنتى . فلما تقلدت فى أيام عبيد الله بن سليمان سألت عن البواب وجذبته إلى خدمتى فكنت أجرى عليه خمسين ديناراً فى كل سنة وهو باق إلى الآن أخبرنى

أبو الفرج على بن الحسين المعروف بالأصفهانى ، بالاسناد عن محمد بن أبى العتاهية ، قال : حدثنى أبى قال : لما امتنعت من قول الشعر وتركته أمر المهدى بحبسى فى السجن سجن الجرائم فأخرجت من بين يديه إلى الحبس فلما دخلته استوحشت ودهشت وذهل عقلى ورأيت منظراً هائلا ورميت بطرفى أطلب موضعاً آوى فيه أو رجلا آنس بمجالسته فاذا أنا بكهل حسن السمت نظيف الثياب يبين عليه سيما الخير فقصدته وجلست اليه من غير أن أسلم عليه وأسأله عن شىء من أمره لما أنا فيه من الجزع والحيرة فمكثت كذلك ملياً وأنا مطرق مفكر فى حالى فأنشد الرجل :

تعودت مس الضر حتى لقيته … وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس واثقاً … بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

قال فاستحسنت البيتين وتبركت بهما وثاب إلى عقلى فأقبلت على الرجل وقلت له : تفضل أعزك الله بإعادة هذين البيتين . فقال لى : ويحك يا إسماعيل ولم لم تكننى ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك ، دخلت ولم تسلم تسليم المسلم على المسلم ، ولا توجعت لى توجع المبتلى للمبتلى ، ولا سألتنى سؤآل الوارد على المقيم حتى إذا سمعت بيتين من الشعر لم يجعل الله عز وجل فيك خيراً ، ولا أدباً ولا جعل لك معاشاً غيره لم تتذكر ما سلف منك فتتلافاه ، ولا اعتذرت مما قدمت وأفرطت فيه من الحق حتى استنشدتنى مبتدئاً كأن بيننا انسا قديما أو صحبة تبسط المنقبض فقلت له : فاعذرنى متفضلا فان دون ما أنا فيه يدهش : قال : وفى أى شىء أنت ؟ إنما تركت قول الشعر الذى كان جاهك عندهم وسبيلك اليهم فحبسوك حتى تقوله وأنت لابد أن تقوله فتطلق ، وأنا يدعى بى الساعة فأطالب باحضار عيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن دللت عليه فقتل لقيت الله عز وجل بدمه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمى فيه وإلا قتلت . فأنا أولى بالحيرة منك . وأنت ترى احتسابى وصبرى . فقلت : يكفيك الله عز وجل . وأطرقت وجهى خجلا منه فقال لى : لا أجمع عليك التوبيخ والمنع اسمع البيتين واحفظهما

فأعادهما على مراراً حتى حفظتهما ثم دعى به وبى فلما وقف بين يدى المهدى قال له : أين عيسى بن زيد ؟ قال : مايدرينى أين عيسى بن زيد طلبته وأخفته فهرب منك فى البلاد ، فأخذتنى وحبستنى فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس ؟ قال له : فأين كان متوارياً ومتى آخر عهدك به وعند من لقيته ؟ فقال ما لقيته منذ توارى ولا أعرف له خبراً . قال : والله لتدلنى عليه أو لأضربن عنقك الساعة ؟ قال : اصنع مابدا لك أنا أدلك على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقتله فألقى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم يطالبانى بدمه ؟! والله لو كان بين ثوبى وجلدى ما كشفت لك عنه . فقال اضربوا عنقه . ثم دعانى فقال : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قلت : بل أقوله . قال : فاطلقوه . قال محمد بن القاسم بن مهرويه والبيتان اللذان سمعهما لا يحضرنى الآن من هما من شعره . قال القاضى أبو على : وأنشدنى بعض أصحابنا معهما بيتاً آخر زيادة .

إذا أنا لم أقنع من الدهر بالذى تكرهت منه طال عتبى على الدهر

٭ ٭ ٭

وجدت فى كتاب أعطانيه أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم صاحب النعمان وهو يومئذ كاتب الوزير أبو محمد المهلبى على ديوان السواد وذكر لى : أنه نسخه من كتاب أعطاه إياه أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الحصينى وكان فيه إصلاحات بخط أبى الحسين بن مابيداد ، قال أبو الحسين على بن الحسين بن عبد الاسكافى : كان داود كاتب أم جعفر قد حبس وكيلا لها وجب عليه فى حسابه مائة ألف درهم فكتب الوكيل إلى عيسى بن فلان ، وسهل بن الصباح وكانا صديقين له يخبره فسارا ليتكلما له فلقيهما الفيض بن صالح فسألهما عن خبرهما فأخبراه ، فقال : أتحبان أن أكون معكما ؟ قالا : نعم . فصاروا إلى داود فكلموه فى اطلاق الرجل . فقال : أكتب إلى أم جعفر فكتب إليها يعلمها خبر القوم وحضورهم ومسألتهم فى الوكيل فوقعت فى الرقعة أن يعرفهم ماوجب لها عليه من المال ، ويعلمهم أن لا سبيل إلى اطلاقه

دون أداء المال فاقرأهم داود التوقيع واعتذر اليهم : فقال عيسى ، وسهل بن الصباح : قد قضينا حق الرجل فقد أبت أم جعفر أن تطلقه إلا بالمال فقوموا ننصرف فقال لهما الفيض بن صالح : كأنا إنما جئنا لنؤكد حبس الرجل ؟ قالا له : فماذا تصنع ؟ قال : نؤدى عنه المال . قال : ثم أخذ الدواة فكتب إلى وكيله فى حمل ما على الرجل كتاباً دفعه إلى داود كاتب أم جعفر وقال : قد أجزنا فى المال فادفع إلينا صاحبنا . قال : لاسبيل إلى ذلك حتى أعرفها الخبر . قال فكتب اليها بالخبر فوقعت فى رقعته أنا أولى بالمكرمة من الفيض ابن صالح فاردد عليه كتابه بالمال ، وادفع اليه الرجل وقل له : لايعاود مثل ما كان منه « قال » : ولم يكن الفيض يعرف الرجل وإنما ساعد عيسى وسهلا على الكلام فى أمره .

* * *

أخبرنى أبو الفرج على بن الحسين المعروف بالأصفهانى بالإسناد أنه لما كان أعشى همدان أبو المصبح من أغزاه الحجاج بلد الديلم ونواحى دستى فأسر فلم يزل أسيراً فى أيدى الديلم ، ثم أن بنت العلج الذى كان أسره هوته وصارت اليه ليلا ومكنته من نفسها فأصبح وقد واقعها ثمانى مرات . فقالت له الديلمية : يامعشر المسلمين أهكذا تفعلون بنسائكم ؟ فقال لها هكذا نفعل كلنا . فقالت له بهذا العمل نصرتم . أرأيت إن خلصتك تصطفينى لنفسك ، قال لها : نعم ، وعاهدها فلما كان من الليل حلت قيوده وأخذت به طريقاً تعرفها حتى خلصته فقال شاعر من أسراء المسلمين :

فمن كان يفديه من الأسر ماله فهمدان يفديها الغداة أيورها

وقال الأعشى يذكر مالحقه من أسر الديلم :

لمن الظعائن سيرهن ترجف عزم السفين إذا تقاعس يجدف

وذكر أبو الفرج القصيدة وهى طويلة اخترت منها مايتعلق بالفرج بعد الشدة وهى قوله :

أصبحت رهناً للعداة مكبلا أمسى وأصبح فى الأداهم أرسف

ولقد أرانى قبل ذلك ناعماً　　جذلان آبى ان أضام وآنف
واستنكرت ساقى الوثاق وساعدى　　وأنا امرؤ بادى الأشاجع أعجف
وأضامنى قوم وكنت أضيمهم　　فالآن أصبر للزمان وأعرف
وإذا تصبك من الحوادث نكبة　　فاصبر لها فلعلها تتكشف

وذكر أبو عبدالله بن عبدوس فى «كتاب الوزراء» : أن نجاح بن سلمة حبس ابراهيم بن المدبر مكايدة لأخيه وذلك فى أيام المتوكل ، فلما طال حبس ابراهيم ولم يجد حيلة فى الخلاص عمل أبياتاً أنفذها إلى المشدود الطنبورى وسأله أن يعمل فيها لحناً ويغنى بها المتوكل فاذا سأل عن قائلها عرفه أنها له . ففعل المشدود ذلك وسأله المتوكل فقال لعبدك ابراهيم بن المدبر فذكره فأمر باطلاقه والأبيات هى :

بأبى من بات عندى　　طارقا من غير وعدى
بات يشكو شدة الشو　　ق واشكو فرط وجدى
وتجنى فبكى فانهل　　درٌ فوق وردى
قيد تحت يد طو　　را وخد فوق خدى

٭ ٭ ٭

وذكر أيضاً أن اسحاق بن سعيد ، قال : حدثنى أبو عبدالله محمد بن عيسى المروروذى صاحب يحيى بن خاقان عنه ، قال : كان المأمون ألزمنى خمسة آلاف ألف درهم فأعلمته أنى لا أملك إلا سبعمائة ألف درهم وحلفت على ذلك أيماناً مغلظة اجتهدت فيها فلم يقبل منى وحبسنى عند أحمد بن هشام وكان بينى وبينه شر قد شهر وعرف وكان يتقلد الحرس فقال أحمد للموكلين بى : احفظوا واحذروا أن يسم نفسه . ففطن المأمون لمراده . فقال له يا أحمد : لا يأكل يحيى بن خاقان إلا مايؤتى به من منزله ، قال : فأقمت على ذلك ووجه إلىّ فرج الرجحى بألف ألف درهم ، ووجه إلى الحسن بن سهل بألف ألف درهم فأضفت ذلك إلى ما كان عندى حتى جمعت خمسة آلاف ألف درهم . فلما اجتمعت كتبت إلى المأمون بحضور المال الذى ألزمنيه فأمر

بإحضارى فدخلت عليه وبين يديه ، أحمد بن خالد ، وعمرو بن مسعدة ، وعلى ابن هشام فلما رآنى قال لى : أولم تخبرنى وتحلف لى أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم فمن أين لك هذا المال ؟ فصدقته عن أمره وقصصت عليه قصته . فأطرق طويلا ثم قال : قد وهبته لك . فقال الحضور أتهب له خمسة آلاف ألف درهم وليس فى بيت المال درهم وأنت محتاج إلى مادون ذلك بكثير فلو أخذته منه قرضاً وإذا جاءك مال رددته اليه ؟ فقال لهم : أنا على المال أقدر من يحيى وقد وهبته له فرددت على القوم ما كانوا حملوه إلى وتخلصت . وقال محمد بن عبدوس فى كتابه « كتاب الوزراء » : أن محمد بن يزداد سعى إلى المأمون بعمرو بن بهنونى فقال المأمون : يافضل خذ عمرا إليك وقيده وضيق عليه ليصدق عما صار اليه من مالى فقد احتاز مالا جليلا وطالبه به فقلت : نعم . وأمرت باحضار عمرو فاحضر فأخليت له حجرة فى دارى وأقمت له ما يصلحه ، وتشاغلت عنه بأمور السلطان فى يومى وغده فلما كان اليوم الثالث أرسل إلى عمرو يسألنى الدخول اليه فدخلت وأخرج إلى رقعة قد أثبت فيها كل مايملكه من الدور والضياع والعقار والأموال والكسوة والفرش والجوهر والكراع والقماش ومايجوز بيعه من الرقيق فكان قيمة ذلك عشرين ألف ألف درهم وسألنى أن أوصل رقعته إلى المأمون وأعلمه أن عمرا قد جعله من دون ذلك فى حل وسعة ، فقلت له : فإن أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك نعمتك عن آخرها . فقال عمرو إنه كما وصفت فى كرمه ولكن الساعى لاينام عنى ولا عنك ، وقد بلغنى ما أمرت به فى أمرى من الغلظة وقد عاملتنى بضد ذلك وقد طبت نفساً بأن أشترى عدل أمير المؤمنين لك فى أمرى ورضاه عنى بجميع مالى فلم أزل أنزله حتى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم . فقلت هذا شطر مالك وهو صالح للفريقين وأخذت خطه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ماجرى على يديه وصرت إلى المأمون فوجدت محمد بن يزداد قد سبقنى اليه وإذا هو يكلمه ، فلما رآنى قطع الكلام وخرج . فقال المأمون يافضل : قلت : لبيك ياأمير المؤمنين . قال: ما هذه الجرأة منك وعلينا؟ فقلت يا أمير المؤمنين أناعبد طاعتك

وعرسك ، فقال : أمرتك بالتضييق على النبطى عمرو بن نهنوئى فقابلت أمرى بالضد ووسعت عليه وأقمت له الإنزال ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : إن عمرا يطالب بأموال كثيرة عظيمة فلم آمن أن أجعل محبسه فى بعض الدواوين فيبذل مالا يرغب فى مثله فيتخلص فجعلت محبسه فى دارى ، وأشرفت على طعامه وشرابه لاحرس نفسه فان كثيراً من الناس اختانوا السلطان وتمتعوا بالأموال ثم طولبوا بها فاحتيل عليهم ليبطنوا ويفوز بالأموال غيرهم . قال الفضل : وإنما أردت بذلك تسكين غضب المأمون علىّ ، ولم أعرض الرقعة عليه بما جرى بينى وبين عمرو لأنى لا آمن سورته من ذلك الوقت لاشتداد غضبه . فقال لى سلم عمراً إلى محمد بن يزداد . ففعلت فلم يزل يعذبه بأنواع العذاب حتى يبذل له شيئاً فلم يفعل فلما رآى أصحابه وعماله ماقدناله جمعوا له من بينهم ثلاثة آلاف الف درهم وسألوا عمرا أن يبذلها لمحمد بن يزداد فبذلها فصار محمد إلى المأمون متجها بها وواصل الخط بها إلى المأمون وأنا واقف . فقال المأمون يافضل : ألم نعلمك أن غيرك أقوم بأمورنا منك وأطوع لما تأمر ؟ فقلت ياأمير المؤمنين : أرجو أن أكون فى حالى استبطاء أمير المؤمنين أبلغ فى طاعته من غيرى . فقال المأمون : هذه رقعة عمرو ابن بهنونى بثلاث آلاف ألف درهم . فقلت ـ وما اجترأت عليه قط اجترائى عليه ذلك اليوم ـ فانى أخرجت ضبارة كانت مع غلامى فأخذت الرقعة منها مسرعا وقلت والله لأعلمن أمير المؤمنين أنى مع رفقى أبلغ فى حياطة أمواله من غـــيرى مع غلظته ، وأريته رقعة عمرو التى كتبها لى وحدثته بحديثى عن آخره . فلما تبين المأمون الخطين وعلم أنهما من خط عمرو قال : ماأدرى أيكما أعجب ؟ عمرو حيث تنكر برك وطاب نفساً بالخروج من ملكه بهذا السبب ، أم أنت ومحافظتك على أهل النعم وسترتك عليه ذلك فى ذلك الوقت . والله لا كنتما يانبطيان باكرم منى . ودفع الرقعة التى أخذها محمد بن يزداد من عمرو إلى وأمرنى بتمزيقها وتمزيق الأولى وأمر من يسلم عمرا من مجلسه إلى وأمرنى باطلاقه، فخرجت من بين يديه وفعلت ذلك .

* * *

حدثنى أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن الحسن بن عياش الخزرى البغدادى وكان خليفة أبى رحمه الله على الفتيا بسوق الإهواز بإسناده عن القاضى أبى عمرو رحمه الله قال : لما جرى من أمر عبد الله بن المعتز ما جرى حبست وما فى لحيتى طاقة بيضاء ، وحبس معى أبو المثنى القاضى ، ومحمد بن داود بن الجراح فى دار واحدة فى ثلاثة أبيات متلاصقة ، وكان بيتى فى الوسط وكنا آيسين من الحياة وكنت إذا جن الليل حدثت أبا المثنى تارة ، ومحمد بن داود تارة وحدثانى من وراء الأبواب ويوصى كل واحد منا إلى صاحبه ونتوقع القتل ساعة بساعة . فلما كان ذات ليلة قد أغلقت الأبواب ونام الموكاون ونحن نتحدث عن بيوتنا إذ حسسنا بصوت الأقفال تفتح فارتعنا ورجع كل منا إلى صدر بيته . فما شعرت الا وفتح الأبواب على محمد ابن داود فأخرج واضجع على المذبح ، فقال ياقوم ذبحا كما تذبح الشاة ؟ أين المصادرات أين أنتم عن أموالى أفتدى بها نفسى على كذا وكذا . قال فما التفتوا إلى كلامه وذبحوه وأنا أراه من شق الباب وقد أضاء السجن من كثرة الشموع وصار كأنه نهار ، واحتزوا رأسه فأخرجوه معهم وجردوا جثته وطرحت فى بئر الدار وغلقت الأبواب (قال) : فأيقنت بالقتل وأقبلت على الصلاة والدعاء والبكاء فما مضت إلاساعة واحدة حتى أحسست بالاقفال تفتح فعاودنى الجزع ، فاذا هم جاؤا إلى بيت أبى المثنى ففتحوه وأخرجوه وقالوا له : يقول لك أمير المؤمنين ياعدو الله ، يافاسق بما استحللت نكث بيعتى وخلع طاعتى ؟ فقال : لأنى علمت أنه لا يصلح للإمامة . فقالوا له : إن أمير المؤمنين قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر فان تبت رددناك إلى محبسك وإلا قتلناك ؟ فقال : أعوذ بالله من الكفر ما أتيت مايوجب الكفر . قال هو يتهوس معهم بهذا الكلام وشبهه فلا يرجع عنه ، فلما آيسوا منه مضى بعضهم وعاد فظننت أنه يستتيب فى الاستئذان (قال) : فأضجعوه ثم ذبحوه وأنا أراه وحملوا رأسه وطرحوا جثته فى البئر (قال) : فذهب على أمرى وأقبلت على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله جل وعز فلما كان فى وجه السحر وقد سمعت

صوت الديادب فاذا بصوت الاقفال فقلت لم يبق غيرى وأنا مقتول فاستسلمت وفتحوا الباب عنى فأقامونى إلى الصحن وقالوا يقول لك أمير المؤمنين يافاعل ياصانع ماحملك على خلع بيعتى ؟ فقلت : الخطأ وشقوة الجد وأنا تائب إلى الله عز وجل من هذا الذنب . قال فأقبلت أتكلم بهذا وشبهه فمضى بعضهم وعاد فقال : أجب ثم أسر الى وقال: لا بأس عليك فقد تكلم فيك الوزير يعنون ابن الفرات وأنت مسلم اليه (قال): فسكت وجاؤا الى بخفى وطيلسانى وعمامتى فلبست ذلك وأخرجت فجىء بى إلى الدار التى كانت برسم ابن الفرات فى دار الخليفة فلما رآنى أقبل يخاطبنى بعظم جنايتى وخطئى وأنا أقر بذلك وأستقيل وأتنصل ، ثم قال قد وهب لى أمير المؤمنين دمك ، وابتعب منه جرمك بمائة الف دينار الزمتك إياها فقلت أيها الوزير : والله مارأيت بعضها قط مجتمعاً فغمزنى بأن اسكت وجذبنى قوم من وجوه الكتاب كانوا بحضرته ورائى فسكتونى فعلمت أن ابن الفرات قد أراد تخليص دمى فقلت كلما يأمر الوزير أعزه الله . فقال : احملوه إلى دارى . قال فأخذت وحملت إلى داره فقرر أمرى على مائة ألف دينار يؤدى منها النصف عاجلا ويصير النصف فى حكم الباطل على رسم المصادرات ، فلما صرت فى دار ابن الفرات وسع على فى الطعام والمشرب والمجلس وأدخلت الحمام ، ورفهت وأكرمت فرأيت لما خرجت من الحمام وجهى فى المرآة فاذا طاقات شعرى قد ابيضت فى مقدم لحيتى ، فاذا أنا قد شبت فى تلك الليلة الواحدة « قال » : وأديت من المال نيفاً وثلاثين ألف دينار ثم نظر إلى ابن الفرات بالباقى وصرفنى إلى منزلى وتخلص من دمى فمكثت فى بيتى سنتين وبابى مسدود على لا أرى أحداً ولا يرانى إلا الشاذ وتوفرت على دروس الفقه والنظر فى العلم إلى أن أذن الله جل وعز بالفرج وكشفت عنى ، وأخرجت من بيتى إلى ولاية الأعمال « وشبه هذا الحديث ويقاربه وإن لم يكن بالحقيقة من « باب من خرج من حبس » إلا أنه من أخبار الفرج بعد الشدة من جملة ما حدثنى به أبو الحسين بن محمد بن على بن موسى الانبارى الكاتب قال : سمعت كلوى كاتب الحرم يتحدث قال : كان فى دار المقتدر عريف على الفراشين يخدمنى وكان يضيفنا إذا أقمنا فى دار الخليفة ففقدته مرة فى الدار فظننت أنه

عليل فلما كان بعد شهور رأيته فى بعض الطرق بزى التجار وقد شاب فقلت : فلان ؟ قال : نعم عبدك ياسيدى . فقلت ماهذا الشيب فى هذه الشهور اليسيرة ، وما هذا الذى أراه ، وأين كنت فتلجلج فقلت لغلمانى احملوه إلى دارى وقلت : حدثنى حديثك ؟ قال : على إن لى الأمان والكتمان . فقلت : نعم . فقال : كان الرسم على كل عريف من الفراشين فى دار الخليفة أن يدخل يوما من الأيام هو ومن فى عرافته إلى دور الخدمة والحرم لرش الخيوش التى فيها فبلغت النوبة إلى يوماً كنت فيه مخموراً فدخلت ومعى رجالى إلى دار فلانة وذكر حظية جليلة من حظايا المقتدر فلعظم ما كنت فيه من الخمر مارشيت قربتى ، ولم أخرج بخروج الرجال وقلت لهم انصرفوا فهاتوا قربكم لإتمام الرش فاذا رششتم فنبهونى فانى نائم هنا ، ودخلت خلف الخيش إلى باب باذاهنج يخرج منه ريح طيبة ونمت وغلب على النوم إلى أن جاء الفراشون ففرغوا من رش الخيش فعلمت أنى مقتول ان أحس بى القوم فتحيرت فلم أدر ما أعمل فدخلت الباذاهنج وكان ضيقاً فجعلت رجلى على حائط الباذاهنج وتعلقت فيه ووقفت متعلقاً أترقب أن يفطن بى ، فاذا بنسوة فراشات يكنسن الخيش فلما فرغوا من ذلك فرشنه وهيء فيه مجلس للشرب ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر وعدة جوار فجلس وأخذت الجوارى فى الغناء ، وأنا أسمع ذلك كله وروحى تكاد تخرج فاذا أعييت نزلت فجلست فى أرض الباذاهنج وإذا استرحت وخفت أن يفطن بى القوم وعدت وتعالقت إلى أن مضت قطعة من الليل ثم عن للمقتدر جذب حظيته إليه التى هى صاحبة تلك الدار فانصرف باقى الجوارى وخلى الموضع فواقع المقتدر الجارية وأنا أسمع حركتهما وكلامهما ثم ناما فى مكانهما وأنا لاسبيل لى للنوم لحظة واحدة . لما نابنى من الخوف ، فتفكرت فى أن أخرج وأصعد إلى بعض السطوح ثم علمت أنى ان فعلت ذلك تعجلت القتل ولم تزل تلك حالى إلى أن انتبه المقتدر فى السحر وخرج من الموضع فلما كان فى غد نصف النهار جاء عريف آخر من الفراشين ومعه فراشيه فخرجت فاختلطت بهم . فقالوا أى شىء تعمل

هنا ؟ فأومأت اليهم بالسكوت . وقلت الله الله فى دمى فان حديثى يطول فتذمموا على أن لا يفضحونى ، وقال بعضهم : ما بال لحيتك قد ابيضت ؟ فقلت : لا أعلم وأخذت من قربة بعضهم فطريت قربتى وخرجت فلما صرت فى موضع من دار الخليفة وقعت مغشياً علىّ وركبتنى حمى عظيمة وذهب عقلى فمر بى الفراشون وحملونى إلى منزلى وأنا لا أعقل ، فأقمت مبرسماً مدة طويلة وقد كنت عاهدت الله وأنا فى الباذاهنج إن هو خلصنى منه لا أخدم أحداً أبداً ، ولا أشرب النبيذ ، وأقلع عن أشياء تبت منها . فلما تفضل الله عز وجل على بالعافية وفيت بالنذر وبعت أشياء كانت لى وضممتها إلى دراهم كانت عندى ولزمت دكانا لعمتى أتعلم فيه التجارة وأتجر وتركت الدار ، فما عدت إليها إلى الآن ولا أعود أبداً إلى خدمة الناس ولا انقض ما تبت منه ورأيت لحيته قد كثر فيها الشيب .

* * *

حدثنا على بن هشام ، قال : كان أبو الحسن بن الفرات لما ولى الوزارة الأولى وجد سلمان بن الحسن يتقلد مجلس المقابلة فى ديوان الخلافة من قبل على بن عيسى والديوان إذ ذاك كله إلى على بن عيسى ، فقلد أبا الحسن بن الفرات سلمان الديوان بأسره وأقام يتقلده نحو سنتين فأقام ليلة فى دار ابن الفرات يصلى المغرب فسقط من كمه رقعة رآها بعض من حضر فأخذها ولم يفطن لها سلمان فقرأها فوجدها سعاية فى حق ابن الفرات واشياً به إلى المقتدر ، وسعياً لابن عبد الحميد كاتب السيدة فى الوزارة ، فتقرب بها إلى ابن الفرات فقبض على سلمان للوقت وأنفذه فى زورق مطبق إلى واسط فحبسه بها وصادره وعذبه وكان فى العذاب دهراً وآيس من الخلاص . فبلغ ابن الفرات أن أم سلمان بن الحسن ماتت ببغداد وأنها كانت تتمنى رؤيته قبل موتها ، فاغتم لذلك وتذكر المودة بينه وبين أبيه الحسن بن مخلد فكتب اليه بخطه كتابا أقرأنيه سلمان بعد سنين كثيرة من ذلك الحال وحفظته ونسخته وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم : ميزت أكرمك الله بين حقك وجرمك ، فوجدت الحق يوفى عن الجرم ، وتذكرت من سالف خدمتك فى المنازل

التى فيها ربيت وبين أهلها غذيت ، فأثنانى عليك وعطفنى اليك ، وأعادنى لك إلى أفضل ما عهدت ، وأجمل ما ألفت ، فثق أكرمك الله بذلك ، واسكن اليه ، وعول فى صلاح مااختل من أمرك عليه ، واعلم أننى أرى فيك حقوق أبيك التى تقوم بتوكيد النسب مقام اللحمة والنسب ، وتسهل ماعظم من جنايتك ، وتقلل ما كثر من إساءتك ، ولم أدع مراعاتها والمحافظة عليها بمشيئة الله ، وقد قلدتك أعمال دستميسان سنة ثمان وتسعين ومائتين وبقايا ماقبلها ، وكتبت إلى أحمد بن محمد بن جيش بحمل عشرة آلاف درهم اليك ، فتقلد هذه الأعمال وأثر فيها أثراً جميلا يبين عن كفاءتك ويؤدى إلى ما أحبه من زيادتك إنشاء الله ». قال أبو الحسين : وابن جيش هذا كان وكيل ابن الفرات فى ضياعه بواسط .

٭ ٭ ٭

حدثنى البهلول بن محمد بن أحمد بن اسحاق بن البهلول التنوخى رحمه الله ، قال : حدثنى أبو على الوكيل على أبواب القضاة ببغداد ، ويعرف : بالناقد ، قال : كنت أقيم خبر المحبوسين فى المطبق بمدينة السلام فى أيام المقتدر بالله فرأيت فى المطبق رجلا مغلولا على ظهره لبنة حديد فيها ستون رطلا . فسألته عن قصته ؟ فقال : أنا والله مظلوم . فقلت : وكيف كان أمرك ؟ فقال : كنت ليلة من الليالى فى دعوة صديق لى بسوق يحيى فخرجت من عنده مغلساً وفى الوقت فضل وأنا لا أعلم ، فلما صرت فى قطعة من الشارع رأيت مشاعل الطائف فرهبته ولم أدر ما أعمل فرأيت شريحة مشوشة ففتحتها ودخلت ودورتها كما كانت وقمت فى الدكان ليجوز الطائف وأخرج ، وبلغ الطائف الموضع فرأى الشريحة مشوشة فقال فتشوا هذا الدكان فدخلت الرجالة بمشعل فرأيت فى ضوئه رجلا فى الدكان مذبوحا وعلى صدره سكين فجزعت ورأى الرجال ذلك ورأونى قائماً فلم يفتكروا فى إلا أنا قاتله ، وأخذنى صاحب الشرطة ثم عرضت فضربت ضرباً شديداً وعوقبت أصناف العقوبات وأنا أنكر ، وعندهم أنى أتجلد وهم يزيدونى فاجتمعت أهلى وكان لهم شغب بأسباب السلطان فتكلموا فى واستشهدوا خلقاً كثيراً على سيرى فبعد

شدائد ألوان أعفيت من القتل ونقلت إلى المطبق ، وفى هذا الحديد من منذ ست عشرة سنة . قال : فاستعظمت محنته وبهت من حديثه . فقال مالك والله ما آيس مع ذلك من فضل الله عز وجل فان من ساعة إلى ساعه فرجا . قال : فوالله ما خلص كلامه من فيه حتى ارتفعت ضجة عظيمة وكسر الحبس ووصلت العامة إلى المطبق ومكائده فأخرجوا كل من كان فى الحبس وخرج الرجل من جملتهم فانصرفت وأنا أريد بيتى فاذا نازوك قد أقبل والفتنة قد ثارت ، وفرج الله جل وعز عن الرجل * بلغنى عن رجل من أهل كوثى قال : كان يتقلد بلدا ما عامل من قبل أبى الحسين بن الفرات فى بعض وزارته فافتتح الخراج واشتد فى المطالبة وكان فى أطراف البلد قوم من العرب قد زرعوا من الأرض مالا يتجاسر الاكرة على زراعته ، وكان العمال يسامحونهم ببعض مايجب عليهم من الخراج فطالبهم هذا العامل بالخراج على التمام أسوة الاكرة وأحضر أحدهم لحقق عليه المطالبة وهو يمتنع فأمر بصفعه حتى أدى الخراج وانصرف فشكى إلى بنى عمه فتوافقوا على كبس العامل ليلا وقتله وراسلوا غيرهم من العرب وتواعدوا على ليلة معلومة فلما كان اليوم الذى يليه تلك الليلة ورد إلى الناحية عامل آخر صارفا للأول فقبض عليه وصرفه وضربه بالمقارع وأخذ خطه بمال وقيده وأمر أن يحمل إلى قرية أخرى على فراسخ من البلد فيحبس فيها ، ووكل به عشرة من الرجال فسيروه مرة ماشياً ومرة على حمار فكاد بما لحقه أن يتلف وحصل تلك القرية وكان له غلام قد رباه وهو خصيص به عارف بجميع أموره فهرب عند ورود الصارف . فلما كان من الغد لم يشعر المصروف المحبوس إلا وغلامه الذى رباه قد دخل عليه فكانت محنته اليه أشد عليه من جميع مالحقه اشفاقاً على الغلام وعلى نفسه بما يعرفه الغلام أن يكون قد دل عليه ، فقال الغلام : هات رجلك حتى أكسر قيودك وتقوم تدخل بغداد . فقال له : وأين الرجالة الموكلون بى ؟ فقال يا مولاى قد فرج الله تعالى وهرب الرجالة . فقال : ما سبب هذا ؟ قال إن الأعراب الذين كنت صفعت منهم واحداً وطالبته بالخراج كبسوا البارحة دار العمالة وعندهم أنك أنت العامل وقد عملوا على

قتلك ولم يكن عندهم خبر صرفك ولا خبر ورود هذا العامل فقتلوه على أنه أنت وهرب أصحابه وأهل البلد يخافونك فقم حتى تمشى إلى بغداد لئلا يبلغهم كونك هنا فيقصدونك ويقتلونك وكسر القيد ، وقام هو وغلامه يمشيان على غير جادة إلى أن بعدا ودخلا قرية واستأجرا منها ماركباه إلى بغداد ولقى المصروف الوزير ودب على المقتول وأنه أفسد الناحية وأثار فتنة مع العرب فأمره الوزير على الناحية وضم اليه جيشاً إلى كوثى وتحصن بالجيش وأرهب العرب وأرضاهم إلى أن صالحهم وأثبتهم وسكن اليهم وسكنوا اليه وزال خوفه واستقام له أمر عمله .

* * *

أخبرنى أبو الفرج الأموى المعروف بالأصفهانى بإسناده عن ابراهيم بن المهدى ، قال : غضب علىّ محمد الأمين فى بعض هناته فسلمنى إلى كوثر فحبسنى فى سرداب وأغلقه على فمكثت فيه ليلتى فلما أصبحت فاذا أنا بشيخ قد خرج على من زاوية السرداب ودفع إلى وسطا وقال : كل . فأكلت ثم أخرج قنينة من شراب فشربت ثم قال : غن لى . فقلت :

لى مدة لابد أبلغها ... معلومة فاذا انقضت مت

لو ساورتنى الأسد ضارية ... لغلبتها إن لم يجى الوقت

. فغنيته فسمعنى كوثر فصار إلى محمد وقال له : قد جن عمك ! هو جالس يغنى بكيت وكيت . فأمر بإحضارى فأحضرت وأخبرته بالقصة فرضى عنى وأمر لى بسبعمائة ألف درهم ٭ حبس عبد الله بن طاهر محمد بن أسلم الطوسى فكتب اليه بعض إخوانه يعزيه على مكانه فأجابه ابن أسلم : كتبت لى تعزينى وإنما كان يجب أن تهنئنى أريت العجائب وعرضت لى المصائب إنى رأيت الله عزوجل يتحبب إلى من يؤذيه فكيف إلى من يؤذى فيه ، إنى نزلت بيتاً سقطت عنى فيه فروض وحقوق منها : الجمعة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعيادة المريض ، وقضاء حقوق الإخوان وما نزلت بيتاً خيراً فى دينى منه . فأخبر بذلك عبد الله بن طاهر فقال : نحن فى حاجة إلى ابن أسلم أطلقوه . وكان المأمون قد غضب على فرج الرخجى فكلمه

عبدالله بن طاهر ومسرور الخادم فى إطلاقه قال فرج : فبت ليلتى وأنا متفكر إذ أتانى آت فقال لى :

لما أتى فرج من ربه فرجا جئنا إلى فرج نبغى به الفرجا

فلما أصبحت لم أشعر إلا واللواء قد عقد لى على ولاية فارس والاهواز وأطلق لى معونة خمسمائة الف درهم ، وإذا أبو البغا الشاعر قائم على باب دارى وقد كتب هذا البيت فى رقعة فقلت له : متى قلت هذا ؟ فقال فى الوقت الذى رضى عنك فيه . فأمرت له بعشرين ألف درهم * وقال عمار بن عقبة ابن عمارة من آل سلمى ابن المطهر حدثنى ملازم بن عدام الحنفى ، عن عمه ملازم بن حريث الحنفى قال : كنت فى حبس الحجاج بسبب الحرورية فحبس معنا رجل فأقام حينا لا نسمعه يتكلم بكلمة حتى كان فى اليوم الذى مات الحجاج فى الليلة التى تليه فأقبل غراب فى عشية ذلك اليوم فوقع على حائط السجن فنعق فقال الرجل : ومن يقدر على ماتقدر عليه ياغراب . ثم نعق الثانية : فقال مثلك من بشر بخير ياغراب . ثم نعق الثالثة : فقال من فيك إلى السماء ياغراب . فقلت له : ما سمعناك تكلمت منذ حبست إلى الساعة ، فما دعاك إلى ماقلت ؟ قال : إنه نعق فقال : إنى وقعت على ستر الحجاج . فقلت : ومن يقدر على ماتقدر عليه ؟ ثم نعق الثانية فقال : إن الحجاج أصابه وجع . فقلت : مثلك من بشر بخير . ثم قال فى الثالثة : الليلة يموت . فقلت : من فيك إلى السماء . ثم قال الرجل إن انسلخ الصبح قبل أن أخرج فليس على بأس . وإن دعيت الصبح فستضرب عنقى ثم تلبثون ثلاثة لا يدخل عليكم أحد ، ثم يدعى بكم فى اليوم الرابع فيهتف على رؤسكم بالكفالة فمن وجد له كفيلا خلى سبيله ، ومن لم يجد له كفيلا فويل له طويلا . فلما دخل الليل سمعنا الصراخ على الحجاج ، ثم أخرج الرجل قبل الصبح فضرب عنقه ، ثم لم يدخل علينا أحد بعد ثلاثا ، ثم دعى بنا وطلب منا الكفالة ثم صار الأمر إلى فمكثت طويلا حتى خفت أن أرد إلى الحبس ، ثم تقدم رجل فضمننى فقلت له يا عبد الله : من أنت حتى أشكرك ؟ فقال لى : اذهب ولست بمسؤل عنك أبداً فانطلقت .

قال أبو الحسن على بن عبد الأعلى الإسكافى كنت أكتب لبغاء الكبير فصرفنى ونكبنى وأخذ ضياعى ومالى وحبسنى بعد ذلك وتهددنى ونالنى منه كل مكروه ، وإنى لفى حبسه إذ سمعت حركة فسألت عنها فقيل لى : قد وافى إسحاق بن إبراهيم الطاهرى وكان صاحب الشرطة ، فقلت : إنما هذا حضر لعقوبتى فطارت نفسى جزعا ، فلم ألبث أن دعيت فحملت فى قيودى وعلى ثياب فى نهاية الوسخ فأدخلت وأنا كالميت لما بى ولعظم الخوف ، فلما وقعت عين إسحاق على تبسم فسكنت نفسى . فقال لى بغاء إن أخى أبا العباس يعنى عبد الله بن طالب بن طاهر كتب إلى يشفع فى أمرك وقد شفعته وأزلت عنك المطالبة ورضيت عنك ، ورددت عليك ضياعك فانصرف إلى منزلك فبكيت بكاء شديداً لعظم ماقد ورد على قلبى من السرور ، وفكت قيودى وغيرت حالى ، وانصرفت فبت فى بيتى وبكرت فى المسير إلى إسحاق لأشكره وأسأله عما أوجب ماجرى لأنه شىء ماطمعت فيه ، ولا كانت لى وسيلة إلى أبى العباس ولا إسحاق فلقيته وشكرته ودعوت له ولأبى العباس وسألته فقال : ورد على كتاب الأمير أبى العباس يقول فيه قد كانت كتب أبى موسى بغاء ترد على بمخاطبات توجب الأنس والخلطة ، وتلزم الشكر والمنة ، ثم تغيرت فبحثت عن السبب فعلمت أن ذلك الكاتب صرف ، وأنه منكوب وحق لمن أحسن عشرتنا ووكد المحبة بيننا وبين إخواننا حتى بان لنا موقعه وعرفنا موضعه لما صرف أن نرعى حقه . فسر أبقاك الله إلى أخى أبى موسى واسأله فى أمر كاتبه المصروف عنى واستصفحه مافى نفسه منه واستطلقه واسأله رده إلى كتابته وإن كان مايطالبه به مما لا ينزل عنه فأده من مالنا كائناً ما كان . فلقيته ففعل مارأيت وأنا أعاود الخطاب فى استكتابك وقد أمر لك الأمير بكذا من المال فخذه . قال فأخذته وشكرت ودعوت للأميرين وانصرفت فأمضيت الأيام حتى ردنى إسحاق إلى كتابة بغاء بشفاعة أبى العباس وتأثلت حالى معه ونعمتى .

* * *

حدثنى على بن أبى الطيب بإسناده إلى سليمان بن أبى زياد قال : كان عمرو

ابن هبيرة والياً على العراق من ولاة يزيد بن عبد الملك فلما مات يزيد واستخلف هشام قال عمرو بن هبيرة سيولى هشام العراق أحد الرجلين سعيداً الحرشى ، أو خالد بن عبد الله القسرى ، فان ولى ابن النصرانية خالداً فهو البلاء . فولى هشام خالداً فدخل واسطا وقد أوذن عمرو بن هبيرة بالصلاة فهو يتهيأ والمرآة فى يده يسوى عمته إذ قيل له هـــذا خالد قد دخل . فقال عمرو بن هبيرة : هكذا تقوم الساعة تأتى بغتة . فقدم خالد فأخذ عمرو ابن هبيرة فقيده وألبسه مدرعة صوف . فقال ياخالد : بئس ماسننت على أهل العراق ماتخاف أن يوجد فيك بمثل هذا ؟ ! فلما طال حبسه جاءه موال له فاكتروا داراً إلى جانب الحبس ثم نقبوا سرداباً إلى الحبس ، واكتروا داراً أخرى إلى جانب حائط سور مدينة واسط فلما كانت الليلة التى أرادوا أن يخرجوه فيها من الحبس أفضى النقب إلى الحبس فخرج منه فى السرداب ، ثم خرج من الدار يمشى حتى بلغ الدار التى بجانب سور المدينة وقد نقب فيها فخرج فى السرداب منها ، وقد هيئت له خيل خلف حائط المدينة فركب وعلم به بعد ما أصبحوا وقد كان أظهر علة قبل ذلك لكى يتمسكوا عن تفقده فى كل وقت . فأتبعه خالد سعيدا الحرشى فلحقه وبينه وبين الفرات شىء يسير فتعصب وتركه وقال الفرزدق شعراً :

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها ... ولم تر إلا بطنهـا لك مخرجا
دعوت الذى ناداه يونس بعد ما ... ثوى فى ثلاث مظلمات ففرجا
خرجت ولم يمنن عليك طلاقة ... سوى زائد التقريب من آل أعوجا
فأصبحت تحت الارض قد سرت ليلة ... وما سار سار مثلها حـين أدلجا

قال سليمان بن أبى شيخ : حـدثنى أبى خبرة عن أبى الجنحات قال : حدثنى حازم مولى عمرو بن هبيرة حين هرب من السجن فبلغنا دمشق بعد العتمة فأتى مسلمة بن عبـد الملك خلف الصبح فاستأذن مسلمة على هشام ابن عبد الملك فدخل عليه . فلما رآه قال يا أبا سعيد : أظن ابن هبيرة قد طرقك فى هذه الليلة ؟ قال أجل يا أمير المؤمنين : فقد أجرته فهبه لى . قال : قد وهبه لك .

* * *

أخبرنى أبو الفرج القرشى المعروف بالاصفهانى قال : قد ذكر ابن الكلبى عن أبيه قال : خرج قيس بن قيسبة بن كاثوم السكونى وكان ملكا يريد الحج وكانت العرب تحج فى الجاهلية ولا يتعرض بعضها لبعض فمر ببنى عامر ابن عقيل فوثبوا عليه وأسروه وأخذوا ماله وما كان معه وألقوه فى الغل فمكث فيه ثلاث سنين وشاع فى اليمن أن الجن استطارته . فبينما هو فى يوم شديد البرد فى بيت عجوز منهم وقد يئس من الفرج إذ قال لها : أتأذنين لى أن آتى الأكمة فاتشرق عليها فقد أضر نى القر ؟ . فقالت له : نعم . وكانت عليه جبة صوف لم يترك عليه غيرها فتمشى فى أغلاله وقيوده حتى صعد الأكمة ثم أقبل يضرب ببصره نحو اليمين وتغشاه عبرة فبكى ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم فاطر السماء فرج لى مما أصبحت فيه » . فبينما هو كذلك إذ عرض عليه راكب يسير فأشار إليه أن أقبل فأقبل الراكب فلما وقف عليه قال له ما حاجتك ياهذا ؟ قال : أين تريد ؟ قال : أريد اليمن . قال : ومن أنت ؟ قال : أبو الطمحان العينى . فاستعبر ابن قيسبة فقال له أبو الطمحان : من أنت : ؟ فإنى أرى عليك سيما الخير ولباس الملوك ، ولست بدار فيها ملك . فقال : أنا ابن قيسبة بن كاثوم السكونى خرجت عام كذا وكذا أريد الحج فوثب على هذا الحى وصنعوا بى ماترى وكشف عن أغلاله وقيوده . فاستعبر له أبو الطمحان . فقال له قيسبة : هل هل لك من مائة ناقة حمراء ؟ قال ما أحوجنى إلى ذلك . قال أنخ . فأناخ ثم قال له أمعك سكين ؟ قال : نعم . قال : إرفع عن رجلك . فرفع له عن رجله حتى بدت خشبة مؤخرة فكتب عليها قيسبة بالمسند ولم يكتب به غير أهل اليمن .

بلغن كندة الملوك جميعا ... حيث سارت بالأكرمين الجمال
إن ردوا الخيل بالخميس عجالا ... وأصدروا عنه والروايا ثقال
هربت جارتى وقالت عجيباً ... إن رأتنى فى جيدى الأغلال
ان يرى عارى العظام أسيرا ... قدبرانى تضعضع واختبال
فلقد أقدم الكتيبة بالسيف ... على السلاح والسربال

وكتب تحت الشعر إلى أخيه أن يدفع إلى أبى الطمحان مائة ناقة حمراء ثم قال : أقرىء هذا قومى فانهم سيعطونك مائة ناقة حمراء . فخرج تسير به راحلته حتى أتى حضرموت فتشاغل بما ورد له ونسى أمر ابن قيسبة حتى فرغ من حوائجه ثم سمع نسوة من عجائز اليمن يتذاكرن أمر ابن قيسبة ويبكين فذكر أمره فأتى أخاه الجون بن مالك فقال له يا هذا : إنى أدلك على أخيك وقد جعل لى مائة ناقة حمراء . فقال له : فهى لك . فكشف عن رجله فلما قرأه الجون بن مالك أمر له بمائة ناقة . ثم أتى قيس بن معدى كرب الكندى أبا الأشعث بن قيس فقال له ياهذا : إن أخى فى بنى عقيل أسير فسر معى بقومك تخلصه . قال : أتسير معى تحت لوائى ، حتى أطلب ثارك وأنجدك ؟ وإلا فامض راشداً . فقال له الجون : مس السماء أهون من ذلك وأيسر على مما جئت به فضحب السكون ثم فاؤا فرجعوا فقال ما عليك من هذا هو ابن عمك ويطلب لك بثأرك فانعم له بذلك فسار قيس وسار الجون معه تحت لوائه وكندة والسكون معه فهو أول يوم اجتمعت فيه السكون وكندة لقيس وبه أدرك الشرف وسار حتى أوقع ببنى عامر بن عقيل فقتل منهم مقتلة واستنقذ ابن قيسبة وقال فى ذلك سلامة ابن صبيح الكندى :

لاتشتمونا إذ جلبنا لكم ... الفى كمية كلهـــا سلهبة
نحن أتلنا الخير فى أرضكم ... حتى ثأرنا منكم ابن قيسبه
واعترضت مندونهم مذحج ... فصادفوا من خيلنا مسغبه

* * *

حدثنى أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق الكاتب بن يعقوب بن إسحق البهلول التنوخى قال : كنت وأنا حدث أتعلم فى ديوان الزمام بالسواد بين يدى كاتب فيه يقال له أبو الحسن على بن الفتح ، ويعرف : بالمطوق عاش إلى بعد سنة عشرين وثلاثمائة . وأخرج الينا كتاباً قد عمله فى أخبار الوزراء منذ وفاة عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى آخر أيام القاهر بالله

وبعدها وسماه كتاب : « مناقب الوزراء ، ومحاسن أخبارهم » فقرأنا عليه بعضه وأخبرنا بالباقى مناولة . قال مؤلف هذا الكتاب : فأعطانى أبو الحسن أحمد بن يوسف الكتاب مناولة فوجدت فيه أن القاسم بن عبيد الله اعتقل أبا العباس أحمد بن محمد بن بسطام فى داره أياماً لأشياء كانت فى نفسه عليه وأراد أن يوقع به ، فلم يزل ابن بسطام يداريه ويتلطف إلى أن أطلقه وقلده آمد وما يتعلق بها وأخرجه اليها وفى نفسه مافيها ثم ندم على ذلك ، فوجه اليه فى آخر أيام وزراته بقائد يقال له على بن جيش أخو قوصرة ووكله به ، فكان يأمر وينهى فى عمله ، وهو موكل به فى داره ، خائف على نفسه لما قد ظهر من إقدام القاسم على القتل . قال ابن بسطام : فأنا أخوف ما كنت على نفسى وحالى وليس عندى خبر حتى ورد علىّ كتاب عنوانه لأبى العباس أطال الله بقاه من العباس بن الحسين ، فلما رأيت العنوان ناقص الدعاء علمت أن القاسم بن عبيد الله قد مات ، وأن العباس بن الحسين قد تقلد الوزاره فلم أملك نفسى فرحا وسروراً بالسلامة فى نفسى وزال الخوف عنى . وقرأت الكتاب فإذا هو بصحة الخبر وأمرنى بالخروج إلى مصر وقلدنى الأمانة على الحسين بن أحمد المادرائى قال فخرج ابن بسطام إلى مصر ولم يزل يتقلد الأمانة على الحسين بن أحمد إلى أن تقلد علىّ بن محمد بن الفرات الوزارة فقلده مصر وأعمالها فلم يزل فيها أن توفى * حدثنا أبو محمد عبد الرحيم الوراق المعروف بالصيرفى بن العباس بن محمد بن أحمد الأبرم المعروف بالمقرئ البغدادى بالبصرة فى المحرم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة « بكتاب المنتصر » لأبى العباس أحمد بن عبد الله بن عمار فى خبر العلوى الصوفى الخارج بالجوزجان على المعتصم ، وهو : محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان عبدالله ابن طاهر حاربه وأسره وبعث به إلى المعتصم وهو ببغداد . قال : حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس فى بستان موسى كان القيم به مسروراً مولى الرشيد (قال) : وكنت أرى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها فخبرنى من دخله أنه كان كالبئر العظيمة قد حفرت إلى الماء أو قريب منه ، ثم فيها بناء على

هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج قد جعل فى مواضع من التدريج مستراحات ، وفى كل مستراح شبيه بالبيت يجلس فيه رجل واحد كأنه على مقداره يكون فيه مكبوباً على وجهه ليس يمكنه أن يجلس ولا يمد رجله ، فلما قدم بمحمد حبس فى أسفل بيت منه ، فلما استقر به أصابه من الجهد لضيقته وظلمته ، ومن البرد لندى الموضع ورطوبته ما كاد يتلفه من ساعته ، فتكلم بكلام دقيق سمعه من كان فى أعالى البئر ومن وكل بالموضع فقال : إن كان أمير المؤمنين يريد قتلى فالساعة أموت وإن لم يكن يريد ذلك فقد أشفيت عليه . فأخبر المعتصم بذلك فقال : ما أريد قتله . وأمر بإخراجه فأخرج وقد زال عقله وأغمى عليه فطرح فى الشمس وطرحت عليه لحف ، وأمر بحبسه فى بيت كان بنى فى البستان فوقه غرفة وكان فى البيت خلاء إلى الغرفة التى تليها وفى الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها فلم يزل محبوساً فيه إلى أن تهيأ له الخروج ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين (قال) : فحدثنى على بن الحسين بن عمر بن على بن الحسين وهو ابن عم أبيه ، قال : أصبحت يوم الفطر أتهيأ للركوب فأنا أشد منطقتى فى وسطى وقد لبست ثيابى أبادر الركوب إلى المصلى ماراعنى إلا محمد بن القاسم قد دخل إلى منزلى فملئت رعباً وذعراً ، وقلت له كيف تخلصت ؟ قال أنا أدبر أمرى فى التخلص منذ حبست ، ثم وصف لى الخلاء الذى كان فى البيت الذى حبس فيه إلى الغرفة التى فوقه ، والخلاء الذى كان فى الغرفة إلى سطحها وأنه أدخل معى يوم حبست لبد فكان وطائى وفراشى (قال) : وكنت أرى بغرش وهى قرية من قرى خراسان حبالا تعمل فيها من لبود مرصع كما يفعل بالسبور فتجىء احكم شىء فسولت لى نفسى أن أعمل من اللبد التى تحتى حبلا وكان على باب البيت قوم وكلوا بى يحفظونى لا يدخل علىّ منهم أحد إنما يكلمونى من خلف الباب ويناولونى من تحته ما أتقوته . فقلت لهم : إن أظفارى قد طالت جداً وقد احتجت إلى مقراض فجاءنى رجل منهم كان يميل إلى مذهب الزيدية بمقراض أحد جانبيه منقوش نقش المسحل . وقلت لهم : إن فى هذا البيت فيراناً يؤذونى ويقذرونى إذا قربوا منى فاقطعوا الى جريدة

من النخل تكون عندى أطردهم بها فقطعوا لى من بعض نخل البستان جريدة فرموا بها إلى وكنت لا أزال أضرب بها فى البيت وأسمعهم صوتها أياما ، ثم قشرت الخوص عنها وقطعتها على مقدار ماعلمت أنها تعرض فى ذلك الخلاء إذا رميت بها فضممت كل ما قطعته منها بعضه إلى بعض وقطعت اللبد وضفرت منه حبلا على ما كنت أرى يعمل بغرش ، ثم شددت ما قطعته من الجريدة فى رأس الحبل ثم رميت به فى الكوة وعالجته مراراً حتى اعترض فيها ثم اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى سطحها (قال) : ففعلت ذلك مراراً فى أيام كثيرة وتمكنت من الحركة بأن سحلت بجانب المقراض إحدى حلقتى القيد ، ولم يمكننى إن أسحل الأخرى فكنت إذا أردت الحركة شددت القيد مع ساقى فأتحرك وقد صرت مطلقاً فلما كان فى هذه الليلة وشغل الناس بالعيد وانصرف من كان على الباب فلم أحس منهم أحداً إلا شيخاً واحداً كنت أسمع حركته وأطلع فأراه ، فصعدت بين المغرب والعشاء إلى الغرفة ومن الغرفة إلى سطحها وأشرفت فاذا المعتصم يفطر والناس بين يديه والشموع فرجعت حتى إذا كان فى جوف الليل صعدت ولم يتحرك الناس ونزلت إلى البستان فإذا فيه قائد معه جماعة فصاح بى بعضهم . فقال : من هذا ؟ فقلت : مدينى من أصحاب الحمام . فقال : أين تخرج اطرح نفسك حتى تصبح وتفتح الأبواب فطرحت نفسى بينهم حتى فتح باب البستان فى الغلس وتحرك الناس فصرت إلى دجلة لا عبره فإذا الشيخ الذى كان أحد من يحفظنى قد جاء ليعبر فطلب منى الملاح أجرته كما أخذ من الناس . فقلت : مامعى شىء أنا رجل غريب ضعيف الحال . فقال لى الشيخ : اعبر أنا أعطيه عنك ، فأعطاه عنى وعبرت حتى جئتك قال على بن الحسين فقلت : والله مامنزلى بموضع لك . فاخرج عنه ولا تقر فيه لحظة واحدة قال وركب إلى الموصل فصار إلى منزل رجل من الشيعة فأخفاه .

قال : وروى عن الفضل بن حماد الكوفى من أصحاب الحسين بن صالح يحدث بوفاة عيسى بن زيد بن على رضى الله عنهم بالكوفة وكيف ستر ذلك عن المهدى فذكر حديثاً طويلا قال فيه . فتواردت الأخبار عند الرشيد

بحسن طريقة أحمد بن عيسى بن زيد وميل الناس اليه ، فأمر بحمله لحمل إلى بغداد ومعه القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم وهو والد محمد بن القاسم الصوفى الخارج بخراسان فى أيام المعتصم فحبسا عند الفضل بن الربيع وكانا فى حبسه فى داره فى الشارعة على دجلة قريب رأس الجسر بمشرعة الصحن . وكان : حسن الصنيع إليهما يؤتيان بمائدة كمائدته التى توضع بين يديه ويواصلان من الحلو والفاكهة والثلج فى الصيف بمثل ما يكون على مائدته ، إلى أن أتيا بالمائدة ذات يوم فتغديا ثم رفعت من بين أيديهمـــا فوضعت بين أيدى الغلمان فأكلوا وأكثروا ودخل وقت القائلة فناموا فخرج أحمد بن عيسى بن زيد إلى حب فى ناحية الدهليز فرأى القوم نياماً ، فغرف من الحب بالكوز الذى معه فلما رجع قال للقاسم : يا هـذا اعلم أنى قد رأيت فرصة بينة هؤلاء نيام والباب غير مقفل لم يحكوه كما كانوا يفعلون وقد أغفلوه فاخرج بنا . فقال له القاسم : أنشدك الله فانك تعلم أنك فى عافيه مما فيه كثير من أهل المحبوس ، وهذا الرجل يعنى الفضل بنا بر ولنا متعهد . فقال له أحمد : دعنى منك واعلم أن العلامة بينى وبينك ما أصف لك فإن تحرك القوم رجعت إليك وكانت علتى بسبب الكوز ، وإن لم يتحركوا فأنا والله خارج وتاركك بموضعك . واعلم أنك لاتسلم بعدى . ثم خرج فغرف بذلك الكوز من الحب ثم طرحه من قامته وكان أطول منك ومنى فما تحرك منهم أحد ثم انثنى عليه فقال له : قد رأيت ماقد استظهرت به لك ولنفسى وأنا والله خارج . ثم مضى واتبعه القاسم ففتحا الباب وخرجا فقالا لانجتمع فى طريق ولكن موعدنا كذا وكذا . قال فما جاز أحمد عتبة الباب إلاخمسين ذراعا حتى لقيه غلام للفضل ابن الربيع مدنى أعرف به من نفسه فبهت الغلام لما رآه وأومأ إليه أحمد بكمه كالآمر له بغضب ان تنح فماملك الغلام نفسه انفعل ثم كان عزمه أن يستقيم فى تلك الطريق فلما بلى من الغلام بما بلى عدل عن تلك الطريق فى طريق آخر للاستظهار على الغلام وأسرع حتى نجا وذكر بقية الحديث .

ومن طرائف ما شاهدناه من هذا الباب أن أبا تغلب فضل الله عدة الدولة ابن ناصر الدولة أبي محمد استوحش من أخيه محمد بعد موت أبيهما فقبض عليه واستصفى ماله ونعمته وقبض عقاره وضياعه وثقله بالحديد وأنفذه إلى القلعة المعروفة بأردمشت وهي مشهورة من أعمال الموصل حصينة فحبسه في مطمورة ووكل به عجوزة يثق بها جلدة يقال لها : بازبانا ، وأمرها أن لا توصل اليه أحداً ولا تعرفه خبره وأن تخفي موضعه عن جميع سجنة القلعة وحفظتها ففعلت ذلك فأقام على حاله تلك ثماني سنين ، ثم اتفق أن انحدر أبو تغلب معاوناً بختيار بن معز الدولة أبو الحسين ومعهما العسكر يقصدان بغداد لمحاربة عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ، وخرج للقائهما فكانت بينهما الوقعة المشهورة بقرب قصر الحصن فقتل فيها بختيار وانهزم أبو تغلب فدخل الموصل وخاف من تخلص محمد فكتب إلى غلام له كانت القلعة مسلمة اليه يقال له طاشتم في أن يمكن رئيساً من رؤساء الأكراد يقال له صالح بن بن بابويه كان كالشريك لطاشتم في حفظ القلعة من محمد بن ناصر الدولة ليمضي فيه ماأمره به ، وكتب إلى صالح يأمره بقتل محمد ، فمكن طاشتم صالحاً فلما أراد الدخول على محمد لقتله منعته بازبانا من ذلك وقالت له لاأمكن من هذا إلا بكتاب يرد عليّ ، ودخل عضد الدولة إلى الموصل وأجفل عنها أبو تغلب وكدته العساكر واشتد عليه الطلب وورد عليه كتاب من القلعة بما قالت بازبانا فالى أن يجيب عليه أحاطت بعض عساكر عضد الدولة بقلعة اردمشت ونازلوها فانقطع مابين أبي تغلب وبينها ولم يصل إليها كتاب ، ثم فتحها عضد الدولة بعد شهور بأن واطأه صالح على القبض على طاشتم ، وكتب إليه يعرفه بما عمله ويستأذنه فيما يعمله . وكان لمحمد خادم أسود يسمى ناصحاً وكان بعد القبض على محمد قد رفع إلى عضد الدولة وهو بفارس وصار من وجوه خدمه وحضر معه وقعة حصن الجص ، فلما ورد خبر فتح القلعة أذكره ناصح بوعد كان عليه في إطلاق مولاه فكتب إليه أن يطلبه في القلعة فإن وجد حياً يطلق وينفذ إليه مكرماً ، فحين دخل صالح ومعه بعض من قد

صعد إلى القلعة من حاشية عضد الدولة إلى محمد فى حبسه جزع جزعاً شديداً ولم يشك فى أنهم دخلوا بأمر أبى تغلب لقتله ، فأخذ يتضرع ويقول مايدعو أخى إلى قتلى . فقال له صالح : لاخوف عليك وإنما أمر الملك أن نطلقك وتمضى اليه مكرما ، فانه قد ملك هذه البلاد . فقال : أغلب ملك الروم على هذه النواحى وفتحت له القلعة ؟ قال : لا . ولكن الملك عضد الدولة . قال الذى كان بشيراز ؟ قال : نعم وقد جاء إلى بغداد فقال محمد : وأين بختيار ؟ فقالوا قتل . قال وأين أبو تغلب ؟ قالوا انهزم ودخل إلى بلاد الروم . قال : وأين الملك عضد الدولة ؟ قالوا بالموصل . وهو ذا تحمل اليه مطلقاً مكرماً فسجد حينئذ وبكى بكاء شديداً وحمد الله عز وجل وجاؤا لينكوا حديده وأغلاله فقال لاأمكن من ذلك إلا بعد أن يشاهد حالى الملك فحمل إلى الموصل فرأيته وقد أصعد به مقيداً من المعبر الذى عبر فيه فى دجلة إلى دار أبى تغلب التى نزلها عضد الدولة بالموصل وأنا إذ ذاك أتقلدها له وجميع مافتحه مما كان فى يد أبى تغلب مضافاً إلى حلوان وقطعة من طريق خراسان ، فرأيت محمداً يمشى فى قيوده حتى دخل اليه فقبل الأرض بين يديه ودعا له وشكره ، وأخرج إلى حجرة من الدار فأخذ حديده وحمل على فرس فاره بمركب من ذهب ، وقيد بين يديه خمس دواب بمراكب فضة مذهبة وخمس بجلالها ، وثلاثون بغلا بأفكها محملة مالا صامتاً ، ومن صنوف الثياب الفاخرة والفرش السرى والطيب والآلات المرتفعة القدر والعلوفات والحيوان والحلو والطعام ونقل وفاكهة وأنبذة وغير ذلك ثم أقطعه بعد أيام أقطاعا بثلثمائة ألف درهم وولاه إمارة بلده وأعماله وهو الذى كان يتولاه لأبى تغلب .

* * *

وذكر الحسين القاضى فى كتابه : « كتاب الفرج بعد الشدة » قال : بلغنى أن عمرو بن معدى كرب الزبيدى قال : خرجت فى خيل من بنى زبيد أريد غطفان فبينما أنا أسير وقد انفردت من أصحابى إذ سمعت صوت رجل ينشد شعراً فتفهمته فحفظته وهو هذا :

أما من فتى يخاف العطب يبلغ عمرو بن معد يكرب
بانا ننوط فى زمان بأرجلنا اليوم نوط القرب
فإن هو لم يأتنا عاجلا فيكشف عنا ظلام الكرب
وإلا استغثنا بعبد المدان وعبد المدان لها إن طلب

قال : فعلمت أنه قول أسير فى بنى مازان بن صعصعة فقلت لخيلى قفوا حتى آتيكم واقتحمت على القوم وحدى وإذا هم يصطلون . فقلت : أنا أبو ثور أين أسرى بنى مذجح ؟ فبادرت الأسرى من الرجال وبادر القوم إلى يقاتلوننى فلم أزل أقاتلهم وأقتل منهم حتى استعفونى وقالوا : إنا والله لنعلم أنك لم تأتنا وحدك فاكفف عنا ولك الاسرى ، واكفف عنا خيلك . فنزلت وأطلقت بعضهم وقلت ليحل مطلقكم موثقكم وليركب كل واحد منكم ما وجد . قال : وأقبلت خيلى وجاءت الاسرى . فقلت لهم : هل علمتم موضعى حتى أنشد منشدكم ؟ قالوا : لا والله . ما سمعنا وما أصبحنا منذ سرنا أشد بأساً ولا أتم إيقانا بالهلاك منا اليوم فذلك حين أقول :

ألم ترنى إذ ضمنى البلد القفر سمعت ندا يصدع القلب ياعمرو
أغثنا فانا عصبة مذ حجية نناط على وفر وليس لنا وفر
تكلفنا ياعمرو ماليس عندنا هوازن فانظر ما الذى فعل الدهر
فقلت لخيلى انظرونى فإننى سريع اليكم حين ينصدع الفجر
وأقحمت مهرى حين صادفت غرة على الطف حتى قيل قد عقر المهر
فأنجيت أسرى مذحج من هوازن ولم ينجهم إلا السكينة والصبر
ونادوا جميعاً حل عنا وثاقنا أخا البطش إن الامر يحدثه الامر
وأبت بأسرى لم يكن بين قتلهم وبين طعانى اليوم مادونه فتر
يزيد وعمرو والحصين ومالك ووهب وسفيان وسابعهم وبر

* * *

روى نجيد كاتب إبراهيم بن المهدى ان إبراهيم حدثه أن مخلدا الطبرى الكاتب للمهدى على ديوان الرسائل أخبره أنه كان فى ديوان عبد الملك يتعلم كما

يتعلم الأحداث فى الدواوين إذ ورد كتاب صاحب بريد الثغور الشامية على عبد الملك يخبره فيه أن خيلا من الروم تراءت للمسلمين فتمرقوا إليها ثم رجعوا ومعهم رجل قد كان أسر فى أيام معاوية بن أبى سفيان فذكروا أن الروم لما توافقوا أعلموهم أنهم لم يأتوا لحرب ، وإنما جاؤا بهـذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين لأن عظيم الروم أمرهم بذلك . وذكر صاحب البريد أن النافرين ذكروا أنهم سألوا المسلم عما قالت الروم فوافق قوله قولهم ، وذكر أن الروم قد أحسنوا اليه فانصرفوا عنهم وأخذوه وإنى سألته عن سبب مخرجه فذكر أنه لا يخبر بذلك أحداً دون أمير المؤمنين ، فأمر عبدالملك بإحضاره له ، ولما حضر قال له : من أنت ؟ قال أنا قبات بن رزين اللخمى أسكن فسطاط مصر فى الموضع المعروف بالحمراء أسرت فى خلافة معاوية وطاغية الروم إذ ذاك ورقاء بن مورقة . فقال عبدالملك بن مروان : فكيف كان فعله بكم ؟ قال لا أحد أشد عداوة للإسلام وأهله منه إلا أنه كان حليما ، وكان المسلمون فى أيامه أحسن حالا منهم فى أيام غيره إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه فقال فى أول ما ملك : إن الاسراء إذا طال مكثهم ببلد آنسوا به ولو كان على غاية الرداءة ، وليس شىء أنكر لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد ، وأمر باثنى عشر قدحاً ، وكتب فى رأس كل واحد منها اسم واحد من بطارقته الاثنى عشر يضرب بالقداح فى كل سنة أربع مرات فمن خرج اليه القدح الأول حول اليه المسلمون فاحتبسهم عنده شهراً ، ومن صار اليه القدح الثانى صاروا اليه بعد البطريق الذى كانوا عنده فى الشهر الأول ، ومن خرج اليه القدح الثالث حولهم اليه بعد الشهر الثانى ، ثم أعيدت القداح بعد ذلك . قال قبات : فكنا لا نصير إلى واحد من البطارقة إلا قال : إحمدوا الله عز وجل حيث لم يبتليكم ببطريق الرخان . قال : فكنا نرتاع لذكره ونحمد ربنا عز وجل على أن لم يكن يبتلينا برؤيته (قال) : فمكثنا عدة سنين ثم ضرب بالقداح فخرج القدح الأول والثانى لبطريقين من البطارقة ، وخرج

الثالث لبطريق الرخان فمر بنا فى الشهرين غم طويل نترقب المكروه ، ثم انقضى الشهران فحملنا اليه فرأيناعلى بابه من الجمع على خلاف ما كنا نعاين ، ورأينا من رثاجته والغلظة خلاف ما كنا نرى ، ثم وصلنا اليه فتبين لنا من فظاظته وغلظته ما أيقنا معه بالهلكة ثم دعا بالحدادين وأمر بتقييد المسلمين بأمثال ما كان يقيدهم غيره (قال) : فلم يزل الحديد يجعل فى رجل واحد واحدحتى صار الحداد إلىّ قال : فنظرت فى وجه البطريق فوجدته قد نظر إلى بخلاف العين التى كان ينظر بها إلى غيرى ، ثم كلمنى بلسان عربى فسألنى عن اسمى وعن نسبى ومسكنى مثل ماسألنى عن أمير المؤمنين فصدقته عماسالنى عنه ، ثم قال لى كيف حفظك لكتابكم ؟(قال) : فأعلمته أنى حافظ له . فقال : اقرأ آل عمران . فقرأت عليه منها نحو خمسين آية . فقال : إنك لقارىء فصيح ، ثم سألنى عن روايتى للشعر فأعلمته أنى راوية فاستنشدنى لجماعة من الشعراء فأنشدته فقال : إنك لحسن الرواية ثم قال لخليفته قد وثقت بهذا الرجل فلا تحدده ، ثم قال : وليس من الانصاف أن أسوءه فى أصحابه ففك عن جماعته وأحسن مثواهم ، ولا تقصر فى قراهم ثم دعا صاحب مطبخه فقال لست أطعم طعاماً مادام هذا العربى عندى إلا معه فاحذر أن يدخل المطبخ مالا يحل للمسلمين أكله ، واحذر أن تجعل الخمر فى شىء من طبيخك ، ثم دعا بمائدته واستدنانى حتى قعدت إلى جانبه فقلت له : فدتك نفسى وأبى أنت أحب أن تخبرنى من أى العرب أنت ؟ فضحك . ثم قال : لست أعرف لمسألتك جواباً لأنى لست عربياً فأجيبك عن سؤالك . فقلت له : مع هذه الفصاحة بالعربية . فقال : إن كان باللسان تنقل الأنساب من جنس إلى جنس فأنت إذا رومى ، فان فصاحتك بلسان الروم ليست بدون فصاحتى بلسان العرب فعلى قياس قولك يجب أن تكون روميا وأكون عربيا . (قال) : فصدقت قوله وأقمت عنده خمسة عشر يوماً لم أكن منذ خلقت فى نعمة أكثر منها فلما كانت ليلة ستة عشر ، فكرت فى أنه قد مضى نصف الشهر وإن الأيام تقربنى من الانتقال إلى غيره فبت مغموما وصار إلى

رسوله يدعونى لحضور طعامه فلما جعل الطعام بين أيدينا رأى أكلى مقصراً عما كان يعهده ، فضحك ثم قال أحسبك ياعربى لما مضى النصف من شهرك فكرت فى أن الايام تقربك من الانتقال عنى إلى غيرى فلا يعاملك مثل معاملتى ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معى ، فسهرت واعتراك لذلك غم ثم غير طبعك ، فأعلمته أنه قد صدق . فقال : ماأنا إنلم أحسن الاختيار لصديق بحر . كل فقد آمنك الله مما حذرت ، ولم أبت فى اليوم الذى رمقتك فيه حتى سألت الملك أن يصيرك عندى مادمت فى أرض الروم فلست تنتقل عن يدى ولا تخرج منها إلا إلى بلدك فإنى أرجو أن يسبب الله عز وجل ذلك على يدى . قال : فطابت نفسى ولم أزل مقيما عنده إلى أن انقضى الشهر وضرب بالقداح ، وخرج لبطارقة غير البطريق الذى نحن عنده وتحول اليه أصحابى وبقيت وحدى وتغديت فى ذلك اليوم مع البطريق . وكان من عادتى أن أنصرف من عنده بعد غدائى إلى إخوانى المسلمين فنتحدث ونأنس ، ونقرأ القرآن ، ونجمع الصلوات ، ونتذاكر الفرائض ويسمع بعضنا بعضا ماحفظ من العلم وغيره . قال : فانصرفت ذلك اليوم إلى الموضع الذى كنت أجتمع فيه مع المسلمين فلم أر أحداً منهم فضاق صدرى ضيقا تمنيت أن أكون مع أصحابى ، وبت بليلة صعبة لم أطبق فيها بين أجفانى فأصبحت أكثف خلق الله عز وجل بالا ، وأسوأهم حالا ، وصار إلى رسول البطريق فى وقت الغداء فلما صرت اليه تبين الغم فى وجهى ومددت يدى إلى الطعام فرأى مد يدى اليه خلاف عادتى . فضحك ثم قال : أحسبك اغتممت لفراق أصحابك فأعلمته أن قد صدق . وسألته هل عنده حيلة فى ردهم إلى يده . فقال : إن الملك لم يرد بتنقل أصحابك من يد إلى يد غيرى إلا ليعمهم بما يفعل ، ومن المحال أن يدع تدبيرهم فى الاضرار بهم لميلى اليك ومحبتى لك ، وما عندى فى هذا الباب حيلة . فسألته أن يسأل الملك إخراجى عن يده وضمى إلى أصحابى لأكون معهم حيث كانوا . فقال : ولا فى هذه أيضا حيلة لأنى لاأستجير أن أنقلك من سعة إلى ضيق ، ومن كرامة إلى هوان ، ومن نعمة الى شقاء .

(قال) : فلما قال لى ذلك تبين فى الانكسار وغلبة الغم . فقال لى : مابلغ بك من الغم فأعلمته أنه بلغ بى مانغص إلى الحياة وحبب لى الموت لعلمى أنه لا راحة لى بغيره . فقال لى إن كنت صادقا فقد دنا فرجك فسألته عما دله على قوله . فقال لى إنى وقعت فى نكبات أشد هولا مما أنت فيه وكان عاقبتها الفرج فاسمع بحكايتى واتعظ . إعلم ان بطرقة ذلك لم تزل منذ مئين سنين فى أهلى يتوارثونها وأن عددهم كان كثيراً فتفانوا ولم يبق منهم غير أبيه وعمه ، وكانت البطرقة إلى عمه دون أبيه فأبطأ على أبيه وعمه الولد فبذلا للمتطببين الكثير من الأموال لعلاجهما بما يعالج به المتطببون الرجال والنساء . إلى أن بطل العم ويئس من الانتشار فصرف عنايته إلى معالجة أبى البطريق فعلقت أمى بى فلما علم العم أنها علقت وجه لجمع عدة من الحبالى من ألسنة مختلفة فيها اللسان العربى والرومى والأفرنجى والكردى والصقلبى والخزرى فوضعن فى داره فلما ولدتنى أمى أمر بتصيير أولئك النساء كلهن معى يرضعننى ، ثم أمر بتصيير ملاعبيه ومؤدبيه من أجناس النساء اللواتى ربينه . قال البطريق : فكانوا يعلموننى الكتابة وقراءة كتب دينهم فلم ينقض عليه تسع سنين حتى علم أمر دينهم وقرأ كتبهم وأجابهم عنها ، ثم أمر عمه أن يضم إليه جماعة من الفرسان يعلمونه الثقافة والمساواة وجميع ما تعلمه الفرسان ومنعه من سكنى المنازل وأمره أن ينزل فى المضارب وأن يمنع من أكل اللحم إلا ماناله بصيد طائر يحمله على يده ، أو صيد كلب يسعى بين يديه ، او صيد بسهمه فكانت تلك حاله حتى استوفى عشر سنين ثم رمى الله عز وجل فى عصب عمه فمات وولى البطرقة بعد عمه أبوه . فأمره بالقدوم عليه فقدم ورأى شمائله وفهم أدبه فاشتد عجبه به فتسمح له بما لم تكن ملوك الروم تتسمح به لولاة أمورها وأعتد له مضارب وفساطيط الديباج وضم اليــــه من الفرسان جماعة كثيفة ووسع على الجميع فى كل ما تحتاج اليه ورده إلى سكنى المضارب وأمره بالاستبعاد عن منازل أبيه . قال البطريق : فلما استتمت لى خمس عشرة سنة ركبت يوما لارتياد مكان أكون فيه فبصرت بغدير من ماء طوله ألف ذراع وعرضـــــه مابين ثلثمائة ذراع فأمرت بضرب مضاربى على ذلك

الغدير وتوجهت لطلب الصيد فرزقت ذلك اليوم منه ما لم أطمع فى مثله كثرة ، ثم نزلت وقدضربت المضارب فأمرت الطباخين فطبخوا لى ماشتهيت من الطعام ثم نصبت المائدة بين يدى وإنى لأنتظر الطبيخ يغرف إذ سمعت ضجة ما فهمت خبرها حتى رأيت رؤس أصحابى تتساقط عن أبدانهم ، فتخبيت عن مكانى وخلعت ثيابى ، ولبست ثياب بعض عبيدى ثم نظرت يمنة وشمالا فلم أر حولى إلا مقتولا ، وأرى فاعل ذلك كله بأصحابى منسر من مناسر الرخان ثم أسرت كما يؤسر العبيد واحتملوا كل ماكان معنا من مضرب وغيره ، وصاروا بى إلى ملك الرخان فلما رآنى لم يكن له ولد ذكر أمر بالتوسعة علىّ وأن أكون واقفاً على رأسه وسمانى ابنه قال : وكان له ابنة كان مغرما بها وقد علمها الفروسية ومساواة الأقران ومقاتلتهم ومراكدتهم قال : فقال لجماعة من بطارقته من منكم يتوجه إلى ملك الروم فيجيئنى بكاتب من بلده ليعلم ابنتى الكتابة ، فأعلمته أن رسوله لايأتيه بأكتب منى فأمرنى أن أكتب بين يديه فكتبت فاستحسن خطى وقرنه بكتب كانت ترد عليه من والدى فرأى خطى أجود فدفع ابنته إلى وأمرنى أن أعلمها الكتابة فهويتها وهويتنى فمكثت معى حتى استوفت ثلاثة عشرسنة ثم عادت إلى يوماً وهى باكية فقلت لها مايبكيك ياسيدتى ؟ فقالت إنى كنت جالسة بين يدى أمى وأبى فى هذه الليلة وغلبتنى عيناى فنمت فسمعت أبى يقول لأمى أرى ثدى ابنتك قد ثقل ، وأرى خلق هـذا الرومى قد غلظ وليس ينبغى أن يجتمعا بعد هذا الوقت فإذا جلست غداً معه فابعثى إليها من يفرق بينهما وبينه حتى لايراها ولاتراه قال البطريق : من سنة الرخان أن يكون الرجل يخطب لابنته حتى يزوجها ولايخطب الرجـل لابنته زوجاً دون أن تختاره البنت . قال البطريق : فقلت لابنة الملك إذاسألك أبوك عمن تحبين أن يخطب لك من الرجال فقولى لست أريد إلا هـذا الرومى فغضبت وقالت : كيف يجوز لى أن أسأل أن تخطب لى وأنت عبد ؟ قال فقلت ماجعلنى الله عزوجل عبداً . وإنى ابن الملوك وأبى ملك الروم . قال البطريق وأهل الرخان يسمون البطريق الرومى الذى يتولى جند رخان ملك الروم فسألتنى : هل ما أعلمتها

حق ؟ فقلت لها : إنه حق فمضى على كلامنا حين حتى جاء رسول الملك ففرق بيني وبينها ولم يمض لى بعد ذلك إلا ثلاثة أيام حتى دعانى الملك فدخلت عليه فرأيت أمارات البشر مستحكمة فى وجهه ثم قال لى : ياشقى ماحملك على الكذب فى نسبك فأنا أحكم على من انتسب إلى غير أبيه بالقتل . فقلت : ماانتسبت إلى غير أبى . فقال لى ابنتى تقول أنك ابن ملك الروم فأعلمته أنى أقول ذلك ، ودعوته ليكشف الأمر وينظر فيه . فقال : إنى لست أحتاج إلى أن أكشف أمرك برسول أرسله ليعرف خبرك ولى أشياء أمتحنك بها فأعرف صدقك من كذبك . فدعوته إلى كشفها بما شاء فدعا بدابة ولبد وسرج ولجام وأمرنى بتناول الدابة فأخذتها من يد السائس ، ثم أمرنى بأخذ اللبد فأخذته ، وأمرنى بالقائه على الدابة ففعلت ثم أمرنى بشد الحزام والثفر واللبب وأخذ اللجام والجام الدابة ففعلت ذلك كله ، ثم أمرنى بركوب الدابة فركبته وأمرنى بالسير فسرت ، ثم أمرنى بالإقبال فأقبلت ، ثم أمرنى بالنزول فقال عند آخر ذلك كله أشهد أنه ابن ملك الروم ، لأنه أخذ الدابة أخذ ملك ، وعمل سائر الأشياء مثل ماتعمله الملوك ، فاشهدوا أنى قد زوجته ابنتى . فلما قالوا إنا قد شهدنا قال : لاتشهدوا قال البطريق فلما سمعت قوله لاتشهدوا نزلت على الكلمة نزول الصاعقة وخفت أن تأتى على نفسى ثم قال لى لم أنههم عن الشهادة رغبة عنك ولكن لنا شرط لايمكن أن نخالفه ، ولم آمن أن نضطر فنحملك على شرطنا وهو مالم نخبرك به ونقفك عليه فنكون قد ظلمناك أو ندع سنة بلدنا فنكون قد فارقنا ملتنا . إن سنتنا يارومى أن لانفرق بين الزوجين إذا مات أحدهما فإن مات الرجل قبل المرأة جعلناها فى سريرها وجعلنا زوجها معها وصيرناهما جميعاً فى القبر فإن رضيت بهذا الشرط وبارك الله لك فى زواجها ؛ وإن لم ترض بها فليست راضية بك ولا يستقيم لك أن تتزوجها على خلاف سنتنا فأحوجتنى الصبابة بها إلى أن قلت قد رضيت بهذه السنة فأمر بتجهيزها وتجهيزى ، وجمع مابيننا فأقمت معها أربعين يوماً لايرى كل واحد منها ومنى إلا أنه قد فاز بملك الدنيا ثم اعتلت علة كان معها عشية

لم نشكك وجميع من رآها أنها قد قضت نحبها . قال: فجهزت بفاخر ثيابها وجهزت مثل ذلك وحملنا فى نعش واحد وركب الملك وأهل مملكته فشيعونا حتى وافوا بنا شفير البئر ثم شدوا أسافل السرير بالحبال وجعلوا معنا فى النعش طعاماً وشراباً لثلاثة أيام ، ثم دلونا حتى صرنا إلى قرار البئر ثم أرخيت علينا الحبال فسقط حبل منها على وجه الجارية فأزال ما أصابها من الغشى فانتبهت ، فلما أفاقت رأيت أن الدنيا قد جمعت لى واستمرت عينى على الظلمة فرأيت فى الموضع الذى أنا فيه من الخبز اليابس ماله دهر كثير فأخذت أغتذى وأغذيها فى تلك البئر وكنا لا نعدم فى كل يوم أن يدلى سرير فيه زوجان ، أحدهما حى والآخر ميت فكان النازل إذ كان رجلا حياً توليت قتله لئلا يكون معى ومع امرأتى رجل وإن كانت امرأة تولت بنت الملك قتلها غيرة علىّ من أن يكون معى امرأة سواها قال فمكثنا فى البئر وهذه حالنا أكثر من سنة إذ دلى إلى البئر دلو فعلمت أن مدليه غير راخانى ولا بد أن يكون. فاعل ذلك رومى ، ووقع لى أن أقدم الجارية فتتخلص ثم تعرفه حالى فيرد الداو فأخرج قال : فحملت ابنـة الملك فجعلتها فى الدلو بكسوتها وحليها وجوهرها واجتذب القوم الدلو فخرجت إليهم الجارية وإذا القوم مماليك لأبى ولم ينتبهوا على السؤال عنى وهابتهم الجارية وقد كانوا رأوا ما كان فيه أبى وأمى من غلبـة الحزن عليهما من فقدى فدبروا بالمصير بالجارية إلى أبوى ليتخذ را عندهم يداً وليتخذاها الجارية ولدا يسكنان إليها ويتعزيان بها فصاروا بهـا إليهما فسرا بها وسكنا إليهـا واستمرت الفتهما بالجارية فحصلت خير محصل وقد كان صديق لأبى له أدب وحكمه وعـلم بالتصاوير صور له صورتى فى خشبية وزوقها وجعلها لأبوى فى بيت وقال لهما متى ماذكرتما ابنـكما واشتد جزعكما فادخلا وانظرا إلى هـذه الصورة فانكما ستبكيان بكاء شديداً يعقبكما سلوة (قال البطريق) : ولما صارت الجارية إلى والدى ورأتهما يدخلان ذلك البيت ويخرجان وقد بكيا سبقتهما مرة وهما داخلان فبصرت بالصورة فلمـا رأتها لطمت وجهها ومزقت شـعرها وثيابها فسألاها عن

السبب فيما أحلت بنفسها؟ فقالت : هذه الصورة صورة زوجي فسألاها عن اسمه واسم أبيه وأمه فأسمتهم جميعاً فقالا لها وأين زوجك هذا ؟ قالت : فى البئر التى أخرجت منها فركب أبى وأمى فى أكثر أهل البلد ومعهم الغلمان الذين أخرجوا الجارية من البئر حتى وافوا البئر فدلوا الدلو قال البطريق فلما رأيت الدلو وكنت قد سللت سيفى الذى أنزل معى من غمده وجعلت ذؤابته بين ثديى لاتكى عليه فأخرجه من ظهرى فأستريح من الدنيا لغلبة الغم علىّ فوثبت وقعدت فى الدلو واجتذبنى من كان فوق البئر حتى خرجت منها فوجدت أبى وأمى وامرأتى على شفيرها وقد أحضروا لى الدواب لانصرف إلى بيت أبى وأمى وكان أبى قد صار ملك تلك البلاد فلم أطعمها وأعلمتهما أن الأصوب البعثة إلى أبى الجارية وأمها حتى يرى ابنتهما مثل مارآ نى أبواى ففعلا ذلك ووجها إلى أبى الجارية وهو صاحب الرخان فخرج فى أهل مملكته حتى عاينـاها ، وأقاما لها عرساً وحدثت مهادنة بين الروم والرخان جرت فيها أيمان أنه لايغزو أحد منهما صاحبه ثلاثين سنة وصار القوم إلى بلادهم ، وصرنا إلى منازلنا ومات أبى فورثت البطرقة منه ورزقت من ابنة الملك الولد ، وأنت ياعربى إن كان الغم قد بلغ منك ماذكرت فقد جاءك الفرج . قال : فما انقضى كلام البطريق حتى دخل عليه رسول ملك الروم فقال له : يقول لك الملك صر إلىّ فخرج اليه ثم عاد فقال يا عربى قد جاءك الفرج . ثم قال لى : إنى كنت عند الملك وجرى ذكر العرب فرمتهم البطارقة عن قوس واحد وذكروا أنهم لاعقول لهم ولاأدب ، وإن قهرهم الروم هو بالغلبة لا بحسن التدبير فأعلمت الملك أن الأمر على خلاف ما ذكروا وأن للعرب آداباً وأذهاناً فقال لى الملك : أنت لمحبتك لضيفك العربى مفرط فى إعطاء العرب ما ليس لها فقلت إن رأى الملك أن يأذن لى فى إحضار العربى للجمع بينه وبين هؤلاء المتكلمين ليعرف فضيلته فأمرنى بحملك اليه . فقال قبات : فقلت له بئسما صنعت بى لأنى أخاف ان غلبتنى أصحابه أن يستخف بى ، وإن غلبتهم أن يضطهدنى فقال صفتك هذه صفة العامة والملوك على خلافها وإنى أخبرك أنك إن غلبتهم جللت فى عين الملك وكنت

عنده بمكان يقضى لك فيه حاجة ، وإن غلبوك سره غلبة أهل دينه لك فأوجب لك بذلك ذماماً ، وان أقل مانرى أن يقضى لك به حاجة وإن غلبت أو غلبت فاسأله إخراجك عن بلده وردك إلى بلدك فانه سيفعل ذلك . قال قبات : فلمــا دخلت على الملك استدنانى وقربنى وأكرمنى وقال لى ناظر هؤلاء البطارقة فأعلمته أنى لا أرضى لنفسى بمناظرتهم ، وإنى لا أناظر إلا البطريق الكبير فأمر بإحضاره . فلما دخل سلمت عليه وقلت له مرحباً بهذا الشيخ الكبير القدر : ثم قلت له : ياشيخ كيف أنت ؟ قال : فى عافية . فقلت له فكيف حالك كلها ؟ فقال : كما تحب . فقلت وكيف ابنك ؟ قال : فتضاحك البطارقة كلهم . وقالوا : زعم البطريق يعنون الذى هو صديق إن هذا أديب وإن له عقلا وهو لا يعلم بجهله أن الله عزوجل قدصان هذا البطريق أن يكون له ابن فقلت : كأنكم ترفعونه عن أن يكون له ابن ؟ فقالوا : أى والله إنا لنرفعه ان كان الله عزوجل قد رفعه عنه . فقلت : واعجباً ان لا يحل لعبد من عبيد الله أن يكون له ابن ، ويحل لله تعالى ذكره وهو خالق الخلائق كلها أن يكون له ابن . قال : فنخر البطريق نخرة أفزعتنى ، ثم قال : أيها الملك أخرج الساعة هذا من بلدك لئلا يفسد عليك أهله . فدعا الملك بالفرسان وضمنى اليهم وأحضر لى دواب البريد وأمر بحملى عليها وببدرقتى . وتسليمى إلى من يلقانا فى أرض الإسلام من المسلمين فسلمونى إلى من تسلمنى من أهل الثغور ثم ذكر حديثاً لعبد الملك مع الرجل لا يتعلق بهذا الباب .

* * *

الباب السادس

من فارق شدة إلى رخاء بعد بشرى منام ولم يشب صدق تأويله كذب الأحلام

قال أبو على : أخبرنى أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ، قال : حدثنا محمد بن يحيى بن أبى عباد الجيشى قال : رأى المعتضد وهو فى حبس أبيه كأن شيخاً جالسا على دجلة يمد يده إلى ماء دجلة فيصير فى يده وتجف دجلة ثم يرده من يده فتعود دجلة كما كانت فسألت عنه فقيل لى هذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فقمت اليه فسلمت عليه فقال لى يا أحمد : إن هذ الأمر صائر اليك فلا تتعرض لولدى وصنهم ولا تؤذهم . فقلت السمع والطاعة لك ياأمير المؤمنين * وحدثنى أبى رحمه الله تعالى بهذا الحديث على أتم من هذا بإسناد ذكره عن ابن حمدون النديم قال : قال لى المعتضد وهو خليفة لما قدم أبى وهو عليل العلة التى مات فيها وأنا فى حبسه ازداد خوفى على نفسى ولم أشكك فى أن إسماعيل بن بلبل سيحمله على قتلى أو يحتال بحيلة يسفك دمى بها إذا وجد أبى قد ثقل فى علته وآيس منه ، فقمت ليلة من تلك الليالى وأنا من الخوف على أمر عظيم وقد صليت صلاة كثيرة ودعوت الله عزوجل فرأيت فى منامى كأنى على شاطىء دجلة فرأيت رجلا جالسا على الشط وهو يدخل يده فى الماء فيقبض عليه فتقف دجلة ولا يخرج من تحت يده جرعة من ماء حتى يجف ما تحت يده ويتزايد الماء الى فوق يده ويقف كالطود العظيم ثم يخرج يده من الماء فيجرى ففعل ذلك دائما فهالنى ما رأيت فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له من أنت يا عبد الله الصالح ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ! قلت يا أمير المؤمنين ادع لى . قال : ان هذا الأمر صائر اليك فاعتضد بالله تبارك وتعالى واحفظنى فى ولدى . قال : فانتبهت وكأنى أسمع كلامه لسرعة المنام فوثقت بأنى أتقلد الخلافة وقويت نفسى وزال خوفى فقلت لغلام كان معى فى الحبس لم يكن معى غيره من غلمانى اذا أصبحت

فامض وابتع لى فصا ، واكتب عليه : أحمد المعتضد بالله ، واصنعه خاتماً واتنى به . ففعل ، ولبسته وقلت : إذا وليت الخلافة جعلت لقبى المعتضد بالله قال : ثم أخذت أقطع ضيق صدرى فى الحبس بتصفح أحوال الدنيا وأعمال فكرى فى تدبير عمارة الخراب منها ، ووجه فتح المنغلق منها ، وتعيين العمال للنحواحى والأمراء للبلدان ثم أخذت رقعة وكتبت فيها بدرا الحاجب وعبيد الله بن سليمان الوزير ، وفلان أمير البلد الفلانى ، وفلان عامل البلد الفلانى ، وفلان للديوان الفلانى . إلى أن أتيت على ما فى نفسى من ذلك ، ودفعتها إلى الغلام وقلت : احتفظ بهافان دمى ودمك مرتهنان بما فيها فحفظها وما مضى على الأمر إلا أيام يسيرة حتى لحقت الموفق غشية لم يشك الغلمان فى أنه قد مات . فجاؤا إلى فأخرجونى فصرت إلى بيت فيه الموفق فلما رأيته علمت أنه غير ميت ، فجلست عنده وأخذت يده أقبلها وأترشفها ، فأفاق فلما رآنى أفعل ذلك أظهر التقبل وأومأ إلى الغلمان أن أحسنتم فيها فعلتم ثم مات الموفق فى ليلته تلك ، ووليت مكانه فأمضيت بقايا تلك التدبيرات كلها . قال لى أبى : قال ابن حمدون : فما تعرض المعتضد فى أيامه للعلويين ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً لهذا المعنى .

* * *

قال على بن هشام بن عبد الله الكاتب بإسناده : أن أبا الحسين بن ميمون الأفطس كاتب المتقى فى أيام أبيه ووزيره لما استخلف قال : كان بينى وبين أبى أيوب بن سليمان بن وهب مودة وكيدة فلما تسهلت محنته بعد قتل إيناخ صرت اليه وهو محبوس مقيد إلا أنه مرفه فى الكسوة وكبر الدار والفرش وحسن الخدمة ، وقد صلحت حاله بالإضافة إلى ما كان عليه فى أول نكبته من الضرب والتضييق فحدثنى أنه رأى فى ليلته تلك فى منامه كأن قائلا يقول هذا البيت :

اصبر ورب البيت لا يقتادها أحد سواك وحظك الموفور

قال : فصرت إلى أخيه أبى على بن الحسن بن وهب فحدثته بذلك فسر به

وكان كالمستتر الممتنع من ملاقاة السلطان فعمل شعراً ضمه إلى البيت وسألنى إيصاله إلى أبى أيوب فأخذته فأوصلته وهو :

الدمع من عين أخيك غزير   فى ليله ونهاره محذور
بأبى وأمى حظوك المقصور   ومقيد ومصفد وأسير

وزاد فيه غيره فى هذه الرواية :

فكر يجول بها الضمير كأنما   يذكر بها دون الشغاف سعير
ونجوى دخيل ليس يعرف كنهه   ممن يلاهيه أخ وعشير
فيظنه خدانه متسلياً   والبث فى أحشائه مستور

رجع إلى الرواية الأولى :

ما كنت أحسبنى أعيش ومهجتى   تحت الخطوب تدور كيف تدور
قلقاً فأنك بالعزاء جدير   وعلى النوائب مذ كنت صبور
عثرات مثلك فى الزمان كثيرة   ولهن بعد مثابة وجبور
ان تمش فى حلق الحديد فحشوها   منك السماحة والندى والخير
والفصل للشبهات رأيك ثاقب   فيها يضىء سداده وينير
وتحمل العبء الثقيل بثقله   منك المجرب عزمه المخبور
فاصبر ورب البيت لا يقتادها   أحد سواك وحظك الموفور
ما ذا بقلب أخيك مذ فارقته   ليكاد من شوق اليك يطير
فكأنما هو قرحة مقرونة   منها البلابل والهموم تثور
والله مرجو لكربتنا معاً   وعلى الذى نرجوه منك قدير

قال : فما مضت إلا أيام يسيرة حتى أطلق سليمان بن وهب ثم انتهى بعد ذلك إلى الوزارة :

٭ ٭ ٭

حدثنى على بن هشام قال : حدثنى أبو الفرج محمد بن جعفر بن حفص الكاتب قال : حدثنى أبو القاسم عبيدالله بن سليمان قال : كان أبو محمد الحسن ابن مخلد أول من رفعني واستخلفنى على ديوان الضياع فكنت أخلفه عليه

إلى أن ولى شجاع بن القاسم الوزارة مع كتابة أوتامش فى أيام المستعين واشتد جزع أبى محمد منه فسألته عن ذلك؟ فقال: هذا رجل حمار لا يغار على صناعته وهو مع هذا من أشد الناس حيلة وشدة، وهو يعرف كبر نفسى وصغر نفسه وقد بدأ بأبى جعفر بن اسرائيل فصرفه عن ديوان الخراج ونكبه ونفاه إلى انطاكيا ولست آمن أن يجعلنى فى أثره. (قال): فما مضى إلا أسبوع حتى ظهر أن أباموسى عيسى بن فرخان شاه القنانى الكاتب وكان من صنائع الحسن وقد أسلم إذ ذاك قد سعى مع شجاع فى تقلده ديوان الضياع ثم تقلده صارفاً للحسن بن مخلد وخلع عليه فازداد جزع أبى محمد الحسن وأغلق بابه وقطع الركوب فأنا عنده فى بعض العشيات إذ أتت رقعة شجاع يستدعيه ويؤكد عليه فى البدار فارتفع ونهض وتعلق قلبى به فانتظرته إلى أن عاد وهو مهموم مكروب. فقلت: ما خبرك؟ قال قد فرغ شجاع من التدبير علىّ وذاك أنه قد صح عندى بعد افتراقنا أن أوتامش قال البارحة لبعض خواصه قد ثقلنا على شجاع وحملناه مالا يطيق من كتابتى والوزارة وتركنا هذا الشيخ يعنى الحسن بن مخلد متعطلا لابد من أن يفرج له شجاع إما عن كتابتى، وإما عن الوزارة لأقلده إحداهما. فلما بلغ ذلك شجاعا أنفذ إلىّ فى الوقت. فلما رأيته الساعة قال لى ياأبا محمد: أنت شيخى ورئيسى وأنت اصطنعتنى وأنا معترف لك بالحق وآخر مالك عندى من الأنعام أنك قلدتنى عمالة همدان فانتقلت منها إلى هذه المنزلة والأمير يحذرك الحذر كله وقد أقام على أنه لابد من نكبتك وإفقارك فلأجل ما أقمت من الامتناع عليه من هذا وسألته فى أمرك فجرت خطوب تقررت على أن لا تجاوره وتشخص إلى بغداد ورضيته بذلك وصرفت عنك النكبة وقد أمرنى بإخراجك من ساعتك. فما زلت حتى استظهرت له ثلاثة أيام أولها يومنا هذا فاعمل على هذا فإنك تمضى إلى بلد الآمر فيه والناهى أبو العباس محمد بن عبدالله ابن طاهر وهو صديقك، ويخدمك الناس كلهم ولا تخدم أحداً، وتقرب من ضيعتك فأظهرت له الشكر وضمنت له الخروج، وأنا خائف منه أن يدعنى حتى أخرج آلاتى

والحرم وتجملى ثم يقبض على ذلك كله وينكبنى . فقلت : الوجه أن تفرق جميع مالك من الحرم والأمتعة والدواب وتودعه ثقاتك وإخوانك . من وجوه قواد الأتراك وكتابهم ، وتطرح الثقل الذى لاقيمة له من خيش وستائر وأسرة وآلات مطبخ فى الزواريق وتجلس فى الحراقة العجائز اللواتى لا تمتكر فى هن ليظن أنهن الحرم وتخرجهن ، وتجتهد أن يكون خروجك خروجا ظاهراً ولا تكاشف بالاستتار بل على سبيل توق ومراوغة فاذا حصلت ببغداد أمنت . فقال : هــذا رأى صحيح وأخذ يصلح أمره على هذا فلما كان فى ليلة اليوم الثالث لم أنم أكثر الليل فكر فيه ثم نمت لما غلبتى عينى فرأيت فى السحر كأن قائلا يقول لاتغتم فقد ركب الأتراك من أصحاب وصيف وبغا إلى أوتامش ، وكاتبه شجاع وقدهجموا عليهما وقتلوهما واسترحتم . قال : فانتبهت مفزوعا ووجدت الوقت قد جاوز انفجار الفجر فصليت وركبت إلى الحسن بن مخلد فدخلت عليه من باب له غامض لأنه قد كان أغلق أبوابه المعروفة فسألته عن خبره فقال هذا آخر الأجل وقد خفت أن يعاجلنى شجاع بالقبض على فأغلقت أبوابى واستظهرت بغلمانى يراعون رسله فاذا جاؤا ورأو أمارة الشر فيهم أنذرونى فأخرج من هذا الباب الغامض وإن يسألوا خبر شجاع فان كان فى داره قالوا لمن يجيئنى فيطلبنى من جهته أنى فى دار أوتامش ، وإن كان فى دار أوتامش قالوا للرسل أنى فى دار شجاع مدافعة عنى حتى أهرب . قال : فقصصت عليه الرؤيا فتضاحك وقال ماظننتك بهذه الغفلة نحن فى اليقظة كما ترى كيف يصح لنا خبرك فى المنام لهذا إنما نمت وأنت متمنى خلاصى فرأيت ذلك فى منامك . قال : فخرجت من عنده أريد دارى فليقنى فى الطريق جماعة كثيرة فعرفونى أن الأتراك قد ركبوا بالسلاح فصرت إلى منزلى وأغلقت بابى ووصيت عيالى بحفظ الدار وعدت فدخلت إلى الحسن فأخبرته بالخبر فأمر بمراعاة الأمر ، فما زلنا نتعرف الأخبار ساعة بساعة إلى أن جاء الناس فعرفونا قتل الأتراك لشجاع ، ثم دخل رجل فقال : أنا رأيت الساعة

رأس أوتامش . قال وصح الخبر بقتلهما ونهبت مر من رأى كلها فما أفلت من النهب أحد أحسن من إفلات الحسن بن مخلد لأن ماله كله كان قد جعل عند القواد وكتابهم ولم يضع منه شيء وكان متعطلا فلم تقصد النهابة داره وما أمسينا إلا على سرور بالفرج الذى لم يكن لنا فى الحساب .

* * *

حدثنى أبو الفرج المخزومى المعروف بالببغاء الشاعر قال : كان بحلب رجل بزار يعرف بأبى العباس بن الموصل فاعتقله سيف الدولة بخراج كان عليه مدة . وكان : الرجل محدقاً فى تفسير الرؤيا فلما كان فى بعض الأيام كنت بحضرة سيف الدولة وقد أوصلت له رقعة إليه يسأله فيها حضور مجلسه فأمر باحضاره وقال له : لأى شيء سألت الحضور ؟ قال لعلمى أنه لابد أن يطلقنى الأمير سيف الدولة من الاعتقال فى هذا اليوم فقال له : ومن أين لك ذلك ؟ قال لأنى رأيت البارحة فى آخر الليل رجلا قد سلم إلى مشطاً وقال سرح لحيتك . ففعلت ذلك فتأولت التسريح سراحاً من شدة واعتقال ، ولكون المنام فى آخر الليل حكمت أن تأويله يصح سريعاً . ووثقت بذلك فجعلت الطريق إلى الأمير مسألة الحضور ولأستعطفه فقال له : أحسنت التأويل والأمر على ما ذكرت وقد أطلقتك وسوغتك خراجك فى هذه السنة فخرج الرجل وهو يدعو له ويشكر .

* * *

أخبرنى القاضى أبو طالب محمد بن أحمد بن إسحق بن البهلول التنوخى فيما أجاز لى رواية عنه بعد ما سمعته منه قال : حدثنا محمد بن خلف ، قال: حدثنى أبو سهل الدارى القاضى قال : حدثنا أبو حسان الزيادى القاضى قال : جاءنى رجل من أهل خراسان فأودعنى بدرة دراهم فأخذتها مضمونة وأسرعت فيها وكان قد عزم على الخروج إلى مكة ثم بداله فعاود فطلبها فاغتممت وقلت له : تعود غداً ثم فزعت إلى الله عزوجل ودعوته ، ثم ركبت بغلتى فى الغلس

وأنا لا أدرى أين أتوجه وعبرت الجسر وأخذت نحو المخرم وما فى نفسى أحد أقصده فاستقبلنى رجل راكب فقال اليك بعثت . فقلت : ومن بعثك ؟ قال دينار بن عبد الله فأتيته وهو جالس فقال لى : ماحالك ؟ فقال نمت الليلة فأتانى آت فقال لى أغث أبا حسان فحدثته بحديثى فدعا بعشرين ألف درهم فدفعها إلى فرجعت فصليت فى مسجدى الغدا فجاء الرجل فقضيته وأنفقت الباقى » ووقع لى هذا الخبر من طريق آخر بأسانيد قالوا : حدثنا أبو حسان الزيادى قال أضقت إضاقة بلغت منها الغاية حتى ألح على القصاب ، والبقال ، والخباز ، وسائر المعاملين ولم تبق لى حيلة . وإنى ليوم من الأيام على تلك الحال وأنا مفكر فيما أعمل إذ دخل على غلامى فقال : حاجى بالباب يستأذن . فقلت له ائذن له . فدخل رجل خرسانى فسلم وقال ألست أباحسان ؟ فقلت : نعم . فما حاجتك قال أنا رجل غريب وأريد الحج ومعى جملة مالى وقد أحضرته فى بدرة معى وهو عشرة آلاف درهم وأنا محتاج أن يكون قبلك حتى أقضى حجى وأرجع فآخذه إذ كنت غريباً بهذه البلد لا أعرف به أحداً . فقلت هات البدرة فأحضرها ووزن مافيها وختمها فلما خرج فككت الختم على المكان ثم أحضرت المعاملين فقبضت كل من كان له عندى دين واتسعت وأنفقت وقلت أضمن هـــذا المال للخراسانى فالى أن يجىء يأتى الله بفرج من عنده فكنت يومى ذلك فى سعة ولست أشك فى خروج الخرسانى إلى الحج ، فلما أصبحت من غد ذلك اليوم دخل الى الغلام فقال : الخرسانى الذى كان عندك أمس بالباب . فقلت ائذن له فدخل إلى فقال : انى كنت عازما على ماأعلمتك به ثم ورد على الخبر بوفاة والدى وقد عزمت على الرجوع الى بلدى فتأمرلى بالمال الذى أعطيتك أمس فورد على أمر لم يرد على مثله قط ، وتحيرت فلم أدر بما ذا أجيبه ، وتفكرت ماذا أقول للرجل ان جحدته قدمنى واستحلفنى فكانت الفضيحة فى الدنيا والآخرة والهتك وان دافعته صاح وهتكنى . فقلت نعم عافاك الله منزلى هـذا ليس بالحريز ولما أخذت مالك وجهت به الى من هو قبله فتعود فى غد فتأخذه . فانصرف

وبقيت متحيراً لا أدرى ما أصنع ، وغلظ على الأمر جداً فأدركنى الليل وفكرت فى بكور الخراسانى فلم يأخذنى نوم ولم أقدر على الغمض . فقمت إلى الغلام وقلت له : اسرج لى البغلة . فقال يامولاى : هذه العتمة بعد وما مضى من الليل شىء فالى أين تمضى؟! فرجعت إلى الفراش فاذا النوم ممتنع علىّ فلم أزل أقوم إلى الغلام وهو يردنى حتى فعلت ذلك ثلاث مرات وأنا لا يأخذنى القرار حتى طلع الفجر وأسرج الغلام البغلة وأقبلت أفكر وهى تسير حتى بلغت الجسر فعدلت بى إليه فتركتها فعبرت ثم قلت إلى أين أعبر ولكن إن رجعت وجدت الخراسانى على بابى فأدعها تمضى حيث شاءت فلما عبرت الجسر أخذت بى يمنة دار المأمون فتركتها ومرت فلم أزل كذلك إلى أن قربت من دار المأمون والدنيا بعد مظلمة وإذا بفارس قد تلقانى ونظر فى وجهى ثم سار وتركنى ثم رجع إلى وقال : ألست أبا حسان الزيادى ؟ قلت : نعم . قال بعثت اليك . فقلت وماتريد يرحمك الله ؟ ومن بعثك إلى فقال الأمير حسن بن سهل . فقلت فى نفسى مايريد منى ثم قلت فها أنا ذا أمضى اليه فمضى حتى استأذن لى عليه فدخلت عليه فقال أبا حسان . ما خبرك ، وكيف حالك ، ولم انقطعت عنا ؟ قلت : لأسباب ، وذهبت أعتذر من التخلف . فقال دع ذا عنك أنت فى لوثة وأمر ماهو فانى رأيتك البارحة فى النوم فى تخليط كثير . فابتدأت فشرحت له قصتى من أولها إلى آخرها إلى أن لقينى صاحبه ودخلت عليه فقال : لا أغمك الله يا أبا حسان قد فرج الله عنك هذه بدرة للخراسانى مكان بدرته ، وبدرة أخرى تتسع بها فاذا نفدت اعلمنا . فرجعت من ساعتى فقضيت دين الخراسانى واتسعت بالباقى وفرج الله عز وجل عنى .

وحدثنى بهذا الحديث أبو الفرج محمد بن محمد بن جعفر قال حدثنا أبو القاسم على بن محمد بن أبى حسان الزيادى ، وكان محدثاً ببغداد ثقة مشهوراً قال : حدثنى أبى عن أبيه قال : كنت وليت القضاء من قبل أبى يوسف القاضى رحمه الله ثم صرفت وتعطلت وضقت إضاقة شديدة وركبنى دين فادح ، لخباز ، وبقال ، وقصاب ، وعطار ،

وبزاز . وغيرهم حتى قطعوا معاملتي لكثرة مالهم علي وتأبيهم من أن أقضيهم فتضاعفت إضاقتي واشتدت حيلتي فإني يوماً في مسجدي قد صليت بأهله الغداة ثم أقبلت أدرس أصحابي الفقه إذ جاءني رجل خراساني وذكر الحديث على نحو ما ذكره طلحة إلا أنه قال : فلما بلغت بغلتي مربعة الجسر استقبلني موكب فيه من الشموع والنفاطات ما أضاء منه الطريق فصار كالنهار فطلبت زقاقاً أستخفي فيه حتى يجوز الموكب فلم أجد فاذا رجل من أهل الموكب يقول أبو حسان؟ فتأملته فاذا هو دينار بن عبد الله فسلمت عليه فقال : اليك جئت أرسل أمير المؤمنين إلى الساعة وأمرني أن أركب اليك بنفسي وأحضره إياك قال : وأدخلني على المأمون فقال : قصتك فإني رأيتك في منامي البارحة وأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم باغاثتك؟ . قال فحدثته بحديثي . فقال المأمون : اعطوا أبا حسان ثلاث بدر وولاني الري وأمرني بالخروج اليها . قال : فعدت وما طلع الفجر ، فلما كان وقت صلاتي في مسجدي خرجت فإذا الخراساني فلما قضيت الصلاة أدخلته الدار وأخرجت البدر فلما رآها قال : ماهذا؟ فقصصت عليه الحديث وأعطيته بدرة فأخذها وانصرف » وذكر محمد بن عبدوس في : « كتاب الوزراء » في أخبار دينار بن عبدالله : أن رسوله لقي أبا حسان في طريقه فقال له : قسمت شيئاً على عيالي فذكرت عيالك فأنفذت اليك عشرة آلاف درهم فأخذها ورجع من الطريق ، وباكره الخراساني فأعطاه إياها كلها لأنه كان أنفق جميع مال الخراساني ثم عاد من غد إلى دينار فعرفه وشكره وعرفه الحديث فقال : فكأنما قضينا دين الخراساني ثم أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام ولا المأمون . وحدثني أبي هذا الحديث في المذاكرة قال : حدثني شيخ ذكره أبي وأنسيته أنا ، عن أبي حسان الزيادي بنحو ما ذكره محمد بن جعفر في حديثه إلا أنه قال فيه : إن الخراساني قال في حديثه لأبي حسان إن رجع الحجاج ولم ترني قد رجعت إليك فاعلم أني قد هلكت والبدرة هبة مني اليك ، وإن رجعت فهي لي ثم يتقارب لفظ الحديثين إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلما رآهم

تنحى عن طريقهم فلما رأوه بطيلسان بادروا إليه وقالوا له : أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسان الزيادى ؟ فقال أنا هو . فقالوا له : أجب أمير المؤمنين ، وحمل فدخل على المأمون فقال له من أنت ؟ قال رجل من أصحاب أبى يوسف القاضى من الفقهاء . قال بأى شىء تكنى ؟ قال : بأبى حسان . قال : بمن تعرف ؟ قال : فقلت بالزيادى . ولست منهم إنما سكنت بينهم فنسبت إليهم . فقال : قصتك فشرحت له خبرى . قال فبكى بكاء شديداً ثم قال ويحك ماتركنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنام الليلة بسببك إذ أتانى فى أول الليل فقال : أغث أبا حسان الزيادى فانتبهت ولم أعرفك ، وأثبت اسمك ونسبك ونمت فأتانى . فقال كمقالته فانتبهت منزعجاً . ثم نمت فأتانى وقال ويحك أغث أبا حسان . فما تجاسرت على النوم وأنا ساهر منذ ذلك الوقت وقد بثثت الناس فى طلبك ثم أعطانى عشرة آلاف درهم فقال هذه للخراسانى . ثم أعطانى عشرة آلاف درهم أخرى فقال اتسع بها ، وأصلح أمرك ، وأعمر دارك واشتر مركبا سريا وثيابا حسنة وعبداً يمشى بين يدى دابتك ، ثم أعطانى ثلاثين ألف درهم فقال جهز بناتك بهذه وزوجهن فاذا كان يوم الموكب فصر إلىّ لأقلدك عملا وأحسن اليك . قال فخرجت والمال محمول معى فجئت إلى مسجدى فصليت الغداة والتفت فاذا الخراسانى فأدخلته إلىّ البيت وأخرجت بدرة فقلت : خذ هذه . فلما رآها قال : ليس هى عين مالى . فقلت : نعم . فقال : ما سبب هذا الأمر ؟ فقصصت عليه القصة فبكى وقال : والله لو صدقتنى فى أول الأمر عن خبرك ما طلبتك بها ، وأما الآن فوالله لا دخل مالى شىء من مال هؤلاء ، وأنت فى حل . وقام فانصرف فأصلحت أمرى وبكرت يوم الموكب إلى باب المأمون فأدخلت عليه وهو جالس جلوساً عاماً فلما مثلت بين يديه استدنانى ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه فقال : هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقية من الجانب الغربى من مدينة السلام ، وقد أجريت عليك فى كل شهر كذا . وكذا . فاتق الله تدم لك عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فعجب الناس من كلامه وسألونى عن معناه فاخبرتهم الخبر فانتشر فما زال أبو حسان قاضى

المدينة الشرقية إلى أن مات فى آخر أيام المأمون .

أخبرنى محمد بن الحسن بن المظفر عن بعض الهاشميين قال : حبس المهدى يعقوب بن دواد وزيره فطال حبسه قال فأتانى آت فى منامى فقال : قل يارفيق ياشفيق أنت ربى الحقيق ادفع عنى الضيق إنك على كل شىء قدير . فما شعرت إلا والأبواب تفتح، فأدخلت على الرشيد فقال : أتانى الذى أتاك فاحمد الله عزوجل وخلى سبيلى . وقد روى هذا الخبر على خلاف هذا بروايات مختلفة قالوا : حدثنا عبد الله بن يعقوب بن داود ، قال : قال لى أبى حبسنى المهدى فى بئر وبنيت عليها قبة فكنت فيها خمس عشرة سنة حتى مضى صدر من خلافة الرشيد وكان يدلى إلىّ فى كل يوم رغيف وكوز ماء وأوذن بأوقات الصلاة فلما كان رأس سنة ثلاث عشرة حجة أتانى آت فى منامى فقال :

حنّ على يوسف رب فأخرجه
من قعر جب وبئر حوله غمم

قال : فحمدت الله تعالى وقلت أتى الفرج . قال : فمكثت حولا آخر لا أرى شيئاً ، فلما كان فى رأس الحول الرابع عشر أتانى ذلك الآتى فقال لى :

عسى فرج يأتى به الله إنه ... له كل يوم فى خليقته أمر

ثم أقمت حولا آخر لا أرى شيئا ، ثم أتانى الآتى بعد الحول فقال لى :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان ... ويأتى أهله الرجل الغريب

قال : فلما أصبحت نوديت فظننت أنى أوذن بالصلاة فدلى إلى حبل وقيل لى شد به وسطك . ففعلت وأخرجونى فلما تأملت الضوء غشى على بصرى فانطلقوا بى إلى الرشيد فقيل لى سلم على أمير المؤمنين . فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدى . قال : لست به . فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادى قال : لست به قلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الرشيد . فقال الرشيد : يا يعقوب بن داود ماشفع فيك أحد . غير أنى حملت الليلة صبية لى

على عنقى فذكرت حملك إياى على عنقك فرثيت لك من المحل الذى كنت فيه وأخرجتك . قال وأكرمنى وقرب مجلسى ثم إن يحيى بن خالد تنكر لى كأنه خاف على أن أغلب على أمير المؤمنين دونه فخفته فاستأذنت فى الحج فأذن لى ، ثم لم يلزل مقيما بمكة حتى مات بها » وجدت فى بعض الكتب أن المهدى استحضر صاحب شرطته ليلا وقد انتبه من منامه فزعاً مرعوباً فقال : ضع يدك على رأسى واحلف بما استحلفك به . فقال : هى تقصر عن رأس أمير المؤمنين ولكن علىّ وعلىّ وحلف بأيمان البيعة انى أمتثل ما تأمرنى به . فقال سر إلى المطمرة واطلب فلاناً العلوى الحسينى فاذا وجدته فأخرجه وخيره بين الإقامة عندنا مطلقاً مكرما محبوراً . أو الخروج إلى أهله فإن أراد الخروج قدمت إليه كذا وكذا ، وإن أراد المقام أعطيته كذا وكذا . وهذه توقيعات بذلك . قال فأخذتها وصرت إلى من أزاح علتى فى الجميع وصرت المطبق فطلبت الفتى فأخرج إلىّ وهو كالشن البالى فعرفته أمر أمير المؤمنين وعرضت عليه الحالين ، فاختار الرجوع إلى أهله بالمدينة فسلمت اليه الصلات والحملان فلما جاء ليمضى قلت له : بالذى فرج عنك هل تعلم مادعا أمير المؤمنين إلى اطلاقك ؟ قال أى والله : كنت الليلة نائما فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى كأنه أيقظنى وقال : « أى بنى ظلموك ؟ قلت : نعم يارسول الله . قال قم فصل ركعتين وقل بعدهما ، ياسابق الفوت ، وياسامع الصوت ، وياناشر العظام ، بعد الموت صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعل لى فرجا ومخرجاً إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب ياأرحم الراحمين . » قال فوالله لقد قمت وفعلت ذلك ومازلت أكررها حتى دعوتنى قال : فحمدت الله عز وجل على توفيق فى مسألته وعدت إلى المهدى وحدثته بالحديث . فقال : ويحك صدقك والله كنت نائما فى فراشى فرأيت فى منامى زنجيًّا بعمود حديد قائما على رأسى يقول لى اطلق فلاناً العلوى الحسينى وإلا قتلتك فانتبهت . فزعا ووالله ماجسرت على العود إلى النوم حتى جئتنى باطلاقه .

* * *

أخبرنى أبو بكر محمد بن يحيى الصولى عن أحمد بن يزيد المهلبى قال : كنا ليلة بين يدى المعتمد فحمل عليه النبيذ فجعل يخفق برأسه نعاساً فقال : لا يبرحن أحد ثم نام مقدار نصف ساعة وانتبه ، وكأنه ماشرب شيئا . فقال : أحضروا الى من الحبس رجلا يعرف بمنصور الجمال . فأحضر فقال له منذ كم أنت محبوس ؟ . فقال منذ ثلاث سنين . قال : فاصدقنى عن خبرك ؟ قال أنا رجل من أهل الموصل كان لى جمل أعمل عليه وأعود بكرائه على أهلى فضاق الكسب على بالموصل ، فقلت أخرج إلى سر من رأى فان العمل ثم أكثر فخرجت فلما قربت منها إذا جماعة من الجند قد ظفروا بقوم يقطعون الطريق وكتب صاحب البريد بعددهم وكانوا عشرة فأعطاهم واحد من العشرة مالا على أن يطلقوه فأطلقوه وأخذونى مكانه وأخذوا جملى فسألتهم بالله عز وجل وعرفتهم خبرى فأبوا ثم حبسونى فمات بعض القوم وأطلق بعضهم وبقيت وحدى . فقال المعتمد : أحضرونى خمسمائة دينار فجاؤا بها . فقال : ادفعوها اليه وأجرى عليه ثلاثين ديناراً فى كل شهر وقال اجعلوا أمر جمالنا اليه . ثم أقبل علينا فقال : رأيت الساعة النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : « يا أحمد وجه الساعة إلى الحبس واخرج منصورا الجمال فإنه مظلوم وأحسن إليه » ففعلت ما رأيتم قال : ثم نام من وقته وانصرفنا . ووقع إلى هذا الخبر بطريق آخر بأتم من هذه الرواية بإسناد غير هذا قال : كان المعتمد مع مع سماحة أخلاقه وكثرة جوده شديد العربدة على ندمائه إذا سكر لا يكاد يسلم له من العربدة مجلس إلا قل . قال : فاشتهى يوماً أن يطبخ الاترج فجمع له شيء كثير مفرط العدة وعبى وحزم بعضه فاطبخ عليه فما ترك شيئا من الخلع والحملانات والصلات إلا عمله ذلك اليوم مع جلسائه وخصنى منه بأوفر نصيب وكان كثير الشرب وكانت علامته إذا أراد ينهض جلساؤه التفت إلى سرير لطيف كان إذا جلس اسند اليه ويشيل برجله كأنه يريد أن يصعد فيقوموا فان كان يريد النوم صعده وإن لم يرد النوم رد رجله إذا قمنا ويتم شربه إما مع الحرم أو الخدم . ولما كان ذلك اليوم جلسنا بحضرته نهارنا أجمع وقطعة من الليل ثم شال رجله فقمنا وانصرف إلى حجرة

موسومة كانت لى ، فلما انتصف الليل إذا بخدم يدقون باب حجرتى فانتبهت مرعوباً فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فقمت وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون . قد مضى يومنا وبعض ليلتنا أحسن مضى ، وقدرت أنى أفلت من عربدته وقد عن له أن يعربد على فاستدعانى لهذا ولم أزل أفكر كيف أشاغله عن العربدة إلى أن صرت بحضرته . فلما رآنى قائماً لم يستجلسنى وقال ياغلام صاحب الشرطة فزدت جزعاً وقلت لم تجر عادته فى العربدة باستدعاء صاحب الشرطة وما هو إلا لبلية احتيل بها على عنده . فأقبلت أنظر اليه واجتهد أن يفاتحنى بكلمة فأداريه بالجواب وهو لا يرفع رأسه من الأرض إلى أن جاء صاحب الشرطة فرفع رأسه وقال : فى حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الجمال أحضرنيه الساعة فمضى ليحضره فسهل على الأمر قليلا ووقفت وهو لا يخاطبنى إلى أن حضر الرجل فقال له المعتمد : من أنت ؟ قال : أنا فلان ابن فلان الجمال . قال : وماقصتك ؟ قال : أنا محبوس ظلماً منذ كذا وكذا . سنة . وذاك انى رجل من أهل الجبل وكان لى جمال أعيش من فضل أجرتها وكان يتقلد نا فلان الأمير فاستدعى إلى الحضرة فأخذ جمالى غصبا يستعين بها فى حمل سواده فتظلمت إليه وضججت فلم ينصفنى وقال إذا صرت بالحضرة رددت جمالك . فخرجت لئلا تذهب جمالى ، أصلا فكنت مع جمالى أخدمها فى الطريق فلما قربت من حلوان سل الأكراد منها جملا محملا فبلغه الخبر فأحضرنى وقال أنت سرقت الجمل بما عليه فقلت غلمانك يعلمون أن الأكراد سلبوه فقال الأكراد إنما جاؤه بمواطأة منك ثم أمر فضربت ضرباً عظيما ، وقيدت وطرحت على بعض جمالى فلما وردت الحضرة أنفذت إلى الحبس وتملك الجمال ولم يكن لى متظلم ولا مذكر فطالت بى المحنة إلى الآن فقال لبعض الخدام امض الساعة إلى فلان يعنى الأمير واقعد على دماغه ولا تبرح أو يرد على هذا جماله أو قيمتها على مايدعى الجمال فإذا قبض فاحمله إلى الخزانة واكسه كسوة حسنة وادفع اليه كذا وكذا دينارا واصرفه إلى شأنه ، ثم فى حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الحداد ؟ قال : نعم قال : هاته الساعة فأحضره فأحضر . فقال : ما قصتك ؟ . فقال أنا رجل حبست بظلم منذ كذا . وكذا

قال : ما كان سبب ذلك فقص عليه قصة طويلة ، فقال لصاحب الشرطة : خل عنه . وقال لخادم آخر : خذه فغير حاله واكسه وادفع اليه كذا وكذا ديناراً . وقال لصاحب الشرطة انصرف ، ثم رفع رأسه وقال يا ابن حمدون : الحمد لله الذى وفقنى لهذا الفعل ففرج عنى . فقلت وكيف تكلف أمير المؤمنين النظر فى هذا بنفسه فى مثل هـــذا الوقت ؟ فقال : ويحك إنى رأيت الساعة رجلا فى منامى يقول فى حبسك رجلان مظلومان يقال لأحدهما فلان بن فلان الجمال ، والآخر فلان بن فلان الحداد . فاطلقهما الساعة وانصفهما من خصومهما وأحسن إليهما فانتبهت مذعورا ثم نمت فما استثقلت حتى رأيت الشخص بعينه . فقال ويلك آمرك أن تطلق رجلين مظلومين فى حبسك قد طال مكثهما وتحسن اليهما فلا تفعل وترجع إلى نومك لصممت أن أوجعك وكان يمد يده إلىّ فقلت يا هـذا : من أنت قال محمد رسول الله . فكأنى قد قبلت يده وقلت يارسول الله : ماعرفتك ولو عرفتك ما تجاسرت على النوم . ولا على تأخير أمرك . فقال : قم فافعل فى أمرهما الساعة ما أمرتك به فانتبهت واستدعيتك لتشاهد مايجرى فقلت هذه عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم واهتمام لأمير المؤمنين بما أصح دينه وثبت ملكه ومنة عظيمة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم فليشكر الله تعالى أمير المؤمنين وليكثر من الصدقة . فقال امض فقد أزعجتك فعدت إلى حجرتى فلما كان من غد عشيا دخلت اليه وهو جالس على الرسم للشرب فأحببت أعرف الجلساء ماجرى ليس هو بذلك ، وكنت أعرف من طبعه أنه يحب الاطراء والمدح ونشر ماهذا سبيله إذا عمل جميلا أكثر من ذكره ويتبجح به وإن كان صغيراً ، فقلت أرى أمير المؤمنين لم يخبر خدمه بما كان من المعجزة البارحة من أمر صاحب الشرطة والجمال والحداد ورؤياه النبى صلى الله عليه وسلم وما أمره به وما تقدم به إلى أمير المؤمنين من إنصافهما والإحسان اليهما . فقال : والله ماأذكر من هذا شيئا وما كنت إلا سكرانا نائما طول ليلتى ماانتبهت . فقلت ياسيدى فتنكر ؟! وقال يا ابن حمدون : اتغالطنى وتخادعنى بالكذب ؟ فقلت أعيذ أمير المؤمنين بالله هذا أمر مشهور فى الدار عند الخدم الخاصة فقال : من

كان حاضراً ؟ قلت : فلان الخادم وفلان صاحب الشرطة واقتصصت القصة وشرحتها فاستدعى الخدم فحدثوه بمثل ذلك فأظهر عجباً شديداً وحلف بالله عز وجل وبالقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأنه نفى من العباس ابن عبد المطلب أنه لم يذكر من هذا كله شيئاً ، ولا يعلم إلا أنه كان نائماً ولا رأى مناما ولا انتبه ولا جلس ولا استدعى أحداً ولا أمر بأمر فما رأيت بأعجب من المنام والحال ولا أظرف من نسيانه .

ووجدته فى بعض الكتب على قريب من هذه الألفاظ إلا أنه ليس فيه حديث الأترج وذكر فيه : أن الجمال كان يسمى نصراً وأن قصته إنه كان من أهل نها وندا وله جمال يكريها فاكترى عامل المعونة منها عشرين جملا وحمل عليهم عشرين رجلا من الأكراد أسرى ليحملهم إلى الحضرة فسار الجمال فهرب فى بعض الطريق واحد من جماله فوقع لصاحب المعونة أن نصرا الجمال هربه فقيده وحمله مكانه فلما دخلوا الحضرة أنفذ الجمال مع القوم إلى الحبس وأخذ صاحب المعونة جماله * وإن قصة الحداد أنه كان رجلا من أهل الشام وكانت له نعمة فزالت عنه فهرب من بلده فاتصلت محنته إلى ان وافى الحضرة طالبا للتصرف فتعذر عليه حتى تلف جوعا فسأل عن عمل يعمله ليلا بيديه ليتوفر نهاراً عن طلب التصرف وينفق من أجرة ما يكسبه ليلا فأرشد إلى حداد يعمل بالليل فقصده فاستأجره بدرهم فى كل ليلة فكان يعمل معه هو وغلام آخر يضربان بالمطرقة فأفسد ذلك الغلام على الحداد نعلا كان يطرقها فاغتاظ عليه فرماه بالنعل الحديد فوقعت على قلبه فتلف فى الحال فهرب الحداد وبقيت أنا فى الموضع متحيراً لا أدرى أين أمضى وأحس الحارس بما أنكره فى الدكان فهجم فوجد الغلام ميتاً ووجدنى قائماً فلم يشك أنى القاتل فقبض على فحبست ثم تتقارب الروايتان * وحدثنى أبو محمد المصلحى قال : حدثنى أبو بكر محمد بن على الماردانى بمصر وكان شيخا جليل عظيم الحال والنعمة والجاه قديم الرياسة والولايات الكبار للأعمال وقد وزر لخمارويه بن أحمد بن طولون وتقلد مصر مرات وعاش نيفاً وتسعين سنة ومات فى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة (قال) : لما كتبت لخمارويه كنت حدثاً فركبتنى الأشغال وقطعتنى ترادف الأعمال عن تصفح أحوال

المتعطلين ، وكان ببابى شيخ من شيوخ الكتاب قد طالت عطلته وقد غفلت عن تصريفه فرأيت ليلة فى منامى أبى وكأنه يقول : ويحك يابنى أما تستحى من الله عز وجل أن تتشاغل بأعمالك والناس ببابك يتلفون ضراً وهزالا هذا فلان من شيوخ الكتاب ، وقد أفضى أمره إلى أن تقطع سراويله وما يمكنه أن يشترى بدلها انظر ان لاتغفل أمره أكثر من هذا . فانتبهت متعجباً واعتقدت الإحسان إلى الشيخ من غد ونمت وأصبحت وقد أنسيت أمره فركبت إلى دار خمارويه وإذا بالرجل على دويبة له ضعيفة ثم أومى إلى الترجل فانكشف فاذا هو لابس خفاً بلا سراويل فحين وقعت عينى عليه ذكرت المنام وقامت قيامتى فوقفت فى موضعى واستدعيته وقلت ياهذا : ماحالك ؟ وماصنعت بنفسك فى ترك أذكارى أمرك ما كان فى الدنيا من يوصل إلى رقعة أو يخاطب فى أمرك الآن قد قلدتك الناحية الفلانيه وعينت لك رزقها وهو فى كل شهر مائتا دينار وأطلقت لك من خزانتى ألف دينار معونة وأمرت لك من الثياب والحملان بكذاوكذا فاقبض ذلك واخرج فان حسن أثرك فى عملك زدتك وفعلت بك وصنعت . قال : وضممت اليه من ينجز له ذلك .

حدثنى أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن البهلول التنوخى قال : خرج أخى أبو محمد الحسن بن يوسف يقصد أخاه أبا يعقوب اسحاق بن يوسف وهو حينئذ بمصر ومعه زوجة كانت لأبى يعقوب ببغداد وصبية منها فلما عاد حدثنى أنه سلك فى قافلة كبيرة من هيت على طريق السماوة يريد دمشق قال : فلما حصلت فى أعماق السماوة أخفرتنا خفراؤنا وجاء قوم من الأعراب ظاهروهم علينا وأظهروا أنهم من غيرهم وقطعوا علينا واستاقوا ركابنا وبقيت أنا والناس مطروحين على الماء الذى كنا نزلنا عليه بلا جمل ولا زاد فأيسنا من الحياة فقلت للناس : إن الموت لابد منه على كل حال أقنا فى مكاننا أو سرنا ، ولأن نسير فى طلب الخلاص فلعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا ويخلصنا أولى من أن نموت ها هنا ، وإن متنا فى سيرنا كان أعذر فساعدونى وسرنا يومنا وليلتنا وأنا أحمل الصبية بنت أخى لأن أمها عجزت

عن حملها ولما طال الطريق ولم نر محجة ولا إنساناً أحسسنا بالهلاك ومات منا قوم (قال) : وأنا فى خلال ذلك قد بدأت بختمة وأنا متشاغل بها وبالدعاء إلى أن وقعنا فى اليوم الثالث على حلة اعراب فأنكرونا فلم أعمل أنا عملا حتى ولجت بيت امرأة منهم وأمسكت ذيلها وكنت سمعت أن هذا إذا عمله الإنسان فهو آمن من شرهم وقد وجب حقه عليهم قال فتفرقنا فى بيوتهم ، واختلف أحوال الناس فأما أنا فإن صاحب البيت الذى أنزلت عليه لما رأى هيبتى ودرسى للقرآن وأنى لم أزل أحادثه وأرفق به قال لى : ما تشاء؟ قلت تركبنى وهذه المرأة وهذه الطفلة راحلة لك وتسير معى إلى دمشق حتى أعطيك ثمن راحلتك واهبها لك وأقضى حقك بعد هذا فتذمم واستحيا وقدرت أنى إذا دخلت إلى دمشق وجدت بها من أصدقاء أخى من آخذ منه ماأريده . فكسانى الأعرابى وكسا المرأة والصبية ووطأ لى راحلة ولهما راحلة وحمل معنا من الزاد والماء مايكفينا وركب معنا راحلة وكان أكثر من وصل معنا إلى ذلك الموضع قد تأتى له مثل ما تأتى لى قال فسرنا ونحن رفقة صالحة العدد فلما كان بعد أيام شارفنا دمشق مع طلوع الشمس فاذا أهلها قد طلعوا يستقبلون الناس ، وكل من له صديق أو معرفة يسأل عنه وقد بلغهم خبر القطع فماشعرت إلا وإنسان يسأل عن كنيتى ونسبتى فقلت ها أنا ذا فعدل إلى فقال : أنت أبو محمد بن الأزرق الانبارى ؟ قلت : نعم . فقام إلى فأخذ بخطام راحلتى وتبعنى الاعرابى برواحله حتى دخلنامع الرجل إلى دمشق فجاء بنا إلى دار حسنة تدل على نعمة حسنة فأنزلنا فلم أشك فى أنه صديق لأخى فنزلت والأعرابى، وأخذت جمالنا، وأدخلنا الحمام . والبسنا خلعة نظيفة وفعل بالمرأة والصبية كذلك وأقمت يومى وغده فى خفض عيش لاأسأله عن شىء ولايسألنى . فلما كان فى اليوم الثالث قال لى : ماصورة هذا الاعرابى فأخبرته بما أخذنا منه . فقال خذ ماتريد من الدنانير فقلت كذا وكذا ديناراً فأعطانيها فدفعتها إلى الإعرابى وسلمت اليه الجمال . وسألت الرجل أن يزوده زاداً لايكون مثله فى البادية فأخرج له شيئاً كثيراً وخرج الاعرابى شاكراً . فقال الرجل : أين تريد الآن من البلاد وكم يكفيك من النفقة ،

فلما قال لى ذلك ارتبت به وقلت لو كان هذا من أصدقاء أخى الذين كاتبهم بتفقدى لكان قد علم مقصدى فقلت له كم كاتبك أخى أن تعطينى ؟ قال : ومن أخوك ؟ فقلت : أبو يعقوب بن الأزرق الكاتب الانبارى المقيم بمصر . قال والله ما سمعت باسم هذا الرجل قط ولا أعرفه ، فورد على أعجب مورد فقلت : ياهذا إنى ظننتك صديقاً له وإن ماعاملتنى به من الجميل بسببه فانبسطت اليك بالطلب ولو لم أعتقد هذا لانقبضت فما السبب فيما عاملتنى به قال أمر هو أوكد من أمر أخيك يجب أن يكون انبساطك به أتم . فقلت ما هو ؟ قال : ان خبر الوقعة بالقافلة التى كنت فيها بلغنا فى يوم كذا وكذا فما بقى بدمشق أحد إلا وردت عليه مصيبة عظيمة إما بذهاب مال ، أو بغم على صديق غيرى فانه لم يكن لى بشىء من ذلك تعلق واستعد الناس للخروج إلى تلق المنقطعين وإصلاح أحوالهم ، ولم أعزم أنا ، فلما كان فى الليل رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى ، وكأنه يقول لى : أدرك أبا محمد بن الأزرق الأنبارى فأغثه وأصلح شأنه بما يبلغه مقصده ، فلما أصبحت خرجت مع الناس اسأل عنك ، فكان مارأيت فهات فاذكر الآن ماتريده . قال : فبكيت بكاء شديداً لم أقدر معه على خطابه مدة ، ثم نظرت ما يبلغنى مصر فطلبته منه وأخذته وأصلحت أمرى وسألت الرجل عما يعرف به ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان الصابونى . ذكره أبو محمد وأنسيه أبو الحسن . فلما بلغت إلى مصر حدثت أخى بالحديث فتعجب منه وبكى . وقال أبو الحسن : وضرب الدهر من ضربه ، وورد أخى أبو محمد إلى بغداد بعد سنين كثيرة فتذاكرنا هذا الحديث . فقال لى : لما عرفنى أخى أبو محمد ما عامله به ابن الصابونى الدمشقى جعلته صديقاً وكنت أكاتبه فلما وردت إلى دمشق وجدت حال الرجل قد اختلفت بمحن لحقته فوهبت له ضيعتى بدمشق وكانت جليلة الغلة والقيمة وسلمتها اليه مكافأة على مافعل وعامل به أخى أبامحمد .

قال محمد بن عبدوس فى : «كتاب الوزراء» حدثنى الحسين بن على الباطقائى ، قال : حدثنى أبى ، قال : قال أحمد بن المدبر : لما أمر محمد بن عبد الملك بحبسى ادخلت محبسا فيه أحمد بن اسرائيل وسليمان بن وهب ،

وهما يطالبان قال : فجعلت فى بيت ثالث وكنا نتحدث ونأكل جميعا ، وربما أدخل الينا النبيذ فنشرب ، وكان أحمد بن اسرائيل شديد الجبن ، وكان ينكر علينا و يمنعنا أن نتحدث بشيء أونرجو لأنفسنا فجاءنى يوماً سليمان بن وهب فقال : رأيت البارحة فى نومى كأن قائلا يقول لى : يموت الواثق إلى ثلاثين ليلة ، فقم بنا إلى أبى جعفر حتى نحدثه . فقلت : والله لئن سمع أبو جعفر هذا ليشقن ثوبه وليسدن أذنه . فقال لى قم على كل حال فقمنا فدخلنا عليه فأخبره سليمان بالخبر فقال يا هذا : أنت أحسن الناس وأشدهم تحننا على نفسك وعلينا ، وإنما تريد أن يشيع هنا فنقتل . فقال له : فتكتب هذه الرؤيا عندك لنمتحن صدقها ، فنفر ، وقال : أنا لا أكتب مثل هذا . فكتبت أنا فى رقعة صغيرة اليوم . فلما جاز يوم الثلاثين دخل إلى أحمد بن اسرائيل فقال لى : يا أبا الحسن هذا يوم الثلاثين . فأخرجت الرقعة فاذا هو قد حفظ اليوم قال : ومضى يومنا إلى آخره فلما كان فى الليل لم نشعر بالباب إلا وقد دق دقاً شديداً ، وصاح بنا صائح : البشرى قد مات الواثق واخرجوا . فقال أحمد : قوموا بنا فقد حقق الله الرؤيا وأتى بالفرج . فقال سليمان بن وهب : كيف نمشى مع بعد منازلنا ، ولكن نوجه من يجيئنا بما نركب فاغتاظ أحمد ابن اسرائيل وقال : نعم نقعد حتى يجلس خليفة آخر ، ويقال له فى الحبس جماعة من الكتاب عليهم أموال فيأمر بالتوثق بنا إلى أن ينظر فى أمرنا قم عافاك الله تعالى حتى نخرج . فخرج وخرجنا على أثره فقبل أن نخرج من باب الهادونى ، رأينا رجلين يقول أحدهما لصاحبه : سئل أمير المؤمنين جعفر عمن فى الحبس فقيل له جماعة من الكتاب ، فقال : يكونون فيه إلى أن ينظر فى أمورهم فجدينا فى السير وقصدنا غير منازلنا فاستترنا وبحثنا عن الأخبار ، فبلغنا إقرار الخليفة محمد بن عبد الملك فكتبت اليه رقعة عن جماعتنا نعرفه خبرنا واتساع آمالنا ونستأذن فيما نفعل ، فلما وصلت اليه وقع على ظهرها ، ولم استخفيتم وليس منكم إلا من عنايتى تخصه ورأيى فيه جميل أما أبو أيوب فقد تكلم فى أمره أبو منصور إيتاخ واستوهبه فوهبته له ، وأمرت بإحضاره ليخلع عليه فليحضر ، وأما أبو جعفر فإنه طولب بما ليس

يلزمه وقد وضحت حجته فى بطلانه فليصر إلى ، وأما أبو الحسن فإنه قذف بباطل فأظهروا جميعاً واثقين بما عندى من حياطتكم ورعاية حرماتكم فصرنا اليه جميعاً وزال عنا ما كنا فيه وخلع على سليمان بن وهب خاصة ، قال : وفى هذه الحبسة كتب سليمان بن وهب إلى أخيه الحسن بن وهب فيما حكاه محمد بن داود :

هل رسول وكيف لى برسول ... إن ليلى إن نمت حد طويل
هل رسول إلى أخى وشقيقى ... ليت أنى مكان ذاك الرسول
يا أخى لو ترى مكانى فى الحبـ ... ـس وحالى وزفرتى وعويلى
وعثارى إذا أردت قياماً ... وقعوداً فى مثقلات الكبول
لرأيت الذى يغمك فى الاعـ ... ـداء إذ يسلكوا جميعاً سبيلى
هذه جملة أرانى غنياً ... معها عن أداك بالتفصيل
ولعل الإله يأتى بصنع ... وخلاص وفرجة عن قليل

وذكر أبياتاً أخر تماماً لهذه الأبيات لم أذكرها لأنها ليست من هذا المعنى ثم قال : وقد ذكر محمد بن داود فى كتابه المسمى : « كتاب الوزراء » من أمر خروج سليمان بن وهب من حبس الواثق غير هذا وتركت ذكره وإعادته * حدثنى على بن محمد الأنصارى الخطمى ، قال : حدثنى أبو عبدالله الحسن بن محمد السمرى كاتب الديوان بالبصرة قال : كان أبو محمد المهلبى فى وزارته قد قبض على بالبصرة وطالبنى فأطال حبسى حتى آيست من الفرج فرأيت ليلة فى المنام كأن قائلا يقول : اطلب من ابن الزاهبونى دفتراً قديماً خلقا عنده على ظهره دعاء فادع الله به فإنه عز وجل يفرج عنك . قال : فكان ابن الزاهبونى صديقاً لى من أهل نشاة واسط وهو بالبصرة فلما كان من غد قلت له : عندك دفتر على ظهره دعاء ؟ فقال : نعم . فقلت فجئنى به ، فرأيت على ظهره مكتوبا : « اللهم أنت أنت انقطع الرجاء إلا منك ، وخابت الآمال إلا فيك ، صل على محمد وعلى آل محمد ، ولا تقطع اللهم رجائى ولا رجاء من يرجوك فى شرق الأرض وغربها ،

ياقريباً غير بعيد ، ياشاهداً لا يغيب ، وياغالباً غير مغلوب ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وارقنى رزقاً واسعاً من حيث لا أحتسب إنك على كل شىء قدير . قال : فواصلت الدعاء بذلك فامضت إلا مدة يسيرة حتى وجه المهلبى فأخرجنى من الحبس وقلدنى الاشراف على أحمد بن محمد الطويل فى أعماله بأسافل الأهواز .

حـــدثنى أبو الربيع سليمان بن داود وكانت جدته تعرف بشمسة قهرمانة كانت فى دار القاضى أبى عمرو محمد بن يوسف رحمه الله قال : كان فى جوار القاضى قديماً رجل انتشرت عنه حكاية وظهر فى يده مال جليـل بعد فقر طويل وكنت أسمع أن أباعمرو حماه من السلطان فسألت عن الحكاية فدافعنى طويلا ثم حدثنى فقال : ورثت عن أبى مالا جليـلا فأسرفت فيه وأتلفته حتى أفضيت إلى بيع أبواب دارى وسقوفها ، ولم يبق لى فى الدنيا حيلة وبقيت مـدة لاقوت لى إلا من بيع أمى لمـا تغزله وتطعمنى ونفسها منه فتمنيت الموت فرأيت ليلة فى منامى كأن قائلا يقول لى غناك بمصر فاخرج إليها فبكرت إلى أبى عمرو القاضى وتوسلت اليه بالجوار والخدمة التى كانت من أبى لأبيه وسألته أن يزودنى كتاباً إلى مصر لأتصرف بها ففعل وخرجت فلما حصلت مصراً وصلت الكتاب وسألت التصرف فسد الله على التصرف حتى لم أظفر بتصرف ولالاح لى شغل ، ونفذت نفقتى فبقيت متحيراً وفكرت فى أن أسأل الناس وأمد يدى إلى الطريق فلم تسمح نفسى بذلك فقلت أخرج ليلا وأسأل الناس بين العشاءين فما زلت أمشى فى الطريق وتأبى نفسى المسألة ويحملنى الجوع عليها وأنا ممتنع إلى أن مضى من الليل نصفه فلقينى الطائف فقبض على فوجدنى غريباً فأنكر حالى فسألنى فقلت رجل غريب ضعيف فلم يصدقنى وبطحنى وضربنى مقارع فصحت وقلت له أنا أصدق فقال هات فقصصت عليـه قصتى من أولها وحديث المنام فقال لى : أنت رجل ما رأيت أحمق منك والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة فى النوم كأن قائلا يقول لى ببغداد بالشارع الفلانى بالمحلة الفلانية ـ قال ـ فذكر شارعى ومحلتى فسكت

وأصغيت وأتم الشرطي الحديث فقال : دار يقال لها دار فلان فذكر داري واسمي وفيها بستان فيه سدرة تحتها مدفون ثلاثون ألف دينار فامض فخذها فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت إليه وأنت أحمق فارقت وطنك وأهلك وجئت إلى مصر بسبب منام قال : فقوي قلبي بذلك وأطلقني الطائف فبت في مسجد وخرجت في غد من مصر وقدمت بغداد فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدت فيها قمقماً فيه ثلاثون ألف دينار ، فأخذتها ودبرت أمري فأنا أعيش من تلك الدنانير ، وكلما ابتعته منها من ضيعة وعقار إلى الآن .

وجدت في كتاب أبي الفرج عبد الواحد المخزومي الخبطي ، عن علي ابن العباس النحو بختي قال : حدثني أحمد بن عبد الله التغلبي قال : كان من بقايا شيوخ خراسان ممن يلزم دار العامة بسر من رأى شيخ يكنى أبا عصمة وكان يحدثنا كثيراً بأخبار الدولة وأهلها فحدثنا أن خزيمة ابن حازم كان يجلس في داره للناس في كل يوم ثلاثاً فلا يحجب عنه أحد ولا يستأذن لمن يحضره إنما يدخلون إرسالا بغير إذن فمن كان من أشراف الناس ووجوههم سلم وانصرف ، ومن كان من طلاب الحوائج أو خطاب التصرف دفع رقعة إلى الحاجب ، وكان قد أفرد لهذا كاتباً حصيفاً يقال له الحسن بن سلمة يتصفح الرقاع قبل عرضها عليه فما كان يجوز أن يوقع فيه عنه وقع وسلمه إلى أربابه ، وما كان لابد من وقوفه عليه وتوقيعه فيه بخطه عرضه عليه ، وما كان من زائر ومسترفد عرضه عليه رقعته فيكون هو الموقع فيها بما يراه . ولا يكاد أن ينصرف أحد من هذا الجمع العظيم المفرط إلا وهو مسرور بقضاء حاجته . قال أبو عصمة وكان ممن يتصرف في الأعمال رجل من العرب له لسان وفصاحة يقال له حامد بن عمرو الحراني ، وكان فيه إلحاح شديد وملازمة تامة إذا تعطل فيؤذي بذلك ويبرم ولا يقنع بذلك حتى يلازم بابه في كل يوم ، وإذا ركب خاطبه على الطريق وربما تعرض له في دار الخليفة فيخاطبه ولم يكن في طبع خزيمة الاحتمال لمثل هذا . قال أبو عصمة فحدثني

الحسن بن سلمة كاتب خزيمة قال : نظر خزيمة يوما إلى هذا الرجل فى داره وكان لقيه وخاطبه قبل ذلك بيوم وأضجره ووافق من خزيمة ضجرا بشىء حدث من أمور المملكة مع مافيه من الجبروتية والكبر فحين خاطبه الرجل صاح فيه وأمر بإخراجه من داره إخراجا عنيفاً ثم دعانى فقال : والله لئن دخل هذا الرجل دارى لأضربن عنقه فأخبره بذلك وحذره ، وتقدم إلى البوابين والحجاب بذلك . وكان خزيمة إذا وعد أو توعد فليس إلا الوفاء فخرجت إلى البوابين والحجاب وأصحاب المقارع فبالغت فى تحذيرهم وعرفتهم ماقال وأنه حلف أن يضرب أعناقهم وأكدت القصة والوصية بجهدى مستظهرا لنفسى ومضيت خارج الدار فإذا الرجل واقفا فأعلمته أن دمه مرتهن بنظرة ينظرها إليه خزيمة فى دار السلطان ، أو على بابه أو فى بعض الطريق وحذرته تحذيراً شديدا ، وخوفته بالله عز وجل فى دمه أن لا يجعل على نفسه سبيلا فشكرنى على تحذيره وانصرف كئيبًا . فلما أصبحنا من غد غدوة إلى دار خزيمة على رسمى فى الملازمة فلما دنوت من الباب إذا بالرجل واقفاً كما كان يقف منتظرا لركوبه فعظم ذلك على فقلت ياهذا : أما تخاف الله عز وجل أتحب أن تقتل نفسك ، أما تعرف الرجل ؟ فقال : والله ماأتيت هذا الرجل جهلا منى ولا اغتراراً بل أتيته على أصل قوى وسبب وثيق وسترى من لطف الله عز وجل مايسرك وتعجب منه . قال الحسن بن سلمة فزاد عجبى منه ودخلت الدار فصادفت خزيمة فى صحن الدار يريد الركوب فحين نظر إلى قال لى مافعل حامد بن عمرو ؟ قلت رأيته الساعة بالباب وقد تهددته فلما رأيته اليوم بالباب تعجبت من جهله وعوده مع ما أعذرت اليه من الوعيد وأمرته بالانصراف فأجابنى بجواب لاأدرى ماهو فأنا برىء من فعله . فقال : بأى شىء أجابك ؟ فأخبرته فسكت خزيمة وخرج فركب فحين رآه ترجل له حامد فصاح خزيمة لاتفعل والحقنى إلى دار أمير المؤمنين قال وسرنا ودخل إلى دار أمير المؤمنين الرشيد ودخلنا معه إلى حيث جرت عادتنا أن نبلغه معه من الدار فجلسنا فيه ومضى خزيمة يريد دار الخليفة وجاء حامد فجلس

إلى فقلت : أصدقنى عن خبرك والسبب فى جسارتك على خزيمة ولينه لك بعد الغلظة وعرفته ماجرى بينى وبين خزيمة ثانياً فقال : طب نفسا فما أبدى الك شيئا إلا بعد بلوغ الأمر. فبينما نحن كذلك إذ دعى بحامد بن عمرو وأدخل إلى حيث كان بأن موسوما يدخل اليه من يخلع عليه فتحيرت فلم يكن بأسرع من أن خرج وعليه خلع الخليفة ، وبين يديه لواء عقده له وقد ولى طريق الفرات بأسره . فقمت اليه وهنأته وقلت له : ولاالساعة تخبرنى الخبر ؟ فقال مافات شيء وودعنى ومضى وأقمت بمكانى إلى أن خرج خزيمة فسرت معه إلى داره فلما استقر فيها دعانى فسألنى عن أمور من خدمته ثم قال : أظنك قد أنكرت ماجرى فى أمر حامد بن عمرو ؟ قلت أى والله أيها الأمير . قال فاسمع الخبر : إعلم انى كنت فى نهاية الغيظ عليه فأمرت فيه بما أمرت فلما كان البارحة رأيت فيما يرى النائم كأنه قائم يصلى ورفع يديه إلى الله عز وجل يدعو على فكأنه قد وقع فى نفسى أنه يريد أن يدعو على قال: فصحت به لاتفعل وادن منى فانفتل من صلاته فجاء فوقف بين يدى فقلت له ماحملك على أن تدعو على ؟ فقال لأنك أهنتنى واستخففت بى وأخرجتنى من دارك ذليلا آيساً وأشمت بى أعدائى ووعدتنى بالقتل ظلما ، وقطعت أملى فى طلب رزقى وقوتى ، فأنا أشكوك إلى الله عز وجل ، واستعينه عليك فكأنى أقول له طب نفساً ولاتدع على وإنى أحسن اليك غداً وأوليك عملا واستعطفته . فعجبت من المنام ، وعلمت أنى ظلمت الرجل وقلت فى نفسى شيخ من العرب وله سن وشرف أسأت اليه بغير جرم، وأرعبته وماذا على إذا لح فى طلب الرزق ، وعلمت أن المنام موعظة فى أمره وحث على حفظ النعم ولا أنفرها بقلة الشكر واستعمال الظلم واعتقدت أن أوليه كما وعدته فى المنام فكان ما رأيت . قال الحسن بن سلمة : فصوبت رأيه فى هذا ودعوت وانصرفت فجاءنى من العشى حامد بن عمرو مسلماً ومودعا ليخرج إلى عمله فقلت : هات الآن خبرك ؟ قال : نعم انصرفت من باب خزيمة موجع القلب قلقاً مرتاعا فأخبرت عيالى بما جرى فكأنه فى دارى مأتم عظيم ، ولم أطعم أنا ولا عيالى

يومى وليلتى طعاما وأمسيت على ذلك ، فلما هدأت العيون توضأت واستقبلت القبلة وصليت ماشاء الله وتضرعت اليه عز وجل ودعوته بإخلاص طوية وصدق نية وأطلت فحملتنى عينى وأنا ساجد فى القبلة فرأيت فى منامى كأنى على حالى فى الصلاة والدعاء وكأن خزيمة بن حازم قد وقف على وأنا أدعو فصاح بى لا تفعل، وعد إلى فإنى أحسن اليك وأوليك. فانتهت مذعوراً ، وقد قويت نفسى فقلت أبكر اليه فلعل الله عز وجل أن يطرح فى قلبه الرقة لى . فغدوت إليه فكان مارأيت فقال الحسن : فكثر تعجبى لاتفاق المنامين وقلت لحامد لقد أخبرنى الأمير بمثل هذا لم يخرم منه حرفاً . وبكرت إلى خزيمة وحدثته الحديث وأحضر حامداً حتى سمع ذلك منه فعجب منه وأمر له بصلة وكسوة وحملان ولم يزل بعد ذلك متعهداً إكرامه ولا يتعطل . ويقارب هذا الحديث حديثان : أحدهما حدثنى به غير واحد من أهل بغداد أن عطاراً من أهل الكرخ بها كان مشهوراً بالستر والأمانة فارتكبه دين وقام عن دكانه ولزم بيته مستتراً وأقبل على الدعاء والصلاة إلى أن صلى ليلة جمعة صلاة كثيرة ودعا ونام . قال : فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى وهو يقول اقصد على ابن عيسى وكان إذ ذاك وزيراً فقد أمرته لك بأربعمائة دينار فخذها وأصلح بها أمرك . قال : وكان على ستمائة دينار، فلما كان من غد قلت : قال النبى صلى الله وسلم: «من رآنى فى منامه فقد رآنى حقاً فان الشيطان لا يتمثل بى» فلم لا أقصد الوزير قال : فقصدته فلما صرت ببابه منعت من الوصول اليه فجلست إلى أن ضاق صدرى وهممت بالانصراف فخرج الشافعى صاحبه وكان يعرفنى معرفة ضعيفة ، فأخبرته الخبر فقال ياهذا : الوزير والله فى طلبك منذ السحر إلى الآن، وقد سألنى عنك فأنسيتك وما عرفك أحد والرسل مبثوثة فى طلبك فكن بمكانك ورجع ودخل فما كان بأسرع من أن دعا بى فدخلت على على ابن عيسى فقال : ما اسمك ؟ فقلت فلان بن فلان . قال من أهل الكرخ ؟ قلت : نعم . فقال ياهذا أحسن الله جزاءك فى قصدك إياى فو الله ماتهنأت بالعيش منذ البارحة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنى البارحة

فى منامى فقال لى: أعط فلان بن فلان العطار بالكرخ أربعمائة دينار يصلح بها شأنه فكنت اليوم طول نهارى فى طلبك وما عرفك أحد. فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى البارحة فى منامى فقال لى كيت كيت. قال فبكى على بن عيسى وقال أرجو أن تكون هذه عناية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بى. ثم قال: هاتوا ألف دينار فجاء بها عيناً فقال خذ أربعمائة دينار امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وستمائة دينار هبة منى لك: فقلت ما أحب أن ازداد على عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنى أرجوا البركة فيه لا فيما عداه. فبكى على بن عيسى وقال: هذه ألف دينار فخذ ما بدا لك. فأخذت أربعمائة دينار وانصرفت فقصصت قصتى على صديق لى وأريته الدنانير وسألته أن يقصد غرمائى ويخبرهم ويتوسط بينى وبينهم ففعل ذلك فقالوا: نؤخر بالمال ثلاث سنين فليفتح دكانه فقلت لأولئك تأخذون منى الثلث فى كل سنة فأعطيتهم مائتى دينار وفتحت دكانى بالمائتى الباقية فما حال الحول إلا ومعى ألف دينار، فقضيت دينى كله وما زال مالى يزيد وحالى يصلح إلى الآن ه والآخر حدثنى به أبو الحسن على بن يوسف الأزرق التنوخى، قال: حدثنى أبو القاسم بن ماجور المنجم، قال: حججت فرأيت عند طاهر ابن يحيى العلوى بالمدينة رجلا خراسانياً كان يحج فى كل سنة فإذا دخل المدينة جاء إلى طاهر بن يحيى فأعطاه مائتى دينار من ماله كانت كالجراية له منه. فلما كان سنة قبل ذلك جاء يريد داره ليعطيه المال فاعترضه رجل من أهل المدينة فسب عنده طاهراً وقال: تضيع دنانيرك التى تدفعها إليه وهذا يأخذ منك ومن غيرك فيصرفه فيما يكرهه الله عز وجل فيفعل ويصنع؟ وتكلم فيه بكل قبيح قال الخراسانى: فلما سمعت ذلك عرضت نفسى عن دفع شىء اليه وتصدقت بالدنانير وخرجت من المدينة فلم ألقه، فلما كان فى العام الثانى دخلت المدينة فتصدقت بما كنت أريد أن أتصدق به وطويت طاهراً فلم أمض اليه، فلما كان فى العام الثالث تأهبت للحج فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى وهو يقول: ويحك قبلت فى ابنى طاهر بن يحيى

قول أعدائه ، وقطعت عنه ما كنت تبره به ؟! لا تفعل واقصده بما فاته ولا تقطعه عنه ما استطعت . قال : فانتبهت فزعا ونويت ذلك وأخذت صرة فجعلت فيها ستمائة دينار وحملتها معى فلما صرت بالمدينة بدأت بدار طاهر فدخلت وجلست ومجلسه حافل ، فلما رآنى قال يا أبا فلان : لولم يبعث بك الينا ما جئت فتغافلت عنه . وقلت : مامعنى هذا الكلام أصلحك الله ؟ قال قبلت فى قول عدو الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وعدوى ،وقطعت عادتك حتى لامك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامك ، وأمرك أن تعطينى الستمائة دينار هاتها ، ومد يده إلى فتداخلنى من الدهش ماذهلت معه . فقلت : أصلحك الله هكذا والله كانت القضية فما علمك بذلك؟ قال : إنه بلغنى خبر دخولك المدينة فى السنة الأولى فلما خرج الحاج ولم تجئنى أثر ذلك فى حالى . وسألت عن القضيـة فعرفت أن بعض أعدائنا لقيك فسبنى عندك فآلمنى ذلك . فلما كان فى الحول الثانى بلغنى دخولك وأنك قد عملت على قوله فى فازداد بذلك غمى ، فلما كان منذ شهور ازدادت إضاقتى وامتنع النوم على غما بما دفعت اليه ففزعت إلى الصـــلاة فصليت ماقضى لى ودعوت الله سبحانه وتعالى بالفرج مما أنا فيه ، ونمت فى المحراب ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى وهو يقول : لاتغتم فقد لقيت فلاناً الخراسانى وعاتبته على قبوله فيك قول أعدائك ، وأمرته أن يحمل اليك مافاتك لسنتين ، ولا يقطع عنك بعدها ما استطاع . فحمدت الله عزوجل وشكرته فلما رأيتك الآن علمت أن المنام جاء بك . فأخرجت الصرة التى فيها ستمائة دينار فدفعتها اليه وقبلت رأسه وبين عينيه وسألته أن يجعلنى فى حل من قبول قول ذلك الرجل فيه .

* *

حدثنى أبو محمد يحى بن محمد بن سليمان بن فهد الأزدى الموصلى قال : كانت فى شارع دار الرقيق ببغداد جارية علوية أقامت مزمنة نحو خمس عشرة سنة وكان أبى أيام نزولنا من هذا الشارع فى دار شفيع المقتدرى التى كان اشتراها يتفقدها ويبرها ، وكانت مسجاة لا تنقلب من جنب إلى جنب حتى تقلب ، ولا تقعد حتى تقعد ، وكان لها من يخدمها فى ذلك وكانت فقيرة

لا قوت لها هى وخادمتها إلا مما تبرها الناس ، فلما مات أبى اختل أمرها ، وبلغ تجنى جارية الوزير المهلبى خبرها فكانت تقوم بأمرها ، وأجرت عليها جراية فى كل شهر وكسوة فى كل سنة . قال فباتت ليلة من الليالى على حالها تلك . ثم أصبحت من غد وقد برئت ، ومشت ، وقامت . وقعدت ، وكنت مجاوراً لها فكنت أرى الناس يتناوبون باب دارها فأنفذت امرأة من دارى ثقة تعرفها حتى شاهدتها وسمعتها تقول : إنى ضجرت من نفسى ضجراً شديداً ، فدعوت الله عزوجل طويلا بالفرج مما أنا فيه أو بالموت ، وبكيت بكاء متصلا وبت وأنا قلقة متألمة ضجرة وكان سبب ذلك : أن الخادمة تضجرت وخاطبتنى بما ضاق منه صدرى فلما استثقلت فى نومى دخل على رجل فارتعدت منه وقلت : ياهذا كيف تستحل أن ترانى ؟ فقال أنا أبوك فظننته أمير المؤمنين . فقلت : يا أمير المؤمنين ماترى ما أنا فيه ؟ فقال : أنا أبوك محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكيت ، وقلت يارسول الله : ادع لى بالعافية . قال فحرك شفتيه بشىء لم أفهمه ثم قال : هاتى يديك فأعطيته يدى ، فأخذها وجذبنى بهما فقمت . فقال لى : امشى على اسم الله تعالى . فقلت : كيف أمشى ؟ فقال : يديك فأخذهما وما زال يمشى وهما فى يديه ساعة . ثم أجلسنى حتى فعل بى ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : قد وهب الله عزوجل لك العافية فاحمديه واتقيه ، وتركنى ومضى . فانتبهت وأنا لاأشك أنه واقف لسرعة المنام . فصحت فظنت الجارية أنى أريد البول فتثاقلت . فقلت : ويحك اسرجى السراج فانى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم . فانتبهت المرأة فوجدتنى مسجاة فشرحت لها المنام . فقالت : أرجو أن يكون الله عز وجل قد وهب لك العافية هاتى يديك فأعطيتها يدى فأجلستنى . ثم قالت لى : قومى فقمت معها ومشيت متوكئة عليها ثم جلست وفعلت ذلك ثلاث مرات . الأخيرة منهن مشيت وحدى فصاحت الخادمة سروراً بالحال وإعظاما لها فقد الجيران أنى قدمت فجاؤنى فقمت ومشيت معهم . قال أبو محمد : وما زالت قوتها تزيد إلى أن رأيتها قد جاءت إلى والدتى فى خف وإزار بعد أيام ولا قلبة بها فبررتها وهى باقية وهى من أصلح النساء . وأورعهن

من أهل زماننا ، وقد زوجت من رجل علوى موسر وصلحت حالها ولا تعرف الآن إلا بالعلوية المزمنة ، ومضى على هذا الحديث شهور كثيرة فجرى بينى وبين أبى بكر محمد بن عبد الرحمن بن فريعة مذاكرة بالمنامات فحدثنى بحديث منام هذه العلوية وقصتها وعلتها على ماحدثنى به أبو محمد بن فهد ، قال : قال لى أبو بكر : أنا كنت أحمل اليها جرايتها من عند تجنى جارية الوزير أبى محمد المهلبى وكسوتها على طول السنين . وسمعت منها هذا المنام ورأيتها تمشى بعد ذلك صحيحة بلا قلبة وتجى إلى تجنى وتجنى زوجتها من العلوى ، وأعطتنى مالا قمت منه بتجهيزها وأمرها حتى اعرس بها زوجها . وهى الآن من خيار النساء .

قال مؤلف هذا الكتاب : وحدثنى بهذا الحديث جماعة أسكن اليهم من أهل الشارع دار الرقيق بخبر هذه العلوية على مثل هذا وهى باقية إلى الآن وآخر معرفتى بخبرها فى سنة ثلاث وسبعين وثلثماية ولا تعرف الآن إلا بالعلوية الزمنى * حدثنى أبو محمد يحيى بن فهد الأزدى الموصلى ، قال : سمعت أبا القاسم السعدى يحدث أبى رحمه الله قال : كنت وأنا حدث السن مشغوفاً بغلام لى شغفاً شديداً وكنت منهمكا على الفساد ، وكان ربما هجرنى فأترضاه بكل ما أقدر عليه حتى يرضى (قال) : وانه غضب على مرة غضباً شديداً وهرب واستتر عنى حتى لحقنى من الحيرة والوله ماقطعنى عن النظر فى أمرى ، واجتهدت فى صرف ذلك عنى فلم ينصرف ، وحضر وقت خروج الناس إلى الحائر على ساكنه أفضل الصلاة والسلام فكتبت رقعة أسأل الله الفرج مما أنا فيه ودفعتها إلى بعض من خرج وسألته أن يدفعها فى ناحية من القبر وأتت ليلة النصف من شعبان ففزعت إلى الله عز وجل فى كشف ما بى ، وصليت ودعوت ، ثم غلبنى النوم فرأيت فى منامى كأننى فى مقابر قريش والناس مجتمعون فيها إذ قيل جاء الحسين بن على ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم للزيارة فتشوقت لرؤيتهما ، فاذا بالحسين رضى الله عنه فى صورة كهل ، وعليه دراعة وعمامة ومعه فاطمة عليهما السلام متنقبة بنقاب بياض ، فاعترضت الحسين رضى الله عنه وقلت له يا ابن رسول الله : كتبت

اليك رقعة فى حاجة لى أسألك فان رأيت ان تعمل فيها . فلم يجبنى ودخل القبة بالمدفن ودخلت فاطمة وكأن قوما قد وقفوا يمنعون الناس من الدخول اليهما . فلم أزل أتوصل إلى أن دخلت . فأعدت الخطاب عليه فلم يجبنى ، فقلت ياسيدة : إنى رأيت على أن تعملى فى أمرى . فقالت على أن تتوب . قلت : نعم . فقالت : قل الله . فقلت الله . فكررت على ثلاثاً ثم أومأت إلى جماعة ممن كانوا قياماً ودفعت اليهم خاتما كان فى يدها وكلمتهم بما لم أفهمه فحملونى حتى غبت عنهما ، ثم حلوا سراويلى وشدوا ذكرى بخيط شداً قوياً ثم وضعوا على الشد طيباً وختموه بالخاتم فورد على من الألم ما أنبهنى فانتبهت وأثر الخيط فى الموضع ، وصار أثر الختم كالجدرى مستديراً حول الموضع ثم قال : ان شئت كشفت لك فأريتك فقد أريته لجماعة . فقلت إنى لاأستحل النظر إلى ذلك . قال السعدى فأصبحت من غد ولم يبق فى قلبى شيء من الغلام فاشتريت الجوارى وكنت لا أنكر من جماعى شيئاً . ثم طالبتنى نفسى بالغلمان وغلبتنى الشهوة فاستدعيت غلاما فلم أقدر عليه وبطل العضو قال فلمافارقته أنعظت ، فعاودته فاسترخى . فجربت ذلك مع عدة غلمان فكانت صورتى واحدة فجددت التوبة بعد ذلك ومانقضتها إلى الآن .

* * *

حدثنا أبوعلى الحسين بن محمد الانبارى الكاتب ، قال : كان ابن الفرات يتتبع أبا جعفر بن بسطام بالأذية ، ويقصده بالمكاره فلقى منه فى ذلك شدائد كثيرة ، وكانت أم أبى جعفر محمد قد عودته مذ كان طفلا أن تجعل فى كل ليلة تحت مخدته التى ينام عليها رغيفا ، فإذا كان من غد تصدقت به عنه ، فلما مضت مدة من أذية ابن الفرات له دخل إلى ابن الفرات فى شيء احتاج اليه فيه . فقال ابن الفرات ياأبا جعفر : لك مع أمك خبر فى رغيف ؟ فقال : لا . قال لابد أن تصدقنى . فذكر أبو جعفر الحديث فحدثه به على سبيل التطايب بأحوال النساء . فقال ابن الفرات : لا تفعل فإنى بت البارحة وأنا أدبر عليك أمراً لو تم لاستأصلتك ، ونمت فرأيت فى منامى كأن بيدى سيفاً مسلولا ، وقد قصدتك فاعترضتنى أمك بيدها رغيف تترسك به منى فما وصلت اليك

وانتبهت . فعاتبه أبو جعفر على ما كان بينهما ، وجعل ذلك طريقا على استصلاحه ، وبذل له من نفسه مايريده ولم يبرح حتى أرضاه وصارا صديقين . وقال له ابن الفرات : لا رأيت بعدها منى سوءاً ماعشت أبداً * وروى عن محمد بن على بن يونس عن أبيه أنه كتب لرجاء بن أبى الضحاك وهو بدمشق ، وان على بن إسحاق بن يحيي بن معاذ كان يتقلد خلافة خمارتكين على المعونة على دمشق ، فوثب على رجاء فقيده وقبض على جماعة من أسبابه وأمر بحبسى فحبست فى يدى سجان كان جاراً لى ، وكان يأتينى بالخبر ساعة بعد ساعة . فدخل إلى وقال : اخرج والله رأس صاحبك رجاء على قناة ، ثم جاءنى وقال : قد قتل مطببه ، ثم جاءنى فقال : قد قتل ابن عمه ، ثم جاءنى فقال : قد قتل كاتبه الآخر فلان ، ثم قال : الساعة يدعى بك لتقتل . فلما سمعت ذلك نالنى جزع شديد وخرج السجان وقفل الباب ودعى بى فدافع عنى وقال : مفتاح القفل مع شريكى والساعة يحضر ، فنالنى فى تلك الساعة نعاس فرأيت فى منامى كأنى ارتبطت فى طين كثير ، وكأنى قد خرجت وما بلت قدمى واستيقظت وتأولت الفرج ، وسمعت حركة شديدة فلم أشك أنها لطلبى فعاودنى الجزع ، فدخل السجان وقال ابشر : فقد أخذ الجند على بن اسحاق فحبسوه ، فلم البث حتى جاءنى الجند فأخرجونى وجاءوا بى إلى مجلس على بن اسحاق الذى كان فيه جالسا وقدامه دواية وكتاب قد كان كتبه إلى المعتصم فى تلك الساعة يخبره بخبر قتله رجاء وجعل له ذنوبا ولنفسه معاذير ويسمى رجاء المجوسى الكافر . فخرقت الكتاب وكتبت بالخبر كما يجب إلى المعتصم من نفسى وما أجرى اليه على بن إسحاق وأنفذت الكتاب ، ولم أزل أدبر العمل حتى تسلم منى وحمل إلى المعتصم فحبس حبسا طويلا ، وأظهر الوسواس وتكلم فيه أحمد بن أبى داود فأطلق * وجدت فى بعض الكتب أن المنصور استيقظ من منامه ليلة من بعض الليالى وهو مذعور لرؤيا رآها فصاح بالربيع وقال له : صر الساعة إلى الباب الذى يلى باب الشام فإنك ستصادف هناك رجلا مجوسيا مستنداً إلى الباب الحديد فجئنى به . فمضى الربيع مبادراً وعاد والمجوسى معه . فلما رآه المنصور قال : نعم هو هذا ماظلامتك ؟ فقال : إن عاملك بالانبار

جاورنى فى ضيعتى فساومنى أن أبيعه إياها فامتنعت لأن معيشتى منها ، وقوت عيالى . فغصبنى عليها . فقال له المنصور : فأى شىء دعوت به قبل أن يصل إليك رسولى ؟ قال قلت : اللهم إنك حليم ذو أناة ولاصبر لى على اناتك . فقال المنصور للربيع : أشخص إلى هذا العامل وأحسن أدبه وانتزع الضيعة من يده وسلمها إلى هذا المجوسى وابتع من العامل ضيعته وسلمها إليه أيضاً ففعل الربيع ذلك كله فى بعض نهار وانصرف المجوسى وقد فرج الله عنه وزاده وأحسن اليه ٭ وجدت فى كتاب حديث القاسم بن كرسوع صاحب أبى جعفر بخبره وقال : إن ابن أبى عون صاحب الشرطة قد وعد مخبره أن يجيئه للإقامة عنده والشرب مصطبحاً على ستارته فى يوم ثلاثاء فأبطأ عنه وتعلق قلب مخبره بتأخره فبعث غلاما له فى طلبه وتعرف خبره فعاد إلى مخبره ، وقال : وجدته فى مجلس الشرطة يضرب رجلا بالسياط وقد ذكر أنه يجىء الساعة . فلما كان بعد ساعة جاء ابن أبى عون . فقال له أبو جعفر : قد وعدتنى بيكورك وشغلتنى بتأخرك فما سبب ذلك ؟ فقال إنى رأيت البارحة فى منامى كأنى بكرت بليل لأجيئك وليس معى سوى غلام واحد ، فسرت فى خراب إسحاق بن إبراهيم بن مصعب لأجىء إلى رحبة الجسر فإنى لأسير فى القمر إذ رأيت شيخاً بهياً نظيف الثوب وعلى رأسه قلنسوة لاطية وفى يده عكاز فسلم علىّ وقال : إنى أرشدك على مافيه مثوبة لك . فى حبسك شيخ مظلوم وافى البارحة من المداين فى وقت ضيق فاتهم أنه قتل رجلا وهو برىء من دمه وقد ضرب وحبس ، وقاتل الرجل غيره وهو فى غرفة وسطى من ثلاث غرف مبنية على طاق التك بالكرخ واسمه فلان بن فلان إبعث من يأخذه فانك ستجده عريان سكران وفى يده سكين مخضبة بدم ، فاصنع ماترى به وأطلق الشيخ البائس . فقمت فانتبهت فركبت وسرت حتى وافيت رحبة الجسر فقلت ماحدث فى هذه الليلة ؟ فقالوا : وجدنا هذا القتيل وهذا الشيخ معه فضربناه فلم يقر فرأيت به أثر ضرب عظيم فسألته عن خبره . فقال أنا معروف بالمداين بسلامة الطريقة ومعاشى التغيح أنفذنى فلان بن فلان إلى فلان بن

فلان من أهل بغداد بهذه الكتب فأخرج اضبارة فدخلت وقت العتمة أوائل بغداد فوجدت فى الطريق رجلا مقتولا فخرجت ولم أدر أين آخذ فأنا على حالى إذ أدركنى الأعوان فظنونى قتلته ، والله ما أعرفه ولا رأيته قط ، ولا أدرى من هو ولا من قتله . ولا قتلت أحداً قط وقد ضربونى وحبسونى فالله الله فى دمى . فقلت قد فرج الله عنك . انطلق حيث شئت ثم أخذت الرجالة ومضيت إلى طاق التك فوجدت الغرف مصفة كما وصف الشيخ فهجمت على الوسطى فإذا رجل سكران عليه سراويل فقط ، وفى يده سكين مخضبة بالدم وهو يقول أخ عليك نعم ياسيدى أنا جرحته ابن القحبة ، وإن مات فأنا قتلته فأنزلته مكتوفا وبعثت به إلى الحبس وانحدرت إلى الموفق فحدثته الحديث فتعجب منه وتقدم إلى أن اضرب القاتل بالسياط إلى أن يتلف ، وأصلبه فى موضع جنايته فتشاغلت بذلك إلى أن فرغت ثم جئتك .

* * *

حدثنى محمد بن على بن إسحاق قال: خرجت مع أبى وهو يكتب لمحمد بن القاسم الكرخى المكنى بأبى جعفر لما تقلد الموصل والديارات ، وكان قد ضم إلى أبى جعفر جماعة من قواد السلطان فلما صرنا بنصيبين كان أبى قد مضى وأنا معه إلى أبى العباس أحمد بن كشمرد مسلماً عليه فتحدثا فسمعته يحدثه قال : لما أسرنى أبو طاهر القرمطى فيمن أسره بالهبير فحبسنى ، وأبا الهيجاء ، والغمر فى ثلاث حجر متقاربة ومكننا من أن نتزاور ونجتمع على الحديث فكن أبا الهيجاء خاصة واختص به وعمل على إطلاقه وشفعه فى أشياء فسألت أبا الهيجاء أن يسأله إطلاقى فوعدنى واستدعاه القرمطى . فمضى اليه وعاد إلى حجرته فجئت وسألته هل خاطبه فدافعنى فقلت لعلك أنسيت فقال : لا والله ولوددت أنى ماذكرتك له إنى وجدته متغيظاً عليك . فقال والله لأضربن عنقه عند طلوع الشمس فى غد ، ورحل أبو الهيجاء فورد على أمر عظيم وعدت إلى حجرتى وقد يئست من الحياة فلما كان فى الليل رأيت فى منامى كأن قائلا يقول لى اكتب فى رقعة « بسم الله الرحمن الرحيم من العبد الذليل ،

إلى المولى الجليل ، مسنى الضر والخوف وأنت أرحم الراحمين . فبحق محمد وآل محمد اكشف همى ، وحزنى وفرج عنى» . واطرح الرقعة ، فى هذا النهر وأومأ إلى ساقية كانت تجرى هناك فى المطبخ فانتبهت من نومى وكتبت الرقعة وطرحتها فى الساقية فلما كان السحر استدعانى القرمطى فلم أشك أنه القتل . فلما دخلت اليه أدنانى وأجلسنى وقال: قد كان رأيى فيك غير هذا إلا أنى قد رأيت تخليتك فخرجت فإذا على الباب راحلة ورجل يصحبنى فركبت ودخلت البصرة سالماً ولحقت أبا الهيجاء بها فدخلنا معا إلى بغداد * وقال أبو الحسن على ابن زكى . قال : كنت مع صاحبى عيسى البوسرى وكان مضافاً لمحمد بن سليمان الكاتب على حرب الطولونية إلى أن افتتحت مصر فتقلد قال : قال عيسى خرج يوماً محمد بن سليمان إلى ظاهر الفسطاط فانتهى به السير إلى قبة كانت لأحمد ابن طولون يقال لها قبة الهواء مطلة على النيل وعلى البر فجلس فيها ومعه الحسين ابن حمدان ، وجماعة من القواد ثم قال : الحمد لله الذى بيده الأمر كله يفعل ما يشاء . فقال له : الحسين بن حمدان لا شك أن تجديدك الحمد لأمر ؟ قال : نعم . وهو عجيب ظريف ذكرته الساعة وهو أنى نزعت إلى مصر وأنا فى حال رثة فى زى صغار الأتباع فضاق على المعاش بها فاتصلت بلؤلؤ الطولونى فأجرى على دينارين فى كل شهر ، وصيرنى مشرفاً فى اصطبله على كراعه فكنت هناك من حيث لا يعرف وجهى جيداً ولا أقدم على الوقوف بين يديه ، فلما كان بعض الأيام أحضرنى فقال : ويحك من أين يعرفك الأمير؟ يعنى : أحمد بن طولون . فقلت: والله ما رآنى قط ولا وقعت عينه علىّ إلا فى الطريق ولا محلى محل من يتصدى للقائه . فقال دعانى الساعة وهو فى قبة الهواء فقال : معك رجل أشقر أشهل يقال له محمد بن سليمان . فقلت : ما أعرفه فقال : بل هو فى جنبتك فابعده عنك فإنى رأيته البارحة وفى يده مكنسة يكنس دارى بها . فتوق ويحك ولا تتعرف إلى أحد من حاشيته وأقرنى على أمرى فامتثلت أمره ومضت لهذا الحديث شهور ثم دعانى ثانيـــة فقال : ويحك ماذا بليت به منك وبليت أنت به من هذا الأمير دعانى بعدة من أصحاب الرسائل

فوافيته وأنا في غاية الوجل فقال : أليس أمرتك بصرف محمد بن سليمان الأزرق الأشقر . فقلت : قد عرفتك ياسيدى أنى مااستخدمت من هذه سبيله . ولا وقعت لى عليه عين . فقال لى : كذبت وهو معك فى اصطبلك فاخرجه عن البلد الساعة ، فانى رأيته فى النوم أيضا وفى يده مكنسة وهو يكنس بها سائر دورى وحجرى ونسأل الله الكفاية . فقلت للؤلؤ أى ذنب لى ياسيدى فى الأحلام ؟ فقال لى صدقت فاستتر إلى أن يتناسى الأمير ذكرك وكان يجرى على رزقى فى كل شهر وأنا لا أعمل شيئاً فلما تهيأ من إنفاذ لؤلؤ إلى الشام ماتهيأ نهضت معه وتخلف عنه كتابه لما كانوا علموا من تغيير حاله عند صاحبه فادنانى وقربنى واجرى على عشرة دنانير فى كل شهر وحملنى على دابة فلزمت خدمته ولقيته واستحمدت اليه فزادنى من رأيه ولم ينتبه أحمد بن طولون من استيحاش لؤلؤ فكتب له بالرجوع إلى مصر ، فشاورنى فأشرت اليه بالانحدار إلى نواحى ديار مصر وأخذ كل ما استخف نيله من المال . ولم أترك غاية إلا أتيتها فى تضريته وتأليبه حتى أوردته مدينة السلام . ثم تقلبت بى الأحوال فى خدمة السلطان وخدمة الدولة وتوفى أحمد بن طولون وحبس ابنه وقتل أبو الجيش وتولى بعدهم هارون بن خمارويه بن أحمد وضم إلى القواد والرجال وكان فيهم لؤلؤ صاحبى وكان أصغرهم حالا ، فلم أقصر فى صلاح حاله والإحسان اليه ومعرفة حقه فلم ادن من الشام حتى تلقانى بدر الحمامى مطيعاً ، وتلاه طغج بن حف مسرعا وصرت إلى مصر فلما شارفتها وثب شيبان بن أحمد بن طولون ومن معه من جند مصر فقتلوا هارون وتولى شيبان الأمر أياماً واثال إلى القواد فى الأمان ولحق بهم شيبان وتخلف الرجالة وقطعة من الفرسان ، وأظهروا الخلاف فأوقعت بهم وأفنيتهم قتلا وأسراً ، ودخلت الفسطاط عنوة وحويت النعم والمهج واشخصت الطولونية من البلد الى الحضرة حتى لم يبق فيها منهم أحد وصح بذلك منام أحمد بن طولون فسبحان الذى ماشاء فعل ، وإياه نسأل خير ماتجرى به أقداره ، وأن يختم لنا بخير رحمته .

* * *

حدثنى أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الكاتب المعروف بالببغاء قال : اعتللت بحلب علة خف منها بدنى كله فكنت كالخشبة لا أقدر أن أتحرك ، ونحل جسمى وتقلبت فى إغلال متصلة متضادة وأنا من هذا ألقى خلف فراش ثلاث سنين متواليات وآيس الأطباء من برئى ، وقطعوا مداواتى وكان لى صديق يعرف بأبى الفرج بن دارم من أهل بلدى يعنى نصيبين مقيم بحلب يلازم عيادتى وكان لفرط اغتمامه بى وان الأطباء أيسوا منى يظهر لى حزناً يؤلم قلبى ويؤيسنى من نفسى ويجاوز ذلك إلى التصريح لى باليأس . وتوطينى ثم تعدى هذا إلى أن صار لا يملك دمعته إذا خاطبنى فضعفت عن تحمل ذلك ، وتضاعفت به علتى وخارت معه قوتى فاعتقدت أن أقول لغلامى أن يترصده فاذا جاء ليدخل على قال له عنى أنى لا أستحسن حجابه ، وإن علتى قد تضاعفت بما أشاهده واسمع من خطابه ، ويسأله أن ينقطع عنى أو يقطع مخاطبتى بما فيه إياسى ، وقررت عزمى على ذلك فى ليلة من الليالى ولم أخاطب به غلامى . فلما كان فى صبيحة تلك الليلة باكرنى ابن أبى دارم فحين وقعت عينى عليه تثاقلت به خوفا من أن يسلك معى مذهبه ، وهممت أن أفتتح مخاطبته بما كنت عزمت على مراسلته به فسبقنى بأن قال لى : قد جئتك مبشراً فقلت بماذا ؟ قال : رأيت البارحة كأنى بالرقة والناس يهرعون إلى زيارة قبور الشهداء . فقال أبو الفرج : وهم من قتلوا مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بصفين منهم عمار بن ياسر رضى الله عنه ، وحملوا إلى ظاهر الرقة فدفنوا بها والحال فى ذلك مشهور والقبور إلى الآن مغشية معمورة ، فقال ابن أبى دارم : ورأيت كأن أكثر الناس مطيفون بقبة فسألت عنها . فقيل لى : قبر عمار بن ياسر . فقصدتها وأطلعت فيها فاذا القبر مكشوف وفيه رجل شيخ جالس بثياب بيض وفى رأسه ضربات بينة دامية ، وعلى لحيته دم والناس يقولون : هذا عمار بن ياسر . وكأنى سلمت عليه والناس يسألونه فيجيبهم . فلحقتنى حيرة ولم أدر عما اسأله . فقلت ياسيدى . لعلك عارف بأبى الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى المعروف بالببغاء قال : أنا عارف به . قلت : أتعرف ما به من الجهد والبلاء بالعلة الطويلة ؟ فقال : نعم . قلت : أفيعيش

ويبرأ أم لا ؟ فقال : يعيش ويبرأ ، ولكن أنت لك ابن الحذر عليه من علة تلحقه قريباً واستيقظت . قال : وأخذ يهنيني بالعافية ويقول قد سرني لك ماجرى ، ولكن قد أوحشني في أمر ابني فاسأل الله الكفاية . قال أبو الفرج وكان للرجل ابن عمره نحو الثلاثين سنة وهو في الحال معافى فلما مضت خمسة أيام من الرؤيا حم الفتى فقويت نفسي في صحة المنام وما مضت إلا أيام يسيرة حتى مات الفتى وأدبر مرضي ، ولم تزل العافية تتزايد إلى أن قويت وعاودت إلى عادتي بعد مدة قريبة * وجدت في بعض الكتب أنه لما اشتدت الحرب بين الاسكندر وبين دار ابن دارا استظهر دارا عليه فأشرف الاسكندر على الهلاك وآيس من النصر وحال المساء بينهما فانصرف الاسكندر إلى معسكره قلقاً مغموماً متحيراً مهموماً عامة ليلته ثم نام فرأى في منامه كأنه صارع دارا فصرعه دارا ، فانتبه وقد زاد همه وغمه فقص رؤياه على بعض فلاسفته . فقال : إبشر أيها الملك بالغلبة والنصر وإنك تملك على دارا الأرض لأنك كنت قلبها لما صرعك . فلما كان بعد أيام يسيرة انهزم دارا وقتل وجاؤا برأسه إلى الاسكندر وملك ممالكه .

* * *

قال مؤلف هذا الكتاب رحمه الله : ومثل هذا مشهور في روايات أصحاب السير والأخبار أن عبدالله بن الزبير رأى في منامه كأنه صارع عبدالملك بن مروان فصرع عبد الملك وسمره في الأرض بأربعة أوتاد فأرسل راكباً إلى البصرة وأمره أن يلقى ابن سيرين ويقص الرؤيا عليه ولا يذكر له من أنفذه ولا يسمى عبدالملك ، فسار الراكب حتى أناخ بباب ابن سيرين فقص عليه المنام فقال له ابن سيرين من رأى هذا ؟ فقال : أنا رأيته في رجل بيني وبينه عداوة . فقال ليس هذه رؤياك هذه رؤيا ابن الزبير ، أو عبدالملك ابن مروان أحدهما في الآخر فسأله الجواب فقال : ما أفسرها أو تصدقني فلم يصدقه فامتنع من التفسير وانصرف الراكب إلى ابن الزبير فأخبره بما جرى . فقال له : ارجع اليه فاصدقه إني رأيتها في عبدالملك . فرجع الراكب إلى ابن سيرين برسالة ابن الزبير فقال له : قل له أيها الأمير عبدالملك يغلبك

على الأرض ، ويلى هذا الأمر من ولده لصلبه بعده أربعة بعدد الأوتاد التى سمرته بها فى الأرض . قال : وحدثنى أبو القاسم الحسين بن بشر الادمدى الكاتب المقيم بالبصرة إلى أن مات بها قال : لما سعى أبو أحمد طلحة بن الحسين بن المثنى مع جيش أبى القاسم بن أبى عبدالله اليزيدى فى أن يقبضوا عليه ويحبسوه عند أبى أحمد وأن يرد المطيع لله أو جيش له بالبصرة فيملكوها ويتسلموا منه أبو القاسم اليزيدى وكانت القصة مشهورة فى ذلك ، فبلغتنى بخلوت بأبى أحمد وكنت أكتب له حينئذ وكان لا يحتشمنى فى أموره ونبهته على هذا الرأى ، وعرفته وجوه الغلط عليه ، والغلط فى ذلك والمخاطرة والغدر بدمه ونعمته وهو غير قابل لمشورتى إلى أن أكثرت عليه . فقال لى : إعلم أنى رأيت رؤيا وأنا بها واثق فى تمام ماشرعت فيه من القبض على هذا الرجل . فعجبت من نفسى فى رجل يخالف الحزم الظاهر ، والرأى الواضح من أجل منام ثم قلت له : ما الرؤيا ؟ قال : رأيت كأن حية عظيمة قد خرجت على من حائط هذا العرض . قال : وكان جالسا فى عرض ذكره قال : وكأنى قد رميتها فأثبتها فى الحائط فذكرت تأويل ابن سيرين لمنام ابن الزبير وقص المنام الذى ذكرته . قال فسبق إلى قلبى تأويل منام أبى أحمد أنه قد أثبت عدوه فى حائطه وأنه سيغلبه على البلد . فأمسكت وقطعت الكلام . فما مضت مدة يسيرة حتى شاع التدبير وصح الخبر عند القاسم اليزيدى فبادر بالقبض على فائق الأعسر ، وكان هو الذى ندبه أبو أحمد للقبض على اليزيدى ، وأن يكون أمير البلد إلى أن يرد جيش الخليفة فقرره فأقر بالخبر على شرحه فقبض أبو القاسم على أبى أحمد بعد قبضه على فائق بيومين أو ثلاثة أيام فاستصفاه وأهله وولده ثم قتله بعد ذلك بأيام .

* * *

بلغنى عن إبراهيم بن المهدى أنه قال : كنت فى جفوة شديدة من أخى الرشيد أثرت فى جاهى ، ونقصت حالى وأفضيت معها إلى الإضافة بتأخر رزقى وظهور اطراحه إياى ، واختلت لذلك ضيعتى ، وركبنى دين فادح فبلغ منى القلق بذلك والفكر فيه ليلة من الليالى مبلغا شديدا ، ونمت فرأيت فى منامى

كأنى واقف بين يدى المهدى وهو يسألنى عن حالى وأنا أشكو اليه مانكبنى به الرشيد وأنهيت حالى اليه وأقول : ادع عليه ياأمير المؤمنين فكأنه يقول : اللهم أصلح ابنى هارون . يكررها فكأنى أقول له يا أمير المؤمنين : أشكو اليك ظلم هارون لى واسألك أن تدعو عليه فتدعو له . فقال لى : وما عليك إذا أصلحه الله لك وللكافة أن يبقى على حاله هوذا أمضى اليه الساعة وآمره أن يرجع لك ويقضى دينك ويوليك جند دمشق فكأنى أومى اليه بسبابتى وأقول له دمشق. دمشق استقلالا لها ؟! فكأنه يقول حركت مسبحتك استقلالا لدمشق انها رؤيا . وكيف قل حظك منها كان فى العاقبة أجود لك . فانتبهت وأحضرت مؤدباً كان لى فى أيام المهدى فسألته عن المسبحة فقال : كان عبد الله بن العباس يسمى السبابة بالمسبحة فما سبب سؤالك أيها الأمير عنها ؟ فقصصت عليه الرؤيا وامتنع النوم عنى ، فأخذ يحدثنى وأنا جالس فى فراشى إذ جاءنى رسول الرشيد فارتعت له ارتياعا شديداً ولم أعبأ بالمنام ، وخفت أن يكون يريدنى بسوء يوقعه بى فخفت وقلت أدافعه إلى أن تطلع الشمس ثم أدخل عليه نهاراً فان كان أراد بى غيلة لم تتم . فتقاطرت رسله حتى أعجلونى عن الرأى واضطرونى إلى الركوب فى الحال فدخلت عليه وأنا شديد الجزع ، وهو جالس فى فراشه ينتحب فلما رآنى قال سألتك بالله يا أخى هل رأيت الليلة فى منامك شيئاً ؟ قلت : نعم . الساعة رأيت المهدى فلما قلت له ازداد بكاؤه . ثم قال ويحك : بالله شكوتنى اليه وسألته أن يدعو على . قلت كان ذلك ، ولكنه قال : كذا ، وكذا . وشرحت عليه ما قال . فقال : والله الساعة جاءنى فى منامى فقص على ماذكرت . وقد وفى بعهده ، والله لأمتثلن أمره ولأصلن رحمى منك ، كم دينك ؟ قلت : كذا . وكذا . فأمر بقضائه وقال : لاتبرح حتى أصلى وأعقد لك على دمشق . فانتظرت حتى وجبت الصلاة فاستدعانى فأظهر تكرمتى ، وعقد لى لواء على دمشق ، وأمر الناس فصاروا معى إلى منزلى فعاد جاهى وصلحت حالى ٭

وقال : حدثنى أبو القاسم طلحة بن محمد الشاهد ، قال : حدثنى أبو الحسين

عبدالواحد بن محمد الحمصى ، قال : حدثنى أبو الفضل ميمون بن مهران ، قال : حدثنى موسى بن عبدالملك ، قال : رأيت فى منامى وأنا فى الحبس قائلا يقول هـذه الأبيات :

لا زلت تعلو بك الجـدود   نعم وحفت بك السعود
ابشر فقـد نلت ما تريد   بيـــد أعدائك المبيد
لم يمهلوا ثم لم يقالوا   والله يأتى بما يريد
فاصبر فصبر الفتى حميـد   واشكر ففى شكرك المزيد

فانتبهت وقد طفىء السراج فطلبت شيئا حتى كتبت الأبيات على الحائط وأصبحت وقد قويت نفسى وأطلقت بعد مدة يسيرة .

وقال : وذكر المدايني فى كتابه « الفرج بعد الشدة والضيقة » قال : توبة العنبرى : أكرهنى يوسف بن عمر على العمل ، فلما رجعت حبسنى حتى لم يبق فى رأسى شعرة سوداء فأتانى آت فى منامى وعليه ثياب بيض فقال ياتوبة : أطالوا حبسك ؟ فقلت : أجل . فقال : سل الله العفو والعافيـة فى الدنيا والآخرة ثلاثاً ، فاستيقظت فكتبتها ، ثم توضأت وصليت ماشاءالله ، ثم جعلت أدعو حتى وجبت الصلاة للصبح . فصليتها فجاء حرسى فقال : أين توبة العنبرى ، ثم حملنى فى قيودى وأنا أتكلم بهن فلما رآنى يوسف بن عمر أمر بإطلاقى . قال توبة العنبرى : وكنت علمتها وأنا فى السجن رجلا فقال لى : لم أدع إلى عذاب قط فقلتهن إلا خلى عنى . فجىء بى يوما إلى العذاب فجعلت أتذكرها ولا أذكرها حتى جلدت مائة سوط ، ثم ذكرتهن بعـد فدعوت بهن فخلى سبيلى ٭ وروى المدايني أيضا فى كتابه عن أبى المثنى على بن القاسم ، قال : حدثنى رجل ، قال : رأيت فى أيام الطاعون فى المنـام أنهم أخرجوا من دارى اثنتى عشرة جنازة ، وأنا وعيالى اثنا عشر نفساً فمـات عيالى وبقيت وحدى فاغتممت فضاقت على الأرض ، فخرجت من الدار ثم رجعت من الغد فإذا لص قد دخل ليسرق فطعن فى الدار ، فخرجت جنازته منها فسرى عنى ما كنت فيه ووهب الله عز وجل السلامة .

٭ ٭ ٭

وذكر القاضى أبو الحسن فى كتابه « كتاب الفرج بعد الشدة » : أن وهب ابن منبه قال أملقت حتى قنطت أو كدت فأتانى آت فى منامي ومعه شبيه بالمستقة فدفعها إلى وقال : افضض فضضتها فإذا فيها حرير فقال : انشرها فنشرتها فإذا هى ثلاثة أسطر ببياض . الأول : لاينبغى لمن عرف من الله عدله . الثانى أو عقل عن الله أمره . الثالث : إن يستبطىء الله فى رزقه . قال فأعطانى الله عز وجل بعدها فأكثر . وذكر الواقدى أنه قال : ضقت ضيقة شديدة ، وهجم شهر رمضان وأنا بغير نفقة ، فضاق ذرعى لذلك فكتبت إلى صديق لى علوى أسأله أن يقرضنى ألف درهم فبعث إلى بها فى كيس مختوم فتركتها عندى ، فلما كان عشى ذلك اليوم وردت على رقعة صديق لى يسألنى إسعافه لنفقة شهر رمضان بألف درهم ، فوجهت بالكيس إليه بخاتمه ، فلما كان من الغد جاءنى صديقى الذى اقترض منى والعلوى الذى اقترضت منه فسألنى العلوى عن خبر الدراهم . فقلت صرفتها فى المهم ، فأخرج الكيس بختمه وضحك وقال : اعلم أنه قرب هذا الشهر وماعندى إلا هذه الدريهمات فلما كتبت إلى وجهت بها إليك ، وكتبت إلى صديقنا هذا أقترض منه ألف درهم فوجه إلى الكيس فسألته عن القصة فشرحها لى . وقد جئناك لنقسمها وإلى أن تنفقها يأتى الله عزوجل بالفرج قال الواقدى فقلت لهما : لست أدرى أينا أكرم واقتسمناها ودخل شهر رمضان فانفقت أكثر ماحصل لى منها ، وضاق صدرى فجعلت أفكر فى أمرى فبينما أنا كذلك إذ بعث إلى يحيى بن خالد البرمكى فى سحرة يومى فقال لى ياواقدى : رأيتك البارحة فيما يرى النائم وأنت على حال دلتنى أنك فى غم شديد وأذى فاشرح لى أمرك ، فشرحت له إلى أن بلغت إلى حديث العلوى وصديقى والالف درهم فقال والله لا أدرى أيكم أكرم وأمر لى بثلاثين ألف درهم ولهما بمثلها وقلدنى القضاء .

٭ ٭ ٭

﴿ انتهى الجزء الأول من كتاب الفرج بعد الشدة ﴾

﴿ ويليه الجزء الثانى أوله الباب السابع ﴾

الفرج بعد الشدة

للقاضي أبي علي المحسن بن أبي القاسم التنوخي
(٣٢٧ - ٣٨٤)

الأصل مأخوذ عن نسخة خطية محفوظة
بدار الكتب المصرية

الجزء الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السابع

﴿ من استنقذ من كرب وضيق خناق * بإحدى حالتي عمدا أو اتفاق ﴾

قال أبو علي : حدثنا علي ابن الحسين المعروف بالأصفهاني إملاء من حفظه ، قال : حدثني أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهاني الكاتب ، قال : كان محمد بن زيد العلوي الداعي بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر في بيت المال من خراج السنة التي قبلها ففرق في قبائل قريش قسطا على دعوتهم ، وفي الأنصار ، وفي الفقهاء ، وأهل القرآن ، وسائر طبقات الناس حتى يفرغ جميع ما بقي . فجلس في سنة من السنين ففرق المال كما كان يفعل ، فلما فرغ من بني هاشم دعى بسائر عبد بني عبد مناف فقام رجل . فقال له من أي عبد مناف أنت ؟ قال : من بني أمية . قال : من أيهم أنت ؟ فسكت : فقال : لعلك من ولد معاوية ؟ قال : نعم . قال فمن أي ولده ؟ فأمسك . قال : لعلك من ولد يزيد ؟ قال : نعم . قال بئس الاختيار اخترت لنفسك في قصدك بلداً ولايته إلى أبي طالب ، وعندك ثارهم في سيدهم وإخوتهم وبني عمه ، وقد كانت لك مدوحة عندهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك ، فإن كنت جئت على جهل بهذا فما يكون بعد جهلك شيء ، وإن كنت جئت متمريا فقد خاطرت بنفسك قال : فنظر اليه العلويون نظراً شديداً . فصاح بهم محمد وقال : كفوا كأنكم تظنون أن في قتل هذا دركا أو ثاراً بالحسين بن علي رضي الله عنهما ، أو بأحد من أقاربه ، وأي جرم لهذا ؟! إن الله تعالى قد حرم أن تطالب نفس بغير ما كسبت ، والله لا تعرض له أحد إلا أقدته منه واسمعوا حديثاً أحدثكم به يكون قدوة لكم فيما تستأنفون * حدثني أبي ، عن أبيه رضوان الله عليهما قال : حج المنصور فعرض جوهر فاخر كان لهشام بن عبد الملك فقال : هذا

بعينه قد بلغني خبره أن عند ابنه محمد ومابقي منهم أحد غيره . ثم قال للربيع : إذا كان غدا وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس فيه فأغلق الأبواب كلها ، ووكل بها ثقاتك من الشيعة ، وافتح للناس بابا واحدا وقف عليه فلا يخرج أحد إلا من عرفته . فلما كان من الغد فعل الربيع ما أمره وتبين محمد بن هشام القصة فعلم أنه هو المطلوب ، وأنه مأخوذا ، فأقبل عليه محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فرآه متحيراً وهو لا يعرفه . فقال ياهـــذا : أراك متحيرا فمن أنت ولك أمان الله وأنت في ذمتي حتى أخلصك ؟ قال : أنا محمد بن هشام بن عبد الملك . فمن أنت ؟ قال أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين . قال : فعند الله أحتسب دمي إذن . قال لا بأس عليك ، فإنك لست قاتل زيد ، ولا في قتلك إدراك ثار . وأنا الآن بخلاصك أولى مني بتسليمك وتعذرني في مكروه أتناولك ، أو قبيح أخاطبك به يكون فيه خلاصك . قال : أنت وذاك . قال فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولببه به وأقبل يجره ، فلما وقع عين الربيع عليه لطمه لطمات ، وجاء به إلى الربيع وقال يا أبا الفضل : إن هـذا الخبيث جمال من الكوفة أكراني جماله ذاهبا وراجعا ، ثم هرب مني واكرى بعض القواد الخرسانية ولي عليه بذلك بينة . قال فضم اليه حرسيين وقال لهما امضيا معه فمضيا معه فلما بعدا عن المسجد قال له تؤدى إلى حقي ؟ قال نعم يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال انصرفا فانصرفا وأطلقه فقبل محمد بن هشام يده وقال : بأبي أنت وأمي الله أعلم حيث يجعل رسالته ، ثم أخرج جوهراً له قدر فدفعه اليه وقال : تشرفني بقبول هـــذا . فقال يا ابن عم : إنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة ، وقد تركت لك أعظم من هذا ، تركت لك دم زيد بن علي فانصرف راشدا ، ووار شخصك حتى يخرج هـذا الرجل ، فانه مجد في طلبك فمضى وتوارى . قال : ثم أمر محمد بن زيد الداعي بطبرستان للأموى بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم اليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوه إلى الرى ويأتوه بكتاب بسلامته . فقام الأموى ومضى ومعه القوم حتى وصل إلى مأمنه . قال أبو مسلم الأصبهاني : وكان أبو مسلم محمد بن بحر

وزيد بن محمد بن زيد الداعى بطبرستان وخبرنى أن هذا الخبر سمعه وشاهده من لفظ الداعى.

وحدثنى أبو الفرج المعروف بالأصبهانى املاء من حفظه وأنا أسمع قال: قرأت فى بعض الأخبار للأوائل أن الإسكندر لما انتهى إلى بلد الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره ، فقال له : رسول ملك الصين يستأذن عليك . فقال ائذن له فأدخله فوقف بين يدى الإسكندر وسلم وقال : إن رأى الملك أن يستخلينى فأمر الإسكندر من بحضرته أن ينصرفوا فانصرفوا وبقى خاصته . فقال: إن الذى جئت له لا يمكن أن يسمعه غيرك . فقال : فقال فتشوه ففتش فلم يوجد معه سلاح فوضع الإسكندر بين يديه سيفا مسلولا وقال له : قف بمكانك وقل ماشئت . واخرج كل من كان عنده فقال الرسول : أنا ملك الصين لارسوله وجئت أسألك عما تريده ، فان كان مما يمكن عمله ولو على أصعب الوجوه عملته وأغنيتك عن الحرب ، فقال : له الإسكندر وما أمنك منى ؟ قال علمى بأنك رجل عاقل وليست بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بدخل ، وأنك تعلم انك إن قتلتنى لم يكن ذلك سببا بأن يسلم اليك أهل الصين ملكهم ، ولا يمنعهم قتلى من أن ينصبوا لأنفسهم ملكا غيرى وتنسب إلى غير الجميل وضد الحزم ، فأطرق الإسكندر متفكراً وعلم أنه رجل عاقل . فقال : الذى أريده منك ارتفاع مملكتك اثلاث سنين عاجلا ، ونصف ارتفاعها فى كل سنة . قال هل غير ذلك ؟ قال : لا . قال قد أجبتك . قال فكيف تكون حالك حينئذ ؟ قال : أكون قتيلا محارباً . قال : فان قنعت منك بارتفاع سنتين . فكيف يكون حالك ؟ قال : يكون أصلح مما كانت وأفسح فى المدة . قال فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة ؟ قال : ذلك يكون مضرأبى ومذهبا لجميع لذاتى . قال : فان قنعت منك بارتفاع الثلث كيف يكون حالك ؟ قال يكون الثلث موفرا والباقى لجيشى ولاسباب الملك . قال فقد اقتصرت منك على ذلك . فشكره وانصرف فلما طلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض وأحاط بجيش الاسكندر حتى

خاف الهلاك ، وتواثبت أصحابه فركبوا الخيل واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وعليه التاج فلما رأى الإسكندر ترجل . فقال له الإسكندر : غدرت ؟ قال : لا . قال فما هذا الجيش ؟ قال أردت أن أعلمك أنى لم أطعك من قلة ، ولا ضعف ، ولا عجز ، وأنت ترى هذا الجيش . وما غاب عنك أكثر ولكنى رأيت العالم الأكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت أن من حارب العالم الأكبر . غلب ، فأردت طاعته بطاعتك ، والتذلل له بالتذلل لك . فقال الإسكندر ليس مثلك من يؤخذ منه شيء . فانى لم أجد بينى وبينك من يستحق بالتفضيل والوصف بالعقل غيرك ، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا راحل عنك . قال ملك الصين . أما إذا فعلت ذلك فلست تخسر ، فلما انصرف الإسكندر أتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بأضعاف ما كان ، فرده عليه الاسكندر .

* * *

قال : أخبرنى أبو بكر محمد بن يحيي الصولى فيما أجازه لى قال : حدثنى الحسين بن يحيي ، قال : كان لاسحاق الموصلى غلام يقال له فتح يستقى الماء لأهل داره على بغلين له دائما فقال إسحاق : قلت يوما له : أى شيء خبرك يافتح ؟ قال : خبرى أنه ليس فى هذا الدار أشقى منك ومنى . أنت تطعم أهل الدار الخبز ، وأنا أسقيهم الماء . قال : فاستظرفت قوله وضحكت منه وقلت له فأى شيء تحب ؟ قال : تعتقنى وتهب لى البغلين لأستقى عليهما لنفسى ففعلت *

وأخبرنى أبو الفرج الأصبهانى . قال : أخبرنى جرمى بن أبى العلا ، قال : حدثنى الزبير بن بكار عبد الأعلى بن عبد الله بن محمد بن صفوان الجمحى ، قال : حملت دينا وأنا بعسكر المهدى فركب المهدى يوما بين أبى عبيد الله ، وبين عمر ابن بزيغ وأنا وراءه فى موكبه على برذون قطوف فقال المهدى ما أنسب بيت قالته العرب ؟ فقال أبو عبيد الله : قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فقال هذا أعرابى قح . فقال عمر بن بزيغ : قول كثير عزة يا أمير المؤمنين . قال ما هو ؟ قال :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل ليلى بكل سبيل

فقال له : ماهذا بشىء . وما له يريد أن ينسى ذكرها حتى تمثل له . فقلت أما عندى حاجتك يا أمير المؤمنين . فقال . الحق بى . فقلت : ليس بى لحاق لأن ليس ذلك فى دابتى . فقال : احملوه على دابة . قلت : هذا أول الفتح . لحملت على دابة فلحقته قال ماعندك قلت قول الأخوص :

إذا قلت أنى مشتف بلقائها فحم التلاقى بيننا زادنى سقم

فقال : أحسنت حاجتك ؟ قلت : على دين . قال : اقضوا دينه فقضوا دينى .

* * *

قال وذكر محمد بن عبدوس فى «كتاب الوزراء» : حدث أحمد بن محمد ابن زياد قال الديان بن الصلت : كنت فى خدمة الفضل بن سهل على ما كنت عليه من ثقته بى واستنابته ، فدعانى فى وقت من الأوقات إلى أن يضم إلى أربعة آلاف من الجند والساكرية ويقودنى عليهم ويجرينى مجرى قواده فامتنعت عليه من ذلك وأعلمته أنى لاأقوم بذلك ولا أصلح له ولا آمن أن أتقلد له مايقع التقصير فيه فيسقط ذلك حالى عنده ومنزلتى لديه . فأنكر ذلك على أشد الإنكار وعاودنى فيه مرارا فلم أجبه اليه . فلما رأى إقامتى على الامتناع جفانى وأعرض عنى ، وامتدت الأيام على هذا السبيل حتى أدى بى ذلك إلى الاختلال الشديد ، الذى أضرنى فدخل على غلامى يوما فأخبرنى أنه لانفقة عنده ، ولا مقدرة له فى احتيالها لامتناع التجـار من اعطائه لتأخر مالهم عنهم ، ولا علف لدوابنا ولا قوت لنا فأومأت إلى عمامة كانت عندى فأمرته ببيعها وصرف ثمنها فيما يحتاج اليه فباعها بثمانية عشر درهما وورد على فى هذا اليوم كتاب وكيلى على أهلى بمدينة السلام يعلمنى ضيق الأمر فيما يحتاج اليه من إقامته للعيال وأنه التمس من التجار ألفى درهم فلم يجيبوا اليها فعظم على ما ورد من ذلك وضاقت بى المذاهب فيه . فبينما أنا قاعد عشية يومى ذلك إذ أتانى رسول الفضل يأمرنى بحضور الدار والمقام فيها إلى وقت خروجه من عند المأمون لحضرتها بعد صلاة العتمة ، وأقمت إلى

أن خرج الفضل فى وقت السحر ملميته وبين يديه خرائط محمولة فقال لى : صليت صلاة الليل ؟ فقلت : نعم . فقال : لكنى ما صليت فكن هنا حتى أصلى . فصلى ثم انفتل من صلاته فدعانى وقال : أتدرى ما هذه الخرائط ؟ قلت لا . قال : هذه ثمان وستون خريطة وردت فقرأتها وأجبت عنها جميعها بخطى . فدعوت له بحسن المعونة والتوفيق . ثم قال لى باديا : إن أبا محمد الحسن بن سهل قد دفع إلى واسط ورأى أمير المؤمنين أن يمده بدينار بن عبدالله ، ونعيم بن حازم فى عشرة آلاف رجل . وأن تقلد الانفاق على عسكريهما وأن يجرى لك فى كل شهر عشرة آلاف درهم ولكاتبك ثلاثة آلاف درهم ولقراطيسك ألف درهم وأن يوظف لك على كل عسكر عشرة أحمال تحملك أو خمسمائة درهم عوضا عنها ، ثم أمد فى ذلك الوقت أن يحمل لى أرزاق ثلاثة أشهر . فما صليت صلاة الصبح حتى حمل لى اثنان وأربعون ألف درهم . وأخذ فى جهاز العسكرين قال : وبعث إلى الفضل بن سهل بفرس من دوابه ، وأمرنى أن أبعث إلى نعيم بن حازم ، وأظهر أنه خصه به ، وأنه من خيله الذى يركبها . فوجهت به إلى نعيم بن حازم وأظهر السرور والابتهاج بذلك ، والتعظيم له فوهب لغلامى عشرة آلاف درهم ، وبعث إلى بخمسين ألف درهم فكتبت بذلك إلى الفضل . فوقع على رقعتى اردد على نعيم ما أمرلك به ووهبه لغلامك واقبض لنفسك عوضا منه مائة وعشرون ألف درهم . ثم أمر بعد أيام لدينار بسبعمائة ألف درهم صلة ومعونة ولنعيم بخمسمائة ألف درهم فبعثت بها اليهما فبعث إلى كل واحد منهما بخمسين ألف درهم . فكتبت إلى الفضل رقعة أخبره فيها بما فعلاه فوقع على ظهرها اقبل من دينار ما بعث به ، واردد إلى النعيم ما بعث به . واقبض لنفسك عوضا عن ذلك مائة ألف درهم . قال : ونقلنا عن مرو فلما صرنا فى الطريق ورد على كتاب الفضل يأمرنى فيه : أن أحمل إلى دينار ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وإلى نعيم ألف ألف درهم فبعث إلى دينار ألف درهم وخمسين ألف درهم وبعث إلى نعيم مائة ألف درهم فقبلت من دينار مابعث به إلى ، ورددت على نعيم حسب ما كان حد لى فى رقعته الأولى والثانية ،

ولم أكتب بالخبر في ذلك إلى الفضل لئلا يتوهم بذلك استدعاء العوض ، فكتب بذلك صاحب سر كان علينا فوقع على ظهر كتابه قد علمت أنك إنما أمسكت عن الكتاب بما فعله دينار ونعيم لئلا يتوهم عليك الاستدعاء للصلاة ، وقد رأيت أن تقبض لنفسك عوضا من ذلك مائتي ألف درهم . قال الريان : فلم تمض سبعة وعشرون يوماً حتى حصلت عندي سبعمائة ألف درهم .

* * *

وذكر محمد بن عبدوس في كتابه عن جبريل بن بختيشوع الطبيب في خبر طويل أنه سمع المأمون يقول : كان لي في خراسان يوما عجيباً وأولاني الله فيه بإحسانه الجميل ، وذلك لما توجه طاهر بن الحسين لحرب علي بن عيسى بن ما كنا قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي ووقع في نفوس عسكري جميعاً ان طاهر ذاهب ، ولحق أصحابي إضاقة شديدة وظهرت فيهم خلة ، ونفذ ما كان معي ولم يبق منه قليل ولا كثير وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب ، فلم أدر إلى أين أهرب ولا كيف أجد ، فبقيت حائراً متفكراً وأنا والله كذلك نازلا في دار أبوابها حديد ، ولي متشرفات أجلس فيها إذا شئت ، وعدة غلماني ستة عشر غلاما لا أملك غيرهم إذا بالقواد والجيش جميعاقد شغبوا علي ، وطلبوا أرزاقهم وولغوا جميعاً يشتمون وتكلموا بكل قبيح ، وكان الفضل بن سهل بين يدي فأمر بإغلاق الأبواب وقال لي : قم فاصعد إلى المجلس الذي يتشرف فيه إشفاقاً على من دخولهم ، وسرعة أخذهم إياي وتعليلا لي بالصعود . فقلت له : ويحك مايغني الصعود والقوم يدخلون الساعة ليأخذوني . فلئن أكون بموضعي أصلح . فقال : اصعد فوالله ماتنزل إلاخليفة ، فجعلت اهزء به وأعجب منه وأحسب أنه ما قال إلا ليستجسني وأردت الهرب من أبواب الدار ، فلم يكن إلى ذلك سبيل لاحاطة القوم بالدار والأبواب . كلها . فألح علي إلى أن صعدت وأنا وجل فجلست في المشرفات ، وأنا أرى العسكر فلما علموا بصعودي اشتد طلبهم وشتمهم وضجيجهم ، ونادوني بالوعيد والشتم فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له :

إنك أنت جاهل ، وقد غررتنى فلم تدعنى أعمل برأيى وليس العجب إلا ممن قبل منك ، وهو فى هـذا يحلف أنى لا أنزل إلا خليفة وغيظى عليه يزداد وتعجبى منه ومن حمقه ومواصلته الإيمان بما يشاهده من الحال ، وكان ما أقاسيه منه أشد مما أقاسيه من الجند ، ثم وضعوا القوم النار فى شوك وضعوه وأدنوه من الدار ونقبوا فى سورها عدة نقوب ، وثلموا فيه جزاء فذهبت نفسى جزعاً ، وعلمت بأنى بين أن أحترق وبين أن يصلوا إلى فيقتلونى فهممت بأن ألقى نفسى اليهم ، وقدرت أنهم إذا رأونى استحيوا وانصرفوا وجعل الفضل بن سهل يقبل يدى ورجلى ويناشدنى أن لا أفعل ، وحلف أنى لا أنزل إلا خليفة وفى يده الاصطرلاب ينظر فيه فى الوقت بعد الوقت ، فلما علا الأمر واستحكم اليأس قال لى ياسيدى : والله أتاك الفرج أرى شيئـا فى الصحراء قد أقبل ومعه فرجنا فازددت من قوله غيظا ، وأمرت غلمانى بتأمل الصحراء فلم يروا شيئا وجد القوم فى الهدم والحريق ، حتى هممت لما دخلنى أن أرمى الفضل اليهم فقال الغلمان ياسيدى إنا نرى شيئا فى الصحراء قد أقبل يلوح فنظرت فاذا شيخ وجعل يزيد تبياباً إلى أن تبينوا رجلا على بغل يلوح ثم قرب من العسكر ، فقويت له قلوبنا ورأى الجند ذلك فتوقفوا وخالطهم فاذا هو يقول البشرى . هذا رأس على بن عيسى معى فى المخلاة ، فلما رأوا ذلك أمسكوا عنا وانقلبوا بالدعاء لى ، والسرور بالظفر والفتح فقال لى الفضل يا سيدى : ائذن لى فى ادخال بعضهم . فأذنت فشرط عليهم أن لا يدخل إلا من يريد . فأجابوا إلى ذلك وسمى قوما من القواد يعدهم واحداً واحداً ففعلوا ذلك واطمأ الله عز وجل تلك الثائرة ووهب لى السلامة وقلدنى الخلافة وظفرت من أموال على بن عيسى وما فى عسكره بما أصلحنا به جنودنا » وذكر أيضاً فى «كتابه» قال : حدثنا محمد بن مخلد ، عن أبيه مخلد بن أزدى المداينى الكاتب قال : كان مخلد يلقب لبـد لطول عمره فحدثنى أن المأمون لما قدم العراق خطر له أن يقلد الأعمال إلى السبعة الذين قدموا معه من خراسان وطالت عطلة كتاب السواد وعماله ، وكانوا يحضرون داره فى كل يوم حتى ساءت أحوال أكثرهم فخرج يوماً بعض مشايخ الشيعة ، وكان مغفلا فتأمل مخلدا فلم ير أسن منه فجلس اليه

فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أتخير ناحية من نواحي الخراج صالحة المرفق ليوقع بتقليدي إياها فاختر لي ناحية من نواحي الخراج فقال : لا أعرف لك عملا أولى بك من بريدات البحر وصدقات الوحش . فقال له أكتبه لي فكتبه له فعرض الشيعي الرقعة على المأمون وسأله تقليده العمل . فقال له : من كتب هذه الرقعة ؟ فقال شيخ من الكتاب يحضر الدار في كل يوم . فقال هلمه فلما حضر قال له ماهذا ياجاهل ؟ تفرغت لأصحابي . فقال : ياأمير المؤمنين أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ مايقع في أيديهم من الخزائن والأموال ، وأما شروط الخراج وحكمه ، وما يجب تعجيل استخراجه ، ومايجب تأخيره ، وما يجب اطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب انفاقه ، وما يجب احتباسه ، فلا يعرفونه وتقليدهم إياه يعود بذهاب الارتفاع فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنافر إلى أن يضم إلى كل رجل منهم رجل منا فيكون الشيعي يحفظ المال ونحن نجمعه . فاستصاب المأمون كلامه وأمر بتقليد عمال السواد ، وكتابه وأن يضم إلى كل واحد منهم رجلا من الشيعة وضم مخلد إلى ذلك الشيخ فقلده ناحية جليلة .

* * *

ووجدت في كتاب أبي الفرج الحنطي المخزومي الكاتب أن محمد بن عبد الحميد الحسمي قال : حججت في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وأنا في بعض المنازل راجعا إذ غشيتنا فقراء المدينة يستميجون ، فوقفت على جارية تتصدق بوجه كأنه القمر حين استدار ، ولون الشمس حين أنار ، فرددت طرفي عنها واستعذت بالله من الفتنة بها ، فلم تزل بين رجال الحاج وتعود إلى رحلي حتى وقفت فقلت لها : أما تستحين أن تبدين مثل هذا الوجه في مثل هذا الوقت والموضع بحضرة الخلائق فلطمت وجهها وقالت :

لم أبده حتى نقضت حيلتي أبديته وهو الأعز الأكرم
ويعز ذاك علي إلا أنه دهر يجور كما تراه ويظلم
قد صنته وحجبته حتى إذا لم يبق لي طمع ومات الهيثم

أبرزته من حجبه مقهورة   والله يشهد لى بذاك ويعلم
كشف الزمان قناعه فى بلدة   قل الصديق بها وعز الدرهم
أصبحت فى أرض الحجاز غريبة   وأبو ربيعة أسرتى ومحكم

قال فأعجبنى ما رأيت من جمالها وفصاحتها وأدبها وشعرها فبررتها وكتبت الأبيات منها وقلت لها ما اسمك؟ قالت: المهناة بنت الهيثم الشيبانى. وكان أبى جار النبى صلى الله عليه وسلم فزاره واعتل ونفد ماله وتوفى وتركنى فقيرة فاحتجت إلى التكفف قال: ورحلنا فلما صرنا إلى الدجلة دخلت إلى مالك بن طوق مسلماً فسألنى عن طريقى وسفرى وما رأيته فيه من الأعاجيب فحدثته بحديث الجارية فأعجبه واستظرفه وكتب الأبيات منى، فدخلت إلى منزلى بالشام فلما كان بعد مدة أتانى رسوله يستزيرنى فصرت اليه فلما كان بعد أيام من اجتماعنا كنت جالسا بحضرته فاذا خادمان قد جاءا ومعهما أكياس مختومة، وتخوت ثياب مشدودة فوضعاها إلى جانبى فقلت لمالك ماهذا؟ قال حق دلالتك على المهناة بنت الهيثم الشيبانى حتى أظفرنى الله تعالى بها وهى أرسلت هذا إليك من مالها، ولك من مالى ضعفه قلت فما الخبر: قال إنك لما انصرفت أنفذت رسلا إلى البادية ممن أثق بعقولهم وأماناتهم فما زالوا يسألون عنها حتى ظفروا بها، وحملوها إلى ووليها معها فلما جاءتنى رأيت منها زيادة عما كان زرعه فى نفسى حديثك عنها فتزوجتها من وليها، وجعلته أحد قوادى وأفضت عليها من دنياى حسب تمكنها من قلبى، فسألت عن سبب طلبى لها فأخبرتها خبرك، وكتبت أستزيرك لأعرفك هذا، وأقضى حقك فلما عرفت حضورك أنفذت هذا إليك، وقد أمرت لك بعشرين ألف درهم وعشر تخوت ثيابا، قال ابن عبد الحميد: فكانت أم عدة من أولاده * حدثنى أبو القاسم سعيد بن عبد الرحمن الكاتب الأصبهانى قال: كان أبو الحسن بن أبى الفضل يتقلد بلدنا فقدم عليه من بغداد شيخ من الكتاب يطلب التصرف وأورد عليه كتباً من إخوانه بالحضرة يذكرون طول عطلته وموقعه من الصناعة ويسألونه تصريفه فسلم الرجل وجلس، وأخرج اضبادة الكتب فتركها بين يديه، وكان فى الأمير حدة

وضجر ، فاستكثر الكتب وفض واحداً وقرأه وأقبل على شغله من غير أن يقرأ باقى الكتب وضجر ، وتغيظ وقال أليس كلها فى معنى واحد ؟ . قد والله بلينا بكم معاشر المتعطلين ، كل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد تصرفا أو براً ، ولو كانت خزائن الأرض لى لكانت قد نفدت . ياهذا : مالك عندى شىء ولا تصرف ، ولا لى عمل شاغر فأوده اليك ، ولا فى مالى فضل لبرك فدبر أمرك بمعرفتك . كل هذا والرجل ساكت إلى أن أمسك ابن أبى الفضل ، فلما سكن قال الرجل : أحسن الله جزاءك ، وتولى مكافأتك الحسنى ، وفعل بك وصنع . قال وأسرف الرجل فى شكره ، والدعاء له . ثم ولى منصرفا . فقال ابن أبى الفضل : ردوه . فرد . فقال ياهذا : أتسخر بى على أى شىء تشكرنى على إياسك من التصرف ، أوقطع رجائك فى الصلة وضجرى لك ، أو تريد خداعى بهذا الفعل ؟ فقال : ما أريد خداعك وما كان من قبيح الرد غير منكر لأنك حاكم ، ويلحقك ضجر ، ولعل الأمر كما ذكرته من كثرة الواردين عليك ، وقد تعبت بهم ، ولم أشكرك إلا فى موضع الشكر ، لأنك صدقتنى عما لى عندك فى أول مجلس ، فأعتقت عنقى من ذل الطمع ، وأرحتنى من التعب بالغدو والرواح إليك ، وكشفت لى ما أدبر أمرى به ، وكسوتى لم تخلق ، وبقية نفقتى معى ، ولعلهما يحملانى إلى بلد آخر ووجه سواك . قال : فأطرق الأمير . ومضى الرجل . فرفع رأسه . وقال : ردوه . فلحقوه فردوه فاعتذر اليه ، وأمر له بصلة وقال : تأخذها إلى أن أقلدك عملا يصلح لك ، فانى أرى فيك مصطنعاً . فلما كان بعد أيام قلده عملا جليلا ، وصلحت حال الرجل معه .

* * *

قال أبو الفرج المعروف الأصبهانى ، قال : حدثنى جحظة وهو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، قال : أحلت بى إضاقة أنفقت فيها جميع ما أملك حتى بقيت وليس فى بيتى غير البوارى ، فأصبحت يوما وأنا أفلس من طنبور بلا وتر ، كما قال

المثل ، ففكرت كيف أعمل ؟ فوقع لى أن أكتب إلى محبرة بن أبى عباد الكاتب وكنت أجاوره ، وكان قد ترك التصرف قبل ذلك بسنين ولزم بيته وحالفه النقرس فأزمنه حتى صار لا يتمكن من التصرف إلا محمولا على الأيدى أو المحفة . وكان مع ذلك على غاية الظرف ، وكبر النفس ، وعظم النعمة ، ومواصلة الشرب وان أتطايب عليه ليدعونى فآخذ منه ما أنفقه مدة فكتبت اليه :

ماذا ترى فى جدى   وفى عضبا وبوارد
ومشمع ليس يخطى   من نسل يحيى بن خالد
وقهوة ذات لون   تحكى خدود الجرائد

قال : فماشعرت إلا بمحفة محبرة تحملها غلمانه إلى دارى وأنا جالس على بابى فقلت له : لم جئت ومن دعاك ؟ قال : أنت . قلت : إنما قلت ماترى وعنيت بيتك وما قلت لك أنه فى بيتى ، وبيتى والله أفرغ من فؤاد أم موسى . فقال : الآن قد جئت ولا أرجع ، ولكن ادخل اليك واستدعى من دارى من أريد ، قلت : ذاك اليك فدخل بيت فلم ير إلا بارية . فقال يا أبا الحسن : هذا والله ضر مدقع ، ثم أنفذ إلى داره فاستدعى فرشاً وآلة وقماشاً وغلماناً وجاء فراشوه ففرشوا ذلك ، وجاؤا بالآلات الصفر والشمع وغير ذلك مما يحتاج اليه ، وجاء طباخه بما كان فى مطبخه وهو شىء كثير الآلات وجاء شرابيه بالصوانى ، والمخروطى ، والفاكهة وآلة التبخير ، والبخور ، وألوان الأنبذة وجلس يومه ذلك وليلته عندى . فشرب على غناء مغنية أحضرتها له كنت ألفتها . فلما كان من غد سلم إلى غلامه كيساً فيه ألف درهم ، ورزمة ثياب صحاح مفصلة من فاخر الثياب ، واستدعى محفته فجلس فيها فشيعته فلما بلغ آخر الصحن قال : مكانك يا أبا الحسن احفظ بابك . فكل مافى دارك لك . فلا تدع أحداً يحمل منه شيئاً . وقال لغلمانه اخرجوا فخرجوا بين يديه وأغلقت الباب على قماش بألوف كثيرة * وحدثنى عبدالله بن محمد بن عبدالله العبقسى ، قال : حدثنى بعض تجار أهل الكرخ ببغداد عن صديق له قال : كنت أعامل رجلا من الخراسانية أبيع له فى كل سنة متاعاً يقدم به فأنتفع من سمسرته

بألوف كثيرة فلما كان سنة من السنين تأخر عن الحاج ، فأثر ذلك فى حالى ، ثم توالت على محن وأغلقت دكانى . وجلست فى بيتى مستترا من دين ركبنى ثلاثاً أو أربع سنين ، فلما كان فى وقت ورود الحجاج تتبعت نفسى لأعرف خبر الخراسانى طمعا لإصلاح حالى بوروده ، فمضيت إلى سوق يحيى فلم أعط له خبراً ، ورجعت فنزلت إلى الجزيرة وأنا تعب مغموم ، وكان يوما حاراً ونزلت إلى دجلة فسبحت وصعدت وأنا رطب ، فابتل موضع قدمى وخطوت فعلقت برجلى قطعة رمل فانكشف سير فلبست ثيــابى ، وغسلت رجلى وجلست مفكراً أولع بالسير فانجر فلم أزل أجره حتى بان لى هميان من جلد فأخرجته فاذا هو مملوء فأخفيته تحت ثيـابى ، وجئت إلى منزلى ففتحته فاذا فيه ألف دينار عينا فقويت نفسى به قوة شديدة وقلت : اللهم لك على أنى متى صلحت حالى بهذه الدنانير وعادت ، أن أتحرى خبر هذا الهميان فمن علمت أنه له رددته عليه بقيمة ما فيه من الدنانير واحتفظت بالهميـان ، وأصلحت أمرى مع غرمائى ، وفتحت دكانى وعدت إلى رسمى فى التجارة والسمسرة فما مضت على إلا ثلاث سنين حتى صار فى ملكى عين وورق بألوف دنانير ، وجاء الحجاج فتبعتهم لأعرف خبر الهميان فلم يعطنى أحد خبره . فصرت إلى دكانى فأنا جالس وإذا برجل قائم حيال دكانى أشعث أغبر وافى السبال ، فى خلقه سؤال الخراسانيـة وزيهم فظننته سائلا ، فأومأت إلى دريهمـات لأعطيه فأسرع الانصراف فارتبت به وقمت فلحقته فتأملته فاذا هو صــاحبى الذى كنت أنتفع من سمسرته فى كل سنة . فقلت له : ما الذى أصابك ؟ وبكيت رحمة له . فبكى وقال : حديثى طويل . فقلت : البيت البيت . فحملته فأدخلته الحمام ، وألبسته ثيابا نظافا وأطعمته ، ثم سألته عن خبره فقال : أنت تعرف حالى ونعمتى وإنى أردت الخروج إلى الحج بعـد آخر سنة جئت إلى بغـداد فقال لى أمير بلدى : عندى قطعـة ياقوت أحمر كالكف ، لا قيمة لها عظما وجلالة ، ولا تصلح إلا للخليفة . فخذها معك فبعها لى ببغداد واشترى لى بها متاعا طلبه من عطر وظرف بكذا وكذا واحمل الباقى

مالا . فأخذت القطعة وهى كما قال فجعلتها فى هميان من صفته كيت وكيت . قال : ووصف الهميان الذى عندى ، وجعلت فى الهميان ألف دينار عيناً من مالى وجعلته على وسطى ، فلما جئت إلى بغداد ، نزلت أسبح فى الجزيرة بسوق يحيى وتركت الهميان وثيابى بحيث الاحظهما ، فلما صعدت من دجلة لبست ثيابى وقد غربت الشمس وأنسيت الهميان فلم أذكره إلا من غد ، فغدوت لطلبه وكأن الأرض قد ابتلعته فهونت على نفسى المصيبة ، وقلت : لعـل قيمـة الحجر خمسة آلاف دينار أغرمهـا فخرجت إلى الحج وقضيت حجى ورجعت إلى بلدى فأنفذت اليه ماحملته به ، وأخبرته بخبرى وقلت له : خذ منى تمام الخمسة آلاف دينار فطمع وقال : قيمة الحجر خمسون ألف دينار وقبض على جميع ما أملكه من مال ومتـــاع وأنزل صنوف المـكاره بى ، وحبسنى سبع سنين كنت أتردد فيها فى العذاب . فلما كان فى هذه السنة سأله الناس فى أمرى فأطلقنى فلم يمكننى المقام فى بلدى ، وتحمل شمـاتة الأعداء فخرجت على وجهى أعالج الفقر بحيث لا أعرف ، وجئت مع الخراسانية أمشى أكثر الطريق ، ولا أدرى ما أعمل فجئت لأشاورك فى معاش أتعلق به . فقلت ياهذا : قد رد الله عز وجل عليك ضالتك هذا الهميان الذى وصفته عندى ، وقد كان فيه ألف دينار أخذتها ، وعاهدت الله عز ذكره أنى ضامنها لمن يعطينى صفة الهميان ، وقد أعطيتنى صفته وعلمت أنه لك ، وقمت فجئت بكيس فيه ألف دينار فقلت : خذها وتعيش بها ببغداد فانك لا تعدم خيراً إن شاء الله تعالى . فقال لى ياسيدى : الهميان بعينه عندك لم يخرج عن يدك . قلت : نعم فشهق شهقة ظننت أنه قد تلف منها . وخر ساجداً فما أفاق إلا بعد ساعة ثم قال : ائتنى بالهميان ، فجئته به فقال : سكين فأعطيته فخرق أسفله واستخرج منه حجر ياقوت أحمر كالكف . وأشرق البيت منه حتى كاد لا يأخذ بصرى شعاعه وأقبل يشكرنى ويدعو لى وقلت : خذ ما شئت فحلف بكل يمين أنه لا يأخذ منها شيئاً إلا ثمن ناقة . ومحمل ونفقة تبلغه . فاجتهدت به فبعد جهد أخذ ثلثمائة دينار وأحلنى من الباقى . فلما كان فى العام المقبل جاءنى بقريب مما كان يجيئنى به سالماً . فقلت :

ما خبرك ؟ فقال مضيت وشرحت لأهل البلد خبرى وأريتهم الحجر فجاء معى وجوههم إلى الأمير وأعلموه القصة ، وخاطبوه فى إنصافى فأخذ الحجر ورد على جميع ما كان أخذه منى من مال وعقار وضياع وغير ذلك ، ووهب لى مالا من عنده وقال : اجعلنى فى حل بما عذبتك به . فأحللته وعادت نعمتى على ما كانت عليه وعدت إلى تجارتى ومعاشى وكل هـذا بفضل الله عز وجل وبركتك فعل الله بك وصنع . قال : وكان يجيئنى فى كل سنة إلى أن مات .

* * *

حدثنى عبد الله بن محمد بن الحسن الصرورى قال : حدثنى أبى أن رجلا حج وفى وسطه هميان فيه دنانير وجواهر قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار . وكان : الهميان من ديباج أسود فلما كان ببعض الطريق نزل ليبول فانحل الهميان من وسطه فسقط ولم يعلم بذلك إلا بعد أن سار عن الموضع فراسخ فاتفق أن جاء رجل فى أثره فجلس يبول فى مكانه فرأى الهميان فأخذه وكان عليه دين فحفظه . قال : وكان الرجل من أهل بلدنا فأخبرنى أنه لم يؤثر فى قلبى ذهابه لأنى استخلفته عند الله تعالى ، وكنت فى طريق الله عز وجل ، وكانت تجارتى عظيمة وأموالى كثيرة . قال : فلما قضيت حجتى وعدت وتتابعت المحن علىّ حتى لم أملك شيئا فهربت على وجهى من بلدى فلما كان بعد سنين من فقرى وقد أفضيت إلى أن أتصدق على الطريق وزوجتى معى وما أملك من تلك الليلة إلا دانقا ونصف ، وكانت الليلة مطيرة وقد أويت فى بعض القرى إلى خان خراب فضرب زوجتى الطلق فتحيرت وولدت . فقالت ياهذا : الساعة تخرج روحى فاخرج وخذلى شيئا أتقوى به . فخرجت أخبط فى الظلمة والمطر حتى جئت إلى بقال . قال : فدققت عليه فكلمنى بعد جهد وشرحت له حالى فرحمنى وأعطانى بتلك القطع حلبة وزيتا وأغلاهما وأعارنى غضارة جعلت ذلك فيها ، وجئت أريد الموضع فلما مشيت بعيداً وقربت من الخان زلقت رجلى وانكسرت الغضارة وذهب جميع ما فيها .

فورد على قلبي أمر عظيم ماورد على مثله قط . فأقبلت أبكي وألطم وأصيح فإذا برجل قد أخرج رأسه من شباك في داره فقال ويلك مالك تبكي . ماتدعنا أن ننام ؟ فشرحت له القصة فقال ياهذا : البكاء كله بسبب دانق ونصف فداخلني من الغم أعظم من الغم الأول فقلت ياهذا : والله ماعندي قدر لما ذهب مني ، ولكن بكائي رحمة لزوجتي ولنفسي مما قد وقعت إليه فان امرأتي تموت الآن وولدي جوعا . ووالله العلي الأعلا ، وعلي وحلف أيمانا غليظة لقد حججت في سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال شيئا كثيراً فذهب مني هميان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار فما فكرت فيه ، وهو ذا تراني الساعة أبكي بسبب دانق ونصف فضة فأسأل الله تعالى السلامة ، ولا تعايرني فتبلى بمثل بلواي . قال فقال لي : بالله يارجل ماكان صفة هميانك ؟ فأقبلت ألطم وقلت ماينفعني ما خاطبتني به وما تراه من جهدي وقيامي في المطر حتى تستهزيء بي أيضاً وما ينفعني وينفعك من صفة هميانى الذي الذي ضاع منذ كذا وكذا سنة ؟ . قال: ومشيت فإذا الرجل قد خرج وهو يصيح بي فقال : يارجل خذ هذا فظننته يتصدق علي فجئت وقلت له أي شيء تريد ؟ فقال لي صف هميانك وقبض علي فلم أجد للخلاص سبيل غير وصفه له فوصفته . فقال لي أدخل . فدخلت . فقال : أين امرأتك قلت في الخان الفلاني . قال فأنفذ غلمانه فجاؤا بها فأدخلت إلى حرمه فأصلحوا شأنها وأطعموها كل ماتحتاج إليه وجاؤني بجبة وقميص وعمامة وسراويل وأدخلني الحمام سحرا ، وطرحت ذلك علي فأصبحت في عيشة راضية . فقال : أقم عندي أياما فأقمت عشرة أيام فكان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير وأنا متحير في عظم بره بعد شدة جفائه فلما كان بعد ذلك قال لي : في أي شيء تتصرف قلت كنت تاجرا . قال فلي غلات وأنا أعطيك رأس مال تتجر فيه وتشركني ؟ . فقلت افعل ، فأخرج لي مائتي دينار فقال خذها واتجر فيها هاهنا . فقلت : هذا معاش قد أغناني الله يجب أن ألزمه فلزمته فلما كان بعد شهور ربحنا فجئته وأخذت حقي وأعطيته حقه . فقال لي : اجلس فجلست فأخرج إلي هميانى

بعينه وقال أتعرف هذا ؟ فحين رأيته شهقت وأغمى على فما أفقت إلا بعد ساعة ثم قلت له ياهذا ؟ أملك أنت أم نبى ؟ فقال أنا ممتحن بحفظه منذ كذا وكذا سنة . فلما سمعتك تلك الليلة تقول ماقلته وطالبتك بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت هميانك فخفت أن تنشق مرارتك فأعطيتك تلك الدنانير التى أوهمتك أنها هبة وإنما أعطيتكها من هميانك . والدنانير المائتان قرض فخذ هميانك واجعلنى فى حل . قال فشكرته ودعوت له وأخذت الهميان وارتجع دنانيره ورجعت إلى بلدى فبعت الجوهر وضممت ثمنه إلى مامعى واتجرت فما مضت إلا سنيات حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالى فأنا أعيش فى فضل الله تعالى وفى فضل تلك الدنانير إلى الآن .

* * *

عن أبى سهل زياد القطان صاحب على بن عيسى قال : كنت مع على بن عيسى لما نفى إلى مكة ودخلنا فى حر شديد وقد كدنا أن نتلف ، وطاف على بن عيسى وجاء فالق نفسه وهو كالميت من الحر والتعب وقلق قلقا شديدا وقال اشتهى على الله تعالى شربة ماء مثلوج . فقلت له ياسيدنا أيدك الله : أنت تعلم أن هذا مما لا يوجد فى هذا المكان . فقال هو كما قلت ، ولكن نفسى ضاقت عن ستر هذا القول ، فاستروحت إلى المنى . قال فخرجت من عنده فرجعت إلى المسجد الحرام فما استقررت فيه حتى نشأت سحابة وكثفت وبرقت ورعدت رعدا متصلا شديدا ثم جاءت بمطر يسير وبرد كثير فبادرت إلى الغلمان فقلت اجمعوا فجمعوا منه شيئا كثيرا وملأنا منه جررا كثيرة ، وجمع منه أهل مكة شيئا عظيما قال : وكان على بن عيسى صائما فلما كان وقت المغرب خرج إلى المسجد ليصلى المغرب فقلت له أنت والله مقبل والنكبة زائلة ، وهذه علامات الإقبال فاشرب الثلج كما طلبته . (قال) : وجئته فى المسجد بأقداح مملوءة بأصناف الأسوقة والأشربة مكبوسة بالبرد قال : فأقبل يسقى من يقرب منه من الصوفية ، والمجاورين ، فى المسجد الحرام ، والضعفاء ويشربونه ونحن نأتيه بما عندنا من ذلك وأقول له اشرب . فيقول : حتى تشرب الناس فخبأت له خمسة أرطال وقلت له لم يبق شىء . فقال الحمد لله

ليتنى كنت تمنيت المغفرة بدلا من تمنى ثلج ولعلى كنت أجاب . فلما دخل المبيت حلفت عليه أن يشرب ومازلت أداريه حتى شرب منه بقليل سوى بقية ليلته * حدثنى عبدالله بن محمد بن الحسين بن الحسن العبقسى . قال : حدثنى أبى ، قال : كان يجاورنى فتى من أولاد الكتاب ورث عن أبيه مالا جليلا أتلفه فى القيان ، وأكله إسرافا وبدارا حتى لم يبق منه شىء فاحتاج إلى بعض داره فلم يبق منها إلا بيت يأويه فحدثنى بعض من كان يعاشره قال : صرت إليه يوما بعد انقطاعى عنه بنحو سنة لأعرف خبره فدخلت عليه فوجدته نائما فى ذلك البيت فى يوم بارد على حصير خلق ، وقد توطأ وطأ كأنه حشو فراش ، وقد تغطا بقطن كأنه حشو لحاف ، فهو بين ذلك القطن كأنه السفرجل . فقلت ويحك : بلغت إلى هذا الحال ؟ قال هو الحد ماترى . قلت فهل لك حاجة ؟ قال أو تقضيها . فظننته يطلب منى شيئا لنفقة فقلت : أى والله . قال اشتهى أن تحملنى إلى بيت فلانة المغنية حتى أراها . يعنى المغنية التى يعشقها وأتلف ماله بسببها . قال وبكى فرققت له ومضيت إلى منزلى فجئته من ثياب بما لبسه وأدخلته الحمام وحملته إلى بيتى ، فأطعمته وبخرته وأخذت بيده وقصدنا دار المغنية فلما رأتنا لم تشك فى أن حاله صلحت وأنه قد جاءها بدراهم فبشت به وسألته عن خبره ؟ فصدقها عن حاله حتى انتهى إلى ذكر الثياب وأنها لى . فقالت له فى الحال : قم فقال : لم ؟ قالت لئلا تجى ستى فتراك وليس معك شىء فتحرد على فاخرج إلى برا حتى أصعد فأكلمك من فوق . فخرج وجعل ينظر أن تخاطبه من روزنة فى الدار إلى الشارع وهو جالس فقلبت عليه مرقة سكباج فصيرته آية ونكالا وضحكت فبكى وقال : يا أبا فلان : بلغ أمرى إلى هاهنا ، أشهد الله وأشهدك أنى تائب عنها ، فأخذت أتعظ به وقلت : أى شىء تنفعك التوبة الآن ورددته إلى بيته ونزعت ثيابى عنه وتركته بين القطن كما كان أولا ، وحملت ثيابى وغسلتها وأيست منه فما عرفت له خبرا نحو ثلاث سنين . فأنا ذات يوم فى باب الطاق فإذا بغلام يطرق لرجل راكب فرفعت رأسى فإذا به على برذون فاره ، بمركب خفيف مليح ، وثياب حسنة وكان قديما فى أيام يساره يركب من الدواب والمراكب

أنخرها وآلته وثيابه وقماشه أنخرشيء ، فحين رآنى قال فلان فعلمت أن حاله صلحت وقبلت فخذه وقلت سيدى أبو فلان . قال : نعم . فقلت أى شيء هذا ؟ قال صنع الله عز وجل وله الحمد والشكر البيت ، البيت . قال فتبعته حتى انتهيت إلى بابه فإذا الدار الأولى قد رمها وجصصها وطبقها وبنى فيها مجلسين متقابلين وخزائن ومستراحاً وجعل ماكان فى الدار من البيوت والمجالس صحناً كبيراً وقد صارت طيبة إلا أنها ليست بذلك السرور الأول ، وأدخلنى حجرة كان يخلو فيها قديما وأعادها كأحسن ما كانت وفيها فرش حسنة ، ولكن ليس من ذلك الجنس الأول ، وليس فى داره إلا ثلاث غلمان وخادم قد كنت أعرفه لأبيه قد رده وأقامه على حرمه ، وشيخ بواب ممن كان يصحبهم قديماً ، ووكيل يتسوق له فجلس وأجلسنى ، وجاؤنا بفاكهة حسنة نظيفة قليلة فى آلة مقتصدة مليحة ، ثم جاؤا بعدها بطعام نظيف كاف غير مسرف ولا مقصر ، فأكلنا ثم نام ولم تكن تلك عادته ومدت ستار ، وأحضرت مشام ورياحين فى صيوان وزبدات والجميع متوسط غـــير مسرف وانتبه فصلى وتبخر بقطعة ند جديدة وبخرنى بمثلها : فقلت يا سيدى : ما هذه الترتيبات التى لست أعرفها ؟ . فقال : دع مامضى وخذ مانحن فيه وأقبل يشرب وغنى من وراء ستارة ثلاث جوار فى نهاية طيب الغناء كل واحدة منهن أحسن وأطيب من التى أتلف عليها ماله ، فلما طابت نفسى ونفسه قال يا أبا فلان : تذكر زماننا الأول ؟ قلت نعم . قال أنا الآن فى همة متوسطة وما أفدته من العقل والعلم بأمر الدنيا ليسليني عما ذهب منى ، وهو ذا ترى فرشى وثيابى ، ومركبى ، فلم يكن ذلك بالعظيم المفرط ففيه جمال وبغال ، وتنعم وكفاية وهو مغن عن ذلك الإسراف والتبذير وقد تخلصت من تلك الشدة الشديدة تذكر يوم عاملتنى فلانة المغنية لعنها الله تعـــالى بما عاملتنى به . قلت : نعم . والحمد لله الذى كشف عنك ذلك . فمن أين هـــذه النعمة ؟ قال مات خادم كان مولى لأبى وابن عم فى يوم واحد فحصل لى من تركتهما أربعون ألف دينار وصل أكثرها وأنا بين القطن كما رأيتنى ، فحمدت الله تعالى واعتقدت التوبة من التدبير السيء ، وأنا أدبر مارزقته فعمرت هذه الدار

بألف دينار ، واشتريت من الآلة والفرش والثياب والجوارى ماتراه وغيره بسبعة آلاف دينار ، وسلمت إلى بعض التجار الثقات ألفى دينار يتجر لى فيها ، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار للشدائد والحوادث ، وابتعت بالباقى ضيعة تغل فى كل سنة مايزيد على مقدار نفقتى هذه التى شاهدتها فما أبقى أحتاج إلى الاستزادة وما تقبل غلة إلا وعندى بقية من الغلة الأولى ، وأنا أتقلب فى نعم الله تعالى كاترى ، ومن تمام النعمة أن لا أعاشرك ولا أحد ممن كان يحسن لى الإسراف . ياغلمان : اخرجوه قال : فأخرجت ووالله فما أذن لى بعدها فى الدخول عليه .

* * *

حدثنى أبى قال بلغنى من غير واحد أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة على فقر شديد ، وكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش فيعود إلى منزله إلى فقر شديد ، وكانت أمه تحتال فيما يقتاته يوما بيوم ، فلما طال ذلك عليها خرج إلى المجلس يوما فأقام فيه وعاد ليلا وطلب ما يأكل ، فجاءته بغضارة مغطاة فكشفها فإذا فيها دفاتر . فقال ماهذا ؟ قالت ما أنت مشغول به نهارك أجمع فكل منه ليلا . قال : فبكى وبات جائعا وتأخر من غد عن المجلس حتى احتال فيما أكلوه فلما جاء إلى أبى حنيفة سأله عن سبب تأخره فصدقه . فقال : ألا عرفتنى فكنت أمدك ولا يجب أن تغتم فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشر . قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد واختصصت به قدم بحضرته يوماً لوزينج بفستق مقشر فدعانى إليها فحين أكلت منها ذكرت أبا حنيفة فبكيت وحمدت الله تعالى . فسألنى الرشيد عن السبب فأخبرته ٭ حدثنى أبو الحسين محمد بن عبد الواحد الهاشمى : أن شيخا من التجار كان له عند بعض القواد مال جليل فماطله واستخف به . قال فعملت على الظلامة إلى المعتضد لأنى كنت تحملت عليه واستشفعت ، وتظلمت إلى عبيدالله بن سليمان فلم ينجع ذلك . فقال لى بعض إخوانى : على أن آخذ لك المال ولا تحتاج إلى الظلامة إلى المعتضد . قم معى الساعة . فقمت معه فجاء بى إلى خياط فى سوق الثلاثاء وهو جالس يخيط

ويقرأ القرآن فى مسجد ، فقص عليه قصتى فقام معنا فلما مشينا تأخرت وقلت لصديقى : إنك قد عرضت هذا الشيخ ونفسك وإياى لمكروه عظيم هذا إذا حصل على باب الرجل صفع وصفعنا معه لم يلتفت لفلان وفلان ، ولم يفكر فى الوزير فكيف يفكر فى هذا الفقير ؟ ! فضحك الرجل وقال : لا عليك امش واسكت . فجئنا إلى باب القائد فحين رآه غلمانه أعظموه ، وأهووا لتقبيل يده ، فمنعهم من ذلك وقالوا : ماحاجتك أيها الشيخ فان صاحبنا راكب ؟ فان كان أمراً نعلمه نحن بادرنا اليه وإلا فادخل واجلس إلى أن يجىء فقويت نفسى فدخلنا وجاء الرجل . فلما رأى الخياط أعظمه إعظاماتاما وقال : لست أخلع ثيابى حتى تأمر بأمرك . فخاطبه فى أمرى . فقال : والله ماعندى إلا خمسة آلاف درهم فتسأله أن يأخذها ورهنا بباقى ماله إلى شهر ، فبادرت بالإجابه فأحضر الدراهم وحلياً بقيمة الباقى فقبضت ذلك وأشهدت الخياط ورفيقى عليه إلى شهر يكون الرهن عندى على البقية فان حان الأجل ولم يسدد فأنا وكيل أبيع وآخذ مالى من ثمنه وخرجنا . فلما بلغنا إلى موضع الخياط طرحت المال بين يديه ، وقلت ياشيخ : إن الله تعالى قد رد هذا المال بك . فأحب أن تأخذ ربعه ، أو ثلثه ، أو نصفه بطيب قلب منى . فقال ماأسرع ما كافيتنى عن الجميل بالقبيح ؟ ! انصرف بمالك بارك الله لك فيه . فقلت له : قد بقيت لى حاجة فقال : قل . قلت : تخبرنى عن سبب طاعة هذا لك بعد تهاونه بأكثر أهل المملكة ؟ فقال ياهذا : قد بلغت مرادك فلا تقطعنى عن شغلى . فألححت عليه فقال : أنا رجل أؤم واقرى فى هذا المسجد منذ أربعين سنة ، ومعاشى هذه الخياطة لا أعرف غيرها وكنت منذ دهر قد صليت المغرب وخرجت أريد منزلى فاجتزت بتركى كان فى هذه الدار ، وامرأة جميلة تجتاره وتتعلق بها وهو سكران ليدخلها داره ، وهى ممتنعة تستغيث وليس أحد يغيثها ولا يمنعه منها . وتقول فى جملة كلامها : قد حلف زوجى بطلاقى أن لا أبيت إلا عنده ، فان بيتنى هنا حرمنى مع ما يرتكبه منى من المعصية . قال فجئت إلى التركى ورفقت به وسألته تركها فضرب رأسى بدبوس فشجنى وأدخل المرأة داره نصرت ، إلى منزلى فغسلت الدم وشددت الشجة وخرجت أصلى عشاء الآخرة . فلما فرغت منها

قلت لمن حضر قوموا معى إلى عدو الله هذا التركى ننكر عليه ، ولا نبرح أو يخرج المرأة . فقاموا وجئنا فصحنا على بابه فخرج علينا فى عدة من غلمانه وأوقع بنا ، وقصدنى من دون الجماعة فضربنى ضرباً عظيما حتى كدت أتلف منه ، فحملنى الجيران كالتالف فعالجنى أهلى ونمت نوما ثقيلا وفقت نصف الليل فما حملنى النوم للألم وفكراً للقصة فقلت : هذا قد شرب طول ليلته ، ولا يعرف الأوقات فلو أذنت لوقع له أن الفجر قد طلع فأطلق المرأة فلحقت بيتها قبل الفجر فسلمت من إحدى المكروهين . فخرجت إلى المسجد متحاملا وصعدت المنارة فأذنت ، وجعلت أتطلع منها إلى الطريق أراقب خروج المرأة فان خرجت وإلا أقمت الصلاة لكى لا يشك فى الصباح فيخرجها فما مضت إلا ساعة والمرأة عنده إلا وقد امتلأ الشارع خيلا ورجلا ومشاعل وهم يقولون : من هذا الذى أذن الساعة أين هو ؟ ففزعت وسكت ثم قلت أخاطبهم لعلى أستعين بهم على إخراج المرأة فصحت من المنارة أنا أذنت . فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فقلت دنا الفرج ، فنزلت فإذا بدر وعدة غلمان معه فحملنى وأدخلنى على أمير المؤمنين فلما رأيته هبته ، وارتعدت فسكن منى وقال : ماحملك على أن تغرر بالمسلمين بأذانك فى غير وقته ، فيخرج ذو الحاجة فى غير حينها ، ويمسك المريد للصوم فى وقت قد أبيح له فيه الإفطار ، وينقطع العسس عن الطواف والحرس . فقلت : فليؤمننى أمير المؤمنين لأصدق . قال : أنت آمن . فقصصت عليه القصة وأريته الضرب . فقال : يابدر على بالغلام والمرأة فى هذه الساعة ، وعزلت فى موضع ، ومضى بدر وأحضر الغلام والمرأة فسألها المعتضد عن الصورة فأخبرته بمثل ماقلته ، فقال لبدر : بادر بها الساعة إلى زوجها مع ثقة يدخلها دارها ويشرح لزوجها خبرها ، ويأمره عنى بالتمسك بها والإحسان اليها ، ثم استدعانى فوقفت وجعل يخاطب للغلام وأنا قائم اسمع الكلام . فقال له : يافلان كم جرايتك فى كل سنة ؟ قال كذا وكذا قال : وكم عطاؤك ؟ قال كذا وكذا . قال فما كان لك فيهن وفى هذه النعمة العظيمة العريضة كف عن ارتكاب معاصى الله تعالى وخرق هيبة السلطان حتى استعملت ذلك وتجاوزته بالوثوب على من أمرك بالمعروف ؟! قال : فأسقط

الغلام في يده ولم يدر جوابا . فقال هاتوا جوالقاً ومداق الجص وقيداه وغلاه فقيده وأغله وأدخله الجوالق وأمر الفراشين بدقه بمداق الجص وأنا أرى ذلك وهو يصيح ثم انقطع صوته ومات وأمر به فغرق في دجلة . وتقدم لبدر بحمل ما في داره ثم قال لي ياشيخ أي شيء رأيت من أجناس المكروه ولو على هذا وأومى بيده إلى بدر فالعلامة بيننا أن تؤذن في هذا الوقت . فإني أسمع صوتك وأستدعيك وافعل مثل هذا بمن لا يقبل منك أو يؤذيك . قال فدعوت له . وانصرفت . وانتشر الخبر عند الأولياء والغلمان فما خاطبت منهم أحدا بعدها في إنصاف أحد ، أو كف عن قبيح إلا طاوعني كما رأيت خوفا من المعتضد . وما احتجت أن أوأذن إلى الآن .

☆ ☆ ☆

وجدت في بعض الكتب عن الأصمعي قال : كنت بالبصرة أطلب العلم وأنا مقل ، وكان على بابنا بقال إذا خرجت بكرة يقول لي إلى أين ؟ فأقول إلى فلان المحدث ، وإذا عدت المساء يقول لي من أين ؟ فأقول : من عند فلان الاخباري واللغوي . فيقول ياهذا : إقبل وصيتي أنت شاب فلا تضيع نفسك ، واطلب معاشا يعود عليك نفعه ، واعطني جميع ما عندك من الكتب أطرحها في هذا الدن وأصب عليها من الماء للعشرة أربعة وأنبذه وانظر ما يكون منه ، والله لو طلبت مني بجميع ما لديك من الكتب جوزة ما أعطيتك . فيضيق صدري بمداومة الكلام حتى كنت أخرج من بيتي ليلا ، وأدخله ليلا وحالي في خلال ذلك يزداد ضيقا حتى أفضيت إلى بيع آخر أساسات داري وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يوم ، وطال شعري واخلق ثوبي ، واتسخ بدني وأنا كذلك متحير في أمري إذ جاء لي خادم للأمير محمد بن سليمان قال : أجب الأمير . فقلت ما يصنع الأمير برجل قد بلغ به الفقر إلى ما ترى ؟ فلما رأى سوء حالي وقبيح منظري رجع فأخبر الأمير بخبري . وعاد إلي ومعه تفوت ثياب ودرج فيه بخور ، وكيس فيه دنانير وقال : قد أمرني الأمير أن أدخلك الحمام ، وألبسك من هذه الثياب ، وأدع باقيها عليك ، وأطعمك من هذا الطعام ، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الأطعمة ، وأبخرك لترجع اليك روحك . ثم أطلعك عليه

فسررت بذلك سروراً شديداً ودعوت له . فقمت وعملت ما قاله ومضيت معه حتى دخلت على محمد بن سليمان فسلمت عليه فقربني ورفعني ثم قال يا عبد الملك : قد اخترتك لتأديب ولدي أمير المؤمنين فاعمل على الخروج إلى بابه وانظر كيف يكون فشكرته ودعوت له وقلت : سمعاً وطاعة ساخرج شيئاً من كتبي وأتوجه فقال : ودعني وكن على الطريق فقبلت يده وأخذت جميع ما احتجت اليه من كتبي وجعلت باقيها في بيت وسددت بابه وأقعدت على الدار عجوزاً من أهلنا تحفظها ، وباكرني رسول محمد بن سليمان وأخذني إلى ذلال قد اتخذلي وفيه ما أحتاج اليه وجلس معي ينفق على حتى وصلت إلى بغداد ودخلت على أمير المؤمنين فسلمت عليه فرد على السلام وقال : أنت عبد الملك بن قريب الأصمعي ؟ قلت : نعم . أنا عبد أمير المؤمنين ابن قريب الأصمعي قال : اعلم أن ولد الرجل مهجة قلبه وثمرة فؤاده ، وهوذا أسلم اليك ابني محمد بأمانة الله فلا تعلمه ما يفسد عليه دينه فلعل أن يكون للمسلمين إماما . قلت : السمع والطاعة وأخرجه إلى وتحولت معه إلى دار قد أخليت لنا لتأديبه فيها وبها من أصناف الخدم والفرش ما يسر وأجرى على في كل شهر عشرة آلاف درهم ، وأمر بأن يخرج إلى في كل يوم مائدة فلزمته ، وكنت مع ذلك أقضي حوائج الناس ، وأخذ عليها للرغائب ، وأنفذ جميع ما يجتمع أولا فأولا إلى البصرة فابني داري وأشتري ضياعا وعقاراً فأقمت معه حتى قرأ القرآن وتفقه في الدين وروى الشعر . واللغة . وروى أيام الناس وأخبارهم ، واستعرضه الرشيد فأعجب به وقال ياعبد الملك : أريد أن يصلي بالناس إماماً في يوم جمعة فاختر له خطبة وحفظه إياها فحفظته عشرا . فخرج وصلى بالناس وأنا معه ، فأعجب الرشيد به وأخذه نثار الدراهم والدنانير من الخاصة والعامة واتى الجوائز والصلاة على من كل ناحية فجمعت مالا عظيما . ثم استدعاني الرشيد فقال : يا عبد الملك قد أحسنت الخدمة فتمنى . فقلت : ما عسيت أن أتمنى وقد حزت آمالي فأمر لي بمال عظيم وكسوة كثيرة وطيب فاخر ، وعبيد واماء ، وظهر وفرش وآلة فقلت ان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بالإلمام إلى البصرة والكتابة إلى عامله بها أن يخاطب الناس الخاصة والعامة بالسلام على ثلاث أيام ، وإكرامي بعد ذلك فكتب لي عنه بما أردت

وانحدرت إلى البصرة وداري قد عمرت ، وضيعي قد كثرت ، ونعمتي قد فشت فما تأخر عني أحد فلما كان في اليوم الثالث تأملت أصاغر من جاءني فاذا البقال وعليه عمامة وسخة ، ورداء نظيف ، وجبة قصيرة ، وقميص طويل في رجله جرموقان وهو بلا سراويل فقال لي : كيف أنت ياعبد الملك ؟ فاستضحكت من حماقته وخطابه لي بما كان يخاطبني الرشيد . فقلت بخير وقد قبلت وصيتك وجمعت ماعندي من كتب العلم وطرحتها في الدن كما أمرت وصببت عليه من الماء للعشرة أربعة فخرج ماترى ، ثم أحسنت اليه بعد ذلك وجعلته وكيلي .

* * *

أخبرني القاضي أبو علي محسن بن علي قال مسرور الكبير : استدعاني المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي : خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما لي أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم . واذهب مسرعاً لما أقول لك فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلا إلى آثار دور البرامكة وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيرا ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرائب ، فاستتروا خلف بعض الجدران فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً فأتوني به . قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفراً ... ونادى مناد للخليفة يايحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ففزع فزعاً شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ، ثم سرنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت ؟ وبما استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم ؟

قال الخادم ونحن نسمع يا أمير المؤمنين : إن للبرامكة أيادى خضرة عندى أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهما ؟ قال : قل . فقال يا أمير المؤمنين : أنا المنذر ابن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع ما لى رأسى ورؤوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبى وصبية وليس معنا مايباع ولا يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوت ببعض ثياب كنت عددتها لأستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لاشىء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلا عن البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف ، وفى جانبه شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بامرد نبت العذار فى خديه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متمنطقون ، فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة من ذهب وفى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهد وقد قرن به مثله من العنبر السلطانى فوضعوه بين يدى الغلام وجلس إلى جنب يحيى ثم قال للقاضى تكلم : وزوج عائشة من ابن أخى هذا . فخطب القاضى خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ونظرت وإذا نحن فى المكان مابين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة وإثنى عشر ، فاذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية فرأيت القاضى والمشايخ يضعون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصنية فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى

والصينية فى يدى وقت ، وجعلت أتلفت إلى ورائى مخافة ان أمنع من الذهاب فبينما أنا كذلك وقد وصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظنى فقال للخادم : ائتنى بهذا الرجل . فأتيته فقال : مالى أراك تلتفت يميناً وشمالا فقصصت عليه قصتى . فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى . فأتاه به ، فقال له : يا بنى هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك . فقبض موسى ولده على يدى وأدخلنى إلى دار من دوره فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور . فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال له الوزير : أمرنى بالعطف على هذا الفتى وقد علمت اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين فاقبضه اليك وأكرمه ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، ثم لما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد فلم أزل فى أيدى القوم يتداولونى مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الاحياء ، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا : قم اخرج إلى عيالك بسلام . فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية واخرج على هذه الحالة إنا لله وإنا اليه راجعون فرفع الستر الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، وقال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به . فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنا ونوراً واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق . وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب . فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل أجحف بى عمرو بن مسعدة ، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفى دخلهما به ، فلما تحامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد خرابات دورهم فاندبهم واذكر حسن صنيعهم إلى وأبكى على إحسانهم . فقال المأمون : على بعمرو بن مسعدة فلما أتى به

قال له : أتعرف هذا الرجل ؟ قال يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال : كم ألزمته فى ضيعته ؟ قال : كذا . وكذا . فقال له : رد إليه كل ما أخذته منه فى مدته ، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نحيب الرجل فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له ياهذا : قد أحسنا اليك فما يبكيك ؟ قال ياأمير المؤمنين : وهذا أيضا من صنيع البرامكة لو لم آت خراباتهم فابكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى إلى أمير المؤمنين ففعل بى مافعل من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ؟ : قال إبراهيم بن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه . وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر .

* * *

بلغنى أنه كان رجل من أهل الكوفة من ذوى الأدب والظرف يعاشر النـاس وتأتيه ألطافهم فيعيش بها متسعاً ثم انقلب الدهر عليه فأمسك الناس عنـه وجفوه ، حتى قعد فى بيته والتجأ إلى عيابه وشاركهن فى فضل مغازلهن فاستتم ذلك عليه ، وناسيه الناس ولزمه الفقر . قال : فبينما أنا ذات ليـلة فى منزلى على أسوء حال ، وإذا بوقع حافر دابة ورجل يدق البـاب فكلمته من ورائه وقلت له : ماحاجتك ؟ قال إن اخاً لك لاأسميه يقرأ عليك السلام ويقول : إنى مستتر وليس آنس بكل أحد فان رأيت أن تصير إلى لنتحدث ليلتنا قلت : لعل سعدى يكون قد تحرك ، ثم لم أجد شيئا ألبسه فاشتملت بإزار امرأتى وخرجت فقدم إلى فرساً مجنوباً كان معه فركبته إلى أن أدخلنى إلى فتى أجمل الناس فقام إلى وعانقنى ، ودعا بالعشاء . فأكلنا وبالشراب فشربنا ، وأخذنا فى الحديث فما خضت فى شىء إلا وسبقنى اليه حتى إذا صار السحر قال : إن رأيت أن لاتسألنى عن شىء من أمرى أو تجعل هذه الزيارة بينى وبينك إذا أرسلت اليك . فقال : وهنا دارهم تقبلها ولا تردها ، وأخرج إلى جراباً مملوءاً دراهم ودنانير فدخلتنى أريحية الشراب فقلت : اخترتنى على الناس لسرك فآخذ على ذلك جزاء لاحاجة لى بالمال فجهدنى فلم آخذه . وقدم إلى الفرس فركبت وعدت إلى منزلى فدخلته مخنقاً وعيالى

يتطلعن إلى ما أجيء به. فأخبرتهن بخبرى وأصبحت نادما على فعلى وقد ورد على وعلى عيالى مالم يكن فى حسابنا فمكثت حينا لايأتى رسول الرجل إلى أن جاءنى بعد مدة فصرت اليه فعاودنى مثل ذلك الفعل وعاودته الامتناع وانصرفت مخفقا فأقبلت امرأتى على باللوم والتوبيخ فقلت لها : أنت طالق ثلاثاً إذ عاودنى فلم آخذ ما يعطينى . فمكثت على ذلك مدة أطول من الأولى ثم جاءنى رسوله ، فلما أردت الركوب قالت لى امرأتى يامشؤم اذكر يمينك وبكاء بناتى ، وسوء حالك وصرت إلى الرجل فلما مضينا إلى الشراب وأما أحادثه إلى أن أبلج الفجر وأخرج إلى الجراب فعاودنى فى الكلام . فأخذته ، فقبل رأسى وتشكر لى على قبوله وقدم إلى الفرس وانصرفت عنه إلى منزلى فلقيت الجراب فلما رأينه عيالى سجدن لله شكراً وفتحناه فاذا هو مملوء دنانير فأصلحت من حالى ، واشتريت مركوباً وثياباً حسنة وأثاثاً وضيعة قدرت أن غلتها تفى بى وبعيالى بعدى واستظهرت على زمانى ببقية الدنانير وانهال الناس على يظهرون الفرح بما تجـــدد لى وظنوا أنى كنت غائباً فى انتجاع ملك وعدت مسرياً . وانقطع رسل الرجل عنى فبينما أنا أسير فى القرب من منزلى وإذا ضوضاء شديدة وجماعة متجمعة فقلت ماهذا ؟ فقالوا : رجل من مدينة فلان يقطع الطريق فطلبه السلطان إلى أن عرف خبره هنا فهجم عليه فخرج على الناس بالسيف يمنع عن نفسه فقربت من الجميع وتأملت الرجل فإذا هو صاحبى بعينه يقاتل الناس والشرط فينكشف الناس عنه ويكرون عليه ويضايقونه ، فنزلت عن فرسى واقبلت أقوده حتى دنوت منه وقد انكشفت النـاس فقلت له : بأبى أنت وأمى أنت شأنك والفرس ، واطلب النجاه فاستوى على ظهره فلم يلحقوه فقبض على وأقبلوا يتهددونى حتى جاؤا إلى عيسى بن موسىٰ وكان لى عارفا فقالوا : أيها الأمير إنا كدنا أن نأسر الرجل فجاء هذا فأعطاه فرساً فنجاه عليه . فاشتد غضب عيسى بن موسى وكاد أن يوقع بى وأنا مــكر وشرحت له ما كان أفضى بى الحال اليه وما عاملنى به الرجل من الجميل وإنى كافأته فقال لى : أحسنت لابأس عليك . ثم التفت إلى الناس وقال ياحمق هذا مستقتل بسيف قد تكلمتم عنه بأجمعكم

فكيف كان هو يدفعه عن فرسه انصرفوا . ثم خلا سبيلي فانصرفت إلى منزلي وقد قضيت زمام الفتى وخلصت النعمة بعد الشدة وأمنت عواقب الحال وكان آخر عهدي به والسلام * سرق لجعفر بن سليمان الهاشمي جوهر بالبصرة وهو أميرها فجهد أن يعرف له خبرا فخفي عليه الفاعل فأغاظه فجاء بالشرط وضربهم فجدوا في الطلب ، فلما كان بعد ذلك بشهور أتاه بعضهم برجل وجده يبيع في سفط درة فاخرة من ذلك الجوهر وقد قبض عليه وضربه ضرباً عظيما إلى أن أقر فأخبر جعفر بخبره فأذن له في دخوله فلما رأى الرجل جعفر استغاث به وبكى فرحمه جعفر وقال : ألم تكن طلبت مني هذه الدرة في وقت كذا فوهبتها لك . فقال للشرط خلوا عنه واطلبوا الغريم . وروت الفرس قريباً من هذا فذكروا أن بعض ملوكهم سخط له على حاجب سخطاً عظيما فألزمه بيته وكان فيه كالمحبوس وقطع عنه أرزاقه وجراياته وأقام على ذلك سنين حتى تهتك ولم يبق له مال ، ثم بلغه أن الملك قد اتخذ سماطاً عظيما يحضره الناس في غد ذلك اليوم فأرسل إلى أصدقائه وأعلمهم بأن له مال ويجب أن يبعث بعض ولده ليحضره واستعار منهم دابة بسرجها ولجامها وغلاما ليسعى بين يديه وخلعة يلبسها وسيفاً ومنطقة فأعير ذلك فلبسه وركب الدابة وخرج من بيته حتى جاء دار الملك ، فلما رآه البوابون لم يشكوا في أنه لم يقدم على ذلك إلا بإذن الملك وتذمموا التقدم وأن يحجبوه حتى يستأذنوا فدخل وهو مظهر لقوة الجأش ولم يزل حاله مع طائفة منهم يقوى نفسه إلى أن وصل إلى الملك وقد أكل وهو جالس يشرب فلما رآه الملك قطب وأنكر حضوره وهم أن يأمر به وبالحجاب والبوابين فكره أن ينغص يوما قد أفرده بالسرور على نفسه وأقبل الرجل يخدم فيما كان يخدم فيه قديماً فازدادت حالته تمويهاً على الحجاب والحاشية إلى أن كاد المجلس ينصرم وغفل أكثر من كان حاضراً فيه فتقدم إلى صينية من ذهب تزن ألف مثقال مملوءة مسكا فأخذها بخفة وجعل المسك في كمه والصينية في حقه ، وخرج فركب وعاد إلى منزله ورد العوارى على أهلها وباع المسك

وكسر الصينية وجعلها دنانير واتسع بها وأفاق الملك فى غد من سكرته وقد سمع الذين يخدمون فى الشراب يطلبون الصينية وقهرمان الدار يطالب بها ويضرب قوماً من أجلها فذكر حديث الحاجب وعلم أن ماحمله على الإقدام على مثل ذلك الأمر إلا الأمن وراء شدة وضر . فقال لقهرمانه : لا تطلب الصينية فما لأحد فى ضياعها ذنب قد أخذها من لا يردها ومنظره لا ينم عليه . فلما كان بعد سنة عاد ذلك الحاجب إلى شدة الاضافة لنفاد الدنانير وبلغه خبر سماط يكون عند الملك فى غد يومه فاحتال بحيلة أخرى حتى دخل على الملك فلما رآه الملك قال يافلان : قد نفدت تلك الدنانير فقبل الأرض بين يديه وبكى ومرغ خديه وقال أيها الملك : قد احتلت مرتين فى أن تقتلنى فأستريح مما أنا فيه من عظم الضر الذى أعانيه أو تعنوا عنى كما يليق بك وتذكر حرمتى فأعيش فى ظلك وليس لى بعد هذه الكرة حيلة فرق له الملك وعفا عنه وأمر برد أرزاقه ونعمته ورده إلى حالته الأولى فى خدمته .

* * *

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه قال : نالت عمر بن هبيرة ضائقة شديدة فأصبح ذات يوم فى نهاية الكسل وضيقة الصدر والضجر مما هو فيه فقال له أهله ومواليه : لو ركبت فلقيت أمير المؤمنين فلعله إذا رآك أن يجرى لك شيئاً فيه محبة ، أو يسألك عن حالك فتخبره . فركب ودخل على يزيد بن عبد الملك بن مروان فوقف بين يديه ساعة يخاطبه ، ثم نظر يزيد فوجد عمر وقد تغير تغيراً شديداً أنكره . فقال له : أتريد الخلاء ؟ قال : لا . قال إن لك لشأناً ؟ قال يا أمير المؤمنين : اجد بين كتفى أذا لا أدرى ما هو ؟ قال يزيد : انظروا ماهو ؟ فنظروا فاذا بين كتفيه عقرب قد ضربته عدة ضربات فلم يبرح حتى كتب عهده على العراق ، وجعل يزيد يصفه بالرجولية وسعة الصدر ۞ وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه قال : حدثنى ميمون بن موسى ، قال : خرج رجل من المتصرفين من عسكر المعتصم بالله إلى مصر . قال : فحدثنى عنه بعض المتصرفين قال : نزلت فى دار بالقرب منه ، فحدثنى :

الرجل بما كنت وقفت على بعضه قال : أصبحت ذات يوم وقد نفذت نفقتى ، وتقطعت ثيابى ، وأنا من الهم والغم على ما لا يوصف . فقال لى غلامى : أى شىء نعمل اليوم ؟ فقلت له خذ بلجام الدابة فبعه وانه محلى ، وابتع مكانه لجاما جديدا واشتر لنا خبزا سميذا ، وجديا حنيذا . فقد قرمتْ نفسى إلى أكلها وعجل ولا تنس أيضاً أن تبتاع أيضا كوز نبيذ لسرورى . فمضى الغلام وجلست مفكراً فى أمرى وما ألاقى وكيف أعمل . فإذا بباب الدار قد دق دقا عظيما حتى كاد أن ينكسر فإذا رهق شديد . فقلت لغلامى وكان واقفا بين يدى : أخرج فانظر ماهذا ؟ فذهب الغلام وفتح الباب فلم ينفتح فكسره وامتلأت الدار على غلمانا من الأتراك وغيرهم وإذا باشناس وهو حاجب المعتصم ومحمد بن عبد الملك الزيات وقد دخلا وطرحت لهما زولية فجلسا عليها وإذا معهما حفارون قال : فلما رأيت ذلك بادرت فقبلت أيديهما فسألانى عن خبرى فخبرتهما به ، وأنى خرجت من جملة أهل العسكر طمعا فى التصرف وذكرت حالى وما توالت اليه فوعدت وعدا جميلا والحفارون يحفرون فالتفت اشناس إلى محمد بن عبدالملك فقال : أنا والله جائع . فقال له محمد : وأنا والله جائع . فقلت عند ذلك ياسيداى عند خادمكما شىء قد اتخذله فاذا أذنتما فى إحضاره حضر فقالا : هات . فقدمت الجدى وما كان ابتيع فأكلا واستوفيا وغسلا أيديهما ثم قال لى أشناس عندك من ذلك الفن شىء ؟ فقلت نعم فسقيتهما من الكوز ثلاث أقداح فجعل أحدهما يقول للآخر ظريف وما ينبغى لنا أن نضيع هذا الجميل . فبينما الحال على ذلك إذ ارتفع تكسير الحفارين فاذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلا دنانير وأخرجت ليتوجهوا بها إلى المعتصم . فلما نهضوا قال أحدهما للآخر فهذا الشقى الذى أكلنا طعامه وشربنا شرابه ندعه هكذا . فقال الآخر ماذا نعمل ؟ نحفن له حفنة من كل مرجل لا تؤثر فيه فنكون قد أغنيناه ، ونصدق أمير المؤمنين على الحديث . ثم قال حجرك فجعل كل واحد منهما لى حفنة من كل مرجل ثم حملا المال وانصرفا فنظرت فإذا قد حصل لى عشرين ألف دينار ، فانصرفت بها إلى العراق فابتعت بها ضياعا وتركت التصرف .

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه قال : حدثني أبي عن أبي قلابة المحدث قال : ضقت ضيقة شديدة فأصبحت ذات يوم والمطر يجيء كأفواه القرب والأولاد يتضورون جوعاً وما عندي حبة واحدة أتقوتها فبقيت متحيراً في أمري فخرجت فجلست في دهليز وفتحت بابي وجعلت أفكر في أمري ونفسي تكاد تخرج غماً لما أنا فيه وليس يسلك الطريق أحد لشدة المطر ، فإذا بامرأة على حمار فاره وخادم أسود آخذ بلجام الحمار ، والحمار يخوض في الوحل فلما صار بحذائي سلم علي وقال : أين منزل فلان ؟ فقلت : هذا منزله وأنا هو . فسألتني المرأة عن مسألة فأفتيتها بها فصادف ذلك ما أحبت فأخرجت من خفها خريطة ودفعت إلي منها ثلاثين ديناراً ، ثم قالت يا أبا قلابة : سبحان خالقك لقد تنوق في قبح وجهك وانصرفت . وحدثني أبو القاسم التنوخي في المذاكرة بإسناد ذهب عن حفظي قال : كان أحمد بن أبي خالد بغيضاً قبيح التهجم ، وكان مع ذلك حراً ، وكان يلزمه رجل متعطل من طلاب التصرف يقال له ابن صالح الأضخم من وجوه الكتاب فحدث قال : لما آلت بي العطلة في أيام المأمون والوزير إذ ذاك أحمد بن أبي خالد ، وضاقت حالي حتى خشيت التكشف فبكرت إلى أحمد بن أبي خالد مغلساً لأكلمه في أمري فرأيت بابه قد فتح ، وخرج وبين يديه بريد المأمون ، فلما نظر إلي أنكر بكوري وعبس وجهه وقال : في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا عن أمرنا ؟ . فلم تصبر نفسي أن قلت : ليس العجب منك أصلحك الله فيما استقبلتني به ، وإنما العجب مني كيف أسهرت نفسي ليلتي وأسهرت من في داري تأميلاً لك وتوقعاً للصبح لأصير إليك وأبثك أمري فأستعين بك على إصلاح حالي ، وحلفت يميناً غليظة أن وقفت ببابك أو سألتك حاجة حتى تصير إلي معتذراً مما كلمتني به . وانصرفت مغموما مكروباً بما لقيني به متندماً على ما فرط مني غير شاك في العطب إذ كنت لا أقدر على الحنث ، وكان ابن أبي خالد لا يلتفت إلى تبرئة قسمي فإني كذلك وقد طلعت الشمس إذ دخل بعض غلماني وقال : أحمد بن أبي خالد مقبل في الشارع ، ثم دخل آخر فقال : قد دخل دارنا . ثم آخر فقال قد وقف على الباب ، ثم تبادر الغلمان يدخلون الدهليز فخرجت مستقبلا له فلما استقر في مجلسه من داري

ابتدأت أشكره على ابراره قسمى . فقال : إن أمير المؤمنين كان أمرنى بالركوب اليه فى بعض مهماته فدخلت اليه وقد غلبنى السهو بما فرط منى اليك حتى أنكر ذلك فقصصت عليه قصتى معك . فقال : أسأت بالرجل . قم : فامض اليه واعتذر بما قلته له . فقلت : أفأمضى اليه فارغ اليد . قال : فتريد ماذا ؟ قلت له : تقضى دينه قال : كم هو ؟ قلت ثلثمائة ألف درهم . قال : وقع له بذلك . قلت : يرجع بعد إلى الدين . قال : وقع له بثلثمائة أخرى . قلت : وولاية يتشرف بها . قال : وله مصرا أوغيرها مما يشتهيها قلت : ومعونة على سفره . قال : وقع له بمائة ألف درهم . قال : وأخرج التوقيع من خفه بالولاية وبسبعمائة ألف درهم فدفعه إلى وانصرف ٭ وذكر أبو الحسين القاضى قال : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الخياط قال : كان فى جيرانى بالجانب الشرقى من بغداد رجل من الأتراك له رزق فى الجند فتأخر رزقه فى أيام المكتفى ، ووزارة العباس بن الحسين . فساءت حاله ، ورثت هيئته حتى لزم الجلوس عند خباز كان بالقرب منا وكان يستشفعه على جماعة يسألهم ويشفعه أيضا بأن يعطيه فى كل يوم خمسة أرطال خبزاً يتقوت بها هو وعياله فاجتمعت عليه للخباز شىء فضاق به صدر الخباز أن يعطيه شيئا آخر فمنعه فخرج ذات يوم فجلس وهو عظيم الهم ، ثم كشف لى حديثه وقال : لقد علمت أن لا بد لى من مسألة الناس ، وقد عملت على مسألة كل من يشترى من الخباز أن يتصدق على وقد حملنى الجوع على هذا كله ، لكن لما ذكرت ما فى ذلك من الذل منعتنى نفسى فبينما هو على ذلك إذ جاء رجل بزى نقيب يسأل عنه فدل عليه ، فوجده جالسا عند الخباز فقال له : قم . فقال : إلى أين ؟ قال : إلى الديوان حتى تقبض رزقك فقد خرج لك ولصاحبك رزق شهرين ، فمضى معه فلما كان بعد ساعة جاءنى وقد قبض مائتين وأربعون ديناراً . ورم منزله وأصلح حاله وحال عياله ، وابتاع دابة وسلاحا ، وخرج مع قائد كان برسمه وحسن حاله .

٭ ٭ ٭

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه بإسناده عن الفضل بن عياض قال: حدثنى رجل أن رجلا خرج بغزل له فباعه بدرهم ليشترى به دقيقاً فمر على رجلين كل واحد منهما آخذ برأس أخيه، قال: ما هذا؟ قال يصطخبان فى درهم فأعطاهما ذلك الدرهم وليس له شىء غيره. فجاء إلى امرأته فأخبرها فجمعت له شيئاً من البيت فذهب يبيعه فكسد عليه فمر عليه رجل ومعه سمكة قد اروجت. فقال له: إن معك شىء قد كسد ومعى شىء قد كسد فهل لك أن تبيعنى هذا بذاك؟ فبايعه، وجاء الرجل بالسمكة إلى البيت فقامت المرأة تصلحها، وإذا بلؤلؤة فى جوفها، فقالت له: أتعرف قدر اللؤلؤة؟ قال: لا. ولكن أعرف من يعرفه، فانطلق بها إلى صديق له وهو فى سوق الجوهر، وقال: بعها لى. قال لك بها على أربعون ألف، وإن شئت فاذهب بها إلى فلان فهو أثمن لك بها منى. فذهبت بها اليه فقال: لك بها ثمانون ألفاً وإن شئت فاذهب إلى فلان فهو أثمن لك بها منى. فذهبت اليه فقال: لك بها مائة وعشرين ألفا. ولا أدرى أحداً يزيدك. قال: فحمل لى اثنى عشر بدرة فى كل بدرة عشرة آلاف درهم. فذهب بها إلى منزله ليضعها فيه فإذا رجل فى الباب يسأل. فقال: هذه قصتى التى كنت عليها أدخل. فدخل فقال له: خذ نصف هذا المال. فأخذ الرجل الفقير ست بدر ثم تباعد غير بعيد، ورجع اليه وقال: ما أنا بمسكين ولا فقير. ولكن أرسلنى اليك ربك تعالى الذى أعطاك بالدرهم عشرين قيراطا فهذا الذى أعطاك قيراط وادخر لك الباقى * وذكر أبو الحسين القاضى فى كتابه القرطبلى: كان فى جيرانى رجل من أهل البيوتات، وكانت له نعمة فزالت له وساءت حالته، وكانت له زوجة وأربع بنات فحملت زوجته، وأخذها الطلق فى الليل. قال: فلم يكن لى حيلة شىء فى الدنيا فخرجت ليلاً هارباً على وجهى أمشى حتى أتيت جسر النهروان فأملت أن ألقى عاملها وكان يعرفنى فاسأله تصريفى فى شىء. وتعجيل رزقه ببعض الشىء لأنفذه إلى زوجتى، فوصلت إلى الموضع، وقد ارتفع النهار فجلست أستريح بالقرب من بقال فإذا برجل قد جاء، ووضع مخلاته وعصاه ثم قال: اعطى كذا كذا من خبز وآدم فأعطاه فأكل ووزن له الثمن ثم فتح مخلاته ففضها وميز

ما فيها من الكتب فرأيت فيها خطاباً إلىّ وعليه وصفة منزلى . فقلت : هذا إلى : فقال : أتدرى ماتقول ؟ قلت : نعم . قال : أفتعرف من كتبه ؟ قلت : لا . قال : فان فيه سفتجة بمال وبسبب هذا الكتاب من دون جميع ما معى استؤجرت وخرجت من الدينور ، فقلت له : قد قلت لك الحقيقة ، وإن مضيت إلى بغداد لم تجد صاحب الكتاب غيرى . فقال أماهنا إنسان يعرفك ؟ قلت : نعم . قال : قم بنا اليه . فجئنا إلى العامل فلما دخلت عليه قال لى : ماأقدمك ياأبا فلان علينا ؟ فقلت له : قبل كل شيء من أنا أعزك الله ، وأين منزلى ببغداد ؟ قال : أنت أبو فلان بن فلان الفلانى ، ومنزلك بمدينة السلام مدينة المنصور فى سكة كذا منها . فقلت للرجل : عرفت صدقى ؟ قال : نعم . فحدثت العامل بحديثى ، وأخذت الكتاب من الرجل ، وإذا هو من بعض المستورين من الدينور يذكر ابن عم كان لى فيها قد توفى بعد أن أوصى اليه انى أنا وارثه وأسمانى له ووصف مسكنى ببغداد ، وأن الثلث من ماله يصرف فى وجوه البر ، وباقى التركة لى وأنه باع أثاث المنزل وما خاف فساده وصرف الثلث منه ، وبعض ما كان أوصى به وأنفذ إلى سفتجة بالثلثين من ذلك مبلغها سبعمائة دينار وكذا وكذا دينار بأجل أربعين يوما على تاجر فى دار القطن بالكرخ ، وقال : والقصد أن تبادر إلى الدينور لتبيع العقار ، والضياع أو تبيع الثلث منها لتصرفه فى مهم وتتمسك بالباقى إن شئت . قال : فورد على من السرور مالا عهد لى بمثله وحمدت الله تعالى وقلت للرجل : قد وجب حقك وسأحسن اليك . وشرحت له قصتى وأنه لاحبة فضة معى . فجاءنى إلى البقال وقال : زن لأستاذى بكذا . وكذا . خبزا وادماً وما يريد غيرهما فتغذيت ووزن الرجل ثمن ذلك من عنده واستأجر حمارين فأركبنى أحدهما وركب هو الآخر ، ووزن الأجرة من عنده وجئنا فى بقية يومنا إلى بغداد وقصدنا دار القطن وفى النهار بقية صالحة . فأوصلت السفتجة إلى التاجر فقال : صحيحة إذا حل الأجل فاحضر للقبض . فقلت له : خذ حديثى وافعل بعد ذلك مايوفقك الله تعالى له ، ويرى فى مروءتك ، وقصصت عليه قصتى . فقال : بالله الذى لا إله إلا هو أنت صادق ؟ فحلفت له . فأخرج كيسا كان يقربه فوزن منه مال السفتجة ، وأخذ خطى بذلك ، وصرت من وقتى إلى السوق فاشتريت

عسلا وسكراً وشيرجا وخبزاً كثيراً وحملا مشويا وما يصلح للنساء فى النفاس ، ومهداً وقشوة وعطراً صالحاً وشيئا من الثياب وصرت إلى منزلى وقد قربت عشاء الآخرة ، فوجدت كل من فيه من النساء يدعوا على ويلعننى فقدمت الحمالين ودخلت منزلى ، فانقلبت الدار وانقلب الدعاء على ، فصار دعا لى ، وصار الغم سروراً ، ووجدت زوجتى قدولدت ابناوعرفت الصبيان خبر السفتجة والميراث والرجل ، وأعطيت الزوجة والقابلة من الدنانير ، وأقمت الرجل عندى أياماً ، حتى أصلحت أمرى وأمر عيالى وخلفت لهم نفقة ، وأعطيت الرجل منها وأجزلت واكتريت منها حمارين لى وله واستصحبته إلى الدينور فوجدت فيه ما يخصنى .ا تركه ابن عمى نحو عشرة آلاف دينار . فبعت ذلك كله ، وأخذت بحصتى سفاتج إلى بغداد وعدت وقد فرج الله عز وجل عنى وأصلح حالى فأنا أعيش فى بقيـــة تلك الحال إلى الآن .

* * *

وذكر أبو الحسين القاضى قال : حدثنى أبى عن بعض اخوانه وأحسبه أبو يوسف بن يعقوب بن ثابت قال : أملق بعض الكتاب فى أيام الرشيد حتى أفضى إلى بيع دابته ، ونقض داره فلم يبق فيها إلا بيت يأوى اليه هو وولده ، فانقطع عن الناس وانقطعوا عنه دهراً ، وكان الرشيد يولى أعمال اذربيجان وأرمينية فى كل سنتين أو ثلاثا رجلا فاضلا فمرة عين رجلا هاشميا فاضلا فطلب كاتبا فارها يصطنعه وشاور فيه صديقا له من الكتاب ، فوصف له هذا الرجل المتعطل ، ووعده بإحضاره وصار اليه فطرق الباب عليه فوجده لما دخل اليه على حال من الفقر لا يتهيأ له معها القاء أحد فبعث اليه من منزله بخلعة من ثيابه ودابة وغلام وبخوراً ودراهم ، وركب معه إلى الهاشمى فلقيـــه بها فاستجوبه الهاشمى ، فوجده بارعاً فى صناعته ، فاستكتبه وقرر جرايته ، وأمر له بمال معجل معونة له على سفره ، وأمره بالقدوم على اذربيجان فعاد الرجل إلى منزله وأصلح من حاله وخلف نفقة لعياله وشخص إلى تلك البلد فلما بلغ الوالى المصروف انه رحل عن البلد ،

وأخذ غير الطريق الذى بلغه أن الكاتب سلكه وخلف كاتبه لرفع الحساب فلما شارف الناحية خرج اليه الكاتب المعزول ولقيه وسأله عن صاحبه . فلما أعلمه بشخوصه إلى دار السلام أنكر ذلك فقال له : الكاتب المعزول مل بنا إلى موضع نجلس فيه نتحدث ونرى رأيك فمالا ونزلا وطرح لهما ما جلسا عليه فقال : أعزك الله لا تنكر انصراف صاحبى فانه رجل كبير المقدار وأخاف من مهانة تلحقه فشخص إلى دار السلام ، وقد خلف قبلى مائة ألف درهم فاقبض ذلك وأكتب لنا كتابا بإزاحة علته وانفصال ما بيننا وبينك ، ونحن ننصب لك من يرفع الحساب رفع من لا يغيب ولا يستعصى عليه . فقبل كاتب الوالى ذلك ، وركبا وقد زال الخلاف بينهما إلى تقبيض تلك الأشياء النفيسة لنفسه ولصاحبه ، وكتب الكاتب الرشيد بإزاحة علته ، وانفصال ما بينهم وبينه ، وخرج الكاتب لاحقا لصاحبه ، وخلف من يسلم الحساب . فاتصل ظاهر الخبر بالهاشمى الوالى فكتب إلى كاتبه ينكر عليه فكتب اليه إنى قد بلغت من الأمر مبلغاً مرضيا إذا وقفت عليه . فلما صار إلى الناحية عرفه ما جرى فحسن موقعه منه وتبرك به ، وغلب على عقله فكسب مالا عظيما فلما مضت عليه ثلاث سنين صرف الهاشمى وخلفه الذى كان قبله والياً ، وبلغ الهاشمى الخبر . فقال لكاتبه ما الرأى ؟ فقال : نفعل به مثل ما فعل بنا ، وأقيم أنا ومعى مثل ما كان أعطانا فأعطيه إياه ، وآخذ كتابه بانفصال ما بيننا وبينه والحق بك . ففعل ووافى الكاتب الذى كان مصروفا فتلقاه الكاتب فى الموضع الذى كانا التقيا فيه فى مبدأ الأمر فعدلا ونزلا وعرض عليه ما خلفه صاحبه له وسأله قبول ذلك ، والكتابة بمثل ما كان كتب له إلى الرشيد . فامتنع من قبول ذلك ، وكتب له بانفصال ما بينهما إلى الرشيد كتابا وكيداً وقال : أراك رجلا فاضلا فطنا ، وأرى صاحبك عاقلا ، وقبول هذا لا يكون مكافأة له بل يكون كأنه بيع له وشراء منه . ولكن قد تذكرت أمراً أجمع لنا واكم من هذا . قال ما هو ؟ قال اعقد بيننا وبين صاحبك صهراً ونكون إخوة وأصدقاء . قال : فعل الله بك وصنع فما فى الدنيا أكرم ولاية منك . فعقد بينهما الصهرين وسارا إلى مقصدهما

ودخل الكاتب بغداد ، وقد حصل الهاشمى صاحبه وأخبره الخبر فحمد ربه وأمضى عقده فى المصاهرة فصار الكاتب من أرباب الأحوال وعاد إلى أفضل ما كان عليه قبل محنته ٭ وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه قال : حدثتنى جدتى أم أبى قالت : كان زوجى يعقوب بن على قد نهض إلى مصر وتصرف بها وعمل وتعطل وأقام هناك وأضقنا إضاقة شديدة وعرضنا بيع ضيعة لنا فلم نجد لها ثمنا ، وتأخر كتابه عنا وانقطع خبره حتى توهمنا أن حادثا حدث عليه ، وكان أولاده صغاراً فكنت أحتال وأنفق عليهم حتى لم يبق لى فى المنزل شىء وحضر وقت عمارة الضيعة فاحتجنا إلى بزر ونفقة فتعذر ذلك علينا حتى كدنا أن نتعطل ويفوت وقت الزراعة فأصبحت يوما وبى من الغم من اجتماع هذه الأحوال أمر عظيم ووجهت إلى بعض من كنت أثق به وأتوهم أنى لو سألته اسعافنا بالكثير من ماله أن لا يخالفنا لأقترض منه شيئا لذلك . فرد رسولى واعتذر وعرفنى الرسول أنه قال : إذا بعثت لهم ما طلبوا والضيعة لم تعمر ولم يحصل لهم غلة وزوجها لم يعرف له خبر فمن أين تردون على المال ؟ قال : فكدت أموت غما وامتنعت من الطعام يومى وليلتى فأصبحت فما انتصف النهار حتى ورد على كتاب زوجى بسلامته ، وذكر السبب فى تأخر كتابه وبسفتجة أنفذها طى كتابه بمائتى دينار ، وذكر ثيابا أنفذها مع آخر من أهل البصرة مبلغها خمسون ديناراً فعمرنا الضيعة وزرعت فى تلك السنة وحسنت حالى .

٭ ٭ ٭

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه أيضا قال : روى أن سعيد بن العاص قدم الكوفة عاملا لعثمان بن عفان وكان يتعشى عنده من القراء رجل قد ساءت حاله فقالت له امرأته ويحك قد بلغنا عن أميرنا هـذا كرم فاذكر له حالك فلعله أن ينيلنا شيئا فلم يبق للصبر فينا بقية فقال : ويحك لا تخلقى وجهى فقالت : فاذكر له ما نحن فيه على كل حال فلما كان بالعشاء أكل عنده ولما انصرف الناس ولم يقم الرجل فقال له سعيد : أظن دلوساء لحاجة فاذكرها فخجل

الرجل فقال سعيد لغلمانه : تنحوا . ثم قال : يرحمك الله أنا وأنت فاذكر حاجتك فخجل فنفخ سعيد المصباح فأطفأه ثم قال : رحمك الله لست ترى وجهى فاذكر حاجتك . قال : أصلح الله الأمير أصابتنا حاجة وأحببت ذكرها لك قال : فإذا أصبحت فأت فلانا وكيلى . فلما أصبح الرجل لقى الوكيل فقال إن الأمير قد أمر لك بشىء فهات من يحمله معك . فقال : ماعندى من يحمل معى وما أظن الأمير إلا قد أمر لى بقوصرة تمر وقد ذهب ماء وجهى ، ولو كان دراهم أو دنانير لاعطانيها يد بيد . فلما كان بعد أيام قالت له امرأته يا هذا قد بلغ بنا الأمر إلى ماترى ومهما أعطاك الأمير فخذه نتقوت به أياما فاذهب والق وكيله . فلقيه فقال أين أنت لقد أخبرت الأمير أن ليس لك من يحمل ما أمر به لك . فأمرنى أن أوجه معك من يحمل ذلك . قال ثم أخرج إليه أناس من السودان على رأس كل واحد منهم بدرة دراهم وقال : امضوا معه فلما بلغ الرجل باب منزله فتح بدرة وأخرج منها دراهم فدفعها للسودان وقال انصرفوا . قالوا : إلى اين نحن عبيدك إنه ماحمل مملوك لأمير هدية فرجع المملوك إلى مالكه قال : فصلحت حال الرجل واستظهر فى أمر دنياه * وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه عن الأصمعى قال : لزمت باب الرشيد وكنت أقيم عليه طول نهارى ، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم وأتوقع طالع سعدى حتى كدت أموت قرا وهزالا وأنا أتصبر وأتذكر عاقبة الصبر وما وراءه من الفرج وآمل صلاح حالى باتفاق محمود ، فبينما أنا ذات يوم وقد أثر فى السهاد خرج بعض الحجاب فقال : هل بالباب أحد يحسن الشعر ؟ فقلت الله أكبر رب مضيق فكه اليسر أنا ذاك الرجل . فأخذ بيدى وقال ادخل فانه ختم لك بالسعادة ولعلها ليلة تكون فزت فيها بالغنى فقلت بشرك الله بالخير ، ودخلت فواجهت الرشيد فى البهو جالسا والخدم وقوفا على رأسه وجعفر بن يحيى البرمكى إلى جانبه ، فوقف بى الحاجب حتى يسمع تسليمى فسلمت ثم قال : تنح قريباً لتسكن نفسك إن كنت وجدت للردعة حسنة فقلت فى نفسى إن سكت فهى فرصة تفوتنى إلى

آخر الدهر فلا أعتاض عنها إلا كمداً حتى يضيق على الضريح . فقلت بصوت اضاءة : كرم أمير المؤمنين و بهاء مجده مدبران لمن نظر إليه من آذية النفس يسألنى أيده الله فأجيبه أم ابتدى فأصيب . فتبسم إلى جعفر وقال ما أحسن من استدعى الاحسان وأحرى به أن يكون محسنا ثم قال لى أشاعر أنت أم راوية للشعر ؟ قلت : راوية قال لمن قلت لكل أمر ذى جد وهزل بيد أن يكون محسنا قال ﴿ أنصف الفارة من رماها ﴾ مامعنى هذه الكلمة ؟ قلت لها وجهان : زعمت التبابعة أنه كان لهارماة لايقع سهامها فى غير الحدق فكانت تكون فى الموكب الذى فيه الملك على الجياد البلق فخرج فارس معلم بعذبات سمور وقلنسوة فنادى أين رماة الحدق ؟ فقالت العرب انصف الفارة من رماها . والوجه الآخر : المرتفع من الجبل الشاهق فمن ضاهاه بفعاله فقد رماه وما أحسب هذا هو المعنى لأن المرماة كالمعطاة ، فكما أن المعطاة للنديم هو أن يأخذ كأسا كذلك المراماه ترميها وترميه قال أصبت أرويت للعجاج شيئا ؟ قلت الأكثر قال أنشدنى قوله ﴿ ارقى طارق هم طارق ﴾ فمضيت فيها مضى الجواد تهدر أشداقى . فلما بلغت مدحه لبنى أمية ثنيت عنان اللسان لامداحة للمنصور . قال : أعن عمد أو غير عمد ؟ فقلت بل عن عمد قال تركت كذبه إلى صدقه بما اصف المنصور من مجده . قال جعفر : بارك الله عليك مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف . ثم التفت إلى الرشيد وقال : أرويت لعدى ابن الرفاع ؟ قلت الأكثر قال انشدنى قوله « بانت سعاد فاخلفت ميعادها » فابتدرت بها تهدر أشداقى . فقال لى جعفر : يا هذا أنشد على مهل لن تنصرف إلا غانما . فقال الرشيد : هل قطعت على لتشركنى فى الجائزة ؟ قال : فطابت نفسى وقلت أفلا ألبس أردية البتة على العرب وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران المواهب لى فتبسم ومضيت فيها . ثم قال : أرويت لذى الرمه شيئاً ؟ قلت : الكثير . قال أنشدنى قوله « أمن حذر الهجران قلبك يطمح » فقلت هى عروس شعره . قال فأية لجهة قلت قوله : (ما بال عينك منها الماء ينسكب)؟ قال : امض فيها فمضيت حتى انتهيت إلى وصفة جميلة . قال جعفر : تغنى علينا ماتسمع من مسامرة الشيبن بمهل أجرب . فقال الرشيد : اسكت فهى التى سلبتك تاج

ملكك وإن عجتك عن قرارك ، ثم جعلت جلودها سياطا لتضرب بها أنت وقومك عند الغضب . فقال جعفر : الحمد لله عوفيت من غير ذنب . قال الرشيد : أخطأت فى كلامك لو قلت أستعين الله قلت صواباً . إنما يحمد الله عز وجل ويستعان على الشدائد . ثم قال : إنى لأجد مللا ، وهذا جعفر ضيف عندنا فسامره فى ليلتك فاذا أصبحت فان تابعى يلقاك بثلاثين ألف درهم ثم قام . وقربت اليه النعل فجعل الخادم يصلح عقب النعل فى رجله . فقال : أرفق ويلك أحسبك قد عقرتنى . فقال جعفر : قاتل الله العجم لو كانت سديه ما أحتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة . فقال ؛ هذه نعلى ونعل أبائى ولا تدع نفسك والتعرض لما تكره . فمضى . فقال جعفر : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يجوز أن آمر فيه بمثل ما أمر لك لأمرت لك بثلاثين ألف درهم ولكن قد أمرت بتسعة وعشرين ألف درهم فاذا أصبحت فاقبضها فما صليت ظهر الغد إلا فى منزلى وقد صرف لى المال فأيسرت ولازمتها ، وزال ما كنت فيه من الضر وأتى الاقبال .

☆ ☆ ☆

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه قال : بلغنى عن عمرو بن مسعدة أنه قال : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرقة قال يا عمرو : ما ترى الرجحى قد احتوى على الاهواز وهى سلة الخير وجميع المال قبله وطمع فيها وكتبه متصلة بحملها وهو يتعلل ويتربص بى الدوائر ؟ فقلت : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا ، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه . فقال : مايقنعنى هذا . فقلت فيأمر أمير المؤمنين بأمره ؟ فقال فاخرج إليه بنفسك حتى تصفده بالحديد فتحمله إلى بغداد وتقبض على جميع ما فى يده من أموالنا وتنظر فى أعمالنا وترتب لها عمالا فقلت السمع والطاعة . فلما كان فى غد دخلت عليه فقال ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت أنا على ذلك . قال أتريد أن تجىء فى غد مودعا ؟ قلت السمع والطاعة . فلما كان فى غد جئته مودعا فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً فاضطربت من ذلك إلى أن حضنى واستحلفنى أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام فخرجت

حتى قدمت بغداد فلم أقم فيها إلا ثلاثة أيام وانحدرت فى زلال أريد البصرة ، وجعل لى فى الزلال خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر ، فلما صرت بين جرجاى وجبل سمعت صوتاً من الشاطىء يصيح ياملاح ؟ فرفعت سجف الزلال وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافى القدمين خلق القميص فقلت للغلام أجبه فأجابه . فقال ياغلام أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التى ترى وقد أحرقتنى الشمس وكادت تتلفنى وأريد جبل فاحملونى معكم فإن الله يحسن أجر صاحبكم . قال : فشتمه الملاح وانتهره فادركتنى رقة عليه وقلت خذوه معنا فتقدمنا الشط وصحنا به وحملناه فلما صار معنا فى الزلال وانحدرنا نتقدم فدفعت إليه قميصا ومنديلا وغسل وجهه واستراح وكأنه كان ميتاً ، وعاد إلى الدنيا فحضر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للغلام هاته يأكل معنا . فجاء وقعد على الطعام فأكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثر فيه فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصة فلم يفعل . فغسلت يدى وتذممت أن أمر بقيامه فقلت قدموا له الطشت فغسل يده وأردت بعدها أن يقوم لأنام ، فلم يفعل فقلت ياشيخ : أى شىء صناعتك ؟ قال حائك أصلحك الله . فقلت فى نفسى هذه الحياكة علمته سوء الأدب فتناومت عليه ومددت رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزك الله ماصناعتك ؟ فأكبرت ذلك وقلت أنا جنيت على نفسى هذه الجنـــاية ولابد من احتمالها أتراه الاحمق لايرى زلالى وغلمانى ونعمتى وأن مثلى لايقال له هذا . فقلت كاتب : فقال كاتب كامل أو كاتب ناقص ؟ فإن الكتاب خمسة فأيهم أنت فورد على من قول الحائك موردا عظيما وسمعت كلاماً أكبرته ، وكنت متكئا فجلست ثم قلت : فصل الخمسة . قال : نعم . كاتب خراج : يحتاج أن يكون عالماً بالشروط ، والطسوت ، والحساب ، والمساحة ، والبثوق ، والفنون ، والرتوق . وكاتب أحكام : يحتاج أن يكون عالماً بالحلال ، والحرام ، والاحتجاج ، والاجماع ، والأصول ، والفروع . وكاتب معونه : يحتاج إلى أن يكون عالماً بالقصاص

والحدود، والجراحات . والمواثبات ، والسياسات . وكاتب جيش : يحتاج أن يكون عالما بحلى الرجال ، وشيات الدواب ، ومدارات الأوليا وشيئا من العلم بالنسب ، والحساب . وكاتب رسائل : يحتاج أن يكون عالما بالصدور ، والفصول ، والإطالة ، والإيجاز ، وحسن البلاغة ، والخط . قال فقلت : إنى كاتب رسائل . قال فاسألك عن بعضها ؟ قلت قل : فقال لى أصلحك الله : لو أن رجلا من إخوانك تزوج أمك فأردت أن تكاتبه مهنئاً فكيف كنت تكاتبه . ففكرت فى الحال فلم يخطر ببالى شيء ، فقلت ما أرى للتهنئة وجها قال : فكيف تكتب اليه تعزيه ؟ ففكرت فلم يخطر ببالى شيء . فقلت اعفنى قال قد فعلت . ولكنك لست بكاتب رسائل . قلت أنا كاتب خراج . قال : لا بأس لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مساحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك فحلف المساح بالله العظيم لقد أنصفوا وماظلموا وحلفت الرعية بالله أنهم لقد جاروا وظلموا وقالت الرعية قف معنا على مامسحوه وانظر من الصادق من الكاذب فخرجت لتقف عليه فوقفوا على قراح شكله قاتل قثاء كيف كنت تمسحه ؟ قلت : كنت آخذ طوله على انعراجه وعرضه ثم اضربه فى مثله . قال إن شكل قاتل القثاء أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس . قلت فآخذ الوسط فاضربه فى العرض قال إذاً ينثنى عليك العمود فأسكتنى . فقلت : ولست كاتب خراج . قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتب قاض . قال أرأيت لو أن رجلا توفى وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سرية فولدت السرية غلاماً والحرة جارية فعدت الحرة إلى ولد السرية فأخذته وتركت بدله الجارية فاختصما فى ذلك فكيف الحكم بينهما قلت لا أدرى . قال : فلست بكاتب قاض . قلت : فأنا كاتب جيش . فقال : لا بأس أرأيت لو أن رجلين جاء إليك لتحليهما وكل واحد منهما إسمه واسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا والآخر مشقوق الشفة السفلى كيف كنت تحليهما ؟ قلت فلان الأعلم ، وفلان الأعلم ، قال إن رزقها مختلفان وكل واحد منهما يجىء فى دعوة الآخر .

قلت لاأدرى . قال : فلست بكاتب جيش . قلت : أنا كاتب معونة . قال : لاتبالى لو أن رجلين رفعا إليك قد شج أحدهما الآخر شجة موضحة ، وشج الآخر شجة مأمونة كيف كنت تفصل بينهما ؟ قلت : لاأدرى . قال لست إذا كاتب معونة اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا . قال فصغرت إلى نفسى وغاظنى فقلت : قد سئلت عن هذه الأمور ويجوز أن لايكون عندك جوابها كما لم يكن عندى فإن كنت عالما بالجواب فقل . فقال : نعم . إن الذى تزوج أمك فتكتب اليه أما بعد : فإن الأمور تجرى من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها ، وأن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام . وأما قراح قاتل قثاء فتمسح العمود حتى إذا صار عدادا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة . وأما الجارية والغلام : فيوزن لبن الاثنتين فأيهما كان أخف فالجارية له . وأما الجنديان المتفقا الإسمين فإن كان الشق فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم ، وإذا كان فى الشفة السفلى قلت فلان الأفلح . وأما صاحب الشجتين فلصاحب الموضحة ثلث الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهراً فى جميعها حاذقاً بليغاً فقلت : ألست زعمت أنك حائك ؟ فقال أما أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نساجة وأنشأ يقول :

مامر بؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب
فذقت حلوا وذقت مراً كذاك عيش الفتى ضروب
نوائب الدهر أدبتنى وإنما يوعظ الأديب

قلت فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجل كاتب دامت عطلتى ، وكثرت عيلتى ، وتواصلت محنتى ، وقلت حيلتى ، فخرجت أطلب تصرفاً فقطع على الطريق فصرت كما ترى فمشيت على وجهى فلما لاح لى الزلال استغثت بك قلت فإنى قد خرجت إلى إلى متصرف جليل احتاج فيه إلى جماعة مثلك ، وقد أمرت لك بخلعة حسنة تصلح لمثلك وخمسة آلاف درهم تصلح بها أمرك ،

وتنفذ منها إلى عيالك ، وتقوى نفسك بباقيها ، وتصير معى إلى عملى فأوليك أجله فقال : أحسن الله جزاك إذاً تجدنى بحيث أسرك ولا أقوم مقام معذر إليك إن شاء الله . وأمرت بتقبيضه مارسمت له فقبضه وانحدر إلى الاهواز معى فجعلته المناظر للرجحى والمحاسب له بحضرتى ، والمستخرج لما عليه فقام بذلك أحسن قيام وعظمت حاله معى وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه .

* * *

قال مؤلف هذا الكتاب : بلغنى لعمرو بن مسعدة فى زلاله هذا خلاف حدثنى به عبد الله بن الحسن العبسى وهو يذكر أن أهل أمه أقرباء لبنى مازنة الذين كانوا أبناء البصرة ، وأهل النعم بها . قال . حدثنى أبى قال : سمعت شيوخا يتحدثون أن عمرو بن مسعدة كان مصعداً من واسط إلى بغداد فى حر شديد وهو جالس فى زلال ، فناداه رجل ياصاحب الزلال بنعمة الله عليك إلا نظرت إلى . قال : فكشفت سجف الزلال فاذا شيخ ضعيف حاف حاسر ، فقال له : قد ترى ما أنا فيه ولست أجد من يحملنى فابتغ الأجر فىّ وتقدم إلى ملاحيك يطرحونى بين مجاذيفهم إلى أن أبلغ بلدا يطرحونى فيه . قال عمرو : فرحمته وقلت خذوه فأخذوه فغشى عليه ، وكاد يموت لما لحقه من الشمس والمشى . فلما أفاق قلت له يا شيخ ما حالك ، وقصتك ؟ فبكى وقال : قصتى طويلة . فسليته من بكائه وطرحت عليه قميصاً ومنديلا ، وأمرت له بدراهم فاستمسك وشكرنى وحمد الله جلت عظمته فقلت له : لابد أن تحدثنى بقصتك ؟ فقال : أنا رجل كانت لله على نعمة ، وكنت صيرفيا فابتعت جارية بخمسمائة دينار فعشقتها عشقاً عظيما فكنت لاأفارقها إلاساعة واحدة ، فإذا خرجت إلى الدكان أخذنى الجنون والهيمان حتى أعود اليها فأجلس معها بقية يومى ، فدام ذلك حتى تعطل دكانى وبطل كسبى ، وأقبلت أنفق رأس مالى حتى لم يبق منه قليل ولا كثير ، وأنا مع ذلك الحال لاأطيق أن أفارقها بقدر ما أقعد فى الدكان لأتعيش . وحبلت الجارية وأقبلت أنقض دارى وأبيع أنقاضها حتى فرغت من ذلك ، ولم يبق لى حيلة وضربها الطلق فقالت لى :

ياهذا هو ذا أموت فاحتل ماتبتاع به عسلا و دقيقا و شيرجا و إلا مت . فبكيت وحزنت وخرجت على وجهي وجئت لأغرق في الدجلة ، فذكرت حلاوة الروح والنفس وخوف العقـــاب في الآخرة ، ثم خرجت على وجهي إلى النهروان ، ومازلت أمشي من قرية إلى قرية حتى بلغت خراسان فصادفت من عرفني ، فتصرفت في صناعتي ورزقني الله جلت عظمته ، فأثريت واتسعت حالي وكتبت ستة وستين كتاباً لأعرف خبر منزلي فلم يعد إلى الجواب فلم أشك أن الجارية قد ماتت فقطعت المكاتبة فتراخت السنون حتى حصل معي ما قيمته عشرون ألف دينار . فقلت . قد صارت لي نعمة فلو رجعت إلى وطني . فابتعت بالمال كله متاعاً من خراسان وأقبلت أريد العراق من طريق فارس والاهواز فلما حصلت بينهما خرج على القافلة اللصوص فأخذوا جميع ما فيها ونجوت بثيابي وعدت فقيراً كما خرجت من بغداد . فدخلت الاهواز وبقيت فيها متحيراً حتى كشفت خبري لبعض أهلها ممن لا أعرفه فأعطاني ماتحملت به إلى واسط ، ونفدت نفقتي فمشيت إلى هذا الموضع وقد كدت أتلف فاستغثت بك ، ولي منذ فارقت بغداد ثمانية وعشرون سنة . فعجبت من محنته، ورفقت به وقلت له : إذا صرنا إلى بغداد وعرفت خبر أهلك فصر إلى فإني آمر بتصريفك فيما يصلح لمثلك ما تعيش . فشكر ودعا لي ، ودخلت بغداد ومضت على ذلك مدة نسيته فيها . فبينما أنا يوما قد ركبت أريد دار المأمون ، فإذا بالشيخ على بابي راكبا بغلا فارها بمركب محلى ثقيل وغلامين أسودين بين يديه كأنهما مماليكه ، وثياب حسنة فلما رأيته رحبت به وقلت له ما الخبر ؟ فقال : طويل . فقلت عد إلى فلما كان من الغد جاءني فقلت له . عرفني خبرك . فقد سررت بحسن ظاهر حالك . فقال : إني لما صعدت من زلالك قصدت داري فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفت غير أن باب الدهليز مجلو نظيف وعليه دكتان وبغال مع شاكرية . فقلت : إنا لله مانت جاريتي وملك الدار بعض الجيران فباعها لرجل من أصحاب السلطان فقدمت على رجل بقال كنت أعرفه في المحلة فإذا في دكانه غلام حدث فقلت من تكون من فلان البقال ؟ فقال : ابنه . فقلت : ومتى مات أبوك ؟ قال منذ عشرين

سنة . قلت هذه الدار لمن ؟ قال لابن داية أمير المؤمنين وهو الآن صاحب جهبذة وصاحب بيت ماله . فقلت بمن يعرف ؟ قال بابن فلان الصيرفي فسماني . فقلت : هذه الدار من باعها عليه قال هذه دار أبيه . فقلت وهل يعيش أبوه ؟ قال : لا . قلت أفتعرف عن حديثهم شيئا ؟ قال : نعم . حدثت أن هذا الرجل كان صيرفيا جليلا وافتقر وأن أم هذا الفتى ضربها الطلق فخرج أبوه يطلب لها شيئا ففقد وهلك . فقال أبي : فجاءني رسول أم هذا الغلام تستغيث بي فقمت لها بحوائج الولادة . ودفعت لها عشرة دراهم فما أنفقتها حتى قيل قد ولد لأمير المؤمنين الرشيد مولود وقد عرض عليه جميع المراضع فلم يقبل ثديهن ، وقد طلب له الحرائر فجاؤه بغير واحدة فما أخذ ثدي واحدة منهن وهم في طلب مرضع فأرشدت الذى طلب الداية إلى أم هذا ، فحملت إلى دار الرشيد وحين وضع فم الصبي على ثديها قبله فأرضعته . وكان الصبي هو المأمون وصارت عندهم في حالة جليلة ، ووصل اليها منهم خير عظيم . ثم خرج المأمون إلى خراسان فخرجت هذه المرأة وابنها هذا معهم ولم يعرف أخبارهم إلا منذ قريب لما عاد المأمون وعادت حاشيته ، وقد رأينا هذا قد جاء رجلا وأنا لم أكن رأيته قط . وقد كان أبي قد مات فقالوا : هذا ابن فلان الصيرفي وابن مرضعة الخليفة فبنى هذه الدار وسواها . فقلت له : أفعندك علم من أمه أهي حية أم ميتة ؟ فقال : هي حية تمضي إلى دار الخليفة أياما وتكون عند ابنها أياما وهي الآن هنا . فحمدت الله على هذه الحالة وجئت حتى دخلت الدار مع الناس فرأيت الصحن في نهاية العمارة والحسن ، وفيه مجالس كثيرة مفروشة بفرش ظاهرة ، وفي صدره رجل شاب بين يديه كتاب وجهابذة وحساب يستوفيه عليهم ، وفي ضعاف الدار ومجالسها جهابذة بين أيديهم الأموال والتخوت والشواهين ، يقبضون ويقبضون ، وبصرت بالفتى فرأيت شبهي فيه . فعلمت أنه ابني فجلست في غمار الناس إلى ان لم يبق في المجلس غيري فأقبل إلى فقال : ياشيخ هل من حاجة تقولها ؟ قلت : نعم ، ولكنها لا يجوز أن يسمعها غيرك . ثم أومأ إلى غلمان كانوا قياما حوله فانصرفوا فقال : قل أعزك الله . قلت أنا أبوك . فلما سمع ذلك تغير وجهه ولم يكلمني

بحرف ووثب مسرعا وتركنى فى مكانى فلم أشعر إلا بخادم قد جاءنى وقال : قم يا سيدى . فقمت معه حتى بلغت ستارة منصوبة فى دار لطيفة وكرسى بين يديه والفتى خارج الستارة على كرسى آخر فقال اجلس أيها الشيخ . فجلست على الكرسى ودخل الخادم فإذا بحركة خلف الستارة فقلت : أظنك تريد أن تختبر صدق قولى من جهة فلانة ؟ وذكرت اسم جاريتى أمه . فإذا أنا بالستارة قد هتكت والجارية قد خرجت إلى وجعلت تقبلنى وتبكى وتقول : مولاى والله . قال فرأيت الفتى قد بهت وتحير فقلت للجارية ويحك ماخبرك ؟ فقالت : دع خبرى ففى مشاهدتك لما تفضل الله جلت عظمته على كفاية عن أن أخبرك . فقل ما كان خبرك أنت ؟ قال فقصصت عليها خبرى منذ خروجى من عندها إلى يومى ذلك وقصيت ما كان قصه على ابن البقال وشرحت ذلك كله بحضرة الفتى ومستمع منه . فلما استوفى الحديث خرج وتركنى فى مكانى فإذا بخادم قال : يامولاى يسألك ابنك أن تخرج اليه . قال فخرجت فقال لى : معذرة إلى الله واليك يا أبت من تقصيرى فى حقك ، فإنه جاء أمر لم يظن مثله يكون ، فالآن هذه النعمة لك ، وأنا ولدك وأمير المؤمنين يجتهد بى منذ دهر أن أترك الجهبذة وأتوفر على خدمته فما فعلت تمسكا بصنعتى ، والآن فإنى أسأله أن يرد عملى اليك وأخدمه أناغيرها عاجلا واصلح أمرك . فأخذت إلى الحمام وتطيبت وجاؤنى بخلعة لبستها، وخرجت إلى حجرة والدته فجلست فيها ثم انه أدخلنى على أمير المؤمنين وحدثه حديثى ثم انه امر لى بخلع وهى هذه ورد إلى العمل الذى كان لابنى وأجرى لى فى كل شهر من الرزق . كذا ، وكذا . وقلد ابنى أعمالا هى أجل من عمله ، وأضعف لى أرزاقه، فجئت لأشكرك على ما عاملتنى به من الجميل ، وأعرفك بتجدد النعمة . قال عمرو : فلما أسمانى الفتى عرفته وعلمت أنه ابن داية أمير المؤمنين كما قال :

* * *

وحدثنى محمد بن عبدالله بن الحسين السقطى ، قال : حدثنى محمد بن زكريا الأنصارى . قال : غلست يوما إلى المربد أريد مسجد الزيادتين بشارع المربد

لوعد كان على فيه وكانت الريح قوية وبين يدى بأذرع رجل يمشى ، فلما بلغنا دار رياح قلعت الرياح ستر آجر وجما على رأس حائط فرمت بها عليه فلم أشك فى اتلافه ، وارتفعت غبرة عظيمة أفزعتنى فرجعت . فلما سكنت عدت أسلك الطريق ، ولم أر الرجل فعجبت وتممت طريقى حتى دخلت مسجد الزيادتين فرأيت أهل المسجد مجتمعين فحدثتهم بما رأيت فى طريقى متوجعا للرجل وشاكراً لله تعالى سلامتى . فقال رجل منهم يا أبا الخطاب : أنا الذى وقعت على السترة وذاك أنى قصدت هذا المسجد لما وعدت ، فلما سقطت السترة ولم أحس لها بضرر لحقنى ووجدت نفسى سالما قائما فحمدت الله تعالى ، وتحيرت ووقفت حتى انجلت الغبرة ، فتأملت الصورة فاذا فى السترة باب كبير وقد اتفق أن وقع راسى وسائر جسدى فى موضع الباب فخرجت منه وسقطت باقى السترة حوالى فلم يضرنى شىء فتخطيت على المهندم وسبقتك إلى هاهنا * وحدثنى : أن الفتح بن خاقان اجتاز على بعض القناطر وهو متصيد وقد انقطع عن عسكره وانخسفت القنطرة من تحته فغرق فرآه اكار وهو لايعرفه فطرح نفسه عليه وخلصه ، وقد كاد أن يتلف ولحقه أصحابه فأمر للاكار بمال عظيم وتصدق بمثله فدخل عليه البحترى فأنشده قصيدته التى أولها :

* متى لاح برق أو بدا طلل قفر *

إلى أن قال :

لقد كان يوم النهروان عظيمة	أطلت ونعما جرى بهما الدهر
أجزت عليه عابرا فتشاعبت	أواديه لما أن طغى فوقه البحر
وزالت أواخر الجسر وانهدمت به	قواعده الظلماء وما ظلم الجسر
فما كان ذاك الهول إلا عناية	بدا طالعاً من تحت ظلمائها البدر
فان ننس نعمى الله فيك فحظنا	أضعنا وأن نشكر فقد وجب الشكر

فقال له الفتح : الناس يهنونا بنثر وأنت بنظم وأجزل صلته .

وحدثنى أبى بكر محمد بن عبدالله الرازى المعروف بابن حمدون ، عن الحسن بن محمد الانبارى الكاتب . قال : كان لى أيام مقامى بارجان رجل

تاجر يعرف بجعفر بن محمد فكنت آنس به يحدثنى قال : كنت أحج دائماً وأنزل بالكوفة على رجل حسينى فقير مستور فألطفه وافتقده فتأخرت عن الحج سنة ثم عدت فوجدته مثريا فسألته عن سبب غنائه فقال : كان قد اجتمع معى دريهمات على وجه الدهر فمكرت عام أول فى أن أتزوج فإنى كنت عزباً كما علمت ، ثم قلت على فرض الحج قد تعين على فرأيت أن أقدم أداء الفروض وأتوكل ان الله تعالى إن سهل لى بعد ذلك ما أتزوج به . فلما حججت طفت طواف الدخول فأودعت رحلى وما كان معى بيتا من خان وقفلت بابه وخرجت إلى منا ، فلما عدت وجدت الباب مفتوحاً فارغا فتحيرت ونزلت بى شدة مارأيت مثلها قط . فقلت هذا أمر عظيم اثوابى فما وجه الغم ، واستسلمت لأمر الله تعالى وجلست فى البيت لاحيلة لى ولا تطيب نفسى بالمسألة فاتصل مقامى ثلاثة أيام ماطعمت فيها شيئا فلما كان فى اليوم الرابع بدا بى الضعف سحرا . وخفت على نفسى وذكرت قول جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له . فخرجت حتى شربت منها ورجعت لأريدالباب باب إبراهيم لأستريح فيه ، وكان فى الطريق بقية من سدفة فعثرت فى الطريق بشىء أوجع أصبعى فانكببت عليه لأمسكه فوقعت يدى على هميان ادم أحمر كبير فأخذته فلما حصل فى يدى ندمت وعلمت أن اللقطة حرام ، وقلت إن تركته الآن كنت المضيع له ، وقد لزمنى أن أعرفه ولعل صاحبه إذا رجع اليه أن يهب لى شيئا أقتاته حلالا . فجئت إلى بيتى وحللته فى المصباح فاذا هى دنانير صفر تزيد على ألف دينار فشددته ورجعت إلى المسجد وجلست على الحجر وناديت من ضاع منه شى فليأتنى بعلامته ويأخذه . فانقضى يومى أنادى ماجاءنى أحد ، وأنا على حالى فى الجوع وبت فى بيتى ليلتى كذلك ، وغدوت إلى الصفا والمروة فعرفته عندهما يومى حتى كان ينقضى فلم يأتنى أحد فضعفت ضعفا شديداً فخشيت على نفسى فرجعت متحاملا مقبلا حتى جلست على باب إبراهيم فقلت قبل انصراف النـاس قد ضعفت عن الصيـاح ، وأنا ماض اجلس على باب إبراهيم فمن رأيتموه يطلب شيئا قد ضاع منه فارشدوه إلى ، فلما قربت المغرب وأنا فى

الموضع إذا بخراسانى مجتاز ينشد ضالة فصحت به وقلت له صف ماضاع منك؟ فأعطانى صفة الهميان بعينه وذكر وزن الدنانير وعدتها فقلت : إن أرشدتك إلى من يعطيك إياه تعطينى مائة دينار ؟ قال : لا . قلت فخمسين . قال : لا . فلم أزل أنازل إلى أن بلغت إلى دينار واحد فقال لا إن أراد من هو عنده إيماناً واحتساباً وإلا فهو الضر وولى لينصرف ، فورد على أعظم وارد وهممت بالسكوت ، ثم خفت الله تعالى وأشفقت أن يفوتنى الخرسانى فصحت به ارجع . فرجع فأخرجت الهميان فدفعته اليه فمضى فجلست ومالى قوة على المشى إلى بيتى فما غاب عنى حينا حتى عاد فقال لى من أى البلاد أنت ؟ ومن أى الناس أنت ؟ فاغتظت منه غيظا عظيما فقلت وما عليك هل بقى لك عندى شيء ؟ قال : لا . ولكنى أسألك بالله العظيم من أى الناس والبلاد أنت تعرفنى ولا تضجر فقلت : من أهـــل الكوفة . فقال : ومن أيهم أنت ؟ واختصر . قلت : رجل من ولد الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام فقال ماحالك ومالك ؟ فقلت ما أملك من الدنيا شيئاً إلا ماتراه على وقصصت عليه قصتى وما كنت طمعت فيـه من صلاحها بما تعطينيه من الهميان ، وما انتهيت اليه من الضعف وشدة الجوع . فقال أريد أن تعرفنى صحة نسبك وحالك حتى أقوم بأمرك كله . قلت : ما أقدر على المشى لشدة الضعف ولكن اعرض الطواف وصح بالكوفيين وقل رجل من بلدكم علوى بباب إبراهيم يريد الجيئة بينكم من ينشط لحال هو فيها فمن جاء معك فهاته فغاب غير بعيد وجاء ومعه من الكوفيين جماعة اتفق أنهم كلهم يعرفون باطن حالى فقالوا : ماتريد أيها الشريف ؟ فقلت هذا رجل يريد أن يعرف حالى ونسبى لشيء بينه وبينى فعرفوه ماتعرفونه من صحة نسبى فوصفوه له طريقتى وعزمى فمضى وجاء وأخرج الهميان بعينه كما كنت سلمته له فقال : ياهذا خذ هذا بأمره بارك الله لك فيه . فقلت : ما يكفيك ماعاملتنى به حتى تستهزيء بى ، وأنا فى حال الموت : فقال : معاذ الله هو والله لك . فقلت فلم بخلت على بدينار منه ثم وهبت الجميع لى . فقال : ليس الهميان لى فما كان لى أن أعطيك منه شيئاً قل أم كثر ، وإنما أعطانيه رجل من بلدى وسألنى أن أطلب

بالعراق أو بالحجاز رجلا علويا حسينيا فقيرا مستورا فاذا علمت هـذا من حاله أغنيته بأن أسلم اليه هذا الهميان كله ليصير أهلا لنعمة تنعقد له فلم تجتمع لى هذه الصفة فى أحد ، فلما اجتمعت فيك لما شاهدته من الأمانة والفقر والعفة والصبر ، وصح عندى نسبك أعطيتك إياه فقلت : إن كنت تحب استكمال الأجر فخذ منه دينارا وابتع لى دراهم واشتر لى منها ما آكله وصر به الساعة إلى هاهنا . فقال لى اليك حاجة فقلت : قل . فقال : أنا رجل موسر والذى أعطيتك ليس لى فيه شىء كما عرفتك ، وأنا أسألك أن تقوم معى إلى رحلى فتكون فى ضيافتى إلى الكوفة وتتوفر دنانيرك عليك . فقلت ما بى حركة فاحتل فى حملى كيف شئت فغاب وجاء بمركوب فأركبنيه إلى رحله وأطعمنى فى الحال ما كان عنده وقطع لى من الغد ثيابا وكان يخدمنى بنفسه ، وعادلنى فى عماريته إلى الكوفة فلما بلغنا أعطانى من عنده دنانير أخرى وقال لى ضفها على ما عندك قال وفارقته وأنا أدعو اليه وأشكره ولم أمس الهميان بل أنفق من الدنانير التى أعطانيها الرجل باقتصاد إلى أن اتفقت لى ضيعة رخيصة فابتعتها بما فى الهميان فأغلت وأثمرت وأنا بعافية .

* * *

الباب الثامن

من أشفى على أن يقتل فكان الخلاص اليه أعجل

وجدت فى كتاب أبى الفرج المخزومى الحنطى : أن إبراهيم بن المهدى لما طال استتاره عن المأمون ضاق صدره فخرج ليلة من موضع كان مستخفياً فيه يريد موضعاً آخر فى زى امرأة ، وكان عطرا فعرض له حارس فلما شم رائحة الطيب ارتاب به فكلمه . فلما علم أنه رجل ضبطه فقال خذ خاتمى فثمنه ثلاثون الف دينار وخلنى فأبى وتعلق به فحمله إلى صاحب الشرطة فأتى به المأمون فلما دخل عليه بالحالة التى هو عليها جلس المأمون مجلساً عاماً وقام خطيب بحضرته يخطب بفضله وما رزقه الله جلت عظمته من الظفر بابراهيم ، ولما دخل إبراهيم بين يديه سلم عليه بالخلافة فرد عليه السلام. فقال إبراهيم : ياأمير المؤمنين إن ولى الثار محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى . ومن تناولته يد الأقدار بما مدله من أسباب الرجاء ما يأمن معه عادية الدهر وقد جعل الله عفوك فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى ، فإن تؤاخذ فبحقك وإن تعفو فبفضلك ثم قال :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

وقال

أتيت ذنباً عظيما وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمن وإن جزيت فعدل

فرق له المأمون وأقبل على أخيه أبى إسحق وابنه العباس والقواد وقال ماترون فى أمره ؟ فقال بعضهم يضرب عنقه . وبعضهم قال : يقصص لحمه إلى أن يتلف . وبعضهم قال تقطع أطرافه ويترك إلى أن يموت . فكل أشار بقتله وإنما اختلفوا فى الصفة فقال المأمون لأحمد بن أبى خالد ما تقول أنت يا أحمد ؟

فقال يا أمير المؤمنين : إن قتلته وجدنا مثلك قد قتل مثله كثيراً ، وإن عفوت لم نجد مثلك عفى عن مثله فأيما أحب اليك أن تفعل فعلا تجد لك فيه شريك أو تنفرد بالفضل ؟! فأطرق المأمون ملياً ثم رفع رأسه . فقال : أعد ما قلت يا أحمد ؟ فأعاد فقال بل منفرد بالفضل ولا رأى لنا فى الشركة فكشف إبراهيم المقنعة عن رأسه وكبر تكبيرة عالية وقال قد عفى والله أمير المؤمنين بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع ، وكان إبراهيم طويلا ادم جعد الشعر جهير الصوت فقال له المأمون : لا بأس عليك ياعم وأمر بحبسه فى دار أحمد بن أبى خالد فلما كان بعد شهر أحضره المأمون فقال اعتذر من ذنبك . فقال يا أمير المؤمنين ذنبى أجل من أن أتفوه فيه بعذر ، وعفو أمير المؤمنين أعظم من أن أنطق بشكر ولكنى أقول :

تفديك نفسى أن تضيق بصالح — والعفو منك بفضل خلق واسع
إن الذى خلق المحارم حازها — فى صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة — وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله — عفو ولم أشفع اليك بشافع
ورحمت أطفالا كافراخ القطا — وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب عليك ياعماه قد عفوت عنك فاستأنف الطاعة ورد ماله وضياعه فقال إبراهيم يشكره

رددت مالى ولم تبخل على به — وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
أمنت منك وقد خولتنى نعما — نعم الحيا تان من موت ومن عدمى
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به — والمال حتى اسل النعل عن قدمى
ما كان ذاك سوى عارية رجعت — اليك لو لم تعرها كنت لم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى — مقام شاهد عدل غير متهم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاما كالدر وهذا منه . وأمر له بخلع ومال قيل انه ألف الف درهم . وقال له إن أبا إسحاق وولدى أشارا بقتلك . فقال إبراهيم فما قلت لهما ياامير المؤمنين ؟ قال قلت لهما إن قرابته قوية ورحمه ماسة وقد ابتدأنا بأمر فينبغى أن نستتمه فان نكث فالله مغير مابه . قال إبراهيم :

لقد نصحنالك ولكن أبيت إلا ما أنت أهله ودفعت ماخفت بما رجوت ، فقال المأمون : قد مات حتمدى بحيات عذرك ، وقد عفوت عنك وأعظم من عفوى عنك أنى لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين * ووجدت فى بعض الكتب أنه لما حصل إبراهيم بن المهدى فى قبضة المأمون لم يشكك هو وغيره أنه مقتول فأطال حبسه فى مطمورة بأسوأ حال وأقبحها . قال إبرهيم : فآيست من نفسى ووطنتها على القتل وتعزيت عن الحياة حتى صرت أتمنى القتل للراحة من العذاب وما أؤمله فى الآخرة من حصول الثواب فبينما أنا كذلك إذ دخل على أحمد بن أبى خالد مبادرا فقال : اعهد فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك . فقلت اعطنى دواتاً وقرطاساً فكتبت وصية ذكرت فيها كلما احتجت اليه واسندتها إلى المأمون ونهضت فتطوعت ركعات ومضى أحمد وفرغت من الصلاة وجلست أتوقع القتل فعاد إلى أحمد بعد ساعتين وقال أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول أنا أحمد الله جلت عظمته الذى وفقنى لصلة رحمك والصلح وقد أمنك ورد عليك نعمك وجميع ضياعك وملكك فانصرف إلى دارك . قال : فبدأت أدعى للمأمون فغلبنى البكاء والانتحاب وهو يطالبنى بالجواب وأنا غير متمكن منه . فقال لى أحمد : لقد رأيت منك عجباً أخبرك انى امرت بضرب رقبتك فلم تجزع ، ولم تبك ثم اخبرتك بتفضل امير المؤمنين عليك وصفحه عنك فلم تتمالك من البكاء ؟ فقال : اما السكوت عن الخبر الأول فلأنى لم اتوهم منذ ظفر بى ان اسلم من القتل ، فلما ورد على مالم اشك فيه لم اجزع ولم ابك واما بكائى عند الخبر الثانى فوالله ما هو لسرور بالحياة ، ولا لرجوع النعمة ولا بكائى إلا لما كان منى فى قطيعة رحم من بعد استحقاقى منه للقتل يخولنى مثل هذا الصلح الذى لم يسمع به فى جاهلية ولا إسلام . فقد استحق امير المؤمنين الثواب من الله تعالى فى صلة رحمه وإظهاره إحسانه عند إساءتى وحلمه عند جهلى ، وفضله عند نقضى وجوابى هو ماشهدت وسمعت . فرجع إلى المأمون واخبره ثم عاد إلى بالمال والخلع ومركوب فانصرفت به إلى دارى ونعمتى * وقال على ابن هشام بن قبراط الكاتب ببغداد باسناد ذكره يحدث عن احمد بن يوسف الكاتب قال كنت اشرب مع المأمون وانادمه وانا اتقلب له فى ديوان المشرق وديوان الرسائل قبل وزاتى له وكان كثيراً ما انادمه على

الانفراد وربما يجمع بيني وبين البريدي ، فلما رضي عن ابراهيم بن المهدي ونادمه صار لايكاد يشرب مع غيره وغيري ويقتصر على استماع الغناء من وراء الستاير وربما حضر اسحق بن ابراهيم الموصلي فنحن ذات يوم على شرب ومعنا اسحاق إذ غنى ابراهيم بن المهدي فقال :

صونوا جيادكم واجلوا سلاحكم وشمروا انها أيام من غلبـــا

فاستعاده المأمون مراراً وبان لي في وجهه الغيظ والغضب والهم وزوال الطرب ولم يفطن ابراهيم وترك المأمون القدح الذي كان في يده ونهض فظنناه يريد الوضوء ثم عاد فما شعرنا إلا وقد استدعانا إلى مجلس آخر فاذا هو جالس على سرير الخلافة بقلنسوة وثياب الهيبة وبين يديه اسحاق بن ابراهيم المصعبي وجلة القواد فاستدعى ابراهيم بزيه فحضر باخس صورة وأقبحها وعليه ثياب المنادمة ينضحه بذلك . فلما وقف بين يديه قال : ياابراهيم ماحملك على الخروج عليّ والخطبة لنفسك بالخلافة ؟ قال أحمد بن يوسف وقد كنت لما أبطأ المأمون عن مجلس الشرب عرفت الصورة ، فلما استدعاني جئت وقد لبست ثياب العمل ومحيت ثياب المنادمة ، فلما سئل ابراهيم ذلك بمثل ذلك المجلس علمت أن الصوت قد ذكره ، فأقبل عليه إبراهيم بوجه ضيق وقلب ثابت فقال ياأمير المؤمنين : لست اخلو من أن أكون عندك عاقلا أو جاهلا ، فان كنت جاهلا فقد سقط عني اللوم من الله تعالى ثم منك . وإن كنت عاقلا فيحسن أن تعلم أني قد علمت أن محمداً أخاك مع أمواله وذخائره وأموال والدته وكثرة ضياعها وصنائعها والأعمال التي كانت في يده وارتفاعها ومحبة بني هاشم له لم يثبت لك وهو خليفة وأنت أمير من أمرائه ، فكيف أثبت أنا لك وأنا في قوم أكثر رزق الرجل ثلاثون درهماً في الشهر وقد غلبني على بغداد بن أبي خالد العياد وأصحابه يقطعون ويضربون ويحبسون ويطلقون ، ووالله جل شأنه ، وحق رسول الله وحق جدي العباس مادخلت فيما دخلت فيه إلا لأبقي هذا الأمر عليك وعلى أهل بيتك لما رأيت الحسن ابن سهل قد حمله البطر والرفض على أن يخرج الخلافة عنك ، فاردت ضبط الأمر إلى أن أتقدم فتسلمته . قال : فرأيت المأمون وقد اصفر وجهه فقال

على بيناء الخادم . فاحضر فقال رقعة سلمتها اليك بمرو قبل رحيلى عنها وأمرتك بحفظها فهاتها فمضى وجاء بسفط ففتحه وأخرج منه الرقعة فاذا مكتوب بخط المأمون لئن أظفرنى الله عز وجل بابراهيم بن المهدى لأسألنه بحضرة الأولياء والخاصة من أهل بيتى وأجنادى عن السبب الذى دعاه إلى الخروج على فان ذكر أنه إنما أراد بذلك حفظ الأمر على أهل بيتى لماجرى فى أمر على بن موسى لأخلين سبيله ولأحسن اليه ، ولئن ذكر غير ذلك من العذر كائنا ماكان لأضربن عنقه . قال أحمد بن يوسف : ولم يكن بحضرته كاتب غيرى فدفعها إلى وقال يا أحمد ادفعها اليه . ثم قال ياعم خذ براءتك من أحمد وعد إلى مجلسك الذى خلفتك فيه . قال فسلمنا الرقعة اليه وعدنا إلى مجلسنا وموضعنا فطرح ابراهيم نفسه مغشيا عليه فما شعرنا إلا بالمأمون قد رجع بثياب بذلته فقمنا وجلس مجلسنا وقال : ارجعوا إلى ما كنا فيه وأتممنا يومنا ذاك .

* * *

وجدت فى بعض الكتب ان كسرى ابرويز ركب يوما فرسه الشبديز فتلكأ عليه فجذب عنانه فانقطع فأحضر صاحب السروج وقال : يكون عنان مثلى ضعيفاً ينقطع اضربوا عنقه . فقال أيها الملك : اسمع وانصف . قال : قل . قال مابقاء جلدة تتنازعها ملكان ملك الناس وملك الدواب . قال : زه . زه أطلقوا عنه وأعطوه اثنى عشر ألف درهم وعفا عنه . وذكر محمد ابن عبدوس فى كتابه قال . لما صار الرشيد إلى طوس واشتدت علته اتصل خبره بالأمين فوجه ببكر بن المعتمر ودفع اليه كتاباً إلى الربيع بن الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهما يأمرهم بالقفول إلى بغداد إن حدثت الحادثة بالرشيد والاحتياط على مافى الخزائن وحمله ، وقد كان الرشيد جدد الشهادة للمأمون بجميع ما فى عسكره من مال وأثاث وخزن وكراع وغير ذلك فلما ورد بكر بن المعتمر أوصل كتباً ظاهرة كانت معه بعيادة الرشيد ، وكانت الكتب الباطنة مخفاة فاتصل خبرها بالرشيد فأحضره وطالبه بالكتب الباطنة فجحدها . قال : فذكر عبيدالله بن عبدالله بن طاهر . قال : حدثنى أبى قال :

كنت مع الرشيد بطوس لما ثقلت علته وقد ورد بكر بن المعتمر والمأمون حينئذ بمرو ، وقد ظفر الرشيد بأخي رافع بن الليث . فأحضر ذلك اليوم ومعه قرابة له فخلع الرشيد على بكر وصرفه إلى منزله . ثم أمر بإحضاره ومطالبته بالكتب فجحدها فأمر بحبسه ثم جلس الرشيد مجلساً عاما فى مضرب خز أسود ، استدارته أربعمائة زراع ، قبابه مغشاة بخز أسود وهو جالس فى فازة خز أسود فى وسط المضرب ، والعمد كلها سود وقد جعل مكان الحديد فضة ، والأوتاد والحبال كلها سود وعليه جبة خز سوداء وعليه فنك قد استشعره لما هو فيه من شدة البرد والعلة ، وفوقها دراعة خز أسود مبطنة بفنك وقلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء وهو عليل لما به وخلف الرشيد خادم يمسكه لئلا يميل ببدنه ، والفضل بن الربيع جالس بين يديه فقال للفضل : مر بكرا باحضار ما معه من الكتب السرية فأنكرها وقال : ما كان معى إلا الكتب التى أوصلتها . فقال للفضل : توعده وأعلمه ان لم يفعل قتلته فأقام ينكر وقال : ما كان معى إلا الكتب التى أوصلتها . فقال الرشيد بصوت : قنبوه . فنحى بكر وجىء بالقنب وقنب من قرنه إلى قدمه . قال بكر : فأيقنت بالقتل ويئست من نفسى وعملت على الاقرار فأنا على ذلك حتى أحضر هارون أخى رافع وقرابته الذين كانوا معه وقال أيتوهم رافع أنه يغلبنى والله لو كان معه عدد نجوم السماء لالتقطهم واحداً بعد واحد حتى أقتلهم عن آخرهم . فقال الرجل : الله الله يا أمير المؤمنين فان الله تعالى يعلم ، وأهل خراسان أنى برىء من أخى منذ عشرين سنة ملازم مسجدى فاتق الله تعالى فىّ وفى هذا الرجل . فقال له قطع الله لسانك . فسكت فقال : أخى الثالث أنت والله منذ كذا وكذا تدعو الله تعالى بالشهادة فلما رزقتها على يدى أشر خلقه أخذت فى الاعتذار فاغتاظ الرشيد وقال : على بجزارين فقال له قرابتى ياهارون . إفعل ماشئت . فانا نرجو أن نكون نحن وأنت بين يدى الله تعالى فى أقرب مدة فتعلم كيف يكون حالك . فصاح وأمر الجزارين بهما فقطعا عضواً عضواً فوالله ما فرغ منهما حتى توفى الرشيد . فقال بكر وأنا أتوقع القتل بعدهما

حتى أتانى غلام لأبى العتاهية قد بعث به مولاه ، وكتب فى راحته شيئاً أرانيه فاذا هو :

هى الأيام والعبر وأمر الله ينتظر
أتيأس أن ترى فرجاً فأين الله والقدر

فوثقت بالله ، وقويت نفسى . ثم سمعت واعية لا أفهم معناها واذا الفضل بن الربيع قد أقبل إلى فقال : حلوا أبا حامد ليس هذا يكفينى لخللت ودعا لى بخلع فجعلت علىّ ثم قال : أعظم الله أجرك فى أمير المؤمنين وأخذ بيدى ، وأدخلنى بيتاً فاذا الرشيد مسجى فيه ، وكشفت عن وجهه فلما رأيته ميتاً سكنت . فقال : هيه هات الكتب الباطنة التى معك ، وكنت اتخذت صندوقا للمطبخ قد ثقبت قوائمه . وجعلت الكتب فيها ، وجعلت الجلد فوقها ، فشق الجلد وكسرت القوائم وسلمت الكتب إلى أصحابها ، وأخذت الأجوبة وانصرفت ¤ قال مؤلف هذا الكتاب : وقد أتى أبو الحسين القاضى فى كتابه بهذين البيتين لأبى العتاهية ، ولم يذكر القصة وزاد بين البيت الأول والبيت الثانى بيتاً ، وهو هذا :

* * *

فلا تجزع وإن عظم البـ ـلاء ومسك الضر

حدثنى إبراهيم بن على النصيبى المتكلم قال : جماعة من أهل نصيبين : إنه كان بها أخوين ورثا عن أبيهما مالا جليلا ، فاقتسماه وأسرع أحدهما فى اتلاف حصته فلم يبق له شىء حتى احتاج إلى مافى أيدى الناس ، وثمر الآخر حصته فزادت وعرض له سفر فى تجارته . فجاءه أخوه الفقير فقال يا أخى : إنك تحتاج إلى أن تستأجر غلاماً فى سفرك ، وأنا أحتاج أن أخدم الناس فاجعلنى بدل غلام تستأجره ، فيكون ذلك أصون لى ولك . فلم يشك الأخ أن أخاه قد تأدب ، وأن هذا أول إقباله ، وآثر أن يصون أخاه ، ورق عليه فأخذه معه . فكان للأخ الغنى حمار يركبه ، وقد استأجر بغالا لأحماله فركب أخوه أحدها والمكارى أحدها ، وساروا فلما استتم بهم السفر حصلوا فى جبل فى الطريق فيه عين ماء فقال الأخ الفقير للأخ الغنى لو نزلت هاهنا وأرحنا دوابنا وسقيناها من هذا الماء وأكلنا ثم ركبنا . فقال : افعل فنزل التاجر

على باب الكهف الذى فى الجبل وأدخل متاعه اليه وبسط السفرة ليأكل ، وأخذ أخوه الفقير والمكارى الدواب ومضيا ليسقياها وانتظر التاجر أخاه والمكارى فاحتبسا طويلا . ثم جاء أخوه وحده وشد الدواب فقال له : أين المكارى ؟ فقال له : قد أقام فى الجبل . فقال له : تعالى نأكل . فتركه ومضى ، ثم عاد يسعى اليه وبيده أحجار يرميه بها ويقول لأخوه : استكتف يا ابن الفاعلة . فقال : ويحك مالك ماتريد ؟ فقال : أريد قتلك يا ابن الفاعلة أخذت مال أبى وعملته تجارة لك ، وجعلتنى غلامك قال ورفسه فألقاه على ظهره ثم أوثقه كتافا ، وأثخنه ضرباً بالحجارة وشجا وصاح الرجل فلم يجبه أحد فبرك أخوه الفقير على صدره ، وأخرج من وسطه سكينا خطيا فى قراب لها ليذبحه فرام استخراجها من القراب فتعسرت عليه فقام عن صدر أخيه وعلى يده اليسرى السكين فى قرابها ، وجذبها بيده اليمين وقد صار القراب من خلفه فخرجت السكين بحمية الجبذة فذبحته فوقع يخور فى دمه وينزف إلى أن مات ، وجمدت يده على السكين بعد موته ، وهى فيها وحصل على تلك الصورة وأخوه الغنى مشدود لايقدر على الحركة والسفرة منشورة والطعام عليها ، والدواب مشدودة . فأقام على تلك الصورة بقية يومه وليلته وقطعة من غد فاجتازت قافلة على المحجة ، وكان بينها وبين الكهف بعد فأحست البغال بالدواب المجتازة ، ونهق الحمار وجذب الرسن وجذبت البغال أرسانها فقلعت وعادت تطلب الدواب القادمة فلما رأى أهل القافلة دواباً غائرة ظنوا أنها لقوم قد أسرهم اللصوص ، وكانوا فى منعة فتسارعوا إلى البغال فلما قصدوها رجعت تطلب موضعها وتبعها قوم من أهل القافلة فانتهوا إلى التاجر . وشاهدوه مكتوفاً والسفرة منشورة والأخ مذبوحاً وبيده السكين فشاهدوا عجباً واستنطقوا الرجل فأومأ اليهم أنه لاقدرة لى على الكلام فحلوا كتافه وسقوه ماء ، وأقاموا عنده إلى أن أفاق ، وقدر على الكلام وأخبرهم الخبر فطلبوا المكارى فوجدوه غريقاً فى الماء قد أغرقه الأخ الفقير فحملوا ثقل التاجر على بغاله ، وأركبوه حماره وسيروه معهم إلى المنزل . وحدثنى ابراهيم ابن على النصيبى قال : حدثنى ابراهيم بن على الصفار شيخ كان جاراً

لنا بنصيبين قال : خرجت من نصيبين بسيف نفيس كنت ورثته عن أبى أقصد به عباس بن عمرو السلمى أمير ديار ربيعة ، وهو براس العين لأهديه له ، واستجديه بذلك ، فصحبنى فى الطريق شيخ من شيوخ الأعراب فسألنى عن أمرى ، فآنست به فحدثته الحديث ، وكنا قد قربنا من العين فدخلناها وافترقنا ، وكان يجيئنى ويراعينى ، ويظهر لى أنه مسلم على وأنه يبرنى بالقصد ويسألنى عن حالى ، فأخبرته أن الأمير قبل هديتى وأجاز لى بألف درهم وثياب ، وإنى أريد الخروج يوم كذا وكذا . فلما كان ذلك اليوم خرجت عن البلد راكباً حمارا ، فلما أصحرت إذا بالشيخ على دويبة ضعيفة متقلداً سيفاً ، فحين رأيته استربت منه وأنكرته ، ورأيت الشر فى عينيه ، فقلت : ما تصنع هاهنا ؟ فقال : قضيت حوائجى وأريد الرجوع ، وصحبتك عندى آثر من صحبة غيرك . فقلت : على اسم الله تعالى ، ومازلت متحذراً منه وهو مجتهد أن ادنو منه فلا أفعل ، وكلما دنى منى بعدت عنه إلى أن سرنا شيئاً يسيراً ، وليس معنا ثالث فقصر عنى ، واحثثت الحمار لأفوته فما حسيت إلا بركضة فالتفت فاذا هو قد جرد سيفه ، وقصدنى فرميت بنفسى عن الحمار وعدوت ، فلما خاف أن أفوته صاح : يا أبا القاسم إنما مزحت معك فلم ألتفت اليه فقرع دابته وزاد فى التحريك ، وبان لى ناووس فطلبته ، وكاد الاعرابى يلحق بى فدخلت الناووس ووقفت وراء بابه . قال : ومن صفات تلك النواويس أنها مبنية بالحجارة ، وباب كل ناووس حجر واحد عظيم قد نقر وجفف وملس فلا تستمكن اليد منه ، وله فى وجهه حلقة وليس من داخله شىء تتعلق اليد به وإنما يدفع من خارجه فينفتح فيدخل اليه وإذا خرج منه وجذبت الحلقة انغلق الباب وتمكن اردامه من ورائه فلم يمكن فتحه من داخل قال فحين دخلت الناووس وقفت خلف بابه ، وجاء الاعرابى فشددابته فى حلقة ، ودخل يريدنى مخترطاً سيفه والناووس مظلم فلم يرنى ومشى إلى صدر الناووس فخرجت أنا من خلف الباب وجذبته معى حتى صار الباب مردودا وحصلت الحلقة فى ردة هناك وحللت الدابة وركبتها وجاء الاعرابى إلى باب الناووس فرأى الموت عياناً فقال : يا أبا القاسم اتق الله فى أمرى

فانى أتلف قلت له تتلف أنت أهون من أن أتلف أنا . قال فاخرجنى وأعطيك أماناً واستوثق منى بالأيمان أنى لا أتعرض لك بسوء أبدا واذكر الحرمة التى بيننا . قلت : لم ترعها أنت وأيمانك فاجرة لا أثق بها فى تلف نفسى فأخذ يكرر الكلام . فقلت لا تهذى هو ذا اركب دابتك واجنب حمارى والوعد بيننا بعد أيام هاهنا ، فلا تبرح حتى أجى وإن احتجت إلى طعام فعليك بجيف العلوج فنعم الطعام لك وأخذت ألهوا به فى هذا القول وأخذ يبكى ويستغيث ويقول قتلتنى والله . فقلت : إلى لعنة وركبت دابته وجنبت دابتى ووجدت على دابته خرجا فيه ثياب يسيرة فجئت إلى نصيبين فبعت الثياب وكانت دابته شهباء فصيرتها أدهم وبعتـــه لئلا يعرف صاحبه فأطالب بالرجل واتفق أنه اشتراه رجل من المحتاجين وكفيت أمره وانكتمت القصة . فلما كان أكثر من سنة عرض لى خروج إلى رأس العين فخرجت فى ذلك الطريق فلما لاح لى الناووس تذكرت فقلت اعدل إلى الناووس وانظر إلى ماصار إليه أمره فجئت اليه فاذا بابه كما تركته ففتحته ودخلته فإذا أنا بالاعرابى وقد صار رمة فلا زلت أحمد الله عز وجل على السلامة ثم حركته برجلى وقلت على سبيل العبث ماخبرك يافلان فإذا بصوت شىء يتخشخش ففتشته فاذا هميان فأخذته وأخذت سيفه وخرجت ففتحت الهميان فإذا فيه خمسمائة درهم وبعت السيف بعد ذلك بجملة دراهم .

* * *

حدثنى أبو المغيرة محمد بن يعقوب بن يوسف الشاعر البصرى قال حدثنى أبو موسى عيسى بن عبد الله البغدادى . قال : حدثنى صديق لى قال : كنت قاصدا الرملة وحدى وما كنت دخلتها قط فانتهيت إليها وقد نام الناس ليلا فعدلت إلى المقبرة ودخلت بعض القباب التى على القبور فطرحت درقة كانت معى واتكأت عليها وعلقت سيفى واضطجعت أريد النوم لأدخل البلد نهاراً فاستوحشت من الموضع وأرقت فلما طال أرقى أحسست بحركة فقلت لصوص يجتازون وإن تصديت لهم لم آمنهم ولعلهم يكونون جماعه ولا أطيقهم فاعتزلت بمكانى ولم أتحرك وأخرجت رأسى من بعض أبواب القبة على

تخوف مني شديد فرأيت دابة كالذئب تمشي فأخفيت نفسي فإذا بها قد قصدت قبة حيالي فما زالت تتلفت طويلا وتدور حواليها ثم دخلتها فارتبت وأنكرت أمرها وتطلعت نفسي إلى علم ماهي . ثم دخل القبة وخرج غير مطيل ثم جعل ينظر ثم دخل وجرج بسرعة ثم دخل وعيني اليه فضرب بيده إلى قبر في القبة يبعثره فقلت نباش لاشك فيه وتأملته يحفر بيديه فعلمت أن فيها آلة من حديد يحفر بها فتركته إلى أن اطمأن وأطال وحفر شيئاً كثيرا ثم أخذت سيفي ودرقتي ومشيت على أطراف أناملي ودخلت القبة فأحس بي فقام إلى بقامة إنسان وأومىء إلى ليلطمني بكفيه فضربت يده بالسيف فأبنتها وطارت فقال : أواه قتلتني لعنك الله وعـــدا من بين يدي وندوت خلفه وكانت ليلة مقمرة حتى دخل البلد وأنا أراه ولست ألحقه إلا أنه بحيث يقع بصري عليه إلى أن اجتاز بي في طرق كثيرة وأنا في خلال ذلك أعلم الطريق لئلا أضل حتى جاء إلى باب فدفعه ودخل فأغلقه وأنا اسمع فعلمت الباب ورجعت أقفوا أثري والعلامات التي علمتها في طريقي حتى انتهيت إلى القبة التي كان فيها النباش ، وطلبت الكف فوجدتها فأخرجتها إلى القمر فبعد جهد انتزعت الكف المقطوعة من آلة حديد مصنوعة على شكل الكف وتأملت الكف فوجدت فيه نقش حنا وخاتمان من الذهب وهي أحسن كف في الدنيا نعومة ورطوبة وسمناً وملاحة فاغتممت ومسحت الدم منها ونمت في القبة التي كنت فيها ودخلت البلد من الغد أطلب العلامات حتى انتهيت إلى الباب وسألت لمن الدار فقالوا لقاضي البلد فاجتمع إليها خلق كثير وخرج منه رجل بهي فصلى بالناس وجلس في المحراب فازداد عجبي من الأمر وقلت لبعض الحاضرين بمن يعرف هـــذا القاضي ؟ فقال بفلان وأطلت الحديث في معناه حتى عرفت أنه له ابنة عاتقا وزوجة فلم أشك أن النباشة ابنته فتقدمت اليه فقلت بيني وبين القاضي أعزه الله حديث لا يصلح إلا على خلوة فقام ودخل المسجد وخلا بي . وقال قل : فأخرجت الكف وقلت أتعرف هذه فتأملها طويلا فقال أما الكف فلا ، وأما الخواتم فخواتم بنتي لي عاتق فما الخبر فقصصت عليه القصة بأسرها فقال : قم معي وأدخلني بيته وأغلق

الباب واستدعى طبقاً وطعاماً فأحضر واستدعى امرأته فقال له الخادم تقول لك كيف تخرج ومعك رجل غريب؟ فقال لابد من خروجها تأكل معنا فهذا لا نحتشمه، فأبت عليه فحلف بالطلاق لتخرجن. قال: فخرجت وهى باكية. فجلست معنا. فقال لها: أخرجى ابنتك. فقالت له: ياهذا جننت فما الذى حل بك قد فضحتنى وأنا امرأة كبيرة فكيف تهتك صبية عاتقاً فحلف بالطلاق لتخرجنها، فخرجت. فقال لها: كلى معنا، فرأيت صبية كالدنيا مليحة ما لحت مقلتاى أحسن منها إلا أن لونها قد اصفر جداً وهى مريضة فقلت إن ذلك لنزف الدم من يدها فأقبلت بيمينها وشمالها مخبأة. فقال: اخرجى يدك اليسار. فقالت: قد خرج بها خراج عظيم وهى مشدودة، فحلف لتخرجها فقالت امرأته يارجل استر على نفسك وابنتك. فوالله وحلفت بأيمان كثيرة ما أطلعت لهذه الصبية على سوء قط إلاالبارحة فإنها جاءتنى بعد نصف الليل فأيقظتنى فقالت ياأمى الحقينى وإلا تلفت فقلت مابالك. فقالت: قد قطعت يدى وهو ذا نزف الدم والساعه أموت فعالجينى وأخرجت يدها مقطوعة فلطمت فقالت لاتفضحينى ونفسك بالصباح عند أبى والجيران وعالجينى. فقلت. لاأدرى بما أعالجك. فقالت اغلى ريتا وأكوى يدى به ففعلت ذلك وكويتها وشددتها، فقلت الآن خبرينى مادهاك فامتنعت، فقلت والله لئن لم تحدثينى لأكشفن أمرك لأبيك. فقالت: إنه قد وقع فى نفسى منذ سنين أن أنبش الموتى فتقدمت إلى هذه الجارية فاشترت لى جلد ماعز بشعره واستعملت كفاً من حديد فكنت إذا نمتم أفتح الباب وآمرها أن تنام فى الدهليز ولا تغلق الباب فألبس الجلد والكف الحديد وأمشى على أربع فلا يشك الذى يرانى من فوق سطح أو غيره أنى كلب ثم أخرج إلى المقبرة وقد عرفت من النهار خبر من يموت من الجلة والمياسير وأين دفن فأقصد قبره فأنبشه وآخذ الأكفان وأدخلها معى فى الجلد وأمشى مشيتى وأعود والباب غير مغلوق فأدخل وأغلقه وأنزع تلك الآلة وأدفعها إلى الجارية مع الكفن فتأخذه وتخبيه فى بيت لاتعلمون به، قد اجتمع عندى ثلثمائة كفن أو مايقاربها لا أدرى ماأصنع بها إلا أنى

كنت أجد لذلك الخروج لذة لاسبب لها أكثر من أن أصابتى هذه المحنة فلما كانت الليلة سلط على رجل أحس بى كأنه كان حارسا لذلك القبر فقمت لأضرب وجهه بالكف الحديد فيشتغل عنى وأعدوا فداخلنى بالسيف ليضربنى فتوقيت الضربة بشمالى فأبادكفى . فقلت لها أظهرى انه قد خرج على كفك خراج وتعاللى فإن الذى يرى مابك من الصفار يصدق قولك فاذا مضت أيام قلنا لأبيك ان لم يقطع يدك خبث جميع جثتك وتلف فيأذن لنا فى قطعها فتظهر أنا قطعناها ويشيع الخبر حينئذ ويستتر أبوك فعملنا على هذا بعد أن استتبناها فتابت وحلفت بالله لاعادت ، وكنت عولت على أن أبيع الجارية هذه وأراعى مبيت الصبية وأبيتها إلى جانبى فنضحتها ونفسكِ . قال : فقال لها القاضى فما تقولين . قالت : صدقت أمى ووالله لا عدت أبداً وتبت إلى الله . فقال لها القاضى هـــذا صاحبك الذى قطع يدك فكادت تتلف جزعا ، ثم قال لى يافتى من أين أنت ؟ قلت من العراق . قال ففيم وردت قلت أطلب الرزق قال قد جاءك حلالا طيبا نحن قوم مياسير ولله علينا نعمة وستر فلا تنغص النعمة ولا تهتك الستر أزوجك ابنتى هـــذه وأغنيك بمالى عن الناس وتكون معنا فى دارنا . قال نعم فأمر ثم خرج إلى المسجد والناس مجتمعون ينتظرونه فخطب وزوجنى وأقعدنى فى الدار ووقعت الصبية فى نفسى حتى كدت أموت عشقاً لهـا فافترعتها وأقامت شهوراً معى وهى نافرة منى وأنا أؤانسها وأبكى حسرة على يدها وأعتذر اليها وهى تظهر قبول عذرى وأنا الذى بها غما على يدها يزيد حنقا على إلى ان نمت ليلة واستثقلت فى نومى على رسمى فاحسست بثقل شديد على صدرى فانتبهت جزعا فإذا هى باركة على صدرى وركبتاها على يدى مستوثقة منهما وفى يدها موسى وقد أهوت لتذبحنى فاضطربت ورمت الخلاص فتعذر وخشيت أن تبادرنى فسكت وقلت لها كلمينى واعملى ماشئتى فقالت : قل . قلت مايدعوك إلى هذا ؟ قالت أظننت تقطع يدى وتهتكنى ويتزوجنى مثلك وتنجوا سالماً والله لاكان هذا . فقلت أما الذبح لقدفاتك ولكنك تتمكنين من جراحات توقيعها

فى ولا تأمنين أن أفلت فأذبحك وأهرب أو أكشف هذا عليك ثم أسلمك إلى السلطان فتنكشف جنيتك الأولى والثانية ، ويتبرأ منك أبوك وأهلك وتقتلين فقالت : افعل ما شئت لابد من ذبحك ، وقد استوحش كل منا من صاحبه فنظرت فاذا الخلاص منها بعيد ولا بد من أن تجرح الموضع فيكون فيه تلفى فقلت : الحيلة اعمل فيها فقلت لك غير هذا ؟ فقالت : قل . قلت : أطلقينى وأنا أطلقك الساعة وتخرجين عنى فاخرج غدا عن البلد فلا أراك ولا ترينى ، ولا ينكشف لك حديث فى بلدك ، ولا تنفضحين وتتزوجين من شئت فقد شاع أن يدك قطعت بخراج خبيثة ، وتربحين الستر . قالت : لاأفعل حتى تحلف لى أنك لاتقيم فى البلد ولا تفضحنى أبدا ، وتعجل لى بالطلاق . فطلقتها ، وحلفت أنى أخرج ولاأفضحها بالأيمان المغلظة فقامت عن صدرى تعدو خوفا من أقبض عليها حتى رمت الموسى حيث لاأدرى وعادت وأخذت تظهر أن الذى فعلته مزاح وتلاعبنى فقلت : اليك عنى فقد حرمت على ، ولا يحل لى ملامستك ، وفى غد أخرج عنك . فقالت : الآن علمت صدقك ، ووالله لئن لم تفعل لانجوت من يدى فقمت فجاءتنى بصرة ، وقالت : هذه مائة دينار خذها نفقة لك واكتب رقعة طلاقى ، واخرج غدا فأخذت الدنانير وخرجت سحرة ذلك اليوم بعد أن كتبت إلى أبيها أنى طلقتها ، وأنى خرجت حياء منه ، ولم ألتق معهم أبدا * وحكى محمد بن بديع العقيلى قال : رأيت رجلا من بنى عقيل فى ظهره كله شرط كشرط الحجام إلا أنها أكبر فسألته عن سبب ذلك فقال : إنى كنت هويت ابنة عم لى ، وخطبتها فقالوا لى : لانزوجك إلا أن تجعل الشبكة صداقها ، وهى فرس سابقة كانت لبعض بنى بكر بن كلاب فتزوجتها على ذلك ، وخرجت أحتال فى أن أسل الفرس لأتمكن من الدخول بابنة عمى فأتيت الحى الذى فيه الفرس بصورة مجتاز مقتر إلى أن عرفت مربط الفرس من الخبا ، ورأيت لهم مهرة فاحتلت حتى دخلت البيت من كسره وحصلت خلف النضد تحت عهن لهم كانوا انتشوه ليغزل فلما جاء الليل وافى صاحب البيت ، وقد أصلحت له المرأة عشاء فجعلا يأكلان وقد استحكمت الظلمة ولا مصباح لهم ، وكنت ساغبا فأخرجت يدى وأهويت إلى القصعة

وأكلت معهم فأحس الرجل بيدى ، وأنكرها وقبض عليها فقبضت على يد المرأة بيدى الأخرى فقالت له المرأة : مالك ويدى . فظن أنه قابض على يد المرأة نخلى يدى نخليت يد المرأة وأكلنا ثم أنكرت المرأة يدى فقبضت عليها فقبضت على يد الرجل فقال لها : مالك نخلت عن يدى وخليت عن يده وانقضى الطعام ، واستلقى الرجل ونام . فلما استثقل وأنا مراصدهم والفرس مقيد فى جانب وابنتها فى البيت غير مقيدة ، ومفتاح قيد الفرس تحت راس المرأة فوافى عبد له أسود فنبذ حصاة وانتبهت المرأة وقامت اليه ، وتركت المفتاح فى مكانها ، وخرجت من الخبا إلى ظهر البيت ورمقتها بعينى فاذا هو قد علاها ، فلما حصلا فى شأنهما دببت فأخذت المفتاح وفتحت القفل ، وكان معى لجام شعر فأوجرته الفرس وركبتها وخرجت عليها من الخبا فقامت المرأة من تحت الأسود فدخلت الخبا ثم صاحت وذعر الحى فصاحوا وأحسوا بى ، فركبوا فى طلبى وأنا أكد الفرس وخلفى خلق منهم فأصبحت ولست أرى إلا فارسا واحداً برمح فلحقنى وقد طلعت الشمس فأخذ يطعننى فلم يصل طعنه إلى أكثر مما تراه فى جلدى لافرسه تلحق بى فيتمكن طعنه منى ، ولا فرسى يبعث بى إلى حيث لايمسنى الرمح حتى وافينا إلى نهر جرار فصحت بالفرس فوثبتها . وصاح الفارس بفرسه فلم يثب فلما رأيت عجزها عن العبور نزلت عن فرسى لأستريح وأريحها فصاح بى الرجل وقال : ياهذا أنا صاحب الفرس الذى تحتك وهذه ابنتها فاذا قد أخذتها فلا تحد عنها فانها تساوى عشر ديات وعشر دبات وما طالبت عليها شيئا قط إلا لحقته ولا طلبنى أحد عليها إلا فاتته ، وإنما سميت الشبكة لأنها لم تر شيئا إلا أدركته فكانت كالشبكة فى التعلق به فقلت : إما إذا نصحتنى والله لأنصحنك ولا أكذبك إنه كان من صورتى البارحة كيت وكيت حتى قصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيلتى فى الفرس . فأطرق رأسه ساعة ثم قال . لا جزاك الله من طارق خيراً أخذت فرسى وقتلت عبدى وطلقت ابنة عمى . وحكى رجل من الجند قال : خرجت من بعض بلدان الشام وأنا على دابتى وخرج لى فيه

ثياب ودنانير . فلما سرت عدة فراسخ لحقني المساء ، فاذا بدير عظيم فيه راهب في صومعة فنزل واستقبلني ، وسألني المبيت عنده ، وأن يضيفني ففعلت فلما دخلت الدير لم أجد فيه غيري ، فأخذ دابتي وطرح لها شعيراً ، وعزل رحلي في بيت ، وجاءني بما جاد ، وكان الزمان شديد البرد ، وأوقد بين يدي ناراً ، وجاءني بطعام طيب من أطعمة الرهبان . فأكلت ونبيذ فشربت ، ومضت قطعة من الليل فأردت النوم ، وقلت أدخل المستراح فسألته عنه فدلني على طريقه ، وكنا في غرفة فمشيت فلما سرنا على باب المستراح فاذا بادية مطروحة فلما صارت رجلاي عليها خلت ونزلت ، فاذا أنا في الصحراء وإذا البادية كانت مطروحة على غير سقف ، وكان الثلج سقط تلك الليلة سقوطاً أعظيما فصحت ، وقدرت أن ذلك تم من غير قصد فما كلمني فقمت ، وقد جرح بدني إلا أني سالم فجئت وتظللت بطارق باب الدير من الثلج فما وقمت فيه حيناً حتى رأيت فيه برابخ من فوق رأسي قد جاءتني منها حجارة لو تمكنت من دماغي لطحنته ، فخرجت أعدو وصحت به فشتمني فعلمت أن ذلك من حيلته طمعاً في رحلي ، فلما خرجت وقع الثلج عليّ فعلمت أني تالف إن دام ذلك فولد لي الفكر أن طلبت حجراً فيه ثلاثون رطلا فوضعته على عاتق وأقبلت أعدوا في الصحراء وهو على عاتق شوطاً حتى إذا تعبت وحميت وجريت عرقاً طرحت الحجر وجلست أستريح ، فاذا نالني البرد أخذت الحجر وعدوت حتى أبلغ خلف الحصن فأجلس من حيث يقع لي أن الراهب لا يراني ، فاذا أحسست بأن البرد قد بدا يأخذني تناولت الحجر وسعيت من الدير إلى ذلك الحصن ، وأنا على هذا إلى الغداة . فلما كان قبل طلوع الفجر ، وأنا خلف الدير سمعت بحركة بابه فتخفيت فاذا بالراهب قد خرج فجاء إلى موضع سقوطي فلما لم يرني . قال وأنا أسمعه : ياقوم ما فعل المشؤم ؟ أظنه قد رأى بقربه قرية فقام يمشي إليها كيف أعمل فاتني سلبه . وأقبل يمشي يطلب أثري فخالفته أنا إلى باب الدير ، وكان في وسطي سكين فوقفت خلف الباب فطاف ولم يبعد فلما لم يرلي أثراً عاد ودخل ، فحين بدأ برد الباب ثرت به فصحت عليه ، وجأته بالسكين وصرعته فذبحته وأغلقت باب الحصن ، وصعدت الغرفة فاصطليت

بنار كانت موقدة ، ودفيت وطرحت عنى تلك الثياب ، وفتحت خرجى فلبست منه ثياباً ، وأخذت كساء الراهب ونمت فيه إلى العصر ثم انتبهت ، وأنا سالم غير منكر شيئا من نفسى ، فطفت بالدير حتى رأيت طعاما فأكلت وسكنت نفسى ، وظفرت بمفاتيح بيوت الحصن فى يدى فأقبلت أفتح بيتاً بيتاً فاذا أنا بمال من عين وثياب وآلات ورحالات أقوام واخراجهم ، وإذا عادته كانت هكذا مع كل من يجتاز به منفرداً فلم أدر كيف أعمـــل فى ثقل المال وما وجدته فلبست ثياب الراهب ، وأقمت فى موضعه أياما أترائى لمن يجتاز بى من بعد فلا يشكون فى أنى هو ، وإذا قربوا لم أبرز لهم وجهى إلى أن خفى لهم خبرى ثم نزعت تلك الثياب ، وأخذت جواليقا فملأتها مالا وجعلتها على الدابة ، ومشيت وسقت إلى أقرب قرية ، واكتريت فيها منزلا ، ولم أزل أنقل اليه كلما وجدته حتى لم أدع شيئا له قدر إلا حصلته فى القرية ثم أقمت إلى أن اتفقت لى قافلة ، وحملت من تلك الأمتعة كل ماقدرت عليه ، ورفعته إلى المحمـل ، وسرت فى قافلة عظيمـة لنفسى بغنيمـة هائلة حتى قدمت بلدى . وقد حصلت لى عشرات ألوف دراهم ودنانير وسلمت من الموت *

حدثنى أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين العبقسى الشاعر قال : كان لأبى مملوك يسمى مقبل فأبق منه . ولم يعرف له خبراً سنين كثيرة ، ومات أبى وتغربت عن بلدى ، ووقعت إلى نصيبين ، وأنا حدث فبينما أنا مجتاز يوما فى سوقها وعلىَّ لباس فاخر ، وفى كمى منديل فيه دراهم كثيرة رأيت غلاما مقبلا فحين رآنى انكب على يدى فقبلها وأظهر سرورا شديدا بى ، وأقبل يسألنى عن أبى وأهلنـا فأعرفه موت من مات وخبر من بقى ثم قال لى : ياسيدى متى دخلت إلى هاهنا ، وفى أى شىء ؟ فعرفته . فأخذ يعتذر من هربه منا ثم قال : أنا مستوطن هاهنا ، وأنت مجتاز فلو أنعمت على وجئت فى دعوتى فانى أحضر لك نبيذاً طيباً وغناء حسناً . فاغتررت به وبالصبا ، ومضيت معه حتى بلغ بى إلى آخر البلد ، وإلى دور خراب ثم انتهى إلى دار عامرة مغلقة الباب فدقه ففتح له ، ودخل فدخلت ، وحين حصلت الدهليز أغلق البـاب بسرعة واستوثق منه فتنكرت لذلك ودخلت الدار فإذا أنا بثلاثين رجلا بالسلاح

وهم جلوس على بادية فلم أشكك فى أنهم لصوص ، وأيقنت بالشر وبادرنى أحدهم يلطمنى ، وقال : انزع ثيابك . فطرحت كل ما كان على حتى بقيت بالسراويل . فخلوا الدراهم التى كانت معى ، وأعطوا مقبلا شيئا منها وقالوا : امض فهات بهذا ما نأكله فإنا جياع فطارت روحى فقال لهم الغلام : ماأمض أو تقتلوه . فقلت لهم ياقوم : ماذنبى حتى تقتلونى ؟ قد أخذتم ما معى ، ولستم ترثونى إذا قتلتمونى ، ولا لى حال غير ما أخذتموه فالله الله فى . ثم أقبلت أستعطف مقبلا ، وهو لا يجيبنى ويقول لهم : إنكم إن لم تقتلوه ويفلت دل السلطان عليكم فقتلتم كلكم قال : فوثب إلى أحدهم بسيف مسلول ، وسحبنى من الموضع الذى كنت فيه إلى البالوعة ليذبحنى ، وكان بقربى غلام أمرد فعلقت به وقلت : يافتى ارحمنى وأجرنى فإن سنك قريب من سنى واستدفع البلاء من الله بخلاصى . فوثب الغلام وطرح نفسه على وقال : والله لا يقتل وأنا حى ، وجرد سيفه وقام فقام أستاذه لقيامه وقال : لا يقتل من أجاره غلامى ، واختلفوا وصار مع غلامه جماعة فانتزعونى وجعلونى فى زاوية من البيت الذى كانوا فيه : ووقفوا بينى وبين أصحابهم وقال لهم رئيسهم . كفوا عن الرجل إلى أن ننظر فى أمره ، وشتم مقبلا وقال : امض فهات ما نأكله فإنا جياع ، وليس يفوتنا قتله . فمضى مقبل وجاءهم بمأكول كثير ، وجلسوا يأكلون وترك جماعة منهم الأكل حراسة لى لئلا يغتالنى أحدهم إذا تشاغلوا بالأكل فلما أكلوا انفرد بعض من كان يتعصب لى بحراستى وأكل من لم يكن أكل منهم ثم أفضوا إلى الشراب فقال لهم : الآن قد أكلتم فترك هذا يؤدى إلى قتلكم فدعوا الخلاف فى أمره واقتلوه . فوثب من يريد قتلى ووثب الغلام ومن معه للمنع عنى ، وطال الكلام بينهم وأنا فى الزاوية ، وقد اجتمع إلى من يمنع قتلى . فصرت بينهم وبين الحائط ، إلى أن جرد بعضهم السيوف على بعض فقال لهم رئيسهم : هذا الذى أنتم فيه يؤدى إلى قتلكم والله رأيت رأيا فلا تخالفوه . فقالوا ماذا تأمرنا ؟ فقال : اغمدوا السلاح واصطلحوا ونشرب إلى وقت نريد أن نخرج عن هذه الدار ثم نكتفه ونسد فاه ، وندعه فى الدار وننصرف فانه لا يتمكن من الخروج وراءنا ، والصياح

علينا إلى أن نصبح من غد فنمر على بلاد ولا يجرح بعضكم بعضا ولا تنصرف كلمتكم ، فقالوا هذا صواب وجلسوا يشربون وجاء الغلام ليشرب معهم . فقلت له : الله الله فى فتم ماقد عملت ولا تشرب معهم وتحرسنى لئلا يثب على أحد منهم على غفلة فيضربنى ضربة يكون فيها تلف نفسى ثم لا تتمكن أنت من ردها ولا تنفعنى أن تقتل قاتلى فرحمنى وقال افعل ثم قال لأستاذه أحب أن تترك شربك اليوم وتفعل كما أفعل فجاءا فجلسا قدامى وأنا فى الزاوية أتوقع الموت ، ساعة فساعة . إلى أن حلت العتمة وقام القوم ، فتحزموا ولبسوا ثيابهم وخرجوا وبقى الغلام وأستاذه فقالا لى يافتى قد علمت أنا خلصنا دمك فلا تكافئنا بقبيح وهو ذا نخرج ولا يحسن أن نكتفك واحذر أن تصيح فأخذت أقبل أياديهما وأرجلهما وأقول أنتما أحييتمانى فكيف أكافئكما بالقبيح فقالا قم معنا فقمت ففتشا الدار حتى علما أنه لم يختلف فيها من يريد قتلى ثم قالا لى يا هذا . قد أمنت فإذا خرجنا فاستوثق من الباب ونم وراءه فلا يكون إلا خيرا ، ثم خرجا ، فاستوثقت من غلق الباب . ثم جزعت جزعا ، ولم أشكك فى أنه يخرج من تحت الأرض منهم من يقتلنى ، وزاد على الجزع . وأقبلت أمشى فى الدار وأدعوا وأسبح إلى أن كدت أتلف ، وآنست باستمرار الوقت على السلامة ، فحملتنى عينى ونمت ، فلم أحس إلا بالشمس وحرارتها على الباب . فقمت وخرجت أمشى عريانا بسراويل ، إلى أن حصلت فى الموضع الذى كنت أسكنه ، وما حدثت أحدا بهذا الحديث مدة لبقية الفزع . ثم بعد انقضاء سنة أو قريب منها ، كنت يوماً عند صاحب الشرطة بنصيبين لصداقة كانت بينه وبين أبى ، فلم ألبث أن حضر من عرفه عن عثور الطوف على جماعة من اللصوص بقرية سماها من قرى نصيبين ، وقبضه على سبعة نفر منهم ، وفوت الباقين . وأمر باحضارهم فوقع بصرى منهم على ذلك الغــــلام الذى أجارنى ذلك اليوم ، وعلى أستاذه ثم على مقبل ، فأخذتنى رعدة تبينت فى وأخذ مقبل من بينهم مثل ما أخذنى . فقال لى صاحب الشرطة مالك ؟ فقلت له : إن حديثى لطويل . ولعل الله أراد بحضورى هذا المجلس سعادة نفر وشقاوة نفر .

فقال هات : فقصصت عليه قصتى مع القوم إلى آخرها ، فتعجب وقال هلا شرحتها لى فيما قبل ، حتى كنت أطلبهم ؟ وأنتصف لك منهم . فقلت : إن الفزع الذى كان فى قلبى منهم لم يبسط لسانى به . فقال : فمن الذى كان معك من هؤلاء ؟ قلت : الغلام وأستاذه وواحد من الباقين ، فأمر بحل كتافهم وتميزهم من بين أصحابهم ودعا مقبل . فقال : ماحملك على مافعلت بابن أستاذك ؟ قال سوء الأصل ، وخبث العرق فقال لاجرم تقابل بفعلك وأمر به فضرب عنقه وأصحابه الباقين ، ودعا بالغلام وأستاذه وصاحبهما وقال لهما: لقد أحسنتما فى دفعكما عن هـذا الفتى ، والله يجزيكما عن فعلكما الخير ، فتوبا إلى الله من فعلكما ، وانصرفا فى صحبة الله مع صاحبكما ، ولا تعودا لما كنتما عليه من التلصص . فقد منت عليكما لحسن صنعكما مع هـذا الفتى ، فإن ظهرت منكما ثانياً ، ألحقتكم بأصحابكم . فشكروه ودعوا له وانصرفوا وشكرته على مافعل والحمدلله على توفيق لقضاء حق من أجارنى والانتقام ممن ظلمنى ثم صار ذلك الغلام وأستاذه من أصدقائى وكان يختلفان إلى

* * *

وحكى إبراهيم بن عبد السلام الهاشمى البصرى . قال : كان عندنا بالمربد رجل من خول محمد بن سليمان الهاشمى وكان مؤنثا يسمى عباد ، وكان يحمل السلاح فاجتمع يوما مع قوم من الخول على شراب لهم ، فتجاروا حديث الشجاعة فعابوه بما فيه من التأنيث فخاطرهم فى شىء يعمله مما يعرضون عليه يبين به من شجاعته فقالوا له يخرج الساعة بغير سلاح إلى صهاريج الحجاج فيدخل منها الصهريج الفلانى ويسمر فى أرضه فى هـذا الوتد ويعود وهـذه الصهاريج على أكثر من فرسخ من البصرة فى البرية وهى موحشة المكان خالية يجتمع فيها الماء وكان الحجاج قد عملها لشرب أهل الموسم والقوافل . قال : فأخبرنى عباد . قال : خرجت وليس معى إلا وتد ومطرقة حتى بلغت الصهريج الذى خاطرت عليه ، وكان أعظمها وأوحشها فدخلت وكان جافاً وجلست وضربت الوتد بالمطرقة فى أرضه فطن الصهريج فسمعت صلصلة شديدة وصوت سلسلة فقطعت الدق وانقطع الصوت وأعدت الدق فعاد

الصوت وظهرت حركة وأنا ثابت القلب أتأمل ولا أدرى شيئا من الظلمة ، إلى أن أحسست بالحركة والصوت قد قربا منى ، وتأملت فإذا بشخص لطيف لايشبه قدر خلقة الإنسان ، فاستوحشت وثبت نفسى وأنا أدق والشخص يقرب منى فوثبت وألقيت نفسى عليه واستوثقت منه فاذا هو قرد فى عنقه سلسلة ، فظننت أنه قد أفلت من قراد أوقافلة ، فسحبته فلان فى يدى وآنس بى ، فأخذته على يدى وساعدى وجئت أريد باب الصهريج ، فلما بلغته سمعت كلاما فخشيت أن يكون بعض من يطلبنى من العصبية هناك ، فوقفت أتسمع فإذا كلام امرأة مع رجل وهى تقول له : يافلان ويحك ، أتقتلنى ، أتذبحنى ؟ أتبلغ بى الموت ، اتق الله . وهو يقول : الذنب كله لك ، وأنت أذنت لهم فى أن يزوجوك ، ولوأبيت ماقدر أبوك أن يزوجك ، وإنما فعلتيه مللا بى وأنا تالف عشقاً وأنت تتمنعين . والله لأذبحنك ، استكتفى يا ابنة الفاعلة . قال : فنظرت فإذا ظهره إلى باب الصهريج فصحت عليه صيحة عظيمة وضربت قفاه بالقرد ففزع القرد وقبض على عنق الرجل وتمكن من ظهره ، فورد على الرجل ماحيره وأفزعه ، وذهب بعقله فخر مغشيا عليه ووقع السيف من يده ، فأخذته ورأيت الجحفة هناك فأخذتها وقصدت الرجل ، وكان عقله ثاب إليه ، ورمى القرد عن ظهره وسعى هاربا . فقصدت المرأة وحللت كتافها . وقلت لها : ما قصتك ؟ فقالت : أنا بنت فلان وذكرت رجلا من أهل المربد ، وهذا ابن عمى وكان يعشقنى فخطبنى من أبى فامتنع من تزويجه بى ، وزوجنى من رجل غريب ودخل بى منذ شهور فلما كان أمس خرجت أنا وجماعة من نساء الجيران ننظر إلى الصحراء وقت العصر ، وبلغه خبرنا فكبسنا فى الصحراء ومعه عدة رجال بالسلاح ، فأخذ كل رجل امرأة وانفرد بها ، وحملنى هذا إلى هذا الصهريج ففجر بى طول الليل . ولما كان الآن عزم على قتلى ، فأغاثنى الله بك ، وما أعرف للنسوة خبرا . قلت : لابأس عليك امشى فمشت بين يدى حتى دخلت البصرة ، فدقت باب والدها وفتح لها فدخلته وعدت إلى أصحابى

فحدثتهم الحديث وأريتهم القرد ، وخرجنا من الغد فرأوا الوتد ، وذهبنا إلى باب المرأة فأريتهم إياه ، وأخذت خطرى * قال وحكى أبى قال : كان فى جوارى رجل يعرف بأبى عبيدة ، حسن الأدب كثير الرواية للاخبار ، وكان قديما ينادم إسحق بن ابراهيم المصعبى فحدثنى أن إسحاق استدعاه ذات ليلة فى نصف الليل قال : فهالنى ذلك وأفزعنى وأوحشنى لما كنت أعرفه من زعارة الأخلاق ، وشدة الاسراع إلى القتل ، وخفت أن يكون قد بلغه عنى أمر باطل فيسرع إلى قتلى قبل كشف حالى فخرجت طائر العقل حتى أتيت داره فأدخلت إلى بعض دور الحرم فاشتد جزعى ، وذهب على أمرى فانتهى بى اليه ، وهو فى حجرة لطيفة فسمعت فى دهليزها بكاء امرأة ونحيبها ، ودخلت فاذا هو جالس على كرسى وبيده سيف مسلول . وهو مطرق فأيقنت بالقتل ، وسلمت ووقفت . فرفع رأسه وقال : اجلس يا أبا عبيدة فسكن روعى وجلست فرمى إلىّ رقاعا كانت بين يديه ، وقال : اقرأ هذا فقرأتها جميعاً فاذا هى رقع أصحاب الشرط يخبره كل واحد منهم بخبر يومه وماجرى فى عمله وفى جميعها ذكر كبسات وقعت على نساء وجدن على فساد من بنات الوزراء والأمراء والأجلاء الذين بادوا ، وذهبت مراتبهم ويسألوه عما يعملون فى أمرهن فقلت : قد وقفت أعز الله الأمير على هذه الرقاع فما يأمرنى الأمير . قال : ويحك يا أبا عبيدة إن هؤلاء الناس الذين ذكروا حال بناتهم كلهم كانوا أجل منى وامثل ، وقد أفضى بهم الدهر فى حرمهم إلى ماقد سمعت ، وقد وقع لى أن بناتى بعدى سيبلغن إلى هذا المبلغ وقد جمعتهن وهن خمس وجعلتهن فى هذه الحجرة لأقتلهن الساعة ، وأستريح ثم أدركتنى رأفة البشرية ، والخوف من الله تعالى فأردت أن أشاورك فى إمضاء الرأى أو شىء تشير به على فيهن فقلت أيها الأمير : إن آباء هؤلاء النساء اللواتى قرأت رقاع أصحاب الأخبار بما جرى عليهن أخطأوا فى تدبيرهن لأنهم خلفوا عليهن النعم ، ولم يحفظوهن بالزواج فخلون بأنفسهن ونعمهن ففسدن ، ولو كانوا جعلوهن فى أعناق الاكفاء ماجرى منهن هذا . والذى أرى أن أستدعى فلان العابد وله خمس بنين كلهم جميل الوجه

حسن اللبسة والنشو فتزوج كل واحد من بناتك واحداً منهم فتكتفى العار والنار ، فتكون قد أخذت بأمر الله عزوجل وبالحزم ، ويراك الله قد أردت طاعته فى حفظهن فيحفظك فيهن . فقال : امض الساعة اليه ، وأفرغ لى معه من هذا . قال : فمضيت إلى الرجل وقررت الأمر معه وأخذت الفتيان وآباءهم ، وجئت إلى دار إسحق بن ابراهيم فما طلع الفجر حتى عقدت للخمس فتيان على الخمس بنات فى خطبة واحدة ، وحمل اسحق بين يدى كل واحد منهم خمسة آلاف دينار عينا ، وشيئا كثيراً من الطيب والثياب ، وحمل كلا منهم على فرس بمركب ذهب ، وأعطانى كل واحد من الأزواج مالا مما دفع اليه كثيراً وأمر لى إسحاق بخمسمائة دينارا ، وخلعة وطيبا وأنفذ إلى أمهات البنات هدايا وأموالا جليلة وشكرتنى على تخليص بناتهن من القتل ، وقلبى بتلك النعمة فرحا فعدت إلى دارى ومعى ماقيمته ثلاثة آلاف دينار ه

ودعا الرشيد صالحاصاحب الموصل حين تنكر للبرامكة فقال له : أخرج إلى المنصور بن زياد فقل له قد صحت عليك عشر آلاف ألف درهم فاحملها إلى فى هذا اليوم وانطلق معه فان دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس فأقبلها وإلا فاحمل الى رأسه ، وإياك ومراجعتى فى شىء من أمره . قال صالح : فخرجت إلى منصور بن زياد وعرفته الخبر . فقال : إنا لله وإن إليه راجعون ذهبت والله نفسى ثم حلف أنه لايعرف موضع ثلاثمائة ألف فكيف بعشرة آلاف ألف درهم فقال له : خذ فى عملك . فقال له : امض بى إلى منزلى حتى أوصى . فماهو إلا أن دخله حتى ارتفع الصياح من منازله وحجر نسائه فأوصى وخرج ومافيه دم فقال لصالح : امض بنا إلى أبى على يحيى بن خالد لعل الله أن يأتينا بفرج من عنده . فمضى معه إلى يحيى وهو يبكى فقال له : ماوراءك ؟ فقص عليه القصة فأقلق يحيى أمره ، وأطرق مفكراً ثم دعى بخازنه فقال له : كم عندك من المال ؟ قال : خمسة آلاف ألف درهم فقال احضرنيها فأحضرها ثم وجه للفضل ابنه أنك قد أعلمتنى فداك أبوك ان عندك ألفى ألف درهم تريد أن تشترى بها ضيعة ، وقد أصبت ضيعة يبقى لك ذكرها ، وتحصد ثمرتها فوجه إلى بالمال فوجه به ثم قال للرسول : امض إلى جعفر وقل له ابعث فداك أبوك ألف ألف درهم

لحتى لزمنى فوجه بها إليه ثم قال لصالح هـذه ثمانية آلاف درهم ثم اطرق اطراقه لأنه لم يكن عنده شىء ثم رفع رأسه إلى خادم له فقال له امض إلى دنانير فقل لها وجهى إلىّ بالعقد الذى كان أمير المؤمنين وهبه لك فجاءه به فإذا بعقد كعظم الذراع ثم التفت إلى صالح وقال له قد اشتريت هـذا العقد لأمير المؤمنين بثمانية وعشرين ألف دينار وقد حسبته عليك الآن بألف ألف درهم وهـذا تمام حقك فانصرف وخل عن صاحبنا فلا سبيل لك عليه قال صالح فأخذت ذلك ورددت منصورا معى فلما صرت بالباب أنشأ منصور متمثلا بقول :

فما بقى علىّ تركتمانى ولكن خفتما ضرب النبال

فقال صالح ماعلى وجه الأرض رجل أنبل من هـذا الذى خرجنا من عنده ، ولا سمعت بمثله فيما مضى من الدهر ولا على وجه الأرض أخبث سريرة ولا أكفر نعمة ولاأدنى طمعا من هـذا النطى ، لم يشكر من أعطاه وزن عن هذا المال العظيم . قال : وصرت إلى الرشيد فقصصت عليه القصة وطويت عنه ما تمثل به منصور ، خوف أن يقتله إذا سمع ذلك . فقال الرشيد : قد علمت أنه إن نجا إنما ينجو بأهل هـذا البيت ، اطلق الرجل واقبض المال واردد العقد ، فإنى لم أكن لأهب هبة وترجع إلى مالى . قال صالح : فلم أطب نفساً إلا بتعريف يحيى ماقاله منصور عند خروجنا من المنزل من عنده . فرجعت إليه وأطنبت فى شكره والدعاء له ، ووصف ما كان منه . وقلت : ولكن أنعمت على غير شاكر قابل أكرم فعل بألأم قول . قال : وكيف ؟ فأخبرته بما كان . فجعل والله يطلب له المعاذير ، ويقول ياباعلى ان المنحوت القلب ربما سبقه لسانه بماليس فى ضميره ، وكان الرجل فى حال عظيمة . قال صالح : فقلت له والله ما أدرى من أى أمريك أعجب من أوله أم من آخره ، ولكنى أعلم أن الدهر لايخلف مثلك أبداً . قال : وكان على بن عيسى القمى ضامناً بعمل الخراج والضياع ببلده ، فبقيت عليه أربعون ألف دينار . ولج المأمون فى طلابته حتى قال لعلى بن صالح حاجبه طالبه بالمال وانظره ثلاثة أيام وإن أحضر المال قبل انقضائها وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤديها

أو يتلف ، وكان بين علي بن عيسى وغسان بن عباد عـداوة فانصرف من دار المأمون آيساً من نفسه لا يقدر على شيء من المال فقال له كاتبه : لو عرجت على غسان وأخبرته بخبرك لرجوت أن يعينك عليه . قال : فحملته على قبول ذلك فدخل على غسان فتلقاه بجميل ووفاه حقه فقص عليه كاتبه قصته . فقال له : أرجوا أن يكفيه الله ، ونهض علي بن عيسى آيساً من نفسه كاسف البال نادما على قصده . وقال لكاتبه لما انصرف : ما أفدتني بقصد غسان إلا لتجعل المهانة والذل لي ، وتشاغل في طريقه بلقاء بعض إخوانه وعاد إلى داره ، فوجد على داره بغالا عليها أربعون ألف دينارا مع رسول غسان ابن عباد فبلغه سلامه وعرفه عنه بما دفع إليـه وسلم اليه المـال وتقـدم بحضور دار المأمون في غد ذلك اليوم . فبكر علي بن عيسى فلما وصل الناس إلى المأمون مثل غسان بن عباد بين الصفوف . وقال يا أمير المؤمنين : إن لعلي بن عيسى حرمـة وخدمة وسالف أصل ولأمير المؤمنين عليـه سالف إحسان وقد لحقه من الخسران في ضمانة ماقد تعارفه الناس وجرى عليه من حـدة المطالبة وشدتها والوعيـد بضرب السياط ماحيره وقطعه عن احتيال ماعليه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يسعفني ببعض ماعليه ويضعه عنه فعل . قال : فلم يزل به إلى حطه النصف واقتصر منه على عشرين ألف دينار . قال غسان على أن تجدد عليه الضمان وتشرفه بخلع . فأجابه المأمون إلى ذلك . قال : فيأذن لي أمير المؤمنين أن احمل الدواة إليه ليوقع بذلك فيبقى شرف حملها عليّ وعلى عقبي . قال : افعـل فنعل . وخرج علي بن عيسى والتوقيع معه بذلك وعليه الخلع . فلمـا وصل إلى منزله رد العشرين ألف دينالي إلى غسان وشكره فردها غسان وقال إني لم استحطتها لنفسي وإنمـا أحببت توفيرها عليك واستحطتها لك ، وليس والله يعود شيء من المال إلى ملكي .

* * *

وحكى أحمد بن أبي داود . قال : ماصحب السلطان أجلد من عمر بن فرج الرجحي ، ولا أزجل ولا أخبث منه . غضب عليـه المعتصم يوماً وهم بقتله وأمر بحضوره فجاء وقد نزف دمه . فقال المعتصم : السيف ياغلام . فجعلت

ركبتا عمر تصطكان . فقلت إن رأى أمير المؤمنين أن يسأله عن ذنبه فلعله أن يخرج منه بعد لعذر . فقال له يا ابن الفاعلة : أمرتك فى ولد أبى طالب أن تعرف خبر منازلهم ؟ قال : لا . قال : فلم فعلت . فقال عمر : إنما فعلت ذلك لأنه بلغنى عن واحد منهم أن أصل قوم يكاتبونه ، فأردت أن أعرف مافى الكتب الواردة عليه . وجعل عمر فى خلال ذلك يلتمس البساط الذى كان تحت المعتصم فزاد ذلك فى غضبه . وقال ياابن الفاعلة : ماشغلك ما انت فيه عن لمس البساط كأنك غير مكترث بما أريده منك ؟ فقال : لا والله أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعنى من أمر سيده بكل شىء على جميع الأحوال ، وإنى ما استحسنت هـذا البساط لأنه ليس من بسط الخلافة . فقال له ويلك : هـذا البساط ذكر محمد بن عبد الملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم . فقال ياسيدى : عندى خير منه بسبعمائة دينار . قال : فذهب عن المعتصم والله ذلك الفور الذى كان به وسكن غضبه وقال : وجه الساعة من يحضره . فجاء البساط وما كان قد قام عليه فيما أظن بأكثر من ثلاثة آلاف دينار فبسط واستحسنه المعتصم واستلافه وقال : هـذا والله أحسن من بساطنا ، وأرخص ، وقد أخذناه منك بما أقام عليك ، ووالله مابرح ذلك اليوم حتى نادمه وخلع عليه . قال وأخذ مصعب ابن الزبير رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقال أيها الأمير : ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الجميل الذى يستضاء به فأتعلق بك ثم أقول يارب سل هذا فيم قتلنى ؟ قال : قد عفوت عنك . قال أيها الأمير : إجعل ماوهبت لى فى حياتى فى خفض فإنه لاعيش لفقير . فقال : ردوا عليه عليه عطاءه ، واعطوه مائة ألف درهم . فقال : أشهدالله أنى قد جعلت نصفها لابن قيس الرقيات . قال : ولم قال لقوله :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه   جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أو   لح من كان همه الاتقاء

فضحك مصعب وقال : أرى فيك للصنيعة موضعاً ، وجعله فى ندمائه وأحسن صلته .

* * *

وقيل للفضل بن يحيى قد أفسدت جودك بكبرك . فقال : والله مالى حيلة فى النزوع عنه وما كان طبعى هكذا ، إلا أنى حملت نفسى عليه لما رأيت من عمارة بن حمزة فتشبهت به فصار طبعاً لا أقدر على الإقلاع عنه ، وذلك أن أبى كان يضمن فارس من المهدى فحملت عليه ألف ألف درهم وكان المهدى قد سام رأيه فيه فحرك ذلك ما كان فى نفسه وأمر أباعون أن يأخذه فيطالبه بالمال ، فإن غربت الشمس عن يومه ذلك ولم يسلم جميعه أو يبقى درهم منه أتاه برأسه من غير أن يستأذنه أو يراجعه . قال : فأخذه أبو عون فاستدعانى اليه وقال يابنى قد ترى ما نحن فيه فلا تدعوا فى منازلكم شيئا إلا أحضرتموه ، فجمعنا كل مافى منازلنا من صامت وحلى فلم يبلغ عشر المال . فقال لى يابنى : إن كانت لنا حيلة فى الحياة فهى من قبل عمارة بن حمزة وإلا فأنا مقتول العشية فألقه واذكر له الصورة فمضيت إلى بابه فاستؤذن لى عليه فدخلت عليه وهو مضطجع قد غاص فى فرش له ما كاد يبين غير وجهه ، فوالله فوالله ما تحرك . وسلمت فأومأ إلىّ بالجلوس فجلست بعيداً منه فلم يعرنى الطرف فانكسرت نفسى وقلت : أى خير عند من هـــذا لقاؤه وعنوان أمره ، فأمسكت لا أتكلم منكرا فى الكلام والقيام . فقال : اذكر حاجتك إن كنت أتيت بها . قال فقصصت عليه القصة وعرفته بما جئت بقصده وما نحن فيه من المضايقة والتشديد . قال : فوالله ما أجابنى بأكثر من أن قال امض فإن الله تعالى يكفيك . فقمت متحيراً أجر رجلى لا أشك فى أنه قد آيسنى من حاجتى وقلت إن عدت إلى أبى بهذا الجواب مات عما قبل ضرب العنق ، فتوقفت ساعة لا أدرى ما أصنع ، ثم قلت على كل حال لابد من أن أمضى وأؤانسه فإن كان له حيلة أخرى شرعنا فيها قبل أن ينصرم النهار . قال : فجئته فوجدت على الباب بغالا محملة فقلت لمن معها من أنتم ومن بعث بكم ؟ فقالوا : أنفذنا عمارة إليكم بمال على هذه البغال فدخلت وأخبرت أبى بما جرى

وأخذنا المال فصححناه وما صليت العصر إلا وسلمنا المال ، ولما عرف المهدى الصورة فاستحيا وأفرج عن أبى . وكان ذلك سبب رضاه عنه ، وصلاح نيته له ، فلما كان بعدشهرين ورد لنا من فارس مال كثير فقال لى أبى : خذ المال وامض به إلى عمارة واشكره ورده عليه ، فحملت المال وجئت به إلى بابه حتى استؤذن لى فدخلت عليه وهو على فرشه فما زادنى على ماعاملنى به أولا ولا نقصنى ، فشكرته عن أبى ودعوت له وعرفته إحضارى المال وسألته الأمر بقبضه . فقال لى : أكنت قسطارا لأبيك أقرضه وأرتجع منه؟ فقلت لا ياسيدى بل أحييته وحقنت دمه ومننت عليه وما أحب أن ينقمك ، فلما حصل له المال أنفذه فقال له أما إذا رده أبوك فقد وهبته لك خذه وانصرف . فقمت وقد أعطانى مالم يعطه أحـــداً فجئت إلى أبى فعرفته ماجرى . فقال : لا والله يابنى ما تطيب لك نفسى به كله ، ولكن تأخذ منه مائتى ألف درهم فأعطانيها . فهى أول مالى وأصل نعمتى فتعلمت من عمارة الكرم والكبر معاً فصار لى طبعا .

* * *

وحكى المعروف بالهايم الرواية فيما حدثنى به . قال : كنت أسير من الشام أريد العراق فلما انتهيت إلى قرية فى بعض الطريق لقينى خرسانى معه مخلاة فقال أين تريد ؟ قلت : بغداد . فقال : أنا رفيقك فسرنا إلى قرية خراب على شاطىء الفرات فى برية الشام فرأينا على باب القرية رجلا أسود منكر الخلق عريانا لايتوارى بشىء البتة فعدا بجفلا عنا ، فدخلنا القرية فجلسنا فى دار خراب على شاطىء الفرات وأخرجنا زاداً كان معنا فجعلنا نأكل ، فإذا الحجارة تجيئنا متداركة حتى خفنا أن نهلك منها ، وما تمالكنا أن نقوم إلا بجهد وتأملنا أمره فرأينا الأسود يرجمنا فطلبناه ، وطلبنا فلما دخلنا وأم الأسود أن يقبض على ففزعت منه فقبض على الخرسانى وقبض عليه الآخر وجعلا يتعاركان فاسكب الأسود على كتف الخرسانى فعضه فصاح الخرسانى يابغدادى أدركنى فقد قتلنى . فدنوت من خلف الأسود وتعلقت بخصيتيه ولكمتهما لكمات شديده فخر مغشيا عليه ، وقام الخرسانى فجلس على

صدره وخنقه بيده حتى تلف وسرنا والخرسانى يصيح من ألم العضة فانتهينا إلى حيال قرية عامرة فصحنا بملاح فقدم زورقه لنعبر إلى القرية فطرح الخرسانى نفسه على الشط كالتالف فشجعته وقلت : مالك وأى شيء قدر عضة ؟ فقال ويحك أنظر اليها فرأيتها فإذا هى قد أخذت كتفه كله واسودت واحمر بدنه كله فحملته أنا والملاح حتى حصلنا فى الزورق وعبرنا فلما صرنا بالقرب من الشط تلف فأخرجناه ميتاً فاجتمع أهل القرية وسألوا عن شأنه فحدثتهم الحديث . فقالوا : هذا عبدفلان أصابه داء الكلب وتغرب فى تلك الخرابات وقد قتل خلقاً كثيراً بالعض وتبادر قوم منهم يريدون الموضع للنظر إلى الأسود وسرت أنا فى طريقى وحمدت الله على سلامتى من الاسود . قال : وقرأت فى كتب الفرس . أن ابرويز الملك كان معجباً بالقلهبذ لطيب غنائه فنشأ للقهلبذ غلام أحسن غناء منه فأهداه إلى ابرويز متقرباً به اليه واستطابه ابرويز وغلب على قلبه حتى قدمه على القهلبذ فحسده القهلبذ فقتله وبلغ ذلك ابرويز فغضب غضباً شديداً ، واستدعا القهلبذ وأمر فأحضروا له السيف والنطع وعزم على ضرب عنقه وقال له يا كاب : علمت أن شطر لذتى بالغناء كان فيك ، وشطرها فى غلامك فقتلته لتذهب بشطر لذتى والله لأقتلنك وأمر به فجر ليقتل . فقال أيها الملك : اسمع منى كلمة ثم اعمل ماشئت . قال : قل . قال : إذا كانت لذتك شطرين وقد أبطلت أنا بالجهل والخطأ أحدهما فهل تبطل أنت على نفسك الشطر الآخر بطاعة الغضب فإن جنايتك على نفسك أعظم من جنايتى عليك . فقال ابرويز : ما نطقت بهذا الكلام فى مثل هذا المقام إلا لما فى أجلك من التأخير ، ولما يريد الله اسعادى به من الالتذاذ بالغناء وقد عفوت عنك فأطلقه .

* * *

وقال أبو إسحق أخبرنا أحمد بن أبى داود . قال : دخلت على المعتصم يوماً فقال لى يا أبا عبدالله : لم يدعنى اليوم أبو الحسن الأفشين حتى أطلقت يده على القاسم بن عيسى فنمت من بين يديه ولم أبصر شيئاً جزعاً على أبى دلف ودخلنى أمر عظيم وخرجت فركبت دابتى وسرت أشد سير

من الجوسق إلى باب الأقشين بقرب المطيرة أؤمل أن أدرك أبا دلف من قبل أن يحدث عليه حادثة . فلما بلغت بابه كرهت أن أستأذن فيعلم أنى قد حضرت بسبب أبى دلف فيعجل عليه فدخل فدخلت على دابتى إلى الموضع الذى كنت أنزل فيه وأوهمت حاجبه أنى قد جئت برسالة من المعتصم ، ثم نزلت فرفع الستر فدخلت فوجدت الأقشين فى مجلسه ، وأبا دلف مصفداً بالحديد بين يديه على نطع وهو يقرعه ويخاطبه بأشد عضب وأغلظ مخاطبة لحين قربت منه أمسك . فسلمت وأخذت مجلسى ثم قلت للأقشين : قد عرفت حرمتى بأمير المؤمنين وخدمتى إياه ، وموضعى عنده ، وموقعى من رأيه وتفرده بالصنيعة عندى ، والإحسان إلى وعلمت مع ذلك ميلى إليك ومحبتى لك وقد رغبت إليك فيما يرغب اليه مثلى إلى مثلك ممن رفع الله قدره ، وأجل خاطره ، وأعلى همته فقال : كلما قلت وكلما أردته منى فهو مبذول لك خلا هذا الجالس فانى لا أشفعك فيه . فقلت : ماجئتك إلا فى أمره ، ولا ألتمس منك غيره ولولا شدة غضبك وما تتوعده به من القتل لكان فى جميل عفوك ما أغنى عن كلامك ، ولكنى لما عرفت غضبك وما تنقمه عليه احتجت مع موقعه منى إلى كلامك فى أمره ، واستيهاب عظيم جرمه إذ كان مثلك فى جلالتك إنما يسئل جلائل الامور فقال يا أبا عبدالله . هذا رجل طلب دمى . ولم يقتصر على إزالة نعمتى . ولا سبيل إلى تشفيعك فيه ، ولكن هذا بيت مالى ، وهذه ضياعى وكل ما أملك فخذ من ذلك ما أردت . فقلت : بارك الله لك فى مالك وثمرها لك ، ولم آت لهذا وإنما أتيت فى مكرمة يبقى فضلها ، وتحسن أحدوثتها ، وتعتقد بها منة فى عنقى لا أزال مرتهناً بشكرها . فقال : ما عندى فى هذا شىء البتة . فقلت له : القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها فاستبقه وأنعم عليه فان لم تره لهذا أهلا فهبه للعرب كلها ، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب ، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه ، وأنت اليوم بقية العجم فأنعم على شريف من العرب بالعفو عنه ، فقال : ما عندى فى هذا إلا ما سمعته ، وتنكر وتبينت الشر فى وجهه فقلت فى نفسى : أنصرف وأدع هذا يقتل أبا دلف لا والله ، ولكن أمثل بين يديه قائماً وأسأله فلعله يستحى

فقمت وتوهمنى أريد الانصراف فتحضرلى . فقلت : لست أريد الانصراف وإنما مثلت بين يديك طالباً راغباً ضارعا سائلا مستوهباً هذا الرجل منك . فكان جوابه أغلظ فتحيرت . فقلت : انكب على رأسه فأقبله فدخلنى من ذلك أنفة شديدة وقلت : أقبل رأس هذا النذل لايكون هذا أبدا ثم راجعتنى الشفقة على أبى دلف فقلبت رأسه وتضرعت فلم يجبنى ، فأخذ فى ماقدم وماحدث وتددت لجلست وقلت يا أبا الحسن : قد طلبت اليك وتضرعت ، ووضعت خدى لك ومثلت بين يديك ، وقبلت رأسك فشفعنى وأصرفنى شاكراً فهو أجمل بك . قال : لا والله ماعندى غير ما قلته لك . قلت : فأنا رسول أمير المؤمنين اليك وهو يقول لك لا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثاً فانك إن قتلته قتلت به . قال : يقول أمير المؤمنين هذا لى بعد أن أطلق يدى عليه ؟ قلت : نعم . أنارسوله اليك بما قلته لك فان كنت فى الطاعة فاسمع وأطع ، وإن كنت قلت لاطاعة فافعل ؟! ونفضت يدى فى وجهه ونهضت فاضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لى بدابتى ، وركبت فأعددت السير إلى المعتصم لأخبره الخبر وبما اضطررت اليه من تأدية رسالة باطلة عنه ، لأنى علمت أنه لم يقل لى ماقاله إلا وهو يحب استبقاء أبى دلف فانتهيت إلى الجوسق فى وقت حار والحجاب جميعاً نيام والدار خالية فانتهيت إلى ستر الدار التى فيها المعتصم وجلست وقلت إن جاء الأقشين دخلت معه وتكلمت ، وإن سأل الوصول أخبرت أمير المؤمنين الخبر كله . فبينما أنا كذلك إذ خرج خادم صغير من وراء الستر ، ثم دخل وخرج فقال: ادخل . فدخلت وقلت يا أمير المؤمنين : أما لى حرمة ؟ أما لى زمام ؟ أما لى حق ؟ أما فى فضل أمير المؤمنين ونعمته على مايجب رعايته ؟ فقال : مالك يا أبا عبدالله ماقصتك ؟ اجلس . اجلس . فقلت يا أمير المؤمنين قلت لى اليوم فى القاسم بن عيسى قولا علمت أنك تريد استنقاذه ، وحقن دمه فمضيت من فورى إلى أبى الحسن الأقشين ، وقصصت عليه القصة ، وكلما دخلت معه فى الكلام يتغيظ ويفتل سباله حتى إذا أردت أن أعرفه الرسالة التى أديتها عنه قطع كلامى وقال يمضى قاضى وصنيعتى أحمد بن أبى داود إلى جندى فيخضع له ، ويقف بين يديه ، ويقبل رأسه فلا يشفعه قتلنى الله إن لم أقتله يكررها

فما استوفى كلامه حتى رفع الستر ودخل الأفشين فلقيه بأكبر البر والإكرام وأجلسه بقربه ، وقال فى هذا الوقت الحار يا أبا الحسن ؟ فقال يا أمير المؤمنين رجل عرفت ما نالنى منه وأنه طلب دمى ، وقد أطلقت يدى عليه ويجيئنى هذا ويقول إنك بعثت به إلىّ تأمرنى أن لا أحدث فيه حدثاً ، وإنى إن قتلته قتلت به وأظهر الغضب وقال : نعم أنا أرسلته اليك فلا تحدث على القاسم بن على حدثاً ، فنهض الأفشين مغضباً يدمدم واتبعته لأتلافاه فصاح بى المعتصم ارجع يا أبا عبدالله فرجعت . وقلت يا أمير المؤمنين إنه باق بما جرى كلاماً قد قطعتنى بكلامك عن تكملته وهى بمعنى الرسالة قال قد فهمتها والقاسم بن عيسى يوافيك العشية فاحذر أن تتفوه بشىء مما جرى ؟ ومضى الأفشين فأطلق القاسم وخلع عليه فجاءنى القاسم من عشيته وما أخبرت بالحديث أحد حتى قتل الافشين ومات المعتصم .

* * *

قال قرأت فى بعض كتب الفرس المنقولة إلى العربية أن ملكا من ملوكهم قدم اليه صاحب ما ئدته عضادة اسفيد باج فسقطت منها نقطة على ذراع الملك فأمر بقتل الرجل فقال الرجل : أعيذ الملك بالله من أن يقتلنى ظلما لغير ذنب قصدته . فقال الملك : قتلك واجب ليتعظ بك غيرك فلا يهمل الخدمة فأخذ الرجل العضادة فصبها بأسرها على الملك وقال : أيها الملك تكرهت أن يشيع عنك أنك قتلتنى ظلما ففعلت هذا لأستحق القتل ، ويزول عنك قبح الأحدوثة بظلم الخدم فشأنك الآن وما تريد . فقال الملك : ما أحسن الأجل قد عفوت عنك * قال أحمد بن أبى داود : وما رأيت رجلا عاين الموت فما اكترث به ولا شغله عما أراده حتى بلغه وخلصه الله من القتل إلا تميم ابن جميل فانى رأيته بين يدى المعتصم بالله ، وقد بسط له النطع وانتضى السيف ، وكان رجلا جسيما وسيما فأحب المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره ، فقال له : تكلم . فقال : إما إذا أذن أمير المؤمنين فى الكلام فالحمد لله الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا أمير المؤمنين : جبر الله

بك صدع الدين ، ولم بك شعث المسلمين ، إن الذنوب تخرس الالسنة ، وتخلع الأفئدة ، وأيم الله لقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك وأنشد :

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً ... يلاحظنى من حيث لا أتلفت
وأكثر ظنى أنك اليوم قاتلى ... وأى امرىء مما قضى الله يفلت
وأى امرىء يدلى بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعى من أن أموت وأننى ... لأعلم أن الموت شىء موقت
ولكن خلفى بلية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرتى تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى اليهم ... وقد لطموا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... إذ ود الردى عنهم وإن مت موتوا

فاستعبر المعتصم ثم قال يا تميم : قد عفوت عنك من الهفوة ، ووهبتك للصبية وأمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد عليه سقى الفرات .

* * *

وقال أوتى معن بن زائدة بثلاثمائة أسير فأمر بضرب أعناقهم فأحضر سيف ماض وسياف ونطع وقدم واحد منهم فقتل ، ثم قدم غلام كان فيهم فقال يا معن : لا تقتل أسراك وهم عطاش . فقال اسقوهم ماء فشربوا . فقام الغلام فقال أيها الأمير : لقد أطعنا فى السؤال وإن لكل كبد حرا أجر ، ونحن والله جياع فإن رأيت أن تشبعنا قبل قتلنا فافعل . فأمر لهم بطعام فأكلوا فلما شبعوا قام الغلام فقال أيها الأمير : كنا أسراك والآن سرنا أضيافك . فقال خلوا عنهم فأطلقوهم جميعا * وقرأت فى بعض الكتب كان موسى الهادى قد طالب أخاه هارون أن يخلع نفسه من العهد لصيره لابنه من بعده ويخرج هارون من الأمر فلم يجب إلى ذلك ، وأحضر يحي بن خالد البرمكى ولطف به وداره ووعده ومناه وسأله أن يشير على هارون بالخلع فلم يجب يحي إلى ذلك ودافعه عنه ، وهدده الهادى وتوعده وجرت بينهما فى ذلك خطوب وأشرف يحي معه على الهلاك وهو مقيم على مدافعته عن صاحبه إلى أن اعتل الهادي علته التي مات فيها واشتد به فدعا يحي وقال له : ليس

ينفعنى معك شىء ، وقد أفسدت أخى وقويت نفسه حتى امتنع بما أريده ، ووالله لأقتلنك فدعا بالسيف والنطع وأبركه ليضرب عنقه . فقال له ابراهيم ابن ذكوان الحرانى ياأمير المؤمنين : إن ليحيى عندى يداً أريد أن أكافئه عنها فأحب أن تهبه لى الليلة وأنت فى غد أعلا عينا وماتراه فى أمره . فقال ومافائدة ليلة ؟ فقال : إما أن يعود صاحبه إلى رضاء أمير المؤمنين أو يعهدك فى أمر نفسه وولده فأجابه . قال يحيى فأقمت من النطع وقد أيقنت بالموت وعلمت أنه لم يبق من أجلى إلا بقية الليلة فما اكتحلت غمضاً إلى السحر سمعت صوت القفل ففتح عنى فلم أشك أن الهادى استدعانى للقتل لما انصرف إبراهيم كاتبه وانقضت الليلة فاذا بخادم قد أقبل وقال : أجب السيدة . فقلت : مالى وللسيدة ؟ فقال : قم . قال : فقمت فأتيت الخيزران . فقالت لى : إن أمير المؤمنين قد مات ، ونحن نساء فأدخل وأصلح أمره ، وأنفذ إلى هرون فجىء به فدخلت فإذا هو ميت على فراشه وأمة العزيز تبكى على رأسه فغمضته وشددت لحيته ، وحمدت الله على لطيف صنعه وتفريجه ما كنت فيه ، وبادرت إلى هرون فوجدته نائماً فأيقظته فلما رآنى عجب وقال ويحك : ماالخبر ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : قم إلى دار الخلافة . فقال : مات موسى قلت : نعم . فقال الحمد لله هاتوا ثيابى فقبل أن يلبسها جاءنى من عرفنى سرا أنه قد ولد له ابن من مراجل ، ولم يكن عرف الخبر فقلت أقر الله عينك يا أمير المؤمنين بابن مراجل فحمد الله كثيراً وسماه عبد الله المأمون وركب وأنا معه إلى دار الخلافة .

* * *

ووجدت فى بعض الكتب أن الحجاج كان يستعرض قوما من أصحاب ابن الأشعث فقتل منهم جماعة ثم جىء برجل وأمر بضرب عنقه فقال أيها الأمير : إن لى عليك حقا . فقال : إنه سبك عبد الرحمن يوما فرددت عليه قال ومن يعلم هذا ؟ فصاح الرجل : أنشد الله رجلا سمع ذلك إلا شهد به فقام من الأسرى رجل وقال : قد كان ذلك . قال: خلوا عنه . ثم قال للشاهد : ما منعك أن تنكر سبى كما أنكره هو ؟ قال : قديم بغضى لك . فقال خلوا عنهما هذا ليده

وهذا لصدقه * وذكر المدايني في كتابه يرفعه إلى رجل كان من أسراء الحجاج من أصحاب بن الأشعث قال : جعل الحجاج يقتل عامة يومه الأسراء وبقيت منا جماعة قليلة ، وأتى برجل ليضرب عنقه فقال ياحجاج : والله لان كنا أسأنا الفعل فما أحسنت في العقوبة ، ولئن كنا لزمنا الجناية فما كرمت في العفو . فقال : رده ياحرسي كيف قلت ؟ فأعاده . فقال الحجاج صدقت والله أف لهذه الجيف والجثث أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهتنا أطلقوا عنه * وذكر المدايني في كتابه عن معمر بن المسنى قال : أتى الحجاج بقوم ممن كانوا خرجوا عليه أمر بهم فقتلوا ، وأقيمت الصلاة وقد بقي منهم رجل واحد فقال الحجاج لعنبسة : انصرف بهذا معك واغد عليّ غدا . قال عنبسة فخرجت به فلما سرنا في الطريق قال هل فيك خير ؟ قلت : وما ذاك . قال إني والله ما خرجت على المسلمين ، ولم أستحل منا لهم ، وعندي ودائع وأموال فتخلى عني حتى آتي أهلي وأرد على كل ذي حق حقه واجعل الله لك على أني أتصبح عندك في غد فتعجبت منه وتضاحكت ومضينا ساعة فأعاد على القول . فقلت له : اذهب فذهب . فلما توارى عني شخصه سقط في يدي فأتيت أهلي فأخبرتهم فقالوا : لقد اجترأت على الحجاج وبتنا بأطول ليلة فلما طلع الفجر إذا به قد جاءني . فقلت : أرجعت ؟ فقال : سبحان الله جعلت الله عز وجل شاهدي ثم لم ارجع . قال فانطلقت إلى الحجاج فقال : أين أسيرنا ؟ قلت أصلح الله الأمير هو بالباب وقد كانت لي وله قصة . قال : وما هي ؟ فأخبرته الخبر ، وأدختله عليه فقال لي : أتحب أني أهبه لك . قلت : نعم . قال هو لك . فقلت للرجل خذ أي طريق شئت فرفع بصره إلى السماء وقال : الحمد لله وانصرف . وماكلمني بكلمة فقلت في نفسي هذا مجنون فلما كان في غد أتاني فقال ياهذا : جزاك الله خيراً أني ماجهلت قدر ماصنعت ولكن كرهت أن أشرك في حمد الله أحداً * وذكر محمد بن عمر القاضي أبو الحسين في كتابه قال : حبس رجل وقد وجب عليه حد . فلما رفع خبره أمر بضرب عنقه فقال المخبر : فدخلت بعدها الحبس إلى رجل بيني وبينه سبب أتفقد خبره فرأيت الذي أمر بضرب عنقه يلعب بالنرد فقلت للذي دخلت اليه أنا أعلم بضرب عنق

ذلك الإنسان فما أفرغ قلبه يلعب بالنرد وهو محبوس . قال صاحبي : اظرف من هـذا أنه قد أمر بضرب عنقـه ، وقد علم بذلك وهو ذا ترى حاله قال : فازددت تعجبا ففطن الرجل لما نحن فيه فأخذ بيده فصا من فصوص النرد فرفعـه وقال إلى : إن يسقط هـذا من يدى إلى الأرض تكون قـد حدثت أمور . فخرجت وأنا متعجب منه متفكر فى قوله فما أمسينا ذلك ذلك اليوم حتى سمعت الجنـد وفتحت السجون وخرج من كان فيها والرجل فيهم وسلم من القتل .

* * *

الباب التاسع

من شارف الموت بحيوان مهلك رآه فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ونجاه

عن ابراهيم الخواص قال : ركبت البحر مع جماعة من الصوفية فكسر المركب بنا فنجى منا قوم على خشب من خشب المركب فوقعنا إلى مكان لا ندرى أى مكان هو فأقمنا فيه أياما لا نجد ما نقتاته فأحسسنا بالموت فقال بعضنا لبعض تعالوا حتى نجعل الله على أنفسنا أن ندع له شيئا فلعله يرحمنا فيخلصنا من هذه الشدة فقال بعضنا : لا أفطر الدهر . وقال بعضنا : أصلى كل يوم كذا وكذا ركعة . وقال بعضنا : أدع اللذات ، إلى أن قال كل منا شيئا ، وأنا ساكت فقالوا لى : قل شيئا . فلم يجىء على لسانى إلا أن قلت لا آكل لحم فيل أبداً . فقالوا : الهزل فى مثل هذا الحال ؟ فقلت : والله ما تعمدت الهزل ، ولكنى منذ بدأتم وأنا أعرض على نفسى شيئا أدعه لله عز وجل فلا تطاوعنى ولا يخطر على قلبى غير الذى لفظت به وما أجرى هذا على لسانى ، ولا ألهمه قلبى إلا لأمر . فلما كان بعد ساعة قال بعضنا : لم لا نطوف فى هذه الأرض متفرقين فنطلب قوتاً فمن وجد شيئا أنذر به الباقين والموعد هذه الشجرة . قال : فتفرقنا فى الطرق فرجع أحدنا بولد فيل صغير فلوح بعضنا لبعض فاجتمعنا فأخذه أصحابنا واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون وقالوا : تقدم . فقلت : أنتم تعلمون أننى منذ ساعة تركته لله عز وجل ، وما كنت لأرجع فى شىء تركته له ، لعله جرى ذلك على لسانى لأجل موتى من بينكم ، لأنى ما أكلت شيئا منذ أيام ، وما أطمع فى شىء آخر ، وما يرانى الله أنقض عهده ولو مت ، واعتزلتهم وأكل أصحابى وأقبل الليل ، وتفرقنا إلى مواضعنا التى كنا فيها نبيت وأويت إلى أصل شجرة كنت أبيت عندها فلم يكن إلا لحظة فاذا بفيل عظيم قد أقبل وهو يصعر والصحراء تتدكدك بزعيره وشدة شغبه وهو يطلبنا . فقال بعضهم : قد حضر الأجل فاستسلموا وتشهدوا وأخذنا فى الاستغفار والتسبيح وطرح القوم نفوسهم

على وجوههم فجعل الفيل يقصد واحداً واحداً فيشمه من أول جسده إلى آخره فإذا لم يبق فيه موضع إلا شمه شال إحدى قوائمه فوضعها عليه وفسخه فإذا علم أنه قد أتلفه ، قصد آخر ففعل به مثل فعله فى الأول إلى أن لم يبق غيرى وأنا جالس منتصب أشاهد ماجرى وأستغفره وأسبحه . فقصدنى الفيل فحين قرب منى رميت نفسى على ظهرى ، ففعل بى من الشم كما فعل بأصحابى ، ثم أعاد شمى مرتين أو ثلاثا ولم يكن فعل بأحد منهم ذلك وروحى فى خلال ذلك تكاد تخرج فزعا ، ثم لف خرطومه علىّ فشالنى فى الهواء فظننته يريد قتلى بقتلة أخرى فجهرت بالاستغفار فما نحى خرطومه حتى جعلنى فوق ظهره فانتصبت جالساً واجتهدت فى حفظ نفسى بموضعى ، وانطلق الفيل يهرول تارة ويسعى أخرى ، وأنا أحمد الله عز وجل على تأخير الفيل قتلى وأطمع فى الحياة ، وتارة أتوقع أن يثور بى فيقتلنى فأعاود الاستغفار ، وأنا أقاسى فى ذلك وأتجرع من الألم الشديد لسرعة سير الفيل أمراً عظيما . فلم أزل على ذلك إلى أن طلع الفجر واشتد ضوءه فاذا به قد لف خرطومه علىّ فقلت قد حضر الأجل . فاستكثرت من الاستغفار فإذا به قد أنزلنى من ظهره وتركنى على الأرض ورجع إلى الطريق التى جاء منها وأنا لا أصدق فلما غاب عن عينى ولم أسمع له حساً خررت ساجداً لله سبحانه فما رفعت رأسى حتى أحسست بالشمس ، فإذا أنا على ظهر محجة عظيمة فمشيت عليها نحوا من فرسخين فانتهيت إلى بلد كبير فدخلته فعجب أهله منى وسألونى عن فأخبرتهم بالقصة فزعموا أن الفيل سار فى هذه الليلة مسيرة أيام ، واستطرفوا سلامتى وأقمت عندهم حتى صلحت من تلك الشدائد التى قاسيتها وتندى بدنى ثم سرت مع التجار إلى بلد على شاطىء البحر فركبته ورزقنى الله السلامة إلى أن عدت إلى بلدى .

* * *

قال : حدثنى أبو بكر البسطامى صاحب ابن دريد وكان زوج ابنته ، وكان شيخا من أهل الأدب والحديث وقد استوطن الأهواز سنين وكان ملازما

لأبى رحمه الله يتفقده ويبره . قال : كان لامرأة ابن غاب عنها غيبة طويلة منقطعة وآيست منه فجلست يوما تأكل فحين كسرت لقمة وأومت بها إلى فيها وقف بالباب سائل مستطعم فامتنعت من أكل اللقمة وحملتها مع تمام الرغيف فتصدقت بها وبقيت جائعة يومها وليلتها فما مضت إلا أيام يسيرة بعد ذلك حتى عاد ابنها فأخبرها بشدائد عظيمة مرت به . وقال : أعظم شىء جرى لى ، كنت منذ أيام أسلك أجمة عظيمة فى الموضع الفلانى إذ خرج علىّ أسد فقبض علىّ من على ظهر حمار كنت راكبه وعاد الحمار وتشبكت مخالب الأسد فى ثياب كانت علىّ فما وصل إلى بدنى كثير شىء من مخالبه وذهب أكثر ثيابى فأدخلنى الأسد الأجمة وبرك ليفترسنى فرأيت رجلا عظيم الخلقة أبيض الوجه والثياب قد جاء حتى قبض بيده من غير سلاح على قفا الأسد وشاله وخبط به الأرض وقال : قم يا كلب لقمة بلقمة . فقام الأسد هارباً يهرول وثاب إلى عقلى وطلبت الرجل فلم أجده وجلست ساعات إلى أن ثابت إلى قوتى ثم نظرت إلى نفسى فلم أجد بها بأساً فمشيت حتى لحقت بالقافلة التى كنت فيها فتعجبوا لما رأونى فحدثتهم حديثى ولم أدر معنى القول من الرجل لقمة بلقمة فنظرت إلى المرأة فاذا هو وقت أن أخرجت اللقمة من فيها وتصدقت بها ٭ وجدت فى دفتر عتيق عن بعضهم . قال : خرجت إلى الحائر فى أيام الحنبلية أنا وجماعة مختفين فلما صرنا فى أجمة بر قال لى رفيق منهم يافلان : إن نفسى تحدثنى أن السبع يخرج فيفترسنى من بين الجماعة ، فإن كان ذلك فخذ حمارى وما عليه فأده إلى عيالى فى منزلى ، فقلت له هذا استشعار يجب أن تتعوذ بالله منه وتضرب عن الذكر فيه . قال : فما مضى على هذا الأمر إلا يسير حتى خرج الأسد فحين رآه الرجل سقط عن حماره يتشهد وقصده الأسد من بين الجماعة فأخذه ودخل به الأجمة وسقت الحمار وأسرعت من القافلة وبلغت الحائر وزرنا ورجعنا إلى بغداد واسترحت فى بيتى يوماً أو يومين ، ثم أخذت الحمار وجئت به إلى منزله لأسلمه إلى عياله فدققت الباب فخرج إلى الرجل بعينه فعانقنى وبكا وبكيت وقلت حديثك ؟ فقال : إن السبع ساعة أخذنى وجرنى إلى الأجمة وأنا لا أعقل أمرى سمعت

صوت شيء ورأيت السبع قد خلانى ومضى ففتحت عينى فاذا الذى سمعته صوت خنزير ، وإذا السبع لما رآه عن له أن يتركنى ومضى فصاده وبرك عليه يفترسه . وأنا أشاهده إلى أن فرغ منه ثم رجع السبع من الاجمة وغاب عن عينى فسكنت وتأملت حالى فوجدت خاببه قد وصلت إلى فخذى قليلا ، وقوتى قد عادت فقلت : لأى شيء جلوسى فقمت أتسحب فى الأجمة أطلب الطريق فاذا بجيف ناس وبقر وعظام بالية وأثر من افترسهم الاسد فما زلت أتخطاها حتى انتهيت إلى رجل قد أكل الأسد بعض جسده وبقى أكثره وهو طرى وفى وسطه هميان قد تخرق بعضه وظهرت منه دنانير فتقدمت فجمعتها وقطعت الهميان ، وأخذت جميع الدنانير وتتبعتها حتى لم يفتنى منها شيء وقويت فضل قوة فأسرعت فى المشى وطلبت الجادة فوقفت عليها وأقمت أمشى إلى بعض القرى ، واستأجرت حماراً وعدت إلى بغداد ولم أمض إلى الزيارة لأنى خشيت أن تسبقونى وتذكروا خبرى فيصير عند عيالى مأتم فسبقتكم وأنا أعالج فخذى ، وإذا من الله عزوجل بالعافية عدت إلى الزيارة . وحدثنى بهذا الحديث غير واحد من أهل بغداد * حدثنى أبوجعفر أصبغ بن أحمد بن شبيح وكان يحجب أبامحمد المهلبى رحمة الله عليه قبل وزارته . فلما ولى الوزارة كان يصرفه فى الاستحثاث على العمال ، وفى الأعمال التى يتصرف فيها العمال الصغار قال : كنت بشيراز مع أبى الحسن على بن خلف بن طبات وهو يتولى عمالتها يومئذ ، فجاء مستحثامن الوزير يطالبه بحمل الأموال . وكان أحد الغلمان الأكابر قد كوتب باكرامه فأحضره أول يوم طعامه وشرابه فامتنع من مؤاكلته وذكر أن له عذرا . فقال : لابد أن تأكل . فأكل بأطراف أصابعه ولم يخرج يده من كمه وكاد كمه يدخل فى الغضائر وينالها الغمر ، فلما كان فى غد قال على بن خلف : ليدعه كل يوم واحد منكم فكانوا يدعونه ويدعون بعضهم بعضا وتكون صورته فى الأكل واحدة فنقول : لعل به برصاً أو جذاماً إلى أن بلغت النوبة إلى فدعوته ودعوت الحاشية وجلسنا نأكل وهو يأكل معنا على تلك الصورة فسألته إخراج يده والانبساط فى الأكل فامتنع من إخراج يده فقلت له يلحقك تنغيص بالأكل هكذا فأخرجها على أى شيء

كان بها فانا نرضى به . قال : فكشفها فاذا فيها وفى ذراعه ضربات بعضها فيه بقية أدوية يابسة وهى على أقبح مايكون من المنظر وأكل معنا غير محتشم ، وقدم الشراب فشربنا فلما أخذ منا الشراب سألته عن سبب تلك الضربات فقال : هو أمر طريف أخاف أن لا أصدق فيه ولا يجمل بى الحديث به . فقلت : لابد أن تتفضل . قال : كنت عام أول بقريب من هذا الوقت قائماً بحضرة الوزير فسلم إلى كتاباً إلى عامل دمشق ومنشوراً وأمرنى بالتوجه إليه وإزهاقه بالمطالبة بحمل المال ، ورسم أن أخرج على طريق السماوة لأتعجل وكتب إلى عامل هيت بإنفاذى مع خفارة فلما حصلت هيت استدعا العامل جماعة من أحياء العرب وضمنى اليهم وأعطاهم مالا على ذلك وأشهد عليهم بتسلمى واحتاط فى أمرى ، وكانت هناك قافلة تريد الخروج منذ مدة وتتوقى البرية فآنسوا بى وسألونى أن آخذ لنفسى مالا وللأعراب مالا ، وأوصلهم فى الخفارة ويسيرون معى ففعلت ذلك . فصرنا قافلة عظيمة وكان معى من غلمانى من يحمل السلاح وهم يقربون من العشرين غلاما ، وفى جمالى القافلة ، والتجار يحملون السلاح أيضا فرحلنا عن هيت ، ودخلنا فى البرية ثلاثة أيام بلياليها فبينما نحن نسير إذ لاحت لنا خيل فقلنا للأعراب ما هذه الخيل ؟ فتسرع منهم قوم ثم عادوا كالمنهزمين وقالوا : قوم من بنى فلان بيننا وبينهم دم ، ونحن طلبتهم ولاثبات لنا معهم ولا يمكننا خفارتكم منهم وركضوا متفرقين ، وبقينا نحن متحيرين ولم نشك أنهم كانوا بعض أهلهم وإن ذلك فعل على مواطأة فجمعت القافلة ، وطفت بها أنا وغلمانى ومن كان منهم يحمل السلاح متساندين كالدائرة وقلت لمن كان معى : لو كان هؤلاء يأخذون أموالنا ويدعون جمالنا لننجوا عليها كان هذا أسهل ، ولكن الجمال والدواب أول ماتؤخذ وتتلف فى البرية ضعفا وعطشا فاعملوا على أن نقاتل فان هزمناهم سلمنا وإن قتلناهم كان أسهل . فقالوا : نفعل . وقدم القوم فقتلنا لهم عدة خيل ، وجرحنا منهم غير جريح وما ظفروا منا بعود فباتو قريبا منا حنقين علينا ، وتفرق الناس للأكل والصلاة واجتهدت بهم أن يجتمعوا . وبيتوا تحت السلاح فخالفونى ، وكانوا قد آمنوا ونام بعضهم فغشينا الخيل فلم يكن عندنا ممانعة

فوضعوا فينا السيوف ، وكنت أنا المطلوب خاصة لما شاهدوه من تدبير القوم برأيى وعلموه من أنى رئيس القافلة فقطعونى بالسيوف ولحقتنى هذه الجروحات وفى بدنى أضعاف أضعافها . قال : وكشف لنا عن أكثر جسده فاذا به أمر عظيم لم ير مثله فى بشر قط . قال : وكان فى أجلى تأخير فرميت نفسى بين القتلى لايشك فى تلفى . قال : فلما كان بعد ساعة أفقت فوجدت فى نفسى قوة والعطش بى شديد فلم أزل أتحايل حتى قمت أطلب من القافلة قدح ماء لاشرب منها فلم أجد أحدا ، ورأيت من القتلى والمجروحين الذين هم فى آخر رمق وسمعت من أنينهم ماأضعف نفسى وأيقنت بالتلف وقلت : غاية ما أعيش إلى أن تطلع الشمس ، فقلت أطلب شجرة أو محلا لاجعله ظلاً لى من الشمس إذا طلعت فاذا بى قد عثرت بشىء عظيم لاأدرى ماهو من الظلمة ، وإذا أنا منبطح عليه بطولى وطوله فثار من تحتى فحسست عليه وكنت قدرته رجلا من الاعراب فاذا هو أسد فحين علمت ذلك طار عقلى ، وقلت : إن استرخيت افترسنى فعانقت رقبته بيدى ونمت على ظهره وألقيت بطنى بظهره وجعلت رجلاى تحت مخصاه وكانت دمائى تجرى فحين دخلنى ذلك الفزع الشديد رقى دمى وعلق شعر الأسد بأفواه الجروحات فصار سداداً لها وعوناً على أن أمسك نفسى فوقه ، وورد على الأسد منى أظرف مما ورد على منه فأقبل يجرى كما تجرى الفرس على طريق وأنا أحس بروحى وأعضائى تتقصف من شدة جريه ، فلم أشك فى أنه يقصد أجمتــه فيلقينى إلى لبوته فتفترسنى إلا أنى ضبطت نفسى ، وأنا أؤمل الفرج وأدافع الموت ، وكلما هم الأسد أن يربض ضربت مخصاه برجلى . فيطير وأنا أعجب من نفسى ومطيتى وأدعوا الله عز وجل وأرجوه ، ومازلت على ذلك إلى أن ضربنى نسيم السحر فقويت نفسى وأقبل الفجر يضىء ، فتذكرت طلوع الشمس فجزعت ودعوت الله عز وجل فما كان أسرع من أن سمعت صوتاً ضعيفاً لاأدرى ماهو ، ثم قوى فشبهته بناعورة . قال : والاسد يجرى وقوى الصوت فلم أشك فى أنه ناعورة ثم صعد بى الاسد إلى تل فرأيت منه بياض ماء الفرات ، وهو جار وناعورة تدور والاسد يمشى على شاطىء الفرات برفق إلى أن

وجد شريعـــة فنزل منها إلى الماء ، وأقبل يسبح ليعبر فقلت فى نفسى : ما قعودى ؟ لئن لم أتخلص هنا ما تخلصت أبداً فما زلت أرفق حتى خلصت شعره من أفواه جراحاتى وسقطت وسبحت منحدراً وأقبل الأسد يثنى الماء عرضاً فبينما أنا أسبح نظرت جزيرة فقصدتها وحصلت فيها وقد بطلت قوتى وذهب عقلى وطرحت نفسى عليها كالتلف فلم أحس إلا بحرارة الشمس قد نبهتنى فرجعت أطلب شجرة رأيتها فى الجزيرة لاستظل بها فرأيت السبع مقعيا على ذنبه بشاطىء الفرات فقل فزعى منه ، وأقمت مستظلا بالشجرة أشرب من ذلك الماء إلى العصر فاذا أنا بزورق منحدر فصحت به وحلفت لهم أن ما بالجزيرة أحد سواى ، وأومأت لهم إلى الأسد وقلت لهم . قصتى طريفة طويلة وأن تجاوز تمونى كنت أنتم قد قتلتمونى فالله الله فىّ . فرقوا لى ودخلوا إلى يحملونى فلما صرت فى الزورق ذهب عقلى فما أفقت إلا فى اليوم الثانى فاذا على ثياب نظاف ، وقد غسلت جراحاتى وجعل فيها الزيت وأدوية وأنا بصورة الأحياء فسألنى أهل الزورق عن حالى فحدثتهم وبلغنا إلى هيت فأنفذت إلى العامل من عرفه خبرى فبعث لى من يحملنى اليه فتوجع لى وقال : ما أظن أنك أفلت فالحمد لله . فحدثته كيف نجيت فعجب وقال : بين الموضع الذى قطع عليكم وبين الموضع الذى حملك أهل الزورق منه مشاق أربعين فرسخا على غير محجة . فأقمت عنده أياماً ، ثم أعطانى نفقة وثياباً وزورقا فجئت إلى بغداد فكنت أتعالج عشرة أشهر حتى صرت هكذا ثم خرجت وقد افتقرت وأنفقت جميع ما كان فى بيتى فلما أقمت بين يدى الوزير رق لى وأطلق لى مالا وأخرجنى اليكم .

* *

حدثنى على ابن نصيف المعروف بشهدانجـــه ، وسعيد بن عبد الله السمرقندى الفقيه عن شخص حدثهما أنه بات فى سطح خان فى بعض الأسفار ، ومعه رجل وزوجته وقرد له فنام الناس وأخذنى الأرق فلما هدأت العيون رأيت القرد قد قلع المسمار الذى فيه السلسلة ومشى نحو المرأة ولم أعلم ما يريد فقمت فرآنى القرد فرجع إلى مكانه ، ثم فعل ذلك دفعات وأنا أقوم

فلما طال الأمر جاء إلى وفتح خرجا وأخرج منه صرة دراهم ظننت أن فيها أكثر من مائة درهم ورمى بها إلى . فعجبت من ذلك وقلت فى نفسى أمسك لأنظر ما يفعل فجاء إلى المرأة فمكنته من نفسها فواقعها ، فاغتممت بتمكينى إياه من ذلك وحفظت الصرة فلما كان فى الغد صاح صاحب القرد يطلب ماذهب منه وقال لصاحب الخان : إن قردى يعرفنى من أخذ هذه الصرة فتقفل باب الخان واقعد أنا وأنت ويخرج الناس فمن علق به القرد فهو خصمى ففعل ذلك وأقبل الناس يخرجون والقرد ساكن وخرجت فما تعرض لى ، فوقفت خارج الخان أنظر ما يجرى فلما لم يبق أحد خرج رجل يهودى فتعلق به القرد فقال القراد : هو خصمى وجذبه ليحمله إلى صاحب الشرطة فلم أستحل حينئذ السكوت . فقلت : ياقوم ليس اليهودى صاحبكم وإنما أنا صاحبكم والصرة معى ولى قصة ظريفة فى أخذها وأخرجتها ، وقصصت عليهم القصة فحملنا إلى صاحب الشرطة وحضرت الصرة فعرفوا صاحب الشرطة محلى ومنزلى ويسارى وأقبل القراد يحيد عن القرد فما برحت حتى أمر صاحب الشرطة بقتل القرد وطلبت المرأة فهربت وسلم اليهودى .

* * *

حدثنى الحسن بن صافى مولى محمد بن المتوكل القاضى . قال : حدثنى غلام كان أبق منى . قال : إنى كنت أسير ماشيا فى وسط بغداد فلما صرت بين دير العاقول والسيب وأنا وحدى فى يوم صائف له ريح شديد رأيت بالبعد منى غيطة عظيمة قد خرج منها سبع ، فحين رآنى وحدى أقبل يهرول إلىّ فذهب على أمرى وأيقنت بالهلاك وتخدر بدنى كله وألهمت أن آخذ منديلى وأحمله فى رأس قصبة كانت معى ظنا أنى أقرعه بذلك وبينما أنا فى تلك الحال من الاياس وبقى بينى وبينه نحو المائتى ذراعا إذ قلع الريح أصل حشيش يقال له بارق عينه ، وصار يلتف بالشوك حتى بقى كالكارة العظيمة والريح تدحرجه نحو السبع وبالقضاء تمكنت منه وصار حفيف شديد فحين رآنى السبع وسمع الصوت رجع منصرفا وقد فزع فزعا شديداً وبقى يحول وجهه فى كل عشر خطوات فإذا رآنى وذلك الأصـــل فى أثره يتدحرج يزيد

فى الجرى إلى أن بعد عنى بعـــداً تاسعا ، دخل الغيظة وعادت إلى نفسى ومضيت فى طريقى .

* * *

حدثنى القاضى أبو بكر أحمد بن سيار . قال : حدثنى شيخ من أهل التير ومكران رأيته بعمان ووجدتهم يذكرون ثقته ومعرفته بالبحر وأنه دخل الهند والصين . قال : كنت ببعض البلدان بالهند وقد خرج على ملكها خارج فأنفذ اليـه الجيوش فطلب منه الأمان فأمنه فسار ليدخل إلى بلد الملك ، فلمـا قرب أخرج الملك جيشاً لتلقيه وكذا الآلات وخرجت العامة تنظر دخوله فخرجت معهم فلما قعدنا فى الصحراء ووقف الناس ينتظرون طلوع الرجل فطلع وهو راجل فى عدة رجال من أصحابه وعليه ثوب حرير ومئزر وفى وسطه جرى على زى القوم والجرى مدية معوجة الرأس من سلاح الهند فتلقوه باكرام ، ومشوا معه حتى انتهوا إلى فيلة عظيمة قد أخرجت للزينة وعليها الفيالون ومنها فيل يخص الملك نفسه ويركبه فى بعض الأوقات ، فلما قرب منه . قال له الفيال : تنح عن طريق الفيل . فسكت عنه فأعاد عليه الفيال القول : فسكت . فقال : ياهـذا احذر على نفسـك وتنح عن طريق فيل الملك . فقال له الخارجى : قل لفيل الملك يتنحى عن طريقى . فغضب الفيال وأغرى الفيـل به بكلام كلمه به فغضب الفيـل وعمـد إلى الخارجى فلف خرطومه عليه فقبض الخارجى بيده على الخرطوم وشاله الفيل إشالة عظيمة والناس يرون ، وأنا فيهم وخبط به الأرض فإذا هو قد انتصب قائمـاً على قدميه فوق الأرض ولم ينح يده عن الخرطوم فزاد غضب الفيل وأشاله أعظم من تلك وعـدا ثم رمى به الأرض ، فإذا هو قد حصل عليها مستوياً على قدميه منتصباً قابضا على الخرطوم فسقط الفيل ميتاً ، لأن قبضه الخرطوم تلك المدة كانت على النفس فقتله . قال : فوكل به وحمل إلى الملك وحدث بالصورة فأمر بقتله . قال : فاجتمعت العامة إلى هـذا الناظر وهى تسماه الغواجر ينعلى ذلك بالهند ظاهرا عند الحر تقرباً إليه بذلك عندهم قال وهن العدول يشهدن فى الحقوق ويقمن الشهادة فيقطع بها حاكمهم فى سائر الأمور

ويعترض فى الآراء لأن عندهم أهون بذلن أنفسهم عند البر بغير أجر وقد صرن فى حكم العباد الزهاد) فقال القحاب للملك نحب أن نستبقى مثل هذا فإن فيه جمالا للملك ، ويقال إن للملك خادما قتل فيلا بقوته وحيلته من غير سلاح فعفى عنه . عن أبى بكر محمد بن سهل الشاهد الواسطى القاضى . قال : أخبرنى وكيلان ثقتان كانا فى ضعتين بنواحى الحامدة ونهر جعفر : قالا : خرجنا مع صناع عندنا إلى أجمة نقطع قصباً فرأينا شبلا كالسنور فقتله أحد قطاعى القصب فقالوا قطعنا الشبل ، والساعة يجىء السبع واللبوة فاذا لم يرياه طلبانا ونحن نبيت فى الصحراء بين القصب فيفترسانا . قال : فما كان بأسرع من أن سمعنا صوت السبع ، فطرنا على وجوهنا واجتمعنا إلى دار خراب خارج الأكمة وعلونا على سطحها وكان فيها غرفة عليها باب كنا نأوى إليها ليلا فلما رأى السبع ولده قتيلا قصدنا فصار معنا فى صحن الدار الخراب وكان بين يدى الغرفة صحنين فأخذ السبع يظفر ليصير معنا فما قدر على ذلك فولى وعلا فكه فى الصحراء وصاح فجاءته اللبوة فظفرت مثله فما وصلت فخرجا وصاحا فأتاهما عدة سباع أخرى من السباع فظفروا فما قدروا على الوصول فلم يزالوا كذلك حتى اجتمع بضع عشرة سبعاً وكلما جاء واحد منهم ظفر إلينا فلم يبلغنا ونحن كالموتى خوفاً من أن يصل إلينا واحد منهم فبينما نحن كذلك إذا اجتمعت السباع كلها كالحلقة وجعلت أفواهها فى الارض وصاحت صيحة واحدة فرأينا حفرة قد احتفرت فى التراب من أنفاسهما فما كان إلا ساعة حتى جاء سبع أسود هزيل متجرد الشعر طويل فتلقته السباع كلها وبصبصت بين يديه وحوله فجاء يقدمها وهى خلفه حتى رآنا فى الغرفة وكنا قد أغلقنا الباب واجتمعنا كالحلقة لندفعه عن الدخول فلم يزل يدفع الباب بمؤخره حتى كسر بعض ألواحه وأدخل جحره إلينا فعمد أحدنا إلى ذنبه وقطعه بمنجل كان معنا فصاح صيحة عظيمة منكره وهرب فرمى بنفسه إلى الأرض ولم يزل يدوس سباع سباع الباقين من بين يديه وهام فى الصحراء وتبعه الباقون ونزلنا نحن لما لم يبق منها شىء ولحقنا

القرية وأخبرناهم خبرنا فقال لنا شيخ منهم هـذا السبع مثل الجرذ العتيق إذ قطع ذنبه يأكل الفار .

* * *

حدثنا قاضى القضاة أبو السايب عتبة بن عبيد الله بن موسى الهمدانى قال : كان رجل من أهـل أذربيجان له على رجـل دين فهرب منه وطالت غيبته فلق الدائن المدين بعد مدة فى الصحراء منفرداً ، فقبض عليه وطالبه فحلف بالله أنه معسر وسأله الانتظار وقال لوانى أيسر الناس لما تمكنت هنا من دفع شىء إليك فأبى عليه وأخرج قيداً كان معه ليقيده حتى لا يهرب فتضرع إليه وسأله أن لا يفعل وبكى فلم ينفعه ذلك فيقده بالقيد ومشى إلى القرية بقرب الموضع الذى التقينا فيه فجاآها مساء وقد أغلق أهلها سـورها واجتهدا فى فتحها لهما فأبى أهل القرية ذلك عليهما فباتا فى مسجد خراب على باب القرية وأدخل صاحب الدين رجله فى حلقة من حلقة القيد حتى لا يهرب فجاء السبع وهما نائمان فقبض على صاحب الدين فافترسه وجره فانجر المدين معه بسبب الحلقة التى فى إحدى رجليه فلم يزل ذلك حاله إلى أن فرغ السبع من أكل صاحب الدين وشبع وانصرف وترك المدين وقد تجرح بدنه وبقيت ركبة صاحب الدين فى القيد فحملها الرجل مع قيده إلى أهل القرية وأخبرهم الخبر فحلوا قيده وسار لحال سبيله

* * *

حدثنى أبوجعفر بن مسعود بن عبدالله الضبى أن شيخاً من التنا البصريين كان قد انتقل عنها إلى قرية له وضيعة بقرب نهر الدين فاستوطنها . قال : كان فى هذا البستان ـ وأشار إلى بستان بجانب داره كثيرة الأشجار ـ أفعى تسمى الجراب لأنها كانت بقـدر الجراب الكبير طولا وسعة وانتفاخا فكثرت خياناتها حتى أخربت على هـــذه الضيعة فانتقلت عنهـا إلى الجانب الآخر من النهر وبطلت ضيعتى وصار هذا البستان كالأجمة لا يجسر أحد على دخوله فطلبت حواء من البصرة ليصيده وبذلت له على ذلك بذلا فجاء الحواء فتبخر

بدخنة معه : فظهرت الأفعى فحين رآها هاله أمرها وقصدته الأفعى فنهشته فتلف فى الحال فصار لى حديث بذلك وشاع الخبر فامتنع الحواؤن من المجىء وتغربت عن الضيعة وبطلت معيشتى فيها وذات يوم كنت جالساً فى النهر الآخر إذ جاءنى رجل فسلم علىّ وقال بلغنى خبر أفعى عندك قد قتل فلان الحواء وأخرب عليك ضيعتك فجئت لاتدلى عليك حتى آخذه فقلت ما أحب تعرضك لهذا وقد صار لى بتلف ذاك الحواء ذكره فقال : إن ذلك الحواء كان أخى وأنا أريد أخذ ثأره أو اللحوق به قلت تشهد على نفسك أهل الأنهار المجاورة إن هذا باختيارك لا بمسألة لى فى ذلك . قال نعم : ففعل وأريته البستان قال أريد شيئاً آكل فجئناه بطعام فأكل ثم أخرج دهناً كان معه فطلى به جميع بدنه . وقال لغلام كان معه : أنظر هل بقى موضع من غير ما أطليه . فقال له الصبى لا : فجلست أنا فوق السطح الذى كان فى دارى أنظر فأخرج الحواء دهنه فتبخر بها فما كان بأسرع من أن ظهر الأفعى كأنه دن فحين قرب من الحواء هرب منه وتبعه الحواء فلحقه وقبض عليه فالتفت الأفعى وعضت يده فتركه الحواء وذهب عليه أمره فجئناه وحملناه فمات فى الليل وانقلبت الناحية بحديث الأفعى ومضى على هذا مدة . فجاءنى رجل يشبه الرجل وسألنى عما سألنى عنه الأخوان فأخبرته بالخبر . فقال : الرجلان أخواى ولابد لى أن آخذ بثأرهما أو أكون اللاحق بهما فأشهدت عليه وأريته الموضع وصعدت إلى السطح فشرب هذا أقداحا كثيرة وأخرج دهنا كان معه وطلى به دفعات وكل مرة يسأل غلامه فيقول هل بقى موضع لم يبلغه الطلاء فيقول له الغلام أعد الطلاء فيعيده حتى طلا نفسه ثلاث دفعات وصار الدهن يسقط عن بدنه وبخر فخرج الأفعى فطلبه الحواء فأخذ الأفعى يحاربه ومكن الحاوى يده من قفاه فالتفت عليه فعض إبهامه فبادر الحواء فخرم فاه وجعله فى سله ، وأخرج سكيناً وقطع ابهام نفسه ، وغلا زيتاً وكواها به وخر كالتالف

فحملناه إلى القرية فاذا بصبي من غلماني أتاني بليمونة . وكان إذ ذاك قليلا بالبصرة جدا وعندى شجرة واحدة . فحين رأى الليمون قال ياسيدى : هذا موجود عندكم ؟ قلت : نعم . قال : أغثني بكل ما تقدر عليه فاما نعرفه فى بلدنا أنه يقوم مقام الترياق . فقلت : وأين بلدك ؟ قال : عمان . فأتيته بكل ما كان عندى فأقبل يقصمه ويسرع فى أكله ، وعمد إلى بعضه فاستخرج منه ماء ، وأقبل يتحسى منه ويطلى به الموضع فأصبح فى غد معافى سالماً فسألته عن خبره قال : ماخلصنى بعد الله عزوجل إلا ماء الليمون ، وأظن أن أخواى لو اتفق لهما ذلك ماتلفا فقلت له : ذلك الدهن الذى طليت به نفسك ماهو ؟ قال : الطلق الذى لو طرح على الجسم لايكون فيه خلل ، وما ضرت النار الجسم ، وإنما تلف أخواى لأن بعض أبدانهما خلا من الطلا وجف بعض الدهن فقلت : وكيف تمكن منك الحية ؟ قال : لطول الوقت جف بعض الدهن فتمكن منى ولولا الليمون لتلفت فتعلمت منه استخراج ماء الليمون ، وكنت أول من استخرجه بالبصرة ، ونبه الناس على منافعه وجربته فى الطبيخ فوجدته طيبا وتداولته الناس قال : ثم أخرج الأفعى فقطع رأسه وذنبه وغلاه فى طنجير واستخرج دهنه وجعله فى قوارير وانصرف .

* * *

حدثنى عبد الوهاب بن محمد مهدى المعروف بأحمد بن أبى سلمة الشاهد الفقيه المتكلم العسكرى فى سنة خمسة وخمسين وثلاثمائة بعسكر مكرم : أنه شاهد رجلا مفلوجا حمل من اصفهان إلى عسكر مكرم ليعالج . قال : فطرح على باب خان فى الجانب الشرقى منها قد هجر وفرغ منه أكثر العقارات لكثرة العقارب والجرارات فيه وفى خانين بجواره ، وطلب له موضع ليسكنه فلم يوجد إلا فى هذا الخان . فأنزله غلمانه وهم لايعلمون حالته ، وأنه أخلى لكثرة الجرارات فيه ، وصعد أصحاب الرجل إلى السطح وتركوه فى أسفله لماوصف لهم أن المفلوج لايبيت على السطح . قال : فلما كان فى الغد دخلوا عليه فوجدوه جالساً وكان طريحاً لا يمكنه أن يتقلب من جنب إلى جنب ، ووجدوا له لساناً فصيحاً ، وكان متكسراً بالعلة حتى أن الرجل مشى من يومه ذلك

فأحضر بعض الأطباء وسأل عن حاله ؟ ففتشه فوجد أثر لسع الجرارة في إبهام رجله اليسرى فقـــال له : انتقل الساعة من هذا الخان فإنه مشهور بكثرة الجرارات ، وقد لسعتك واحدة منهن فأبرأتك ، وعشت بشيء ما عاش به أحد قط ، وقامت حرارتها ببرد الفالج فأزالته ولم تتجاوزه فتقتلك ، وسيعقب ذلك حدة وحرارة فاصبر لها حتى أعالجك باليسير من الرطوبة فلا ترجع اليك رطوبة الفالج ، وانتقل لئلا تلسعك أخرى فتتلف فانتقل الرجل ، وتعاهده الطبيب لحم المفلوج من غد . فلطف به في علاجه حتى برأ .

* * *

حدثني عبيد الله بن محمد بن الصروي قال : كنت أتصرف مع المختار بن الغيث بن حمران أحد قواد بني عقيل فسار وأنا في جملته مع دكين الشيرازي لما تغلب على الموضع يطلب ناصر الدولة ، وصار العسكر منتشراً سائراً بعجلة ، وكان تحتي حجرة فصرت في أخريات الناس ثم انقطعت عن العسكر حتى صرت وحدي ثم وردت الدابة ماء كان في الطريق وحمر ولم يمكنه أن يسير خطوة واحدة فخفت أن يدركني من يأسرني فنزلت عنها أمشي وفي عنقي سيف بحمائل ، والمقرعة في يدي فسرت فراسخ حتى صعدت جبل سنجار ، وكنت أحتاج أن أمشي فيه نحو الفرسخ ثم أنزل إلى سنجار فاحتبسني الليل واستنفد المشي جلدي فخفت الوحوش في الجبل فطلبت موضعاً أسكن فيه ليلتي فلم أجد ، ورأيت جبابا منقورة في الجبل فطلبت أقربها قعرا ورميت فيه بحجر فظننت أن قعره قامة أو نحوها فرميت بنفسي فيه ، وكان البرد شديداً . فنمت ليلتي لا أعقل من التعب والجوع فلما كان من الغد انتبهت وعندي أن الجب محفور كالآبار ، وإني أضع رجلاي في جوانبه وأتسلق وأطلع فتأملت فإذا هو محفور كالتنور رأسه ضيق وأسفله شديد السعة . وجوانبه منقوشة فقمت في وسط الجب فإذا هو أعلى من قامتي فتحيرت في أمري ولم أدر كيف السبيل إلى الصعود ، وطلعت الشمس وأضاء الجب ، وإذا شيء أفعى مدور كالطبق بين حجرين ، وقد سدر من شدة البرد فليس ينتشر ولم

يتحرك من مكانه ، وهممت أن أجرد السيف وأقطعه به ثم قلت أتعجل شرا لا أدرى عاقبته ، ولا منفعة لى فى قتله لأنى سأتلف فى هذه البئر وهى قبرى فما معنى قتل الأفعى أدعه فلعله أن يبتدىء بالنهش فأتعجل التلف ، ولا أرى نفسى تخرج بالجوع والعطش فأقمت يومى كله على ذلك ، والأفعى لم تتحرك ، وأنا أبكى وأنوح على نفسى ، وقد يئست من الحياة فلما كان من الغد أصبحت وقد ضعفت . فحملنى حب الحياة على الفكر فى الخلاص فقمت وجمعت من الحجارة الرقيقة شيئاً كثيراً ، ووضعتها فى وسط الجب وعلوتها لتنال يدى طرف البئر فاحمل نفسى إلى رأسها فحين وضعت رجلى على الحجارة انهالت لرقتها وملاستها فلم أعد عملها ، وأمضيت يومى كله وأنا مشتغل البال ، وجاء الليل فلم يمكنى أن أقوم من الجوع والضعف ثم حملنى النوم . فلما كان من الغد فكرت فى حيلة أخرى ، ووقع لى أن شددت المقرعة التى معى بعلاقتها فى حمائل السيف ودليت المقرعة إلى داخل البئر ، وقد أمسكت بإحدى يدى فحصل جفن السيف فوق الجب معترضاً لرأسه ، وهى مدلاة إلى ثم سللت السيف ولم أزل أقلع من أرض البئر ما يمكن نحته ، وقلعه من تراب قليل ثم غيبت ذلك الرضراض وتعلقت على السيف المعترض وظفرت ، وصار السيف معترضا فى جفنه تحت صدرى وظهرت يداى فى البئر فحصل جوانبها تحت إبطى واستللت نفسى فاذا أنا قد خرجت منها بعد أن اعوج السيف ، وكاد يندق ويدخل فى بطنى لثقلى عليه فوقعت خارج البئر مغشيا على من هول ما نالنى ووجدت أسنانى قد اصطكت وقوتى قد بطلت عن المشى . فما زلت أحبو وأطلب المحجة حتى وقعت عليها ، ورآنى قوم مجتازون فأخذوا بيدى ، وقوى قلبى فمشيت حتى دخلت سنجار آخر النهار ، وقد بلغت روحى إلى حد التلف . فدخلت مسجدا فطرحت نفسى فيه ، وأنا لا أشك فى الموت وحضرت صلاة المغرب واجتمع أهل المسجد فيه وسألونى عن خبرى فلم يكن فى مقدرة على الكلام فحملونى إلى بيت أحدهم ، ولم يزالوا يصبون على حلقى الماء ثم المرق والثريد إلى أن فتحت عينى بعد العتمة فتكلمت وبت ليلتى بحال عظيم من الألم فلما كان من الغد دخلت الحمام ، وأقمت عندهم أياما حتى برأت وأخرجت

نفقة كانت فى وسطى فاستأجرت منها مركوبا ولحقت بصاحبى وسلم الله عزوجل . عن ديسم بن إبراهيم بن شاذلويه المتغلب كان بأذربيجان لما ورد حضرة سيف الدولة يستنجده على المرزبان بن محمد بن مسافر السلاد لما هربه عنها قال : إن بناحية اذربيجان واديا يقال له الرأس شديد جرية الماء جدا ، وفى أرضه حجارة كثيرة بعضها ظاهر من الماء ، وبعضها مغطى بالماء ، وليس للسفن فيه مسلك ، وله أجراف هائلة ، وبه قنطرة يجتاز عليها المارة . قال : كنت مجتازاً عليها فى عسكرى فلما صرت فى وسط القنطرة رأيت امرأة تمشى وتحمل ولدا طفلا فى القماط فزاحمها بغل محمل فطرحت على القنطرة فزعا فسقط الطفل من يدها إلى النهر فوصل إلى الماء بعد ساعة لبعد ما بين القنطرة وصفحة الماء ثم غاص وارتفعت الضجة فى العسكر ثم رأينا الصبى قد طفا على وجه الماء ، وقد سلم من تلك الحجارة ، وكان الموضع كثير العقبان ولها أوكار فى أجواف هذا النهر ، ومنها يصطاد أفراخها . قال : فحين ظهر الطفل فى قماطه صادف ذلك عقابا طائرا فرآه فظنه طعمة ، وانقض عليه وشبك مخالبه فى القماط ، وطار به وخرج إلى الصحراء فطمعت فى تخليص الطفل فأمرت جماعة أن يركضوا وراء العقاب ففعلوا وتبعتهم بنفسى لمشاهدة الحال فاذا العقاب قد نزل إلى الأرض وابتدأ يمزق قماط الصبى ليفترسه فحين رأوه صاحوا بأجمعهم وقصدوه ومنعوه عن الصبى فطار وتركه على الأرض فلحقنا الصبى فاذا هو سالم ما وصل اليه جرح وهو يبكى فقلبناه حتى خرج الماء من جوفه وحملناه سالما إلى أمه .

* * *

حدثنا أبو محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب المعروف بالحاتمى قال : رأيت بمصر رجلا يعرف بابن التمساح . فسألت جماعة من أهل مصر عن ذلك فقالوا : هذا وطىء التمساح أمه فولدته . فكذبت ذلك وبحثت عن الخبر . فأخبرنى جماعة من عقلاء أهل مصر أن التمساح بها يأخذ الناس فى الماء من الشطوط القريبة فيفترسهم وربما أخذهم إلى جباله ، وهى جبال حجارة فيها مغارات إلى النيل لا يصل إليها الماشى ولا سالك الماء لبعدها عن الجهتين فيتسلق

التمساح إلى بعض المغارات فيودع بها الإنسان الذى أخذه حيا أو ميتاً بحسب الاتفاق ويتركه ويذهب فإذا جاع ولم يظفر بشىء عاد إليه فيفترسه فمرة واحد منهم قبض على امرأة وجعلها فى المغار فذكرت المرأة أنها حين استقرت فى المغار وانصرف التمساح رأت رجلا حيا وأثر جماعة قد افترسهم التمساح وأنها قد سألت الرجل عن أمره فذكر أن التمساح تركه هنا منذ يومين قالت وأخذ الرجل يؤنسنى إلى أن طالبنى بنفسى . فقلت ياهذا : اتق الله . فقال : التمساح قد مضى ومن ساعة إلى ساعة فرج ولعله أن يجتاز بنا سفينة قبل عودته فنطرح أنفسنا اليها وننجو فوعظته ، ولم يلتفت إلى كلامى واغتصبنى فواقعنى ولم يزل عنى حتى جاء التمساح واخذه من فوقى ومضى فبقيت كالميتة فزعا فإنى لكذلك إذ سمعت وقع حوافر الخيل وصليل لجم وصوت أقوام كثيرين فأخرجت رأسى من الغار وصحت واستغثت فأطلع بعضهم وقالوا ما أنت . قلت حديثى طويل ارمولى حبلا فشددت نفسى وجزونى فصرت معهم على ظهر المغار بعد أن توهمت وانسلخ بعض جلدى فسألونى عن خبرى فأخبرتهم حديث التمساح فأركبونى شيئا حتى دخلت البلد فلما كان فى وقت حيضى تأخر عنى ثم ظهر الحمل فولدت ابنى هذا بعد تسعة أشهر وكرهت أن أخبر الناس بالحديث فنسبته إلى التمساح .

* * *

حدثنى أبو القاسم بن الأعلم العلوى الفيلسوف . قال : خرجت من بغداد أريد الكوفة فلما صرت بينها وبين حمام عمرو قرية من الكوفة أفضيت إلى أجمة هناك . وكنت قد تقدمت الرفقة وكنت راكباً حماراً وورائى بمسافة قريبة غلام مملوك لى راكباً بغلة فلما وصلنا الأجمة رأيت مشاة دقيقة فى وسط الأجمة وعليها المسلك ويوصل إليها بهبوط فرمت النزول إليها فوقف الحمار من تحتى فضربته ضرباً شديداً فلم يبرح فالتفت إلى كفله أتأمل ما يقوائمه فوجدت أسداً واقفاً بينه وبين كفل الحمار نحو ذراع وأقل وإذا بالحمار عندما شم رائحته أصابته رعدة عظيمة فرسخت قوائمه فى الأرض ولم يتحرك ولم أشك فى التلف وأن الاسد سيمد يده فيجذبنى من على الحمار فغمضت عينى لئلا أرى كيفية وجودى

فى مخالبه وفمه وأقبلت أتشهد وأقرأ ومع هـذا أجد عقلى ثابتاً ومتصوراً لهيئة الأسد ولم يفدنى التغميض شيئاً فاستدرت اليـه وفتحت عينى فى عينه وأقبلت أتشهد خنياً والأسد فاتح فاه، وأنا أتأمل أسنانه ويصل إلى أنفى من فمه روائح منتنة وإنى لـكذلك إذ لحقنى الصبى المملوك على البغلة ومعه رجل ركب دابة وو راءهما قوم مشاة فحين رآنى والأسد على تلك الصورة جزع جزعا شديداً وصاح بأعلى صوته يامعشر المسلمين ادركونا فقد افترس الاسد مولاى فحين سمع الاسد الصياح من ورائه التفت فرأى الصبى فتناوله من على سرجه وغار البغل وصار الصبى فى فم الاسـد كالفأرة فى فم السنور وأنا كالميت إلا أنى أرى كل شىء وأقبل الاسد يحمل على راكب الدابة والمشاة والصبى فى فمه فهربوا منه ودخل الاجمة فقلت فى نفسى قد فدانى الله عزوجل بمملوكى فرميت نفسى من على الحمار وسرت أعـدو حتى تلقانى قوم قد جاؤا من الـكوفة ورأوا فزعى فسألونى عن أمرى فأخـبرتهم فتقدموا يطلبون الاسد ووردت إلىّ روحى فزدت فى الجرى إلى أن خرجت من الأجمة ولحقتنى الرفقة الذين كنت معهم وقد أحضروا البغلة التى كانت تحت مملوكى وساقوا فركبت ودخلت الـكوفة قال وكان هـذا يوم الثلاث غرة المحرم سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فصمت يومى واعتقدت أن أصومه أبداً فأنا كل يوم ثلاثاء صائم إلى الآن. وجاءنى أبو عمر بن يحيى وهنأنى بالسلامة وبقدومى وقد كان خبرى شاع وقال فى جملة كلامه كيف خفت الاسد؟ أوما علمت أن لحومنا بنى فاطمة محرمة على السباع؟! فقلت له مثل سيدنا أطال الله بقاه لا يقول مثل هذا وما الذى كان يؤمننى أن يكون هذا الخبر باطلا فأتلف. وكيف كانت نفسى مع طبع البشرية تطيق هـذا فى مثل ذلك الوقت مع احتمال هــذا الحديث قال ولم لا تطيق وكيف يجوز أن يكون هـذا الخبر باطـلا مع ما روينا من خبر زينب الـكذابة مع على بن موسى الرضا رضى الله عنه. قال: فقلت له بلى قد رويت ذلك ولـكن لم يحضرنى فـكرى من هذا شىء فى تلك الحال.

قال مؤلف الـكتاب فقلت أما لأبى القاسم الأعلم: وما خبر زينب الـكذابة

فإني ماسمعته . قال : هذا خبر مشهور عندالشيعة . يروى بإسناد لهم لا أحفظه أن امرأة يقال لها زينب ادعت أنها علوية فجيء بها إلى على بن موسى الرضا رضى الله عنهم فدفع نسبتها فخاطبته بكلام دفعت به نسبه ونسبته إلى مثل مانسبها له من الادعاء ، وكان ذلك بحضرة الخليفة . فقال الرضا : أخرج أنا وهذه إلى بركة السباع فإنى رويت عن آبائى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان لحوم ولد فاطمة رضى الله عنها محرمة على اكل السباع فمن أكلته السباع فهو دعى . فقالت المرأة : لاأرضى بهذا ودفعت الخبر فأجبرها السلطان على ذلك . فقالت : فلينزل هو قبلى ، فنزل الرضا رضى الله عنه بركة السباع بحضر من خلق عظيم فلما رأته السباع أقعت على أذنابها فدنا منها ولم يزل يمسح رأس كل واحد منها ويمر بيده إلى ذنبه والسبع يبصبص له حتى أتى على آخرها ثم ولى ، وكرهت المرأة النزول وأبته ، فأجبرت على ذلك فحين نزلت وثب عليها بعض السباع فافترسها ومزقها فعرفت بزينب الكذابة .

* * *

وروى عن جماعة من شيوخ البحرين الذين ترددوا إلى بلد الهند أنهم سمعوا هناك حكاية مستفيضة أن رجلا كان معاشه صيد الفيلة . قال : استخفيت مرة فى شجرة عالية كثيرة الورق فى غيضة كانت تجتاز بها الفيلة من شرائع الماء التى تردها إلى مرتعها فاجتازبى قطيع منها وكانت عادتى أن أدع القطعان تجوز إلى أن يبلغ آخر فيل فأرميه بسهم مسموم فى بعض مقاتله فتفزع الفيلة وتمضى فإذا مات المجروح نزلت فاقتلعت أنيابه وسلخت جلده وأخذت ذلك وبعته فى البلاد فلما اجتاز بى هذا القطيع رميت آخر فيل كان فيه فخر فاضطربت الفيلة وأسرعت إليه فإذا أعظمها قد عاد فوقف عليه وتأمل السهم والجرح ورجعت معه الفيلة ووقفت بوقوفه فما زال قائما والفيل المجروح يضطرب إلى أن مات فضج ذلك الفيل ضجيجا عظيما وضجت الفيلة ثم انتشرت فى الغيضة فتتشوها شجرة شجرة فأيقنت بالهلاك . وانتهى الفيل الأعظم إلى

الشجرة التى أنا فيها واتكأ عليها فاذا هى قد انكسرت على عظمها وضخامتها وسقطت الشجرة إلى الأرض فلم أشك أن الفيل سيدوسنى فاذا به قد جاء حتى وقف يتأملنى ، وأحجمت الفيلة عنى فلما رآنى الفيل الأعظم ، ونظر إلى قوسى وسهامى لف خرطومه فلواه علىّ وأنزلنى إلى الأرض وأخذ يومىء بخرطومه إلى ثعبان كان هناك برفق وتملق فسددت سهما إلى الثعبان ورميته فأصبته ، وتابعت رميه فانصرف مثخنا فتقدم الفيل إليه فداسه ثم عاد فأخذنى بخرطومه وحطنى على ظهره ، وجعل يهرول والفيلة خلفه فجاء إلى غيطة لم أكن أعرفها أعظم من تلك التى أخذنى منها فاذا هى فراسخ وفيها فيلة ميتة لا يحصيها إلا الله عزوجل وأكثرها قد بلى جسده وبقيت عظامه فمازال يتتبع الأنياب ويجمعها ، ويومىء إلى فيل فيجىء إليه فيعبى عليه ما يمكنه أن يعبيه عليه من ذلك إلى أن لم يدع هناك نابا إلا جمعه ، وأوقر تلك الفيلة ثم أركبنى على ظهره وأخذ بى على طريق العمارة ، واتبعته الفيلة فلما شارف القرى أومى إلى الفيلة فطرحت أحمالها حتى لم يبق منها شىء ثم أنزلنى بخرطومه برفق وتركنى عند الانياب ، وقد صارت تلا عظيما هائلا فجلست عندها متعجبا من سلامتى ، ورجع الفيل يريد الصحراء ، ورجعت الفيلة برجوعه ، وأنا لا أصدق بسلامتى ، ولا بما شاهدت من عظم فطنة الفيل وذكائه . فلما غابت الفيلة عن عينى مشيت إلى أقرب القرى منى واستأجرت خلقا كثيراً حتى خرجوا معى وحملوا تلك الأنياب فى أيام وما زلت أبيعها فى تلك المدة حتى حصل لى مال عظيم كان سبب يسارى وغنائى عن صيد الفيلة .

* * *

عن مروان بن شعيب العدوى ، عن عدى بن ربيعة قال : كنت فى حداثتى شديد القوة ، وكانت عندى زوجة لى من عبد القيس ببلدة منارة وهى قريبة من تل أهواز على أربع فراسخ ، وعندى قوم من أهل المراة ، ونحن نشرب فتفاخرنا حتى انتهينا إلى تجريد السيوف فحجز بيننا مشايخ القرية وبدر لسانى أن حلفت بالطلاق أن لا أبيت بمنارة فخرجت منها أريد منزلى بتل

أهواز ومعى سيفى وحجنتى ، وكان ذلك ليلا فسرت فى الطريق وحدى ، وبلغت إلى أجمة لابد من سلوكها . فلما سرت فيها قليلا سمعت ضجة من ورائى قبيحة فجردت سيفى ورجعت أطلب الصوت فوجدت أسدا قد افترس رجلا وهو الذى صاح ، وهو فى فم الأسد عرضا بثيابه فصحت فى الأسد فرمى الرجل ورجع إلى فقاتلته ساعة ثم وثب على وثبة شديدة فلطيت الأرض ثم جمعت نفسى فى حجنتى ، فلشدة وثبته جازنى فصار ورائى فأسرعت الوثوب وبعجته بالسيف فى فمه ، وكان سيفا ماضيا فدخل فى فيه وخرج من لحيته فخر صريعا يضرب فتداركته بضربات كثيرة حتى تلف ، وعدت إلى الرجل فوجدته يتنفس ولا يعقل فحملته إلى الجادة ، وكانت ليلة مقمرة ، وتأملته فإذا هو تاجر من تل أهواز أعرفه فلم تطب نفسى بتركه أصلا فحملته عند الجادة ، وعدت فأخذت رأس السبع وحملته والرجل وحصلتهما فى صبيغة كانت على ، والصبيغة إزار أحمر يتشح به العرب فى تلك الناحية ، وكان الأسد فى خلال قتالى قد ضرب فخذى بكفه فأحسست به فى الحال كغرز الابرة لما كنت فيه من الهول فلما حصلت أمشى حاملا لرأس الأسد والرجل أحسست بالألم ، ورأيت الدم يجرى وقوتى قد ضعفت فصبرت نفسى حتى بلغت تل اهواز وقد أصبحت فنكر أهل القرية الجراح ، وسألونى عن خبرى فألقيت الصبيغة التى بها الرجل والرأس فاستهولوا الحال لما حدثتهم بها وفتشوا الرجل فوجدوا فى بدنه خدوش كثيرة فأخذوه ورمت أن أمشى يسيرا إلى منزلى فلم أقدر حتى حملت ، وكنت أعالج من تلك الجراح مدة ، وعولج الرجل فبرأ قبلى ، وهو حى إلى الآن يسمينى مـــولاى ومعتق . قال : وجراحاتى لصعوبتها تنتقض على فى أغلب الأوقات . قال صاحب الحكاية : وأرانى الجرح ، وكان عظيم الفتح . فلم أكن أعلم سببا لشكرنا وعربدتنا إلا نجاة ذلك الرجل من السبع .

* * *

قال رجل يعرف بعبد العزيز بن الحسن الأزدى ، من تجار القصب بالبصرة قال : كنت يوما جالسا فى القصباء ، وقد أخرج من النهر قصب رطب فعمل

كالقباب على العادة فيما يراد تجفيفـه من القصب ، وكان يوما صائفاً ، وكدنى الحر . فدخلت احدى تلك القباب القصب ، وهى تـكون باردة جدا وعادة التجار أن يسنـكوا بها فنمت فى القبة فلبردها استثقلت فى النوم . فانتبهت بعد العصر ، وقد انصرف الناس من القصباء ، وهى موضع بالبصرة فى أعلاها صحراء وبساتين فاستوحشت للوحدة ، وعملت على القيـام فإذا بأفعى غليظ الساعد طويل متدور على باب القبة كالطبق ، ولم أجد سبيلا إلى الخروج ، ويئست من نفسى وتحيرت وجزعت جزعاً شديداً . فأخذت فى التشهد والتسبيح والفزع إلى الله تعالى ، وإنى لـكذلك إذ جاء ابن عرس من بعيد فلما رأى الأفعى تأمله ثم رجع من حيث جاء ، وأتى ثانياً ومعه ابن عرس آخر فوقف أحدهما يتأمله على يمين القبة ، والآخر على اليسار ، وصار أحدهما عند رأس الحية والآخر عند ذنبه ، والحية غافلة عنهما ثم وثبا عليه فى آن واحد وعضاه فاضطرب ولم يفلت منهما وجرّاه حتى بعـدا عن عينى فخرجت من القبة سالمـاً .

* * *

عن الحسن بن على الأنصارى المقرىء بالرملة ، وكان فارساً فاتـكا شجاعا جلدا قال : خرجت فى قافلة من الرملة صاحبها ابن الحداد وأنا على مهر لى ، وعلى سلاحى ، فبلغنا فى ليلة ظلماء إلى واد عميق جدا عمقه نحو فرسخ ، وفى بطنه ماء يجرى وعليه شجر كثير ، وهو مشهور بالسباع والطريق على جنبه فى مضيق فازدحمت القافلة فسقط جمل عليه بز فرأيت صاحبه يلطم ويبكى ، وكان موسراً فدعاه ابن الحداد ، وقال له : أنت رجل موسر فما هذا الجزع ؟ فقال له : على الجمل أكثر من عشرة آلاف دينار . فنادى فى القافلة من ينزل ويخلص الجمل ويرده إلى صاحبه وله مايشاء ؟ فلم يجسر أحد على ذلك فلما كرر النداء أجبته وقلت : عجل لى الدنانير . فقال : لا ولـكن أكتب لك بها الساعة كتاباً ، وأشهد من فى القافلة فإذا صار الجمل وحمله مع مافيه من المال عندى فالمال لك فـكتبنا كتاباً بذلك وأشهـدنا القافلة ، وأعطيتهم دابتى ورحلى وأخذت سيفاً وحجفة وشمعه ، ودنوت للنزول فرأيت منزلا غرنى فاستعجلت

بسلوكه فنزلت ساعة حتى صرت على جانب الوادى فإذا هو واد مشجر فيه أثر الرعاة والغنم ثم لم أجد طريقا إلى أسفل ، وكان سبيلى أن أرجع وأرتاد المنزل من جهة أخرى فحملنى ضيق الوقت والحرص على الدنانير ان جعلت أتوغل وأتنقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حجر إلى حجر حتى حصلت فى جنب الوادى على صخرة ملساء كالرف ، وليس لها إلى أسفل طريق البتة فاطلعت بالشمعة فإذا بينى وبين القرار نحو عشرين ذراعاً ، وفى أسفل الوادى بردى كثيف يجرى بينه الماء ، وله خرير شديد فأجمعت رأيى على أن ألقى نفسى ، وأطفأت الشمعة وشددتها مع حمائل السيف مع الحجفة وألقيت ذلك فى موضع علمته عن يمينى ثم جمعت نفسى فوثبت فى وسط البردى فوقعت على شىء ثار من تحتى ونفضنى بعـــد أن صاح صيحة ملأ بها الوادى ، وإذا هو أسد فشق الوادى ، وسعى هاربا فوقف بأذائى من جانب الوادى الآخر فطلبت سيفى وحجفتى حتى أخذتهما ، ووقفت أنتظر أن يمشى فأطلب الجمل فأقبل يريدنى فمشيت بين يديه فى ذلك البردى ، وهو فى أثرى يخوض الماء ويشق البردى ، وأنا أخاتله من موضع إلى موضع فطلع القمر فأبصرت بناء خفياً فقصدته فإذا هو بيت رحى يديرها الماء فدخلت فيه ثم فكرت فقلت هذا مأوى السبع والساعة يجيئنى فخرجت منه وجئت إلى شجرة كبيرة فقطعتها بالسيف من نصف ساقها وجررتها ، ودخلت بيت الرحى فامتلأ الباب بها وجلست فى الداخل ، وساق الشجرة فى يدى فما كان إلا مقدار الجلوس حتى أحسست بالأسد يزحم الشجرة ، وهو يروم الدخول فاستندت إلى الحائط وأمسكت ساق الشجرة أدافعه بها حتى ملنى ومللته ثم ربض بالباب إلى أن اسفر الصبح فلما كادت الشمس تطلع مضى لحال سبيله فأقمت إلى أن انبسطت الشمس حتى أمنته ، ثم خرجت فما زلت أطلب أثر الجمل حتى انتهيت اليه فإذا هو قد تقطع من أثر السقطة والعدلان مطرحان ، وكانوا أمرونى بفتقهما واستخراج المال منهما ، وحمله إن لم أقدر على تخليص الجمل وحمل العدلين ففعلت ذلك وحملت المال على ظهرى وطلبت المصعد ، وقد علت الضحى فصعدت فيه . فلما صرت برأس الوادى إذا ببادية مجتازين

فقصدونى فمانعتهم عن نفسى بالسيف فلم أطلقهم فضربونى بالسيوف . فقلت لشيخ رأيته كالرئيس لهم ، إلى الزمام على مامعى حتى أصدقك وأنفعك نفعاً كثيراً . فقال : أصدقنى حتى أعطيك الزمام فحدثته بالحديث فأخذوا المال وساروا بى معهم حتى وقفوا على العدلين فاحتملوها وضرب الشيخ يده فى المال فحثى منه ثلاث حثوات وأعطاها لى فأخذتها ، وقلت إن هذا لاينفعنى إن لم تبلغونى مأمنى فأناخ جملا وحملنى عليه وسار بى سيراً حثيثاً حتى أتى بى القافلة على بعد ثم أنزلنى ، وقال الحق رفقتك ، فما عليك من أحد بأس . فمشيت حتى لحقت القافلة ، وقد خبأت تلك الدنانير فى سراويلى فعرفتهم بما جرى وبما أخذته البادية وكتمتهم ما أعطونيه ودخلنا طبرية ، فشكوا إلى أميرها أبى عثمان مولى بنى عقيل . فاسرى إلى الأعراب فارتجع منهم أكثر المال والثياب ورده إلى صاحبه وكنت أنا لما دخلت طبرية فارقتهم ودخلت مصر ولحقونى وبلغنى مارد عليهم . فقلت لصاحب المال : قد بذلت مهجتى وأفلت من الأسد ومن الموت مراراً ومن الأعراب حتى وصل اليك بعض مالك فلا أقل من أن توصلنى إلى بعض ماكنت قد وعدتنى به فأعطانى مائتى دينار ، فأضفتها إلى ما أعطانيه الأعراب فاذا الجميع ستمائة دينار مع السلامة من تلك الشدائد .

* * *

وجدت أيضاً أن رجلا وفد على هشام فقال يا أمير المؤمنين : لقد رأيت فى طريقى عجبا . فقال وماهو : قال . بينما أسير بين جبلى طى إذ نظرت فإذا عن يمينى أسد كالبغل وعن يسارى ثعبان كالجبل وهما مقبلان نحوى ففزعت منهما ورفعت رأسى إلى السماء وقلت شعراً :

يا دافع المكروه قدتراهما فنجنى يارب من أذاهما
ومن أذى من كادنى سواهما لا تجعلنى شلوى من قراهما

قال : فقربا منى فشمانى حتى لم أشك فى الموت ثم صدرا عنى فنجوت ولله الحمد .

* * *

بلغني عن قاضي القضاة أبي السائب ولم أسمع ذلك منه . قال : وافيت من همدان إلى العراق وأنا فقير وزرت قبر الحسين رضي الله عنه فلما انصرفت أريد قصر بن هبيرة قيل ان الأرض مسبعة وأشير على أن ألحق قرية فيها حصن سميت لى فآوى اليها قبل المساء وكنت ماشيا فأسرعت وأتعبت نفسى إلى أن لحقت القرية فوجدت باب الحصن مغلقا فدفعته فلم يفتح لى وتوسلت للقائمين بحراسته بمن قصدت زيارته . فقالوا قد أتانا منذ أيام من ذكر مثل ماتذكر فأدخلناه وآويناه فكان عينا علينا للصوص وفتح الباب ليلا وسلبونا ولكن الحق بذلك المسجد وكن فيه لئلا تمسى فيأتيك السبع فصرت إلى المسجد فدخلت بيتا كان فيه وجلست فلم يكن بأسرع من أن جاء رجل على حمار منصرفا من الحائر فدخل المسجد وشد حماره فى حلق كان فى باب البيت ودخل إلى ومعه كرز فيه خرج فأخرج منه سراجا فأصلحه وقدح فأوقدها وأخرج خبزه وأخرجت خبزى واجتمعنا على الأكل فما نشعر إلا والسبع قد حصل فى المسجد فلما رآه الحمار دخل إلى البيت الذى كنا فيه فدخل السبع وراءه فخرج الحمار وجذب باب البيت بالرسن فأغلقه علينا وعلى السبع وصرنا محبوسين فيه وقدرنا أن السبع لا يفترسنا بسبب السراج وأنه إذا انطفىء أخذنا وأكلنا وماطال الأمر أن فنى ما كان فى السراج من الدهن وطفىء وصرنا فى الظلمة والسبع معنا فما كان عندنا من حاله شيء إلا إذا تنفس فإنا كنا نسمع نفسه وراث الحمار من فزعه فملأ المسجد روثا ومضى الليل ونحن على حالنا وقد كدنا نتلف فزعا ثم سمعنا صوت الآذان من داخل الحصن وجاء المؤذن فدخل المسجد فلما رأى مافعل الحمار لعن وشتم وحل رسن الحمار من الغلق فر يطير فى الصحراء وفتح المؤذن باب البيت لينظر من فيه فوثب السبع اليه فدقه وحمله إلى الأجمة ونجونا نحن وانصرفنا سالمين .

* * *

بلغني عن أبي عيسى محمد بن محمد بن على بن مقلة . قال : كنت عند أبي الحسن على بن عمر بن يحيي العلوى بالكوفة إذ دخل عليه غلام له . فقال :

يامولاى أخذ الأسد فلاناً وكيلنا . فانزعج وقال : فى أى محل . فقال : فى موضع كذا وأدخله الأجمة الفلانية . فقال العلوى : لا إله إلا الله فى هذا الموضع بعينه أخذ الأسد أباه وأدخله إلى هذه الأجمة بعينها منذ كذا وكذا سنة ، فاغتم فأخذنا نسليه فعاد إلى شأنه فى المحادثة وأناقاعد أحدثه إذ دخل عليه غلمانه مبادرين . وقالوا : قد نجى الوكيل من الأسد وحضر فما تم كلامه إلا ودخل الوكيل فبش له العلوى وسأله عن خبره . فقال نعم : أخذنى السبع كما شاهد من حدثكم وكنت راكباً فحملنى بفمه كما تحمل السنور بعض أولادها إلا أنه ماكلنى فأدخلنى الأجمة وقد زال عقلى فما أعرف من أمرى شيئا إلا أنى أفقت فلم أره ووجدت أعضائى سالمة ووجدت حولى من الجماجم والعظام أمراً عظيما ولم تزل قوتى تعود إلى أن قمت فعثرت بشىء فاذا هو هميان فأخذته وشددته على وسطي ومشيت إلى أن بعدت عن الموضع فوصلت إلى شبية بوهدة فجلست فيها وغطيت نفسى بما أمكننى من القصب بقية ليلتى فلما طلعت الشمس أحسست بكلام المجتازين وحوافر بغالهم فخرجت وعرفتهم قصتى وركبت بغل أحدهم فلما بعدت عن الأجمة وأمنت على نفسى فتحت الهميان فإذا فيه رقعة فتأملتها فإذا هى بخط أبى بأصل ما كان فى الهميان من الدنانير وما أنفقه فاذا هو هميـــان أبى الذى كان فى وسطه عند ما افترسه الأسد فحسبت الخرج ووزنت الدنانير فإذا هى بإزاء مابقى من الأصل مانقصت شيئا . قال : وأخرج الهميان وفتحه وأخرج الرقعة فقال العلوى نعم هذا خط أبيك فعجبت الجماعة من ذلك .

بلغنى عن رجل من أهل الأنبار . قال : خرجت إلى ضيعة لى فى ظاهر الأنبار راكباً دابة كانت معى ، ومعى عبدأسود مملوك فى نهاية الشجاعة فلما صرنا فى بعض الطريق بالقرب من الضيعة إذ نشأت سحابة فأمطرت وكان المطر قد أدركنا فملنا إلى قباب كانت كالأسرة تبنيها على الطريق وعلى السابلة فلجأنا اليها وقوى المطر جداً حتى سمعنا منا الحركة فأشار على الغلام بالمبيت فقلت له تخاف ويلك اللصوص . فقال لى أتخاف وأنا معك . فقلت فالسبع قال نصير الدابة داخل القبة وأنت تليها وأنا عند الباب وأشد وسطى بالحبل

الذى معنا وأشد طرفه برجلك حتى لا يأخذنى النوم فإن جاء الأسد أخذنى دونك. وما ال يحسن لى ذلك الرأى حتى أطعته وملنا إلى أحد القباب ودخلناها وفعل ما قال لا والله ما مضى قطعة من الليل حتى وافى السبع فأخذ الأسود ودقه واحتمله وجر رجلى المشدودة معه فى الحبل ولم يزل يجرنى على الشوك والحجارة والدكادك إلى أن صار إلى أجمته وأنا ألا أعقل شيئا من أمرى ولاأحس بأكثر مما يجرى ولا تمييزلى يؤدينى إلى الاجتهاد فى حل الحبل من رجلى ثم رمى بالأسود وربض عليه وما زال يأكل منه حتى شبع وترك مافضل منه وليس فى من حس الحياة غير النظر فقط ثم مضى فنام بالقرب من مكاننا وبقيت زماناً على تلك الحال ثم سكن روعى وثاب إلى فهمى ورجعت إلى نفسى فحللت رجلى من الحبل المشئوم وقمت لأدب فعثرت بشىء لا أدرى ماهو فأخذته بيدى فإذا هو هميان ثقيل فشددته فى وسطى وخرجت من الأجمة وقد قارب الصبح أن يسفر ومشيت إلى القبة التى فيها دابتى فإذا هى واقفة بحالها فأخرجتها وركبتها وانصرفت إلى منزلى فوجدت فى الهميان جملة دنانير فحمدت الله عزوجل على السلامة وبقى الرعب فى قلبى والتألم فى جسدى.

* * *

الباب العاشر

من اشتد بلاؤه بمرض ناله ✲ فعافاه الله سبحانه بأيسر سبب وأقاله

روى بإسناد آخره عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، قال : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً قد كان يبطلني ، قال : فقال لي يا عثمان : ضع يدك عليه وقل « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر هذا الوجع ، ومن شر ما أجد » سبع مرات . قال : فقلتها فشفاني الله ، وعن ابن جعدبة قال : مرض أبو عزة الجمحي الشاعر فكانت قريش لا تؤاكله ولا تجالسه . فقال : الموت خير من هذه الحياة فأخذ حديدة ودخل بعض شعاب مكة فطعن بها في المعدة والمعدة موضع عقبي الراكب من الدابة . قال ابن الجعدبة : فمرت الحديدة بين الجلد والصفاف فسال منه ماء أصفر فقال :

لاهم رب نائل ونهـــد　　والمهمات والجبال الجرد

من بعد ما طعنت في معد

قال مؤلف الكتاب : كذا في كتاب الطوسي ، والصواب عندي :

لاهم ورب من يرعى بياض نجد　　أصبحت عبداً لك وابن عبد

أبرأتني من وضح بجلدي　　من بعد ما طعنت بها في معد

✲ ✲ ✲

حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن البهلول التنوخي قال : كان ينزل باب الشام من الجانب الغربي من بغداد رجل مشهور بالزهد والعبادة يقال له لبيب العابد لا يعرف إلا بهذا ، وكان الناس يلتابونه ، وكان صديقاً لأبي فحدثني لبيب قال : كنت مملوكا روميا لبعض الجند فرباني وعلمني السلاح حتى صرت رجلا ، ومات مولاي وتزوجت بامرأته ، وقد علم الله أني ما أردت بذلك إلا صيانتها . وأقمت معها مدة ثم اتفق لي أني رأيت حية داخلة إلى حجرها فأمسكت ذنبها لأقتلها فانثنت عليّ فنهشت يدي فشلت ، ومضى على ذلك زمان طويل فشلت يدي الأخرى بغير سبب أعرفه

ثم جفت رجلاى ثم عميت ثم خرست . فكنت على هذه الحال ملقى سنة كاملة لم يبق لى جارحة صحيحة إلا سمعى أسمع به ما أكره ، وأنا طريح على ظهرى ، ولا أقدر على كلام ، ولا إيماء ، ولا حركة أسقى وأنا ريان وأطعم وأنا شبعان ، وأترك وأنا جائع . فلما كان بعد سنة دخلت امرأة إلى زوجتى وقالت : كيف أبو على ؟ فقالت لها زوجتى : لاهو حى فيرجى ، ولا ميت فيسلى . فأقلقنى ذلك وآلم قلبى ألماً شديداً ، وضججت إلى الله عز وجل فى سرى بالدعاء ، وكنت فى جميع تلك العلل لا أجد ألماً فى نفسى فلما كان بقية ذلك اليوم ضرب على جسدى ضربا شديداً كاد يتلفنى ، ولم أزل على ذلك الحال إلى أن دخل الليل وانتصف ، وخف الألم قليلا فنمت فما أحسست إلا وقد انتبهت وقت السحر وإحدى يداى على صدرى فتعجبت من ذلك فى نفسى وقلت : كيف صارت يدى على صدرى ، ومن رفعها اليه ؟ ! وكانت طول هذه المدة مطروحة على فراشى لاترفع ؟ إلا أن شالها أحد لى ثم وقع فى قلبى تحريكها فتحركت ففرحت فرحا شديدا وقوى طمعى فى فضل الله عز وجل بالعافية فحركت الأخرى فتحركت فقبضت إحدى رجلى فانقبضت فرددتها فرجعت وفعلت مثل ذلك بالأخرى ، ورمت الانقلاب من غير أن يقلبنى أحد كما كان يفعل بى فانقلبت بنفسى فجلست ، ورمت القيام فأمكننى فقمت فنزلت من على السرير الذى كنت مطروحا عليه ، وكان فى بيت من الدار فمشيت أتلمس الحائط من الظلمة لأنه لم يكن هناك سراج إلى أن وقفت على الباب ، وأنا لاأطمع فى بصرى فخرجت من البيت إلى صحن الدار فرأيت السماء والكواكب مزهرة ، وكدت أموت فرحا وانطلق لسانى وقلت يا قديم الإحسان لك الحمد ، ثم صحت بزوجتى فقامت وقالت: أبو على . فقلت لها : الساعة صرت أبو على اسرجى فأسرجت فقلت : جيئينى بمقراض فجاءت به فقصصت شاربا كان لى بزى الجند فقالت زوجتى : ماتصنع الساعة ؟ تعيبك رفقاؤك فقلت : بعد هذا لا أخدم غير ربى ، فانقطعت إلى الله عز وجل ، وخرجت من الدار وطلقت الزوجة ، ولزمت عبادة ربى . وقال أبو الحسن : خبر هذا معروف مشهور ، وكانت هذه الكلمة لاتفارقه ، وهى : يا قديم الإحسان

لك الحمد ، وصارت عادته يقولها فى حشو كلامه ، وكان يقال : إنه مجاب الدعوة فقيل له : إن النـاس يقولون إنك رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فى منامك فمسح يده عليك فبرأت . فقال : ما كان لعافيتى سبب غير ما عرفتك .

* * *

حدثنى محمد بن على الخلال البصرى أحد أبناء القضاة ، قال : حدثنى بعض الأطباء الثقاة أن غلاماً من بغداد كان عليلا فقدم الرى وهو ينفث الدم ، وكان قد لحقه ذلك وهو فى طريقه فاستدعى أبا بكر الرازى الطبيب المشهور بالحذق صاحب الكتب المصنفة فأراه ماينفث ، ووصف له الحال . وأخذ الرازى مجلسه ، ورأى قارورته ، واستوصف حاله منذ ابتدأت العلة به فلم يقم له دليل على سل ولا قرحة ولم يعرف العلة فاستنظر الرجل ليفكر فى الأمر فقامت على العليل القيامة ، وقال : هذا يأس لى من الحياة لحذق الطبيب وجهله بالعلة فازداد مابه وولد الفكر للرازى أن عاد اليه وسأله عن المياه التى شربها فى طريقه فأخبره أنه شرب من مستنقعات وصهاريج فقام فى نفس الرازى بحدة الخاطر وجودة الذهن أن علقة كانت فى الماء وقد حصلت فى معدته ، وأن ذلك النفث للدم من فعلها وقال له : إذا كان فى غد جئتك فعالجتك ، ولم أنصرف حتى تبرأ ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعونى فيما آمرهم به فيك . قال : نعم . وانصرف الرازى وتقدم وجمع له ملأ مركنين من طحلب فأحضرهما فى غد معه ، وأراه إياهما وقال له : ابلع جميع مافى هذين المركنين فبلع الرجل منه شيئاً كثيراً . ثم قال : ليس يمكننى بلع شىء آخر أكثر منه . فقال له ابلع . فقال : لاأستطيع . فقال للغلمان خذوه ففعلوا ذلك به وطرحوه على قفاه ، وفتحوا فاه ، وأقبل الرازى يدس الطحلب فى حلقه ويكبسه كبساً شديداً ، ويطالبه ببلعه شاء أو أبى ويتهدده بالضرب إلى أن أبلعه كارهاً أحد المركنين بأسره ، والرجل يستغيث ولا ينفع مع الرازى شىء إلى أن قال العليل : الساعة اقـذف فزاد الرازى فيما يكبسه فى حلقه فذرعه القىء فقـذف فتأمل الرازى قذفه وإذا فيه علقة ، وإذا هى

لما وصل الطحلب اليها دبت اليه بالطبع وتركت موضعها فلما قذف العليل خرجت مع الطحلب ونهض العليل معافى .

* * *

عن أبى الحسن على بن الحسن الصيدلانى قال : كان عندى بسوق الأربعاء من أولاد آذر غلام حدث لحقه وجع فى معدته شديد بلا سبب يعرفه ، وكانت تضرب عليه فى أكثر الاوقات ضربا ما عظيما حتى كاد يتلف وقل أكله ونحل جسمه فحمل إلى الأهواز فعولج بكل شىء فما نجح فيه دواء فرد إلى بيته وقد يئس منه فاجتاز بنا بعض الأطباء فدعاه والد العليل وعرفه حال ابنه فقال للعليل : اقعد واشرح لنا سبب مرضك منذ حال صحتك إلى أن أصبت فشرحها فطاولها بحديث إلى أن قال العليل : إنى دخلت بستانا لنا فكان فى بيت البقر منه رمان كثير قد جمع للمبيع فأكلت منه رمانا عدة فقال له الطبيب : كيف كنت تأكل ؟ قال : كنت أعض رأس الرمانة بفمى وأكسرها وأرمى بها وأكلها قطعاً قطعاً فقال الطبيب : فى غد أعجل لك العلاج فتبرأ بإذن الله وخرج فلما كان من الغد جاءه بقدر اسفيدباج قد طبخها فى لحم جرو سمين وقال للعليل : كل هذا فقال ماهو ؟ قال : إذا أكلته عرفتك قال فأكل العليل وقال له امتل منه ففعل ثم أطعمه بطيخا كثيراً ثم تركه ساعتين وسقاه فقاعا قد خلط بماء حار وشبث ثم قال له أى شىء أكلت ؟ فقال لا أدرى فأخبره الخبر فحين سمع الغلام ذلك اندفع يقذف فأمر بعيليه ورأسه فأمسكت ، وأقبل يتأمل القذف إلى أن طرح الغلام شيئا أسود كالنواة الكبير يتحرك فأخذه الطبيب وقال له : ارفع رأسك فقد برأت وفرج الله تعالى عنك فرفع الغلام رأسه وانقطع القذف وسقاه الطبيب شيئا يقطع الغثيان وصب على رأسه ماء ورد ومسكن ثم أخذ الذى يشبه النواة فأراه لوالد الغلام فإذا هو قراد وقال له : انى قد ذكيت أن الموضع الذى كان فيه الرمان كان فيه قراداً من البقر وانه دخلت واحدة منهن فى رأس إحدى الرمانات التى اقتلعت رؤسها بفم الغلام فنزل القراد فى حلقه وعلق بمعدته يمتصها وعلمت أن القراد يهش إلى لحم الكلب فأطعمته إياه وقلت : إن صح ظنى سيتعلق القراد بلحم الكلب تعلقا يخرج معه إن

قذف فيبرأ وإن لم يكن ماذكيت صحيحا فما يضره من أكل هذا اللحم فلما أحب الله عزوجل عافيته صح ماذكيته . فنبهه إلى أن لايعاود بعدها إدخال شيء فى فيه لايدرى ماهو وبرأ الغلام وصح جسمه .

حدثنا أبو الحسن غلامنا عن ابن الصيدلانى . قال : كان لى أكار حدث حدث فانتفخ ذكره انتفاخا عظيما فلم يكن ينام الليل ولايهدأ النهار وعولج فلم يكن لبرئه سبيل . قال : فجاء متطبب من الأهواز يريد البصرة فسألته أن أن ينظر إليه . فقال لى : قل له يصدقنى عن خبره فى أيام صحته إلى الآن . قال : فحدثته . قال فأصدقنى ؟ فلست أدرى شيئا يوجب هذه العلة ومالى إلى علاجك سبيل . قال : فقال لى الغلام . أصدق وأنا آمن جهتك فقلت افعل فقال له : أنا غلام حدث أعزب فوطئت حماراً ذكراً كان لى فى الصحراء . قال : فقال له الطبيب . الآن قد علمت أنك صادق والساعة أعالجك فتبرأ . ثم أمر به فأمسك امساكا شديدا والغلام ساكت إلى أن جس منه موضعاً فصاح الغلام ، فأخذ الطبيب خيطا ابريسما فشد الموضع شداً شديدا ولم يزل يعرح ذكر الغلام حتى خرجت منه حبة وقد كبرت وجرحت الموضع فسال منه شيء يسير كماء اللحم فأطاه مرهما وقال استعمل هذا أياما فإنك تبرأ وتب إلى الله تعالى عن مثل هذا الفعل واستعمل الغلام المرهم فبرأ .

* * *

حدثنى أبو عبد الله الحسن بن محمد بن عبد الله الدقاق المعروف بابن العسكرى من بغداد فى المذاكرة . قال : كان أبى إذا جلس يفتش دفاتره وأنا صبى أجيء فآخذ منها الشيء بعد الشيء أستحسنه وألعب به ، وكنت أرى فى دفاتره دفترا فيه خطوط حمر فاستحسنه وأطلبه فيمنعنى منه حتى بلغت مبلغ الرجال . قال : فجلس يوماً يفتش كتبه فرأيت الدفتر فأغفلت أبى وأخذته ففتحته أقرأه ، فإذا هو مولد قد عمله بعض المنجمين ووجدت فيه أنى إن بلغت أربعاً وثلاثين سنه كان منى قطع فيها فالتمت أبى فرأى الدفتر فى يدى فصاح وأخذه منى ونظر أى موضع أقرأ فرآه فأخذ يضعف ذلك فى نفسى لئلا أغتم ومضت السنون ولما بلغت إلى السنة التى ذكرها المنجم

المنجم ركبت مهرا لى وقد خرجت إلى دار الضرب وأبى فيها وكان إليه العيار فبلغت إلى سباط فى درب الديرج فنفر المهر من كلب كان فى الطريق رابضاً فضرب رأسى حائطا كان فى السباط فوقعت عن المهر مغشياً على ثم حملت إلى دار الضرب فأحضروا طبيباً وقد انتفخ موضع من رأسى انتفاخا عظيما فأشار بفصدى فنصدت فلم يخرج لى دم فحملت إلى بيتنا ولم أشك فى أنى ميت لشدة ما لحقنى فاعتللت مدة وضعفت نفسى خوفا مما ذكر من حكم المنجم وكنت يوما جالساً مستنداً على سرير وقد آيست من نفسى إذ حملتنى عيناى فخفق رأسى فضرب درابزين السرير فانشج الموضع المنتفخ وخرج منه أرطال دم فخف مابى فى الحال وصلحت وبرأت وعشت إلى الآن وكان له يوم. وقد حدثنى بهذا الحديث وهو ابن أربع وثمانون سنة وشهور على ما أخبرنى.

* * *

حدثنى أبو الحسن بن على بن أبى محمد الحسين بن محمد الصالحى الكاتب. قال: رأيت بمصر طبيباً كان بها مشهوراً يعرف بالقطيعى. وكان يقول: يكسب فى كل شهر ألف دينار من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر ومن السلطان وما يأخذه من العامة. قال: وكان له دار قد جعلها شبه بيمارستان من جملة داره، يأوى إليها ضعفاء الأعلاء ويعالجهم ويقوم بأغذيتهم وأدويتهم وخدمتهم وينفق أكثر كسبه على ذلك. قال أبو الحسن: وأصيب أحد فتيان الرؤساء بمصر بالسكتة وأسماه لى وذهب عنى اسمه، فحمل إلى الأطباء وفيهم القطيعى فأجمعوا على موته إلا القطيعى، وعمل أهله على غسله وكفنه. فقال القطيعى: دعونى أعالجه فإن برىء وإلا فليس يلحقه أكثر من الموت الذى قد أجمع هؤلاء عليه فخلاه أهله معه فقال: هاتوا غلاما جلداً ومقارع. فأتى بذلك فأمر به وضربه عشر مقارع بأشد الضرب. ثم مس مجسه وضربه عشراً أخرى شديدة ثم مس مجسه وضربه أيضا عشرا أخرى ثم مس مجسه وضربه عشرا أخرى ثم مس مجسه. وقال للأطباء أيكون للميت نبض متحرك. فقالوا لا: فضربه عشر مقارع أخرى

وقال جسوه . فقالوا : قد زاد نبضه ، فضربه عشر أخرى فتأوه فضربه عشراً أخرى فصاح فقطع عنه الضرب فجلس العليل يجس بدنه ويتأوه وقد ثابت قوته اليه . فقال له ماتجد ؟ قال : أنا جائع . فقال : أطعموه الساعة ، فجاؤه بما يأكل فرجعت قوته اليه وقمنا وقد برىء . فقال له الأطباء : من أين لك هذا . قال كنت مسافرا فى قافلة فيها اعراب يخفروننا فسقط منهم فارس عن فرسه فأسكت فعمد اليه شيخ منهم فضربه ضرباً عظيما فما رفع عنه الضرب حتى أفاق ، فعلمت أن الضرب جلب اليه الحرارة وأزالت سكتته فقست عليه أمر هذا العليل .

* * *

حدثنى بعض المتطببين بالبصرة قال : حدثنى أبو منصور بن مارمة كاتب أبى مقاتل صالح بن مدركة الكلابى أمير دجلة . وكان أبو منصور من رؤساء أهل البصرة الذين يضرب المثل بنعمتهم وترفههم . وكان ثقة أديباً قد شاهدته أنا ولم أسمع منه هذه الحكاية . قال : أخبرنى شيوخنا . قال : كان بعض أهلنا قد استسقى فآيس من حياته فحمل إلى بغداد فشور الأطباء فيه فوصفوا له أدوية كبارا فعرفوا أنه قد تناولها بأسرها فلم تنجع وآيسوا منه ، وقالوا لاحيلة فى برئه . قال : فسمع العليل . فقال لمن كان معه : دعونى الآن أتزود من الدنيا وآكل ما أشتهى ولا تقتلونى بالحمية . فقالوا : كل ما تريد فهما رآه مما يجتاز به على الطريق اشتراه وأكله ولم يلتفت إلى ضره ونفعه فمر به رجل يبيع جرادا مطبوخا فأجلسه واشترى منه عشرة أرطال وأكلها بأسرها ، فلما كان بعد ساعة انحل طبعه وتواتر قيامه حتى قام فى ثلاثة أيام أكثر من ثلاثمائة مجلس وضعف وكاد يتلف وآيس منه ، ثم قطع القيام وقد زال كل ما كان فى جوفه وعادت بطنه إلى حالها فى الصحة وثابت اليه قوته وبرأ فخرج برجليه فى اليوم الخامس يتصرف فى حوائجه فرآه أحد الأطباء فعجب من أمره فسأل عن الخبر . فعرفه . فقال : ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا ولابد من أن يكون فى الجراد الذى فعل هذا خاصية فأحب أن تدلنى على

الذى باعك الجراد . قال : فما زالوا فى طلبه حتى اجتاز بالباب دفعة ثانية فأراه الطبيب . فقال : ممن اشتريت هـــذا الجراد ؟ فقال ما اشتريته . أنا أصيده وأجمع منه شيئاً كثيراً وأطبخه على الأيام وأبيعه . فقال : من أين تصيده ؟ فذكر قرية على فراسخ يسيرة من بغداد . فقال له الطبيب : أعطيك ديناراً وتدع شغلك وتجىء معى إلى ذلك الموضع . فقال : نعم فخرجا وعاد الطبيب من غد ، فذكر أنه رأى ذلك الجراد يرعى فى صحراء أكثرها حشيشة يقال لها المـأذريون وهى دواء الاستسقاء فإذا دفع إلى العليـل منها دون درهم أسهله اسهالاً يزيل الاستسقاء ولـكن لا يؤمن من أن لا ينضبط ولا يقف فيقتله الذرب ، والعـلاج بها خطر جـدا وهى مذكورة فى الـكتب ولفرط ضررها لا يكاد يصفها الطبيب فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة وانطبخت فى معدته ثم طبخ الجراد ضعف فعلها بطبيخين اجتمعا عليـه وقضى أن تناولها هـــذا بالاتفاق ، وقد تعدلت بمقدار ما يدفع طبعه دفعا قطع بانقطاع العلة فبرأ .

* * *

حدثنى محمد بن أحمد بن طوطىء الواسطى أبو الحسين . قال : سمعت أبا على عمر بن يحيى العلوى الـكوفى رحمه الله يقول : كنت فى بعض حججى فى طريق مكة فاستسقى رجـل كان معنا من أهل الـكوفة ، وثقل فى علته وسل الأعراب قطارا من القافلة كان على جمل منه هـــذا العليل فافتقد وجزعنا عليه وعلى القطار وكنا راجعين إلى الـكوفة فلما كان بعد مدة جاءنى العليل إلى دارى معافا فسألته عن قصته وسبب عافيته . فقال : إن الأعراب لمـا سلوا القطار ساقوه إلى محلهم ، وكان من المحجة على فراسخ يسيرة فأنزلونى ورأوا صورتى فطرحونى فى أواخر بيوتهم وتقاسموا ما كان فى القطار فـكنت أزحف وأتصدق من البيوت ما آكله فاطعم فتمنيت الموت وكنت أدعو الله عز وجـــل به أو العافية . فرأيتهم وقد عادوا يوماً من ركوبهم فأخرجوا أفاعى قد صادوها فقطعوا رؤسها وأذنابها وسووها وأكلوها ، فقلت : هؤلاء يأكلون هذه فلا تضرهم بالعادة التى نشئوا عليها ولعلى إن

أكلت منها شيئا ان أتلف فأستريح مما أنا فيه . فقلت لبعضهم : اطعمنى من هذه الحيات . فرمى إلى واحدة منها مشوية فيها أرطال فأكلتها بأسرها وأمعنت طالباً للموت فأخذنى نوم عظيم . فانتبهت وقد عرقت عرقاً عظيما واندفعت طبيعتى فقمت فى بقية يومى وليلتى أكثر من مائة مجلس إلى أن سقطت طريحاً وجوفى يجرى . فقلت : هذا طريق الموت وأقبلت أتشهد وأدعو الله عز وجل بالمغفرة . فلما أضاء الصبح تأملت بطنى فإذا هى قد ضمرت وزال عنها ما كان بها . فقلت أى شىء ينفعنى من هذا وأناميت فلما أضحى النهار وانقطع القيام وجبت صلاة الظهر فلم أحس بقيام وجمت فجئت لأزحف على العادة فوجدت بدنى خفيفاً وقوتى صالحة فتحاملت فمشيت فطلبت منهم مأكولا فأطعمونى فقويت فبت فى الليلة الثانية معافا ما أنكر شيئاً من أمرى فأقمت أياما إلى أن وثقت من نفسى بأنى إن مشيت نجوت فأخذت الطريق من بعضهم إلى أن صرت على المحجة ثم سلكتها إلى الكوفة مشيا .

* * *

حدثنى أبو الفضل محمد بن عبيد الله بن المرزبان الشيرازى الكاتب ، قال : حدثنى القاضى أبو بكر الجعابى الحافظ ، قال : دخلت يوما على القاضى أبى الحسين ابن القاضى أبى عمر رحمهما الله وهو مغموم فقلت : لا يغم الله قاضى القضاة ماهذا الحزن الذى أراه به ؟ قال : مات يزيد المائى . فقلت : يبقى الله قاضى القضاة ، ومن يزيد المائى حتى إذا مات اغتم عليه قاضى القضاة هذا الغم كله ؟ فقال ويحك : مثلك يقول هذا فى رجل أوجد لنا صناعة نخيمة . قدمات وما ترك فى حذقه أحد وهل تفخر البلدان الا بكثرة رؤساء الصنائع وحذاق أهل العلوم فيها فإذا مضى رجل لا مثيل له فى صناعته لأبدل الناس فرحهم بالترح ، وهل يدل هذا إلا على نقصان العالم ، وانحطاط البلدان . قال : ثم أقبل يعدد فضائله والأشياء الظريفة التى عالج بها ، والعلل الصعبة التى زالت بتدبيرها فذكر من ذلك أشياء كثيرة كان منها إذ قال : لقد أخبرنى مذ مدة رجل من جلة أهل هذه البلد أن كان حدث بابنة له علة فكتمت أمرها ثم اطلع عليها أبوها فكتمها هو مدة ثم انتهى أمر البنت إلى حد الموت قال : فقلت لا يصح ترك

علاج هذا وكتمانه أكثر من هـذا . قال : وكانت العلة أن فرج الصبيـة كان يضرب عليها ضرباناً عظيماً لا تنام معه الليـل ولا النهار وتصرخ أعظم صراخ ، ويجرى فى خلال ذلك منه دم يسير كماء اللحم وليس هناك جرح يظهر ولا ورم . قال : فلما خفت المأثم أحضرت يزيداً فشاورته . فقال : أتأذن لى فى الكلام وبسط عذرى قلت نعم . قال : لا يمكننى أن أصف لك شيئاً دون أن أشاهد الموضع بعينى وأفتشه بيـدى ، وأسائل المرأة عن أسـباب لعلها كانت الجالبة للعلة . قال : فلعظم الصورة وبلوغها حد التلف أمكنته من ذلك ، فأطال مسائلتها وحديثها بما ليس من جنس العلة فبعد أن جس الموضع من ظاهره وعرف بقعـة الألم حتى كدت أبطش به ثم تصـبرت ورجعت إلى ما أعرفه من ستره فصبرت على مضض ، إلى أن قال : تأمر من يمسكها ، ففعلت . ثم أدخل يده فى الموضع دخولا شديداً فصاحت المرأة فأغمى عليها وانبعث الدم وأخرج فى يده حيواناً أقل من الخنفساء فرمى به فجلست الجارية فى الحال . وقالت : يا أبت اسـترنى فقد عوفيت . فأخـذ يزيد الحيوان بيده وخرج من المحل فأجلسته . وقلت : أخبرنى ماهذا ؟ فقال : إن تلك المسايلة التى لم أشك فى أنك أنكرتها إنمـا كانت لأطلب دليلا أستدل به على سـبب العلة ، إلى أن قالت : أنها فى يوم من الأيام كانت جالسة فى بيت دواب من بستان لكم ثم حدثت العلة بها من غير سبب تعرفه . فلما كان فى غدته الضربان تخيلت أنه قد دب إلى فرجها من القردان التى تكون على البقر وفى بيوته قراد قد تمكن من أول داخل الفرج وكلما امتص الدم من موضع ولد له ضرباناً ، وانه إذا شبع خف الضربان لانقطاع مصه وانقطت من الجرح الذى يمتص منه إلى خارج الفرج هـــذه النقط اليسيرة من الدم . فقلت : أدخـل يدى وأفتش فأدخلتها ، فوجدت القراد فأخرجته وهو هذا الحيوان وقد تغيرت صورته من كثرة ما امتص من الدم مع طول الأيام . قال : فتأملنا الحيوان فإذا هو قراد وبرأت المرأة .

* * *

قال مؤلف هذا الكتاب : ولم يذكر القاضى أبو الحسن فى كتابه هذا الخبر ولعله اعتقد أنه مما لا يجب ادخاله فيه .

* * *

عن ابن عقيـــل ، وكان إذا جاء من البادية ينزل فى شارع دار الرقيق بالقرب من درب سليمان قال : كانت عندى جارية بالبادية بالغة زمنة مقعدة سنين ومن عاداتنا أن نأخذ الحنظل فنقور رأسه ونملاه باللبن الحليب ، ونرد على كل واحدة رأسها ، ونتركها فى الرماد الحار حتى تغلى . فاذا غلت حسى كل واحد منا مافى الحنظلة من ذلك فتسهله وتصلح بدنه . قال : فأخذنا سنة من السنين ثلاث حناظل لثلاث أنفس يشربونها ، وجعلنا فيها اللبن على الصفة المارة فرأتها الجارية الزمنة فلغرضها بالحياة وضجرها من الزمانة غدت إلى الحناظل الثلاث فحستها كلها وعلمنا بذلك بعد المارأينا من قيامها فآيسنا من حياتها فباعدناها فى الأخبية لئلا نشم روائحها فتعدينا ، ولتموت بالبعد عنا فلما كان فى الليل انقطع قيامها ، ومشت برجلها إلى أن عادت إلى البيوت عافية لا قلبة بها وعاشت بعد ذلك سنين وولدت .

* * *

قال جبريل بن بختشوع : كنت مع الرشيد بالرقة ، ومعه المأمون ومحمد وكان رجلا كثير الأكل والشرب . فأكل فى بعض الأيام أشياء خلط فيها ، ودخل المستراح فغشى عليه وقوى عليه الغشى حتى لم يشك غلمانه أنه قد مات وحضر أبناه وشاع عند العامة والخاصة خبره فأرسل إلى فحضرت وجسست عرقه . فوجدت نبضا خفيفاً ، وقد كان قبل ذلك بأيام يشتكى امتلاء وحركة الدم . فقلت لهم : لم يمت والصواب أن يحجم الساعة . فقال كوثر : لما يعرف من أمر الخلافة وافضائها إلى صاحبه محمد : يا ابن الفاعلة تقول احجموا رجلا ميتاً لا يقبل قولك ولا كرامة . فقـال المأمون : الأمر قد وقع وليس يضر بأن نحجمه فأحضر ، وتقدمت إلى جماعة من غلمانه بإمساكه ففعلوا وأقعد . فقلت للحجام : ضع محاجمك ففعل فلما مصها رأيت الموضع قد احمر فطابت نفسى بذلك أنه حى . ثم قلت : اشرط . فشرط فخرج الدم فسجدت شكراً

لله عز وجل ، وكلما خرج الدم يحرك رأسه ويصفر لونه إلى أن تكلم فقال : أين أنا ؟ فطيبت نفسه وغذيناه صدر دارج ، وسقيناه نبيذاً ومازلت أسعطه بالطيب فى أنفه حتى تراجعت اليه قوته ، وأدخل الخاصة والقواد اليه فسلموا عليه من بعد لما كان قد شاع من خبره ثم تكاملت قوته ، ووهب الله له العافية . فلما خرج من علته دعا بصاحب حرسه وصاحب شرطته وحاجبه فسأل صاحب الحرس عن غلته فى كل سنة فعرف أنها ألف ألف درهم ، وسأل صاحب شرطته عن غلته فعرف أنها خمسمائة ألف درهم . ثم قال لى ياجبريل : كم غلتك ؟ فقلت : خمسين ألف درهم . فقال : ماأنصفناك حيث غلات هؤلاء وهم يحرسونى ويحجبونى عن الناس على ماهى عليه وتكون غلتك ماذكرت ، وأمر باقطاعى ماقيمته ألف ألف درهم فقلت : أسيدى مالى حاجة إلى الإقطاع ولكن تهب لى ماأشترى الضياع بها ففعل وتقدم بمعاونتى على ابتياعها فابتعت بهباته وصلاته ضياعاً غلتها ألف ألف درهم لجميع ماأمتلكته ضياعاً لااقطاع فيها .

* * *

حدثنى طلحة بن عبد الله بن قياس الطائى الجوهرى البغدادى أبو جعفر قال : كان فى درب مهروية الجانب الشرقى ببغداد قديما رجل من كبراء الحجزية ، وكان متشببا بغلام من غلمانه رباه صغيرا فاعتل الغلام علة من بلسام وهو الذى تسميه العامة البرسام فبلغ إلى حالة قبيحة ، وزال عقله فتفرقوا عنه يوما وهو فى موضع فيه خيش ، ووكلوا صبيا بمراعاته فسمعوا صياح الفتى الموكل به . فبادروا إليه فقال : انظروا إلى ماقد أصابه . فاذا عقرب قد نزل من المسند على رأس العليل ، فلسعته فى عدة مواضع . فاذا به قد فتح عينيه ، وهو لايشكوا ألما . فسألوه عن حاله فطلب ما يأكل فأطعموه ، وبرأ . فلاموا طبيبه فقال : لام تلوموننى لوأمرتكم أن تلسعوه بعقرب أكنتم تفعلون ؟ .

* * *

عن أبى بكر بن قارب الرازى ، وكان تلميذ لأبى بكر محمد بن زكريا الطبيب بعد رجوعه من عند أمير خراسان لما استدعاه ليعالجه من علة صعبة قال : اجتزت فى طريقى إلى نيسابور ببلد بسطام وهو النصف من طريق نيسابور إلى الرى . قال : فاستقبلنى رئيسها فأنزلنى داره ، وخدمنى وخدمته وسألنى أن أقف على ابن له به استسقاء فأدخلنى إلى دار قد أفردها له فشاهدت العليل ، ولم أطمع فى البرأة ، فعللت القول بمشهد من العليل ولما انفردت بابيه سألنى أن أصدق . فصدقته وآيسته من حياة ابنه ، وقلت له : يمكنه من شهواته فانه لا يعيش ، وخرجت إلى خراسان وعدت بعد اثنى عشر شهراً فاستقبلنى الرجل بعد عودى ولما لقيته استحييت منه غاية الحياء ، ولم أشك فى وفاة ابنه ، وإنى كنت نعيته اليه وخشيت من ثقله بى فلم أجد عنده مايدل على ذلك ، وكرهت أن أسأله عنه لئلا أجدد عليه حزناً قد نسيه . فقال لى بعد أيام : أتعرف هذا الفتى ؟ وأومىء إلى شاب حسن الوجه والسجية ، كثير الدم والقوة قائم مع الغلمان يخدمنا . فقلت : لا . فقال : هذا ابنى الذى آيستنى منه عند مضيك إلى خراسان . فتحيرت وقلت : عرفنى سبب برءه . فقال لى : إنه بعد قيامك من عنده فطن أنه قد آيستنى منه فقال لى لست أشك أن هذا الرجل وهو أوحد فى الطب قد آيسك منى ، والذى أسئلك أن تمنع هؤلاء الغلمان يعنى الغلمان الذين كنت أخدمهم إياه عنى لأنهم آذونى لأنى إذا رأيتهم معافين ، وأنا لست بينهم يتجدد على قلبى الحزن فأرحنى منهم ياأبى وأفرد لى فلانة لخدمتى ففعلت ماسأله ، وكانت المرأة داية له ، وكان يحمل إليها فى كل يوم ما تأكله وله مايطلب على غير حمية . فلما كان بعد أيام حمل إلى الداية مضيرة لتأكل فتركتها ومضت لشغل لها فذكرت بعد أن عادت أن أبى قد نهاها عن أكل المضيرة فوجدتها قد ذهب كثير منها ، وبقى بعضه متغير اللون قالت : فسألت الغلام عن السبب فأخبرنى أنه رأى أفعى عظيما قد خرج من موضع ودب إليها وأكل منها ثم قذف فيها فصار لونها كما ترينه فقلت : أناميت وهوذا يلحقنى ألم شديد ومتى أظفر بمثل هذا ، وجئت فأكلت من الغضارة ما استطعت لأموت عاجلا وأستريح فلما لم أستطع زيادة

أكل رجعت حتى جئت إلى فراشى وجئت أنت . قالت : ورأيت أنا المضيرة على يده وفمه فصحت . فقال : لا تعلمى أحدا حتى تدفنى الغضارة بما فيها لئلا يأكلها إنسان فيموت أوحيوان فيلسع إنساناً فيقتله ففعلت ما قال وخرجت إليك . فلما عرفتنى ذلك ذهب علىّ أمرى ، ودخلت إلى ابنى مسرعاً فوجدته نائماً فقلت : لا توقظوه حتى ننظر ما يكون منه . فانتبه آخر النهار ، وقد عرق عرقا شديداً ، وهو يطلب المستحم فانهضناه اليه فاندفعت طبيعته وقام من الليل ، ومن الغد أكثر من مائة مجلس فازداد يأسنا منه ، وقل القيام وقد صار بطنه مع ظهره مثل بطون الأصحاء وطلب فراريج فأكل ، ولم تزل قوته تزداد فطمعنا فى حياته فمنعناه التخليط وثابت قوته وتزايدت إلى أن صار كما ترى . قال : فعجبت من ذلك وذكرت أن الأوائل قالوا : إن المستسقى إذا أكل من لحم حية عتيقة مزمنة لهـا مئة سنة برأ ولو قلت لك هذا علاجه لظننت أنى أدافعك ، ومن أين يعلم كم عمر الحية إذا وجدت فأمسكت عنه .

* * *

الباب الحادى عشر

من امتحن من لصوص بسرق أو قطع فعوض عن الخلف بأكمل صنع

عن دعبل بن على الخزاعى الشاعر . قال : لما قلت قصيدة (مدارس أيات خلت من تلاوة) قصدت بها أبى الحسن على بن موسى الرضا رضوان الله عليهم أجمعين وهو بخرسان ولى عهد المأمون . فوصلت اليه فأنشدته فاستحسنها . وقال : لاتنشدها لأحد حتى آمرك واتصل خبرى بالمأمون فأحضرنى وسألنى عن خبرى . ثم قال لى : يادعبل أنشدنى (مدارس آيات خلت من تلاوة) فقلت لاأعرفها يا أمير المؤمنين . فقال ياغلام أحضر أباالحسن على بن موسى . قال : فلم يكن بأسرع من أن أحضر . فقال له : يا أبا الحسن سألت دعبلا عن (مدارس آيات) فذكر أنه لايعرفها فالتفت إلىّ أبو الحسن . فقال أنشده يادعبل : فأنشدت القصيدة ولم ينكر ذلك المأمون إلى أن بلغت إلى بيت فيها وهو هذا :

قال رسول الله هب لى رقابهم وآل زياد غلظ الرقاب

ثم تممتها إلى آخرها فاستحسنها وأمر لى بخمسين ألف درهم وأمر لى على بن موسى بقريب منها . فقلت له : ياسيدى أريد أن تهب لى ثوباً يلى بدنك أتبرك به وأجعله كفنا ، فوهب لى قميصاً قد ابتذله ومنشفة وأظنه قال وسراويل . قال ووصلنى ذو الرياستين ، وحملنى على برذون أصفر خرسانى فكنت أسايره فى يوم مطير وعليه ممطر خز وبرنس ومنه فأمر لى به ودعا بغيره جديدا فلبسه . وقال : إنما آثرتك باللبس لأنه خز الممطرين . قال : فأعطيت به ثمانين ديناراً فلم تطب نفسى ببيعه وقضيت حاجتى وكررت راجعاً إلى العراق ، فلما صرت بعض الطريق خرج علينا أكراد يعرفون بالسرنجان فسلبونى وسلبوا القافلة ، وكان ذلك فى يوم مطير . فاعتزلت فى قميص خلق قد بقى علىّ وأنا متأسف من دون ما كان معى على القميص والمنشفة اللذين وهبهما لى على بن موسى الرضا رضى الله عنهما إذ مر بى واحد

من الأكراد تحته الأصفر الذى حملنى عليه ذو الرياستين وعليه الممطر الخز ثم وقف بالقرب منى وابتدأ ينشد (مدارس آيات) ويبكى . فلما رأيت ذلك عجبت من لص يتشيع ، ثم طمعت فى القميص والمنشفة . فقلت ياسيدى لمن هذه القصيدة ؟ فقال : وما أنت وذلك ويلك . فقلت له : فيه سبب أخبرك به . فقال : هى أشهر بصاحبها من أن يجهل . فقلت : ومن هو ؟ قال دعبل ابن على الخزاعى شاعر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ياسيدى أنا والله دعبل وهذه قصيدتى . فقال ويلك ماتقول ؟ . قلت : الأمر أشهر من ذلك فاسأل أهل القافلة بصحة ما أخبرتك به . فقال : لاجرم والله ولا يذهب من القافلة خلالة فما فوقها ثم نادى فى الناس من أخذ شيئاً يرده على صاحبه فردوا على الناس أمتعتهم وعلىّ جميع ما كان معى مافقد أحد عقالا ثم انصرفنا إلى شأننا . فقال راوى هذا الخبر عن دعبل فحدثت بهذا الحديث على بن بهزا الكردى فقال لى ذلك والله أبى الذى فعل هذا .

* * *

حدثنى عبد الله بن عمرو الحارث الواسطى السراج المعروف بأبى أحمد الحارث . قال : كنت مسافرا فى بعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردى فقطع علينا وكان بزى الأمراء لابزى القطاع فقربت منه أنظر اليه وأسمع كلامه فوجدته يدل على فهم وأدب فداخلته فإذا برجل فاضل يروى الشعر ويفهم النحو فطمعت فيه وعملت فى الحال أبياتاً مدحته بها . فقال : لست أعلم أن هذا من شعرك ولكن اعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم أنك قلته ، وأنشدنى بيتاً . قال : فعملت فى الحال إجارة له ثلاثة أبيات . فقال لى أى شىء أخذ منك لأرده عليك . قال فذكرت ما أخذ منى واستضفت اليه قماش رفيقين كانا لى فرد جميع ذلك ، ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيساً فيه ألف درهم فوهبه لى . قال : فجزيته خيراً ورددته عليه . فقال لى : لم لم تأخذه فواربت فى كلامى ، قال أحب أن تصدقنى ، فقلت وأنا آمن قال نعم . قلت : لأنك لا تملكه وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة ظلماً فكيف يحل لى أخذه . فقال لى : أماقرأت ماذكره الجاحظ

فى كتاب اللصوص عن بعضهم . قال : إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء إليها ، فإذا أخذوا أموالهم وإن كره التجار أخذها كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا . فقلت بلى : قد ذكر ذلك الجاحظ ولكن من أين يعلم أن هؤلاء استهلكت الزكاة أموالهم . فقال : لا عليك أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة وأريك بذلك دليلا صحيحاً أن أموالهم لنا حلال ، ثم قال لأصحابه هاتوا التجار فجاؤا ، فقال لأحدهم منذكم تتجر فى هذا المال الذى قطعناه عليك . قال : منذ كذا وكذا سنة . قال : فكيف كنت تخرج زكاته فتلجلج وتكلم بكلام منه لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلا عن أن يخرجها ، ثم دعى بآخر . وقال له : إذا كان معك ثلثمائة درهم وعشرة دنانير وحال عليك الحول فكم تخرج منها للزكاة فما أحسن أن يجيبه . ثم قال للآخر : إن كان معك تجارة ولك دين على نفسين ، أحدهما ملى والآخر معسر ومعك دراهم وكان الحول حال على الجميع كيف تخرج الزكاة . قال : فما فهم السؤال فضلا عن أن يتعاطى الجواب . فصرفهم . ثم قال لى : بان لك صدق حكاية أبى عثمان الجاحظ ، وان هؤلاء التجار ما زكوا قط . خذ الآن الكيس . قال : فأخذته وساق القافلة ليتصرف فيها . فقلت : إن رأيت أيها الأمير أن تنفذ معى من يبلغنى المأمن كان لك الفضل ففعل ذلك ونجوت من أذاه .

* * *

حدثنى أبى رحمة الله عليه . قال : لما كنت مقيما بالكرخ أتقلد القضاء بها وبالمرج وأعمالها كان معى رجل له ابن صبى فأقام معى أبوه عشر سنين ، وكان ذلك الصبى يدخل دارى ويمرح مع غلمانى وأهب له فى بعض الأوقات الدراهم والثياب وأحمله وأرقصه كما يفعل الناس بأولاد غلمانهم ، ثم صرفت عن الكرخ ورحلت ولم أعرف للرجل ولا لابنه خبرا حتى مضت السنون ، فأنفذنى أبو عبد الله اليزيدى من واسط برسالة إلى أبى بكر بن رائق فلقيته

فى حدود دير العاقول . قال : وانحدرت أريد واسطاً وقد كان قيل لى قبل اصعادى أن فى الطريق لصا يعرف بالكرخى وكنت خرجت من واسط بطالع أخذته على موجب تحويل مولدى لتلك السنة وقد استظهرت فيه عند نفسى وكفانى الله تعالى فى اصعادى أمر اللص فلم أر له أثرا فلما انحدرت إلى واسط فى بعض الطريق خرج علينا اللصوص فى سفن عدة ونشاب وسلاح شاك وهم نحو مائة نفس كالعسكر العظيم ، وكان معى من غلمانى من يضرب النشاب فخلفت أن من يرمى منهم ضربته إذا صرت فى البلد مائتى مقرعة وذلك أنى خفت أن يقصدنا اللصوص فلا يرضوا إلا بقتلى من دونهم وبادرت وأخذت ذلك السلاح الذى كان معهم فرميت به فى الماء واستسلمت للأمر طلباً للسلامة وجلست أفكر فى الطالع فإذا ليس مايوجب عنده القطع على والناس قد أدبروا إلى الشط وأنا فى جملتهم حيث تفرغ سفنهم وينقل مافيها إلى الشط وهم يخبطون بالسيوف وكنت فى وسط الكار فانتهى الأمر إلى فعجبت من حصول القطع وأن الطالع لا يوجبه ولست أتهم عملى فأنا كذلك وإذا بسفينة فيها رئيسهم قد طرح على زبزبى كما كان يطرح على سفن التجار ليشرف على مايؤخذ منها فحين رآنى منع أصحابه من انتهاب شىء من زبزبى وصعد وحده إلى فتأملنى طويلا ثم انكب فقبل يدى وكان متلثما فلم أعرفه فارتعت ، وقلت : ياهذا مالك ؟ فقال لى أماتعرفنى ياسيدى ؟ فتأملته وأنا جزع فلم أعرفه ، فقلت : لا والله . قال بلى : وأنا عبدك ابن فلان الكرخى حاجبك ، وأنا الصبى الذى ربيت فى دارك وربيتنى وكنت تحملنى على كتفك وتطعمنى بيدك . قال : فتأملته فإذا الخلقة خلقته ، إلا أن اللحية غيرته فى عينى ، فسكن روعى ، وقلت ياهذا : كيف بلغت إلى هذا الحال . قال : نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح وجئت إلى بغداد اطلب الديوان فما قبلنى أحد فانضفت إلى هؤلاء وطلبت الطريق فلو كان أنصفنى السلطان ونزلنى بحيث أستحق من الشجاعة لانتفع بخدمتى ، وما فعلت هذا . ثم قال ياسيدى هل رأيت أحداً من القوم أخذ منك شيئاً . فقلت : ما ذهب إلا سلاح رميته فى الماء وشرحت له الصورة فضحك وقال : والله أصاب القاضى

فمن فى الكارة ممن تعنى به حتى أطلقه . فقلت : كلهم عندى بمنزلة واحدة فلو أفرجت عن الجميع كان أحسن بك فقال : والله لولا أن أصحابى فرقوا ما أخذوا لفعلت ذلك ولكنهم لا يطيعونى فى رده إلا أنى لا أدع أحداً يأخذ من السفن الباقية شيئا بعد هـذا لجزيته الخير فصعد إلى الشط وأصعد جميع أصحابه ومنع أن يؤخذ شىء من السفن الباقية فما تعرض إليها أحد ورد على قوم ضعفاء أشياء كثيرة كانت أخذت منهم وأطلق الناس وسار معى فى أصحابه إلى أن صار بينى وبين المأمن شىء يسير ثم ودعنى وانصرف إلى أصحابه .

* * *

حدثت عن بعض التجار البغداديين . قال : خرجت بسلع لى ومتاع من بغداد أريد واسطا ، وكان اليزيدى بها . والدنيا مفتتنة ، فقطع على الطريق وعلى الكار الذى كنت فيه لص كان فى الطريق يقال له ابن حمدون يطلع قريباً من بغداد فأفقرنى وكان معظم ما أملكه معى فسهل على الموت وطرحت نفسى له وكنت أسمع ببغداد أن ابن حمدون فيه فتوة وظرف وأنه إذا قطع لم يعرض لأصحاب البضائع القليلة التى تكون دون الألف وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئا قاسمه عليه فترك شطر ماله فى يديه وأنه لا يفتش امرأة ولا يسلبها وحكايات كثيرة مثل ذلك فأطمعنى ذلك فى أن يرق لى فصعدت إلى الموضع الذى هو فيه جالس فخاطبته فى أمرى ورفقته ووعظته وقلت له : إن جميع ما أملكه قد أخذه وإنى أحتاج إلى أن أتصدق من بعده . قال : فقال لى ياهذا : لعن الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا فإنه قد أسقط أرزاقنا فاحتجنا إلى هذا الفعل ولسنا فيما نفعل ارتكاب أمر عظيم مما يرتكبه السلطان أنت تعلم أن ابن شيراز ببغداد يصادر الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر فلا يخرج من حبسه وهو يهتدى إلى شىء غير الصدقة وكذلك يفعل اليزيدى بواسط والبصرة والديلم وبالأهواز وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع والدور والعقار ويتجاوز ذلك إلى الحرم والأولاد فاحسبونا نحن مثل هؤلاء . فقلت أعزك الله ظلم الظلمة لا يكون حجة ، والقبيح

لا يكون سنة فاذا وقفت أنا وأنت بين يدى الله عز وجل أترضى أن يكون هذا جوابك له . قال : فأطرق ملياً ولم أشك فى أنه يقتلنى ثم رفع رأسه وقال : كم أخذ منك فصدقته ، فقال : أحضروه فأحضر . قال : وكان كما ذكرت فأعطانى نصفه . فقلت : الآن قد وجب حق عليك وصار لى باحسانك إلى حرمة . فقال أجل : فقلت إن الطريق فاسد ، وما إلا أن أتجاوزك حتى يؤخذ هذا أيضا فأنفذ معى من يؤديني إلى المأمن . قال : ففعل ذلك وسلمت بما أفلت معى . قال : فجعل الله عز وجل فيه البركة وأخلف .

* * *

حدثنى الحسن بن صافى مولى ابن المتوكل القاضى . وكان أبوه يعرف بغلام ابن مقلة . قال : لما حصل المتقى بالله الرقة ومعه أبو الحسن على بن محمد بن مقلة وزيره ، كاتبنى بأن أخرج اليه فخرجت ومعى جماعة من أنسابى وأنساب الخليفة إلى هيت وضم الينا ابن قتال خفراء يودونا إلى الرقة فرحلت من هيت ومعنا الخفراء والغلمان ومن اتجر معنا من هيت فصرنا نحو المائتى مقاتل ، فلما كان فى اليوم الرابع من مسيرنا ونحن فى البر الأقفر وقد حصلنا نستريح إذا بسواد عظيم من بعيد لاندرى ماهو فلم نزل نرقبه إلى أن بان لنا وإذا هو بمائة مطية رجلان فجمعنا رجالنا وأصحابنا وحملنا وأخذوا حجفهم وسلو سيوفهم وتقدمهم رئيسهم . فقال لنا : يامعشر الناس لا يسلن أحد سيفه ولا يرمين بسهم ، فمن فعل ذلك فهو مقتول ففشل أكثر من كان معنا ، وقاتل الباقون قتالا ضعيفا وخالطنا الأعراب وخرج جماعة منهم وأخذونا وجميع ما كان معنا واقتسموه وطرحونا فى الشمس مجرحين فنظرت فاذا أنا قد عريت وبقى على خلق لا يصد عنى شيئا وليس معى ماء أشربه ولا ظهر أركبه وليس بينى وبين الموت الا ساعات يسيرة فقامت علىّ القيامة واشتد جزعى ولم يكن لى حيلة فـآيست من الحياة فأنا كذلك إذ وجدت شنشجة كانت لى فيها خاتم عقيق كبير الفص كثير اللمعان فوقع لى فى الحال وجه الحيلة فأخذته وجعلته فى قطن وخبأته معى وقصدت رئيس القوم وكان هو الذى تولى أخذ مالى وقد عرف موضعى وقدرى . وقلت

له : رأيت عظيم ما أخذته منى فأنا خادم الخليفة ، وقد خرجت لأمر كبير من خدمته ، وإنك فزت بما أخذته منى ، وأنا أعاملك به وأسديه اليك حلالا لايجرى مجرى الغصوب على أن تؤمننى على نفسى وترد علىّ من ثيابى وأدواتى وتسقينى ماء ، وتسيرنى حتى أصل إلى مامنى . فقال ما هو ؟ فقلت : تعطينى إيمانك وعهودك وذمامك على الوفاء ففعل فانفردت به ، وجعلت يدى مقابلة للشمس وأريته الخاتم وأقمت فصه فى شعاع الشمس فكاد يخطف بصره ورأى مالم يكن رآه فهاله وقال لى : استره وقل لى خبره . قلت هذا خاتم الخلافة وهذا الفص منه ياقوت أحمر وهو الذى يتداوله الخلفاء منذ العهد الطويل ، ويعرف بالجبل ولا يقوم أمر الخلافة إلا به ، وكان مخبوءا ببغداد فأمرنى الخليفة أن أحمله فى جملة ماحملته ، حيث حصل عندك فالرأى أن تمتنع من أعطاه إلا بمائة ألف دينار وهم لم يقدروا عليك فيضطروا لإنفاذ الثمن ، وأرى أيضا أن تأخذه وتنفذه إلى ناحية الشام وتوقفنى على موضع حلتك ، وتخفى حصول الخاتم معك ، وإنى إذا حصلت بحضرة الخليفة وعرفته الخبر جاءتك رسله بالرغائب حتى يرتجعه منك بأى ثمن . قال : فاذاً خذ من ثيابك ماتريد فأخذت من ثيابى ما احتجت اليه وأخذ الخاتم فخباه فى جيبه وأركبنى راحلة مواطاة وأعطانى أداتين كبيرتين ، وسار معى والناس يهلكون عطشاً ، ولم يزل يسيرنى حتى بلغت إلى حصن فى البرية يعرف بالزيتونة من بناء هشام بن عبد الملك فيه رجل من بنى أمية يكنى بأبى مروان معه فى الحصن نحو من مائتى رجل فلما حصلت عنده ، وأمنت انصرفت الأعراب ، وعرفت أبا مروان خبرى فى القطع ، ومن أنا فأعظم أمرى وأكرمنى وأنفذ معى من أصحابه من بلغنى الرقة سالماً .

* * *

عن رجل من الدقاقين فى دار ابن الزبير بالبصرة قال : أورد على رجل غريب سفتجة بأجل ، وكان يتردد علىّ إلى أن حل ميعاد السفتجة ثم قال : دعها عندك حتى آخذها متفرقة ، وكان يجىء فى كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت ، وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندى وكان يرانى أخرج كيساً

من صندوقى فأعطيه منه فقال لى يوماً : انقفل الرجل صاحبه فى سفره وأمينه فى حضره وخليفته على ماله ، والذى ينفى الظن عن أهله وعياله فان لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل عليه ، وأرى قفلك هذا وثيقاً . فقل لى ممن ابتعته لأبتاع مثله لنفسى . فقلت له : من فلان بن فلان الاقفالى عند باب الصفارين قال : فما شعرت يوما وقد جئت إلى دكانى فطلبت صندوقى لآخذ شيئاً من الدراهم فحمل إلىّ ، ولما فتحته وجدته خالياً من الدراهم فقلت لغلامى وكان غير متهم عندى هل أنكرت من الدرابات شيئاً . قال : لا . فقلت : فتش هل ترى فى الدكان نقباً . قال : لا . فقلت : من السقف حيلة . قال لا قلت : فاعلم أن الدراهم قد ذهبت فقلق الغلام فسكنته ، وقمت لاأدرى ما أصنع وتأخر الرجل عنى فلما غاب اتهمته وذكرت مسألته عن القفل فقلت للغلام : أخبرنى كيف تفتح دكانى وتقفله قال رسمى ان أدرب درابين والدرابات فى المسجد فأحملها فى دفعات اثنين أو ثلاثة فاشرحها ثم افعل كذا وكذا فقلت البارحة واليوم فعلت . قال نعم فقلت فاذا مضيت لترد الدرابات أو تحضرها فلمن تدع الدكان ؟ قال خالياً . قلت من هنا وقع الشر ومضيت إلى الصانع الذى ابتعت منه القفل فقلت : جاءك إنسان اشترى منك مثل هذا القفل ؟ قال : نعم رجل من صفته كذا وكذا وأعطانى صفة صاحبى تماما فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا وذهب الغلام يحمل الدرابات فدخل هو إلى الدكان فاختبىء فيه ، ومعه مفتاح القفل الذى يقع على قفلى وأنه أخذ الدراهم وجلس طول الليل خلف الدرابات . فلما جاء الغلام ليفتحها وحمل بعض الدرابات ليرفعها خرج هو ، وإنه مافعل ذلك إلا وقد خرج إلى بغداد . فسلمت دكانى إلى الغلام وقلت له : من يسأل عنى فعرفه أنى خرجت إلى ضيعتى قال : ثم خرجت ومعى قفلى ومفتاحه فقلت أبتدى بطلب الرجل بواسط قال : فلما صعدت من السميرية طلبت خانا فى الكتبيين بواسط لأنزله فأرشدت إليه فصعدت فإذا بقفل مثل قفلى سواء على بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله ؟ قال قدم رجل من البصرة أمس فقلت أى شىء صفته ؟ قال : فوصف لى صاحبى بعينه فلم أشك أنه هو وإن الدراهم

فى بيته فاكتريت بيتاً بجانبه ، ورصدت البيت حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل بمفتاحى فحين دخلت البيت وجدت كيسى بعينه فأخذته وخرجت وأقفلت الباب ونزلت فى الحال إلى السفينة التى جئت فيها ودعوت الملاح وانحدرت إلى البصرة فما أقمت بواسط إلا ساعتين من النهار ورجعت إلى منزلى بمالى عينه .

* * *

حدثنى عبدالله بن محمد البصرى قال : حدثنى اكار بنهرسايس يقال له سارح قال : خرجت من نهرسايس إلى موضع من طرف يقال له كوخ راذويه فبلغنى أن فى طريق رجلا يقطع الطريق وحده وحذرت منه، فلما خرجت من القرية رأيت رجلا تدل فراسته على شدته ونجدته وفى يده زقاية فجسرنى على الطريق فترافقنا فانتهينا إلى سقاية فى البرية فخرج علينا اللص متحزما متسلحا فصاح بنا فطرح رفيقى كارة كانت على ظهره وأخذ عصاة وبادر اللص وضربه بها فعطل اللص اضربة واستلماها على سينه فقطع العصاة ثم ضرب بسيفه رجل الرجل فأقعده ثم وشحه بالسيف حتى قتله وحمل على ليقتلنى فقلت له ماحاربتك ولا أمتنع من أخذك ثيابى فلأى شىء تقتلنى فقال استكتف فكتفنى بتكتى ثم حمل الثياب وانصرف وبقيت متحيرا مشفيا على التلف بالعطش والشمس والوحوش فما زلت أتمطى فى التكة إلى أن قطعتها فقمت أمشى إلى أن جننى الليل فرأيت فى الصحراء على بعد ضوء نار خفيا فقصدته فمشيت إلى نصف الليل فوجدته يخرج من قبة فى الصحراء فقربت منها وأطلعت فإذا هو اللص جالس فى القبة يشرب نبيذاً ومعه امرأته ، فلما أبصرنى صاح وتناول السيف وخرج إلى فمازلت أناشده وأحلف له أنى ماعلمت أنه هو ولاقصدته وإنما رأيت النار فقصدتها . فلم يعبأ بقولى وحلفته المرأة أن لايقتلنى بحضرتها فجذبنى إلى نهر جار بقرب من القبة ، وطرحنى على شاطئه تحته وجرد سيفه ليذبحنى فسمع صوت أسد قريبا فارتعدت يده وسكن ، وأخذ يسكنى فآنست بالسبع استيحاشا منه ، وزدت فى الصياح فما شعرت إلا والسبع قد تناوله من

صدرى فقمت فأخذت السيف وجئت إلى القبة فلم تشك الجارية أنى هو فقالت قتلته ؟ فقلت : لها الله عزوجل قتله، وقصصت عليها القصة ، وسألتها عن شأنها فقالت : أنا امرأة من القرية الفلانية أسرنى هذا الرجل وخبأنى فى هذ الموضع وهو يتردد إلى فى كل ليلة فأرهبتها فدلتنى على دفائن له فى الصحراء فاستخرجتها وحملت الجارية وبلغتها القرية وسلمتها فيها وفزت بمال عظيم أغنانى عن مقصدى فعدت إلى بلدى .

* * *

وحدثنى أيضا عن ابن الدنانيرى التمار الواسطى قال : حدثنى غلام لى ، قال : كنت ناقداً بالأبلة لرجل تاجر فاقتضيت له من البصرة نحو الخمسمائة دينار عينا وورقا ولففتها فى فوطة واستعديت على السفر مساء إلى الابلة فما زلت أطلب ملاحا فلم أجد إلى أن رأيت ملاحا مجتازاً فى خيطية خفيفة فارغة فسألته أن يحملنى فسهل على الأجرة وقال : أنا راجع إلى منزلى بالابلة فانزل فنزلت . قال وجعلت الفوطة بين يدى وسرنا إلى أن تجاوزنا مسماران فإذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون ، فلما رآه الملاح كبر وصاح هو بالملاح احملنى فقد جننى الليل ، وأخاف على نفسى فشتمه الملاح فقلت : احمله فدخل إلى الشط فحمله . فلما حصل معنا رجع إلى قراءته فخلب عقلى بطيبها فلما قربنا من الابلة قطع القراءة وقام ليخرج فى بعض المشارع إلى الابلة فلم أر الفوطة فقمت واقفا فاستغاث الملاح وقال : الساعة تقلب الخيطية ، وخاطبنى بخطاب من لا يعلم حالى . فقلت : يا هذا كانت بين يدى فوطة فيها خمسمائة دينار . فلما سمع ذلك بكى وقال : لم أدخل الشط بعد ولا لى موضع أخبىء فيه شيئا فتتهمنى بسرقته ولى أطفال وأنا ضعيف فاتق الله عزوجل وفعل الضرير مثل ذلك ففتشت الخيطية فلم أجد شيئا فوجمت وقلت : هذه محنة لا أدرى كيف أتخلص منها ، وخرجنا فعملت على الهروب وأخذ كل منا طريقا وبت ولم أمض إلى صاحبى وأنا بليلة عظيمة فلما أصبحت عملت على الرجوع إلى البصرة لأستخفى فيها أياما ثم أرجع إلى بلد شاسع فانحدرت وخرجت من مشرعة بالبصرة ، وأنا أمشى وأتعثر وأبكى

قلقا على فراق أهلي وولدي وذهاب معيشتي وجاهي إذ اعترضني رجل فقال لي ياهذا : ما وراءك ولماذا أنت قلق البـــال فأعرضت عنه فاستحلفني فأخبرته بالإيجاز على سبيل السلوى فقال : امض إلى السجن ببني نمير واشتر معك خبزا وشواء جيدا وحلوى وسل السجان أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال له أبو بكر النقاش ، وقل له إني زائره فإنك لا تمنع فإن منعت وهبت للسجان شيئا يسيرا فإنه يدخلك اليه فإذا رأيته فسلم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك ، فإذا أكل وغسل يده يسألك عن حاجتك . فأخبره خبرك فإنه سيدلك على من أخذ مالك ويرتجعه لك . قال فشكرته وانصرف ، وفعلت ذلك ووصلت إلى الرجل . فإذا شيخ مثقل بالحديد فسلمت عليه ، وطرحت ما معي بين يديه فدعى رفقاء كانوا معه وأقبلوا يأكلون فلما استوفى وغسل يده قال : من أنت وما حاجتك ؟ فشرحت له القصة فقال : امض الساعة لوقتك ولا تتأخر إلى بني هلال فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره فإنك تشاهد بابا شعثا فافتحه وادخله بلا استئذان فتجد دهليزا طويلا يؤدي إلى بابين فادخل الأيمن منهما فسيدخلك إلى دار فيها أوتاد وبواري وعلى كل وتد إزار ومئزر فانزع ثيابك والقها على الوتد واتزر بالمئزر اتشح بالإزار فيجيء قوم يفعلون كما فعلت إلى أن يتكاملوا ثم يأتون بطعام فكل معهم وتعهد أن تفعل في كل شيء كما يفعلون فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحا يسيرة ثم خذ قدحا كبيرا واملاه وقم فقل: هذا شاذي خالي أبو بكر النقاش فسيضحكون ويفرحون ويقولون هو خالك فقل نعم فسيقومون ويشربون لي فإذا تكامل شربهم لي جلسوا فقل نعم خالي يقرأ عليكم السلام ويقول لكم بحياتي يافتيان ردوا على ابن أختي الفوطة التي أخذت وها أمس في السفينة بنهر الابلة فانهم يردونها عليك فخرجت من عنده وفعلت ماقال ووجدت الصورة على ماذكر فردت الفوطة على بعينها ولم يحل شدها لما حصلت لي قلت لهم يافتيان هذا الذي فعلتموه بي هو قضاء لحق خالي ولي حاجة تخصني فقالوا : مقضية . فقلت عرفوني كيف أخذتم الفوطة ؟ فامتنعوا ساعة فأقسمت عليهم بحياة أبي بكر النقاش فقام واحدمنهم

ووأمىء إلى رجل فتأمله جيدا فإذا هو الضرير االذى كان يقرأ وإنما يتعامى وأومىء إلى آخر . وقال : أتعرف هذا فتأملته فاذا هو الملاح بعينه . فقلت : كيف فعلتما ؟ فقال الملاح : أنا أدور المشارع فى أول أوقات المساء وقد سبقت بهذا المتعامى فأجلسته حيث رأيت فإذا رأيت من معه شيئاً له قدر ناديته وأوجبت الأجرة عليه وحملته فإذا بلغت إلى القارى وصارح به شتمته حتى لايشك الراكب فى براءة ساحتى فان حمله الراكب فذاك وإن لم يحمله رققت عليه حتى يحمله وجلس هذا يقرأ بقراءته الطيبة ويذهل الرجل كما ذهلت أنت فإذا بلغت الموضع الفلانى فإن فيه رجل متوقعا لنا يسبح حتى يلاصق السفينة وعلى رأسه قوصرة والراكب لايفطن له فيأخذ الأعمى الشيء الذى مع الراكب بحيلة خفية ويلقيه فى القوصرة فيأخذه هذا ويسبح إلى الشط فإذا أراد الراكب النزول وانتقد مامعه عملنا كما رأيت فلا يتهمنا ونتفرق فاذا كان فى الغد اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه واليوم كان يوم القسمة فلما جئت برسالة أستاذنا خالك سلمنا إليك الفوطة . قال : فأخذتها وانصرفت إلى بلدى عاجباً حامداً .

* * *

حدثنى عبد الله بن محمد الصرورى . قال : حدثنى بعض إخوانى أنه كان ببغداد رجل يتلصص فى حداثته ثم تاب وصار بزازا . قال : فانصرف ليلة من دكانه وقد أغلقه فجاء رجل لص متزى بزى صاحب الدكان فى كمه شمعة صغيرة ومفاتيح فصاح بالحارس وأعطاه الشمعة فى الظلمة وقال أشعلها وجئنى بها فإن لى فى هذه الليلة فى دكانى شغلا فمضى الحارس وأشعل الشمعة وركب وركب اللص المفاتيح على الأقفال ففتحها ودخل الدكان وجاء الحارس بالشمعة مشعلة فأخذها منه وهو لايتبين وجهه وجعلها بين يديه وفتح سفط الحساب فأخرج مافيه وجعل ينظر فى الدفاتر ويرى بيده أنه يحسب فدخلت الحيلة على الحارس ولم يشك أنه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر فاستدعاه اللص وكلمه من بعيد . وقال له : اطلب لى حمالا فجاءه بحمال فحمل عليه من متاع الدكان أربع رزم وأقفل الدكان وانصرف معه وأعطى الحارس درهمين

فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان ليفتحه فقام إليه الحارس يدعوا له فعل الله بك وصنع كما أعطيتنى البارحة الدرهمين قال فأنكر الرجل ماسمع ولم يرد جواباً ، وفتح الدكان فوجد سيلان الشمعة وحسابه مطروحا وفقد الرزم الأربع فاستدعى الحارس وقال من الذى حمل الرزم البارحة معى فقال : قد استدعيت فلانا الحمال وهو الذى حملها فقال له على به فمضى الحارس وجاء بالحمال فأغلق الرجل الدكان وأخذ الحمال معه ومشى وقال له : إلى أين حملت الرزم البارحة فإنى كنت منتبذا ؟ فقال : إلى المشرعة الفلانية واستدعيت لك فلانا الملاح فركبت معه فقصد الرجل المشرعة وسأل عن الملاح فحضر وركب معه وقال : أين عديت اليوم بأخى الذى كان معه الأربع رزم ؟ فقال : إلى المشرعة الفلانية فقال : اطرحنى إليها فطرحه فقال : من حملها ؟ قال : فلان الحمال فدعى به فقال امش فمشى وأعطاه شيئاً واستدل منه برفق على الموضع الذى حمل إليه الرزم فجاء به إلى باب غرفة فى موضع بعيد عن الشط قريب إلى من الصحراء فوجد الباب مقفلا واستوقف الحمال ان فش القفل وفتح الباب ودخل فوجد الرزم فيه على حالها فدعى الحمال وحملها عليه ووجد بركانا فأخذه أيضاً ووضعه مع الرزم وحين خرج من الغرفة استقبله اللص وفهم الأمر فاتبعه إلى الشط فجاء إلى المشرعة ودعى الملاح ليعبر فدعى الحمال من يحط عنه ؟ فجاء اللص فحط عنه كأنه يجتاز متطوع ثم أدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها إلى أن انتهى إلى البركان فأخذه ووضعه على كتفه وقال للتاجر ياأخى استودعتك الله قد ارتجعت رزمك فدع كسائى فضحك منه وقال : انزل ولا خوف عليك فنزل معه فاستتابه ووهب له شيئا ولم يسىء إليه .

☆ ☆ ☆

عن رجل يعرف بأبى العرب قال : كنت مع أهل قرية من نواحى الشام أسكنها أنا وأسلافى وكنت أطحن مع أهل القرية فى رحى ماء على فراسخ من البلد يخرج إليها أهل البلد وأهل القرى المجاورة بغلاتهم وتكثر فلا يتمكن من الطحن إلا القوى فالقوى ، فمضيت مرة ومعى غلة وحملت معى خبزاً

ولحماً مطبوخا يكفيني لأيام وكان الزمان شتاء فلما وصلت حطاطت أعدالى وانتظرت حتى يخف الناس فاطحن فيها على عادتى فأخذنى الجوع فتحولت إلى موضع نزه وفرشت سفرتى لآكل فاجتاز بى رجل عظيم الخلقة فدعوته إلى الأكل فلم يتأخر وجلس فأكل جميع ما كان فى سفرتى حتى لم يدع فيها ولا أوقية واحدة فعجبت من ذلك عجباً بان له منى فأمسكت وغسلنا أيدينا فقال : على أى شيء مقامك هنا قلت لأطحن هذه الغلة قال : ولم لم تطحنها فأخبرته بسبب بعد ذلك على فثار كالجمل حتى شق الناس وهم مزدحمون على الرحى وهى تدور فجعل رجله عليها فوقفت ولم تدر فعجب الناس وقال من فيكم يتقدم فجاء رجل معجب بشدته فأخذ بيده ورمى به كالكورة وجعله تحت رجله الأخرى فما قدر أن يتحرك وقال : قدموا غلتى إلى الطحن وإلا كسرت الرحى وكسرت عظام هذا فقالوا لى هات الغلة فجئت بها فطحنت وفرغ منها وجعلها فى الأعدال وقال لى قم فقلت إلى أين ؟ قال : إلى منزلك فقلت لا أسلك الطريق وحدى فهو مخيف ولكن اصبر حتى يتفرغ أهل قريتى فارجع معهم فقال قم وأنا معك ولست تخاف بإذن الله عز وجل فقلت فى نفسى من كانت تلك قوته يجب أن آنس به فقمت وحملت الغلة على الحمير وسرنا ولم نر فى طريقنا أحدا فلما بلغت المنزل عجب قومى من سرعتى وورودى بالغلة لوحدى ورأوا الرجل وسألونى عن القصة فأخبرتهم وسألناه أن يقيم عندنا أياما فى ضيافتنا ففعل فذبحنا له بقرة وأصلحنا له سكباجا وقدم إليه فأكل الجميع بنحو المائة رطل خبزا فقال له أبى ياهذا ما رأيت مثلك قط فأى شيء أنت ومن أين معاشك قال : أنا رجل من الناحية الفلانية وكان لى أخ أشد بدنا وقلباً منى اسمه عاد واسمى شداد وكنا نبدرق القوافل من قريتنا إلى مواضع كثيرة لا نستعين بأحد وتخرج علينا الرجال الكثيرة فأقاتلهم أنا وأخى فقط ونهزمهم واشتهر أمرنا حتى كان إذا قيل قافلة عاد وشداد لم يعرض لها أحد فمكثنا بذلك سنين كثيرة نخرج مرة أنا وأخى نسير قافلة قد خفرناها فلما صرنا بالفلاة رأينا سوادا مقبلا نحونا فانتظرنا أن يقدم علينا أحد ثم بان لنا شخص وهو رجل أسود على ناقة حمراء ثم خالطنا وقال هذه قافلة

عاد وشداد فقلنا نعم فترجل ودعانا للبراز فانقضضنا عليه فضرب ساق أخى بالسيف ضربة أقعدته وعاد إلى فقبض على كتفى فما أطقت الحركة فكتفنى ثم كتف أخى وطرحنا على الناقة كالزاملتين ثم ركبها وسار بعد أن أخذ من القافلة ما كان فيها من عين وورق وحلى وشيئاً من الزاد واوقر الراحلة بذلك وسار بنا على غير محجة فى طريق لا نعرفه بقية يومنا وليلتنا وبعض الثانى حتى أتى جبلان لا نعرفهما واوغل فيهما وانتهى إلى مغارات وأناخ الراحلة ثم رمى بنا عنها وتركنا فى الكتاف وجاء إلى مغارة على بابها صخرة لا ينقلها إلا الجماعة الكثيرة فنحاها عن الباب واستخرج منها جارية حسناء وسائلها عن خبرها وجلسا يأكلان مما جاء به من الزاد ثم قال لها : قومى فقامت فدخلت إلى الغار ثم جاء إلى أخى فذبحه وأنا أراه وشواه وأكله وحده حتى لم يدع منه غير عظامه ثم استدعى الجارية فخرجت فجعلا يشربان فلما توسط شربه جرنى فلم أشك فى أن يريد ذبحى فإذا هو قد طرحنى فى غار من تلك المغارات وحل كتافى واطبق الباب بصخرة عظيمة قال : فآيست من الحياة وعلمت أنه إنما أخرنى لغد فلما كان فى الليل لم أحس إلا بالمرأة تكلمنى فقلت مالك : فقالت إن هذا العبد قد سكر ونام وهو يذبحك فى الغد كما ذبح صاحبك فإن كانت لك قوة فاجتهد فى دفع الصخرة ، وأخرج وأقتله وانج بنفسك وبى فقلت ومن أنت فقالت : أنا امرأة من أهل البلد الفلانى ذات نعمة خرجت أريد أرضا بالبلد الفلانى فخرج هذا عدو الله على القافلة التى كنت فيها فاستهلكها وأخذنى غصباً وأنا منذ كذا وكذا شهرا على هذه الصورة ويرتكب منى الحرام وأشاهد ذبح الناس وأكله لهم ولا يوصف له إنسان بشدة بدنه إلا قصده ثم يقهره ويجىء به فيأكله ويعتقد أن شدته تنتقل إليه وإذا خرج حبسنى فى الغار وخلف عندى مأكولا وماء لأيام ولو اتفق أنه يحتبس عنى ولو يوما لمت جوعا وعطشاً فقلت إننى والله ما أطيق قلع الصخرة قالت ويلك فجرب نفسك قال فجئت إلى الصخرة واعتمدتها بقوتى فتحركت فنظرت فإذا قد وقعت تحت الصخرة حصاة صغيرة وقد صارت الصخرة متركبة تركيباً صحيحاً وذلك لما أراده الله سبحانه وتعالى من خلاصى فقلت

لها : أبشري ولم أزل أجتهد حتى زحزحت الصخرة شيئاً أمكنني الخروج منه قال فخرجت وأخذت سيف الأسود واعتمدت بكلتا يدي وضربت ساقيه فإذا قد أبنت أحدهما وكسرت الأخرى فانتبه ورام الوثوب فلم يقدر فضربته الأخرى على حبل عاتقه فسقط فضربته أخرى فأبنت رأسه وعمدت إلى المغارات وأخذت كلما وجدت فيها من عين وورق وجوهر وثوب فاخر خفيف الحمل وأخذت زاداً لأيام وركبت راحلته واردفت المرأة ولم أزل أسير في طريق لاأعرفها حتى وقعت على محجة فسلكتها فأفضت بي إلى بعض القرى فسلمت الراحلة إلى المرأة وأعطيتها نفقة تكفيها إلى بلدها وسيرتها مع خفراء وعدت إلى بلدي بتلك الفوائد الجليلة وعاهدت الله عز وجل أن لا أتعرض للطريق ولا للخفاوة أبداً فأما أتاجر في ضياع أشتريتها من ذلك المال وغيره وأقوم بعماراتها وأعيش من غلتها إلى الآن .

* * *

وعن رجل كردي يعرف بأبي علي كان قد انحاز إلى عمران بن شاهين ابن عبد حسنويه بن الحسن الكردي وكان شجاعا قال : خرجنا مرة بالجبال في أيام موسم الحاج وعددنا سبعون رجلا من فارس وراجـــل فاعترضنا الحاج للخراسانية وكان لنا عين من القافلة فعاد وعرفنا أن في القافلة رجل من أهل شاس وفرغانة معه اثنى عشر جملا وجارية في قبة عليها حلي ثقيل فجعل أعيننا عليه حتى وثبنا عليه هو والجارية في عمـــاريته فقطعنا قطاره وكتفناه وأدخلناه وما معه بين الجبال ووقفنا على مامعه وفرحنا بالغنيمة وكان للرجل برذون أصفر يساوي مائتي درهم فلما رآنا نريد القفول قال : يافتيان هناكم الله بما أخذتم ولكنني رجل حاج بعيد الدار فلا تتعرّضوا لسخط الله بمعنى من الحج فأما المال فيذهب ويجيء وتعلمون أنه لانجاة لي إلا على هذا البرذون فاتركوه لي فليس يبين ثمنه في الغنيمة التي أخذتموها فتشاورنا فقال شيخ مجرب لاتردوه عليه واتركوه مكتوفاً هنا فإن كان في أجله تأخير فسيقيض له من يحل كتافه فكنت فيمن عزم على هذا وقال بعضنا مامقدار دابة بمائتي درهم حتى نمنعها رجل حاج وجعلوا يرفقون بقلوب

الباقين حتى سمحنا بذلك فأطلقناه ولم ندع عليه إلا ثوبا يستر عورته فقال : يافتيان أنتم مننتم علىّ ورددتم دابتى وأخشى إذا أنا سرت أن يأخذها غيركم فاعطونى قوسى ونشابى أذب بها عن نفسى وفرسى فقلنا لانرد سلاحا على أحد فقال بعضنا لبعض وما مقدار قوس ثمنها درهمان وما نخشى من مثل هذا فأعطيناه قوسه ونشابه وقلنا انصرف فشكرنا ودعا لنا ومضى حتى غاب عن أعيننا فما كدنا نسير والجارية تبكى وتقول أنا حرة ولا يحل لكم أن تأخذونى فنحن فى هذا وإذا بالرجل قد كر راجعا وقال يافتيان أنا لكم ناصح فإنكم قد أحسنتم إلىّ ولا بد لى من مكافأتكم على إحسانكم بنصيحتى لكم فقلنا ما نصيحتك فقال: دعوا ما فى أيديكم وانصرفوا سالمين بأنفسكم ولكم الفضل فإنكم مننتما على رجل واحد وأنا آمن على سبعين رجلا منكم وإذا به قد انقلبت عيناه فى أم رأسه وخرج الزبد على أشداقه كالجمل الهائج فهزأنا به وضحكنا فأعاد علينا النصيحة فقال ياقوم قد مننت عليكم لا تجعلوا لأرواحكم سبيلا فزاد غيظنا عليه فقصدناه وحملنا عليه فانحاز عنا ورمى خمس نشابات كانت بيده فقتل بها منا خمسة أنفار وأخذ خمسة أخر وقال إن جماعتكم تموت على هذا إن لم تخلوا عن ما فى أيديكم فلم نزل ندافعه ويقتل منا حتى قتل خمسين رجلا وبقى معه النشاب فى جعبته ثم قتل منا جماعة آخرين فاضطررنا إلى أن ترجلنا فحاز دوابنا وحده وساقها قليلا ثم رجع وقال أطالبكم بحلمكم من رمى بسلاحه فهو آمن ومن تمسك به فهو أبصر فرمينا سلاحنا فقال آمنين وأخذ جميع السلاح والدواب وفاتتنا الغنيمة والخيل والسلاح وكان ذلك سبب توبتى عن قطع الطريق أنفة لما لحقنى منه وأنا على ذلك الحال إلى اليوم .

☆ ☆ ☆

الباب الثانى عشر

من ألجأه الخوف إلى هرب واستتار فأدرك بأمن ومستجد نعم ومسار

عن محمد بن زكريا العلائى قال : غنى الرشيد يوما بهذا الشعر :

ألاهل إلى شم الخزامى ونظرة إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فيا اثلات القاع من بطن توضح حنينى إلى اضلالكن طويل
أريد نهوضاً نحوكم فيصدنى إذا رمته دين علىّ ثقيل

قال مؤلف الكتاب : وجدت الشعر فى غير هذه الرواية :

ويا اثلات القاع قد مل صحبتى صحابى فهل فى ظلكن مقيل
احدث نفسى عنك أن لست راجعاً اليك فحزنى فى الفؤاد دخيل

(رجوع للحديث) فاستحسن الرشيد الشعر ، وسأل عن قائله فعرف أنه ليحي بن طالب الحنفى اليمانى فقال : هو حى أم ميت ؟ فقال بعض الحاضرين هو حى كميت . فقال : ولم ؟ قال : هرب من اليمامة لدين عليه ثقيل فصار إلى الرى فأمر الرشيد أن يكتب إلى عامله بالرى يعرفه ذلك ، وأن يدفع اليه عشرة آلاف درهم ، ويحمل الى اليمامة على دواب البريد وكتب إلى عامله باليمامة بقضاء دينه . فلما كان بعد أيام قال الرشيد لمن حضره : إن الكتب وردت بامتثال ماأمرت به ، وعاد يحي إلى وطنه موسراً وقد قضى دينه عنه من غير سعى منه فى ذلك .

* * *

ذكر محمد بن عبدوس فى كتابه : « كتاب الوزراء » . قال : حدثنى عبد الواحد ابن محمد يعنى الحصنى ، قال : حدثنى يموت بن المزرع . قال : كان العتابى يقول بالاعتزال فاتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه فى أمره . فأمر عليه بأمر غليظ فهرب إلى اليمن ، وكان مقيما فيها على خوف وتوق فاحتال يحي بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من خطبه ورسائله فاستحسنها الرشيد وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقال يحي : هو كلام العتابى ، وإن رأيت يا أمير المؤمنين

أن يحضر حتى يسمع الأمين والمأمون ويضع لهما خطبا لكان فى ذلك صلاح لهما . فأمنه الرشيد وأمر باحضاره . ثم لما اتصل خبر ذلك بالعتابى قال يمدح يحيى بن خالد :

مازلت فى سكرات الموت مطرحاً ... قد غاب عنى وجه الأرض من خبلى
فلم تزل دائباً تسعى لتنقذنى ... حتى اختلست حياتى من يد الأجل

* * *

ذكر فى بعض كتب الدولة : أن أبا سلمة الخلال لما قوى الدعاة وشارفوا العراق ، وقد ملكوا خراسان وما بينها وبين العراق استدعى ابنى العباس فسيرهم فى منزله بالكوفة ، وكان له سرداب فجعل فيه جميع من كان حيا فى ذلك الوقت من ولد عبد الله بن العباس ، وفيهم السفاح والمنصور ، وعيسى بن موسى وهو يراعى الأخبار ، وكان الدعاة يأمرون بقصده إذا ظهروا وغلبوا على الكوفة ليصرفهم الإمام فيسلمون الأمر اليه فلما أوقع قحطبة وابن هبيرة الوقعة العظيمة على الفرات ، وغرق قحطبة وانهزم ابن هبيرة ولحق بواسط وتحصن بها ، ودخل ابنا قحطبة الكوفة بالعسكر كله قالوا لأبى سلمة : أخرج الينا الإمام . فدافعهم وقال : لم يحضر الوقت الذى يجوز فيه ظهور الإمام ، وأخفى الخبر عن بنى العباس وعمل على نقل الأمر عنهم إلى ولد فاطمة رضى الله عنهم ، وكاتب جماعة منهم فتأخروا عنه وساء ظن بنى العباس . فاحتالوا حتى أخرجوا مولى لهم أسود كان معهم فى السرداب ، وقالوا له : أعرف لنا الأخبار فصار يعرفهم أن قحطبة غرق وأن ابن هبيرة انهزم ، وأن ابنى قحطبة قد دخلا الكوفة بالعسكر منذ كذا وكذا . فقالوا : أخرج وتعرض لابنى قحطبة واعلمهما بمكاننا ، ومرهما أن يكبسا الدار علينا ويخرجانا ، فخرج المولى وكان حميد بن قحطبة عارفاً به فتعرض له فلما رآه أعظم رؤيته وقال : ويلك مافعل ساداتنا وأين هم ؟ فخبره بخبرهم ، وأرى اليه رسالتهم فركب فى قطعة من الجيش وأبو سلمة غافل فجاء حتى ولج الدار وأراه الأسود السرداب فدخل ومعه نفر من الجيش فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقالوا : وعليكم السلام . فقال : أيكم ابن الحارثية ؟ وكانت أم أبى العباس عبد الله بن

محمد بن على بن عبد الله وكان ابراهيم بن محمد الذى يقال له الإمام لما بث الدعاة قال لهم : إن حدث بعدى حدث فالإمام ابن الحارثية الذى معه العلامة وهى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، إلى قوله تعالى : ما كانوا يحذرون » قال : فلما قال ابن قحطبة أيكم ابن الحارثية ابتدره أبو العباس وأبو جعفر كلاهما يقول أنا ابن الحارثية فقال ابن قحطبة : فأيكما معه العلامة ؟ فقال أبو جعفر فعلمت أنى قد أخرجت من الأمر لأنه لم يكن معى علامة . فقال أبو العباس ونريد أن نمن وتلا الآية . فقال له حميد بن قحطبه : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته مد يدك فبايعه ثم انتضى سيفه وقال : بايعوا أمير المؤمنين . فبايعه اخوته وبنو عمه وعمومته والجماعة الذين كانوا معه فى السرداب وأخرجه إلى المنبر بالكوفة وأجلسه عليه . فحصر أبو العباس عن الكلام فتكلم عنه عمه داود بن على فقام دونه عمه على المنبر بمرقاة وجاء أبو سلمة ، وقد استوحش وخاف فقال حميد : ياأبا سلمة زعمت أن الإمام لم يقدم بعد . فقال أبو سلمة : إنما أردت أن أدفع بخروجهم إلى أن يهلك مروان ، وإن كانت لهم كرة لم يكونوا قد عرفوا بها فيهلكوا ، وإن هلك مروان أظهرت أمرهم على ثقة . فأظهر أبو العباس قبول هذا العذر منه ، وأقعده إلى جانبه ثم دبر عليه بعد مدة حتى قتله ، وقد دار هذا الخبر على غير هذا السياق فقالوا : قدم أبو العباس السفاح وأهله على أبى سلمة سرا فستر أمرهم ، وعزم أن يجعلها شورى بين ولد على والعباس حتى يختاروا منهم من أرادوا ثم قالوا : خاف أن لا يتفق الأمر فعزم أن يعدل بالأمر إلى ولد الحسن والحسين رضى الله عنهم ، وهم ثلاثة : جعفر بن محمد بن على بن الحسين وعبد الله بن الحسن ابن الحسين بن على وعمر بن على بن الحسن ووجه بكتبهم مع رجل من مواليهم من ساكنى الكوفة . فبدأ بجعفر بن محمد فلقيه ليلا فأعلمه أنى رسول أبى سلمة وإن معه كتاباً إليه فقال : ما أنا وأبو سلمة هو شيعة لغيرى . فقال له : الرسول تقرأ الكتاب وتجيب عنه بما رأيت . فقال جعفر لخادمه : قرب منى السراج . فقربه فوضع عليه كتاب أبى سلمة وأحرقه . فقال ألا تجيب عنه ؟ فقال :

قد رأيت الجواب . ثم أتى عبد الله بن الحسين فقبل كتابه ، وركب إلى جعفر . فقال جعفر : أمر جاء بك يا أبا محمد لو أعلمتني لجئتك . فقال : وأى أمر هو ؟ مما يجل عن الوصف . فقال : وما هو ؟ قال : هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى الأمر ، ويرانى أحق الناس به ، وقد جاء به شيعتنا من خراسان فقال له جعفر رضى الله عنه : ومتى صاروا شيعتك ؟ أنت وجهت أبا مسلم إلى خراسان ، وأمرته بلبس السواد ؟ أتعرف أحداً منهم باسمه ونسبه ؟ قال : لا . قال : كيف يكونوا شيعتك وأنت لا تعرف واحداً منهم ولا يعرفونك ؟ فقال عبدالله : هذا الكلام كان منك لشىء . فقال جعفر : قد علم الله تعالى أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك ؟ فلا تمنين نفسك الأباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء القوم ، وما هى لأحد من ولد أبى طالب ، وقد جاءنى مثل ماجاءك فانصرف غير راض بما قال له ، وأما عمر بن على بن الحسن فرد عليه الكتاب وقال : لا أعرف من كتبه . قال وأبطأ أبو سلمة على أبى العباس ومن معه فخرج أصحابه يطوفون بالكوفة فلقى حميد بن قحطبة ومحمد بن صول أحد مواليهم فعرفاه لأنه كان يحمل كتب محمد بن على وإبراهيم بن محمد اليه فسألاه عن الخبر فاعلمهما أن القوم قد قدموا وإنهم فى سرداب يعنى ببنى أود فصارا إلى الموضع فسلما عليهم وقالا : أيكما عبد الله ؟ فقال المنصور : وأبو العباس كلانا عبد الله . فقال أيكما ابن الحارثية ؟ فقال أبو العباس أنا . فقالا : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ودنوا فبايعوه وأحضره إلى المسجد الجامع فصعد على المنبر فحصر وتكلم عنه عمه داود بن على وقام دونه بمرقاة .

* * *

وعن طارق بن المبارك عن أبيه قال : جاءنى رسول عمرو بن عتبة فقال لى : يقول لك عمرو قد جاءت هذه الدولة ، وأنا حديث السن كثير العيال منتشر الأموال فما أكون فى قبيلة إلا وشهر أمرى ، وقد عزمت أن أفدى حرمى بنفسى وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن على فصر إلى فوافيته . فاذا عليه طيلسان مطبق أبيض وسراويل ، وشىء مشدود فقلت سبحان الله

ما تصنع الحادثة بأهلها أيها الإنسان ؟ تلق هؤلاء القوم الذين تريد لقاهم ، وعليك مثل هذا ؟ قال : والله ماذهب على ذلك ولكن ليس عندى ثوب إلا أشهر من ذلك فأ علية، طيلساني وأخذت طيلسانه ولويت سراويله إلى ركبته فدخل ثم خرج مسروراً . فقلت : حدثنى ماجرى بينك وبين الأمير قال : دخلت اليه ولم يرنى قط . فقلت أيها الأمير : لفظتنى البلاد اليك ودلنى فضلك عليك فاما قبلتنى غانماً ، وإما رددتنى سالما . فقال : من أنت ؟ فانتسبت اليه فقال : مرحباً أقعد فتكلم غانماً مسروراً . ثم أقبل على وقال ماحاجتك ياابن أخى ؟ فقلت ان الحرم اللواتى أنت أقرب الناس اليهن قدخفن بخوفنا . ومن خاف خيف عليه فوالله ما أجابنى عليه إلا بدموع تسيل على خديه . فقال ياابن أخى : يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت ولكن كن متوارياً كظاهر وآمنا كخائف ، ولتأتينى رقاعك . قال وكان والله يكتب اليه كما كان يكتب الرجل إلى ابن عمه قال : فلما فرغ من كلامه رددت عليه طيلسانه فقال مهلا فإن ثيابنا إذا خرجت عنا لم ترجع الينا . ووجدت هذا الخبر بإسناد ليس هو لى برواية عن العتبى قال : حدثنا طارق الزراع البصرى ولم يتجاوزه قال قدم جدك عمرو بن معاوية البصرى حين نكب بنو أمية قال فجعل لا ينزل بحى الا أجهزوه واشتهر فقال لى : اذهب بنا أضع يدى فى يد هذا الرجل يعنى سليمان بن يحيى وذكر نحوه ، وقال فى آخره : فلما صار عمرو الى منزله دفعت اليه ثوبه وطلبت ثوبى فردهما على جميعا وقال : انا لم نأخذ ثوبك لنحبسه ولم نعطك ثوبنا لترده .

* * *

عن عبد الله بن قيس الرقيات قال : لما خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبدالملك بن مروان فلما نزل مصعب مسكن وتبين الغدر ممن معه دعانى ، ودعا بمال فملا المناطق منه والبسنى منها وقال : امض حيث شئت فإنى مقتول فقلت : لاوالله لاأروح حتى آتى سبيلك فأقمت معه حتى قتل، ومضيت إلى الكوفة فأول بيت دخلته إذا فيه امرأة معها بنتان لها

كأنهما ظبيتان فرقيت فى درجة لها إلى مشرف فقعدت فيه قال فأصعدت ما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والماء والوضوء فأقمت كذلك عندها أكثر من حول تقوم بكل ما يصلحنى وتغدوا على فى كل صباح فتسألنى عن حوائجى فما سألتنى من أنا ولا أنا سألتها من هى وأنا فى أثناء ذلك أسمع الصياح فى والجعل فلما طال بى المقام وفقدت الصياح والجعل وعرضت بمكانى عادت إلى تسألنى ما الصياح والحاجـــة ؟ فأعلمتها أنى قد عرضت بموضعى وأحببت الشخوص إلى أهلى فقالت لى : يأتيك ما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى قال : فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه رقت إلى وقالت إن شئت فنزلت وقد أعدت راحلتين عليهما جميع ما أحتاج إليه ومعهما عبد وأعطت العبد نفقة الطريق وقالت العبد والراحلتان لك فركبت وركب معى العبد حتى أتيت مكة فدققت منزلى فقالوا من أنت ياهذا فقلت عبد الله بن قيس الرقيات فولولوا وبكوا وقالوا لم يردنا طلبك إلا فى هذا الوقت فوقفت عندهم حتى أسحرت ونهضت فقدمت المدينة ومعى العبد فجئت إلى عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنهم وهو يعشى أصحابه فجلست معهم وجعلت أتعاجم وأقول نبا ربنا وأى طيار فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهى فقال : ابن قيس ؟ اقلت عائذا بك فقال : ويحك ما أجدهم فى طلبك واحرصهم على الظفر بك . ولكنى أكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهى زوجة الوليد بن عبد الملك وعبد الملك أرق شىء عليها فكتب إليها يسألها التشفع إلى عمها عبد الملك فلما وصلها الكتاب دخلت على عمها فسألها هل من حاجة قالت : نعم لى حاجة فقال قد قضيت كل حاجة لك قالت : وإن كان ابن قيس الرقيات فقال لا تستثنين على ونفخ بيده فأصاب حر وجهها فوضعت يدها على خدها فقال لها ارفعى يدك فقد قضيت كل حاجة وإن كانت ابن قيس الرقيات فقالت تؤمنه فقد كتب إلى يسألنى أن أسألك قال : فهو آمن قامت فمر به يحضر المجلس العشية فحضر ابن قيس وحضر النـــاس حين بلغهم مجلس عبد الملك قال فأخر الإذن لابن قيس وأذن للناس فدخلوا وأخذوا مجالسهم ثم أذن له فلما دخل عليه قال : عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هذا قالوا

لا قال : هو ابن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولما — تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى — عن خداع العقيلة العذراء

فقالوا يا أمير المؤمنين اسقنا دم هذا المنافق قال الآن وقد أمنته وصار فى منزلى وعلى بساطى وقد أخرت الأذن لتقتلوه فلم تفعلوا فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأذن له وأنشده قصيدته التى يقول فيها .

عاده له من كثيرة الطرب — فعينه بالدموع تنسكب

والله ما أن صبت إلىّ ولا — يعرف بينى وبينها نسب

إلا الذى أورثت كثيرة فى الـ — قلب وللحب سورة عجب

حتى قال فيها :

إن الأغر الذى أبوه أبو الـ — عاص عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوق مفرقه — على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس أتمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب ابن الزبير .

إنما مصعب شهاب من الله — تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك رأفة ليس فيه — جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ولكن الله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا وأخبرنى أبو الفرج المعروف بالأصفهانى عن حماد بن إسحاق عن أبيه أن عبد الله بن قيس الرقيات منعه عبد الملك بن مروان عطاءه من بيت المال وطلبه ليقتله فاستجار بعبد الله بن جعفر وقصده فالتقاه نائما وكان ابن قيس صديقا لسائب خاثر فطلب الإذن على ابن جعفر فتعذر فجاء بسائب خاثر ليستأذن له فقال له سائب خاثر فجئت من قبل رجلى عبد الله ابن جعفر وبحت بنباح الجرو الصغير فانتبه ولم يفتح عينيه ورفسنى برجله قال فدرت إلى عند رأسه فنبحت بنباح الكلب الهرم فانتبه وفتح عينيه فقال مالك ويلك فقلت ابن قيس الرقيات بالباب فقال ائذن له وأذنت له ودخل فرحب به عبد الله وقربه فعرفه ابن قيس خبره فدعى بظبية فيها دنانير وقال لى عدله

مافيها فجعلت أعدله وأطرب وأحسن صوتى بجهدى حتى عددت له ثلاث مائة دينار وسكت . فقال عبد الله : ويلك لماذا سكت ماهذا وقت قطع الصوت الحسن فجعلت أعد مافى الظبية وفيها ثمانمائة دينار فدفعتها إليه فلما قبضها التفت لابن جعفر وقال له : تسأل أمير المؤمنين فى أمرى . قال: نعم إذا دخلت عليه ثم أنه دعى بالطعام فأكل أكلا فاحشاً وركب ابن جعفر فدخل معه إلى عبد الملك فلما قدم الطعام جعل يسىء الأكل فقال عبد الملك لابن جعفر من هذا ؟ قال : رجل لايجوز أن يكون كاذبا إن استبقى وإن قتل كان أكذب الناس قال : كيف ؟ قال لأنه يقول :

مانقموا من بنى أمية إلا　　أنهم يحلمون ان غضبوا

فإن قتلته بغضبك عليه أكذبكم فيما مدحكم به قال فهو آمن ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال قال : أحب أن تهب عطاءه لى أيضاً كما وهبت لى دمه قال : قد فعلت وأمرت له بذلك .

* * *

عن حماد الراوية قال : كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك جعل هشام يجفونى دون سائر أهله من بنى أمية فى أيام يزيد فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ومكثت فى بيتى سنة لاأخرج إلا إلى من أثق به من إخوانى سرا فلما لم أسمع أحدا يذكرنى أمنت فخرجت فصليت الجمعة عند باب الفيل فإذا بشرطيين قد وقفا على وقالا : ياحماد أجب الأمير يوسف ابن عمر فقلت فى نفسى من هذا كنت أحذر . ثم قلت للشرطيين هل لكما أن تدعانى آتى بيتى فاودع أهلى وداع من لايرجع إليهم أبدا ثم أصير معكما فقالا : ما إلى ذلك سبيل فاستسلمت فى أيديهما وصرت إلى الأمير وهو فى الإيوان الأحمر فسلمت عليه فرد على السلام ورمى إلى كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير أن يروع

ولا يتعتع وأدفع إليه خمسمائة دينارا وجملا مهرياً يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت الخمسمائة دينار وإذا جمل مرحول فجعلت رحلى فى الغرز وسرت اثنتى عشرة ليلة حتى وافيت دمشق ونزلت على باب هشام واستأذنت عليه فاذن لى فدخلت عليه فى دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحته فسلمت عليه فرد على واستدنانى فدنوت منه حتى قبلت رجله، وإذا جاريتان لم أر مثلهما وفى أذن كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتوقدان. فقال لى: كيف أنت ياحماد وكيف حالك؟ قلت بخير يا أمير المؤمنين . قال أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت : لا قال بعثت بسبب بيت خطر فى بالى لم أدر من قائله قلت وما هو ؟ قال :

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فقلت : هذا يقوله عدى بن زيد العبادى فى قصيدة له قال أنشدنيها فأنشدته

بكر العاذلون فى وضح الصـبح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق
لست أدرى إذا كثر العذل فيها أعـدو يلومنى أم صديق
ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينـة فى يمينها إبريق
قدمته على عقـار كعين الد يك صفى سلافها الراووق

قال فطرب ، ثم قال : أحسنت ياحماد. والله ياجارية اسقيه فسقتنى شربة ذهبت بثلث عقلى وقال أعد فأعدته فاستخفه الطرب حتى نزل عن فراشه ثم قال للجارية الأخرى اسقيه فسقتنى شربه ذهبت بثلث عقلى فقلت إن سقتنى الثالثة افتضحت ثم قال لى : سل حوائجك؟ قلت كائنة ما كانت قال : نعم قلت إحدى الجاريتين قال هما لك بما عليهما وما لهما ثم قال : للأولى اسـقيه فسقتنى شربة سقطت منها ولم أعقل حتى أصبحت فإذا بالجاريتين عند رأسى وإذا عشرة من الخـدم مع كل واحد منهم بدرة وقال لى أحدهم أن أمير

المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك:خذ هذا فانتفع به فى سفرك فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

* * *

عن عبد الله بن عمران أبى فروة قال : كان عبد الله بن الحجاج الثعلبى من أشراف قيس وكان مع ابن الزبير فلما قتل دخل عبد الله بصفة إعرابى على عبد الملك بن مروان ليلا وهو يتعشى مع الناس فجلس وأكل معهم ثم وثب فقال :

منع القرار فجئت نحوك هارباً   جيش يجر ومقنب يتلمـــع

فقال : أى الأخابيث أنت ؟ فقال :

ارحم أصيبية هـديت كأنهم   حجل تدرج بالسرية جوع

فقال : أجاع الله بطونهم فأنت أجعتهم فقال :

مال لهم بما تظن جمعته   يوم القليب فحيز عنهم أجمع

فقال : كسب سوء خبيث فقال :

ولقد وطئت بنو سـعيد وطأة   وابن الزبير فعرشـه متضعضع

وأرى الذين رجوا تراث محمـد   أفلت نجومهم ونجمك يسطع

فقال الحمد لله على ذلك فقال :

أدنوا لترحمـنى وتقبل توبتى   وأراك تدفعنى فأين المـــدفع

فقال : إلى النار فقال :

ضاقت ثياب الملبسين فأولنى   عرفا وألبسنى فثوبك أوســـع

قال : فرمى إليه بمطرف خز كان عليه فقال عبد الله : أمنت والله فقال له عبد الملك : كن شئت إلا عبد الله بن الحجاج فقال : والله ما أنا إلا هو وقد أمنتنى،أكلت طعامك ولبست ثيابك فأى خوف على قال : ماهداك إلا جدك وأمضى له الأمان .

* * *

ووجدت فى بعض كتبى هذا الخبران ابن الزبير لما قتل اهدر عبد الملك

دم عبد الله بن الحجاج هذا فاشتد عليه الطلب فجاء ليلا ولم يكن عبد الملك ليجمع بين اسمه وجسمه فجلس بين الناس مستخفيا على الطعام إلى أن أكل وتحرم ورآه عبد الملك ثم قام وقال الأبيات وموضوع هذا الخبر يدل على هذا ولعله سقط من الرواية المتقدمة والله أعلم .

* * *

عن أبي طالوت كاتب ابن طاهر قال : سمعت الفضل بن الربيع يقول : لما استترت عن المأمون أخفيت نفسي حتى على عيالي وولدي وكنت أنتقل وحدي فلما قرب المأمون من بغداد ازداد حذري وخوفي على نفسي فتشددت في الاحتياط والتواري فأفضيت إلى منزل بزاز كنت أعرفه في درب على باب الطاق وتشدد المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبرا فتذكرني يوما فاغتاظ على إسحق بن إبراهيم وحد به في طلبي فاغلظ له فخرج إسحاق من حضرته وجد بأصحاب الشرط وأوقع ببعضهم المكاره ونادى في الجانبين من جاء به فله عشرة آلاف درهم وأقطع غلته ثلاثة آلاف دينار في كل سنة وإن كل من وجد عنده بعد النداء يضرب خمسماية سوط ويؤخذ ماله وتهدم داره ويحبس طول عمره. ونودي بذلك عشاء فما شعرت بصاحب الدار حتى دخل علي وأخبرني به وقال والله ما أقدر بعد هذا على حفظ روحك ولا آمن على روحي وغلماني وجاريتي إن تشره نفوسهم إلى المنال فيدلون عليك وأهلك بهلاكك فان صفح الخليفة عنك لم آمن أن تتهمني إني دللت عليك فيكون ذلك أقبح وليس الرأي لك ولا لي إلا أن تخرج فورد على أعظم وارد فقلت إذا جاء الليل خرجت عنك قال ومن يطيق الصبر على هذا وهذا وقت حار وقد طال عهد الناس بك فتنكر واخرج قلت وكيف أتنكر قال تأخذ لحيتك وتغطي رأسك وتلبس قميصاً ضيقاً وتخرج فقلت : افعل فجاء بمقراض فأخذ أكثر لحيتي وتنكرت وخرجت في أول أوقات العصر وأنا ميت خوفاً فمشيت في الشوارع حتى بلغت الجسر فوجدته قد رش وهو متزلق فلما توسطته فاذا بفارس من الجند الذين كانوا ينوبون في داري أيام وزارتي قرب مني وقال : طلبة أمير المؤمنين والله وعدل إلى ليقبض على فمن حلاوة

النمس دفعته ودابته فزلق ووقع فى بعض سفن الجسر وتعادى الناس لخلاصته وظنوا أنه زلق بنفسه وتشاغلوا به وزدت أنا فى المشى ولم أعد لئلا ينكر حالى من يرانى إلى أن عبرت الجسر ودخلت دار سليمان فوجدت امرأة على باب دار مفتوح فقلت لها : يا امرأة أنا خائف من القتل فأجيرينى واحفظينى فقالت : ادخل وأومأت إلى غرفة فصعدت اليها فلما كان بعد ساعة إذا بزوجها على الباب ففتحته له ودخل فتأملته فاذا هو صاحبى على الجسر وهو مشدود الرأس من شجة لحقته وسألته المرأة عن خبره فأخبرها بالقصة وقال لها قد زمنت دابتى وأنفذتها لتباع فى سوق اللحم وقد فاتنى الغناء وجعل يشتمنى وهو لا يعلم بوجودى معه فى الدار وأقبلت المرأة تترفق به إلى أن هدأ فلما صليت المغرب وأقبل الظلام صعدت المرأة إلى وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم فقالت : قد سمعت ما عنده فاتق الله واخرج فدعوت لها ونزلت ففتحت الباب فتحاً رقيقاً وكانت الدرجة فى الدهليز فأفضيت إلى الباب فلما انتهيت إلى آخر الدرب وجدت الحراس قد اغلقوه فتحيرت فرأيت رجلا يفتح بابا بمفتاح رومى . فقلت : هذا رومى وهو ممن يقبل مثلى فدنوت وقلت استرنى سترك الله قال : ادخل فدخلت فرأيت رجلا فقيرا وحيدا فأقمت ليلتى فبكر من غد ثم عاد نصف النهار ومعه حمالان يحمل أحدهما حصير ومخدة وجرار وكيزان وغضائر جدد وقدر جديد والآخر يحمل خبز وفاكهة ولحم وثلج فدخل وترك ذلك كله عندى وأغلق الباب فنزلت وعذلته وقلت له كلفت نفسك هذا فقال : أنا رجل مزين وأخاف أن تستقذرنى فاطبخ أنت واطعمنى فى غضارة أجيء بها من عندى فشكرته على ذلك ومكثت عنده ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع ضاق صدرى . فقلت له : الضيافة ثلاثة وقد أحسنت وأجملت وأريد الخروج فقال لا تفعل فانى وحيد وخبرك لا يخرج من عندى أبدا وأقم إلى أن يفرج الله عنك فلست اتثاقل بك فأبيت للحين قال فخرجت حتى بلغت باب التين إلى دار عجوز من موالينا فدفعت الباب عليها فخرجت فلما رأتنى بكت وحمدت الله تعالى على رؤيتى وأدخلتني الدار فلما كان فى السحر وأنا نائم غير مكترث وبكرت فسمعت

إلى أبواب اسحق فما شعرت إلا وإسحاق نفسه فى خيله ورجله قد أحاط بالدار ثم كبسها فاستخرجنى منها حتى أوقفنى بين يدى المأمون حافيا حاسرا فلما رآنى سجد طويلا ثم رفع رأسه فقال يافضل : أتدرى لم سجدت قلت شكراً لله على ظفرك بعدوك وعدو دولتك والمغرى بينك وبين أخيك قال ما أردت هذا ولكن سجدت شكراً على ما ألهمنيه من العفو عنك . فحدثنى بخبرك فشرحته له من أوله إلى آخره فأمر بإحضار المرأة مولاتى وكانت فى الدار تنتظر الجائزة فقال : ماحملك على ما فعلت مع انعامه وإنعام أهله عليك قالت رغبة فى المال . قال هل لك ولد، أو زوج، أو أخ؟ قالت لا فأمر بضربها مائتى صوت وتخليدها فى الحبس ثم قال لاسحق احضر الساعة الجندى وامرأته والمزين فاحضروا فى المجلس فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على فعله فقال الرغبة فى المال وواللہ أنه الذى اثبتنى فى الجيش ولكنى رغبت فى المال العاجل فقال أنت بأن تكون حجاماً أولى بك من أن تكون من أوليائنا وأمر بأن يسلم للمزينين فى الدار ويوكل به من يعسفه حتى يتعلم الحجامة وأمر باستخدام زوجته على قهرمة دور حرمه وقال هذه امرأة عاقلة دينة وأمر بتسليم دار الجندى وقماشه إلى المزين وإن يجعل رزقه له ويجعله جنديا مكان ذلك الجندى ، واطلقنى إلى دارى فرجعت إليها آخر النهار آمناً مطمئناً : ووجدت هذا الخبر بخلاف هذا فى «كتاب الوزراء» لابن عيدوس فإنه ذكر أن الفضل ابن الربيع استتر فطال استتاره واستعجمت عليه الأخبار فغير زيه وخرج فى السحر وكان استتر بناحية الخربية من الجانب الغربى فمشى وهو لايدرى أين يقصد لحيرته وبعد عهده بالطرق فأداه المشى إلى الجسر وقد اسفر الصبح فأيقن بالعطب وقصد منزلا لرجل كانت بينه وبينه مودة بسويقة نصر، فلما صار صار ببعض المشارع سمع النداء عليه ببذل عشرة آلاف درهم فتخفى حتى جاوزه الركبان والمنادى ومشى فرآه رجل فانتبه له وقال يافضل وكان فى أحد جانبى الطريق الذى الفضل فيه فامه إلى الجانب الذى كان فيه ليقبض عليه فاعترضته حمير وجمال عليها جنب ونظر الفضل يميناً وشمالا فلم يجد مذهباً وبصر بدرب فدخله فوجده لاينفذ ووجد فى صدره

باباً مفتوحا فهجم على المنزل وفيه امرأة فاستغاث بها فأجارته وبادرت إلى الباب فأغلقته وناشدها الله أن تستره إلى الليل فأمرته بالصعود إلى غرفة لها فلم يستقر به القعود حتى دق الباب فلما فتح الباب دخل الرجل الذى رآه وعزم على القبض عليه وإذا المنزل له فقال لزوجته فاتنى الساعة عشرة آلاف درهم. قالت له وكيف ذلك؟ قال لها مر بى الفضل فمددت يدى لأقبض عليه فابتلعته الأرض فقالت له امرأته الحمد لله عز وجل على أن كفاك أمره وبقى دينك عليك ولم تكن سبباً لسفك دمه أو مكروه يلحقه فلما خرج صعدت إليه فقالت قد سمعت وما هذا لك بموضع فخرج إلى بعض منازل معامليه فلما صار إليه نبه العامل عليه وأسلمه إلى طالبيه فحمل إلى المأمون فلما رآه وسأله عن خبره شرح له قصته فأمر للمرأة بثلاثين ألف درهم وقال للرسول قل لها يقول لك الفضل هذا جزاء لك على مافعلته من الجميل فردتها وأبت قبولها وقالت : لست آخذ على شيء فعلته لله تعالى جزاء إلا منه .

* * *

حدثنا أبو الحسن محمد بن عمر بن شجاع المتكلم البغدادى الملقب بجنيد قال : حدثنا الفضل بن هامان السيرافى وكان مشهوراً بسلوك أقاصى بلاد البحر قال :قال لى رجل من بعض بياسرة بلاد الهند والبيسر هو المولود على ملة الإسلام هناك قال: كان فى إحدى بلادهم ملك حسن السيرة وكان لايأخذ ولا يعطى بمواجهة وإنما كان يقلب يده وراء ظهره فيأخذ ويعطى بها إعظاما منهم للملك وسنة لهم هناك ولأولادهم وأنه توفى فوثب رجل من غير أهل المملكة فاحتوى على ملكه وهرب ابن له كان يصلح للملك خوفا على نفسه من المتغلب، ورسوم ملوك الهند أن الملك إذا قام عن مجلسه لأى حاجة عرضت له كان عليه صدرة قد جمع فيها كل نفيس وفاخر من اليواقيت والجواهر مضروب بالابريسم فى الصدرة ويكون فيها من الجوهر مالو أراد أن يقيم به ملكه لاقامه قال: ويقولون ليس بملك من إذا قام عن مجلسه وليست معه حتى إذا حدثت عليه حادثة وهرب بها أمكنه إقامة ملك منها فلما حدث على الملك تلك الحادثة أخذ ابنه صدرته وهرب بها فحكى عن نفسه أنه مشى ثلاثة

أيام قال ولم أطعم طعاما ولم يكن معى فضة ولا ذهب فابتاع به مأكولا ولم أقدر على إظهار مامعى وانفت ان استطعم قال: فجلست على قارعة الطريق فإذا رجل هندى مقبل على كتفه كارة فحطها وجلس حذائى فقلت أين تريد قال الحرام الفلانى ومعنى الحرام الرستاق فقلت وأنا أيضاً أريد هذا الحرام قال فنصطحب قلت نعم فصحبته طمعاً فى أن يعرض علىّ شيئاً من مأكوله قال فحل الكاره وأكل وأنا أراه ولم يعرض علىّ شيئاً من مأكوله ولم تقو نفسى على أن تبدئه بالسؤال فلما فرغ قام يمشى فمشيت معه وبت معه طمعا فى أن تحمله المزاملة على العرض على فعمل بالليل كما عمل بالنهار قال وأصبحنا فى غد فمشينا فعاملنى بمثل ذلك أربعة أيام قال فصار لى سبعة أيام لم أذق فيها شيئاً فأصبحت فى الثامن ضعيفا مهووسا لاقدرة لى على المشى فعدلت عن الطريق وفارقت الرجل فرأيت قوما يبنون وقيما عليهم فقلت للقيم استعملنى مثل هؤلاء باجرة تعطينيها عشاء فقال نعم ناولهم الطين قلت عجل لى أجرة يوم ففعل فابتعت بها ما أكلته وقمت أناولهم الطين فكنت لعادة الملك أقلب يدى إلى ظهرى واعطيهم الطين فلما أتذكر أن ذلك خطأ ينبه على سفك دمى أبادر بتلافى ذلك فادر يدى بسرعة من قبل أن يفطنوا بى قال فلمحتنى امرأة قائمة فأخبرت سيدتها خبرى وكانت صاحبة البناء وقالت لابد أن يكون هذا من أولاد الملوك قال فتقدمت إلى القيم بحبسى عن المضى مع الصناع فاحتبسنى وانصرف الصناع فجاءتنى بالدهن والعروق لاغتسل بهما وهذه تقدمة إكرامهم وسنة لعظمائهم فتغسلت بذلك وجاؤونى بالأرز والسمك فطعمت فعرضت المرأة على نفسها فى التزويج فأجبت وعقدت ودخلت بها من ليلتى وأقمت معها أربع سنين ادبر حالى وحالها وكانت لها نعمة فأنا يوم جالس على باب دارها إذا برجل من بلدى فاستدعيته فجاء فقلت له من أين أنت؟ قال: من بلد كذا وكذا فذكر بلدى فقلت ماتصنع هاهنا قال: كان فينا ملك حسن السيرة فمات فوثب على ملكه رجل ليس من أهل بيت الملك وكان للملك الاول ابن يصلح للملك فخاف على نفسه فهرب وان المتغلب أساء عشرة الرعية فوثبنا عليه فقتلناه وانبثثنا فى البلد ان نطلب ابن ذلك الملك المتوفى

فنجلسه مكان أبيه فما عرفنا له خبرا قال فقلت أتعرفني ؟ قال لا : قلت : أنا طلبتكم قال وأعطيته العلامات فعلم صحة ماقلته له فكفر لى فقلت : اكتم أمرنا إلى أن ندخل الناحية قال : افعل ففعل قال : فدخلت إلى المرأة وأعلمتها بالخبر وحدثتها بأمرى كله وأعطيتها الصدرة وقلت هذه قيمتها كذا كذا ومن حالها كذا وكذا وأناماض مع الرجل فإن كان ماذكر صحيحاً فالعلامة أن يجيئك رسولى ويذكرلك الصورة وإن كانت مكيدة كانت الصدرة لك قال ومضى الرجل وكان الأمر صحيحاً فلما قرب من البلد استقبلوه بالتكفير وأجلسوه فى الملك فانفذ إلى زوجته من حملها فجاءت إليه فحين اجتمع شمله واستقام أمره أمر فبنيت له دار ضيافة عظيمة وأمر أن لا يجوز فى عمله مجتاز إلا حمل إليها فيضاف فيها ثلاثة أيام ويزود لثلاثة أيام أخر فكان يفعل ذلك وهو يراعى الرجل الذى صحبه فى سفره ويقدر أن يقع فى يديه فلما كان بعد حول استعرض الناس قال وكان يستعرضهم فى كل يوم فلا يرى الرجل فيصرفهم فلما كان فى ذلك اليوم رأى الرجل فيهم فحين وقعت عينه عليه أعطاه ورقة تابول وهذه علامة غاية الإكرام ونهاية رتبة الأعظام إذا فعله الملك برعيته قال فحين فعل الملك ذلك بالرجل كفر له وقبل الأرض فأمره الملك بالنهوض ونظر إليه فإذا هو ليس يعرف الملك فأمر بتغيير حاله وإحسان ضيافته ففعل ثم استدعاه فقال أتعرفنى ؟ فقال: وكيف لا أعرف الملك وهو من عظم شأنه وعلو سلطانة بحيث هو قال لم أرد هذا أتعرفنى قبل هذا الحال قال لا فذكره الملك بالحديث والقصة فى منعه إياه الطعام فى السفر قال فبهت الرجل فقال ردوه إلى الدار فردوه فزاد فى إكرامه وحضر الطعام فاطعم فلما أراد النوم قال الملك لزوجته امضى فغمزيه حتى ينام قال فجاءت المرأة فلم تزل تغمزه إلى أن نام ثم رجعت إلى الملك فقالت قد نام قال ليس هذا نوم حركوه فحركوه فإذا هو ميت قال فقالت له المرأة أى شىء هذا قال فساق لها حديثه معه وقال وقع فى يدى فتناهيت فى إكرامه والهند لهم أكباد عظام وأوهام ظريفة فأدخلت عليه حسرة عظيمة إذ لم يحسن إلى فقتلته وقد كنت أتوقع موته قبل هذا بما توهمه واستشعره من العلة فى نفسه لفرط الحسرة .

حدثنا أبو عبد الله بن أحمد بن شيرزاد قال : حدثنى خالى وابن عم أبى أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد قال : لما سعى على عند بحكم حتى صرفنى عن كتبته ونكبنى وألزمنى بمائتى ألف دينار فأديت أكثرها من غير أن أبيع شيئاً من أملاكى الظاهرة فلما قاربت على وفائها استحضرنى أحمد بن على الكوفى كاتبه ، وأخذ يخاطبنى بكلام طويل هو تقدمة واعتذار لشيء يريد أن يخاطبنى به . فقلت له ياسيدى : ماتريد ؟ وما بك حاجة إلى التسبب فانى بمودتك واثق . فقال : إن هذا الرجل يعنى بحكم قد رجع عليك فى صلحك وطمع فيك وطالبنى أن آخذ منك مائتى ألف دينار أخرى ، ووالله ما هذا عن رأيى ولا لى فيه مدخل ، ولو قدرت على إزالته عنك لفعلت . قال : فأخذت أحلف أنى لا أهتدى اليها ، ولا إلى عشرها ، وان النكبة قد استنفدت مالى ولم يبق لى شيء إلا دارى وضياعى ، وانى أسميهما ، ولا أكتم شيئا منهما ، وأخرج له عنهما ليهب لى روحى . قال : فطال الخطاب بيننا فلما قام فى نفسه صدقى فكر طويلا ثم قال : ياسيدى هذا رجل أعجمى وعنده أن وراءك أضعاف هذا المال ، وأن فيك من الفضل مايصلح لقلب دولته عليه ، وأنت والله معه فى طريق القتل إلا أن يكفيك الله عز وجل ، ووالله ما أحب أن يجرى مثل هذا على يدى ، ولا فى أيامى فيلزمنى عاره إلى الأبد وأجسره على قتل كتابه فدبر خلاصك . فتحيرت ثم سكنت وقلت له : تعطينى ميثاقك وتحلف لى أن سرك فى محبة خلاصى كعلانيتك حتى أقول ماعندى ؟ ففعل . فحلفت له أنى قد صدقته ، وانى لا أمتنع مما يجرى عنى به بعد هذا اليمين ولو شاء منى أن أفتح دواتى وأكتب بين يديه ، وقلت له : أنت وقتك مقبل ووقتى مدبر ، وأنت فارغ القلب وأنا ذاهل بالمحنة فدبر أمرى الآن كيف شئت فإنه ينفتح لك بهاتين الخلتين ما قد استبهم على . قال : ففكر ثم قال : أنا ان آيست هذا الرجل من مالك لم آمنه على دمك ، وان أطعمته فى مالك وليس لك ماتعلله به أدت بك المطالبة إلى التلف ، ولكن الصواب عندى أن أطعمه فى ضيعتك فاشتريها له منك وأقول ان ضياع السواد الخراجية قد أجمع شيوخ الكتاب بالحضرة قديما وحديثاً على أن كل ما كان

منها غلته درهم فقيمته أربعة دراهم وأبو جعفر يقول : ان غلات الضياع بعد الخراج خمسة وعشرون ألف دينار وانه يضمنها بذلك حاصلا خالصا بعد الخراج والمؤن ويقيم بذلك كفلاء فاشترها منه بمائتى ألف دينار كملا ويحصل لعقبك ملك جليل مع هذا ، وهو يؤدى باقى المصادرة الأولى ، وتصير ضامنا لضيعته فادفع ذلك اليك أيضا ، ومن ساعة إلى ساعة فرج وأنا أحتال بحيلة فى أن يكون الكتاب عندى فلا أسلمه اليه فلعل حادثة تحدث وترجع اليك ضيعتك ، وتكون بالعاجل قد تخلصت وسلم دمك فى أربع سنين . قال : فعلمت أنه قد نصحنى وآثر خلاصى وأجبت فدخل إلى بجكم ولم يزل معه فى محادثات إلى أن تقرر الأمر على ما قاولنى عليــــه وأحضر الشهود وكتب على الكتاب بالابتياع والكتاب بالإجارة وقال لى : الوجه أن تقيم كفلاء ببقية المصادرة الأولى فقد استأذنته فى صرفك إلى منزلك ، وإذا انصرفت فانضم ولا يراك أحد ، وكن متحذرا ولا تظهر أنك مستتر فتغريه بك . قال : فشكرته وأقمت الكفلاء بالمال إلى أيام معلومة فصرفنى فعدت إلى دارى وكنت متحذراً اجلس فى كل يوم فيدخل إلى بعض الناس بمقدار مايعلم أنى فى دارى فإذا كان نصف النهار خرجت إلى منازل اخوانى وأقمت يوما عند هذا ويوماً عند الآخر وراعيت أخبار دارى أتوقع أن يجيئها من يكبسها فيطلبنى فأكون بحيث لايعرف خبرى فأنجو فطال ذلك والسلامة مستمرة ، وانحدر بجكم إلى واسط فآنست بالجلوس والاستقرار فى دارى فلما كان فى بعض الأيام ضاق صدرى ضيقا لا أعرف سببه واستوحشت وفكرت فى أمرى وقلت إن كبست على غفلة فماذا أصنع ؟ قال : وكان لدارى أربعة عشر بابا إلى أربعة عشر سكة وشارعا وزقاقا نافذا ومنها عدة أبواب لايعرف جيرانها أنها تفضى إلى دارى وأكثرها عليه الأبواب الجديدة . قال : فترآ لى أن أرسلت لغلمانى المقاتلة ، وكانوا متفرقين عنى قد صرفتهم لئلا يصير لى حديث فجاؤنى واجتمع منهم ومن أولادهم نحو ثلاثمائة غلام فقلت لهم إذا كان الليلة فاحضروا جميعا بسلاحكم وبيتوا عندى ليلا وأقيموا نهاراً إلى أن أدبر أمرى . قال : ففعلوا ذاك وفرقتهم فى الحجر

المتقاربة للمجلس الذى كنت أجلس فيه وقلت إن كبست فتشاغلوا عن من يطلبنى لأنجو قال وكنت أدبر كيف أعمل فى قلب الدوله أو استصلاح بحكم فلم يقع لى الرأى ولا أجد إلى ذلك طريقا ، وكنت أوصيت بوابى أن يغلق بابى المعلوم للناس ولا يفتحه لأحد من خلق الله إلا بأمرى وأجلست غلاما كان يحجبنى فى أيام الدولة ، ومعه عشرون غلاما بسلاح خلف الباب وكان لا يفتح لأحد . فما مضى لهذا إلا يومان أو ثلاثة حتى جاءنى حاجبى وقال : قد دق الباب فقلنا من الطارق ؟ قال : أنا غلام لمحمد بن ثبال البرجمان وهو وأبو بكر النقيب بالقرب منكم يستأذنون على سيدنا فى الدخول فقلت فى نفسى بليت والله ، وأمرت الغلمان فاجتمعوا بأسرهم متسلحين فى بيت له قبة كبيرة كنت جالسا فى أحد أروقته وأمرتهم أن لا ينبسوا بكلمة وقلت للحاجب اصعد على السطح فانظر ما ترى ؟ وأخبرنى به ففعل وعاد وقلت رأيت الشارع مملوء بالخيل والرجل وقد أحاطوا من جنبات كثيرة ولما رأونى أراقبهم تنحيت فصاح بى البرجمان قائلا كلمنى وما عليك بأس فأخرجت رأسى فقال : ويحك ماجئنا لمكروه وما جئنا إلا لبشارة فعرف سيدنا بذلك فقلت ليس هو فى الدار ولكن أراسله ثم أخبر الأمير أيده الله فى غد برسول إلى داره فقال أنا ههنا واقف ساعة إلى أن يرى رأيه ففكرت وقلت هذه حيلة للقبض على لاشك ويجوز أن يكون بحكم قد تغير على الكوفى ولا يجد لخدمته غيرى واعترضنى الطمع وكاد يفسد رأيى ثم قلت للغلمان : ان قلت لكم اخرجوا فضعوا على أبى بكر النقيب والبرجمان أيديكم فاخرجوا وخذوا رأسيهما ولا تستأذنوا البتة فأجابوا فقلت احذروا أن تخالفوا فأهلك فقالوا نعم ثم قلت للحاجب اطلع السطح وقل له إنى على حال من اختلال الفرش والكسوة لا أحب معهما دخول أحد إلى فإن رضيت أن تدخل أنت وأبو بكر النقيب فقط وإلا فأنا أصلح أمرى وأجىء إلى دارك الليلة قال فعاد الغلام وقال كلمته فقالوا رضينا بذلك فقلت يافلان : اخرج واحذر أن يفتح الباب كله فتدخل الجماعة وأرى أن تقول له أن يتباعد عن الباب إلى الشارع قليلا فان ازدحم الناس وتكاثروا فهى حيلة فدعهم يدخلون وصح ياهذا فاعلم أنا أنها حيلة

فاخرج من بعض الأبواب أمامهم فيفضون إلى هذا الباب وهو مقفل ووراءه الغلمان وإن حضرا وحيـــدين فقل لهما الشرط أن أقفل الباب بينكما وبين أصحابكما ثم افتح الباب الذى يلى الشارع حتى يدخلا ثم اقفله وارم مفاتيحه من تحت الباب الثانى إلينـا إلى الصحن ودق هـذا الباب فإنى واقف وراءه لأتقدم بفتحه ويدخلان ففعل الحاجب ذلك وحصل أبو بكر النقيب والبرجمان فى الدهليز وحيدين فلما سمعت صوت قفل الباب الباب الخارجى وأنا عنـد الباب الداخلى ودق الحاجب الباب الثـانى ورمى بالمفتاح عـدت إلى مجلسى فجلست فيه ونحيت من كنت أقمته وراء الباب الثانى بالسلاح وأعـدت على الجماعة الوصيـة بقتلهما إن صحت ياغلمان اخرجوا ثم تقدمت إلى غلام كان واقفا بلا ســـلاح أن يفتح الباب ويدخلهما ففعل ذلك وألقيت نفسى على الفرش كأنى عليل ودخلا فلم أوفهما الحق واخفيت كلامى كما يفعل العليـل فقالا ماخبرك فقلت أنا منـذ أيام عليل وارتعت لحضوركما فأخـذ البرجمان يحلف أنه ماحضر إلا ليردنى إلى منزلتى واستكتابى للأمير بحكم فشكرته على ذلك وقلت أنى تائب من التصرف ولا أصلح له فقال قد أمرنى الأمـــير بمخاطبتك فى الخروج إليه إلى واسط لتقرير هذا الأمر فلا يجوز أن أكتب إليه بمثل هذا عنك ولكن إن كنت زاهدا فى الحقيقة فاخرج إليه واحدث لخدمته عهدا واستعفه فإنه لايجبرك فقلت هل كاتبنى بشىء توصله إلى فقال قد اقتصر على ما كتب به إلى لما يعلمه من مودتى لك ولكى لاينشوا الخبر بذلك فقلت تقفنى على كتابه إليك قال لم أحمله معى فعلمت أنه كوتب بالقبض على فقلت أنا عليل كما ترى ولا فضل فى للسفر ولكن تجيب الأمير عنى بالسمع والطاعة وإنى سأخرج لحضرته بعد أسبوع إذا شممت نفسى قليلا قال إنه يقبح هذا الوجه وأرى أن تخرج قلت لاأقدر فراجعنى وراجعته إلى أن قال لابد من خروجك فقلت إنى لاأخرج ولا كرامة لك فاجهد جهدك وهممت أن أصيح بالغلمان وكان أبو بكر النقيب خبيثاً فقام وقال : اسـئل سيدنا بالله العظيم أن لايتكلم بحرف ويدعنى وهذا الأمر ثم أخذ بيد البرجمان وقاما إلى ناحية من المجلس بعيدة لاأسمع مايجرى بينهما فأطالا السر ثم جاءنى

فأخذ أبو بكر يعتذر إلى مما جرى ويخاطبنى باللين ويقول فبعدكم يوم يخرج سيدنا حتى نقنع بوعده وننصرف فقلت بعد عشرة أيام فقال : قد رضينا وأخذ بيد البرجمان والبرجمان يتبزق على فى الكلام وأبو بكر يغمزه ويترفق به فلما بلغا إلى قريب من الدهليز رجع أبو بكر ورد البرجمان معه وقال هذا ليس يعرفك حق معرفتك وعنده أنه يقدر أن يستوفى عليك الحجة فبالله إلا عرفته ما كان فى نفسك أن تعمل بنا لو استوفينا عليك المطالبة لئلا أقع أنا فى مكروه معه ومع الأمير أطال الله بقاه فقلت فى نفسى أنا أريد الهرب الساعة فما معنى مساترتى عنهما ما أريد أن أفعله ولم لا أظهره ليكون أهيب فى نفوسهما فقلت للغلام الذى كان واقفا امض إلى أصحابنا ومرهم أن يخرجوا ولا يعملوا ما كنت تقدمت به إليهم فمضى الغلام وفتح الباب عنهم وقال اخرجوا ولا تحدثوا حادثة فخرج القوم بالسلاح فقلت هؤلاء أعددتهم لدفعكما عن نفسى ان رمتما قسرى قال فمات البرجمان فى جلده واصفر وتحير وقال له أبو بكر أنت تظن أنك بالجبل ولست تعلم بين يدى من أنت؟! علمت الآن أن الرأى كان فى يدى لا فى يدك والله لو زدت فى المعنى لخرج هؤلاء فأخذوا رأسك ورأسى قلت معاذ الله ولكن كانوا يمنعونكما من أذاى ثم قلت للغلمان كونوا معهما إلى أن يخرجا وتغلقوا الأبواب خلفهما ففعلوا وقمت فى الحال فلبست خفا وإزارا على صورة النساء واستصحبت جماعة من عجائز دارى وخرجت من باب من تلك الأبواب الخفية متحيرا لا أدرى أين أقصد فقصدت عدة مواضع كلما أتيت موضعا علمت أنه لا يحملنى فأتجاوزه إلى غيره إلى أن كدنى المشى وقربت من الرصافة فعن لى أن أقصد خالة المقتدر واطرح نفسى عليها فصرفت جميع من كان معى إلا واحدة وقصدت دار الخالة ودخلت دهليزها وقام إلى الخادم وقال من أقول فقالت العجوز تقول امرأة لا تحب أن تسمى نفسها فدخل فإذا الخالة قد خرجت إلى الدهليز فقالت لها : عجوز ياستى تأمرين الخادم بالانصرام فلما انصرف كشفت وجهى وقلت يا ستى الله الله فى دمى اشترينى فقالت يا أبا جعفر ما الخبر قلت أدخلينى أحدثك قالت كن بمكانك

ثم دخلت فأبطأت حتى قلت قد كرهت دخولى وستخرج من يصرفنى وتعتذر وهممت بالانصراف من نفسى فاذابها قد خرجت وقالت ارعبتك بالانتظار وما كان ذلك إلا احتياطا لك فادخل فدخلت فاذا دارها الأولى فارغة على عظمها وليس فيها أحد فسلكت بى وبالعجوز إلى موضع من الدار فدخلنا حجرة وأقفلتها بيدى ومشيت بين أيدينا حتى انتهينا إلى سرداب فأدخلتنا فيه ومشينا طويلا وهى بين أيدينا حتى صعدت منـــه إلى درجة افضت بى منها إلى دار فى نهاية الحسن والشرف وفيها من الآلات والفرش كل شىء حسن وقالت إنما احتسبت عليك حتى أصلحت لك هـذه الدار وأخليت الأولى لئلا يراك الذين كانوا فيها فيعرفون خبرك فاخبرك فاجلس ها هنا ما شئت فوالله إنك لتسرنى بذلك واحفظ نفسك من أن ينتشر خبرك من جهتك فليس معك من جهتى من يعرف خبرك فيشفيه ولا أعرفه أحد من أسبابى واحتفظ لنفسك ممن يخرج من عندك أويدخل عليك فتهلك نفسك وتهلكنى معك فانك تعلم ان هذا الرجل ظالم جاهل لا يعرف حق مثلى فقلت لها مامعى غيرهذه العجوزولست أدعها تخرج فقالت هذا هو الصواب وأقمت عندها مدة وكانت تجيئنى كل يوم فتعرفنى أخبار الدنيا وتحادثنى ساعة وتنصرف وتحمل إلى كل شىء فاخرمن المأكول والمشروب والبخوروأخدم بما لا أخدم بمثله فى أيام دولتى فلما كان فى غد يوم حصولى عندها قالت ياأبا جعفر أنت وحدك وليس يصلح أن يخدمك كل واحد وقد حملت إليك هذه الجارية وأومأت إلى وصيفة فى غاية الحسن والملاحة فاستخدمها فانها تقوم مقام فراشة وقد أهديتها لك فإن احتجت إلى ما تحتاج إليـه الرجال صلحت لذلك أيضاً فقبلتها وشكرتها وماتشت الجارية فاذا هى تغنى أحسن غناء وأطيبه فكان عيشى معها أطيب عيش ومضى على استتارى نحو شهرين لايخرج من عندى أحد ولا يدخل عندى غير الخالة فقلت لها قـد تطلعت نفسى إلى معرفة الأخبار وإنفاذ هذه العجوز إلى من تتعرف ذلك منه قالت افعل واحتفظ جهدك فكتبت مع العجوز كتاباً إلى وكيل كان لى أثق به آمره أن يتعرف لى الأخبار ويكتب بها إلى مع العجوز ورسمت له أن ينفذ طيورا

مع غلام أسميته له وكنت به واثقاً ويأمر بالقيام بواسط والمكاتبة على الطيور
فى كل يوم بالأخبار ورسمت للعجوز أن لا تعرف الوكيل موضعى لئلا
ينشوا شيء من الأمر ويقع الوكيل فيطالب بى فيدل عليّ فعاد إلى الجواب
بما عنده من الأخبار وانه لا ينقضى يوم إلا وينفذ الغلام والطيور وأمهلته
عشرة أيام ثم رددت العجوز فانفذ على يدها كتاباً ورد على الطيور فقرأته
ومضت على ذلك مدة وأنا على الغاية من النشاط والسرور فقلت للعجوز
يوما امض الى فلان فاعرفى خبره وهل ورد كتاب من واسط فمضت
وللاتفاق سقط طائر عند دخولها بكتاب ففضه وسلمه إليها دون أن يقف
عليه فجاءتنى به فإذا هو بتاريخ يومه وأكثره رطب يذكر فيه غلامى ورود
الاخبار الى واسط بقتل الاكراد لبحكم وان الناس قد هاجوا فما نالت
رجلاى الارض فرحاً وسرورا وكتبت فى الحال رقعة الى كاتبه الكوفى
اشكره فيها على جميله واعرفه انى ما طويت خبرى عنه الى الآن الا اشفاقا
عليه من أن يسأل عنى فيكون متى حلف أنه لا يعرف خبرى صادقاً وان
من حق ما عاملنى به أن أعرفه ما يجب أن يتحرز عنه وذكرت ماورد من
قتل سيده وأشير عليه بالاستتار مع الاستظهار وأنفذت الرقعة فى طى رقعة
كتبتها لوكيلى وأمرته أن يمضى بها اليه فى الحال ولا يسلمها الا بيده وقلت
للعجوز : اذا مضى الوكيل فارجعى أنت ولا تقعدى فى داره ففعلت وعادت
فعرفتنى أن الوكيل قد توجه الى الكوفى ، فلما كان بين العشائين رددت
العجوز الى الوكيل وقلت لها : اطرقى بابه فإن كان فى بيته على حال سلامة
فادخلى ، وان بان لك أنه معتقل أو داره موكل بها فانصرفى ولا تدخلى فعادت
الى برقعة الوكيل وفيها أنه حين أوصل الرقعة الى الكوفى بان له فى وجهه
الاضطراب وأنه ماصلى العصر من ذلك اليوم حتى امتلأ فى البلد بأن الكوفى
قد استتر وأن بحكم حدث به حادثة لا ندرى ماهى ، وقد عدت بعد العصر الى
دار الكوفى فوجدتها مغلقة ليس فيها أحد وأنه قد أنفذ جوابه اليك فقرأته
فإذا هو يشكرنى ويقول قد علمت أن مثلك ياسيدى لم يكن ليفتعل هذا الخبر
ولا يضيع مروءته وقد تشاغل الذين مع الأمير بالهرب على أن يكتبوا

لى بالحادثة ، وكتب به من رتبته أنت كما ذكرت فى رقعتك فإن كان الخبر صحيحا وهو عندى صحيح فالرأى معى فى الاختفاء وإن كان باطلا فما يضرنى ذلك عند صاحبى إن كان حيا لأنه يتصورنى جبانا لاغير فيكون اسلم فى العاجل. وقد أنفذت إليك ياسيدى طى رقعتى هذه الكتابين اللذين كتبتهما عليك فى ضيعتك بالابتياع والإجارة ابتغاء إتمام مودتك ولتعلم صدقى فيما كنت توسطته، ونصحى فيما عاملتك به فإن كان مات الرجل قد رجعت إليك ضيعتك، وإن كان باطلا فإنه لايسألنى عنهما وإن ذكرهما يوما وسألنى اجحدانى تسلمتهما وقضيت حقك بذلك وأتممت نعمتك عليك فأخذت الكتابين ومزقتهما فى الحال ولبست من عند الخالة خفا وإزارا بعد أن عرفتها الصورة وخرجت مع العجوز وجئت إلى دارى فدخلتها من بعض أبوابها الخفية . فلما كان الغد قوى الخبر بقتل محكم ففتحت بابى وفرج الله عنى المحنة فلما كان العشاء أتانى رسول الخالة ومعه الجارية وقال ياسيدى سيدتى تقرئك السلام وتقول لك لم تدع جاريتك عندنا وإذا بها قد أرسلتها وحملت معها كلما كانت أخدمتليه من فرش وآلة وأضافت عليه أشياء كثيرة جليلة القدر وقالت إنه جهاز الجارية وأحب أن تقبله فأخذت الجميع ورددت الرسول شاكرا ومن الله على بالعود إلى أحسن حال .

☆ ☆ ☆

قال محمد بن عبدوس فى «كتاب الوزراء» عن سليمان البرقى قال : انصرفت عن بعض العمال فألفيت عمر بن الفرج الرجحى يتقلد الديوان وكان فى نفسه شىء على فاختفيت شخصى وتسترت عن أصحابى فطلبنى واركن العيون على فلم يصل إلى رأى أن يعمل لى مؤامرة تشتمل على ثلاثمائة ألف درهم وكان بينى وبين الحجاج بن سلمة مودة فأتانى عشية من عشايا استتارى رقعته يامرنى بالمصير إليه فقدمت عليه فلما رآنى قال صر إلى عمر بن الرجحى فسلم عليه وعرفه أ _ قد بعثت بك إليه قال فقلت : ياسيدى أنظر فيما تقوله فإنه يهدر دمى كيف أمضى إليه هكذا قال اعلم أنه قال لى اليوم أن فلسطين قد

انغلقت عليه وفسدت وقصر مالها مع جلالة ارتفاعها وقد أكلها العمال وانه فى طلب من يكفيه أمرها ويحفظ مالها وليس يعرف من يرضى كفاءته. فقلت: لو أردت الكفاءة وجدتهم .هذا سليمان بن سهل وهو من الأكفاء ولا يشك فيه فلم عطلته وأخفته فقال : وكيف لى به ؟ فقلت : تؤمنه وتزيل ماعليه من المطالبة وتقلده فلسطين فإنه يكفيك أمرها ويوفر عليك مالها ويحمله إليك وأنا أبعث به إليك فقال : ابعث به فهو آمن ، فصر إليه فإنه لا يتعرض لك إلا بما تحب.قال فبكرت اليه فإذا هو فى ديوانه فلما دخلت صحن الدار رأيت العمال على أكتافهم الحجارة والمقارع تأخذهم فهالنى ما رأيت فلما وصلت اليه سلمت عليه وقلت: انى كنت خادم أبى الفضل أعنى أباه فرجا الرجحى واحد صنائعه فقال لولا ما أتيت به من هذه الحرمة لكنت أحد هؤلاء الذين تراهم ، ثم رفع مصلاه وأخرج الكتب بولاية فلسطين وأمرنى بكتمان أمرى واعداد السير فأخذت الكتب وأشخصت الى هناك فأرضيته وقضيت حق نفسى .

* * *

عن الحكم بن عتبة أن حارثة بن بدر الغدانى كان يسعى فى الأرض فسادا فهدر أمير المؤمنين على رضى الله عنه دمه فهرب واستجار بأشراف الناس فلم يجره أحد.فقيل له عليك بسعيد بن قيس الهمدانى فلعله أن يجيرك فطلب سعيدا فلم يجده فجلس فى طلبه حتى جاء فأخذ بلجام دابته وقال : أجرنى أجارك الله .فقال له مالك قال : هدر أمير المؤمنين دمى قال وفيم قال : سعيت فى الأرض فسادا قال : ومن أنت ؟ قال : أنا حارثة بن بدر الغدانى قال : أقم وانصرف الى على رضى الله عنه فوجده قائما على المنبر يخطب فقال : ياأمير المؤمنين ، ماجزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ؟ قال : ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض قال : ياأمير المؤمنين ، الا من تاب ؟ قال : الا من تاب ، قال : فهذا حارثة بن بدر قد جاء تائبا وقد أجرته . قال أنت رجل من المسلمين وقد أجرناه .ثم قال رضى الله عنه وهو على المنبر : أيها الناس

إنى كنت أهدرت دم حارثة بن بدر فمن لقيه فلا يتعرض له ،فانصرف إليه سعيد وأعلمه وكساه وحمله وأجازه فقال فيه شعرا :

الله يجزى سعيد الخــــير نافلة　　أعنى سعيد بن قيس قوم همدانى
أنقذنى من شـــفا غبراء مظلمة　　لولا شفاعته ألبست أكفانى
قالت تميم بن مر لانخاطبه　　وقد أبت ذلكم قيس بن غيلانى
أساغ فى الحلق ريقا كنت أحرضه　　وأظهر الله سترى بعد كتمانى
انى تداركنى عمن شمائله　　آباؤه حين ينمى خير قحطانى

* * *

عن عطاء بن العاصم بن الحدثان قال : كان أبو النمير الثقفى شبب بزينب بنت يوسف بن الحكم وكان الحجاج أخوها يتهدده ويقول لولا أن يقول قائل لقطعت لسانه فهرب إلى اليمن ثم ركب بحر عدن فقال فى هربه شعرا :

أتتنى فى الحجاج والبحر بيننا　　عقارب تسرى والعيون هواجع
فضقت بها ذرعا وأجهشت خيفة　　ولم آمن الحجاج والأمر ناصع
وحل بى الخطب الذى جاءنى به　　سميع فليست تستقر الأضالع
فبت دبير الأمر والرأى ليـــلتى
وقد أخلقت خـــدى الدموع الهواطع
وما أمنت نفسى الذى خفت شره　　ولا طاب لى مما خشيت المضاجع
ففى الأرض ذات العرض عنك ابن يوسف
إذا شئت منأى لا أبالك واســـع
فإن نلتقى حجاج فاشتف جاهدا　　فإن الذى لايحفظ الله ضائع

فطلبه الحجاج فلم يقدر عليه فطال على النميرى الهروب واشتاق إلى وطنه فجاء حتى وقف على رأس الحجاج. فقال إيه يانميرى أنت القائل (فإن نلتقى حجاج فاشتف جاهدا) فقال بل أنا الذى أقول .

أخاف من الحجاج مالست خائفا　　من الأسد العرم باضلم ينهه ذعر
أخاف يديه أن تنال مماصى　　بأبيض غضب ليس من دونه ستر

وأنا الذى أقول :

فهنا أنا ذا طوفت شرقاً ومغرباً   وأنت وقد دوخت كل مكانى
فلو كانت العنقاء منك تطيرنى   لخلتك إلا أن يصد ترانى

* * *

عن مروان أبى حفصة قال: كان المنصور قد طلب معن بن زائدة الشيبانى طلبا شديدا وجعل لمن يأت به مالا فحدثنى معن باليمن أنه اضطر لشدة الطلب إلى أن نام فى الشمس حتى لوحت وجهه وخفف عارضيه ولبس جبة صوف غليظة وركب جملا من الجمال الثقالة وخرج عليه ليمضى إلى البادية: وكان قد أبلى فى حرب يزيد بن عمرو بن هبيرة بلاء حسنا فخاف فاغتاظ المنصور وجد فى طلبه قال معن فلما خرجت من باب حرب تبعنى عبد أسود متقلدا سيفا حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على فقلت: مالك؟ قال: طلبة أمير المؤمنين قلت: ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين؟ قال: أنت معن بن زائدة فقلت: ياهذا اتق الله وأين أنا من معن؟ قال: دع هذا عنك فأنا والله أعرف بك منك فقلت: فإن كانت القصة كما تقول فهذا جوهر حملته معى بأضعاف مابذله المنصور لمن جاء بى فخذه ولا تسفك دمى فقال: هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فى قيمته ولست قابله حتى أسألك عن شىء فإن صدقتنى أطلقتك. فقلت قل: فقال إن الناس يصفوك بالجود فأخبرنى هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا. قال: فنصفه قلت: لا. قال: فثلثه حتى بلغ إلى عشره فاستحييت وقلت أظن أنى فعلت هذا فقال: ما أراك فعلته وأنا والله راجل ورزقى من أبى جعفر عشرون درهما، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك وجودك المأثور بين الناس لتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك، ولتحتقر بعد هذا كل شىء فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى بالجوهر فى حجرى وخلى خطام البعير وانصرف فقلت خذ ماوهبته إليك فإنى عنه غنى. فضحك وقال أردت ان تكذبنى فى مقالى هذا والله لا آخذه ولا آخذ للمعروف ثمناً أبدا ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءنى به ماشاء فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته قال وكان سبب

رضاء المنصور عن معن انه لم يزل مستتراً حتى يوم الهاشمية فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه وثب معن وهو متلثم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسناً وذب القوم عنه ثم ، جاء والمنصور راكب على بغلة لجامها بيد الربيع فقال له تنح فإنى أحق بلجامها فى هذا الوقت ، فقال المنصور : صدق فادفعه إليه فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال فقال له المنصور من أنت لله أبوك ؟ قال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة قال : قد أمنك الله على نفسك ، ومالك ومثلك يصطنع . ثم أخذه معه وخلع عليه وحباه وقربه ثم دعا به يوما فقال إنى أهلتك لأمر كيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين . فولاه البصرة وتوجه إليها فبسط فيهم العطاء حتى أسرف قال : مروان وقدم معن عقيب ذلك فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل قد بلغنى عنك شيء لولا مكانك عندى ورأيى فيك لغضبت عليك قال وما رابك يا أمير المؤمنين فوالله ماتعرضت لسخط قال : أعطاك لمروان بن بن أبى حفصة فى قوله فيك :

معن بن زائدة الذى زادت به … شرفا على شرف بنو شيبان
ان عد أيام الفعال فإنما … يوماه يوم ندى ويوم طعان

قال والله ياأمير المؤمنين : ما أعطيته مابلغك لهذا الشعر ولكن أعطيته ما أعطيته لقوله .

مازلت يوم الهاشمية معلنا … بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه … من وقع كل مهند وسنان

قال فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيته لمثل هذا القول: قال نعم ياأمير المؤمنين ولولا مخافة الشنعة لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته إياها . فقال المنصور لله درك من إعرابى ما أهون عليه مايعز على الناس وأهل الحزم .

* * *

عن قطن بن معاوية الكلابى قال كنت ممن سارع إلى إبراهيم بن عبدالله واجتهد معه فلما قتل طلبنى أبو جعفر فاستخفيت منه فطلب أموالى وذريتى

ولحقت بالبادية وجاورت فى بنى نضر بن معاوية ثم فى بنى كلاب ثم بنى فزارة ثم فى بنى سليم ثم تنقلت فى بوادى قيس أجاور فيهم حتى ضقت ذرعاً بالاستخفا فازمعت القدوم على أبى جعفر والاعتراف ، له وقدمت البصرة ونزلت بها ثم أرسلت إلى عمرو بن أبى العلاء وكان لى ودا فشاورته فى الأمر الذى أزمعته فلم يقبل رأيى وقال والله ليقتلنك فلم ألتفت إليه وشخصت إلى بغداد فنزلت خاناً وليس بالمدينة أحد يركب خلا المهدى ، ثم قلت للغلمان أنا ذاهب إلى أمير المؤمنين فامهلوا ثلاثا فإن جئتكم فيها وإلا فانصرفوا ودخلت المدينة وجئت إلى دار الربيع والناس ينتظرونه فلم ألبث أن خرج وهو يمشى وقام الناس إليه وقمت معهم فسلمت عليه فرد علىّ السلام وقال : من أنت ؟ قلت قطن بن معاوية قال : انظر ماتقول قلت : أنا هو . قال : فاقبل على من معه وقال : احتفظوا بهذا فلما حرست لحقنى الندم وذكرت رأى أبى عمرو فتأسفت ودخل الربيع فلم يطل حتى خرج خصى فأخذ بيدى وأدخلنى قصر الذهب ثم أتى بيتا حصينا فادخلنيه وأغلق على وانطلق فاشتدت ندامتى وأيقنت بالبلاء وخلوت بنفسى ألومها فلما كان الظهر أتانى الخصى بماء فتوضأت وصليت وأتانى بطعام فأخبرته أنى صائم ، فلما كان المغرب أتانى بماء فتوضأت وصليت وأرخى على الليل سدوله فأنسيت الحياة وسمعت أبواب المدينة تغلق فامتنع عنى النوم فلما ذهب صدر من الليل أتانى الخصى ففتح عنى ومضى بى فأدخلنى صحن دار ثم أتانى من وراء ستور مسدولة وأخذنى وأدخلنى محلا فإذا أبو جعفر وحده والربيع قائم على حاله ناحية فأكب أبو جعفر هنيهة مطرقا ثم رفع رأسه فقال : هيه فقلت : ياأمير المؤمنين أنا قطن بن معاوية فقال : والله جهدت عليك جهدى حتى من الله على بك . فقلت ياأمير المؤمنين لقد عصيت أمرك وواليت عدوك وخرجت على أن أسلبك ملكك ، وإن عفوت فأنت أهل لذلك وإن عاقبت فبأصغر ذنوبى تقتلنى قال : فسكت هنيهة ثم قال : هيه فأعدت مقالتى فسكت ثم قال : إن أمير المؤمنين قد عفا عنك فقلت : ياأمير المؤمنين إنى أمر من ورائك فلا أصل بعدها إليك ، وضياعى ودورى مقبوضة فإن رأى أمير المؤمنين أن يردها على قال :

فدعى بخادم معه الدواة ثم أمره وهو يكتب بإملائه إلى عبد الملك بن ثور النميرى وهو يومئذ على البصرة أن أمير المؤمنين قد رضى عن قطن بن معاوية فاردد عليه ضياعه ودوره وجميع ماقبض له فاعلم ذلك وأنفذه إن شاء الله تعالى. ثم ختم الكتاب ودفعه إلىّ فخرجت من ساعتى لا أدرى أين أذهب فإذا الحرس بالباب فجلست مع أحدهم أحدثه فلم ألبث أن خرج الربيع وقال: أين الرجل الذى خرج الساعة؟ فقمت إليه فقال: انطلق أيها الرجل فقد والله سلمت. ثم صحبنى إلى منزله فعشانى وفرش لى فلما أصبحنا ودعته وأتيت غلمانى وأرسلتهم يكترون لى سميرة فوجدوا صديقا لى من الدهاقين من أهل ميسان وقد أكترى سميرة لنفسه فحملنى معه فقدمت على عبد الأعلى بن أيوب بكتاب أبى جعفر فأقعدنى عنده حتى رد مااصطفى لى.

* * *

حدثنى عبد الله بن أحمد بن معروف بن أبى القاسم قال: كنت بمصر وكان بها رجل يعرف بالناظرى من أبناء حلب قد قبض سيف الدولة ضيعته وصادره فهرب منه إلى كافور الأخشيدى فأجرى عليه جراية سابغة فى كل شهر كما كان يجرى على جميع من يقصده من الجرايا التى تسمى الراتب وكان له مالا عظيما قدره فى السنة خمسون ألف دينار لأرباب النعم وأجناس الناس وليس فيها لأحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال شىء. قال: فجرى يوما ذكر الناظرى بحضرة كافور فقيل له إنه فاسق بغاء وكثرت عليه الحكايات فى ذلك فأمر بقطع جرايته فرفع إليه قصته يشكوا فيها انقطاع راتبه ويسأل التوقيع بإعادة صرفه، فأمر كافور فوقع على ظهرها قد صح عندنا أنك رجل تصرف مانجريه عليك فيما يكرهه الله من الفساد وما نرى ان نعينك على ذلك فالحق بمن شئت فلا خير لك عندنا بعدها قال: ولما قرأها الناظرى عمل محضرا فيه خطوط كثير بمن يعرف أنه مستور ولم يعهد فيه البغاء واحتج بالمحضر وجعله طى رقعة قال فيها إن الذى كان يدفع إليه لم يكن لأجل حفظه فرجه وهتكه وإنما كان لأنه منقطع غريب هارب مفارق لنعمته وأن الله عز وجل أقدر على قطع أرزاق من يرتكب المعاصى

وما فعل ذلك بأرزاقهم بل أمهلهم وأمرهم بالتوبة. فإن كان مانسب إليه صحيحا فهو تائب إلى الله عز وجل ويسأل رده إلى رسمه ورفع القصة إلى كافور قال صاحب الحديث: ولم أدر إلى أى شيء انتهى أمره إلا أنه صار مفضوحا بين الناس وتحدثوا بحديثه واتفق خروجى من مصر عقيب ذلك إلى حضرة سيف الدولة فلقيته بحلب وحدثته بأحاديث المصريين وكان يتشوق إلى سماعها صغرت أو كبرت ثم سقت له حديث الناظرى فضحك منه ضحكا شديدا وقال : هل هذا المشؤم بلغ إلى مصر؟ فقال لى محمد بن أسمر النديم: اعلم أن هذا الرجل كان صديقى جدا وقد هلك وافتقر وفارق نعمته فأحب أن تخاطب الأمير فى أمره عقيب ماجرى آنفا لا عاونك فلعل الله عز وجل أن يفرج عنه. فقلت افعل ولما أخذ سيف الدولة يسألنى عن الأمر فأعدت شرحه عليه وعاد فضحك فقلت: أطال الله بقاء مولانا الأمير سررت بهذا الحديث ويجب أن يكون له ثمرة إما لى وإما للرجل الذى قد صيرته فضيحة بحلب زيادة على فضيحته بمصر. قال اما لك فنعم. واما له فلا يستحق فإنه فعل وصنع وأخذ يطلق القول فيه فقلت اما لى فلست اريده لأن فوائدى من مولانا متصلة ولست أحتاج مع أنعامه على وترادف إحسانه إلى السبب إلى الفوائد ولكن أرى أن تجعلها لهذا المفتضح المشؤم. فقال تنفذ إليه سفتجة بثلاثة آلاف درهم فشكرته الجماعة وخاطبته فى أن يأذن له فى العود إلى حضرته ويؤمنه ويكتب له امانا مؤكدا قال فغمزنى الأسمر فى الاستزادة فقلت أطال الله بقاء مولانا الأمير أن الثلاثة آلاف درهم لو أنفذت إلى مصر ما كفته فيمن يحمله معه على نفقته لأن أكثر أهل مصر بغاؤون وضايقوه فى الناكة وغلبوه باليسار لأنه لا يصل هو إلى شيء إلا بالغرم الثقيل وبلغنى وأنا بمصر: أن رجلا من البغائين اشتد به حاله فطلب من يأتيه فلم يقدر فخرج إلى الموضع الفلانى قرية قريبة من مصر فأقام بها فكان إذا اجتاز بها المجتازون استدعى منهم من يصلح لهذا الحال فحمله على نفسه وكان يعيش بالمجتاز ويتمكن من إرضائه بما لا يتمكن منه بمصر فعاش بذلك برهة حتى جاءه يوما بغاء آخر وسكن معه فكان إذا جاء الغلام الذى يصلح لهذا الحال سأل عنه وفسد على الأول أمره

فجاء الثانى وقال له ياهذا : أفسدت على أمرى وأبطلت عملى وأنا هربت من مصر لأجل المنافسة فليس لك أن تقيم معى ههنا فقال له الثانى: سواء العاكف فيه والباد ولا أبرح . ههنا فقال الأول بينى وبينك شيخنا ابن العجمى الكاتب رئيس البغائين بمصر وجذبه معه إلى مصر واحتكما إليه فحكم بن العجمى للأول ومنع الثانى من المقام فى الناحية فكيف يمكن للناظرى أيد الله مولانا أن يكتفى بثلاثة آلاف درهم وقد أمرت له بها فى بلد هذا قدر الناكة فيه وكثرة البغائين لو كان مقيما فكيف وقد أنعمت عليه بالأذن فى المسير ويحتاج إلى بغال يركبها فى الطريق بأجرة ونفقة وديون عليه يقضيها. فضحك ضحكا شديدا من حكاية البغائين وحكم ابن العجمى بينهما وقال اجعلوها خمسة آلاف درهم فقلت له : أنا والأمير فترد إلى الرجل أطال الله بقاء مولانا ضيعته . فقال: لقد أطلتم على فى أمر هذا الصانع الفاعل فأطلقوا له عن ضيعته بأسرها ووقعوا بذلك إلى الديوان وعن مستغله وأخلوا له عن داره وان تفرش له أحسن من الفرش الذى ذهب له لما سخط عليه. قال فاكبت الجماعة تقبل يديه ورجليه وقلت : أطال الله بقاء مولانا الأمير ما سمع بهذا الكرم قط مع سوء رأيك فى الرجل وسوء حديثه ، فما على الأرض بغاء أبرك على صاحبه من هذا قال : فضحك ونفذت الكتب والتوقيعات بما رسمه فلما كان بعد مدة وأنا بحلب عاد الرجل إلى بلده ونعمته .

* * *

عن أبى عمرو بن العلاء قال خرجت هاربا من الحجاج إلى مكة فبينما أنا أطوف بالبيت إذا أعرابى ينشد .

ربما تجزع النفوس من الأمـ ر لها فرجة كحل العقال

فقلت : مه . قال : مات الحجاج . قال : فلا أدرى بأى القولين كنت أفرح بقوله فرجة بفتح الفاء أو بموت الحجاج ووجدت هذا الخبر فى بعض الكتب وفيه أن أبا عمرو سمع الاعرابى ينشد .

يا قليل العزاء فى الأهوال وكثير الهموم والأوجال
صبر النفس عند كل مهم إن فى الصبر حيلة المحتال

ربما تجزع النفوس من الأمـ ـر لهـا فرجة كحل العقال

قيل والفرجة من الفرج والفرجة فرجة الحائط .

* * *

وعن أبي عمرو قال : كنت مستخفيا من الحجاج وذلك أن عمى كان عاملا له فهرب فهم بأخذى به . فبينما أنا على حالى إذ سمعت منشد ينشد :

« ربمـا تكره النفوس من الأمر »

البيت ، وذكر الحديث ، وزاد فيه أن أبا عمرو يقرأ الا من اغترف غرفة بيده وفرجة بالفتح شاهدله في هذه القراءة ، وذكر أبو الحسين المداينى في كتابه أن القمير الثغلبي قال في الوليد بن عبد الملك :

أتقنى ياوليد بلاء قومى بمسكن والزبيريون صيـد

أتنسانا إذا استغنيت عنا وتذكرنا إذا صل الحديد

فطلبه الوليد فهرب منه حيناً . فلما ضاقت به البـلاد واشتد به الخوف انصرف إلى دمشق حتى حضر عشاء الوليد فدخل مع الناس فلمـا أكلت الجماعات بعض الأكل عرف رجل الثعلبي فأخبر الوليد به فـدعا به وقال له : ياعدو الله الذى أمكننى منك بلا عقد ولا ذمة أنشدنى ماقلت فبكى ثم أنشـده فقال : ما ظنك بى ؟ قال : قلت ان أمهلت حتى اطأ بساطه وآكل طعامه فقد أمنت : وإن عوجلت قبل ذلك فقد هلـكت ، وقد أمهلت حتى وطأت بساطك يا أمير المؤمنين ، وأكلت طعامك فقد أمنت إذاً . فقال له الوليـد : قد أمنت فانصرف راشـداً ، فلما ولى تمثل الوليـــد بقول من قال :

شمس العـداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

* * *

عن الفضل بن العباس من ولد نافع مولى العباس بن عبـد المطلب عن أبيه قال : ما أتيت زينب بنت سليمان بن على الهاشمى فانصرفت من عندها إلا ببر.وان قل ، وكان لها وصيفة يقال لها كتات فعلقتها وقلت لأبى : ياأبى أنا والله مشغول القلب بكتات جارية زينب.فقال يابني اطلبها من عندها فانها

لا تمنعها عنك . فقلت : كنت أحب أن تكون حاضراً لتعينني عليها . فقال : ليس لك إليّ ولا إلى غيري احتياج . فغدوت اليها . فلما انقضى السلام قلت لها : جعلني الله فداك إني فكرت في حاجة سألت أبي أن يحضر كلامي إياك فيها لأستعين به فأسكتني . فقالت : يابني ان حاجة لا تقضى حتى يحضر أبوك لحاجة عظيمة القدر فما هي ؟ قلت : كتات وصيفتك أحب أن تهبها لي . فقالت : أنت صبي أحمق اقعد أحدثك حديثا أحسن من كل كتات على ظهر الأرض وأنت من كتات على وعد فقلت : هاتي جعلني الله فداك قالت : كنت أول أمس عند الخيزران ومجلسي ومجلسها إذا اجتمعنا في صدر المكان وفوقنا سبتية لأمير المؤمنين المهدي ، وهو كثير الدخول اليها فاذا جلس في ذلك الموضع رفع عنه وإذا انصرف طرحت عليه السبتية إلى وقت حضوره فأنا لجلوس إذ دخلت علينا حاجبة وقالت ياستي بالباب امرأة مارأيت أحسن منها ولا أسوأ حالا عليها قميص ما تستتر ببعضه موضعاً من بدنها إلا انكشف موضع آخر تستأذن عليك فالتفتت إلى وقالت : ماترين ؟ فقلت : تسألين عن حالها واسمها ثم تأذنين لها على علم فقالت : الجارية قد والله جهدت بها كل الجهد ان تفعل فما فعلت وأرادت الانصراف ، فمنعتها فقلت للخيزران وما عليك أن تأذني لها فإنك منها بين مكرمة أو ثواب فأذنت لها فدخلت امرأة أكثر مما وصفت الجارية في الجمال وسوء الحال فجعلت تمشي وهي مستحدثة حتى صارت إلى عمارة الباب فجعلت مايليني وكنت متكئة فقالت : السلام عليكم . فرددنا عليها السلام ثم قالت للخيزران أنا مزنة امرأة مروان بن محمد . فلما وقع كلامها في سمعي قلت لا حياك الله ولا قربك الحمد لله الذي أزال نعمتك وعزك وصيرك نكالا وعبرة أتذكرين ياعدوة الله حين أتاك أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في انزال ابراهيم بن محمد من خشبته فتلقيتهن ذلك اللقاء وأخرجتهن ذلك الإخراج الحمد لله الذي أزال نعمتك قالت زينب فضحكت المرأة والله يابني حتى كادت تمهقه وبدأ لها ثغر مارأيت أحسن منه ثم قالت : أي شيء بنت عم ؟ أي شيء أعجبك من صنع الله عز وجل بي على العقوق حتى أردت أن تتأسي بي السلام عليكم ثم ولت خارجة وهي

تمشي بخلاف الأول فقلت للخيزران انها خبيئة من الله عز وجل وهدية منه الينا ووالله ياخيزران لايكون اخراجها مما هي فيه إلا بي ثم نهضت على أثرها حتى وافيتها عند الستر ولحقتني الخيزران فتعلقت بها وقلت : يا اخية المعذرة إلى الله عز وجل واليك فإني ذكرت بوجودك مانالنا من المصيبة بصاحبنا فكان مني ما وددت انى منعت منه وقطعت عنه ، ولم أملك نفسي وأردت معانقتها فوضعت يدها في صدري وقالت : لاتفعلي يا اخية فإني على حال أصونك من الدنو منها فرددتها وقلت للجوارى ادخلن معها الحمام ، وقلت للمواشط اذهبن معها حتى تصلحن حفافها وما تحتاج إلى اصلاحه من وجهها فمضت ومضين معها ودعونا بكرسيين فجلست أنا والخيزران عليهما ننتظر خروجها في صحن الدار فخرجت احدى المواشط وهي تضحك فقلت لها : ما يضحكك ؟ قالت ياستى انا لنرى من هذه الغريبة عجباً . فقلت : وما هو ؟ قالت : نحن معها في انتهار وزجر وخصومة ما تفعلين أنت ولاستنا مثله إذا خدمنا كما قالت فقلت للخيزران : حتى تعلمى والله يا أختى أنها حرة رئيسة والحر لايحتشم من الأحرار ثم خرجت الينا جارية ثانية فأعلمتنا أنها قد خرجت من الحمام فوجهت اليها الخيزران بصنوف الخلع فتخيرت منه مالبسته وبعثنا اليها بطيب كثير فتطيبت ثم خرجت الينا فقمنا جميعاً فعانقناها فقالت اما الآن فنعم ثم جئنا إلى الموضع الذى كنا جلوساً فيه وأمرنا بكشف السبتية عن الموضع الذى كان يجلس فيه أمير المؤمنين وأقعدناها فيه ثم قالت : الخيزران غداؤنا قد تأخر فهل لك في الطعام فقالت والله مافيكن أحوج اليه منى . فدعونا بالطعام فجعلت تأكل وتضع بين أيدينا كأنها فى منزلها فلما فرغنا . قالت لها الخيزران : من لك ممن تعتنين به ؟ قالت مالى وراء هذا الحائط أحد من خلق الله تعالى . فقالت لها الخيزران فهل لك فى المقام عندنا على أن نخلى لك مقصورة ونحول اليها جميع ماتحتاجينه ، ويستمتع بعضنا ببعض فقالت : وردت وأنا على أقل حال وإذ قد تفضل الله عز وجل على بكما وبهذه النعمة فلا أقل من الشكر للمبتدى بكل نعمة ولكما فافعلى ماأحببت وبدالك فقامت الخيزران وقمت معها وأقمناها معنا وجعلنا نطوف فى المقاصير فاختارت والله

أوسعها وأحسنها فملأتها الخيزران بالجوارى والوصائف والخدم والفرش والكسوة والآلات ثم قالت لها : ننصرف عنك و لميسك بمنزلك حتى تصلحينه فخلفناها فى المقصورة وانصرفنا إلى موضعنا فقالت لى الخيزران : إن هذه امرأة تعيسة قد عضها الفقر ، وليس يملأ عينها إلا المال ثم بعثت اليها بخمسة آلاف دينار ومائتى ألف درهم وأرسلت اليها يكون هذا فى خزانتك تحت تصرفك ، ووظيفتك ووظيفة حشمك قيام فى كل يوم مع وظيفتنا ثم لم نلبث ان دخل علينا المهدى فقلت : والله ياسيدى عندى خبر ظريف فقال ما هو ؟ فحدثته به فلما قلت له ما كان منى من الوثوب عليها واسماعها اقشعر واصفر ثم قال : يا زينب هذا مقدار شكرك لربك عز وجل وقد أمكنك من عدوك وأظفرك به على هذه الحالة التى تصفيها والله لولا مكانك منى لحلفت أن لا أكلمك أبدا أين المرأة قالت فوفيته خبرها فقال لخادم بين يديه ادفع اليها عشرة آلاف دينار ومائتى ألف درهم وأبلغها سلامى وقل لها لولا خوفى أن أحتشمها لصرت اليها مسلما ومخبراً إياها بسرورى بها وقل لها إنى أخوك وجميع ما نفذ فيه أمرى فأمرك أنفذ فيه ثم قالت زينب فإذا بها قد وردت علينا مع الخادم وعلى رأسها دواج ملحم حتى قعدت ولقيها المهدى أحسن لقاء وأقامت عنده ساعة محدثة ثم انصرفت إلى مقصورتها فهذا الحديث يابنى خير من كتات قال : فأمسكت . فقالت لى : قد اغتممت فقلت : ما اغتم أبقاك . الله قالت توافيك كتات فلما كان الليل وجهت بها إلى ومعها ما يساوى ثمنها من كل صنف من الرقيق والكسا والآلة ، وفى رواية أخرى أن الذى حملته الخيزران خمسمائة ألف درهم وأن المهدى حمل اليها ألف ألف درهم .

* * *

عن أبى عبدالله الحسين بن محمد النافطانى قال : كنا نتعلم ونحن أحداث فى ديوان إسحق بن إبراهيم الطاهرى ، وكنت ملازماً لمجلس فتى من الكتاب له خلق جميل يعرف بأبى غالب فزور جماعة من الكتاب تزويراً نال أخذوه ووقف إسحق على الخبر فطلبهم فظفر ببعضهم فقطع أيديهم وهرب الباقون

وكان فيمن هرب الفتى الذى كنت ألزم مجلسه فغاب سنين كثيرة حتى مات إسحق فبينما أنا ذات يوم فى بعض شوارع بغداد إذا أنا به فقلت أبو غالب؟ قال نعم فإذا تحته دابة فارهة وسرج محلى وعليه ثياب حسنة فقلت : عرفنى حالك ؟ قال : إلى المنزل وسرت معه فاحتبسنى ذلك اليوم عنده فرأيت فيه مروءة فسألته عن حاله فقال : لما طلبنا اسحق استترت فلما بلغنى ماعامل به من كان معى فى الخيانة ضاقت على بغداد فخرجت على وجهى خوفا من العقوبة حتى وافيت ديار مصر مستخفياً وطلبت التصرف فتعذر على وتفرق من كان معى ولم يصبر إلا غلام واحد ورقت حالى جدا حتى بعت مافى البيت عن آخره على قلة فأصبحت يوما فقال لى غلامى : أى شىء تعمل اليوم ؟ فما معنا حبة . فقلت : خذ مبطنتى فبعها واشتر لنا مانحتاج اليه فخرج الغلام وبقيت فى الدار وحدى أفكر فيما وقعت فيه من الغربة والشدة والوحدة والعطلة ، وتعذر المعيشة والتصرف ، ومن اقترض منه فكاد عقلى أن يزول فبينما أنا كذلك وقد استلقيت على قفاى إذا بجرذ قد خرج من كوة البيت وفى فيه دينار فوضعه ثم عاد فأخرج ديناراً آخر وما زال كذلك حتى أخرج ثمانين دينارا فصفها وجعل يتمرغ ويلعب وأنا أنظر اليه وأظهر التناوم وقد قويت نفسى ولست أتحرك لئلا يستوحش الجرذ ولا يحضر غيرها فما زال يلعب حتى أخذ واحدا ودخل الكوة فقمت وأخذت الدنانير وشددتها ، وجاء الغلام ومعه ماقد ابتاعه فتغذينا وقلت له : اشتر لنا فاسا . فقال : ماذا نصنع به فحدثته الحديث وأريته الدنانير وقلت : عزمت على أن أقلع الكوة فلعل فيها شىء آخر فمضى وجاء به فخربا الكوة فأفضى بنا الحفر إلى بركة فيها سبعة آلاف دينار فأخذناها وأصلحنا الموضع على ما كان وخرجت فأخذت بالمال سماتج بعد أن تركت بعضه وأنفذت الغلام بالسماتج إلى بغداد وانتظرته حتى ورد كتابه بصحة تلك السماتج وتحصيله المال فى بيتى وان اسحاق قد مات فانحدرت إلى بغداد وابتعت بالمال ضيعة فأثمرت ونمت فلزمتها وتركت التصرف .

* * *

الباب الثالث عشر

من نالته شدة فى هواه فكشفها الله تعالى وملكه من يهواه

عن عاصم بن عدى قال كان لعمرو بن دويرة السمحى أخ قد كلف بابنة عم له كلفاً شديداً وكان أبوه يكره ذلك ويأباه فشكاه إلى خالد بن عبد الله القشيرى وهو أمير العراق أنه يسىء جواره فحبسه أياما ثم تركه فلما زاد ما فى نفس الفتى وحمل عليه الحب تسور الجدار إلى ابنة عمه فلما حصل معها أحس به أبوها فقبض عليه وأتى خالداً وادعى عليه بالسرقة وأتاه بجماعة يشهدون أنهم وجدوه فى منزله ليلا وقد دخل دخول اللص فسأل خالد الفتى فاعترف أنه دخل ليسرق وما سرق شيئا ليدفع بذلك الفضيحة عن ابنة عمه فأراد خالد أن يقاصيه فدفع عمرو أخوه إلى خالد رقعة فيها هذا الشعر :

أخالد قد أوطيت والله عشوة ... وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بما لم يجنـــه المرء أنه ... رأى الموت خيرا من فضيحة عاشق
ولولا الذى قد خفت من قطع كفه ... لألفيت فى أمر لهم غير ناطق
إذا مدت الغايات فى السبق للعلى ... فأنت ابن عبد الله أول سابق

فأرسل خالد مولى له من الخبر ليتجسس على جلية الأمر وأتاه بتصحيح ماقاله عمرو فى شعره فأحضر بالجارية وأخذ بتزويجها من الفتى فامتنع أبوها وقال ليس هو بكفؤ لها قال بلى إنه لكفؤ لها إذا كف يده عنها وإن لم تزوجه لأزوجنه وأنت كاره فزوجه العم وساق خالد المهر إلى العم من ماله وكان يسمى العاشق إلى أن مات .

* * *

عن أبى العلا صاعد بن ثابت النصرانى الذى كان خليفة الوزراء عن أبى الحسين بن ميمون الأفطس الذى كان وزيرا للمتقى قال لما دخل أبو عبد الله اليزيدى بغداد متقلدا للوزارة المرة الثانية للمتقى قبض عليه وأحضره للبصرة فلما وردها اليزيدى من زما أحسن إليه وأطلقه وأمرنى بإنزاله بالقرب منى

وائتناسه بملازمتى وانقياده بالدعوات ففعلت فكنا متلازمين لانفترق ووجدته أحلى الناس حديثا وأحسنهم أدبا وأتمهم عقلا ولم أرقط أشد تغزلا ولا تهالكا فى العشق منه فحدثنى يوما قال عشقت مغنية فى القيان عشقا مبرحا شديد فراسلت مولاتها فى بيعها منى فطلبت فيها ثلاثة آلاف دينار وكنت أعرف من نفسى الملل فخشيت أن أشتريها ان املها فدافعت بذلك ومضت أيام فانصرفت من عندى يوما وقد كان المقتدر بالله أمر أن يشترى له مغنيات وأنا لاأعلم فكانت الجارية حسنة الوجه والغنا فحملت إلى المقتدر فى جملة جوار فأمر بشرائهن كلهن فاشتريت فى جملتهن وأنفذت من غد أستدعيها من مولاتها فأخبرت بالخبر فقامت على القيامة ودخل على قلبى من الأحزان أمر مادخل مثله على قط من نكبة فضلا عن عشق وزاد الأمر على حتى انتهى بى إلى حد الوسواس وامتنعت عن النظر فى أمر دارى وتشاغلت بالبكاء ولم يكن لى سبيل إلى العزاء وكنت أكتب حينئذ لام المتقى وله وكان حدثا فتأخرت عنهما أياما وأخللت بأمرهما وأنا متوفر تلك الأيام على الطوالى فى الصحارى ولا آكل ولا أشرب ولا أتشاغل بأكثر من الهيمان وأنكر المتقى وأمه أمرى لتأخرى فاستدعانى وخاطبنى فى شىء من أمرى فوجدنى لاأعى مايقوله فسألنى عن سبب اختلاطى فصدقته وبكيت بين يديه وسألته أن يسأل إياه بيع الجارية على أو هبتها . فقال: ما أجسر على هذا قال فزاد على الأمر وبطلت وبلغ أم المتقى الخبر وراسلتها بما سألت به ابنها فرقت لى وحملت نفسها ان خاطبت أم المقتدر فى أمرى فقالت لها السيدة ما العجب من الرجل فإن الذى فى قلبه من العشق أعماه عن وجه الرأى إنما العجب منك كيف وقع لك أنه يجوز أن تقول للخليفة أنزل عن جاريتك لرجل يعشقها فراسلتنى أم المتقى بما جرى فزاد مابى من القلق وكنت لاألقى أحدا من رؤساء البلد كالوزير ونصر القسورى وحاشية الخليفة إلا وأقصدهم وأبكى بين أيديهم وأحدثهم حديثى وأسألهم مسألة الخليفة تسليم الجارية إلى ببيع أو هبة فمنهم من ينكر على ومنهم من يوبخنى ومنهم من يرثى لى فيعذرنى ومنهم من يقول: إن عم الخليفة هذا منك وانك تتعرض لخدمه فإن فيه تلف

نفسك ومنهم من يطربنى وأنا ملازم لهم ولأبوابهم وقد تركت خدمة صاحبى وبطل أمر دارى وضيعتى وطال هذا على المتقى وأمه وأصاقا من أجل إخلالى بالنظر فى أمورهما فطلبا كاتبا يصرفانى به ، وبلغ الخبر إلى وقد كنت آيست من الجارية وعزلت نفسى وقلت ليس بعد الصرف إلا الفقر والنكبة وذهاب الخير ولو كنت اشتريتها لكنت الآن قد ملكتها فلم أفقر نفسى وأقطع تصرفى وأقبلت أعظ نفسى وأسليها ليلتها كلها إلى أن طاوعتنى على الصبر فبكرت إلى دار المتقى وبدأت بالنظر فى أموره ورأوا منى خلاف ما تقدم فسروا بذلك وقالوا : أنت أحب الناس إلينا من غيرك ومن الغريب الذى نستأنفه فضمنت لهما الملازمة وتمشية الأمور وأقمت على ذلك معهم مدة ثم اشتقت إلى الشرب وكنت قد هجرته منذ فقدت الجارية إلى ذلك اليوم فقلت للغلام امض فاصلح لنا مجلسنا للشرب وعد أصحابنا أعنى أصدقاء لى كانوا يعاشرونى للرواح إلى ولا تدع غناء فلما قضيت شغلى عدت إلى دارى واجتمع أصدقائى وصوبوا رأيى وجلسنا نشرب ونتحدث ونلعب بالشطرنج فقالوا : لو دعوت غناء فقلت أخاف أن أتذكر به أمرى فجلسوا عندى إلى أن صليت العشاء الآخرة وانصرفوا . وجلست وحدى أشرب القدح بعد القدح فلما مضت قطعة من الليل إذا بابى يدق دقاً عنيفاً فقال بوابى من هذا؟ فقال خادم من دار أمير المؤمنين فقامت قيامتى ولم أشك أن خبرى قد اتصل به فأسكره وقال مثل هذا لا يصلح أن يكون كاتباً لامرأة ولا مدبراً لغلام حدث وأنه قد أنفذ للقبض علىّ ويريد نكبتى فقمت أمشى فى صحن الدار لأخرج من باب آخر كان لى فاستتر وإذا الخدم قد دخلوا ومعهم بغلة عليها عمارية وشموع وإذا قد نزل من العمارية جاريتان إحداهما معشوقتى . فبهت وقال أحد الخدم وهو كالرئيس لهم مولانا يقرؤك السلام ويقول : عرفت خبرك مع هذه الجارية فرحمتك وقد وهبتها لك مع جميع مالها وتركها الخادم وعدة بغال عليها أثقال من صنوف الثياب والفرش والآلات والقماش وعدة جوار وانصرف الرسول فأخذت بيد عشيقتى وأدخلتها المجلس فلما رأته ونشرب قالت سلوت عنى

وشربت بعدى لحلفت لها ماشربت نبيذا منذ فارقتها إلا فى هذا اليوم بلاغناء وحادثتها حديثى بطوله وقلت لها ماسبب ماجرى ؟ فقالت : اعلم أن الخليفة لم يرنى منذ يوم عرضنى وأمر بشرائى إلا الليلة وكان قد اتصل مزاح السيدة معى بك وذلك أنها استدعتنى منذ مدة ثم سألتنى عن خبرى معك وحدثتنى مادار بينك وبين أم المتق فصدقتها وبكيت أيضا فقالت كأنك تحبينه فسكت وتغامز الجوار علىّ وصار شعار السيدة المزاح معى فيك فلما كانت هذه الليلة قعد الخليفة يشرب مع السيدة والجوارى فاستدعيت وغنيت للخليفة فقال : إن كنت تحسنين الصوت الفلانى تغنيه وكان صوتك على فغنيته وتمثلت لى صورتك وذكرت سرى معك فلم أملك دموعى حين جرت فقال : المقتدر ماهذا ؟ فتحيرت وجزعت ونظرت إلى السيدة فضحكت وضحك الجوارى فقال المقتدر للسيدة : ما القصة ؟ فدافعته فقال : بحياتى حدثته الحديث فلما استوفاه قال : ياجارية الأمر هكذا إنما بكيت ابن ميمون فسكت فقال : إن صدقت وهبتك له فقلت : نعم فأقبل على أمه وقال : ماهو بكثير إن وهبتها الخادم لنا فقالت : والله أردت أن أسألك هذا ولكن رأيت أنك إن تفضلت به ابتداء كان أحسن فقال لبعض الخدم القيام : خذ هذه وجميع مافى حجرتها فاحمله إلى دار ابن ميمون كاتب ابى إبراهيم واقرأه السلام وعرفه إنى وهبتها له، فلما نقلت تصايح الجوارى قد جاءفرجك وبلغت مناك فقمت فى حجرتى وحملت إليك وما تراه معى فحمدت الله عز وجل وجلست معها وما شغلت مافى المجلس حتى شربت معها فيه وغنت لى وبت بأتم ليلة وبكرت نشيطا إلى دار أم المتق لأدعوا لها وأقامت الجارية عندى إلى أن ماتت

٭ ٭ ٭

حدثنى عبد الله بن محمد الصروى قال : حدثنى أبى ، قال : كان ببغداد من أولاد النعم فتى ورث من أبيه مالا عظيما وكان يعشق قينة فأنفق عليها شيئا ثم اشتراها وكانت تحبه كما يحبها فلم يزل ينفق ماله عليها إلى أن أفلس . فقالت الجارية : ياهذا قد بقينا كما ترى فلو طلبت معاشا كان الأمر أسهل قال : وكان الفتى لشدة حبه للجارية واحضاره الاستارات لها ليزيدها فى

صنعتها قد تعلم الغناء والضرب والحذق فيهما فشاور بعض معارفه فقال .
ما أعرف لك أصلح من أن تغنى الناس وتحمل جاريتك اليهم وتأخذ على هذا الكثير من الأموال ويطيب عيشك فانف من ذلك وعاد اليها فأخبرها بما أشير عليه وأعلمها أن الموت أسهل عنده من ذلك فصبرت معه مدة على الشدة ثم قالت : لقد رأيت لك رأيا . قال : قولى . قالت : تبيعنى فإنه يحصل لك من ثمنى ما أردت أن تتجر به أو تقتنى ضيعة وتعيش عيشة صالحة وتتخلص من هذه الشدة وأحصل أنا فى نعمة لأن مثلى لايشتريها إلا ذو نعمة . فحملها إلى سوق النخاسين فأول من اعترضها فتى هاشمى من أهل البصرة قد ورد بغداد للعب والتمتع فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عينا . قال الرجل : فحين لفظت بالبيع وأعطيت المال ندمت واندفعت فى بكاء عظيم وحملت الجارية فى أقبح من صورتى وجهدت فى الاقالة فلم يكن إلى ذلك سبيل وأخذت الدنانير فى الكيس لاأدرى إلى أين أذهب لأن بيتى موحش منها وورد على من اللطم والبكاء ماقد أهوسنى فدخلت مسجدا وجلست أبكى فحملتنى عينى وتركت الكيس تحت رأسى كالمخدة ونمت فما شعرت إلا بإنسان قد جذبه من تحت رأسى فانتبهت فزعاً فإذا شاب قد أخذ الكيس وهو يعدو فقمت لأعدوا وراءه فإذا رجلى مشدودة بحبل قنب فى وتد مضروب فى أرض المسجد فما أمكننى أن أتخلص من ذلك حتى غاب الرجل عن عينى فبكيت ولطمت ونالنى أمر عظيم أشد من الأول وقلت فارقت من أحب لأستغنى بثمنه عن الصدقة وقد صرت الآن فقيرا مفارقاً فجئت إلى دجلة ولففت رأسى ووجهى برداء كان على ولم أكن أحسن السباحة فرميت بنفسى إلى الماء فظن الحاضرون أن ذلك لغلط وقع على فطرح قوم نفوسهم خلفى فأخرجونى وسألونى عن أمرى فأخبرتهم فبعضهم رحمنى والبعض استجهلنى إلى أن خلا بى شيخ فأخذ يعظنى ويقول ياهذا : ذهب مالك فكان ماذا حتى تتلف نفسك أوماعلمت أن فاعل هذا فى نار جهنم ولست أول من افتقر بعد غنى واستغنى بعد فقر فلا تفعل وثق بالله عز وجل . أين منزلك قم معى إليه فما فارقنى حتى حملنى إلى منزلى فأدخلنى إليه وما زال يؤانسنى فيه ويعظنى إلى أن رأى منى السلوان

فانصرف فكدت أقتل نفسى لوحشة منزلى على ثم ذكرت النار فخرجت ولحقت به فبكى لى رقة وأعطانى خمسين درهما وقال : خـــذ هذه واخرج الساعة من بغداد واجعلها نفقة لك إلى حيث وجدت قلبك يساعدك على قصده وأنت من أولاد الكتاب وخطك صالح وأدبك جيد فاقصد بعض العمال واطرح نفسك عليه فأقل مافى الأمر أن تصير محررا بين يديه وتعيش معه ولعـــل الله أن يخلف عليك فقبلت نصيحته وعملت على ذلك وجئت إلى الكتبيين وقد قوى فى نفسى أن أقصد واسطاً وكان لى بها أقارب فأجعلهم ذريعة إلى التصرف مع عاملها فحين جئت إلى الكتبيين إذا بزلال مقـــدم وجراية كثيرة وقماش فاخر كثير ينقل إلى الزلال فسألت من يحملنى إلى واسط ؟ فقال أحد ملاحى الزلال : نحن نحملك إلى واسط بدرهمين ولكن هذا الزلال لرجل هاشمى من أهل البصرة ولا يمكنا حملك معه على هذه الصورة ولكن تلبس ثياب الملاحين وتجلس معنا كأنك واحد منا فحين رأيت الزلال وسمعت أنه لرجل هاشمى من أهل البصرة طمعت أن يكون هو مشترى جاريتى فانفرج لسماعها لحد واسط فدفعت الدرهمين إلى الملاح وعدت فاشتريت جبة من جباب الملاحين وبعت تلك الثياب التى على وأضفت ثمنها إلى مامعى من النفقة واشتريت خبزا وادما وجلست فى الزلال فما كان إلا ساعة حتى رأيت جاريتى بعينها ومعها جاريتان تخدمانها فسهل على ما كان بى وما أنا فيه وقلت أراها وأسمع من غنائها من ههنا لحد البصرة واعتقدت أن جعلت البصرة مقصدى وطمعت فى أن أداخل مولاها وأصير أحد ندمائه وقلت لا تخلينى هى من المودة فإنى واثق بها ولم يكن بأسرع من أن جاء الفتى الذى اشتراها راكبا ومعه عدة من الغلمان ركبان وركبوا فى الزلال وانحدر بهم فلما وصلوا إلى كاو إذ أخرج الطعام فأكل وأكل الباقون على سطح الزلال وأطعموا الملاحين ثم أقبل على الجارية فقال : إلى كم هذه المدافعة عن الغناء ولزوم الحزن والبكاء ما أنت أول من فارق مولى كان له فعلمت ماعندها من أمرى ثم ضرب ستارة فى جانب الزلال واستدعى الذين فى سطحه وجلس معهم خارج الستارة فسألت عنهم فإذا هم أخوته وبنو عمه

فاخرجوا الصوانى ففرقها عليهم فيها النبيذ وما زالوا يرفقون بالجارية إلى أن استدعت بالعود فأصلحته واندفعت تغنى من الثقيل الأول بإطلاق الوتر الذى فى مجرى الوسطى .

بان الخليط بمن عرفت فادلجوا عمـــدا لقتلك ثم لم يتحرجوا
وغدت كأن على ترائب نحوها جمر الغضا فى ساعة يتأجج

ثم غلبها البـكاء فقطعت الغناء وتنغص على القوم سرورهم ووقعت أنا مغشيا على فظن الملاحون أنى قد صرعت فأذن بعضهم فى أذنى فأفقت بعد ساعة وما زالوا يدارونها ويرفقون بها ويسألونها الغناء إلى أن أصلحت العود واندفعت تغنى فى الثقيل الثانى .

فوقفت أسـئل بالذين تحمـلوا وكأن قلبى بالشفار يقطع
فدخلت دارهم أسائل عنهم والدار خالية المنازل بلقع

ثم شهقت فـكادت تتلف وارتفع لها بكاء عظيم وصعقت أنا فتبرم بى الملاحون وقالوا : كيف حملنا هذا المجنون ؟ وقال بعضهم : إذا بلغتم بعض هذه القرى فأخرجوه وأريحونا منه فجاءنى أمر عظيم من كل ما أصابنى وجاءنى فى نفسى التصبر والحيلة فى أن أعلم الجارية بمكانى بالزلال لتمنع من إخراجى فأفقت وبلغنا إلى قرب المداين فقال صاحب الزلال اصعدوا بنا إلى الشط فطرحوا إلى الشط وصعدت الجماعة وكان المساء قريباً وصعد أكثر الملاحين يتغطون وخلا الحريرى وكان الجوارى فيمن صعد إلى مستراح ضرب لهن فمشيت سارقا نفسى حتى صرت خلف الستارة فغيرت طريقة العود عما كانت عليه إلى طريقة أخرى ورجعت إلى موضعى من الزلال وفرغ القوم من حاجتهم فى الشط ورجعوا والقمر منبسط فقالوا لها هو ذا ترين وقتنا فتكلفى الغناء ولا تنغصى علينا فأخذت العود فجسته وشهقت وقالت : قد والله أصلح هذا العود مولاى على طريقة من الضرب كان بها معجباً وكان يضربها معى ووالله أنه معنا فى الزلال . فقال لها مولاها : والله ياهذه لو كان معنا ماامتنعنا من عشرته فلعله أن يخف بعض مابك فننتفع بغنائك ولـكن هذا بعيد فقالت : لا أدرى ماتقولون هو والله معنا . فقال الرجل للملاحين : ويلـكم هل حملتم

معنا إنسانا ؟ قالوا : لا فأشـفقت أن ينقطع السؤال فصحت نعم هو ذا أنا فقالت كلام مولاى والله وجاء بى الغلمان إلى الرجل فلما رآنى فقال : ويحك ماهذا الذى أصابك وصيرك فى مثل هذا الحال ؟ فصدقته عن أمرى وبكيت وعلى نحيب الجارية من خلف الستارة وبكى هو وأخوته بكاء شديدا رقة لنا ثم قال ياهذا : والله ماوطئت هذه الجارية ولا سمعت غناها إلا اليوم وأنا رجل موسـع على ولله الحمد وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاق من الخليفة وقد بلغت من الأمرين ماأردت ولما عملت على الرجوع إلى وطنى أحببت أن أستبيع من غناء بغداد شيئاً فاشتريت هذه الجارية لأضمها إلى عدة مغنيات عندى بالبصرة وإذا كنتما على هذه الحال فأنا والله أغتنم المكرمة والثواب فيكما وأشـهد الله أنى إذا صرت إلى البصرة أعتقتها وزوجتك منها وأجريت عليكما مايكفيكما ويسعكما على شريطة إذا اجبتنى إليها قلت : ماهى ؟ قال : ان تحضرنا كلما أردنا الغناء خلف ستارتنا وتنصرف بانصرافك إلى دار أفردها لكما وقماش أعطيكما إياه فقلت : ياسيدى وكيف أبخل بهذا على من هو المعطى لى وعلى من رد على حياتى وأخذت أقبل يده فمنعنى ثم أدخل رأسه إلى الجارية فقال : يرضيك هذا فأخذت تدعوا له وتشكره فاستدعى غلاماً فقال : خذ بيد هذا الرجل وغير ثيابه وبخره وقدم إليه ماياً كله وجئنا به فأخذنى الغلام ففعل بى ذلك وعدت وتركت بين يدى صينية واندفعت الجارية تغنى بنشاط وسرور وانبساط واسـتدعت النبيذ فشربت وشربنا وأخذت أقترح عليها الأصوات الجياد فتضاعف سرور الرجل وما زلنا على ذلك أياماً إلى أن بلغنا إلى نهر معقل ونحن سكارى فشد الزلال فى الشط وأخذتنى بولة فصعدت إلى ضيعة بنهر معقل لأبول فحملنى النوم فيها بالسكر ودفع الزلال وأنا لاأعلم وأصبحوا فلم يجدونى ودخلوا البصرة ولم أنتبه إلا بحر الشمس فجئت إلى الشط فلم أر لهم عيناً ولا أثرا وقد كنت أجللت الرجل أن أسأله بمن يعرف وأين داره من البصرة واحتشمت أن أسأل غلمانه عن ذلك فبقيت على شاطىء نهر معقل كأول يوم بدأت بى المحنة وكأن ما كنت فيه منام واجتازت بى سميرية فركبت فيها ودخلت البصرة وما كنت دخلتها قط فنزلت

خانا وبقيت متحيرا لا أدرى ماأعمل ولم يتوجه لى معاش إلى أن اجتاز بى يوماً إنسان عرفته من بغداد فتبعته لأكشف له حالى واستميحه فأنفت من ذلك ودخل الرجل إلى منزله فعرفته وجئت إلى بقال كان هناك على باب الخان الذى نزلته فأعطيته دانقا وأخذت منه ورقة ودواة وجلست أكتب رقعة إلى الرجل فاستحسن البقال خطى ورأى رثاثة ذلى فسألنى عن أمرى فأخبرته أنى رجل ممتحن فقير وقد تعذر على التصرف وما بقى معى شىء ولم أشرح له أكثر من ذلك فقال أتعمل معى فى كل يوم على نصف درهم وطعامك وكسوتك وتضبط حساب دكانى قلت : نعم قال : أصعد فخرقت الرقعة وصعدت فجلست معه ودبرت أمره وضبطت دخله وخرجه وكان غلمانه يسرقونه فأديت إليه الأمانة فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائدا وخرجه ناقصاً فحمدنى فكنت معه كذلك شهورا ثم جعل رزقى فى كل يوم درهما ولم يزل حالى يقوى معه إلى أن حال عليه الحول وبان له الصلاح فى أمره فدعانى إلى أن أتزوج ابنته ويشاركنى فى الدكان ففعلت ودخلت بزوجتى فلزمت الدكان والحال يقوى إلا أنى فى خلال ذلك منكسر القلب ميت النشاط ظاهر الحزن وكان البقال ربما شرب فيجتذبنى إلى مساعدته فامتنع وأظهر أن ذلك حزنا على موتى لى واستمرت بى الحال على هذا سنين فلما كان يوما رأيت قوما يجتازون بخون ونبيذا اجتيازا متصلا فسألت على ذلك فقالوا اليوم يوم الشعانين ويخرج أهل الظرف واللعب بالشراب والطعام والقيان إلى الأبلة فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون فدعتنى نفسى إلى التفرج وقلت لعلى أقف لأصحابى على خبر لأن هذا من مظانهم فقلت أريد أن أنظر هذا المنظر فقال لى شأنك فأصلح لى طعاما وشرابا وسلم إلى غلاما وسفينة فخرجت وأكلت فى السفينة وبدأت أشرب حتى وصلت إلى الأبلة وأبصرت الناس وابتدأوا ينصرفون فانصرفت فإذا بالزلال بعينه لقيته فى أوساط الناس سائرا فى نهر الأبلة فتأملته فإذا بأصحابى على سطحه ومعهم عدة مغنيات فحين رأيتهم لم أتمالك فرحاً وطرحت إليهم فلما رأونى وعرفونى كبروا وأخذونى إليهم وقالوا : ويحك أنت حي وعانقونى وفرحوا وسألونى عن قصتى وأخبرتهم بها على أتم

شرح فقالوا : إنا لما فقدناك فى الحال وقع لنا أنك بالسكر وقعت فى الماء وغرقت ولم نشك فى هذا فخرقت الجارية ثيابها وكسرت العود وجزت شعرها وبكت ولطمت فما منعناها عن شىء من هذا ووردنا البصرة فقلنا لها ماتختارين أن نعمل بك فقد كنا وعدنا مولاك بوعـــد تمنعنا المروءة من استخدامك معه فى حال فقده والاستمتاع بغنائك فقالت : تمكنونى من القوت اليسير ولبس الثياب السود وان أعمل قبرا فى بيت من الدار وأجلس عنده وأتوب من الغنا فمكناها من ذلك فهى جالسة عنده إلى الآن وأخذونى معهم فحين دخلت الدار رأيتها بتلك الصورة ورأتنى فشهقت شهقة عظيمة ماشككت فى تلفها واعتنقنا فما افترقنا ساعة طويلة ثم قال لى مولاها خذها فقلت : بل تعتقها وتزوجنى بها كما وعدتنى ففعل ذلك ودفع لى ثيابا كثيرة وفرشا وقماشا وحمل لى خمسمائة دينار وقال هذا مقدار ماأردت أن أجرى عليك فى كل شهر من منـذ أول دخولى البصرة وقد اجتمع طول هذه المدة فخذه والجراية لك مستأنفة فى كل شهر وشىء آخر لكسوتك وكسوة الجارية والشرط فى المنادمة وسماع الغنا من الجارية من وراء ستارة باق وقد وهبت لك الدار الفلانية قال فجئت إليها فإذا بذلك الفرش والقماش الذى أعطانيه فيها والجارية فجئت إلى البقال فحدثته حديثى وطلقت ابنته ووفيتها صداقها وأقمت مع الجارية على تلك الحالة والهاشمى سنين وصرت رب ضيعة ونعمة وعدت إلى قريب مما كنت عليه وأنا أعيش كذلك إلى الآن مع جاريتى .

٭ ٭ ٭

حدثنى أبو دوق الهرانى عن الرباشى أن رجلا من أهل النعيم بالبصرة اشترى صبية فأحسن أدبها وتعليمها وأحبها كل المحبة وأنفق عليها حتى أملق ومسهما الضر الشديد فقالت له الجارية إنى لأرثى لك يامولاى مما أرى بك من سوء الحال فلو بعتنى واتسعت بثمنى فلعل الله أن يصنع بك وأقع أنا بحيث يحسن حالى فيكون بذلك أصلح لكل واحد منا قال : فحملها إلى السوق فعرضت على عمر بن عبيدالله بن معمر التميمى وهو أمير البصرة يومئذ فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم فلما قبض المولى الثمن وأراد الانصراف

استعبر كل واحد منهما إلى صاحبه باكيا وأنشأت الجارية تقول :

هنيئاً لك المال الذى قد أخذته ... ولم يبق فى كفى غير التذكر
أقول لنفسى وهى فى غشى كربة ... أبكى فقد بان الحبيب وأكثرى
إذا لم يكن للمرء عندك حيلة ... ولم تجدى شيئاً سوى الصبر فاصبرى

فاشتد بكاء المولى ثم أنشد يقول :

فلولا قعود الدهر بى عنك لم يكن ... يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى
أروح بهم فى الفؤاد مبرح ... أناجى به قلبا طويل التفكر
عليك سلام الله لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر : قد شئت فخذها ولك المال وانصرفا راشدين ؛ فوالله لا كنت سبباً لفرقة مجتمعين

* * *

حدثنى أبو الفرج على بن الحسين المعروف بالأصبهانى املاء من حفظه قال : حدثنى الحسين بن يحيى المرقاشى قال: حدثنا حماد بن اسحاق بن ابراهيم الموصلى قال لما دخل الرشيد البصرة حاجا فكنت معه فقال لى جعفر بن يحيى يوما ياأبا محمد : قد وصفت لى جارية مغنية حسناء تباع وذكروا أن مولاها يمتنع عن عرضها إلا فى داره وقد عزمت أن أركب متخفياً فأعرضها فتساعدنى فقلت السمع والطاعة فلما كان فى نصف النهار حضر النخاس فاعلم بحضوره فخرج جعفر بعمامة وطيلسان ونعل عربية وأمرنى فلبست مثل ذلك وركبنا حمارين قد أسرجا لنا بسروج التجار ، وركب النخاس معنا وتخللنا الطريق حتى أتينا دار ذات باب شاهق يدل على نعمة قديمة فقرع النخاس الباب وإذا شاب حسن الوجه عليه أثار ضر باد وعليه قميص ففتح وقال : انزلوا ياسادة فدخلنا وإذا بدهليز شعث ودار قوراء خراب منقوضة وإذا فى الدهليز بيت كالعامر مغلوق الباب فأخرج لنا الرجل منه قطعة من حصير كبير خلق ففرشها لنا وجلسنا عليها وقال له النخاس احضر لنا الجارية فقد حضر المشترى فدخل البيت وإذا بجارية قد خرجت فى القميص الغليظ الذى

كان على الفتى بعينه وهى فيه مع خشونته كأنها فى الحلى والحلل لحسن ووجهها وفى يدها عود فأمرها جعفر بالغناء فجسته وضربت ضرباً واندفعت تغنى .

ان يمس حبلك بعد طول تواصل — خلقاً ويصبح بيتكم مهجورا
فلقد رآنى والجديد إلى بلى — دهراً بوصلك راضياً مسرورا
جذلا بمالى عندكم لا أبتغى — بدلا بوصلك خلة وعشيرا
كنت المنى وأعز من وطىء الحصى — عندى وكنت بذاك منك جديرا

قال ثم غلبها البكاء حتى منعها الغناء وسمعنا من البيت نحيب الفتى وقامت الجارية تتعثر فى قميصها حتى دخلت البيت فارتفعت لهما ضجة بالبكاء والشهيق ثم خمتا حتى ظننا أنهما قد ماتا وهممنا بالانصراف فإذا الفتى قد خرج وعليه ذلك القميص بعينه فقال : أيها القوم اعذرونى فيما أفعله وأقوله فقال له جعفر : قل فقال : أشهد الله وأشهدكم أن هذه الجارية حرة لوجه الله تعالى وأسألكم أن تزوجونى بها فتحير جعفر أسفا على الجارية ثم خاطبها فقال : أتحبين أن أزوجك من مولاك ؟ قالت : نعم فقرروا الصداق وخطب زوجها ثم أقبل على الفتى فقال له : ياهذا ماحملك على مافعلت ؟ فقال : حديثى طويل ان نشطت له حدثتك فقال : لاأقل من أن نسمعه فلعلنا نبسط عذرك فقال : أنا فلان بن فلان وكان أبى من وجوه أهل هذه البلد ومياسره وهو عارف بهذا وأشار إلى النخاس وأنه أسلمنى إلى الكتاب وكانت لأمى صبية وسنها قريب من سنى وهى جاريتى هذه وكانت معى فى الكتاب تتعلم ماأعلم وتنصرف معى فبلغت ثم عطلت عن المكتب وعلمت الغناء فكنت لمحبتى بها أتعلمه منها وعلق بقلبى منها حباً شديدا وبلغت فخطبنى وجوه أهل البصرة لبناتهم فخيرنى أبى فأظهرت له الزهد فى التزويج ونشأت متوفرا على الأدب متلقبا فى نعمة أبى غير متعرض لما يتعرض له الأحداث لتعلق قلبى بالصبية ورغبة أهل البلد تزداد فىّ وعندهم أن عفتى لصلاح وماكانت إلا لتعلق قلبى بالجارية وإن شهوتى لاتتعداها لأحد وبلغت الجارية فى الغناء ماقد سمعتموه فعزمت أمى على بيعها وهى لاتعلم بما فى نفسى منها فأحسست بالموت واضطررت إلى أن صدقت أمى عن الصورة فحدثت أبى فأجمع رأيهما على أن وهبا الجارية لى

وجهزاها كما يجهز أهل البيوتات بناتهن وجليت على وعمل العرس الحسن فنعمت معهادهرا فمات أبى فلم أحسن أن أرب نعمته فأسأت تدبيرها وأسرعت فى الأكل والشرب والقيان وأنا مع ذلك أجــــدد فى كل يوم خمسين دينار وأكثر ولا أتجاوزها فى جماع أو حب إلى أن تلفت النعمة وأفضت الحال إلى نقض الدار والفقر إلى ماترون فأنا على هذا منذ سنين فلما كان هذا الوقت بلغنى دخول الخليفة ووزيره وأكثر مملكته بالبصرة فقلت لها يا أختى : إن شبابك يبلى وعمرك فى الدنيا ينقضى ووالله مافى نفسى رغبة فى بيعك فإنى أعلم أنى تالف متى فارقتك ولكنى أوثر تلفها مع وصولك إلى نعمة ورفاهية فدعينى أعرضك فلعله يشتريك بعض هؤلاء الكتاب فتحصلى معه فى رغد من العيش فإن مت بعدك فتلك أمنيتى ويكون كل واحد منا قد تخلص من الشقاء وإن حكم الله عز وجل على بالبقاء صبرت لفضل الله واضطربت فى معاشى بثمنك فبكت من ذلك وقلقت ثم قالت افعل فخرجت إلى هذا النخاس وأطلعته على أمرى وقد كان يسمع غناها فى أيام نعمتى وعرف حالها وحالى وعلمته أنى لا أعرضها أبدا إلا عندى فإنها والله ماانسلقت عتبة هذه الدار قط وأردت بذلك أن يراها المشترى وحده ولا تمتهن بسوق ولا دخول إلى بيوت الناس وانه لم يكن لها ماتلبسه إلا قميصى هذا وهو مشترك بيننا ألبسه إذا خرجت لابتياع القوت وتتشح هى بإزارها فإذا جئت إلى البيت ألبستها إياه واتشحت أنا بالإزار فلما جئتما لعرضها خرجت فغنتكم فلحقنى من البكاء والقلق أمر عظيم ودخلت إلى وقالت لى : ياهذا ما أعجب أمرك أنت مللتنى وآثرت فراقى وتبكى هذا البكاء على؟ فقلت : ياهذه والله لفراق نفسى أسهل على من فراقك وإنما أردت أن تتخلصى من هذا الشقاء فقالت : والله يامولاى لو تملكت منك ماتملكته منى مابعتك أبدا وأموت جوعا فيكون الموت هو الذى يفرق بيننا فقلت لاعليك تريدين أن تعلمى صدق قولى قالت نعم قلت هل لك أن أخرج الساعة إلى المشترى فاعتقك بين يديه وأتزوجك ثم أصير معك على مانحن عليه إلى أن يأتى الله بفرج أو صنع أو موت وراحة فقالت إن كنت صادقا فافعل هذا فما أريد غيرك فخرجت إليكم وكان منى ماقد علمتم

فاعذروني فقال جعفر : أنت معذور ونهض فنهضت والنخاس فلما قدمت الحمير لنركب دنوت منه فقلت : ياسبحان الله مثلك في جودك ترى هذه الكرامة ولا تنتهز الفرصة فيها والله لقد تقطع قلبي على الفتى فقال : ويحك وقلبي والله . ولكن غيظي من فوت الجارية منعني من التكرم عليه فقلت : فأين الرغبة في الثواب فقال : صدقت والله ، ثم التفت إلى النخاس فقال له : كم كان الخادم سلم إليك عند ركوبنا لثمنها قال : ثلاثة آلاف دينار قال: فأين هي ؟ قال : مع غلامي فقال لي وللنخاس خذاها وادفعاها إلى الفتى وقولا له يكتسي ويركب ويجيئني لأحسن إليه وأستخدمه فرجعت إلى الفتى وأنا أبكي فقلت له قد عجل الله عز وجل عليك بالفرج ان الذي خرج من عندك هو الوزير الأمير جعفر بن يحيي البرمكي وقد أمر لك بهذا وهو يقول لك كذا وكذا قال : فصعق حتى قلت قد تلف ثم أفاق فأقبل يدعو ويشكرني فركبت فلحقت بجعفر فأخبرته فحمد الله عز وجل على ماوفقه له وعاد إلى داره وأنا معه فلما كان العشاء جئنا إلى الرشيد فأخذ يسأل جعفر عن حاله في يومه وهو يخبره بالأمور السلطانية ثم فاوضه فيما سوى ذلك إلى أن قص عليه حديث الفتى والجارية فقال له الرشيد : فما عملت فأخبره فاستصاب رأيه وقال : وقع له برزق سلطاني في رسم أرباب النعم في كل شهر كذا وكذا واعمل بعد ذلك ماشئت فلما كان من الغد جاءني الفتى راكبا بثياب حسنة وهيئة جميلة وإذا هو أحلى الناس كلاما وأتمهم أدباً فحملته معي إلى جعفر وأوصلته إلى مجلسه فأمر بتسهيل وصوله إليه وخلطه بحاشيته ووقع له عن الخليفة بما كان رسمه له وعن نفسه بشيء آخر وشاع حديثه بالبصرة وفي أهل العسكر فلم يبق فيهما متغزل ولا متظرف إلا أهدى إليه شيئاً جليلا فما خرجنا من البصرة إلا وهو رب نعمة صالحة

ووجدت هذا الخبر بخلاف هذا على ماذكره أبي علي بن محمد بن الحسن بن جهور العجمي البصري الكاتب في كتابه «كتاب السمار والندماء» فزعم أن الرشيد لما حج كان معه إبراهيم الموصلي واقتص الخبر على قريب مما ذكرناه وأن الجارية بدأت فغنت بصوت من صنعة إبراهيم وهو .

نمت علينا زفرة صاعدة ومليء العائد والعائدة
يارب كم فرجت من كل كربة عني فهذه المرة الواحدة

وإن الذي حضر لتقليب الجارية الرشيد وجعفر بن يحيى متنكرين ومعهما إبراهيم الموصلي والنخاس وانهم انصرفوا وقطعوا الثمن على مائتي ألف درهم ثم عادوا بالمال معهم فأمروا باعادة التقليب فخرجت الجارية فغنت لإبراهيم أيضاً

ومن عادة الأيام أن صروفها إذا سر منها جانب ساء جانب
وما اعرف الأيام إلا ذميمة ولاالدهر إلاوهو بالثار طالب

ثم ذكر بقية الحديث على قريب من هذا . وفي الخبر الأول زيادات ليست في حديث ابن جهور ٭ وبلغني خبر لجعفر بن يحيي مع جارية تقارب هذا اخبرني به أبو محمد الحسن أبو عبد الرحمن بن خلاد الواسطي خليفة أبي على القضاء بها قال : أخبرنا محمد بن الصلت الجماني قال :حدثني بيلخ وشير النخاسان قالا : أرسل إلينا جعفر بن يحيي البرمكي يطلب جارية قوالة ذات أدب وظرف على صفة ذكرها وحدها فبقينا نجيل الرأي ونخوض في ذكرهن ونتواصف من يعرف منهن وإلى جانبنا شيخ من أهل الكوفة يسمع كلامنا فاقبل علينا فقال عندى بغية الوزير فانهضوا ان شئتم لتنظروا اليها فنهضنا معه حتى إذا وصلنا إلى داره وجدناها ظاهرة الاختلال ولم نر فيها إلا مسحا خلقا وثلاث قصبات عليها مسرجة فارتبنا لقوله لما ظهر من سوء حاله ثم صوت بها فخرجت والله الينا جارية والله كانها فلقة قمر تنثني كالقضب فاستقراها فقرأت آيات من القرآن حركت منا ما كان ساكنا واتبعتها بقصيدة مليحة شوقتنا وأطربتنا فقلنا أصناع ؟ وأشرنا الى يدها فقالت : نعم علمت العود وأنا صغيرة فقلنا امتحنينا به فقالت سبحان الله وهل يصلح ذلك العود الا لمولى مالك ان دعاني اليه فعلته . قال : وراح الرسول الى جعفر وأخبره بما شاهده فلم يتمالك جعفر حين سمع بقصة الجارية حتى استنهض الرسول الى منزل الشيخ وتبعه حتى دخل عليه وسأله اخراجها اليه

فنعل فلما رآها جعفر أعجب بها قبل أن يستنطقها ثم استنطقها فأخذت بمجامع قلبه فقال لمولاها : قل ماتشاء فقال الشيخ : لست أحدث أمرا حتى استأذنها ولولا العذر الذى نحن فيه ماعرضتها ولكن حالى مايشاهده الوزير ووراء ذلك دين كثير قد قدحنى ومن أجله فارقت وطنى وعرضت على البيع ثمرة قلبى فقال جعفر فما مقدار مافى نفسك إن أردت بيعها قال ثلاثون ألف دينار قال جعفر : فهى لك ان بعتنيها فلما سمعت ذلك استعبرت فلما رأى الشيخ استعبارها أقبل على جعفر ومن حضر معه فقال أشهدكم أنى قد أعتقتها وجعلت صداقها والله لاملكتها أحدا أبدا فغضب جعفر وأقبل من حضر على الشيخ يؤنبونه ويستجهلونه ويقولون : ضيعت هذا المال الجليل وعجلت وحمقت فقال الشيخ : النفس أولى أن يبقى عليها من المال والرزاق الله عز وجل وعاد جعفر إلى أبيه فأخبره بما كان من الرجل والجارية فقال أبوه له : فما صنعت بهما قال تركتهما وانصرفت قال : ويحك ما أنصت أن تنصرف عن متحابين مثلهما فقيرين لاتجبر حالهما أرضيت أن يكون الكوفى أسمح منك ودعا بغلام فحمل معه إلى الشيخ ثلاثين ألف دينار على بغل فلما وصل المال إلى الشيخ أخذه وحمد الله عز وجل وعاد بالجارية والمال إلى منزله بالكوفة .

* * *

وجدت فى بعض كتبى أن عمرو بن شبية قال : حدثنى أبو غسان قال : أخبرنى بعض أصحابنا أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما اشترى جارية من مولدات أهل مكة وكان يتعشقها غلام من أهلها فقدم فى أثرها المدينة فنزل قريباً من منزل عبد الله بن جعفر ثم جعل يلطف عبد الله بطرائف مكة حتى عرفه وجعلت الجارية تراسله فأدخلته ليلة فى اصطبل دواب عبد الله بن جعفر فعبر عليه السايس فأعلم عبد الله بن جعفر وأتى به فقال : مالك قبحك الله أبعد تحرمك بنا تتعرض لحرمنا قال: لا انك لما ابتعت الجارية كنت لها محباً وكانت تجدنى مثل ذلك قال : فدعا الجارية فسألها فجاءت بمثل قصة الفتى فقال : خذها فهى لك. فلما كان بعد ذلك بقريب عشق عبد السلام ابن أبى سليمان مولى أسلم جارية لآل طلحة ابن عبد الله بن معمر التيمى يقال

لها رواح فطلبها منهم ورجا أن يفعلوا به مثل مافعل ابن جعفر بالفتى المكى فلم يفعل الطلحيون ذلك فسأل فى ثمنها حتى اجتمع له فاشتراها منهم وقال عبد السلام :

وأنت فلا تعدل نوال بن جعفر وأين لعمرى من نوال بن معمرى
يطير لذى الجنات هذا لفضله وقد قص هذا فى الجحيم المسعر

وقد كان فى عصرنا مايقارب مثل هذا وهو ماحدثنى به أبو الحسن على ابن عمر الدارقطنى الحافظ قال: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الجرجانى الفقيه الذى كنا ندرس عليـــه مذهب الشافعى قال : كنا ندرس على أبى إسحاق المروزى الشافعى وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خراسان له والد هناك يوجه إليه فى كل سنة مع الحجاج قدر نفقته للسنة فاشترى جارية فوقعت فى نفسه وألفته وألفها وكانت معه سنين وكان رسمه أن يستدين فى كل سنة دينا بقدر مايعجز عن نفقته فإذا جاء ماينفذه إليه أبوه قضى دينه وأنفق الباقى مدة ثم عاد إلى الدين فلما كان سنة من السنين جاء الحجاج وليس معهم نفقة من أبيه فسألهم عن ذلك فقالوا ان أباك اعتل علة عظيمة صعبة فاشتغل بنفسه فلم يتمكن من إنفاذ شىء معنا قال : فقلق الفتى قلقاً شديدا وخاف غرماؤه يطالبونه بالعادة فى قضاء الدين وقت الموسم فاضطرب وأخرج الجارية إلى النخاسين فعرضها وكان الفتى ينزل بقرب منزلى ويختلف إلى مجلس الفقه ولا يكاد يفترق فباع الجارية بألف درهم وكسر لينفق منها على غرمائه قدر مالهم ويتمرر بالباقى وعند رجوعنا من النخاسين كان قلقاً موجعاً فلما كان الليل لم أشعر إلا وبابى يدق ففتحته فإذا بالفتى فقلت : مالك؟ فقال : قد امتنع على النوم وحشة للجارية وشوقاً إليها قال : ووجدته من القلق على أمر عظيم حتى أنكرت عقله فقلت ماتشاء قال : لاأدرى وقد سهل الله على أن ترجع الجارية إلى ملكى وأبكر غدا فأقر لغرمائى بما لهم واحتبس فى حبس الحاكم إلى أن يفرج الله جل وعز ويجيئنى من خراسان نفقتى فى العام المقبل بعد أن تكون الجارية فى ملكى فقلت له : أنا أكفيك ذلك فى غد ان شاء الله واعمل فى رجوع الجارية إليك إذا كنت وقد وطنت نفسك على هذا قال : وبكرنا

إلى السوق فسألنا من اشترى الجارية ؟ فقالوا : امرأة من دار أبى بكر بن أبى حامد الخرسانى صاحب بيت المال فجئنا إلى مجلس الفقه فشرحت لأبى إسحاق المروزى بعض حديث الفتى وسألته أن يكتب إلى أبى بكر بن أبى حامد رقعة يسئله فيها فسخ البيع والإقالة وأخذ الثمن ورد الجارية فكتب رقعة مؤكدة فى ذلك فقمت وأخذت بيد الخراسانى صديقى وجئت إلى أبى بكر بن أبى حامد فإذا مجلس حاشد فأمهلنا حتى خف فدنوت أنا والفتى فعرفنى وسألنى عن المروزى فقلت هذه رقعته فى حاجة له فلما قرأها قال أنت صاحب الجارية قلت : لا ولكنه صديقى هذا وأومأت إلى الخراسانى وقصصت عليه القصة فى سبب بيعه الجارية فقال لى والله ماأعلم انى ابتعت جارية ولا ابتيعت لى فقلت ان امرأة جاءت فابتاعتها وذكرت انها من دارك فقال يجوز. يافلان: فجاء خادم فقال ادخل إلى دور الحرم وسل عن جارية ابتيعت أمس فلم يزل يدخل ويخرج من دار إلى أخرى حتى وقع عليها فقال عثرت؟ فقال نعم فقال أحضرها فأحضرت فقال لها : من مولاك فأومأت إلى الخراسانى فقال لها: أتحبين أن أردك عليه فقالت : والله ليس مثلك من يختار عليه ولكن لمولاى حق التربية فقال هى كيسة عاقلة قال : فاخرج الخراسانى الكيس وتركه بحضرته فقال للخادم امض إلى الحرم فقل لهن ما كنتن وعدتن به هذه الجارية من إحسان وبر فعجلنه الساعة فجاء الخادم بأشياء لها قدر فدفعها اليها ثم قال للخراسانى خذ كيسك واقض منه دينك ووسع بباقيه على نفسك وعلى جاريتك والزم الدرس فقد أجريت لك فى كل شهر قفيز دقيقاً وديناران تستعين بهاى دارك فوالله ما انقطعت عن الفتى حتى مات .

قال مؤلف هذا الكتاب : وجدت هذا الخبر مستفيضاً ببغداد وأخبرت به على جهات مختلفة الا أنى أذكر بعض الطرق الأخر التى بلغتنى .

° ° °

حدثنى أحمد بن عبد الله عن شيخ من دار القطن ببغداد قال : كان لأبى بكر بن أبى حامد جارية طريفة وكان ثم رجل يعرف بعبد الرحمن الصيرفى باعها له بثلثمائة دينار وكان يهواها فلما جاء الليـــل استوحش لها وحشة

شديدة ولحقه من القلق والهيام والجنون والأسف على فراقها مامنعه من النوم ، ولحقه من البكاء والسهر ما كاد يخرج نفسه فلما أصبح خرج إلى دكانه ليتشاغل بالنظر فى أمره فلم يكن إلى ذلك سبيل وزاد عليه القلق والشوق فأخذ ثمن الجارية وجاء إلى دار أبى بكر بن أبى حامد ودخل ومجلسه حافل فسلم وجلس فى أخريات الناس إلى أن انفضوا فلما لم يبق منهم غير أبى بكر ابن أبى حامد . قال له : إن كانت لك حاجة فاذكرها؟ فحصروجرت دموعه وشهق فرفق به ابن أبى حامد وقال له: قل عافاك الله ولا تستحى. قال: بعت أمس جارية كانت لى أحبها واشتريت لك أطال الله بقاك وقد أحسست بالموت أسفاً على فراقها وأخرج الثمن ووضعه بحضرته وقال : أنا أسألك أن ترد على حياتى بأخذ هذه الدنانير واقالتى البيع .قال فتبسم له ابن أبى حامد وقال : فلما كانت بهذا المحل من قلبك فلم بعتها؟قال أنا رجل صيرفى وكان رأس مالى ألف دينار فلما اشتريتها تشاغلت بها عن لزوم الدكان فبطل كسبى وكنت أنفق عليها من رأس مالى نفقة لا يحتملها مالى فلما مضت مدة خشيت الفقر ونظرت فاذا لم يبق معى من رأس مالى إلا ثلثه أو أقل وصارت تطالبنى من النفقة بما أن اطعتها فيه حتى ذهبت هذه البقية فلما منعتها ساءت أخلاقها على ، وتنغصت عيشتى فقلت أبيعها وأرد ثمنها فيما اختل من دكانى،ويستقيم عيشى وأستريح من أذاها وأتصبر على فراقها وينضبط أمرى بسقوط النفقة على وتوفرى على التجارة ولم أعلم أنه يلحقنى هذا الأمر العظيم وقد آثرت الفقر الآن بأن تحصل لى الجارية فان الموت أسهل مما أنا فيه . فقال ابن أبى حامد يافلان : فجاءخادم أسود فقال أخرج الجارية التى اشتريت لنا أمس . قال : فأخرجت الجارية . قال : يابنى إن مثلى لا يطأ قبل الاستبراء والله ما وقعت عينى عليها منذ اشتريت إلى الآن وقد وهبتها لك فخذها وخذ دنانيرك بارك لك فيها ورد الدنانير إلى دكانك . ثم قال للخادم هات ألف درهم فجاء بها . فقال للجارية : قد كنت عملت على أن أكسوك فجاء من أمر مولاك مارأيت ، وليس من المروءة منعه منك فخذى هذا الدراهم واتسعى بها على

نفسك ولا تحملي مولاك مالا يطيق فيفتقر ويحتاج لبيعك وأين تجدين من يرغب فيك مثل رغبته فاعرفي له حق هذه المحبة ، وهذه الألف درهم لك عندنا كل سنة يجيء مولاك ويأخذها لك إذا شكرك ورضي طريقك، ثم قال له لا تنفق عليها إلا بقدر طاقتك وهذه الألف درهم لها في كل سنة كفاية مع ما تطيقه أنت من الانفاق عليها وتوفر على دكانك ومعاشك وليس كل وقت يتفق لك ما اتفق الآن ، فقام الرجل وقبل يديه ورجليه وجعل يبكي ويدعوا له ورجع إلى بيته بماله وجاريته وأصلح دكانه ومعيشته وفرج الله عز وجل ما كان من الشدة وكان ما فعله أبو بكر بن أبي حامد سببا لصلاح حاله .

* * *

ويشبه هذا الحديث ما وجدته في كتاب أعطانيه أبو الحسين عبدالعزيز ابن إبراهيم المعروف بابن حاجب النعمان وهو يومئذ كاتب الوزير المهلبي على ديوان السواد وذكر أنه نسخه من كتاب أعطاه له أبو الحسن الخصيبي وكان فيه اصلاحات بخط ابن ما بيداد: اشترى الحسن بن سهل من القسطاطي التاجر جارية بألف دينار فحملت إلى منزل الحسن وكتب للقسطاطي بثمنها فأخذ الكتاب احالة عليه بالمال وانصرف فوجد منزله مفروشاً نظيفا وفيه ريحان قد عبي تعبية حسنة ونبيذا قد صفي فقال ماهذا فقيل له جاريتك التي بعتها الساعة أعدت لك هذا لتنصرف إليها فبعتها قبل انصرافك . قال: فقام القسطاطي فرجع إلى الحسن وقال : أيها الأمير اقلني بيع الجارية أقالك الله في الآخرة فقال ما إلى هذا سبيل وما دخلت قط دارنا جارية فخرجت منها .قال أيها الأمير: إنه الموت. قال وما ذلك؟ فقص عليه القصة وبكى ولم يزل يتضرع فرق له الحسن ورد الجارية عليه وقال له الألف دينار لا يرجع إلى ملكي منها دينار واحد فأخذ القسطاطي الجارية والدنانير وعاد إلى منزله وجلس مع جاريته على ما أعدته له .

* * *

عن حماد بن إسحاق عن أبيه قال غدوت يوما وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة والخدمـــة فيها وركبت بكرة وعزمت على أن أطوف

الصحراء وأتفرج بها فقلت لغلمانى إن جاء رسول الخليفة فعرفوه أنى بكرت فى مهم لى وانكم لا تعرفون أين توجهت ومضيت وطفت مابدا لى ثم عدت وقد حمى النهار فوقفت فى شارع المخزم فى الظل عند جناح رحب فى الطريق لأستريح فلم ألبث ان جاء خادم يقود حمارا فارها عليه جارية راكبة تحتها منديل دبيقى وعليها من اللباس الفاخر مالا غاية وراءه ورأيت لها قواما حسنا وطرفا فاتنا وشمائل ظريفة فحدثت أنها مغنية فدخلت الدار التى كنت واقفا عليها وعلقها قلبى فى الوقت علوقا شديدا لم أستطع معه البراح فلم ألبث إلا يسيرا حتى أقبل رجلان شابان جميلان لهما هيئة تدل على قدرهما راكبان فاستأذنا فأذن لهما فحملنى حب الجارية على أن نزلت معهما ودخلت بدخولهما فظنا أن صاحب الدار دعانى، وظن صاحب الدار أنى معهما فجلسنا فأتى بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع وخرجت الجارية وفى يدها عود فرأيتها حسناء وتمكن مافى قلبى منها وغنت غناء صالحا وشربنا وقمت قومة للبول فسأل صاحب المنزل من الفتيين عنى فأخبراه أنهما لا يعرفانى فقال : هذا طفيلى ولكن ظريف فاجملوا عشرته وجئت فجلست وغنت الجارية فى لحن لى :

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن امام المطايا تستريب وتطمح
من المولعات الرمل ادماء حرة شعاع الضحى فى بيتها يتوضح

فأدته أداء صالحا ثم غنت أصواتا فيها من صنعتى .

الطلول الدوار فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهى قفر يابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول ثم غنت أصواتاً من القديم والمحدث وغنت فى أضعافها من صنعتى فى شعرى .

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أرد ت وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما أدعيـ ـت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح مما غنته ، فاستعدته منها لاصححه لها فأقبل على رجل منهم فقال : مارأيت طفيليا أصفق وجها منك . لم ترض بالتطفل حتى اقترحت وهذا

تصديق المثل طفيلي ويقترح ، فأطرقت ولم أجبه وجعل صاحبه يكفه عني فلم يكف ثم قاموا إلى الصلاة وتأخرت وأخذت العود واشددت طبقته واصلحته إصلاحا محكما وعدت إلى موضعي فصليت وعادوا وأخذ الرجل في عربدته علي وأنا صامت ثم أخذت الجارية العود وجسته فأنكرت حاله وقالت : من مس عودي ؟ فقالوا : مامسه أحد قالت : بلى والله قد مسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صنعته. فقلت لها : أنا أصلحته قالت : بالله عليك خذه فاضرب به فأخذته وضربت مبداء عجيبا فيه نقرات محركة فما بقى في المجلس أحد إلا ووثب فجلس بين يدى وقالوا : بالله عليك ياسيدنا أتغنى؟ قلت نعم وأعرفكم نفسي أيضا أنا إسحق بن إبراهيم الموصلي وإنى والله لاتيه على الخليفة وأنتم تشتمونى اليوم لأنى تملحت معكم بسبب هذه الجارية ووالله لانطقت بحرف ولا جلست معكم أو تخرجوا هذا المعاند ونهضت لأخرج فتعلقوا بى فلم أرجع فلحقتنى الجارية فتعلقت بى فلنت وقلت : لاأجلس حتى تخرجوا هذا البغيض . فقال له صاحبه : من هذا كنت أخاف عليك فأخذ يعتذر فقلت أجلس ولكن والله لا انطق بحرف وهو حاضر فأخذوا بيده وأخرجوه فبدأت أغنى بالأصـــوات التي غنتها الجارية من صنعتي فطرب صاحب البيت طربا شديدا وقال هل لك فى أمر أعرضه عليك؛ فقلت وماهو؟ قال تقيم عندى شهرا والجارية والحمار لك مع ما عليه من حلية وللجارية من كسوة فقلت افعل فأقمت عنده ثلاثين يوما لا يعرف أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل موضع فلم يعرف لى خبرا فلما كان بعد ذلك ســلم إلى الجارية والحمار والخادم وجئت بذلك إلى منزلى وهم فى أقبح صورة لخبرى وتأخرى عنهم وركبت إلى المأمون من وقتى فلما رآنى قال لى يا اسحاق ويحك أين أنت. وأين تكون؟ فاخبرته بخبرى فقال على بالرجل الساعة فدللتهم على بيته فأحضر فسأله المأمون عن القصة فأخبره بهـا فقال أنت ذو مروءة وسبيلك أن تعاون عليها فأمر له بمائة ألف درهم وقال : لا تعاشر ذاك المعربد السفل . فقال معاذ الله يا أمير المؤمنين وأمر لى بخمسين ألف درهم وقال لى احضر الجارية فأحضرته إياها فغنته فقال لى قـــد جعلت لها نوبة كل يوم

ثلاثاء تغنيني من وراء الستارة مع الجوارى وأمر لها بخمسين ألف درهم فربحت والله بتلك الركبة وأربحت .

* * *

عن نمير بن خلف الهلالى قال :كان منافتى يقال له سيرين بن عبدالله ويعرف بالاشتر كان يهوى جارية من قومه يقال لها جيداء وكانت ذات زوج وشاع خبره فى حبها فمنع منها وضيق عليه حتى لم يقدران يلم بهـا فجاءنى يوماً فقال يا أخى : قد بلغ منى الوجد وضاق على الصـــدر فهل تساعدنى على زيارتها فأجبته فركبنا وسرنا يومين حتى نزلنا قريباً من حيها فكمن فى موضع وقال لى اذهب إلى القوم فكن ضيفا فيهم ولا تذكر شيئاً من أمرنا حتى ترى راعية لجيداء صفتها كذا وكذا فتعلمها خبرى وتأمرها بأخذ موعد منها فمضيت وفعلت ماأمرنى به حتى لقيت الراعية فخاطبتها فمضت إلى جيداء وعادت وقالت موعدك الليلة عند تلك الشجرة من موضع كذا فمضيت إليه وجلسنا عند الشجرة إلى الوقت المعلوم فاذا بجيداء قد أقبلت فوثب الاشتر يقبل عينها فقمت مولياً عنهما فقالا نقسم عليك إلا رجعت فوالله مابيننا ما نستره عليك فرجعت وجلسنا نتحدث فقال لها ياجيداء مافيك من المصاحبة الليلة فنتعلل بها قالت لا والله إلا بأن يعود حالى وإلى ما تعرف من البلاء والشدة فقال مامن ذلك بد ولو وقعت السماء على الأرض . فقالت هل فى صاحبك هذا خير؟ فقلت أى والله فقالت : وقـــد خلعت ثيابها خذها والبسها واعطنى ثيابك ففعلت فقالت : اذهب فان زوجى سيأتيك بعد العتمة يطلب منك القدح ليحلب فيه الإبل فلا تدفعه اليه من يدك فهكذا كنت أفعل به ودعه بين يديه فانه سيذهب فيحلب فيه ثم يأتيك به فيقول هاك غبوقك فلا تأخـــذه منه حتى تطيل نكدك عليه ثم تأخـــذه أو تدعه حتى يضعه هو ثم لست تراه حتى يصبح فذهبت وفعلت ماأمرتنى وجاء بالقدح فلم آخذه وأطلت النكد عليه ثم أهويت لآخذه وأهوى ليضعه فاختلفت أيدينا فانكفأ القدح فقال إن هذا الطماح مفرط وضرب بيده إلى سوط ثم تناول جتى فضرب ظهر بذلك السوط ثلاثين فجاءت أمه وأخته وانتزعانى من يده بعد أن زال عقلى وهممت أن أوجئه بالسكين فلما

خرجوا عنى لم ألبث إلا يسيراً ، فاذا بأم جيـــداء قد دخلت على تكلمنى وتزبرنى . فلزمت الصمت والبكاء فقالت يابنيتى : اتق الله وأطيعى زوجك أما الاشترفلاسبيل لك اليه ، وأنا أبعث اليك أختك الليلة . ثم مضت وبعثت إلى الجارية فجعلت تكلمنى وتدعو على من ضربنى وتبكى وأنا ساكت ثم اضطجعت إلى جنبي فشددت يدى على فمها وقلت : ياجارية ان أختك مع الاشتر ، وقد قطع ظهرى بسببها ، وأنت أولى بسترها منى وإن تكلمت بكلمة فضحتها ، وأنا لست أبالى . فاهتزت مثل القضيب فزعاً ثم ضحكت . وباتت معى أظرف الناس ، ولم نزل نتحدث حتى برق الفجر . ثم خرجت وجئت إلى أصحابى فقالت جيداء : ما الخبر ؟ فقلت : سلى أختك عنه فلعمرى أنها عالمة به ، ودفعت اليها ثيابها وأريتها ظهرى . فبكت وجزعت ومضت مسرعة وجعل الاشتر يبكى وأنا أحدثه وارتحلنا .

* * *

عن بعضهم قال : حضرت فى دعوة عند صديق لى من البزازين ، كان مشهوراً . فقدم اليه فى جملة طعامه داجيراجه فلم يأكلها فامتنعنا من أكلها . فقال : أحب أن تأكلوا وتعفونى من أكلها . فلم ندعه حتى أكل فلما غسلنا أيدينا انفرد يغسل يديه ، ووقف غلام يعد عليه حتى قال : لقد غسلت يدك أربعين مرة . فقطع الغسل فقلنا : ماسبب هذا ؟ فامتنع فألححنا عليه فقال : مات أبى وسنى نحو العشرين سنة وخلف على حالا ضعيفة ، وأوصانى قبل موته بقضاء ديونه ، وملازمة السوق وأن أكون أول داخل اليها وآخر من يخرج منها فرأيت فى ذلك منافع كثيرة وبينما أنا جالس ذات يوم ، ولم يتكامل السوق إذ بامرأة راكبة حماراً على كفله منديل دبيق ، وخادم يمسك العنان فنزلت عندى فقمت اليها ولزمتها وسألتها عن حاجتها فطلبت شيئاً من الثياب ذكرته ، فسمعت منها أحسن نغمة ، ورأيت وجهاً لم أر أحسن منه قط . فذهب على أمرى وهمت بها فى الحال . فقلت : تصبرى حتى يتكامل السوق وآخذ لك ماتريدين . فأجابت . وأخذت تحادثنى ، وأنا كدت أن أموت عشقاً وخرج الناس فأخذت لها ما أرادت فجمعته وركبت ، ولم تخاطبنى فى ثمنه

بحرف ، وكان يبلغ الخمسة آلاف درهم فلما غابت عن عيني أفقت وأحسست بالفقر ، وقلت : محتالة خدعتني بكشف وجهها ورأتني حدثاً ولم أكن سألتها عن منزلها ، ولا طالبتها بالثمن لدهشتي بها فكتمت خبري لئلا أفتضح وأتعجل المكروه ، وعملت على اغلاق دكاني وأن أبيع كل مافيه وأفي الناس حقوقهم وأجلس في بيتي مقتصراً على شيء يسير من عقار خلفه أبي فلما كان بعـــد أسبوع إذا بها قد باكرتني ونزلت عندي . فحين رأيتها أنسيت ما كنت فيه ، وقمت اليها اجلالا . فقالت : يافتى قد تأخرنا عنك وما شككنا أن قد روعناك وظننت أننا احتلنا عليك ؟ فقلت قد رفع الله قدرك عن هذا . فاستدعت الميزان ووفتني دنانير بقيمة ماقلت لها أنه ثمن المتاع ، وأخذت تذكر متاعا آخر . فأجلستها أحدثها وأتمتع بالنظر اليها إلى أن تكاملت السوق فقمت فدفعت إلى كل إنسان ممن كان له شيء ماله ، وطلبت منهم ما أردت فأعطوني فجئت به معي فأخذته وانصرفت ولم تخاطبني في ثمنه ، ولا خاطبتها في صفة موضعها بحرف فلما غابت عن عيني ندمت وقلت المحنة هذه لأنها أعطتني خمسة آلاف درهم وأخذت متاعا ثمنه ألف دينار ، والآن لم أقف لها على خبر فليس إلا الفقر وبيع المحكم لمتاع الدكان وما ورثته من أبي وتطاولت غيبتها عني أكثر من شهر وأخذ التجار يشدون على المطالبة فعرضت عقاري على البيع وأشرفت على الهلاك ، وأنا في ذلك وإذا بها قد نزلت عندي فحين رأيتها ورأتني زال عني الفكر ، وأنسيت ما كنت فيه وأقبلت على تحادثني وقالت : هات الطيار . فوزنت لي بقيمة المال فأخذت أطاولها ، ونشطت لكلامها فباسطتني فكنت فرحا وخجلا إلى أن قالت هل لك زوجة ؟ فقلت : لا والله ياستي ماعرفت مرأة قط وبكيت . فقالت : مالك؟ قلت: خيرا ، وأخذت بيد خادمها ، وأخرجت اليه دنانير كثيرة ، وسألته التوسط بيني وبينها . فضحك وقال : انها والله أعشق منك لهـا وما بها حاجة إلى ما اشترته منك وإنما تجيئك لمطالبتك فخاطبها بما تريد فانها تقبله ، وتستغني عن فعدت وقلت لها إني مضيت لا قد الدنانير . فضحكت وكانت قد رأتني مع الخادم فقلت : ياستي الله الله في دمي ، وخاطبتها بما في نفسي فأعجبها ذلك ، وقبلت الخطاب

أحسن قبول ثم قالت : الخادم يجيئك برسالتي بما تعمله ، وقامت ولم تأخذ ثياباً فوفيت الناس أموالهم ، وحصل لي ربح واسع واغتممت غماً شديداً خوفا من انقطاعها عني ولم أنم ليلتي قلقاً وحزناً فلما كان بعد أيام جاءني الخادم فأكرمته وأعطيته دنانير وسألته عنها قال : هي والله عليلة شوقا اليك . قلت : فاشرح لي أمرها . قال : هذه صبية ربتها السيدة أم المقتدر ، وهي من أخص جوارها واشتهت رؤية الناس ، والدخول والخروج فتوصلت إلى أن صارت تخلف القهرمانة فتخرج لقضاء بعض الحوائج فترى الناس ، وقد والله حدثت السيدة بحديثك ، وسألتها أن تزوجها منك فقالت : لا أفعل حتى أراه فان كان يستحقك وإلا لم أدعك باختيارك ، ويحتاج أن تحتال في دخولك الدار بحيلة ان تمت وصلت إلى حاجتك وإن انكشفت ذلك ضرب عنقك فما تقول ؟ قلت اصبر على هذا . فقال : إذا كان الليلة فأعبر المخزم وأدخل المسجد الذي بنته السيدة على شاطيء دجلة ، وعلى الحائط الآخر مما يلي دجلة اسمها مكتوب بالآجر المقطوع ﴿ وهو المسجد الذي سد بابه الآن سبكتين الحاجب الكبير مولى معز الدولة المعروف بشاشنكير وأدخله إلى ميدان داره وجعله مصلى لغلمانه ﴾ فبت فيه تصل لمشتهاك . ففعلت فلما كان السحر إذا بطيار لطيف قد قدم ، وخدم قد نقلوا صناديق فارغة وجعلوها في المسجد ، وانصرفوا وبقي منهم واحد فتأملته فإذا هو الواسطة بيني وبينها ثم ظهرت الجارية فاستدعتني فقمت وعانقتها وقبلت يدها ، وقبلتني قبلا كثيرة وتحدثنا ساعة ثم أجلستني في واحد من الصناديق كبير وأقفلته وأقبل الخدم يتراجعون بثياب وماء ورد وعطر ، وأشياء قد أحضروها من مواضع ففرقت في باقي الصناديق ، وأقفلت ثم حملت الصناديق في الطيار وانحدر فلحقني أمر عظيم من الندم وقلت قتلت بشهوة اعلها الاثم ولو تمت ماساوت قتل نفسي ، وأقبلت أبكي وأدعو الله عزوجل وأتوب اليه وأنذر إلى أن حملت الصناديق بجهازها في دار الخليفة ، وحصل صندوقي خادمان أحدهما الواسطة ومشت هي أمام الصندوق ، والصناديق كلها خلف صندوقي . فلما اجتازت بطائفة من الخدم الموكلين بأبواب الحرم . قالوا . نريد نفتش الصناديق فكانت تصيح على

بعضهم وتشتم بعضهم ، وتدارى بعضهم إلى أن انتهينا إلى خادم ظننته رئيس القوم فخاطبته بفزع وخضوع وذلة . وحقق أن لابد من فتح الصناديق . فبدأ بصندوقى فأنزله فحين حسست بذلك ذهب عقلى وغاب على أمرى وبلت فى الصندوق فزعا فجرى البول حتى خرج من خلاله . فقالت : يا أستاذ أهلكتنى وأهلكت التجار ذهب على الأمر كله ، وهلك علينا ما فى الصندوق من متاع وثياب وغيره قيمة الجميع عشرة آلاف دينار ، لأن فيه قارورة من ماء زمزم وقد انقلبت وجرت على الثياب ، والآن تستحيل ألوانها . فقال لها : خذى صندوقك إلى لعنة الله أنت وهو ومرى فحمل الخادم صندوقى بعد أن اشتد عليه وتلاحقت الصناديق فيما بعد وما راعنى بعدها إلا حين سمعتها تقول : ويلاه الخليفة . فمت رعباً وجاءنى مالم أحتسبه . فقال لها الخليفة ويحك أى شىء فى صناديقك ؟ قالت يامولاى ثياب للسيدة . فقال : افتحى حتى أراها فقالت يامولاى : الساعة أفتحها بين يديك وتراها قال : مرى هوذا سأجىء اليك . قالت للخدم : أسرعوا وأسرعوا ، ودخلت حجرة وفتحت صندوقى وقالت : اصعد تلك الدرجة . ففعلت وأخذت بما فى بعض تلك الصناديق ، وجعلته فى صندوقى ، وجاء المقتدر ففتحت الصناديق بين يديه ثم أغلقت الحجرة ، ومضت ومعها الصناديق بحيث تجلس ثم عادت إلى وطيبت نفسى وأحضرتنى طعاماً وشراباً وما احتاج اليه وأقفلت الحجرة ومضت فلما كان من الغد جاءتنى فصعدت إلى وقالت السيدة تجىء الساعة اتراك فانظر كيف تكون فما كان بأسرع من أن جاءت السيدة فجلست على كرسى وفرقت جواريها ، ولم يبق معها واحدة منهن ثم أنزلتنى الجارية . فحين رأتنى السيدة قبلت الأرض ، وقمت ودعوت لها ، فقالت ، لجاريتها مابئس ما أخذت هو كيس ونهضت فجاءتنى صاحبتى بعد ساعة وقالت : ابشر فقد وعدتنى والله ان تزوجنى بك وما بين أيدينا الآن إلا عقبة الخروج فقلت يسلم الله تبارك وتعالى . فلما كان من غد حملتنى فى الصندوق فخرجت كما دخلت وكان الحرص على التفتيش أيسر وتركت فى المسجد فرجعت وتصدقت ووفيت بنذرى فلما كان بعد أيام جاءنى الخادم برقعة بخطها الذى أعرفه وكيس فيه ثلاثة آلاف

دينار عيناً وتقول في الرقعة أمرتني السيدة بإيصال هذا اليك من مالها وقالت اشتر ثياباً ومركوباً ومملوكا يسعى بين يديك ، وأصلح به ظاهرك وتجمل بكل ما تقدر عليه وأحضر يوم الموكب إلى باب العامة وقف حتى تطلب فتدخل على الخليفة فتزوج بحضرته فأجبت عن الرقعة وأخذت المال واشتريت منه ماقالوه بأحسن مايكون ، واحتفظت الباقي وركبت دابتي يوم الموكب إلى باب العامة ووقفت إلى أن جاءني من استدعاني فأدخلت على المقتدر ، وهو على السرير ، والقضاة والهاشميون والجيش قيام فداخلني هيبة عظيمة وخطب بعض القضاة وزوجني فلما صرت في بعض الممرات عدل بي إلى دار عظيمة مفروشة بأنواع الفرش الفاخر والآلات والخدم فأجلست وتركت وحدي وانصرف من أدخلني فلبثت يومي لا أدرى من أعرف إلا خدم يدخلون ويخرجون ، وطعام عظيم ينقل وهم يقولون الليلة تزف فلانة اسم زوجتي إلى فلان البزاز . فلما جاء الليل أثر الجوع بي ، وأقفلت الأبواب وآيست من الجارية فقمت أطوف في الدار فوقعت على المطبخ وإذا قوم طباخون جلوس فاستطعمتهم فلم يعرفوني فقدموا إلى داجيراجة فأكلتها ومسحت يدي باشنان كان في المطبخ وأنا مستعجل لئلا يفطن بي وظننت أني نقيت من ريحها ، وعدت إلى مكاني فلما انتصف الليل إذا بطبول وزمور والأبواب تفتح وصاحبتي قد أهديت إلي وجاؤا بها يحملونها وأنا أقدر أن ذلك في النوم ولا أصدق به ، وقد كادت مرارتي تنشق سرورا ثم خلوت بها وانصرف الناس فحين تقدمت اليها وقبلتها رفستني فرمت بي عن المنصدة ، وقالت : أنكرت أن تفلح ياعامي ، وقامت لتخرج فتعلقت بها وقبلت الأرض بين يديها وقلت : عرفيني ذنبي واعملي بعده ما شئت فوقفت وقالت : هات حديثك عن يومك كله فقصصت عليها القصة كلها فلما وقفت عليها قالت : قل علي ، وعلي ، وحلفتني بأيمان غليظة لا أكلت داجيراجة إلا غسلت يدي أربعين مرة فاستحييت وتبسمت قلت فرجعت إلى المنصدة وصاحت ياجواري فجاءت عدة وصائف . فقالت : هاتن ما نأكل . فقدمت الينا مائدة حسنة وألوان فاخرة من موائد الخلفاء وألوانهم فأكلت وأكلت معها واستدعت

شراباً أنا وهى وغنى لنا أولئك الوصائف وقمنا إلى الفراش فدخلت معها وافتضضتها وبت بليلة من ليالى الجنة ولم نفترق أسبوعا ليلا ونهاراً إلى أن انقضت وليمة الأسبوع وكانت عظيمة فاخرة . فلما كان من الغد قالت : إن دار الخلافة لا تحتمل المقام فيها أكثر من هذا ، وما تم لأحد أن يدخل فيها بعروس غيرك ، وكل ذلك بعناية السيدة وقد أعطتنى خمسين ألف دينار من عين ، وورق وجوهر وقماش ، ولى خارج القصر أموال وذخائر وكلها لك فاخرج وخذ معك مالا واشتر لنا داراً عظيمة حسنة واسعة الصحن فيها بستان كبير كثيرة الحجر ، ولا تضيق على نفسك كما تضيق نفوس التجار فانى ما تعودت السكن إلا فى الصحون الواسعة واحذر أن تبتاع شيئاً ضيقاً فلا أسكنه وإذا تم البيع فأصلحها ونظفها وعرفنى لأنقل اليك مالى وانتقل . فقلت : أفعل كما تأمرين . فسلمت لى عشرة آلاف دينار فأخذتها وخرجت وآتيت دارى فانهال الناس على واعترضت الدور حتى ابتعت ما وافق اختيارها ، وكتبت اليها بالخبر ، فنقلت إلى تلك النعمة بأسرها ، وعندى ما لم أظن أنى أراه فضلا عن أن أملكه ، وأقامت عندى كذا وكذا سنة أعيش معها بعيش الخلفاء ، وأتجر فى خلال ذلك لأن نفسى لم تسمح بترك الصنعة وابطال المعيشة ، فتزايد مالى وجاهى ، وولدت لى هؤلاء الشبان ، وأومى إلى أولاده ، وماتت رحمها الله وبقى على مضرة الداجيراجة أنى لا آكلها إلا غسلت يدى أربعين مرة .

٭ ٭ ٭

وجدت فى بعض الكتب أن عيسى بن موسى الهاشمى كان يحب زوجته حبا شديداً فقال لها : أنت طالق إن لم تكونى أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه وقالت : قد طلقتنى وباتت بليلة عظيمة فلما أصبح عدا على المنصور وأخبره الخبر وقال له : يا أمير المؤمنين ان تم على طلاقها تلفت نفسى عنها ، وكان الموت أحب إلى من الحياة ، وأظهر للمنصور جزعاً شديداً . فأحضر المنصور الفقهاء واستفتاهم ؟ فقال جميع من حضر : قد طلقت إلا رجلا واحداً من أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه فانه سكت ،

فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » فلا شيء يا أمير المؤمنين أحسن من الإنسان فقال المنصور لعيسى بن موسى : قد فرج الله عز وجل عنك ، والأمر على ما قال هذا فأقم على زوجتك . وراسلها أن أطيعى زوجك فما طلقك .

٭ ٭ ٭

عن محمد بن يونس قال لما سلمت عمل دمشق إلى أبى المغيث الرافعى سألنى ان اكتب له عليه ففعلت فلما تآنست أنا وهو حدثنى أول خبره فى تقلده الناحية فقال لى كنت قصدت عيسى بن موسى وهو يتقلد حمص فصرفنى وقلده ابن عم لى فانصرفت عنه إلى الرافقة وكان لابنة عم لى جارية نفيسة قد ربتها وعلمتها الغناء وكنت ادعوها فالفتها ووقعت فى قلبى موقعا عظيما واشتد حبى لها فعملت على بيع منزلى وابتاعها وناظرت مولاتها فى ذلك فحلفت إنها لا تنقص ثمنها عن ثلاثة آلاف دينار فنظرت فاذا أنا افتقر ولا تفى حالى كلها بثمنها فقامت قيامتى واشتد وجدى، وانحدرت إلى سر من رأى أطلب تصرفا أو مابه شراها وكان محمد بن اسحق الطاهرى وأبوه يوهبان لى فقصدت محمدا ومعى دواب و بقية من حالى فأقمت عليه مدة لم يسنح لى فيها تصرف فأبدت لى رقة الحال فانحدرت إلى بغداد اقصد اسحق بن إبراهيم الطاهرى فوردت فى زورق وفكرت فى أمرى وعلى من انزل فلم اثق بغير محمد بن الفضل الحوحوانى لمودة كانت بينى وبينه فقصدته ونزلت عليه ووقع ذلك منه أجل موقع وفاتشنى عن أمرى وسألنى عن حالى فذكرت له قصتى مع الجارية فقال والله لا تبرح من مجلسك حتى تقبض ثمنها وأمر خادمه فأحضر كيسا فيه ثلاثة آلاف دينار وسلمت إلى وتأبيت عليه فحلف إيمانا مؤكدة ان اقبله وقال ان اتسعت لقضائه واحتجت إليه لم امتنع من أخذه منك فأخذت الكيس وشكرته وتشاغلنا بالشرب فلما كان من الغد أتى رسول اسحاق بن إبراهيم الطاهرى يطلبنى فصرت إليه فأحتفى بى واكرمنى وقال ماظننت إنك توافى بلدا احله فتنزل غير دارى فقلت والله ماوافيت إلا قاصدا إلى الأمير ولكن

دوابی تأخرت فتوقعت ورودها لاصیر إلى باب الأمیر علیها فدعا بکتب وردت من محمد بن عبد الملك وفیها کتاب من أمیر المؤمنین المعتصم بولایتی دمشق وأرانی کتابا یعلمه فیه ماخبأ علی بن اسحاق من قتل رجاء بن الضحاك بدمشق وان أمیر المؤمنین رأى تقلیدك وطلبت بسر من رأى فذکر له إنك انحدرت إلى اسحاق بن إبراهیم فأمر بتسلیم کتبك إلی ودفع مائة ألف دینار لك معونة على خروجك واحضر المال ووکل بی من یستحثنی على البدار فورد علی من السرور ما أدهشنی وودعته وخرجت إلى محمد بن الفضل فعرفته ماجرى وودعته أیضا وأخرجت دنانیره فرددتها علیه فحلف بإیمان غلیظة عظیمة لا عادت إلى ملکه أبدا وقال ان جلست فی عملك واتسعت لم أمتنع أن أقبل منك غیر هذا . فشخصت ومررت بالرقة وابتعت الجاریة وبلغت مناى بملکها واجتزت بحمص بابن عمی وأنا أجل منه عملا ودخلت عملی فصنع الله سبحانه وو سع ».ووجدت فی کتاب «السمیر» للمداینی أن رجلا من بنی أسد علق امرأة من همدان بالکوفة وشاع امرهما فوضع قوم المرأة علیه عیونا حتى أخبروا أنه قد اتاها فی منزلها فأتوا دارها واحتاطوا بها فلما رأت ذلك ولم تجد للرجل مهربا وکانت المرأة بادیة فقالت له ما أرى لك موضعا أستر من أن أدخلك خلف ظهری وتلزمنی فأدخلته بینها وبین القمیص ولزمها من خلفها ودخل القوم فداروا فی الدار حتى لم یترکوا موضعا إلا فتشوه فلما لم یجدوا الرجل استحیوا من فعلهم وأغلظت المرأة علیهم وعنفتهم فخرجوا وأنشأ الرجل یقول :

حبك اشهانی وحبك قادنی ... لهمدان حتى امسکوا بالمخنق
فجاشت إلى النفس أول مرة ... فقلت لها ما تفرقی حین مفرقی
رویدك حتى تنظری عم تنجلی ... عمایة هذا العارض المتعلق

* * *

ذکر الهیثم بن عدی أن جماعة من عذرة حدثوه أن جمیل بثینة حضر ذات لیلة عند خباء حتى إذا صادف منها خلوة تنکر ودنا منها وکانت اللیلة ظلماء ذات غیم ورعد وریح فحذف بحصاة فأصابت بعض أترابها ففزعت و لته

ماحذفنى فى هذه الليلة إلا الجن ، ففطنت بثينة أن جميلا فعل ذلك فقالت لربتها الا فانصرفى ياأخية إلى منزلك حتى تنامى فانصرفت و بقت مع بثينة أم الحسين ويروى أم اليسير بنت منظور وكانت لا تكتمها فقامت إلى جميل فادخلته الخباء معها وتحـــدثوا جميعا ثم اضطجعوا وذهب بهم النوم حتى أصبحوا وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به اليهافرآها نائمةونظر جميلا فمضى لوجهه حتى خبر سيده وكانت ليلى رأت الغلام والصبوح معه وقد عرفت خبر جميل وبثينة فاستوقفته كانها تسأله عن حاله وطاولته الحديث وبعثت بجارية لها وقالت حذرى جميلا وبثينة فجاءت الجارية ونبهتهما فلما تبينت بثينة أن الصبح قد اضاء والناس قد انتشروا ارتاعت لذلك وقالت ياجميل نفسك قد جاء غلام بعلى بصبوح من اللبن فرآنا نائمين فقال : جميل وهو غير مكترث :

لعمرك ما خوفتنى من مخافـة على ولا حذرتنى موضع الحذر
وأقسم ما يلتى لى اليوم عزة وفى الكف منى صارمقاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت النضد وقالت إنما اسألك ذلك خوفا على نفسى من الفضيحة لا خوفا عليك ونامت واضجعت أم الحسين إلى جانبها فجاء زوجها إلى أخيها وأبيها فعرفهما الخبر وجاءوا بأجمعهم الى بثينة وهى نائمة فكشفوا عنها الثوب فرأوا أم الحسين إلى جانبها نائمة فخجل زوجها وسب عبده وقالت : ليلى لأبيها وأخيها قبحكما الله فى كل يوم تفضحان المرأة فى فنائكما ويلكما هذا لا يجوز ، فقالا إنما فعل ذلك زوجها فقالت : قبحه الله وإياكما فجعلا يسبان زوجها وانصرفوا وأقام جميل تحت المنضد إلى الليل ثم ودعها وانصرف :

* * *

عن أبى القاسم على بن أحمد الكاتب المعروف بابن كردويه قال : كان لى صديق من أهل واذان عظيم النعمة والضيعة فحدثنى قال : تزوجت فى شبابى امرأة من آل وهب ضخمة النعمة حسنة الخلقة والأدب كثيرة المروءةذات جوار مغنيات فعشقتها عشقاً مبرحا وتمكن لها من قلبى أمر عظيم ومكث

عيشي بها طيباً مـــدة طويلة ثم جرى بيني وبينها بعض ما يجرى بين الناس فغضبت علي وهجرتني واغلقت باب حجرتها من الدار دوني ومنعتني الدخول اليها وراسلتني بأن اطلقها فترضيتها بكل ما يمكنني فلم ترض ووسطت بيننا أهلها من النساء فلم ينجح فلحقني الكرب والغم والقلق والجزع حتى كاد يذهب بعقلي وهي مقيمة على حالها فجئت إلى باب حجرتها وجلست عنده مفترشاً التراب ووضعت خدي على العتبة أبكي وانتحب واتلافاها واسألها الرضا وأقول كلما يجوز أن يقال في مثل هذا وهي لا تكلمني ولا تفتح الباب ولا تراسلني ثم جاء الليل فتوسدت العتبة إلى أن أصبحت وأقمت على ذلك ثلاثة أيام بلياليها وهي مقيمة على الهجران فيئست منها وعزلت نفسي ووبختها ورضيتها على الصبر وقمت من باب حجرتها عاملا على التشاغل عنها ومضيت إلى حمام في داري فأمطت عن جسدي الوسخ الذي كان لحقه وجلست لأغير ثيابي وأتبخر فإذا بزوجتي قد خرجت إلي وجواريها المغنيات حواليها لاتهن يغنين ومع بعضهن طبق فيه أوساط وسنوسج وماء ورد وما أشبه ذلك فحين رأيتها استطرت فرحا وقمت إليها وأكببت على يديها ورجليها وقلت ماهذا ياستي ؟ فقالت : تعال حتى نأكل ونشرب ودع السؤال وجلست وقدم الطبق فأكلنا جميعاً ثم جيء بالشراب واندفع الجوارى بالغناء وأخذنا في الشراب وقد كاد عقلي يزول سرورا فلما توسطنا أمرنا قلت لها ياستي : أنت هجرتيني بغير ذنب كبير أوجب مابلغته من الهجران وترضيتك بكل مافي المقدرة فما رضيت ثم تفضلت ابتداء بالرجوع إلى وصالي بما لم تبلغه أمالي فعرفيني ماسبب هذا ؟ قالت : كان الأمر في سبب الهجر ضعيفاً كما قلت ولكن تداخلني في التجني مايتداخل المحبوب ثم استمر بي اللجاج وأراني الشيطان الصواب فيما فعلته فأقمت على مارأيته فلما كان الساعة أخـــذت دفترا كان بين يدي وتصفحته فوقعت عيني على قول الشاعر .

الدهر أقصر مـــدة من أن يضيع في الحساب
فتغنّموا ســـاعاته فمرورها مر السحاب

قالت : فعلمت أنها عظة لي وأن سبيلي ان لا أسخط الله عز وجل بإسخاط

زوجي ولا أستعمل اللجاج فأسوءك وأسوء نفسي فجئتك لا ترضاك وأرضيك فانكببت على يديها ورجليها وصفا ما كان بيننا .

* * *

عن عبد الملك بن عمر قال قدم علينا عمرو بن هبيرة الكوفي فأرسل إلى عشرة من أصحابه وإذا أحدهم من وجوه أهل الكوفة فسهرنا عنده ثم قال : ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة وابدأ أنت فقلت أصلح الله الأمير : أحديث الحق أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحق قلت: إن امرىء القيس بن حجر الكندي حلف أن لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية ، وأربعة ، واثنين وجعل يخطب النساء وإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير في الليل إذا برجل يحمل بنتاً له صغيرة كأنها البدر لتمه فأعجبته فقال : ياجارية ما ثمانية ، وأربعة ، واثنان ؟ قالت : أما الثمانية فأطباء الكلبة ، وأما الأربعة فأخلاق الناقة، وأما الاثنان فثديا المرأة فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاثة خصال فجعل لها ذلك على أن يسوق لها مائة من الإبل وعشرة عبيد وعشرة وصائف وثلاث أفراس ففعل ثم أنه بعث عبداً له إلى المرأة وأهدى إليها نحيا من سمن، ونحيا من عسل، وحلة من عصب فنزل العبد ببعض المياه ونشر الحلة فلبسها فتعلقت بشجرة فانشقت وفتح النحيين واطعم أهل الماء منهما ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها فقالت : اعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وإن سماكم قد انشقت، وان وعاكما قد نضبا فقدم الغلام على مولاه فأخبره فقال : ماأقوى قولها انها تعني بقولها ان أباها ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا ان أباها ذهب يحالف قوما على قوم ، وقولها ذهبت أمي تشق النفس نفسين فإن أمها ذهبت تقبل امرأة نفساء وأما قولها أخي يراعي الشمس فإن أخاها في سرح له يرعاه فينتظر وجوب الشمس ليروح به وأما قولها ان سماكم قد انشقت فإن البرد الذي بعثت به انشق، وأما قولها ان وعاكما قد نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا فاصدقني قال يامولاي إني نزلت

بماء لبنى تميم . فسألونى عن نسبى فأخبرتهم أنى اعمك ، ونشرت الحلة فلبستها فتعلقت بشجرة ، وانشقت ثم فتحت النحيين ، وأطعمت منهما أهل الماء فقال : أولى لك ثم ساق الإبل ، وخرج نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فقام الغلام يستقى فأعانه امرىء القيس فرمى به الغلام فى البئر وخرج حتى أتى المرأة بالإبل وأخبر أباها أنه زوجها فقيل لها قدجاء زوجك فقالت : والله ما أدرى أهو زوجى أولا ، ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها . ففعلوا فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبناً خازراً وهو الحامض فسقوه فشرب . فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم . ففرشوا له فنام ، فلما أصبح أرسلت اليه أنى أريد أن أسألك فقال : سلى ما شئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ فقال : لتقبيلى إياك . فقالت : مم يختلج كشحاك ؟ فقال : لالتزامى إياك . فقالت : مم يختلج نخذاك ؟ فقال : لتوركى إياك . قالت : عليكم بالعبدفشدوا أيديكم به ففعلوا . قال ومر قوم فاستخرجوا امرىء القيس من البئر فرجع إلى حيه واستاق من الإبل ، وأقبل إلى امرأته . فقالت : والله لاأدرى أهوزوجى أولا ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها . ففعلوا فلما أتوه بذلك . قال : أين الكبد والسنام والملحاء وأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً خازراً فأبى أن يشربه ، وقال : أين الضريب والرايب . فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ففرشوا له فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى عند التلعة الحمراء واضربوا لى عليها خباً ثم أرسلت اليه هلم شرطى عليك فى المسائل الثلاث قال : فأرسل اليها أن سلى عما شئت قالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشرب المشعشات . قالت : فمم يختلج كشحاك ؟ قال : للبسى الحبرات . قالت : فمم يختلج نخذاك ؟ قال : لركضى المطهمات . قالت : هذا زوجى فعليكم به واقتلوا العبد . فقتلوه ، ودخل امرىء القيس بالجارية . قال ابن هبيرة : حسبكم فلا خير فى الحديث سائر الليلة بعد حديثك ياأبا عمرو ولن تأتينا بأعجب منه فقمنا وانصرفنا وأمر لى بجائزة سنية .

* * *

وجدت فى كتاب الأغانى الكبير لأبى الفرج المعروف بالأصبهانى الذى أجاز لى روايته فى جملة ما أجازه لى أخبار قيس بن دريح الكنانى قال فى صدرها : أخبرنى بخبر قيس بن دريج ، ولبنى امرأته جماعة من مشايخنا فى قصص متصلة ومنقطعة ، وأخبار منثورة ومنظومة فألفت جميع ذلك ليتسق حديثه إلا ماجاء منفرداً ، وحسن إخراجه عن جملة النظم ، فذكرته على حدة ، فممن أخبرنا بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : حدثنا عمر بن شبة ، ولم يتجاوزه إلى غيره ، وابراهيم بن أيوب عن أبى شبة ، والحسن بن على عن محمد بن موسى عن حماد البريدى عن أحمد بن يوسف عن جرير بن قطن عن حساس بن محمد عن محمد بن أبى السرى عن هشام بن محمد الكلبى ، وعلى روايته أكثر المعول ونسخت أيضاً من أخباره المنظومة أشياء ذكرها عن رجاله ، وخالد بن كلثوم عن نفسه ، ومن روى عنه ، وخالد بن حمل ، ونتفاً حكاها التوسعى صاحب الرسائل عن أبيه عن أحمد بن حماد جميل ، عن ابن أبى جناح الكعبى ، وحكيت كل متفق فيه متصلا ، وكل مختلف فى معانيه منسوباً إلى قالوا جميعاً : كان ينزل قيس برصة فى ظاهر المدينة ، وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة فمر قيس لبعض حوائجه بخباء من بنى كعب من خزاعة ، والحى جلوس فوقف على خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماء فسقته وخرجت به اليه ، وكانت امرأة شديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام ، فلما رآها وقعت فى نفسه وشرب الماء . فقالت له : أتنزل عندنا ؟ قال : نعم ، فنزل بهم وجاء أبوها فنحر له وأكرمه . فانصرف قيس وفى قلبه من لبنى حر لا يطفى فجعل ينطق الشعر فيها حتى شاع وروى ثم أتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها فسلم ، وظهرت له وردت عليه سلامه ، وتحفت به فشكا اليها ما يجد بها ، وما لقى من حبها . فشكت مثل ذلك فأطالت ، وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه ، فانصرف إلى أبيه فأعلمه حاله ، وسأله أن يزوجه إياها . فأبى عليه وقال : يابنى عليك باحدى بنات عمك فهن أحق بك وكان دريج كثير المال فأحب أن لا يخرج ابنه عن يده . فانصرف قيس ، وقد ساءه ماخاطبه به أبوه ، فأتى أمه وشكا ذلك اليها ، واستعان بها على أبيه

فلم يجد عندها ما يحب فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وروى أبو الفرج قبـــل هذا في أخبار قيس باسناد مفرد لم أذكره ههنا خوف الإطالة أنه كان رضيع الحسين عليه السلام ، وأتى إلى ابن عتيق ، وكان صديقه فشكا اليهما ما به ، وما رد عليه أبوه . فقال له الحسين عليه السلام : أنا أكفيك . فمشى معه إلى أبي لبنى ، فلما بصر به أعظمه ووثب اليه وقال : يا ابن رسول الله ما جاء بك الا بعثت إلى فآتيك فقال : إن الذي جئت له يوجب قصدك ، وقد جئتك خاطباً لبنى لقيس بن دريح . فقال : يا ابن رسول الله الا بعثت إلى وما كنا لنعصى لك أمراً ، وما بنا عن الفتى رغبة ، ولكن أحب أمرين اليها أن يخطبها أبوه دريح ، وأن يكون ذلك عن أمره ، فإنا نخاف إن سمع أبوه بعد هذا يكون عاراً وسبة علينا . فأتى الحسين رضي الله عنه دريحاً ، وقومه مجتمعون عليه فقاموا اليه اعظاماً وقالوا له مثل قول الخزاعيين . فقال يا دريح : أقسمت عليك الا خطبت لبنى لابنك قيس . قال : السمع والطاعة لأمرك . فخرج معه في وجوه قومه حتى أتى حي لبنى فخطبها دريح على ابنه لأبيها فزوجه إياها ، وزفت اليه . فأقام معها مدة لا ينكر أحدهما من صاحبه شيئاً ، وكان أبر الناس بأمه فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك فوجدت أمه في نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري ، ولم تر للكلام موضعاً ، حتى مرض قيس مرضاً شديداً . فلما برأ قالت أمه لأبيه : لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفاً ، وقد حرم الولد من هذه المرأة ، وأنت ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً ، وألحت عليه في ذلك . فأمهلها حتى اجتمع قومه ثم قال يا قيس : إنك اعتللت هذه العلة ولا ولد لك ولا لي سواك ، وهذه المرأة ليست بولود فتزوج احدى بنات عمك لعل الله تعالى أن يهب لك ولداً تقر به أعيننا وعينك . فقال قيس : لست متزوجاً غيرها أبداً . فقال أبوه ان في مالي سعة فتسرى بالاماء . فقال . ولا اسوءها بشيء أبداً . فقال أبوه : إني أقسم عليك إلا طلقتها . فأبى وقال : الموت والله أسهل عليّ من

ذلك ، ولكن أخيرك خصلة من خصال . قال : وما هي ؟ قال : تتزوج أنت فلعل الله أن يرزقك ولد غيري . قال : ما بي فضل لذلك . قال : فدعني أرحل عنك بأهلي . قال : ما كنت لأصنع . قال : فدع لبنى عندك وارتحل أنا عنك لعلي أسلوها فإني ما تحب بعد أن تكون نفسي طيبة بأنها في حبالي . قال : لا أرضى أو تطلقها . ثم حلف أنه لا يكنه سقف بيت أبداً حتى تطلق لبنى ، وكان يخرج فيقعد في حر الشمس ، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه ، ويظله بردائه ، ويصلى وهو بحر الشمس حتى يفيء الفيء وينصرف إلى لبنى فيعانقها ويبكي وتبكي معه وتقول ياقيس : لا تطع أباك تهلك وتهلكني معك . فيقول : ما كنت لأطيع أحداً فيك أبداً . فيقال : انه مكث على ذلك سنة وقال خالد ابن كلثوم ذكر ابن عائشة : أنه أقام كذلك أربعين يوما ثم طلقها . وحكى ليث بن عمرو أنه سمع قيس بن دريج يقول ليزيد بن سليمان : هجرني أبواي في لبنى عشر سنين استأذن عليهما فيردانني حتى أطلقها . قال ابن جريج : فأخبرت أن عبد الله بن صفوان الطويل لقي دريجاً أباقيس فقال له : ما حملك ان فرقت بينهما أو ماعلمت ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ما أبالي فرقت بينهما أو مشيت إليهما . بالسيف وروى هذا الخبر من طريق آخر ان الحسين ابن علي رضى الله عنهما قال لدريج أبي قيس أحل لك ان فرقت بين قيس ولبنى اما اني سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته أو مشيت إليهما بالسيف . قالوا : فلما بانت لبنى منه بطلاقه إياها وفزع من الكلام لم يصمت حتى استطير عقله وذهب به ولحقه مثل الجنون وجعل يبكي ويتشنج أحر تسنج وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها يحملها وقيل بل أقامت حتى انقضت عدتها وقيس يدخل إليها فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل يحمل أثاثها فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها وقال ويحك مادهاني فيكم ؟ قالت لا تسئلني وسل لبنى فذهب ليلم بخبائها فمنعه قومها وأقبلت إليه امرأة من قومه فقالت : مالك تسئل ويحك كأنك جاهل أو متجاهل هذه لبنى ترحل الليلة أو غدا فسقط مغشيا عليه لا يعقل ثم أفاق وهو يقول :

واني لمفن دمع عيني بالبكا حذار الذي قد كان أو هو كائن

وقالوا غدا أو بعد غد ذاك بليلة   فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى   بكفى إلا أن من خان خائن

قال أبو الفرج من هذه الأبيات غناء ولها أخبار قد ذكرت فى أخبار المجنون يعنى قيس بن الملوح مجنون بنى عامر. ثم ذكر أبو الفرج بعد هذا عدة قطع من شعر قيس بن دريج. ثم قالوا فلما ارتحل بها قومها اتبعها مليا ثم علم ان أباها سيمنعه من المسير معها فوقف ينظر إليها ويبكى حتى غابوا عن عينه فكر راجعا ونظر إلى خف بعيرها فاكب عليه يقبله ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدميها فليم على ذلك وعنفه قومه فى تقبيل التراب فقال:

وما أحببت أرضكم ولكن   أقبل أثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلفى بلبنى   بلاء ما أسيغ له شرابا

ثم ذكر أبو الفرج قطعة من شعر قيس وأخبارا من أخباره فى لبنى مشهورة بأسانيد مفردة عن الإسناد الذى رأيته عنه هاهنا ثم رجع إلى موضع من الحديث الذى جمع فيه أسانيده وأتى بسباقة تطول عن أن أذكرها فى كتابى هذا جملتها عظيم مالحق قيسا من التململ والسهو والكمد والأسف والبكاء العظيم والجزع المفرط والصاق خده بالأرض على آثارها وخروجه فى أثرها يشم روائحها وعتابة نفسه فى طاعة أبيه على طلاقها وعلة اعتلها أشرف منها على الموت وجمع أبيه له فتيات الحى يعللنه ويحدثنه طمعا فى أن يسلوا عن لبنى ويعلق واحدة منهن فيزوجها منه وقصة له مع طبيب حضره وقطع شعره كثيرة له فى خلال ذلك وذكر فى جملة أخبار كثيرة بأسانيد متفرقة وبالإسناد الذى ذكره أن ابالبنى شكا قيساً إلى معاوية بن أبى سفيان وذكر تعرضه لها بعد الطلاق فكتب إلى مروان بن الحكم يهدر دمه ان تعرض لها فكتب مروان بذلك إلى صاحب الماء وأن أباها زوجها فبلغ ذلك قيساً فاشتد جزعه وجعل يتشنج أحر تشنج ويبكى أشد بكاء وأتى محلة قومها فنزل. عن راحلته وجعل يبكى فى موضعها ويمرغ خده على ترابها ويبكى أحر بكاء ثم قال قصيدة أتى بها أبو الفرج وبأخبارها أولها.

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا   إلى الله فقد الوالدين يتيم

وذكر بعدها أخبارا له معها واجتماعات عفيفة كانت بينهما بحيل ظريفة ووجدها به وبكاها وإنكار زوجها ذلك عليها ومكاشفتها له به وعلة أخرى لحقت قيساً واشهارها وافتضاحها وما لحق قيساً ولبنى من الخبل واختلال العقل وقطع شعر كثيرة أخر لقيس فى خلال ذلك وأن قيساً مضى إلى يزيد ابن معاوية فمدحه وشكى إليه مابه فرق عليه وأخذ له كتاب أبيه بأن يقيم حيث ما أحب ولا يعترض عليه أحد وأزال ما كان كتب به فى هدر دمه وقطع شعر كثيرة لقيس فى خلال ذلك وأخبار مفردة ومتصلة ثم قال وقد اختلف فى كثير من أمر قيس ولبنى وذكر كلاما كثيرا فى ذلك والجمع فى نيف وعشرين ورقة طلحية ثم قال بعد ذلك كله وذكر الفخذمى وابن عائشة وخالد ابن حمل ان أبي عتيق صار إلى الحسن والحسين عليهما السلام وعبدالله ابن جعفر رحمهما الله وجماعة من قريش فقال لهم : ان لى حاجة أخشى ان تردونى فيها وانى أستعين بجاهكم وأموالكم عليها قالوا ذلك مبذول لك منا فاجتمعوا ليوم وعدهم فيه فمضى بهم إلى زوج لبنى فلما رآهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره فقالوا قد جئناك بأجمعنا فى حاجة لابن أبي عتيق فقال مقضية كائنة ما كانت قال ابن أبي عتيق قد قضيتها كائنة ما كانت من أهل أو مال قال نعم قال فتهب لى اليوم لبنى زوجتك وتطلقها قال فإنى أشهدكم أنها طالق ثلاثاً فاستحيا القوم واعتذروا وقالوا والله ماعرفنا حاجته ولو علمنا أنها هذه ماسألناك إياها قال ابن عائشة فعوضه الحسن عليه السلام فى ذلك بمائة ألف درهم وحملها ابن أبي عتيق إليه ولم تزل عنده حتى انقضت عدتها فأتى القوم أباها فزوجها قيساً ولم تزل معه إلى أن ماتا فقال قيس بن دريج يمدح ابن أبي عتيق .

جزى الرحمن أفضل مايجازى   على الإحسان خيرا من صديق
فقــد جربت إخوانى جميعا   فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع   ورأى حرت فيه عن طريق
واطفا لوعــة كانت بقلبى   أغصــتنى حرارتهـا بريق

قال فقال له ابن أبي عتيق ياحبيبي امسك عن هذا الحديث فما يسمعه أحد إلا ظنني قوادا .

* * *

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني قال: أخبرني حبيب بن نصر المهلبي قال حدثنا عبد الله بن سعد قال: حدثني عبدالله بن نصر المروزي قال: حدثنا محمد بن عبد الله الطلحي ، قال حدثني سليمان بن يحيي بن معاذ قال : قدم عليّ بنيسابور إبراهيم بن سبابة يعني الشاعر البصري الذي كان جده حجامافاعتقه بعض بني هاشم فصار مولى لهم فأنزلته على فجاءني ليلة من الليالي وهو مكروب وقد هام فجعل يصيح بي يا أبا أيوب؟ فخشيت أن يكون قد غشيته بلية فقلت له ماتشاء فقال (أعياني الشاذن الربيب) فقلت له ماذا تقول فقال (أشكو إليه فلا يجيب) فقلت داره وداوه فقال :

من أين أبغي شفاء مابي وإنما داني الطبيب

فقلت فلا إذا الا أن يفرج الله تعالى فقال (يارب فرج اذن وعجل) (فإنك السامع المجيب) ثم انصرف .

* * *

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني قال حدثني محمد بن مزيد أبي الأزهر قال: حدثنا حماد بن إسحق قال: حدثني أبي قال سرت إلى سر من رأى بعد قومي من الحج فدخلت إلى الواثق فقال بأي شيء اطرفتني من الأحاديث التي استفدتها من العرب في اشعارهم فقلت ياأمير المؤمنين جلس إلى فتى من الأعراب في بعض المنازل يحدثني فرأيت منه أحلى من رأيت من الفتيان منظرا وحديثا وظرفا وأدبا فاستنشدته فأنشدني .

سقى العلم الفرد الذي في ظلاله غزالان مكتنفان مؤتلفان

إذا أمنا التفا بجيدي مواصل وطرفاهما للريب مسترقان

أردتهما ختلا فلم استطعهما ورميا ففاتاني وقد قتلاني

ثم تنفس تنفسا ظننت أنه قد قطع حيازيمه فقلت مالك بأبي أنت وأمي؟! فقال لي ورأ هذا الجبلين شجي لي وقد حال قومه بيني وبين المرور بهذه البلاد

وهدروا دمى فأنا أتمتع بالنظر إلى الجبلين تعللا به إذا قدم الحاج ثم يحال بينى وبين ذلك فقلت له زدنى مما قلت فأنشدنى .

إذا ماوردت الماء فى بعض أهله حضور فعرض بى كأنك مادح
فإن سألت عنى حضورا فقل لها به غير من دائه وهو صالح

فأمرنى الواثق فكتبت الشعرين فلما كان بعد أيام دعانى فقال : قد صنع بعض عجائز دارنا فى أحد الشعرين لحنا فاسمعه فإن ارتضيته أظهرناه وإن رأيت فيه موضع إصلاح أصلحته فغنى لنا فيه من وراء الستارة فكان فى نهاية الجودة وكذا كان يفعل إذا صنع شيئا فقلت له أحسن الله صانعه ياأمير المؤمنين ماشاء فقال بحياتى فقلت وحياتك وحلفت له بما وثق به فأمر لى برطل فشربته ثم أخذ العود فغناه ثلاث مرات فلما كان بعد أيام دعانى وقال لى قد صنع بعض عجائز دارنا فى الشعر الآخر لحنا وأمر فغنى به وكانت حالى به كالحالة الأولى فى الشعر الأول لما استحسنته وحلفت له على جودته وسقانى ثلاثة أرطال وأمر لى بثلاثة ألف درهم ثم قال قد قضيت حق هديتك قلت نعم ياأمير المؤمنين أطال الله بقاك وأتم نعمته عليك ولا أفقدنيها منك ربك فقال : ولكنك لم تقض حق جليسك الأعرابى ولا سألتنى معونة على أمره وقد سبقت منه مسئلتك ثم قال : ولكنى كتبت بخبره إلى صاحب الحجاز وأمرته بإحضاره وخطبة المرأة له وحمل صداقها إلى قومها من مالى ففعل فقبلت يده وقلت السبق إلى المكارم لك وأنت أولى بها من عبدك ومن سائر الناس قال أبو الفرج : وصنعة الواثق فى الشعرين جميعاً من الرمل .

* * *

وجدت فى بعض كتبى قال أبو عبيدالله محمد بن على بن حمزة : كانت لزوجتى جارية حسنة الوجه فعشقتها فعلمت زوجتى بذلك فحجبتها عنى واشتد مابى من الوجد عليها وتنغصت على حياتى وقاسيت شدة شديدة فبينما أنا ذات ليلة نائم ومولاتها زوجتى إلى جانبى إذ رأيت فى النوم كان الجارية حيالى وأنا أبكى وقد لاح إنسان أنشدنى :

وقفت حيالك أذرى الدموع واخلط بالدمع منى دما

وأشكو الذى بى إلى عاذلى ولا خير فى الحب أن يكتما
رضيت بما ليس فيه رضــاً بتسليم طرفك ان ســلما
فتهت على واقضيــتنى واعزز على بأن أرغمــا

قال فانتبهت جزعا ودعوت بدواة وبياض وجلست فى فراشى فكتبت الشعر فقالت زوجتى مالك ماذا تصنع فقصصت عليها الرؤيا فقالت هذا كله من حب فلانة قدوهبتها لك .

* * *

أخبرنى أبو الفرج القرشى المعروف بالأصبهانى قال : نسخت من كتاب محمد بن موسى بن حماد ذكر الرياشى قال حماد الراوية أتيت مكة فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة المخزومى فتذاكرنا العذريين فقال عمر بن أبى ربيعة: كان لى صديق من بنى عذرة يقال له الجعد بن مهجع وكان أحد بنى سلامان وكان يلتى من الصبابة بالنساء على أنه كان لاعاهر الخلوة ولا سريع السلوة وكان يوافى الموسم فى كل سنة إذا جاء وقته وترجمت عنه الأخبار وتوكفت له الأسفار فغمنى ذات سنة أبطاؤه حتى قدم حجاج عذرة فأتيت القوم أنشد صاحبى وإذا غلام قد تنفس الصعدا ثم قال عن أبى المسهر تسأل؟ قلت : نعم عنه اسأل وإياه اردت . قال : هيهات هيهات أصبح أبو المسهر لامايوس منه فيهمل ولا مرجو فيعلل والله كما يقول الشاعر :

لعمرى ماحبى لاسماء تاركى أعيش ولا أقضى به فأموت

فقلت وما الذى به؟ قال: مثل الذى بك من الهيمان فى تهوككما فى الضلال وجركما أذيال الخسار كأنكما لم تسمعا بجنة ولا نار قلت ومن أنت منه يا ابن أخى قال أخوه قلت فــما يمنعك أن تسلك أخيك من الأدب وان تركب منه مركبه وأخوك كالبرد والبحار لاترفعه ولا يرفعك ثم صرفت وجه ناقتى وأنا أقول :

أرائحة حجاج عذرة وجهه ولما يرح فى القوم جعد بن مهجع
خليلان نشكو مانلاقى من الهوى متى أقل يسمع وان قال أسمع
ألا ليت شعرى أى شىء أصابه بلى زفرات هجن من بين أضلع

فلا يبعدنك الله خلا فإننى سألقى كما لاقيت فى الحب مصرعى

ثم انطلقت حتى وقفت موقفى من عرفات فبينما أنا كذلك إذا بإنسان قد تغير لونه، وساءت هيأته فأدنى ناقته من ناقتى ثم خالف بين أعناقهما وعانقنى وبكا حتى اشتد بكاؤه فقلت ماوراءك فقال نوح العذل وطول المطل ثم أنشأ يقول :

لئن كانت غـــدية ذات لب لقد علمت بأن الحب داء
ولا تنظر إلى تغيير جسمى وإنى لايفارقنى البـــكاء
فإنى لو تـكلفنى كلاما لعف الكلم وانكشف الغطاء
وان معاشرى ورجال قومى حتوفهم الصبابة واللقـــاء
إذا العذارى مات حليف قوم فذاك العبـــد تبكيه الرشاء

فقلت ياأبا المسهر انها ساعة يضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها فلو دعوت كنت تتمنى أن تظفر بحاجتك قال فتركنى وأقبل على الدعاء فلما نزلت الشمس للغروب وهم الناس أن يفيضوا منه سمعته يتـكلم بشىء فأصغيت إليه فإذا هو يقول

يارب كل غـــدوة وروحة من محرم يشكو الضنا ولوحة
أنت حسيب الخطب يوم الدوحة

فقال وما يوم الدوحة فقال : والله لأخبرنك ولو لم تسألى وتيممنا نحو مزدلفة فأقبل على وقال انى رجل ذو مال من نعم وشأ وذو المال لايعذره القل ولا يرويه الثماد وانى خشيت عام الاول على مالى التلف ونصر الغيث أرض كلب فانتجعت اخوالى منهم فاوسعوا لى عن صدر المجلس وسـقونى حمة الماء وكنت معهم فى خير أحوال ، ثم انى عزمت على مرافقة إبلى بماء لهم يقال له الحردان فركبت فرسى وسمطت خلفى شرابا كان أهداه إلى بعضهم ثم مضيت حتى إذا كنت بين الحى ومرعى الغنم رفعت لى دوحـة عظيمة فنزلت عن فرسى وشـددته بغصن من أغصانهـا وجلست فى ظلها فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحى ثم رفعت لى شخوص ثلاثة ثم تبينت فإذا فارس يطرد مسحلا وأتاناً فتأملتـه فإذا عليه درع أصفر وعمـامة خز

سوداء وإذا وروع شعره تضرب خصريه فقلت غلام حديث عهد بعرس أعجلته لذة الصيد فترك ثوبه ولبس ثوب امرأته فما جار على إلا يسيرا حتى طعن المسحل وثنى طعنة للإتان فصرعهما وأقبل راجعا نحوى وهو يقول :

نطعنهم سلكى ومخلوجة كرك لامين على نابل(١)

فقلت إنك قد تعبت وأتعبت فرسك فلو نزلت فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة وألقى رمحه وأقبل حتى جلس فجعل يحدثنى حديثاً ذكرت به قول أبى ذؤيب .

وإن حديثا منك لو تبذلينه جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

فقمت إلى فرسى فأصلحت من أمره ثم حسر العمامة عن رأسه فإذا غلام كأن وجهه الدينار المنقوش . فقلت سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك فقال لى مم ذاك قلت مما راعنى من جمالك وبهرنى من نورك قال وما الذى يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب ثم لا يدرى بعد ذلك أينعم أم ييأس قلت لا يصنع الله بك إلا خيرا ثم تحدثنا ساعة فأقبل علىّ فقال : ماهذا الذى أرى قد سمطت فى سرجك فقلت شراب أهداه لى بعض أهلك فهل لك فيه من أرب قال أنت وذاك فأتيته به فشرب منه وجعل والله ينكث بالسوط أحياناً على ثناياه فجعل والله يتبين لى أثر السوط فيهن فقلت مهلا فإنى خائف أن تكسرهن قال ولم قلت لأنهن رقاق عذاب فرفع عقيرته يتغنى وأنشد :

إذا قبل الإنسان آخر يشتهى ثناياه لم يأثم وكان له أجرا
فإن زاد زاد فى حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

قال ثم قام إلى فرسه فأصلح أمره ثم رجع قال فبرقت لى بارقة من تحت الدرع فإذا الذى كأنه حق عاج . فقلت نشدتك الله : امرأة أنت؟ قالت نعم والله(٢) إلا أنها تكره الغارة وتحب الغزل ثم أجلستها فجعلت تشرب معى

---

(١) الزيادة عن الأغانى .

(٢) الذى فى الأغانى إلا أنى أكره العشير وأحب الغزل (ولعل الصواب العزلة) ثم جلست .

ماأفقد من أنسها شيئا حتى نظرت إلى عينيها كأنهما عينا مهاة مذعورةفوالله ماراعنى إلا ميلها على الدوحة سكرى فزين لى والله الغدر وحسن فى عينى ثم إن الله عز وجل عصمنى منه فجلست حجرة منها فما لبثت إلا يسيرا حتى انتبهت فزعة فلاثت عمامتها برأسها وجالت فى متن فرسها وقالت جزاك الله عن الصحبة خيرا . قلت ألا تزودينى منك زاد فناولتنى يدها فقبلتها فشممت منها والله رائحة الشباب(١) المطلول وذكرت قول الشاعر :

كأنها إذ تقضى النوم وانتبهت   سحابة مالها عين ولا أثر

فقلت لها وأين الموعد قالت إن لى إخوة شوساً وأبا غيورا ووالله لأن أسرك أحب إلى من أن أضرك وانصرفت فجعلت أتبعها بصرى حتى غابت فهى والله ياابن أبى ربيعة أحلتنى هذا المحل وأبلغتنى هذا الموضع فقلت له ياأبا المسهر إن الغدر بك مع ماتذكر لمليح فبكى واشتد بكاؤه فقلت لاتبك فما قلت لك ماقلت إلا مازحا ولو لم أبلغ حاجتك بمالى لسعيت فى ذلك حتى أقدر عليه فقال لى خيرا فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى وشد على ناقته ودعوت غلامى فشد على بعير له وحملت عليه قبة حمراء من أدم كانت لأبى ربيعة المخزومى وحملت معى ألف دينار ومطرف خزو انطلقنا حتى أتينا بلاد كلب فنشدنا عن أبى الجارية فوجدناه فى نادى قومه و إذاهو سيدالحى وإذا النـاس حوله فوقفت على القوم وسلمت فرد الشيخ السلام ثم قال من الرجل؟قلت: عمر بن عبد الله ابنأبىربيعةبنالمغيرة المخزومى قال: المعروف غير المنكر فما الذى جاء بك قلت خاطبـاً قال الكفء والرغبة قلت إنى لم آت ذلك لنفسى عن غير زهادة فيك ولا جهالة بشرفك ولكنى أتيت فى حاجة ابن أخيكم (٢) هذا العذرى وها هو ذاك فقال والله أنه لكفء الحسب رفيع البيت غير أن بناتى لم يتفقن (٣) إلا فى هذا الحى من قريش

---

(١) الذى فى الأغانى المسك المفتوت .

(٢) الذى فى الأغانى أختكم .

(٣) الذى فى الأغانى يقعن ولعل الصواب يقمن .

فوجمت لذلك وعرف التغير فى وجهى فقال أما انى صانع بك مالم أصنع بغيرك قلت مثلى من شكر ما ذلك قال أخيرها مهى وما اختارت قلت ما انصفتنى إذ تختار لغيرى وتولى الخيار غيرك وأشار إلى العذرى أن دعه يخيرها فأرسل اليها أن من الأمر كذا وكذا فأرسلت اليه ماكنت لأستبد برأى دون القرشى فالخيار فى قوله وحكمه فقال لى إنها قد وكلتك فاقض ما أنت قاض فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه بما هو أهله وصليت على النبى صلى الله عليه وسلم وقلت اشهدوا أنى قد زوجتها من الجعد ابن مهجع وأصدقتها هذه الألف دينار وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة وكسوت الشيخ المطرف وسألته أن يبنى (١) علبها من ليلته فأرسل إلى أمها فأبت وقالت أتخرج ابنتى كما تخرج الأمة. فقال الشيخ: فعجل فى جهازها فما برحت حتى ضربت القبة فى وسط الحريم وأهديت اليه ليلا وبت أنا عند الشيخ فلما أصبحت أتيت القبة فصحت بصاحبى فخرج إلى وقد أثر السرور فيه فقلت كيف كنت بعدى وكيف هى بعدك فقال لى أبدت لى والله كثيرا مما كانت تخفيه عنى يوم لقيتها فسألتها عن ذلك فأنشأت تقول هذه الأبيات.

كتمت الهوى لما رأيتك جازعا ‏ ‏ وقلت فتى بعض الصديق يريد
وإن تطرحنى أو تقول فتية ‏ ‏ يضر بها برح الهوى فيعود
فواريت(٢) ما ألقى وفى داخل الحشا ‏ ‏ من الوجد جرح فاعلمن شديد(٣)

فقلت أقم على أهلك بارك الله لك فيهم وانطلقت وأنا أقول.

كميت أخى العذرى ما كان نابه ‏ ‏ وانى لأعباد النوائب حمال
أما استحسنت منى المكارم والعلا ‏ ‏ إذا طرحت إنى لما لى بذال (٤)

فقال العذرى :

---

(١) الذى فى الأغانى بها عليه فى ليلته .
(٢) رواية الأغانى فوريت عما بى
(٣) رواية الأغانى برح
(٤) الزيادة عن الأغانى

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه فأف لدنيا ليس من أهلها عمر
فلاحى فتيان الحجازين بعده ولا سقيت أرض الحجازين بالمطر

* * *

أخبرنى أبو الفرج الأصبهانى إجازة قال: أخبرنى عمى الحسن بن محمد قال: حدثنا عبدالله بن أبى سعد قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعى قال حدثنى معبد الصغير المغنى مولى على بن يقطين قال: كنت منقطعاً إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم فى منزلى إذا بابى يدق فخرج غلامى ثم رجع إلى فقال على الباب فتى ظاهر المروءة يستأذن عليك فأذنت له فدخل على شاب فما رأيت أحسن وجها ولا أنظف ثوباً ولا أجمل زيا منه من رجل دنف (١) عليه أثر السقم ظاهر فقال لى إنى أحاول لقاك منذ مدة فلا أجد إليه سبيلا وإن لى حاجة. قلت: ماهى؟ وأخرج ثلاثمائة دينار ووضعها بين يدى ثم قال أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتهما لحناً تغنينى به فقلت له هاتهما فأنشدنى.

بالله يا طرفى الجانى على بدنى لتطفئن بدمعى لوعة الحزن
أولا أبوحن حتى يحجبوا سكنى فلا أراه ولو أدرجت فى كفنى

قال فصنعت له فيهما لحنا من الثقيل الأول مطلقا فى مجرى الوسطى ثم غنيته إياه فأغمى عليه حتى ظننته قد مات ثم أفاق فقال: أعد فديتك: فناشدته الله فى نفسه وقلت أخشى أن تموت فقال هيهات أنا أشقى من ذلك وما زال يخضع لى ويتضرع حتى أعدته عليه فصعق صعقة أشد من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت فلما أفاق رددت الدنانير عليه ووضعتها بين يديه وقلت ياهذا خذ دنانيرك وانصرف عنى فقد قضيت حاجتك وبلغت وطرا مما أردته ولست أحب أن أشرك فى دمك فقال لا حاجة لى فى الدنانير وهذه مثلها ثم أخرج ثلثمائة دينار أخرى وقال اعد على الصوت مرة أخرى وخذها فقلت لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط قال وما هن قلت أولها أن تقيم عندى وتتحرم بطعامى والثانية أن تشرب اقداحا من النبيذ تشد قلبك ويسكن مابك. والثالثة تحدثنى بقضيتك. فقال: أفعل ما تريد فأخذت

(١) الزيادة عن الأغانى

الدنانير ودعوت بطعام فأصاب منه إصابة معذر ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا ، وغنيته بشعر غيره فى معناه ، وهو يشرب ويبكى . ثم قال : أعزك الله أعد على صوتى . فغنيته صوته ، فجعل يبكى أحر بكاء وينشج أشد نشيج وينتحب فلما رأيته (١) قد خف عما كان يلحقه ، والنبيذ قد شد من قلبه كررت عليه صوته مراراً ثم قلت له : حدثنى حديثك . فقال : أنا رجل من المدينة خرجت متنزهاً فى ظاهرها — وقد سال العقيق — فى فتية من أقاربى (٢) فبصرنا بفتيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له فجلسن حجرة منا وبصرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طله الندى ، تنظر بعين ما ارتد طرفها إلا بنفس ملاحظها فأطلن وأطلنا حتى تفرق الناس وانصرفن وانصرفنا ، وقد أبقت بقلبى جرحاً بطيئاً اندماله فعدت إلى منزلى وأنا وقيذ وخرجت من الغد إلى العقيق وليس فيها أحد فلم أرها ولا لصواحباتها أثراً ثم جعلت أتتبعها فى طرق المدينة وأسواقها فكأن الأرض قد ابتلعتها فلم أحس لها بعين ولا أثر وسقمت فقمت حتى أيس منى أهلى ، ودخلت بيت ظئر لى فسألتنى عن حالى وضمنت لى حالها ، والسعى فيما أحبه منها فأخبرتها بقصتى فقالت : لا بأس عليك هذه أيام الربيع وهى سنة خصب وأنواء ، وليس يبعد عنك المطر فيمد(٣) العقيق والنسوة سيجئن فاذا رأيتها اتبعها حتى أعرف خبرها وموضعها ، وأسعى لك فى تزويجها فكأن نفسى اطمأنت وتراجعت وجاء المطر فسال العقيق فخرجت مع إخوانى اليها فجلسنا مجلسنا الأول كما كنا إلا والنسوة أتين كفرسى رهان فأومأت إلى ظئرى فجلست حجرة قريبة منا ومنهن ، فأقبلت على إخوانى فقلت لهم أحسن القائل :

رمتنى بسهم أقصد القلب وانثنت   وقد غادرت جرحا بها(٤) وندوبا

---

(١) فى الأغانى رأيت ما به قد خف عما كان يلحقه ورأيت النبيذ .

(٢) فى الأغانى من أقرانى وأخذنى فبصرنا بقينات .

(٣) فى الأغانى وهذا العقيق ثم فيه اختلاف فى العبارة فيما سيأتى أيضا .

(٤) رواية الأغانى به .

فأقبلت هي على صواحبها فقالت : أحسن والله القائل ، وأحسن من أجابه حيث يقول :

بنا مثل ماتشكوا فصبرا لعلنا   نرى فرجا يشفى السقام قريبا

فأمسكت عن الجواب خوفا من أن يظهر منى ما يفضحنى وإياها ، وعرفت ما أرادت ثم تفرق الناس وانصرفنا ، وتبعتها ظئرى حتى عرفت منزلها ، وصارت إلى فأخذت بيدى ومضينا اليها فلم تزل تتلطف حتى وصلنا اليها فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسة ومراقبة ، وشاع حديثى وحديثها ، حتى ظهر مابينى وبينها فحجبها أهلها ، وتشدد عليها أبوها . فلم أقدر عليها فشكوت إلى أبى مانالنى وشده ما ألقى وسألته خطبتها لى فمضى أبى ومشيخة أهلى إلى أبيها وخطبوها . فقال : لوكان بدأ بهذا قبل أن يشهرها لأسعفته بحاجته وبما التمس ، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقق قول الناس بتزويجها إياه . فانصرفنا على يأس منها ومن نفسى ، قال معبد : فسألته أين تنزل ؟ فخبرنى . فصارت بيننا عشرة ، ثم جلس جعفر بن يحيى يوما للشرب فأتيته فكان أول بيت غنيته به شعر الفتى وصوتى الذى صنعته فيه فطرب منه طربا شديداً وقال : ويحك لمن هذا ؟ فقلت : إن للصوت حديثاً . فقال : ماهو ؟ فحدثته فأمر بإحضار الفتى فأحضر من وقته ، واستعاده الحديث فأعاده عليه فقال : هى فى ذمتى حتى أزوجكها . فطابت نفسى ونفس الفتى فأقمنا ليلتنا حتى أصبح ، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدثه الحديث فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعاً وأمر بأن أغنيه الصوت فغنيته فشرب عليه وسمع حديث الفتى وأمر من وقته بالكتاب إلى عامل الحجاز باشخاص الرجل وابنته وسائر أهله إلى حضرته فلم يمض إلا مسافة الطريق حتى حضروا فأمر الرشيد بإيصاله إليه فأوصله وخطب اليه الجارية للفتى فأجابه وزوجه إياها ، وحمل الرشيد اليه ألف دينار لمهرها وألف دينار لجهازها وألف دينار لنفقة الطريق وأمر للفتى بألفى(١) دينار وكان المدنى بعد ذلك فى جملة ندماء جعفر .

* * *

---

(١) فى الأغانى بألف .

أخبرنا أبو الحسين محمد بن جعفر البصرى المعروف بابن لنكك فى رسالة فى فضل الورد على النرجس فقال من سمى بنته من سادات العرب وردة: شرحبيل التنوخى، وعابد الطائى، وهى التى كان داود التيمى عاشقاً لها فاستقبل النعمان بن المنذر فى يوم بؤسه ـ وقد خرج يريدها وهو لا يعلم بيوم النعمان ـ فقال: ماحملك على استقبالى فى يوم بؤسى؟ قال: شدة الوجد، وقلة الصبر. فقال ألست القائل؟:

وددت وكانت الحسنات أنى أقارع نجم وردة بالقداح
على قتلى بأبيض مشرفى وكونى ليلة حتى الصباح
فان تكن القداح علىّ تلق ذبحت على القداح بلا جناح
وإن كانت على يمن خدى لهوت بكاعب خود رزاح

قال: بلى. قال: فإنى مخيرك إحدى اثنتين فاختر لنفسك. قال ماهما؟ أبيت اللعن. قال: أخلى سبيلك أو أمتعك سبعة أيام ثم أقتلك. قال: بم تمتعنى؟ قال: بوردة. قال: قبلت الثانى فساق النعمان مهرها إلى عمها وجمع بينهما. فلما انقضت الأيام أقبل على النعمان وهو يقول:

إليك ابن ماء المزن أقبلت بعد ما مضت لى سبع من دخولى على أهلى
بجىء مقر لاصطناعك شاكر مننت عليه بالكريم من الفعل
لتقضى فيه ما أردت قضاءه من العفو أهل العفو أو عاجل القتل
فان يك عفواً كنت أفضل منعم وإن تكن الأخرى فمن حكم عدل

فأحسن جائزته وخلى سبيله وأنشد النعمان يقول:

إذ حوى من كان يهوى ونجى من كل بؤس
وكذاك الطير يجرى بسعــود ونحوس

* * *

قال مؤلف الكتاب: ووجدت كتاباً لأحمد بن أبى طاهر سماه كتاب: «فضائل الورد على النرجس» أكثر قدراً وأغزر فائدة من رسالة ابن لنكك فوجدته وقد ذكر فيه الخبر. قال: وممن سمى بنته وردة شرحبيل بن مسعود

الشرجى ، وهو صاحب العين على مسيرة يوم وليلة من مسيرة يوم وليلة من مسح . وبها التقى سليمان بن مبرد أمير الجيش الذى يقال لهم البوابون للطلب بدم الحسين بن على رضى الله عنهما وخيل عبيدالله بن زياد . وسمى عائذ الطائى بلته وردة وهى التى كان داود بن موسى التميمى ثم السعدى عاشقا لها ، وساق الخبر كما ذكره ابن لنكك والله تعالى أعلم .

* * *

الباب الرابع عشر

ما اختير من ملح الأشعار
فى أكثر معانى ماتقدم من الأمثال والأخبار

قال لقيط بن زرارة التميمى :

قدعشت فى الناس أطوارا على طرق ... شتى وقاسيت فيها اللين والفظعا
كلا لبست فلا النعماء تبطرنى ... ولا تجزعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا
ماسد مطلع ضاقت ثنيته ... إلا وجدت وراء الضيق متسعا

وقال أبو ذؤيب الهذلى :

فانى صبرت النفس بعد ابن عنبس ... وقد لج من ماء الشؤن لجوج
لأحسب(٢) جلداً أو ليخبر شامت ... وللشر بعد القارعات فروج

ويروى لأمير المؤمنين على رضى الله عنه :

إنى أقول لنفسى وهى ضيقة ... وقد أناخ عليها الدهر بالعجب
صبراً على شدة الأيام إن لها ... عقبى وما الصبر إلا عند ذى الحسب

وروى لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

خليلى لا والله مامن ملمة ... تدوم على حى وإن هى جلت
وإن نزلت يوما فلا تخضعن لها ... ولا تكثر الشكوى إذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب ... فصابرها حتى مضت واضمحلت
فكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت

وأنشد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه :

ولا تيأسن واستعون الله إنه ... إذا الله يسر عقد شىء تيسرا

لأبى دهبل الجمحى من قصيدة له :

---

(١) ليعلم أن كافة التعاليق الموجودة بهامش هذا الكتاب هى بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ عبدالغنى عبد الخالق المدرس بكلية الشريعة بالأزهر

(٢) رواية اللسان ليحسب

عسى كربة أمسيت فيها مقيمة يكون لنـــا منها رخاء ومخرج
فيكبت أعداء ويجــذل آلف له كبـــد من لوعة الحب تلعج
وإنى لمحزون غـــداة أزورها وكنت إذا ناديتها لاأعرج

لجارية بن بدر الغدانى :

قل(١) للفؤاد إذا نزا بك نزوة من الهم أفرخ أكثر الروع باطله

لتوبة بن الحمير العقيلى الخفاجى :

وقد(٢)تذهب الحاجات يطلبها الفتى شعاعاً وتخشى النفس مالا يضرها

لجرير :

يعافى الله(٣) بعد بلاه جـــهدا وينهض بعـــد مايبلى السقيم

لزياد(٤) بن عمر من بنى الحارث بن كعب — وقيل لزيادة بن زيد العذرى — من أبيات :

إذا مذهب سدت عليك فروجه فإنك لاق لامحالة مذهبا
فلاتجعلن كرب الخطوب إذاعرت عليـــك رتاجا لايزال مضببا
وكن رجلاً جلدًا إذا ماتقلبت به صيرفيات الهموم تقلبـــا

ذكر أبو تمام الطائى فى كتاب الحماسة لجابر بن ثعلب الطائى :

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ماتمـــولا
ولم يك فى بؤس إذا بات ليلة
يناغى غزالا ساجى(٥) الطرف أكحلا

وقريب منه ما أنشدنى أبى عن أبى بكر بن دريد عن عبد الرحمن

(١) رواية اللسان فقل للفؤاد إن من الخوف .
(٢) رواية تزيين الأسواق .
وقد تذهب الحاجات يسترها الفتى فتخفى وتهوى النفس مالا يضيرها
(٣) رواية الديوان بعد بلاء سوء ويبرأ .
(٤) فى الأرج زيد بن عمر ، وفى حل العقال زياد بن عمرو العذرى .
(٥) رواية الحماسة فاتر .

ابن أخي الأصمعي عن عمه الأصمعي رحمهم الله :

كأن قوما إذا مابدلوا نعما بنكبة لم يكونوا قبلها نكبوا

ومثله أيضاً :

إن البطون إذا جاعت متى شبعت كأنما لم يقاس الجوع طاويها

لسعيد بن رمضان الأسدي :

فما نوب الحوادث باقيات ولا بؤس يدوم ولا نعيم

كما يمسي سرورك وهو هم كذلك مايسوءك لايدوم

فلا تهلك على مافات وجدا ولا تغررك بالأسف الهموم

وقريب منه لكثير في ابن محمد بن الحنفية رضي الله عنه لما حبسه عبدالله ابن الزبير رضي الله عنه — من أبيات :

تحدث من لاقيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم في سجن عادم

فما ورق الدنيا بباق لأهلها(١) وما شدة(٢) الدنيا بضربة لازم

فزاد فيه بعض إخواننا :

لهذا وهذا مدة سوف تنقضي ويصبح مالاقيته حلم حالم

لأعرابي :

فلا تحسبن سجف اليمامة دائماً كما لم يدم عيش بسفح أبان

مغرس الأسدي :

ولا تيأسن من صالح إن ماله وإن كان قدما(٣) بين أيد تبادره

حوط بن ريان الأسدي :

تعلمني بالعيش عرسي كأنها تعلمني الشيء الذي أنا جاهله

يعيش الفتى بالفقر يوما وبالغنى وكل كأن لم يلق حين يسائله

وقريب منه :

---

(١) رواية اللسان لأهله .

(٢) رواية اللسان البلوى .

(٣) كذا بالأصل .

يعيش الفتى بالفقر يوما وبالغنى   وكل كأن لم يلقه حين يذهب
كأنك لم تعدم من الدهر لذة   إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

للاضبط بن قريع من جملة أبيات(١) :

لكل(٢) ضيق من الأمور سعه   والمسا والصباح لافلاح معه
لاتحقرن(٣) الوضيع علك أن   تلقاه يوما والدهر قد رفعه
قد يجمع المال غير آكله   ويأكل المال غير من جمعه

قال مؤلف هذا الكتاب فى المعنى :

اصبر فليس الزمان مصطبرا   وكل أحداثه فمنقشعه
كم من فقير غناه فى شبع   قد نال خفضا فى عيشه ودعه
ومن جليل جلت مصائبه   ثم تلافاه بعد ماوضعه
فعاد بالعز آمنا جذلا   وعاد أعداؤه له خضعه

أنشد أبو العباس ثعلب:

رب ريح لأناس عصفت   ثم ما إن لبثت أن ركدت
وكذاك الدهر فى أفعاله   قدم زلت وأخرى ثبتت
وكذا الأيام من عادتها   أنها مفسدة ما أصلحت
ثم يأتيك مقادير بها   فترى ملصحة ما أفسدت

للحسين بن مطير الأسدى :

إذا يسر الله الأمور تيسرت   ولانت قواها واستقاد عسيرها
فكم طامع فى حاجة لاينالها   وكم آيس منها أتاه يسيرها(٤)
وكم خائف صار المخوف ومقتر   تمول والأحداث يحلو مريرها

---

(١) موجودة فى أمالى القالى ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) رواية الأمالى لكل هم من الهموم . . . والمسى والصبح .

(٣) رواية الأمالى ولا تعاد الفقير . . . تركع يوما والمشهور فى كتب اللغة والنحو ولاتهين الفقير .

(٤) رواية حل العقال والأرج بشيرها .

وقد تغدر الدنيا فيمسى غنيها فقيرا ويغنى بعد بؤس فقيرها
وكم قد رأينا من تكدر عيشة وأخرى صفا بعدا كدرار غديرها
فلا تقرب الأمر الحرام فإنه حلاوته تفنى ويبقى مريدها(١)

لمسكين الدارمى :

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ما الله صانع

أنشدنى محمد بن الحسين قال أنشدنى ثعلب(٢) :

إلى الله كل الأمر فى الخلق كله وليس إلى المخلوق شىء من الأمر
إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهت منه طال عتبى على الدهر
ووسع صدرى للأذى كثرة الأذى وإن كان أحيانا يضيق به صدرى
وصيرنى يأسى من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى
تعودت مع مس الضر حتى ألفته وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر

غيره :

إذا ضاق صدرى بالأمور تفرجت لعلمى بأن الأمر ليس إلى الخلق

غيره :

يضيق صدرى بغم عند حادثة وإنما الخير لى فى الغم أحيانا
ورب يوم يكون الغم أوله وعند آخره روحا وريحانا
ماضقت ذرعا بغم عند نائبة إلا ولى فرج قد حل أو حانا

للزبير رضى الله عنه .

لا أحسب الشر جارا لا يفارقنى ولا أحز على مافاتنى الودجا
ولا لقيت من المكروه نازلة إلا وثقت بأن ألقى لها فرجا
ولا ترانى بما قد فات مكتئباً ولا ترانى بما قد نلت مبتهجا

لأعرابى :

ما كل وجه يضيق إلا ودونه مطلب فسيح

---

(١) الزيادة عن الأغانى والأرج .
(٢) قيل لما حوصر عثمان رضى الله عنه أنشد هذه الأبيات .

من روح الله عنـــه هبت   من كل وجـــه إليه ريح

لسليمان بن مهاجر البجلى من جملة أبيات :

إن المساءة قد تسر وربما   كان السرور بما كرهت جديرا

عن المارستانى قال أنشدنى إبراهيم بن العباس الصولى وهو فى مجلسه فى ديوان الضياع :

ربما تكره النفوس من الأمـ   ـر له فرجة كحل العقال(١)

ونكت بقلمه ثم قال :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى   ذرعا وعنـــد الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها   فرجت وكان يظنها لاتفرج

لأبى العتاهية :

ولربما استيأست ثم أقول لا   إن الذى ضمن النجاح كريم

أنشدنى أحمد بن عبد الله الوراق ، قال : أنشدنا دعبل قصيدته (مدارس آيات) فذكر القصيدة إلى آخرها وفيها مايدخل فى هذا الباب وهو قوله :

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد   تقطـــع قلبى إثرهم حسرات(٢)

فيانفس طيبى ثم يانفس أبشرى   فغير بعيـــد كل ماهو آت

ولا تجزعى من دولة الجور إننى   كأنى بهـــا قد آذنت ببيات

عسى الله أن يرتاح للخلق إنه   إلى كل حى دائم اللحظات

لعلى بن الجهم من ضمن قصيدة له :

غير الليـــالى باديات عود   والمال عارية يبـــاد وينفد

ولكل حال معقب ولربما   أجلى لك المكروه عما تحمد

لايؤيسنك من تفرج كربة   خطب رماك به الزمان الأنكد

كم من عليل قد تخطاه الردى   فنجا ومات طبيبه والعود

---

(١) البيت لأمية بن أبى الصلت وقبله .

لاتضيقن فى الأمور فقد تكـ   ـشف غمـــاؤها بغير احتيال

(٢) رواية معجم الأدباء لقطع قلبى إثرهم حسراتى .

لغيره فى مثله :

قد يصح المريض بعد إياس كان منه ويهلك العواد
ويصاد القطا فينجو سليما بعد هلك ويهلك الصياد

لعبد الله بن المعتز :

وكم نعمة لله فى صرف نقمة ومكروه أمر قد حلا بعد إمرار
وما كل ماتهوى النفوس بنافع وما كل ماتخشى النفوس بضرار

لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب من أبيات :

لاتعجلن فربما عجل الفتى فيما يضره
فالعيش أحلاه يعو د على حلاوته أمره
ولربما كره الفتى أمرا عواقبه تسره

لأعرابى :

كم مرة حفت بك المكاره خار لك الله وأنت كاره

آخر ويروى لأمير المؤمنين على رضى الله عنه :

لاتكره المكروه عند نزوله إن المكاره لم تزل متباينه
كم نعمة لاتستقل بشكرها لله فى جنب المكاره كامنه

غيره :

رب أمر تزهق النفس له جاءها من خلل اليأس فرج
لاتكن من روح ربى آيساً ربما قد فرجت تلك الفرج
بينما المرء كئيب موجع جاءه الله بروح فبهج
رب أمر قد تضايقت له فأتاك الله منه بالفرج

غيره :

البؤس يعقبه النعيم وربما لاقيت ماترجوه مما ترهب

غيره :

أتى من حيث لاترجوه صنع ويأبى أن تهم به الظنون
فحيث تراك تيأس فارج خيرا فإن الغيث محتجب مصون
وكن أرجى لأمر لست ترجو من المرجو أقرب مايكون

لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أراها تمتخض بالمعضلات ... ألا ياليت شعرى ما الزبده
ألا إن زبدتها فرجة ... تحل العقال من العقده

لأبى إسحاق إسماعيل بن القاسم الملقب بأبى العتاهية :

إنما الدنيا هبات ... وعوار مستردة
شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شده

وله (١) أيضا :

الناس في الدين والدنيا ذوو درج ... والمال مابين موقوف ومختلج
من ضاق عنك فأرض الله واسعة ... فى كل ضيق وهم(٢) وجه منفرج
قد يدرك الراقد الهادى برقدته ... وقد يخيب أخو الروحات(٣) والدلج
خير المذاهب فى الحاجات أنجحها ... وأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

غيره :

ياصاحب الهم إن الهم منقطع ... أبشر بذاك كأن قد فرج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لاتيأسن فإن الكافى الله
الله حسبك مما عذت منه به ... وأين أمنع ممن حسبه الله
من البلايا ولكن حسبك الله ... والله حسبك فى كل لك الله
هون عليك فإن القادر الله ... والخير أجمع فيما يصنع الله
فرب مستصعب قد سهل الله ... ورب شر كثير قد كفى الله
إذا بليت فثق بالله وارض به ... إن الذى يكشف البلوى هو الله
الحمد لله شكرا لاشريك له ... ما أسرع اليسر جدا إن يشا الله

لمحمد بن حازم الباهلى :

طوبى لمن يتولى الله خالقه ... ومن إلى الله يلجا يكفه الله

---

(١) نسب فى الأرج هذه الأبيات إلى هلال بن العلاء الرقى .

(٢) رواية الديوان والأرج فى وجه كل مضيق .

(٣) فى الأصل إخاء الراح والتصحيح عن الديوان والأرج .

ورب خائف أمر يستكين له ينجو وخيرته ما قدر الله

ليحيى بن خالد بن برمك من أبيات :

ألا اعلم إنما الدنيا غرور وليس بدائم فيها نعيم
سينقطع التلذذ عن أناس إذا ماتوا وتنقطع الهموم

أنشدني أبي رحمه الله من قصيدة لسلم بن عمرو الخاسر :

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح على رسله
(وقرب ما كان مستبعدا ورد الغريب إلى أهله
يفوز الجواد بحسن الثناء ويبقى البخيل على بخله (١))
فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله

ووجدت مكتوبا بخط عمي القاضي أبي جعفر أحمد بن محمد بن أبي الجهم التوخي :

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح بها يركض
فان عاق من دونها عائق أتى دونها عارض يعرض

أنشدني عبيد الله بن محمد بن الحسن العتبي المعروف بالبصري لنفسه :

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح بغير احتباس
فيأتيك من حيث لاتدره مرادك للنجح بعد الاياس

لمحمد بن حازم الباهلي :

وأرحل إذا أجدبت بلاد منها إلى الخصب والربيع
لعل دهرا غدا بنحس بكر بالسعد في الرجوع

لأبي تمام الطائي :

وما من شدة إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء

وأنشدني الأمير أبو الفضل جعفر المكتفي بالله قال أنشدني بعض أصحابنا منسوبا (٢)

---

(١) الزيادة عن حل العقال وحواشي معجم الأدباء .

(٢) نسب في حل العقال هذه الأبيات إلى قيس بن الخطيم والأول منها مع أبيات أخرى منسوبة إلى قيس أيضاً في الحماسة ونقل التبريزي عن أبي الرياش أنها للربيع بن أبي الحقيق اليهودي .

وكل شديدة نزلت بقوم   سيأتى بعد شدتها رخاء
فان الضغط يحويه (١) وعاء   ويتركه إذا فرغ الوعاء
وما ملء الاناء وشد إلا   ليخرج ما به امتلأ الإناء

أنشدت :

متى تصفو لك الدنيا بخير   إذا لم ترض منها بالمزاج
ألم تر جوهر الدنيا المصفى   ومخرجه من البحر الاجاج
ورب مخيفة فجأت بهول   جرت بمسرة لك وابتهاج
ورب سلامة بعد امتناع   ورب مثقف (٢) بعد اعوجاج

غيره :

لعمرك مايدرى الفتى كيف يتقى   نوائب هذا الدهر أم كيف يحذر
يرى الشىء مما يتقى فيخافه   وما لايرى مما يقى الله أكبر
وما عسر رمى الفتى بشماله   بل الدهر إلا ما وقى الله أعسر

لمحمد بن عبد المهلبى :

إنى لرحال إذا الهم برك   رحب اللسان عند ضيق المعترك
عسرى على نفسى ويسرى مشترك   لا تهلك النفس على شىء هلك
فليس فى الهم إذا فات درك   ولم يدم شىء على دور الفلك
رب زمان ذله أرفق لك   لا عار إن ضاقك دهر أو ملك

آخر غيره :

لكل غم فرج عاجل   يأتيك فى المصبح والممسا
لا تتهم ربك فيما قضى   وهون الأمر وطب نفسا

لعبد الله بن المعتز (٣) :

سواء على الأيام حفظ وإعقال   وتارك سعى واحتيال ومحتال

---

(١) فى الأصل يحوى وفى حل العقال قد يحوى .
(٢) فى حل العقال تقوم .
(٣) البيتان غير مثبتين بديوانه .

ولا هم إلا سوف يمتح قمنه ولا حال إلا بعدها للفتى حال

آخر غيره :

جزعت كذا ذو الهم يجزع قلبه ألا رب يأس جاء من بعده فرج
كأنك بالمحبوب قد لاح نجمه وذو الهم من بين المضايق قد خرج

عن أبي بكر بن أبي الدنيا قال : أنشدني رجل من قريش :

ألم تر أن ربك ليس تحصى أياديه الحديثة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شيء يقيم ولا همومك بالمقيمه
لعل الله ينظر بعد هذا إليك بنظرة منه رحيمه

آخر غيره(١) :

بيني وبين الدهر فيك عتاب سيطول إن لم يمحه الاعتاب(٢)
ياغائباً بمزاره وكتابه هل يرتجى من غيبتيك إياب
لولا التعلل بالرجاء تقطعت نفس عليك شعارها الأوصاب
لا يأس من روح الإله فربما يصل القطوع ويقدم الغياب
(وإذا دنوت مواصلا فهو المنى سعد المحب وساعد الأحباب
وإذا نأيت فليس لي متعلل إلا رسول بالرضا وكتاب)(٣)

آخر غيره :

فلا تيأس وإن أعسرت يوما فقد أيسرت في الدهر الطويل
(ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل
فإن العسر يتبعه يسار وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقا لكان المال عند ذوي العقول)(٤)

آخر غيره(٥) :

---

(١) هو أبو الحسن علي بن هارون المنجم كما في الأرج والمعجم (٢) في الأصل تمحه (٣) الزيادة عن معجم الأدباء (٤) الزيادة عن حل العقال (٥) هو جحظة كما في الأرج .

فلا تيأس وإن صحت عزيمتهم على الدلج
فإن إلى غداة غد سيأتى الله بالفرج
فتصبح عيسهم عرجا وقد كانت بلا عرج

آخر غيره :

ربما يطلع التفرج للكر بة كالبدر من خلال السحاب
وتزول الهموم فى قدر الزر يعرى عن عروة الجلباب

آخر غيره :

رميت بالهم لما رميت به ولم أقم عرضاً للخطب يرمينى
ولست آيس من روح ومن فرج ومن لطائف صنع سوف تكفينى
وقل ما كان من دهرى إلى سوى ماسلم الله من أحداث دينى

آخر غيره :

وكم من ضيقة كدت بغم وكان عقيبها فرج مفاجى
فأضيق ما يكون الامر أدنى وأقرب ما يكون إلى انفراج

للعكوك (على بن جبلة) :

عسى فرج يكون عسى نعلل أنفسنا بعسى
فلا تقنط وإن لاقيـ ت هما يغيظ النفسا
فأقرب مايكون المر ء من فرج إذا أيسا

لبعضهم :

لعمرك ما المحبوب من يتقى ويخشى ولا المحبوب من حيث يطمع
وأكثر خوف النفس ليس بكائن فما(١) درك الهم الذى ليس ينفع

أنشدنى أبو يوسف السهيلى عن المنجع الشاعر :

لا البؤس يبقى ولا النعيم ولا حلقة ضيق ستفرج الحلقه
صبرا على الدهر فى تجوره كم فتح الصبر مرة علقه

غيره :

---

(١) كذا بالاصل .

جديد همك يبليه الجديدان فاستشعر الصبر إن الدهر يومان
يوم يسوء فيسليه ويذهبه يوم يسر وكل زائل فان

مفرد :

لاتعجلن هما بما لست تدرى إن تراخى يكون أولا يكون

غيره :

عادنى الهم فاعتلج كل هم إلى فرج

آخر غيره :

الغم فضل والقضاء مغالب وصروف أيام الفتى تتقلب
لاتيأسن وإن تضايق مذهب فيما تحاول أو تعذر مطلب
وانظر إلى عقبى الامور فعندها لله عادة فرجة تترقب

لسعيد بن حميد :

يوم عليك مبارك ماشئت(١) من فرج وطيب
عاد الحبيب لوصله وحجبت عن عين الرقيب
(وكذا الزمان يدور بالـ أفراح من بعد الكروب)(٢)
فاشرب شرابا نقله تقبيل سالفة الحبيب
ودموع الهموم فانها تنأى عن الصدر الرحيب
لابد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب

من إنشاد ابن هانىء المغنى على الطنبور :

علل همومك بالمنى إلى فرج قريب
لا بد من صنع قريب يأتيك بالعجب العجيب
لا تيأسن وان ألحـ ـح الدهر من فرج قريب
روح فؤادك بالرضا ترجع إلى روح وطيب

غيره :

ليس لى صبر ولا جلد قد برانى الهم والسهد

---

(١) فى حل العقال ماعشت فى (٢) الزيادة عن حل العقال

من ملمات تؤرقنى مالها من كثرة عدد
ولعل الله يكشفها فيزول الحزن والكمد

أنشدنى محمد بن عبد الواحد بن الحسن بن طرخال لنفسه :

ها كها صرفا تلالا لم يدنسها المزاج
واترك الهم لشانيك فللهم انفراج
يا أبا وهب صديق كل ضيق إلى انفراج
اسقنى صهباء صرفا لم تدنس بمزاج

آخر غيره :

رضيت بالله ان يعطى شكرت وإن يمنع قنعت وكان الصبر من عددى
إن كان عندك رزق اليوم فاطرحن عنك الهموم فعند الله رزق غد

آخر غيره :

سهل على نفسك الأمور وكن على مرها وقورا
فان ألمت صروف دهر فلا تكن عندها ضجورا
فكم رأينا أخا هموم أعقب من بعدها سرورا
ورب عسر أتى بيسر فسار معسوره يسيرا

آخر غيره :

تعز ولا تأسى على وتبتئس لجدى محظوظ وأمرى مقبل
لعل الليالى أن تعود كعهدنا ويجمعنا حال يسر ويجذل
ويعقب هذا البؤس نعمى وهمنا سرور وبلوانا سراح معجل

أنشدنى سعد بن محمد « الأزدى » البصرى « البغدادى » لنفسه :

ان الزمان غروره له صروف تدور فاصبر فرب اغتمام يأتيك منه سرور

قال مؤلف الكتاب وفى محنة لحقتنى فكشفها الله تعالى فقلت :

هون على قلبك الهموم فكم قاسيت هما أدنى إلى الفرج
ما الشر من حيث تتقيه ولا كل مخوف يفضى إلى الترح

ولآخر من قصيدة أولها :

هل مشتكى لغريب الدار ممتحن أو راحم لضعيف الأمر مرتهن(١)

يقول فيها :

كأن جلدى سجن فوق أعظمه والروح محبوسة للهم فى بدنى
فالحمد لله حمد الصابرين على ما سأنى فى قضاياه وألجنى
لعل دهرى بعد اليأس يسعفنى بما أحب وما أرجو ويعرقنى
وأن أنال المنى يوماً وإن طويت من فوق جثمانى من كفنى

ولآخر (٢) غيره :

ومازال هذا الدهر يأتى بأضرب تسر وتبكى كلهـا تتنقل
فلا حزن يبقى على ذى كآبة ولا فرح يحظى من يؤمل

ولآخر غيره :

فى ذمة الله من سارت بسيرهم مسرتى وأقام الخوف والحرق
لئن أشطهم دهر قضى شططا وأزهق النفس هم حكمه الزهق
لقد أناب بعينى بعد غيبتهم نجب عوائقها وامتدت العلق

ولآخر غيره :

ياقارع الباب رب مجتهـد قـد أدمن القرع ثم لم يلج
ورب مستفتح (٣) يوماً على مهل لم يشق فى قرعـة ولم يهج
علام يشقى الحريص فى طلب الـرزق بطول الرواح والدلج
وهو إن كف عنه طالبه الـرزق وإن عاج عنـه لم يعج
فاطو على الهم كشح مصطبر فآخر الهم أول الفرج

غيره :

(١) فى الأصل أو راحم له لم يبق الأسر مرتهن .
(٢) هو أبو الفرج الأصبهانى كما فى حل العقال .
(٣) فى الأصل مستورد وما أثبتناه رواية الأرج .

إصحب الدنيا مياومة وادفع الأيام تندفع
وإذا ماضيقة عرضت فالقها بالصبر تتمتع

غيره(١)

درج الأيام تندرج وبيوت الهم لا تلج
رب أمر عز مطلبه قربته (٢) ساعة الفرج

غيره :

كما لم يكن عصر العصارة باقياً كذلك عصر البؤس ليس بثابت

وأنشدنى أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الكاتب البغدادى لنفسه :

تسل عن الهموم مصطبرا وكن لما كان غير منزعج
فكل ضيق يتلوه متسع وكل هم يفضى إلى فرج

ولآخر :

إذا ضيقت أمرا ضاق جدا وإن هونت ما قد عز هانا
فلا تهلك لما قد فات غما فكم شىء تصعب ثم لانا

ولآخر غيره :

لا يؤيسنك من مخبأة أمر تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة فالصعب يمكن بعد ماجمحا

ولآخر غيره :

عرضن للذى يحب بحب ثم دعه يروضه إبليس
فلعل الزمان يدنيك منه إن هذا الهوى نعيم وبوس

ولآخر غيره :

تحبب فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبين فان حدثت أن أخا هوى نجا سالما فارج النجاة من الكرب

---

(١) كان الإمام مالك رحمه الله يتمثل بهذين البيتين .

(٢) فى الأصل هونته وما أثبت رواية حل العقال .

(وأحسن أيام الهوى يومك الذى ... تروع بالهجران فيه وبالعتب(١)
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

للعباس بن الأحنف :

تعز وهون عليك الأمورا ... عساك ترى بعد هم سرورا
لعل الذى بيـديه الأمو ... ر سيجعل فى الكره خيرا كثيرا
(أكاتم مابى فلا أستطيـ ... ـع من شدة الوجد أن أستشير)(٢)
أما تحسبينى أرى العاشقيـ ... ـن مثلى ولست أرى لى نظيرا

ولآخر غيره

قربت لى أملا فأصبح حسرة ... ووعدتنى وعداً فصار وعيدا
فلأصبرن على شقائى فى الهوى ... فلربما عاد الشقى سعيدا

ولآخر (٣) غيره :

أيا سروة البستان طال تشوقى ... فهل لى إلى ظل لديك سبيل
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه ... وليس لمن يهوى إليه وصول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا ... فيلقى اغتباطاً خلة وخليل

ولآخر غيره :

لعل التلاقى فى ليـال ... وأيام من الدنيا بقينا
حبيباً نازحاً أمسيت منه ... على يأس وكنت به فتينا

ولآخر غيره :

لئن درست أسباب ما كان بيننا ... من الوصل ما تتوقى اليك بدارس
وما أنا من أن يجمع الله بيننا ... كأحسن ما كنا عليه - بآيس

ولآخر (٤) غيره :

---

(١) الزيادة عن زهر الآداب وهو وما بعده منسوبان فيه للعباس بن الأحنف وإن كان وماقبلهما غير موجودة بالديوان . (٢) الزيادة عن الديوان .
(٣) هى علية بنت المهدى . (٤) هو قيس بن الملوح مجنون بنى عامر وهذا البيت من قصيدة طويلة مثبتة فى تزيين الأسواق .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

غيره :

وما أنا منه بعد ذاك بآيس بأن يأذن الله لى فى اجتماع
فاتعس حد النوى باللقـــا وأرغم بالقرب أنف الزماع

أنشدنى سعد بن محمد (الأزدى) البصرى (البغدادى) الوحيد(١) الشاعر :

كانت على رغم العدى أيامنا مجموعة النشوات والاضطراب
ولقد عتبت على الزمان لبينهم ولعله سيمن بالأعتـاب
ومن الليـالى أن علمت أحبة وهى التى تأتيك بالأحباب

وله أيضا :

إن راعنى منك الصدود فلعــل أيامى تعود
إذ لاتنا ولنا يد النعـ ماء إلا ما نريد
ولعل عهدك باللوى يحيا فقد تحيا العهود
والغصن ييبس مرة وتراه مخضرا يميـد
إنى لأرجو عطفة يبكى لهـا الواشى الحسود
فرجا تقربه العيو ن فينجلى عنها السهود

مما أنشده على بن مقلة فى نكبته عقيب الوزارة الأولى :

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست فى أماكنها الخطوب
(ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلتـه الأريب)(٢)
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات إذا تناهت فموصول بهـا الفرج القريب

ولغيره . (وهو جعفر بن ورقاء الشيبانى) :

---

(١) فى الأصل الوجيه وهو خطأ لأن المعروف بالوجيه هو المبارك بن المبارك أحد أدباء القرن السادس كما فى المعجم وأيضا فقد صرح ياقوت فى ترجمة سعد هذا بأنه المعروف بالوحيد .

(٢) الزيادة عن الأرج وهذه الأبيات لسيدنا على رضى الله عنه .

الحمـــد لله على ما قضى   في المـال لما حفظ المهجة
ولم تـكن من ضيقة هكذا   إلا وكانت بعدها فرجه

للحسين بن عبد الرحمن :

لعمر بنيى الذين أراهما   جزوعين إن الشيخ غير جزوع
إذا ما الليـالى أقبلت باساءة   رجونا بأن تنأى بحسن صنيع

عن ابن أبي الدنيا (لرجل من قريش)

حلبنا الدهر أشطره ومرت   بنا حقب (١) الشدائد والرخاء
فلا (٢) تأسف على دنيا تولت   ولا تفزع إلى غــير الدعاء
هى الأيام تكلمنا وتأســو   وتأتى بالسعادة والشقاء
توكلت عــلى رب السماء   وسلمنـا لأسبـاب القضـاء

ولغيره :

عسى فرج من حيث تأتى مكارهى   يجيء به من جاءنى بالمكاره
سيرتاح لى مما أعانى بفرجـة   فيلتاشنى منـه بحسن اقتداره
عسى منقذ موسى بحسن جواره   وقد طرحته أمـــه بالمكاره

لمحمود الوراق :

إذا من بالسراء عم سرورها   وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهمـا إلاله فيـه منـة   تضيق بها الأوهام والبر والبحر (٣)

للعباس بن الأحنف (٤) :

قالوا لنا إن بالقاطول مشتانا   ونحن نأمل صنع الله مولانا
والناس يأتمرون الرأى بينهم   والله فى كل يوم محدث شانا

وقال مؤلف هذا الكتاب :

لئن عدانى الدهر عنك يا أملى   وسل جسمى بالأسقام والعلل
وشت شمل تصافينا والفتنا   والدهر ذو غير والدهر ذو دول

---

(١) فى الأصل عقب   (٢) فى الفرج لابن أبى الدنيا فلم ولم
(٣) فى حل العقال والوصف والشكر   (٤) البيتان غير مثبتين بديوانه

الحمد لله حمد الشاكرين على ما ... شاء من حادث يوهى قوى الأمل
قد اشتكت لصروف الدهر والتحقت ... على فيك غواشى الحزن والوجل
واعتضت منك بسقم شانه خلل ... ومن وصالك بالهجران والملل
وبعد أمنى من عذر ومثنية ... عذرا يسرح بالألفاظ والرسل
ومن لقائك لقى الطب أرحمهم ... فظ وأرفقهم يدنى إلى الاجل
فلست آيس من رجع الوصال ولا ... عود العوافى ولا آمن من السبل

وله فى محنة لحقته من قصيدة :

أما للدهر من حكم رضى ... يدال به الشريف من الدنى
ويستعلى الرؤوس من الذنابى ... وينتصف الذكى من الغبى
ومن عاصاه دمع فى بلاء ... فليس بكاء عينى بالعصى
وما أبكى لوفر لم يفده ... زمان خان عهد فتى وفى
ولا آسى على زمن تولى ... بعيش ناضر غض ندى
ومن حدث تفوتنى المعالى ... على عهد بها حدث وفى (١)
وإن يدى لتقصر عن هلاك ال ... عدو وعن مكافأة الولى
وما تلق الحوادث إن ألمت ... سوى قلب عن الدنيا سخى
وصبر ليس تنزحه الليالى ... كنزح الدلو صافية الركى
وليس بآيس من كان يخشى ... ويرجو الله من صنع قوى

وله عند صرفه من تقلده القضاء بالاهواز وقبض صيغة من صياغه وحضوره إلى بغداد :

لئن أشمت الاعداء صرفى ورحلتى ... فما صرفوا فضلى ولا انصرف المجد
مقام وترحال وقبض وبسطة ... كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد
وما زلت جلدا فى المهمات(٢) قبلها ... ولا غرو فى الاحيان أن يغلب الجلد
فكم ليث غاب شردته ثعالب(٣) ... وكم من حسام فله غيلة غمد

(١) بالاصل: حدث فى ولعل الصواب ما اثبتناه (٢) فى حل العقال الملمات
(٣) فى الاصل يدلها وما أثبت رواية حل العقال

وكم جيفة تعلو وترسب درة　　ومنحسة تقوى إذا ضعف السعد
ألم تر أن الغيث يجرى على الربا　　فيحظى به إن جاد صيبه الوهد
وكم فرج والخطب يعتاد (١) نيله　　يجىء على يأس إذا ساعد الجد
لقد أقرض الدهر السرور فإن يكن　　أساء اقتضاء فالقروض لها رد
فكم فرحة تأتى على إثر ترحة　　وكم راحة تطوى إذا اتصل الكد
وكم منحة من محنة تستفيدها　　ومكروه أمر فيه للمرتجى وفد
على أنى أرجو لكشف الذى غدا　　مليكا له فى كل نائبة رفد
فيمنع منا الخطب والخطب صاغر　　وتمسى عيون الدهر عنا هى الرمد
ونعتاض باللقيا من البين أعصرا　　مضاعفة تبقى ويستهلك البعد

أنشدنى سعد بن محمد الشاعر الوحيد رحمه الله :

يا نفس كونى لروح الله ناظرة　　فإنه للأمانى طيب الأرج
كم لحظة لك مخلوس تقلبها　　كانت تردد بين اليأس والفرج

ولآخر غيره :

أتيأس أن يساعدك النجاح　　فأين الله والقدر المتاح
هى الأيام والنعمى ستجزى　　يجىء بها غدو أو رواح

ولآخر غيره (٢) :

إذا اشتد عسر فارج يسرا　　فإن قضاء الله أن العسر يتبعه يسر
عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى　　له فرجاً يوما يجىء به العسر
(إذا ما ألمت شدة فاصطبر لها　　فخير سلاح المرء فى الشدة الصبر
وإنى لأستحيى من الله أن أرى　　إلى غيره أشكو وإن مسنى الضر)(٣)
عسى فرج يأتى به الله إنه　　له كل يوم فى خليقته أمر
فكن عندما يأتى به الدهر حازماً　　صبورا فإن الخير مفتاحه الصبر

---

(١) فى حل العقال يعتاف .
(٢) هو - كما فى الأرج - أبو على محمد بن محمد بن الشاطر الأنبارى .
(٣) الزيادة عن الأرج وحل العقال .

فكم من هموم بعد طول تكشفت　　وآخر معسور الأمور له يسر

ولغيره :

وأكثر ما تلقى الأماني كواذبا　　فإن صدقت حادت بصاحبها العذرا(١)
وآخر إحسان الليالي إساءة　　على أنها قد تتبع العسر باليسر(٢)

ولغيره :

لاتجزعن فإن العسر يتبعه　　يسر ولا بؤس إلا بعده ريف
وللمقادير وقت لاتجاوزه　　وكل أمر على الاقدار موقوف
ورب من كان معزولا فيعزل من　　ولى عليه وللأحوال تصريف

ولغيره :

من ذا رأيت الزمان أيسره　　فلم يشب يسره يرما بتعسير
أم هل ترى عسرة تمت على أحد　　دامت فلم تنكشف إلا بتيسير

ولغيره :

الدهر(٣) لايبقى على حالة　　والعسر قد يتبعه يسر

ولغيره :

صبرا قليلا فإن الدهر ذو غير　　مادام عسر على حال ولا يسر
قد يرحم المرء من يرضى(٤) بمحنته　　وليس يعلم ما يخبى له القدر
والدهر حلو ومر فى تصرفه　　خير وشر وفيه العسر واليسر

ولغيره :

كل الامور إلى　　من قد يتم الامور
وافزع إليه إذا لم　　يحرك عجزا مجير
فكل صعب عسير　　عليه سهل يسير

---

(١) كذا بالاصل فليحرر .

(٢) فى الاصل باليسرا .

(٣) فى الاصل المرء .

(٤) فى الاصل يغلظ .

ولغيره :

أيها الإنسان صبرا إن بعد العسر يسرا
أشرب الصبر وإن كان من الصبر أمرا

ولغيره :

كن عن همومك معرضا وكل الامور إلى القضا
وابشر بطول سلامة تسليك عما(١) قد مضى
(فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط لك فى عواقبه رضا
الله يفعل مايشا ء فلا تكن متفرضاً)(٢)

ولغيره :

صبرا وامهالا فكل ملمة سيكشفها الصبر الجميل فأمهل

ولغيره :

فقد يأمل الإنسان مالا يناله ويأتيه رزق الله من حيث ييأس

ولغيره :

إذا استصعبت من دنياك حالا ففكر فى صروف كنت فيها
وأحدث شكر من نجاك منها وابدلها بنعمى ترتضيها

ولآخر غيره :

الدهر اعراض واقبال وكل حال بعدها حال
ما أحسن الصبر ولا سيما بالحر إن حالت به الحال
فصاحب الايام فى غفلة وليس للآيام إغفال

أنشدنى نصير بن محمد الازدى مولى الازد :

إنى رأيت ـ وفى الايام تجربة ـ للصبر عاقبة محمودة الاثر
فاصبر على مضض الادلاج فى السحر وفى الرواح إلى الحاجات والبكر

---

(١) رواية الأرج بخير عاجل تلسى به ما .
(٢) الزيادة عن الأرج وحل العقال .

لايعجزنك ولا يضجرك مطلبها فالنجح يتلف بين العجز والضجر
وقل من جد فى أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

لغيره:

قد فرج الله من الهجر ونلت ما أمل بالصبر
فى ساعة اليأس أتانى المنى كذاك تأتى دول الدهر

لغيره:

فصبراً أبا جعفر إنه مع البر نصر من الصانع
فلا تيأسن أن تنال الذى يؤملك من فضله الواسع

ولغيره:

إذا ضاق زمن بامرء كان فيه بعض ضيق متسع

ولغيره:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

محمود الوراق:

صابر الصبر على كر النوائب من كنوز الصبر كتمان المصائب
والبس الدهر على علاته تجد الدهر مليئا بالعجائب

أنشدنى الوحيد لنفسه:

عليك رجاء الله ذى الطول واللطف بجملة ماتبدى(١)من الأمر أوتخفى(١)
فقد خلق الأيام دائرة بنا تقلبنا من كل(٢)صرف إلى صرف
وكم فرج لله يأتى مرفرفا على خافق(٣)الأحشاء فى تلف مشف(٣)
فلا تمكنن من قلبك اليأس والأسى لعل الذى ترجوه فى مرجع الطرف
وصبرا جميلا إن للدهر عادة مجربة إتباعه العسف بالعطف

لابن بسام:

---

(١) فى الأصل يبدى . يخفى وما ثبت رواية حل العقال
(٢) فى حل العقال . كر .
(٣) فى الأصل تلف . شف وما ثبت رواية حل العقال .

ألا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتعزز ذلت(١)
ينزل تبارك(٢) رزاق البرية كلها على ما رآه لا على ما استحقت
وكم ماجد(٣) فى القيد والباب دونه ترقت به أحواله وتعلت
تشوب القذا بالصفو والصفو بالقذى فلو أحسنت فى كل حال لملت
سأصدق نفسى إن فى الصدق راحة وأرضى بدنياى وإن هى قلت
وإن طرقتنى الحادثات بنكبة تذكرت ما عوفيت منه فقلت
(وما محنة إلا ولله نعمة إذا قابلتها أدبرت واضمحلت (٤))

ولآخر غيره :

كأنك بالأيام قد زال بؤسها وأعطتك منها كل ما كنت تطلب
فترجع عنها راضياً غير ساخط وتحمدها من بعد ما كنت تعتب

حدثنى الحسن بن صافى قال : رأيت على حائط مسجد مكتوبا بالفحم :

ليس من شدة تصيبك إلا سوف تمضى ويكشف الضر كشفا
لا يضيق ذرعك الرحيب فان النار يعلو لهيبها ثم تطفا
قد رأينا من كان أشفى على الهلا ك فجاءت نجاته حين أشفى

ولآخر غيره :

الدهر خدن مصاف ذو مخادعة لا يستقيم على حال لإنسان
حلو ومر وذو من وذو قرف يخالط السوء منه فرط إحسان

ولغيره (٥) :

لئن قدمت قبل رجال لطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما

---

(١) فى الأصل بالتذلل عزت . وفى حل العقال . للتعزز ذلت .
(٢) فى الأصل تنزل أرزاق وما ثبت عن حل العقال .
(٣) فى حل العقال فكم حائل .
(٤) الزيادة عن حل العقال .
(٥) هو القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى والبيتان من قصيدته المشهورة فى فضل العلم .

ولكن هذا الدهر يعقب صرفه   فيبرم منقوضاً وينقض مبرما

وأنشدني أبو الفرج الببغاء لنفسه :

كم كربة ضاق وسعي عن تحملها   فملت عن جلدي فيها إلى جزعي

ثم استكنت فأدنتني إلى فرج   لم يجر بالظن في يأسي ولا طمعي

أنشدني سيدوك الواسطي من قصيدة :

أبى الله إلا أن يعيظ (١) عباده   بجلسته تحت الشراع المطنب

إلى أن يموت المرء يرجى ويتقى   ولا يعلم الإنسان ما في المغيب

ولآخر غيره :

ما أحسن الصبر في مواطنه   والصبر في كل موطن حسن

حسبك من حسنه عواقبه   عاقبة الصبر ما لها ثمن

وقال غيره :

إن ضقت من خطب ألم فعنده   فرج يرجى عنده ويخاف

فاصبر على قحب النوائب مثل ما   صبرت لها آباؤك الأشراف

أنشدت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي :

وكانت على الأيام نفسي عزيزة   فلما رأت صبري على الذل ذلت

وكم غمرة دافعتها بعد غمرة   تجرعتها بالصبر حتى تولت(٢)

لأبي العتاهية :

الدهر لا يبقى على حالة   لابد ما يقبل أو يدبر

فان تلقاك بمكروهه   فاصبر فان الدهر لا يصبر

لعلي بن الجهم :

هي النفس ما إن حملتها تتحمل   وللدهر أيام تجور وتعدل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة   وأجمل أخلاق الرجال التحمل

ولآخر غيره :

لا تعتبن على النوائب   فالدهر يرغم كل عاتب

---

(١) كذا بالأصل   (٢) هذه رواية حل العقال وفي الأصل عنها فولت

واصبر على حدثانه إن الأمور لها عواقب
فلكل صافية قذى ولكل خالصة شوائب
(والدهر أولى ما صبرت له على رنق المشارب
كم نعمة مطوية لك تحت أثياب النوائب
ومسرة قد أقبلت من حيث تنتظر المصائب)(١)

ولآخر غيره :

فاصبر على حلو القضاء ومره فان اعتياد الصبر أدى إلى البر
خير الأمور خيارهن عواقباً وكم قدأتاك النفع من جانب الضر

وقال غيره :

وإنى لأرجو الله يكشف كربتى ويسمع للمظلوم دعوة مضطر
لقد عجمتنى العاجمات مثقفاً إذا ضاق أمر قد تناهى إلى الصبر
وما حزنى أن كر دهر بصرفه على ولكن أن يفوت به وترى
فان فاتنى وترى فأيسر فائت إذا أنا عوضت اشراب من الوفر
ولطف كفايات الإله مبشر بنيل الذى أملت لا بيد صفر
فإن يهل الأمر امرأ فهو آمل بلوغ الغنى فيما يهول من الأمر
ورب مضيق بالقضاء ووارط رأى مخرجا بين المثقفة السمر

آخر غيره :

ليس لما ليست له حيلة موجودة خير من الصبر
والصبر مر ليس يقوى به غير رحيب الباع والصدر

ولآخر غيره :

وما التحف المرء بالصبر إلا وكفت عنه أيدى النائبات
وذو الصبر الجميل يفيد عزا ويكرم فى الحياة وفى الممات

ولآخر غيره :

الصبر مفتاح ما يرجى وكل خير به يكون(٢)

---

(١) الزيادة عن حل العقال (٢) رواية حل العقال وكل صعب به يهون

فاصبر وإن طالت الليالى   فربما طاوع الحرون(١)
وربما نيل باصطبا   ر ما قيل هيهات لا يكون

لأبى الحسن الأطروش المصرى من أبيات :

مازلت أدفع شدتى بتصبرى   حتى استرحت من الأيادى والمنن
فاصبر على نوب الزمان تكرماً   فكأنما ما كان منه لم يكن

ومما وجد على حجر قبر مكتوب :

اصبر لدهر نال منـ   ـك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن تارة   لا الحزن دام ولا السرور

ولآخر غيره(٢) :

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمسا   بالضيق فى لجج تهوى إلى لجج
فإن تضايق باب(٣) عنك مرتتج   فاطلب لنفسك باباً غير مرتتج
لا تيأسن إذا ماضقت من فرج   يأتى به الله فى الروحات والدلج
فما تجرع كأس الصبر معتصم   بالله إلا أتاه الله بالفرج

ولآخر غيره :

وألزمت نفسى الصبر فى كل محنة   فعادت بإحسان وخير عواقبه
ومن لم ينط بالصبر والرفق قلبه   يكن عرضا أودت بليل جوانبه

ولغيره(٤):

وإنى لأغضى مقلتى على القذى   والبس ثوب الصبر أبيض أبلجا
وإنى لأدعو الله والأمر ضيق   على فما ينفك أن يتفرجا
وكم من(٥) فتى سدت عليه وجوهه   أصاب لها فى دعوة الله مخرجا

(أبو جعفر) محمد بن بشير (الحميرى) :

---

(١) رواية الأرج . ساعد (٢) هو كما فى حل العقال ـ عبيد الله الحارثى
(٣) كذا فى الأرج وفى الأصل وحل العقال أمر
(٤) هو كما فى الأرج وحل العقال أبو إسحق الثعلبى المفسر
(٥) فى الأرج ورب

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لاتيأسن — وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
(أخلق بذى الصبرأن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا)(١)

لمدرك بن محمد الشيبانى:

مستعمل الصبر مقرون به الفرج يبلى ويصبر والأشياء ترتج
حتى إذا بلغت مكنون غايتها جاءتك تزهر فى ظلماتها السرج
فاصبر ودم واقرع الباب الذى طلعت منه المطالع فالمغرى به يلج
بقدرة الله فارج الله وارض به فمن إرادته الغماء تنفرج

ولآخر غيره:

ثبوت الخطب أوله غليل وآخره شفاء من عليل
فكم من علة كانت إلى ما يجيش عتابه أهدى سبيل
ورب منيحة بفناء قوم من الأحداث فهى إلى رحيل
كلا نجمى صروف الدهر خيرا وشرا لابس ثوب الأفول

ولغيره(٢):

قل من سره رضا الدهر إلا ساء سخطه بما لايطاق
وكذا عادة الزمان شتات والتئام وألفة وافتراق

لأبى أحمد يحيى بن على المنجم إلى أبى على محمد بن عبيد الله بن خاقان لما ولى الوزارة من أبيات:

لقد كذبت فيك العدو ظنونه وقد صدقت فيك الصديق المواعد
وقد تحسن الأيام بعد إساءة وإن كان فى الأمرين منها تباعد

ولغيره:

بيد الذى شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم
كرب بقلبى ليس يكشفه إلا مليك عادل الحكم

---

(١) الزيادة عن الأرج وحل العقال

(٢) هو - كما فى حل العقال - عبيد الله الحارثى.

ولغيره :

أآلفة الحبيب كم افتراق   أظل وكان داعيه اجتماعى
وليست فرجة إلا وتأتى   لموقوف على نزح الوداع

ولغيره :

ولله لطف يرتجى ولعله   سيعقبنا من كسر أيدى العدا جبرا
ورب أمر(١) مرتج بابه   عليه إن يفتح أقفال(٢)
ضاقت بذى الحيلة فى فتحه   حيلته والمرء محتال
ثم تلقته مفاتيحه   من حيث لا يخطره البال

لعبد الله بن طاهر من أبيات جواباً :

دعوت مجيباً يا أبا الفضل سامعا   ويارب مدعو وليس بسامع
فأوقعت شكواى الزمان وصرفه   إليه بحق فى أحق المواقع
فصبرا قليلا كل هذا سينجلى   ويدفع عنه السوء أقدر دافع
فما ضاق أمر قط إلا وجدته   يؤول إلى أمر من الخير واسع

لمحمد بن حازم الباهلى :

إذا نابنى خطب فزعت لكشفه   إلى خالقى من دون كل حميم
وإن من استغنى وإن كان معسر   على ثقة بالله — غير ملوم
ألا رب عسر قد أتى اليسر بعده   وغمرة كرب فرجت لكظيم

وله أيضاً رحمه الله :

ألا رب أمر قد أضاق وحاجة   لها بين أحشاء الضلوع عويل
فلم تلبث الأيام أن عاد عسرها   بيسر ونجح والأمور تحول

ولغيره(٣) :

كن لما لا ترجو من الأمر أرجى   منك يوماً لما له أنت راجى

---

(١) كذا فى حل العقال وفى الأصل امرىء .
(٢) فى حل العقال عليه إغلاق واقفال .
(٣) هو ـ كما فى الأ...ج ـ وهب بن ناجية المرى .

إن موسى مضى ليقبس نارا　　من شعاع يلوح(١) والليل داجى
فانثنى راجعاً وقد كلم اللـــه وناجاه وهو خـير مناجى
وكذا الأمر حين(٢) يشتد بالمر　　ء يؤدى إلى سرعة الانفراج

ولغيره :

إصبر على مضض الزما　　ن وإن رمى بك فى اللجج
فلعل طرفك لايعو　　د إليك إلا بالفرج

ولغيره :

فياصاحبي رحلى على أن أراكما　　كما كنتما إن الزمان ينوب
ولا تيأسن من فرحة بعد ترحة　　فللدهر لغز حادث وخطوب
سيرحمنا مولى شعيب وصالح　　وأرحامنا تدلى بنا فتجيب

ولغيره :

خاف من فقر تعجله　　والغنى أولى لمنتظره
ليس منكورا ولا عجباً　　أن يعود الماء فى نهره

ولغيره :

ألا أيها الشاكى الذى قال مفصحا　　لقد كاد فرط اليأس أن يتلف المهج
رويدك لاتيأس من الله واصطبر　　عسى أن يوافينا على غفلة فرج

ولغيره :

من صاحب القدر اقتدر　　أولى بفوز من صبر

ولغيره :

إن ساءل الزمان سر　　الصبر عنوان الظفر

ولغيره :

---

(١) رواية الأرج من ضياء رآه .
(٢) رواية الأرج ربما ضاق بالمر ء فيتلوه سرعة .

إنى وإن عصفت بالعيش نائبة سبط التبختر بين اليأس والطمع
لا أستذم إلى صبر بهجرته ولا أسوء زمان السوء بالجزع
كم نكبة فى حشاها نعمة ويد لله نأملها من هول مطلع
وكم فزعت من الأيام ثم أتت تمد أيديها نحوى من الفزع
إذا بدت نكبة فالحظ آخرها فانظر إلى فرج للكرب ممتنع

ولغيره :

ياهاربا من زمن جائر يجنى الملمات على الحر
اصبر فما استمتعت فى مطلب بشافع خير من الصبر
وابشر فإن اليسر يأتى الفتى أقنط ما كان من اليسر

أنشدنى سعد بن محمد الأزدى لنفسه:

لايوحشنك من جميل تصبر خطب فإن الصبر فيه أحزم
العسر أكرمه ليسر بعده ولأجل عين ألف عين تكرم
لم يشك منى عسرة يوما ولا جورا ولا قلنا على مايحكم
والمرء يكره بؤسه ولعله يأتيه فيه سعادة لاتعلم

ولغيره(١) :

كانت إليك من الحوادث ذلة(٢) فاصبر لها فعلها تستغفر
إنا لنتهض(٣) الخطوب بصبرنا فالخطب يتهون لمن لايصبر
ولرب ليل بت فيه بكربة وغدا بفرجتها الصباح المسفر

ولغيره :

أدبتنى طوارق الحدثان فتجافيت عن ذنوب زمانى
كنت أشكو من الزمان خطوبا أظهرت لى جواهر الاخوان
فتبينت منهم الخير والشر وأهل الوفاء والخلان
وتوكلت فى أمورى على الله اللطيف المهيمن المنان

---

(١) هو ـ كما فى حل العقال ـ سعد بن محمد الأزدى .
(٢) فى حل العقال زلة . (٣) فى حل العقال لنمتهن .

وتيقنت أنه سوف يكفيـ ـنى صروف الدهور والأزمان
ثم يمحو بالعسر يسرا وبالنـ ـعمة ضرا كما أتى فى القران
إن تصبرت وانتظرت غياث اللـ ـه وافى كاللمح فى الأحيان
هو عونى فى كل خطب ملم عدمت فيه نصرة السلطان

ولغيره :

إن يكن خاننى اجتهادى(١) فما ذا ك على مطلب الكريم بعاد
يحرم الليث صيده وهو منه بين حد الأنياب والأظفار
ويزل السهم السديد عن القصـ ـد وما تلك زلة الأسوار
ليس كل الأقطار يروى من الغيـ ـث وإن عمها بصوت القطار(٢)
إن يخنى رشاء دلوى فقد أحكمت اكرابه بعقد مغار(٣)
أو يعد فارغاً إلى فما ألقيت إلا إلى المياه الغزار(٤)
إن أساء الزمان بى فلقد أحسنت صبرا وما أساء اختيارى
وعسى فرجة تفتح نحوى ناظر اليسر(٥) بعد طول انتظار
مالقيت الاعسار بالصبر بشرتنى وجوهه باليسار

ولغيره :

صبرا فقد تتحقق الآمال وتحول عما تكره الأحوال
إن كان قد ظفر الصدود بوصلنا فلسوف يظفر بالصدود وصال

ولغيره :

فالأمر فى معناهما واحد لذاك شكر ولذاك صبر
حتى أرى الأقدار قد فرجت وكل عسر فله يسر

---

(١) كذا فى حل العقال وفى الأصل إن أكن خبث إذا سألت .
(٢) فى حل العقال بثوب .
(٣) كذا فى حل العقال وفى الأصل اكرامه .
(٤) كذا فى حل العقال وفى الأصل القرار .
(٥) كذا فى حل العقال وفى الأصل ناصر النصر .

لغيره :

إن يأذن الله فيما بت آمله   أتى النجاح حثيثاً غير ممطول
مالى سوى الله مأمول لنائبة   والله أكرم مسئول ومأمول

لغيره:

حزنت وذو الأحزان يحرج صدره   ألا رب حزن جاء من بعده فرج
كأنك بالمحبوب قد لاح نجمه   وباليسر من بين المضايق قد خرج

لابن الرومى رحمه الله :

لعل الليالى بعد سخط من النوى   ستجمعنا فى ظل تلك المآلف
ألا إن للأيام بعد انصرافها   عواطف من إحسانها المتضاعف

وله أيضاً :

ورب جلباب هم   له من الصنع جيب
وكل خير وشر   دون العواقب غيب

ولغيره :

أقول قول حكيم   فاعرف بفهمك شرحه
كم فرجة إثر ضيق   وفرحة بعد ترحه
فالعسر يعقب يسراً   والهم يعقب فرحه
والعيش فاعلم ثلاث   غنى وأمن وصحه

لمؤلف الكتاب :

قل لمن أودى به الترح   كل هم بعده فرح
لا تضق ذرعا بنازلة   وارمها بالصبر تنفسح
غالط الأحداث مجتهداً   كل ماقد حل منتزح
وأزح بالراح طارقها   فجلاء الكربة القدح
ألق بالمزج المريح أذى   حدها إن شئت تسترح

ولغيره :

وكائن يرى من ذى هموم تفرجت   وذى غربة عن داره وهو مسعود

ولغيره :

لا يرعك الشر إن ظهرت بتهاويل (١) مخـائله
رب أمر سر آخره بعد ما ساءت أوائله

ولغيره (٢) :

فلا تجزع وإن أعسرت يوما فقد أيسرت فى زمن طويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليـل
ولا تظنن بربك ظن سوء فان الله أولى بالجميل

ولغيره :

هل الهم إلا فرجة تتفرج لها معقب يجرى إليه ويزعج
أبى لى إغضاء الجفون على القذا يقين بأن لاعسر إلا مفرج
أخطط فى ظهر الحصير كأننى أسير يخاف القتل والهم يفرج
ويا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج

ولغيره :

أجارتنا أن التعفف باليـاس فقير على استدرار دنيا بأساس
جدير بأن لايؤذيا بمذلة كريماً فان لايحوجاه إلى الناس
ولى مقلة تنفى القذا عن جفونها وتأخذ من إيحاش دهر وإيناس
أجارتنـا إن القداح كواذب وأكثر أسباب النجاح مع الياس

ولغيره :

ولا تحسبون الخير لاشر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

ولغيره :

ألا لا تموتن إغتماما وحسرة وهما إذا ما سارح الهم أجذبا
وصبرا إذا ما الجذب ليس بدائم كما لم يدم عشب لمن كان أعشبا

ولغيره :

إستقدر الله خيرا وأرضين به فبينما العسر إذ دارت مياسير

---

(١) فى الأرج بتآويل (٢) تقدمت هذه الأبيات

ولغيره :

أما علمت بأن العسر يتبعـــه يسر كما الصبر مقرون به الفرج

ولغيره :

إذا ما البين أحوجنى فليس على النوى حرج
دعى لومى على صلتى سـيقطع بيننـا حجج
سأركب هول مظلمة أفرجهـا فتنـفرج

ولغيره :

عـدا للبين موعـدنا فإن إلى غـد فرج
دنى الهجر(١) والدلج فقصـدى للمـنى يلج
ولى هم يؤرقنى على بحر له لجج
أطاف بحالك وضح عليه من البلى بهج
أقول لنفس مكتئب عليه من الردى ثبج
رضا مادمت سـالمة فإن العيش مندعج
ولا تستخفين بهـا فوجه الحق منبلج
وزور الحق يمتهن إذا دارت به اللجج
وقائلة تعـاتبنى وجنح الفجر منبلج
فقلت رويد معتبتى لـكل ملـمة فرج
ذرينى خلف قاصية تضايق بى وتنفرج
أسرك أن أكون رفعت حيث الأمر والمهج
وأنى بت يصهرنى بحر جهنم وهج
فأدرك ماقصدت له ويبقى العـار والحرج
إذا أكـدت حائلة فلى فى الأرض منعرج

---

(١) فى الأصل التهجر وهو يخل بالوزن ، وفى هذه القصيدة تحريف كثير أصلحناه حسب الإمكان .

ولغيره(١)

عسى مشرب يصفو فيروى ظمأة　　أطال صداها المنهل المتكدر
عسى بالجنوب الغاديات سنلتقى　　وبالمستلذ المستطاب سنظفر
عسى جابر العظم الكسير بلطفه　　سيرتاح للعظم الكسير فيجبر
عسى صور أمسى لها الجور دافنا　　سيبعثها عدل يجيء فتظهر
عسى الله لاتيأس من الله إنه　　يهون عليه مايعز ويكبر(٢)

ولغيره :

تحاول إذلال العزيز لأنه　　رماك بظلم واستمرت مرائره

ولغيره :

كفاك بهذا أيها المتجبر　　وإن قال فيك القائلون وأكثروا

ولغيره :

ما اشتد باب ولا ضاقت مذاهبه　　إلا أتاني وشيكا بعده الفرج

ولغيره :

إنى رأيت مغبة الصبر　　تفضى بصاحبها إلى اليسر
لابد من عسر ومن يسر　　بهما تدور دوائر الدهر
فكما يلذ اليسر صاحبه　　فكذاك فليصبر على العسر

ولغيره(٣) :

غنى النفس يكفى النفس حتى يكفها　　وإن أعسرت حتى يضربها الفقر
فما عسرة ـ فاصبر لها إن لقيتها　　بدائمة حتى يجيء لها يسر

ولغيره :

---

(١) هو كما فى الأرج ـ على بن محمد بن عبد الله الحسنى .

(٢) فى الأرج ويعسر .

(٣) هو كما فى الأرج وحل العقال ـ عثمان بن عفان رضى الله عنه وفيهما اختلاف كلمات البيتين .

ولغيره (١) :

لعمرك ما كل التعطل ضائر ... ولا كل شغل فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى ... عليك سواء فاغتنم لذة الدعه
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... ألا رب ضيق فى عواقبه سعه

ولغيره (٢) :

يقولون صبراً والتصبر شيمتى ... ألم يعلموا أن الكريم صبور
هل الدهر إلا نكبة وسلامة ... وإلا فبؤس مرة وحبور

ولغيره :

وكل كرب وإن طالت بليته ... يوماً يفرج غماه فينكشف

ولغيره :

مفتاح باب الفرج الصبر ... وكل عسر بعده يسر
والدهر لا يبقى على حالة ... فكل أمر بعده أمر
والكره (٣) تفنيه الليالى التى ... يفنى عليها الخير والشر
وكيف يبقى حال من حاله ... يسرع فيه النفع والضر

ولغيره :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان ... ويأتى أهله النائى الغريب

ولغيره :

فياليت الرياح مسخرات ... لحاجتنا تصبح أو تنوب
فتخبرنا الشمال إذا أتينا ... ويخبر أهلها عنا الجنوب

ولغيره :

الحمد لله حمداً لاشريك له ... إن الزمان لذو جمع وتفريق

---

(١) هو كما فى الأرج — محمد بن عبد الله بن عبد الحكم
(٢) هو كما فى حل العقال ـ محمد بن يعقوب
(٣) فى الأرج . والكرب

قد ينقل المرء من ضيق إلى سعة ويسلس الأمر يوما بعد تعويق
والدهر يأتى على كل بأجمعه وليس من سعة تبقى ولا ضيق

ولغيره :

ألا فاصبرن مادام فى النفس مسكة عسى فرج يأتى به الله فى غد
وإن امرأً رب السماء وكيله حرى بحسن الظن غير مبعد

ولغيره :

خلقان لا أرضى فعالهما تيه الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً وإذا افتقرت فته على الدهر
واصبر فلست بواجد خلقاً أدنى إلى فرج من الصبر

غيره :

النسل من واحد والشكل مختلف والدهر فيه بنو الدنيا على درج
إذا تضايق أمر فانتظر فرجا فاضيق الأمر أدناه إلى الفرج

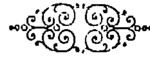
تم الكتاب والحمد لله

فهرس المواضيع

ص　　　　الموضوع

ص	الموضوع
٣٦٩ - ٣٧٠	: قصة سليمان البرقى مع عمر بن الفرج الرجحى . توسط الحجاج بن سلمة بينهما .
٣٧٠	: قصة بين على بن أبى طالب رضى الله عنه وسعيد بن قيس الهمدانى بشأن حارثة بن بدر . مدح حارثة بن بدر لسعيد بن قيس « شعر » .
٣٧١	: شعر لأبى النمير الثقفى .
٣٧٢	: قصة ماجرى لمعن بن زائدة مع عبد أسود أثناء فراره من المنصور .
٣٧٤	: حكاية قطن بن معاوية مع أبى جعفر المنصور وكيفية عفوه عنه .
٣٧٥ - ٣٧٧	: قصة سيف الدولة صاحب حلب مع البغى المسمى بالناظرى .
٣٧٧ - ٣٧٨	: قصة الحجاج الثقفى مع أبى عمرو بن العلاء . قول لأبى القمير الثعلبى فى الخليفة الوليد بن عبد الملك « شعر » وعفو الوليد عنه .
٣٧٩ - ٣٨١	: رواية زينب بنت سليمان بن على الهاشمى عن مزنة امرأة مروان بن محمد .
٣٨٢	: حكاية لأبى عبدالله الحسين بن محمد النافطانى عن رجل يدعى بأبى غالب .
٣٨٣ الباب الثالث عشر	: فيمن نالته شدة فى هواه ، فكشفها الله تعالى عنه وملكه من يهواه .
٣٨٣	: قصة خالد بن عبد الله أمير العراق مع عاشق ابنة عمه .
٣٨٤ - ٣٨٦	: قصة ابن ميمون كاتب ابراهيم بن الخليفة المقتدر .

تم فهرس المواضيع للكتاب



فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

« م »

(ن)

(هـ)

تم فهرس الأعلام

فهرس اسماء المواضع والقبائل

(ا)

(ب)

(ت)